من دين الإيمان إلى دين التاريخ



مهدي زريق

لا توجد طريقة أكثر شيوعا في التفكير، ومع ذلك، ليس هناك ما هو أكثر مدعاة للذنب من محاولة دحض الفرضية في المناقشات الفلسفية من خلال التظاهر بأن عواقبها خطيرة على الدين والأخلاق.

ديفيد هيوم رسالة في الفهم البشري

لكي تتقدم أمة عليها أن تنزع طابع القداسة عن ماضيها وتدرس تاريخها دراسة نقدية عقلانية مجردة من التكلفات وحجب العاطفة الإيمانية.

مهدي زريق

المحتويات

مدخل

لم تخالجني فكرة هذا الكتاب إلا بعد تجربة طويلة وشائكة مع الدين نظرا وأنني عشت في مجتمع مسلم مع أن أغلبيته الساحقة غير متدينة، كان لي شغف دائم ومتواصل بالنص القرآني ككتاب مقدس ومرجع أساسي لدى المسلم. لم أنشأ في مجتمع أصولي، ولم أتلقى تربية دينية، إنما لازمتني صفة حب الإطلاع والبحث في الإسلام كمنظومة محكمة وبنية تشريعية متشابكة ما انفكت تؤثر من بعيد أو من قريب في حياة مجتمعاتنا، معتقدا أنه رسالة سرمدية، وهو بالتالي فوق التاريخ ولا يخضع للدراسة التاريخية، وظنا مني وليس عن قصد، أن منظومته المعرفية أحاطت بالحقائق الدنيوية بكل أوانسها وشواردها.

لقد إزداد شغفي بالإسلام والقرآن بعد دراستي للفلسفة في الجامعة، ثم إن هذا الشغف سرعان ما تحول إلى هاجس للاهتمام بكل الديانات، سواء الإبراهيمية أو الوضعية، ومن هنا بدأت تجربتي مع الدين وبلغت ذروتها بعد أن تأثرت بالإبستيمولوجيا.* لقد كنت مهتما ولا أزال بتاريخ العلوم والأديان، فقررت أن تكون مذكرة الماجستير حول هذا الاختصاص، لأن المتأمل الرصين في تاريخ الفلسفة سيلاحظ مباشرة أنها لا تعدو أن تكون ملحمة من المعارف والأفكار، فالدين ليس سوى بنية معرفية على الصعيدين التاريخي والنفسي، هذه الفكرة كانت بداية غيرت نظرتي للدين عامة والإسلام خاصة، وبددت لي الغموض الظاهري الذي يكتنف النص القرآني وكنت قد إصطدمت به عندما شرعت في قراءته.

لقد اكتشفت أن الخطاب الديني هو رهين الظروف التاريخية، ولا يمكن لنا بأي حال من الأحوال الارتقاء به إلى ما فوق التاريخ، بل إن كل محاولة تدعو لتجريده عن بيئته يعد تعسفا وظلما له. بدأت حينها أفهم وأستوعب الأزمة النفسية التي عاشها ولا يزال العالم العربي والإسلامي، ووعيت السبب الرئيسي الذي كَبَّلَ لقرون خلت الطاقات الفكرية والإبداعية لمجتمعاتنا، والحق أنه توجد محاولات جادة وجريئة سعت لإحداث نوع من الثورة أو التمرد الفكري، إلا أن البعض منها يبقى على إستحياء، والبعض الآخر وهم السواد الأعظم، قالوا إن النقد يطال كل شيء ما عدى التراث، وآخرون لما حاولوا تقديم قراءة حديثة تعرضوا للتسفيه والتنكيل ونعتوا بالكلاب الضالة، لأنهم تمردوا ضد منهج التقليدي السلفي الذي ساهم في تعطيل ونسف آلة التفكير النقدي في المجتمعات العربية والإسلامية.

*كلمة تتكون من مفردتين epitémé تعني المعرفة و logia تعني علم. هي فرع من الفلسفة يدرس كيف تنشأ المعارف الإنسانية، وماهي الشروط والضوابط التي تحددها.

الأطروحة الرئيسية التي توصلت إليها أثناء إنجاز مذكرتي تتمثل في عدم وجود حقيقة من دون خلفية تاريخية، وذلك لا يقتصر على علم الفيزياء فحسب بل ينسحب على جميع العلوم. وعليه، فإن بنية الإنسان المعرفية خاضعة وبصفة دائمة للتطور والإرتقاء ما يجعل العلم في تقدم لا نهائي. إن كل إنجاز فلسفي أو علمي أو أدبي، يوجد وراءه تاريخ محبوك، وصراع مرير، وإرادة فذة أفرزته، فلا يوجد إنجاز متحرر من كل خلفية تاريخية أو صادر من فراغ، وذلك هو منهج الابستيمولوجيا التي تدرس تاريخ العلوم والأفكار وتحلل صيرورة المعارف الإنسانية. فكرت مليا في الأمر وقلت، ماذا لو وظفنا هذا المنهج أثناء دراستنا للنص القرآني، ماذا لو قمنا بتغيير المقاربة التقليدية التي تعتبر الدين والكتاب المقدس على أنهما مفاهيم ثابتة ولا يسرى عليهما قانون التطور، ماذا لو وضعنا الدين تحت مجهر التاريخ، ثم نعمل على دراستهما دراسة موضوعية تقوم على فك الإرتباط بالفكر الأسطوري الغيبي الذي يقدم الحقائق اللاهوتية على أنها مجموع ثوابت ميتافيزيقية فوق التاريخ.

عندما شرعت في ذلك بدأت شيئا فشيئا أكتشف أنني كنت جاهلا تماما بهذا الدين، ثم تغيرت رؤيتي له تغيرا جذريا. خلال هذه الفترة، وردتني بعض أفكار المدرسة القرآنية التي ترفض مشروعية التراث الإسلامي، ولم أفهم لماذا يستميت أصحاب هذه المدرسة في إنكاره، ثم أنني شعرت أن إنكارهم نابع من الخوف من مضمون التراث نفسه، وكنت أثناءها أتردد على مجموعة من الزملاء في المقهى ومن بينهم شخص واحد متأثر بأفكار المدرسة القرآنية وبمنهج الكاتب المصري أحمد صبحي منصور، وكان دائما ما ينزلق معهم في مجالدة وليست مجادلة حول مبدأ نفي التراث. في واقع الأمر، زميلي القرآني كان يتسم بنوع من المرونة الذهنية، إلا أنه مثل بقية المجموعة، ينظر إلى الإسلام والقرآن على أنهما فوق التاريخ، وحديثنا عن المدرسة القرآنية سيكون ضروريا، لأننا سنحدد نقاط الوهن العميقة لهذه المدرسة.

توجد مدرسة ثانية يجب الإشارة إليها لأنها مثل المدرسة القرآنية شوشت عَلَيَّ المنهج السليم في البحث، هي مدرسة الإستشراق الجديدة[1]. كانت قد خلصت هذه المدرسة إلى نتائج غريبة، يمكن حوصلتها في فكرة واحدة تتمثل في دحض الإطار المكاني الذي نشأ فيه الإسلام، أي أنه لم يظهر في شبه الجزيرة منطقة الحجاز، إنما في أقصى الشمال، إما الأردن حسب أطروحة جيبسون وكرون، وإما سوريا بالتحديد في منطقة اللاذقية حسب أطروحة ماري غاليز. إن هذه الأطروحة تبدو في الظاهر ثورية ولكنها تعاني من نقاط وهن كبيرة، ويمكن القول إنها غير منطقية.

---

[1] نقدي لن يكون موجها لمدرسة الإستشراق القديمة التي من روادها الألماني تيودور نولدكه والفرنسي بول كازنوف إضافة إلى ريجيس بلاشير. نقدي موجه بالأساس للمستشرقين الجدد مثل بتريسيا كرون مؤلفة كتاب الهاجريون وإدوارد ماري غاليز مؤلف كتاب المختار ونبيه ودان جيبسون مؤلف كتاب جغرافيا القرآن.

إن نقدي لأفكار مدرسة الإستشراق الجديدة هدفه ليس الذود عن القراءة التقليدية للتراث والتاريخ الإسلامي، الذي ساهم في تحجر الذهنية الإسلامية، وجعلها تنفر من ظاهرة التحديث والحداثة، بل لأنني أدركت كون المنهج الذي سلكته هذه المدرسة ليس سليما وفيه شيئا من التسرع وتحليل تاريخي وإبستيمولجي وأيضا فيلولوجي يقوم على رمال متحركة، ولو إلتزم منهجهم بالشروط الأساسية لهذا التحليل، لما سقطوا في أخطاء فادحة كهذه.

إن هدفي في هذا الكتاب يتمثل في نقد المقاربة الميتاتاريخية التي أفرزتها المؤسسة التقليدية السلفية، فأصبح العقل العربي الإسلامي يعيش أزمة نفسية ومعرفية حادة تتمثل في نفوره من كل مقاربة تاريخية للدين، فالمقاربة الميتاتارخية لا تقوم على علل موضوعية بل على علل سحرية، وهو مفهوم يشتمل على كل ما هو ميتافيزيقي، رافضا وجود ممهدات هيأت الأرضية الأولية ساهمت في نشأة الدين. سنحاول قراءة الاحداث والأفكار انطلاقا من نسقها التاريخي الطبيعي، وذلك لن يتحقق إذا لم ندمج الدين في التاريخ والمجتمع، الصيرورة المعرفية والنفسية، ومثلما قال دولباخ:« في كل مناسبة نبتعد عن اللجوء إلى تجربة كدليل توجيهي نسقط في الخطأ ».[2] وقوله أيضا:« الإنسان سيبقى دائما يجهل سعادته الحقيقية في صورة إهماله دراسة الطبيعة، والتعلم من قوانينها الراسخة، والبحث عن الدواء الكامن فيها لتسكين آلامه التي هي نتيجة حتمية لأخطائه الراهنة».[3]

هدفنا يتمثل في رفع الغموض الذي أحاط بأسباب وعوامل نشوء الدين، سلخه من المنطق اللاتاريخي وإعادته إلى المنطق التاريخي، من منطق النفور من التجربة والملاحظة، إلى منطق التصالح معهما. تجدر الإشارة إلى أن محاولتي هذه ليست بجديدة، فقد تطرق لها المفكر التونسي العفيف الأخضر حيث كتب:«كذلك على الباحث المسلم أن يحارب في داخله المسلم المؤمن، إيمان العجائز، ليتغلب على العائق الديني، الذي يعيقه عن الوصول إلى التفسير العلمي للظاهرة الدينية ».[4] إنتقد العفيف الأخضر الذهنية الميتافيزيقية والخرافية للمسلم، من خلال سلخ سيرة النبي محمد من التاريخ الإيماني، ووضعها داخل تاريخ استقرائي. لا شك أن المسلم التقليدي كان ولا يزال ضحية نسق تعليمي أكل عليه الدهر وشرب، نسق يعتبر نتاج المنطق الغيبي السحري، واشتغل التراث على ترسيخه طيلة قرون.

---

[2] دولباخ، نسق الطبيعة أو قوانين العالم الفيزيائي والعالم الأخلاقي، مكتبة شيكوتيمي الرقمية بكندا، ص 268.
« Toutes les fois que nous cessons de prendre l'expérience pour guide nous tombons dans l'erreur ».

[3] نفسه ص 275.
« L'homme méconnaîtra toujours son vrai bonheur tant qu'il négligera d'étudier la nature, de s'instruire de ses lois immuables, de chercher en elle seule les vrais remèdes à des maux qui sont des suites nécessaires de ses erreurs actuelles ».

[4] العفيف الأخضر من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ، منشورات الجمل بغداد 2014، ص 12.

إن القرآن ينفي الخوارقيات عن النبي محمد، إنه بشر كبقية البشر، يفرح ويسعد، يخطئ ويصيب، يغضب ويفرح، بل حتى ظاهرة الوحي هي ظاهرة منسجمة مع التاريخ، وسوف نرى كيف أكد القرآن هذه الحقيقة.

لقد تطرق كذلك لهذه المحاولة الشاعر والمفكر العراقي معروف الرصافي في كتابه الشخصية المحمدية، الذي إنتقد التاريخ قائلا: « وكذلك فعلت بي الأيام حتى أصبحت لا أقيم للتاريخ وزنا ولا أحسب له حسابا لأني رأيته بين الكذب ومناخ الضلال ومتجشم أهواء الناس، إذا نظرت فيه كنت كأني منه في كثبان من رمال الأباطيل قد تغلغلت في ذرات ضئيلة من شذور الحقيقة فيتعذر أو يتعسر على المرء أن يستخلص من طيس أباطيله ذرات شذور الحقيقة. » [5]

إن التاريخ الذي يرفضه الرصافي هو التاريخ العالق في أدران الشعوذة، والحقيقة التي غابت عنه هي الحقيقة الوضعية التي لا تتعدى حدود الطبيعة والتجربة ثم يقول متحدثا عن محمد: « وإذا دحضنا ما جاء به الرواة من الأخبار الملفقة بما يكذبها من المعقول ومن آيات القرآن لم نر في حياته ما يخرق العادة ويخالف سنة الله، التي لا تقبل التبديل ولا التحويل، أعني بسنة الله نواميس الطبيعة، بل نرى حياته كلها لم تكن إلا طبق ما تقتضيه سنة الله في خلقه. »[6] لقد حاول الرصافي في كتابه تقديم قراءة للسيرة النبوية بعيدة عن الملاحم الأسطورية مثل الألياذة والأوديسية للشاعر اليونانى هومر، وألقى بالائمة على المؤرخين الذين هم غالبا ما يخرقون نواميس الطبيعة، وشغفهم بأسطرة أحداث التاريخ والتلفيق. *

تجدر الإشارة أيضا إلى محاولة الباحثة المصرية أبكار السقاف صاحبة كتاب الدين في شبه الجزيرة، محاولة جرئية وجادة نجحت بشكل كبير في تقديم مقاربة مفادها أن الدين ليس سوى جزء من كل، قطعة داخل نسق عظيم، كما نجد في كتابها محاولة مدهشة من أجل إعادة ترتيب السور القرآنية حسب التسلسل التاريخي، بالرغم من أنه لم يوفق توفيقا تاما بين السور إلا أنه يعتبر المحاولة الأولى في العالم العربي حسب اطلاعي، فلا نستغرب مصادرة كتابها و تكفيرها حتى بعد وفاتها، لا لشيء لأنها حررت الدين من غياهب الخرافة وغربلته من شوائب الميتاتاريخ. لقد إلتزمت أبكار السقاف بشروط التحليل التاريخي والإبستيمولوجي والفيلولجي للنص القرآني الذي نستخلص منه، أن نشأة

---

[5] معروف الرصافي الشخصية المحمدية، منشورات الجمل، ألمانيا2002، ص 15

[6] نفسه ص 17.

*إن هذا الشغف هو وليد أزمة ومحنة نفسية سنتعرض لها لاحقا، عانى منها المؤرخون المسلمون وانتقلت إلى عامة المسلمين وآثارها لا تزال كامنة إلى اليوم.

الإسلام جاءت كإستجابة لأحداث أرضية وظروف إجتماعية وسياسية وإقتصادية كانت سارية في شبه الجزيرة.

إن الدراسة التي تتخذ مسافة عن المقاربة الميتاتاريخية للدين ترمي إلى تقويض الفهم الساذج الذي لطالما عانى منه العقل العربي الإسلامي ولايزال، لأنه لم يعد قادرا على التفكير بحرية. البعض يرى في إقصاء التراث السبيل الوحيد لإحداث تغيير كما تذهب إلى ذلك المدرسة القرآنية، غير أنه يستحيل اقصاءه، ولو فعلنا فإن تاريخ الإسلام وسيرة النبي محمد لن يتجوزا الصفحة، علينا الإلتزام به مع الحذر الشديد، لأن الحقيقة التي نرجو رفع الستار عنها كامنة فيه ولا تتجلى إلا عبر تصفيته وغربلته من الخوارقيات، قافين أثر المنهج التاريخي الموضوعي، ساعين إلى تجريد الموجودات من عوارضها لكي ندرك الجوهر.

إن إقصاء التراث لن يفيدنا في شيء بقدر ما سيزيد الأمر تعقيدا وسيعزز ذلك الغموض الذي يكتنف بعض آيات القرآن والإبهام في سياقاته، ذلك وأن دراسته من دون الرجوع إلى إحداثيات سنكون كمن يمشى في الصحراء بلا بوصلة تحدد له الإتجاهات، والنتيجة التيهان في غيابات الجب، ولعل دعوة المدرسة القرآنية لوضع التراث جانبا مردها وجود روايات منافية للحس السليم أو متناقضة مع القيم العامة. إن القول بأن الثراث الإسلامي يشتمل على حقائق تتعارض مع العصر ولا تنسجم مع روح الحداثة قول غير دقيق، ونتيجة لأزمة نفسية تتمثل في عزل النص عن بيئته وثقافته والإرتفاع به إلى مرتبة المثال، فالتراث هو مرآة تعكس عادات وتقاليد وأخلاقيات مجتمع عاش في حقبة تاريخية معينة والسؤال: كيف يمكن للتراث أن يرفع الغموض الكامن عن النص القرآني بالرغم من تناقضه وتضاربه؟

في واقع الأمر لا وجود لتناقض أو تضارب سواء في التراث أو في القرآن، وما نحسبه تناقضا أو تضاربا لا يعدو أن يكون تطورا في الخطاب الديني، أي أن الخطاب يتغير بتغير الوقائع التاريخية والظروف الأرضية منسجما في ذلك مع المعطيات الجديدة، و التراث وحده غير كاف لرفع الغموض بل يجب إخضاعه للتحليل التاريخي والإبستيمولوجي والفيلولجي، أي غربلته وتنقيته من خلال التمييز بين الغث والسمين، والنص ليس استثناء، فالتراث والقرآن هما وجهان لعملة واحدة، القرآن يمثل الجذور والتراث الأغصان، وأقصد بالتراث تحديدا الروايات التاريخية من سيرة نبوية ومغازي التي تأتى في المرتبة الأولى ثم الأحاديث في المرتبة الثانية، ومن هنا نفهم الخطأ الفادح الذي وقعت فيه المدرسة القرآنية بإقصائها التام للسيرة والحديث.

لو فعلنا كما قالوا فإن آيات كثيرة سنضع أمامها نقاط إستفهام في حالة عدم قراءتها داخل سياقاتها التاريخية، دعنا الآن من قضية السنة التعبدية من صلاة ووضوء ونركز على مراحل تطور الدعوة الإسلامية، فعلى سبيل المثال الآية 42 من سورة الأنفال ؛

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

العبارات في الآية تعطينا انطباعا أوليا على أنها واضحة لا تحتاج إلى تفسير، وكل شخص يقرأها يدرك مباشرة كون سياقها العام يحيل إلى التقاء أو تصادم بين مجموعتين مع تحديد للإطار المكاني (العدوة الدنيا والعدوة القصوى) وليس ضروريا أن نكون في مستوى سيبوية أو الفراهيدي لكي نفهم ظاهرها، و السؤال هنا: هل هذا الإلتقاء يعبر عن حرب بين فئتين أم هو ضرب من الصدفة أم هو تفاوض وعقد الصلح؟ وأية إجابة سيقدمها القرآني؟

حتما ! فإن الذي لم يطلع السيرة النبوية لن يفهم مغزى الآية وسيبقى في حيرة كبيرة، أما الذي اطلع عليها فسيجيبك مباشرة بأن الآية تشير إلى موقعة بدر الكبرى، الصراع بين المسلمين وقريش، إذا التزم القرآني بهذه الإجابة سنقول له؛ إنك لم تحترم المبدأ المسلم به، وهو إقصاء التراث. ستظهر الهفوات الهائلة لهذا المنهج، وسيُفتح الباب على مصراعيه للتكهنات والتأويلات الغير مجدية، ومن هنا يبدأ فهمنا لذلك الغموض والإبهام اللذان يلفان النص القرآني، ومما لاشك فيه، كثيرون لن يتقبلوا هذه الفكرة معترضين عليها بالقول : كيف يوجد غموض في النص القرآني وآيات كثيرة تصرح على أنه مبين ؟

إن هذا الغموض يتعلق أساسا بالسياق بقدر ما يتعلق بالألفاظ، مع أنه توجد ألفاظ دخيلة على القرآن أصولها غير عربية، ولكنها فيما بعد دخلت في المعجم العربي. [7] مسألة الألفاظ لن تكون الموضوع الرئيسي لبحثنا مع أنني سأتطرق إليها نظرا وأن التحليل التاريخي والإبستيمولوجي والفيلولجي يفرض علينا ذلك، غير أن التحفظات لن تزول تجاه هذه الفكرة، ذلك وأن القرآن حسب التقليد الإسلامي نزل بلسان عربي مبين. نعم إنه مبين في نظر الناس الذين عاصروه، لأن اللغة محكومة بمنظومة معرفية، أي أنها تعكس دلالات محددة في حقبة تاريخية معينة، فاللغة تتطور مع تتطور

[7] حدثنا علي بن حجر، أخبرنا عبد الرحمان بن أبي الزناد عن أبيه، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود وقال إني والله ما آمن يهود على كتابي، قال فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم.
قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
وقد روي من غير هذا الوجه عن زيد بن ثابت، وقد رواه الأعمش عن ثابت بن عبيد عن زيد ين ثابت يقول: أمرني رسول الله أن أتعلم السريانية. سنن الترمذي ضبطه وصححه خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، لبنان، رقم الحديث 2715.

المعارف الإنسانية وتقدم الزمن، فعلماء الرياضيات لديهم قاموس خاص بهم، ولن نفهم معظم مايقولونه في حال عدم إلمامنا بقواعد هذا العلم، أيضا بالنسبة للفيزياء وعلم الاجتماع والفلسفة إلخ.

لما كانت اللغة تشكل علما و ثقافة، فجلي أنها ستكون منسجمة مع علوم و ثقافة عصرها، ولما كان القرآن نصا لغويا، فسيكون بمثابة المرآة التي تعكس أحداث ومعارف وأخبار عصره لا غير، وبناء على ذلك لا يمكن الادعاء أن عددا من آيات القرآن لم تُفهم في البيئة التي نشأت فيها، ولم نفهمها إلا في عصرنا الحالي، ولو صدق هذا الادعاء، ستهضم حقوق الناس الذين عاصروا نشأة الإسلام وسنظلمهم بهكذا إدعاء، فهم لم يؤمنوا به لأنه خاطبهم بلغة مبهمة،[8] وهو ما وضحه الكاتب جلال الدين العظم: « تكشف لنا الصورة الكونية السائدة في عصر من العصور أو في مرحلة حضارية معينة، جملة النظرات العامة التي تتخلل فكر ذلك العصر وعمله وإنتاجه، أي تكشف لنا عن جملة آراء ونظرات على درجة واسعة حدا من التعميم والشمول والشيوع، يسلم بها عصر تسليما بديهيا لا شعوريا، حول أصل الإنسان ومصيره وحول الطبيعة والمعرفة والمجتمع والأخلاق و العمل وإنتاج الثروة، وبطبيعة الحال ترتبط محتويات الصورة الكونية لعصر ما بحياة الإنسان في المجتمع وتعكس إلى حد كبير نوعية العلاقات الإجتماعية القائمة فيه وطرق إنتاج الثروة و مستوى تقدم الأدوات المستخدمة في ذلك الإنتاج، كما ترتبط إرتباطا جدليا بنوعية العلوم السائدة في ذلك العصر ومستوى تقدمها، بعبارة أخرى تتأثر نظرة عصر من العصور إلى المعرفة والبحث العلمي ومناهجه بنوعية الصورة الكونية التي يتصف بها ذلك العصر.[9] وبناء عليه، فإن مضمون ولغة القرآن يمثلان صورة كونية تعكس مستوى المعارف في شتى المجالات وقع إثراءها وتنميتها من طرف مجتمع شبه الجزيرة في القرنين الخامس والسادس الميلادي ».[10]

إن الغموض المراد به هاهنا هو السياق الباطني للآية، والتحليل التاريخي والمعرفي عليه أن يستعين بالسيرة وروايات المؤرخين المسلمين لكي نتمكن من إماطة اللثام عنه، وحري أن أنبه القارئ الكريم أنني عندما أتحدث عن الظاهر والباطن لا أقصد التأويل، فالتأويل لا يتعدى القفزات البهلوانية واللعب بالكلمات، إنه محاولة لسلخ النص عن بيئته ومعناه الحقيقي، أما التحليل التاريخي فهو رحلة

[8] إن الإرتكاز على النداء القرآني المكي «يا أيها الناس" كدليل على شمولية الخطاب، قول فيه نظر من وجهين، الأولى لغة القرآن في مجملها عربية والناس حول العالم يتحدثون عشرات اللغات إن لم نقل مئات، فكيف يمكن أن يوجه خطابه للناس حول العالم بلغة واحدة مع إختلاف ألسنتهم، ثانيا قد يلقى المحدث والخطيب كلاما لجمهوره وهم في السوق أو في بطحاء قبل أن يبدأ يناديهم يا أيها الناس فهل يعنى ذلك أن كلامه موجه لكل الناس على وجه المعمورة؟ طبعا لا، وبالتالي سيظهر أن النداء القرآني لا يتعدى سكان مكة، أم القرى ومن حولها. إن هذا طرح يتأسس على مغالطة وتحليل غير دقيق، يتمثل في سلخ لغة ومضمون القرآن بالبيئة الى نشأ فيها.

[9] جلال الدين العظم نقد الفكر الديني، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ص 204.

[10] قد نجد بعض المسائل والقضايا في القرآن تختلف مع عادات وأخلاقيات عرب الجزيرة قبل الإسلام وذلك يعود للثورة التي أحدثها النبي محمد ضد المنظومة المعرفية والعقائدية والإجتماعية السائدة في عصره، إلا أنها ليست من فراغ، يعنى أنها ترتكز على الموروث السائد قبل الإسلام، وسأتطرق لهذا الجانب أثناء التحليل.

تعود بنا إلى ماض سحيق وشيق حجبته الأتربة والغبار، وألقي في بحر النسيان، هدفي هو نفض الأتربة وإحياءه مرة أخرى. قد توضح أعمال المؤرخين المسلمين قسما هاما من المادة القرآنية، فأي فائدة إذن تبقى لهذا التحليل في هذه الحالة؟ إن التراث الإسلامي في مجمله هو مزيج بين الحقيقة والخرافة، بين الواقع والخيال، بين المنطق والمعجزة، بين الواقع والفانتازيا، ولاسبيل للإرجاع الخطاب الديني إلى بيئته إلا من خلال توظيف المنهج التاريخي. إنه منهج يتضمن جانبا كبيرا من الفلسفة وعلم النفس والإجتماع، السياسة والإقتصاد، وذلك بالبحث في معاني النص والغوص فيها، تفكيكها إلى الأبسط ثم إعادة تركيبها، لنصل في آخر المطاف إلى صورة مغايرة تماما عن الدين، تختلف كلية عن القراءة التقليدية الرسمية، هو تفكير وتفلسف مستقل مع أنه في الآن نفسه يعتمد على مصادر ومراجع التراث الإسلامي، حتى نوضح أن المقاربة التاريخية للدين مبثوثة في خوافيه، إلا أن حجب الميتاتاريخ وشغف المؤرخين المسلمين بالأسطرة وحديث المعجزات طمسها. لا شك وأننا سنطأ المحظور، وسنخوض بحرا لجيا سيزعج منام من دخل في سبات عميق، وحسب نفسه أنه في حصن منيع، وعلينا تعزيز أبحاثنا بدروع متينة وسهام دقيقة. قد يسفر ذلك إلى ملحمة فكرية، إنها ملحمة صراع بين منهجين، الأول علمي وموضوعي، والثاني بقي سجين الميتاتاريخ والعلل السحرية والمقاربة الأفلاطونية، فَحَوَّلَ الأذهان إلى حجارة عصيَّة عن التحطيم. إننا لن نلتزم إلتزاما أعمى بالتراث، إنما سنحلل فصوله العريضة وسنضعها تحت محك النظر ومنطق النقد والإستقراء، والحق أنه يستحيل التحرر تحررا مطلقا من التراث ويجب الرجوع إليه لكي يستنير السياق، فبحثنا سيتراوح بين العقل والنقل.

لقد حاول معروف الرصافي التحرر نوعا ما من الرواية الإسلامية، مع ذلك عاد إليها في كثير من المناسبات، عودة حذرة تتسم بالنظرة العقلية الفاحصة الرصينة، مبينا الوهن والضعف للرواية الإسلامية،[11] بيد أنه يقر في الآن ذاته بضرورة الإعتماد عليها يقول :« إننا نريد أن نعرف محمدا كما هو وقد تقدم أن القرآن أصح ما بلغنا عنه فيجب أن نعتمد عليه في معرفة محمد أكثر من غيره، أما كتب الحديث والسير فلا يجوز الإعتماد عليها إلا بعد أن نضعها في غربال من المعقول ومن القرآن فنغربلها فما سقط منها تركناه وما بقي في الغربال أخذناه » .[12]

نجد الأسلوب الفلسفي نفسه عند العفيف الأخضر على الرغم أنه صرح بعدم نزاهة ما وصلنا عن شخصية النبي محمد، عازما على تحديد الصورة الحقيقية لسيرته الخاضعة لقانون التطور والتاريخ

[11] راجع كتاب الشخصية المحمدية فصل " وجوه الوهن في الرواية الإسلامية " حيث يعرض الكاتب علل الرواية والرواة بأسلوب نقدي وفلسفي مفصل ودقيق.
[12] ص 74.

من القرآن:« مراجعي العلمية والدينية لهذا البحث مبثوثة في ثناياه، لكن المرجع الأول هو القرآن، في قراءة غير مسبوقة بما هو سيرة ذاتية لنبي الإسلام».[13]

إن التقديس التراث والشخصيات الإسلامية شكل عائقا فكريا أمام الفهم التاريخي والعلمي للدين، ولا نفتخر بما أسسه المُحَدِثون من علوم، كعلم الجرح والتعديل بغية التمييز بين ما هو ضعيف أو موضوع أو صحيح. هيهات ! فالجرح والتعديل أصلا غير نزيه، تتجاذبه التحزبات المذهبية والميولات الشعبوية ورهين مصالح الملوك والساسة، وأفضل طريقة للخروج من هذا المأزق هي الدراسة التاريخية والتحليل الإبستيمولوجي. دافع الكاتب المصري خليل عبد الكريم عن التراث بالقول: « وسوف يلاحظ القارئ أننا أخذنا بما جاء في الكتب التراثية حجة مسلمة خاصة فيما يتعلق بالخوارق والمعجزات والمدهشات التي إرتبطت به أبى القاسم، من قبل ولادته ثم حمله فوضعه ورضاعته وطفولته وصباه».[14] ويواصل: «إن الطعن في هذه الأخبار يعطي خصومنا في الرأي سلاحا ولو أنه مغلول أننا نطعن في الأحاديث والسنة وهي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية ».[15] أستغرب صراحة من هكذا موقف وخصوصا عندما يصدر من شخصية تعتبر عمادا من أعمدة الدراسة التاريخية للإسلام، وكان قد قطع حبل السرة مع الفهم اللاعلمي لظاهرة الدين.

إن قوله الطعن في هذه الأخبار يعطي خصومنا في الرأي سلاحا، والحال أننا نمارس النقد لا الطعن، والنقد ليس بجريمة، لأنه منهج يهدف إلى تحديد الشطط والزلل، والكم الهائل من الترقيعات والتلفيقات، ووضع حد لظاهرة الأسطرة التي شلت طاقة العقل العربي والإسلامي على التفكير والإبداع، ودمرت قدرته على النقد و الإنتاج، فنحن نقدم خدمة جليلة، من خلال الإرتقاء بهذا التراث و تخليصه من الخرافات والخزعبلات حتى يصبح بنية مقننة بقوانين علمية ومنطقية متصالحة مع التجربة و الإستقراء، لأن عقل القرن الواحد والعشرين تحرر من الخرافة والأسطورة، و لم يعد يقبل بها، إنه فقط يدرسها لإشباع غريزة حب الإطلاع، علاوة على ذلك فإنه بعملنا هذا سندحر الطاعنين للتراث ونلجمهم فنجعله متناغما مع العقل والعلم. كما أننا لا نعتقد بالحجية المطلقة للتراث وإلا فما فائدة البحث والدراسة؟

لدينا تحفظ جزئي على التراث، نقر وندعم أحداثا تناقلتها السير النبوية، غير أن المعضلة تظهر عند دراستنا للمرحلة التي سبقت النبوة، مرحلة غامضة تشكل لغزا حقيقيا، فيها معلومات مشتتة لا

---

[13] سبق ذكره، ص 14.

[14] خليل عبد الكريم فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، دار مصر المحروسة الطبعة الثانية 2004، ص 19.

[15] نفسه.

تتعدى الشذرات ويطغى عليها التضبيب، ذات نفح أسطوري مستمد من الاناجيل المنحولة. نقل المؤرخ إبن إسحاق أن رؤوس الأصنام نكست يوم ولادة محمد في مكة، حكايات أشبه بحكايات هومر في الأساطير اليونانية:« فإن آية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصري من أرض الشام».[16] إن هذه الحادثة رمزية بالأساس، لأن المتأمل لما حققه محمد في آخر أيام حياته، تأسيس دولة ما كان للعرب أن يظفروا بها ولو في أحلامهم، ثم نجاحهم في دك عروش الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، نفهم بذلك المغزى الخفي لهذه الحادثة، فهي رمزية وليست تاريخية.

اقتفى إبن إسحاق أسلوب الأدباء والشعراء في توظيفهم للمجاز والرموز الإيحائية، إيحاء مبطن أن هذه الشخصية ستجعل من العرب قوة ضاربة بغزوها لمنطقة الشام. يقول عبد الكريم: « وطالبنا بقبول الأحاديث حتى المعلول منها لأنها تعكس صورة ولو تقريبية عن أحوال ذلك المجتمع المعجب».[17] وهو ما أكدناه عند مناقشتنا أفكار المدرسة القرآنية، فالأحاديث والروايات ولو كانت ضعيفة وبعيدة عن العقل، إلا أنها تفتح لنا نافذة على عادات وتقاليد المجتمع العربي وأتفق معه في هذا الجانب، إلا أننا نرفض قبولها من دون نظرة حصيفة وعين ناقدة، لأننا لو فعلنا ذلك سيفتح الباب على مصراعيه للأساطير والخرافات، وهدفنا هو غربلة الدين من الفهم الأسطوري. ثم يواصل قائلا:« إن المعجزات والأعاجيب والمدهشات والمخاريق جزء من تلك البيئة شبه المتبدية ومكون من مكونات شخصياتهم ونذهب إلى القول إن إحتقارها وتجاهلها والتعالي عليها هو المسلك أو المنزع اللاعقلاني (...)نعود فنقول إن الرجل أو المرأة أنذاك كانا أسيرا لذلك التفكير الخرافي والأسطوري الذي يؤمن بالقوى الغيبية والكائنات اللامنظورة والعوالم المستخفية».[18]

لا ننكر أن كل مجتمع وكل شعب نسج أساطيره، فالأسطورة تمثل جزء من هوية وثقافة الإنسان، بها يسافر إلى الماضي ليشكله كيفما يشاء وكيفما يريد، فهي ترسيخ لماضيه وتحقيق لكيانه وبناء لهويته، وربما لا نبالغ إذا أقررنا أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا بالأسطورة ما يكشف عن مخيلته الجامحة والجبارة لكي يسبر أغوار البدايات بوضع أولى اللبنات لأسرار الموجودات، فالأسطورة هي مغامرة العقل الأولى كما وصفها الكاتب السوري فراس السواح، اخترعها الإنسان الأول لتعطي معنى وقيمة لحياته. عندما نقول الفكر الأسطوري فإننا لا نقصد التحقير منها، بل كإحالة لحقبة زمنية كانت الأسطورة مهيمنة على أسس الفهم البشري ووصفا لأولى المحاولات لإعطاء تفسير لما يحيط حوله بالرجوع و الإستناد على الأسطورة، هدفنا ليس التقليل من شأنها، إنما نريد التأكيد على أنها مرحلة من

---

[16] السيرة النبوية لإبن إسحاق تحقيق وتعليق أحمد فريد المزيدي ص 97.
[17] سبق ذكره ص 19.
[18] نفسه.

مراحل التطور في البنية النفسية والمعرفية للإنسان، إنها شكل مبكر من علم النفس، أرشدت الناس كيف يتعاملون مع أزماتهم الباطنية، لذلك، عندما شرع كل من فرويد ويونغ في تصميم البحث المعاصر حول النفس، إتجها تاقائيا نحو الأسطورة (الميثولوجيا). لولا الأسطورة لما تقدم الفكر الإنساني ولما نجح في إرساء القواعد الأولى للفلسفة، ولقد أصاب الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت عندما وضع الأسطورة كمرحلة تتوسط السحر والفلسفة.

إن الأخذ بالشعوذات والمعجزات والأساطير كسبيل لفهم الدين وظاهرة النبوة لن يكون في صالحه، ونحن في القرن الواحد والعشرين حيث أصبح الفكر العلمي والتجريبي المحض يؤثر بشكل كبير على الأذهان، ولم يعد الإنسان الحديث يرضى بالتبريرات الغيبية والميتافيزيقية للظواهر الإجتماعية، فالدين كما سنرى هو ظاهرة إجتماعية وإصلاحية للأوضاع الأرضية السائدة، وبالتالي لن يكون مستقلا عن العلل التاريخية. قد يرى المتدين في الجانب الغيبي نبراس الدين، ولطالما يستميت في الدفاع عن عنصره الغامض والمبهم الذي يتجاوز القدرات العقلانية والقوانين المادية، إلا أن هذا الإعتقاد أصبح ساذجا ولا ينسجم مع روح العصر البتة، بل إن إضفاء النزعة الخوارقية المبهمة سيعطي فرصة سانحة لإقصائه تماما من الحياة العامة بتعلة أنه من فروع النزعة الخفية* التى أصبحت في طي النسيان. إن ظاهرة الدين والتدين تمثل مرحلة راقية من تطور المعرفة الإنسانية، والنظر إليها على أنها ضربا من ضروب النزعة الخفية وحلقة من حلقات التطور المعرفي يحتاج إلى تفسير مفصل، فالدين ظاهرة معقدة وعميقة، إنه علم بأتم معنى الكلمة، ويجب أن نعي بوطأة هذا اللفظ، فعندما نقول علم، يعنى منظومة ضخمة خاضعة لقوانين وتطور، متحرر من الميتاتاريخ، وعليه فإن دراسة الدين من منظور تاريخي، بعد أن نزيح عنه ثقل وعبئ الفكر الإعجازي، سنرتقي به حتما إلى مصاف العلوم العملية كالسياسة والإجتماع.

ثم إن الزعم بأن الرجل والمرأة في مجتمع شبه الجزيرة كانا أسيرا التفكير الخرافي الأسطوري قول غير دقيق. لقد كانت قريش ذو طبع رأس مالي و مادي صرف، وأهلها ذو معدن حسي وتجريبي من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، ثم إنني على ثقة راسخة أن تعنتهم وعنادهم أمام الدين الجديد راجع بالأساس لمنهجهم العقلاني التجريبي المحض وهو ما يدل على مدى ذكائهم وقوة بديهتهم وحسن قريحتهم، لا كما يشاع على أنهم بلهاء وكفرة، ناهيك وعدم إيمان العربي البدوي بالحياة بعد الموت

* Occultisme

والنشور والبعث[19]، فمعدنهم المادي الصرف جعلهم يروا في البعث أمرا مستحيلا عقليا، وذلك ما نقلته لنا بعض أشعارهم قبل الإسلام :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمر[20]

إن عدم خضوع العربي للفكر الأسطوري يشهد به تشكيكه لمحتوى ولغة القرآن. لقد واجه النبي محمد رجالا من ذوي العقول الجبارة والمثقفة مثل النضر إبن الحارث وإبن كلدة اللذان درسا في مدرسة جنديسابور الفارسية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس. كان رد القرشي المكي بما جاء به النبي من قصص وأخبار على أنه بانوراما أساطير، لقد وصفوا القرآن على أنه أساطير الأولين، أليس ذلك برهانا قاطعا ودليلا ساطعا يبين عدم إيمانهم الأعمى بحديث الأسطورة والخوارق؟ لا يخطر ببالنا أن تمسكهم بالمعجزة لكي يؤمنوا بمحمد رسولا من عند الله تقويضا لعقليتهم وفلسفتهم المادية الحسية بل العكس، لأن مطالبتهم بالمعجزة تعنى إلمامهم وإطلاعهم الواسعين على الملحمة التوراتية وأنبياء بنى إسرائيل، فالنبي في عرفهم لن يكون نبيا إلا إذا رافقته معجزة حسية وهو ما ترسخ بقوة في تكوينهم المعرفي والإجتماعي. ألسنا اليوم ونحن في عصر العلم و العلمنة عندما نشاهد في التلفاز برامج السحرة وما يفعلونه من حركات تنافي القوانين الطبيعية المادية وتخرق العادة نرد الفعل مباشرة بالحكم كون ما أقدموا عليه لا يتعدى الإيهام والتخييل والخدعة،[21] وردة فعل القرشيين والمكيين إزاء المعجزة لا تبتعد كثيرا عن ذهنية الإنسان الحديثة اليقظة الذكية، المدققة المنقبة، الثائرة المتمردة إزاء حديث الطلاسم والأحاجي وذلك ما نقله القرآن؛ ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ (الحجر14/13) إنه خبر تاريخي صادق، واصفا بدقة حسهم اليقظ، وعقولهم الفذة، وبصيرتهم الحادة، وعدم سرعة إنسياقهم وراء الظواهر الخارقة لمجرى الطبيعة، وكل ذلك راجع كما أكدنا لطبعهم ومعدنهم المادي الحسي، وقد إعترف عبد الكريم بهذه الحقيقة في ثنايا كتابه.[22] ولو كانوا فعلا بلهاء كما يعتقد عامة المسلمين اليوم لما تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾(يونس 38)

أما عميد الأدب العربي طه حسين، برهن أن العرب قبل الدعوة المحمدية كان لديهم مستوى متقدم من النبوغ متسائلا: « أفتظن قوما يجادلون في هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد

[19] محمود سليم الحوت في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار للنشر الطبعة الأولى، ص 114.
[20] نفسه.
[21] Illusionniste, prestidigateur (conjurer), canulare (hoax).
[22] ص 24.

لإصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة؟ كلا لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا أصحاب خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء، وأصحاب عواطف رقيقة، وعيش فيه لين ونعمة».[23]

إن حديث المعجزات والشعبذات والمخاريق لا يزال مسيطرا على المجتمع الإسلامي حتى في عصرنا الراهن، ضرب عبد الكريم مثالا لشخصية علمية كبيرة وهو جمال الدين أبو الفضل الإفريقي الملقب بابن منظور، حيث إفتتح مصنفه لسان العرب بطلمسات الكتابة وطب الحروف قائلا:«وأنه إذا تمازجت طبائع الحروف مع أفعال الكواكب المقدسة نجمت عن تمازجها أسرار تخرق عقول من لا يهتدي إليها ».[24] أتفق معه في هذا الجانب، فالمجتمعات العربية والإسلامية لا تزال في معظمها ترزح تحت الفكر الأسطوري السحري الذي نخر مناهج تفكيرها وعطّل طاقاتها النقدية، بل إنك لتجد أشخاصا لهم مستويات علمية محترمة من ماجستير ودكتوراه، وعقولهم لاتزال مكبلة بسلاسل الخرافة والشعوذة، سجينة المنظومة الإعجازية.

لقد مر العالم الغربي بهذه المرحلة، مرحلة الإبستيمولوجيا البدائية التنجيمية الخرافية، بداية من أفلاطون وأرسطو، وجثمت على الفكر الفلسفي والعلمي طيلة قرون وكبلته، ثم وقع التمرد عليها، وقع نقدها بلا هوادة بداية مع ثلة من الفلاسفة والعلماء الأفذاذ منذ نهاية عصر النهضة واستمرت طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، عصر الأنوار. وبفضل نقدهم للرواسخ الإيمانية الدينية الطفولية، حققت أوروبا في آخر المطاف ثورتها الفكرية بالتحرر المطلق مما يسمى بالثوابت، بإنتصارها على العقل الخرافي الأسطوري بعدما أن ضحت بالغالي والنفيس، والمؤسف أن شعوبنا ومجتمعاتنا لا تزال عالقة في ظلمات تلك المرحلة. لا يزال الخطاب الديني في العالم العربي والإسلامي يمثل حجرة عثرة، لقد رفض استيعاب الدرس، درس الديناميكية، لا وجود لحقائق ثابتة، إلا المتغيرة والمنفتحة على كل طارئ. إنني على يقين تام أنه وبالرغم من هذه الغمامة الحالكة الدغماء توجد أقلام تعمل في الخفاء لإستفزاز العقل العربي الإسلامي من أجل النهوض من كبوته والتمرد على الرواسخ الإيمانية وإيمان العجائز. وحتى يتم الدفاع عنها، طوقت بأسوار الخوارقيات وألغمت بتلك الحجة اللامنطقية، التي تنم عن مجتمع منهزم معنويا وفكريا، يخشى دراسة تاريخه وتراثه ودينه دراسة بموضوعية، إن النقد يطال كل ما يخطر على بالك ما عدى الدين، إنه أرض ملغومة، لا بالحجج العقلية والمنطقية بل بتقديم الإيمان على العقل والتقديس الأعمى الساذج، ولو فكرت الدخول فيها ما عليك إلا أن تتبع

---

[23] في الشعر الجاهلي، طه حسين

النهج المحدد والمفروض عليك من طرف المؤسسة الإسلامية والقراءة السلفية. إذن علينا القيام بعمل جبار من أجل نسف تلك الألغام وفسخ تلك الحدود يإنتقاد رواسخ الأعاجيز والمعجزات، لا أن نقدمها على أنها حقائق مطلقة، ونساهم في مكوث العقل العربي الإسلامي في سباته وجموده الأصولي المتشنج المتخلف المتعصب للعنف والكراهية.

لقد أشرت إلى بعض أفكار الكاتب المصري خليل عبد الكريم لأنها ساعدتنى كثيرا في بحوثي التاريخية لكل من الإسلام والقرآن، وشجعتنى لتقديم قراءة مغايرة للدين في ثنايا هذا الكتاب، ولكي نكون منصفين، فإنه يعتبر من الثائرين على المنهج التقليدي، وكان قد عرض في كتابه رؤية جديدة عن البدايات الأولى للإسلام، واعتمدت على أطروحته. يوجد دائما أوجه تقابل وتعارض بين الكتاب والباحثين والمفكرين وذلك ليس عيبا إنها هي حركة ديالكتيكية خذ وهات.

وضحت فيما سبق الخطأ الفادح الذي وقعت فيه المدرسة القرآنية بإقصائها للتراث والرواية الإسلامية، صحيح أنه غير نزيه في كثير من جوانبه وبالأخص الجانب السياسي والعقائدي إنطلاقا من دولة الخلفاء مرورا بدولة بنو أمية و العباس فضلا عما أصابه من قص وتلصيق، تحوير وتلفيق، حتى يخدم المآرب الفئوية الضيقة للملوك والحكام، ولكن علينا الإستعانة به ليس لأننا نؤمن به ونعتبره مصدرا محاط بالقداسة أو لأنه وصل إلينا عن طريق كتب ألفت من قبل عظماء كما أورد خليل عبد الكريم، بل يجب توظيفه كمادة للدراسة والتحليل التاريخي ومن ثم إسقاطها على النص القرآني، والقرآن سيكون المرجع الأول ويعاضده التراث لكي يتضح السياق، والغاية في ذلك كشف وتيرة تطور الدعوة الإسلامية والخطاب القرآني بكيفية موضوعية وتاريخية لا تمت بالنفح الأسطوري السحري.

إن التأكيد على قيمة التاريخ والتراث الإسلامي سيدفعنا لمناقشة منهج مدرسة الإستشراق الجديدة التي أشرت إليها في بداية التوطئة، نظرا وأنني سأسهب في تسليط الضوء عن أهم ما خلصوا إليه واضعا إبهامي على الهفوة الكبيرة التي سقطوا فيها. حيث نقلت مسرح الأحداث من شبه الجزيرة إلى أقصى الشمال إما الأردن أو سوريا، وذلك ما أفرزته نتائج البحوث والتنقيبات الأثرية والجغرافية المستخلصة من القرآن حسب زعمها، رافعة في آن عدم مصداقية الرواية الإسلامية وتهافت التراث للأنهما كما نوهت فضلا عن تدوينهما في مرحلة متأخرة مقارنة بالقرآن، فإن التحزبات المذهبية والإنتماءات الفرقية والتعصبات العقائدية ضربت بدرجة عالية مصداقيتها وموضوعيتها، واختلط الحابل بالنابل، فتقريبا كل ما دون وسجل وسطر في صفحات التراث متأخر بزهاء قرن ونصف قرن. ربما أولى المحاولات لكتابة وجمع السيرة إنطلقت مع المحدث المدني إبن شهاب الزهري في الربع

الأخير من الخلافة الأموية، ولكنها ضاعت ولم يبق منها أي أثر، تأتي بعدها سيرة إبن إسحاق إبن سيار أول المؤرخين المسلمين، إلا أنها وصلتنا عن طريق عبد الملك إبن هشام مؤرخ البلاط العباسي بعدما راجعها وعدلها. وبناء عليه، لا توجد سيرة معاصرة للنبي محمد والمسلمين الأوائل زامنت فترة الخلفاء أو الدولة الإسلامية في يثرب، وذلك ما دفعهم لإقصاء المصادر الإسلامية والبحث عن مصادر خارج الإسلام. في المقابل فإن رواد هؤلاء المستشرقين رأوا أن البنية الجغرافية القرآنية تتعارض مع الإطار الجغرافي المعهود والمناخ الطبيعي المعروف، وإستدلالهم ليس من فراغ إنما يرتكز على إشارات داخل النص القرآني.

كثيرا من الأوصاف نجدها في القرآن لا تنسجم مع المناخ الصحراوي الجاف، وكأن النص نشأ في بيئة زاهرة ومزدهرة مخصبة وخصبة، وبالتالي فإن أم القرى ليست مكة، والقبلة الأولى التي توجه إليها المسلمون ليست بيت المقدس (أورشليم) بل مدينة الباترا المشهورة عاصمة مملكة الأنباط. ذهب بعضهم إلى حد القول كون شخصية النبي محمد هي أصلا غير تاريخية، نظرا وأن القرآن لم يتحدث عنه كثيرا فقط في السور المدنية المتأخرة، وحسب زعمهم فإن القرآن وُضع من الخلفاء لتبرير سيطرتهم وغزوهم للشعوب التي تأسلمت طوعا أو كرها، يصبح هنا القرآن نتيجة وليس سببا. إن هذا المنظور يقوم على قطيعة إبستيمولوجية من خلال نفض قاعدة البحث من التراث ويمكن وصفها أنها متهافتة لأسباب:

أولا غياب التدقيق والتمحيص الكافيين في النص القرآني، وذلك يعود لعدم تبني التحليل التاريخي والإبستيمولوجي والفيلولوجي، ولو فعلوا ذلك لما نقلوا مسرح الأحداث وما تكبدوا كل تلك المعاناة.

ثانيا والأهم لم يدرسوا بدقة الخلفية التاريخية التي أدت إلى ظهور ونشأة الإسلام، ولم يتفطنوا أن الدين لا يعدو أن يكون ثورة ضد جملة من االأوضاع تليدة الواقع الإقتصادي السياسي والتيولوجي وبالتالي الإستجابة لمعطيات أرضية، ولو أحاطوا بهذا الجانب لما سقطوا في كل تلك التمحلات.

ثالثا لم ينتبهوا لميزة يتسم بها النص القرآني كونه مرآة صادقة تعكس إرادة ورغبة النبي محمد، فانزلقوا في خطأ فادح وهو نفي الوجود التاريخي له.

رابعا لم يخطر ببالهم أن النفسية المحمدية تعكس الصيرورة القرآنية، ولو فعلوا ذلك لعلموا كونها الشخصية ليست من وحي الخيال إنما تاريخية.

خامسا توجد أدلة دامغة في القرآن وهي من النوع الإقتصادي السياسي التيولوجي والعقائدي تقطع بأنه نشأ داخل شبه الجزيرة، لأنه وثيقة تاريخية صادقة توظف للإستدلال على مدى إتساق وإنسجام وصحة المصادر والروايات بصرف النظر عن منشأها وأصلها ولا يستدل عليها.

سادسا وأخيرا بنية القرآن المتأرجحة بين المكي والمدني، وتطوره نحويا وبلاغيا وتركيبيا وتاريخيا، تصب في مصلحة الإطار الجغرافي المتعارف عليه شبه الجزيرة العربية ومنطقة الحجاز. وعلى أية حال فإنني سأتطرق لهذه المسألة، مبينا الهفوات الهائلة في المنهج والأدلة، فالدراسة التاريخية للدين تحتم علينا مناقشة هذه الأطروحة.

سـنحاول خـلال هـذا البحـث تقـويم مـنهج التفكـير العتيـق للعقـل العـربي الإسـلامي، وتقـديم عـلاج حقـيقي للاوهـام الـتي يعـيش فيهـا، وتحريـره مـن أدران الخرافـة والأسـطورة، فـتراه يهـرع دائمـا للاتكـاء عليهـا في حالـة عـدم إيجـاده لتفسـير علـمي وموضـوعي للظـاهرة الدينيـة، سـاعين لإسـترجاع سـعادته المغتصـبة وسـكينته المفتكـة، بإنزالـه مـن السـماء إلى الأرض، فـهي موطنـه الأصـلي وكـل محاولـة للتعـالي عنهـا والانسـلاخ منهـا ترتـد عليـه بـالنكوص والخيبـة و تضاعف آلامه وأحزانه.

الباب الأول

سقطات الذهنية الإسلامية

إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا أعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الإجتماع الإنساني.[1]

عبد الرحمان ابن خلدون

[1]إبن خلدون المقدمة، تحقيق وتعليق عبد الله محمد الدرويش الطبعة الأولى 2004، ج 1 ص 92.

الفصل الأول: التمرد الفكري كمرحلة إعداد

إن الثورات السياسية على مر التاريخ التي تمخض عنها تغييرا جذريا في الأنظمة السياسية، لا يمكن لوحدها أن تلعب دور النهوض بالشعوب وتقدمها، يجب أن تكون مشفوعة بإعداد نفسي وفكري حتى تنجح وتؤتي أكلها. فعلى سبيل المثال الثورة الفرنسية إبان القرن الثامن عشر، ما كان لها أن ترى النور لو لم تسبقها مرحلة إعداد كذلك تكوين ذهني للعامة لكي يتقبلوا الأفكار الجديدة وتتناغم أفهامهم مع التحديث، وهو ما كابده فلاسفة التنوير كروسو منتسكيو ديدرو ودولباخ، والأمر نفسه في ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا، فترة التكوين والإعداد لا مناص منها. لا يوجد تحول فكري مسقط من فراغ، إنها مرحلة سبقتها مراحل، جزء من كل، ما يشكل سلما عظيما في تطور الفكر الإنساني، إنها حركة دائمة وملحمة متواصلة هما السمتين الأساسيتين للتاريخ بصفة عامة وتاريخ الأفكار بصفة خاصة، وفي حالة تجريد الفكر من هاتين السمتين، سيصاب بالشلل والإنهيار والنكسة، ويصاب التاريخ بالجمود، فيصبح الإنسان معطلا فكريا وخارج التاريخ، وتلك السقطة الكبرى للذهنية الإسلامية كما سنرى.

إن مرحلة الإعداد والتكوين أهم بكثير من الثورة، إنها تمرد فكري تؤسس لتقويض بنى الفكر التقليدية العتيقة همها الوحيد تفسير الواقع بالرجوع إلى "كن فيكون"، بنية سحرية تعقد الواقع ولا تفسره، والإحالة هنا لمصطلح الميتافيزيقا وحتى أكون دقيقا في وصفي أقول الميتافيزيقا الإسلامية التي سأركز عليها في هذا الفصل. إخضاع مصطلح الميتافيزيقا للنقد ثم التقويض ليس بجديد في الفلسفة الغربية، لأنه نال حظه بخوض معركة شعواء إنتهت بانتصار الذهنية التجريبية المادية، الموضوع إذن مفرغ منه وحسم بشكل تام لديهم وأصبح من الماضي البعيد، ولكن الوضع مختلف تماما في العالم العربي الإسلامي، على الرغم من وجود محاولات إنتقادية جادة، إلا أنها تفتقد معظمها للجرأة والصراحة الكافيين وتشعرك أنها وضعت في بحوثها حدودا حمراء في التفكير والتنقيب، والمحاولات التي لم تضع حدودا تبنت أغلبها أسلوبا نقديا غير ممنهج وغير منظم، تشعر أنه أقرب للأدب والشعر منه إلى الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة والتاريخ، لذلك فإن مرحلة الإعداد والتكوين عليها أن تعمل على تدريب الذهن لإكتساب المنهج التاريخي النقدي والحس الفلسفي الفيزيائي، ذلك وأن الفيزياء هي الوجه الآخر للتاريخ لأنها تدرس حركة الأجسام وصيرورتها، التحول في البنى وتطور الأفكار وهذا يعد حركة، أليست نضالات وثورات ورغبات المجتمعات حركة ؟

عندما ندرس التاريخ وكأننا ندرس الفيزياء، دعني أقول فيزياء السياسة الإقتصاد والمجتمع، فالتاريخ والفيزياء هما وجهين لعملة واحدة، ما يكشف عن وهن وضعف الرأي القائل أن سلوكيات المجتمعات وأخلاقياتهم لا يمكن إخضاعها لمبدأ قوانين الحركة لأنها عفوية، بلا علل أو دوافع، أو صادرة عن جملة من الثوابت، إنها ليست كذلك، وإذا تأملنا في المسألة لوجدنا العكس. إن أفعالنا ورغباتنا خاضعة وبصفة قهرية لسلسلة من الأسباب، المحيط الذي ترعرعنا فيه، العلوم التي تلقيناها، طبعنا ومزاجنا، عاداتنا وتقاليدنا، كلها تؤثر وبشكل كبير على الحركة الموالية وعلى القرار المتخذ ولو بعد حين، فالكل عبارة عن ميكانيزم عظيم نحن لسنا سوى جزءا منه، وعليه، فإن الإنسان هو صيغة متعدية، تتعدي عليه العوامل الخارجية باستمرار ومحال عزله وتجريده عن محيطه وعن الطبيعة.

إنطلاقا من هذه المقاربة تظهر سلبيات الميتافيزيقا على المجتمع، لأنها تقصي الفيزياء والتاريخ والصيرورة، وتوهم الإنسان أنه في غنى عن التبدل والمضي قدما، فتجعله موضوعا مجردا ومسقط على الواقع وليس العكس، مما يفرز أزمة نفسية لديه تبرز في تكييف الواقع وتطويعه حسب الإنسان كموضوع مجرد، بمعنى آخر، الواقع لا يشكل أفكارنا ولا يتحكم في وقرارتنا بل الثوابت تتحكم في الواقع وتشكله.

إن الدين ليس ظاهرة في نظر الإنسان العربي إنما هوية تلازمه، والهوية تساوي الثبات والجمود، فهل بمقدور الإنسان تغيير لون بشرته أو طوله أو لغته؟ مستحيل طبعا، لأنها عناصر مكونة لهويته وملازمة له. إذا يمكن إعتبار الدين في العالم العربي والإسلامي كمبدأ يحدد هوية الأفراد ليس موضوع إختيار وتفكير إنما هو قدر محتوم. هنا يثور سؤال : إذا إعتبرنا الإنسان جزء من كل وأسير العوامل الخارجية فطبيعي أن يكون الدين كذلك؟ ينبغي التمييز بحذر بين العامل الخارجي المنسجم مع الميكانيزم التاريخي الفيزيائي، والعامل الخارجي المستقل عن هذا الميكانيزم، أما الأول فهو ثمرة التجربة الإنسانية والثاني هو موضوع معطى لا دخل للتجربة فيه، الأول توصل إليه من خلال صيرورة الأحداث والثاني قُدِّمَ له كموضوع جاهز، الأول تاريخي والثاني ميتاتاريخي. وعلى غرار ذلك، تكون الميزة الأساسية للدين في العالم العربي الإسلامي، هي كسر مبادئ التاريخ الذي هو حركة، فيكون الدين فوق التاريخ والحركة، أي موضوعا جاهزا، والإشكال يضهر في دمج الميتافيزيقا بالدين و جعله فوق التاريخ غير متأثر بسلسلة الأحداث الأرضية، والتمرد لا يكون إلا من خلال الوعي بالمفهوم اللاتاريخي للدين والتحرر منه، ثم النظر إليه كمرحلة تاريخية مر بها الإنسان، فيصبح ظاهرة قابلة للدراسة وعلما من بين العلوم العملية، وتنزع عنه أخيرا صفة الأحاجي والطلاسم لكي يصبح في آخر المطاف مفهوما.

ولكن أيه علاقة بين الثورات السياسية بفهمنا وقراءتنا للدين؟ إن كل ثورة ينبغي أن تكون مسبوقة بفترة الإعداد الفكري، فهي تعمل ببطء وسلاسة على تدريب الذهن وتهيئته حتى يصبح قادرا على إعادة النظر في المقاربة التقليدية السلفية للدين، فيتحرر شيئا فشيئا من الفهم السحري الواقع خارج حدود المنطق، ويعي أن الدين ظاهرة إنسانية فريدة من نوعها إحتاج لها الإنسان عبر التاريخ كأداة تنظم المجتمع تحكمه وتسيره، إنه ثمرة التجربة الإنسانية، نعم هو قدر محتوم فرضته الظروف الأرضية. ربما هنا سنقع في تناقض لأننا قلنا أن الدين يعتبر هوويا في العالم العربي الإسلامي مما يجعله قدرا محتوما، وكأننا سقطنا في في حلقة مفرغة.

كما ميزنا بين العامل الخارجي المنسجم مع الميكانيزم وغير المنسجم معه، كذلك يجب التمييز بين القدر المحتوم الذي فرضته العوامل والأسباب الأرضية، والقدر المحتوم المسقط من طرف المقاربة الميتاتاريخية. الأول نتيجة متطلبات وإحتياجات البشر أما الثاني فلا يكترث بها، أي حتى لو لم تدفع الظروف الأرضية والتاريخية الإنسان إلى وضع الدين كحل لجملة من العقبات الإجتماعية والسياسية سيجد نفسه متدينا رغما عن أنفه، فالإنسان كائن ديني أو متدين Homo Religious، إنه ثمرة التجربة الإنسانية التي فرضها التاريخ، ولما كان التاريخ حركة لا تنتهي، فإن متطلبات الإنسان وإحتياجاته لا تنتهي أيضا، تتطور حسب الأزمنة والأمكنة. الدين إذن ليس سوى ظاهرة إنسانوية قابلة للدراسة بعد فصلها عن الميتافيزيقا والميتاتاريخ، منسجم ومساير للأحداث الأرضية، غايته الأساسية تنظيم المجتمع وتقنينه، حفظه من التشتت والتشرذم.

قد يكون ما طرحته تعريفا للدين ولكن الأفضل عدم تحديد تعريف له قبل دراسته وتفكيك الميكانيزم الذي يقوم عليه وما أطرحه هو فصله عن كل مقاربة ميتافيزيقية، ولكي تتوضح الفكرة فلنضرب مثالا بسيطا. إن الطقوس تعتبر أس الدين وجوهره، ونجد في مدن وقرى الحضارات القديمة آلهة متعدد كل مدينة لها إله خاص بها، تجأره وتتقرب إليه بتقديم القرابين. إن تعدد الآلهة بين المدن والقرى نابع من الديمقراطية الدينية، أعبد الإله الذي تريد ولا تتدخل فيما يعبده الآخرون، ولكن مع تقدم الزمن ظهرت محاولات حثيثة للرفع من شأن إله من بين الآلهة وتفريده، أطلق عليه اسم رئيس محفل الآلهة وهو مصدر الأول لتعددها وتنوعها. في بابل نجد الإله مردوخ يأتي في المقدمة ثم يتصدر البقية مراتب ثانوية، مما يفرض نوعا من النظام والتراتبية الدقيقة الصارمة. نلاحظ وأن الطقوس كطريق للتواصل مع ماهو فوق طبيعي يخدم في الأصل جانبين الأول إجتماعي، الحفاظ على التعددية الفكرية وإختلاف المعتقد فيما أعبد وما لا أعبد، والثاني سياسي، الحفاظ على الوحدة ودرء العنف وإستبعاد الفوضى من خلال وضع إله واحد فوق البقية.

إنطلاقا من هذا المثال نفهم أن العبادات التي تمثل عماد الدين تتمظهر وكأنها وسيلة إتصال بين عالم الناسوت والاهوت، إلا أنها في الحقيقة تهتم بالشأن الأرضي، وقد اصبغ عليها ثوبا ميتافيزيقيا من طرف الكهنة والأنبياء، فالإنسان قبل دخوله مرحلة الدين والتدين جلب انتباهه كل ما يحيط به من ظواهر طبيعية غامضة، وآمن بوجود قوة خفية كامنة وراء هذه الظواهر تحركها، ومع تقدم الزمن اتخذ من السماء موطنا لهذه القوة، لا تطرأ عليها الحركة، تؤثر ولا تتأثر، لا يصيبها كون ولا فساد، وهي مصدر المقدس. دائما ما يُشِّرعُ الحاكم أو الملك قوانين في مجالات متعددة بغية تحقيق التماسك والتناغم الاجتماعي، غير أن العامة قد تعتبرها نسبية ولا ترضخ إليها نظرا وأنها صادرة من حكومة أرضية، في هذه الحالة قد يكون ربطها بالسماء حلا مثاليا مما يكسبها نفحا من القدسية، فيلتزم بها العامة بلا جدال أو مماحكة، لذلك، عادة ما ينظر للأنبياء والكهنة في التاريخ القديم على أنهم رجال مصلحون همهم الثورة على ما هو سائد في مجتمعاتهم. إن كل قانون سماوي يعتبر مقدسا لأنه فوق المادة والتاريخ ولا دخل لليد البشرية فيه، وفي هذا السياق، فإن اللجوء للمقدس هو نوع من الحصول على الحصانة مصحوبة بالأمر الفوري بالالتزام والتقيد والتنفيذ لأن الآمر سيكون الله بنفسه.[1]

إن هذا الطرح ليس بجديد عند علماء الاجتماع، لدى أميل دوركايم وعلماء الأنتروبولوجيا لدة بسكال بوايا فيما يخص الدين، نفهم أن الهدف الأول لمرحلة الإعداد والتكوين يتمثل بالأساس في تغيير رؤيتنا له وإعتباره ظاهرة إنسانوية تتطلب إعادة النظر فيه. مصطلح الثورة لا يحمل في طياته وقعا على الآذان مثل مصطلح التمرد، الأول لا يتعدى القشور والمظهر الخارجي أما الثاني فهو أشد وطأة لأنه يخترق القشور فيصيب البنى والنظم الداخلية ويقلبها رأسا على عقب، قد تجد شعبا يرزح تحت نير الإستبداد ومتعطش للتحرر والديمقراطية، فيثور على النظام ولكن سرعان ما تنقلب عليه الثورة إلى وبال ويعود إلى مرحلة الإستبداد، بيد أنها ستكون مكلفة على الرصيد البشري ذلك وأنه سينزلق في حرب أهلية دامية أو سيبرز نظام أشد إستبدادا من السابق، والسبب غياب مرحلة الإعداد والتكوين، تكوين الفرد وتعليمه مبادئ حرية التفكير والنقد، فهي لا تكتسب إلا عبر رفع القيود والحواجز عن المقدس الديني، تلك الأرض التي ألغمت بحواجز وأسوار الخوارقيات، وأوهمت الإنسان العربي المسلم أنه غير قابل للنقد، فالديمقراطية ترفع لواء حرية التفكير، فلا وجود لمفهوم أو مسألة محرم الخوض فيها.

ما سمى بالربيع العربي والثورات المتعطشة للديمقراطية، أدت إلى تغيير الأنظمة السياسية، ولكن سرعان ما صعدت الأحزاب الدينية حاملة شعار المقدس على أنه الأمثل والأسمى لتسيير شؤون الناس، فانعقدت الألسن أمامه وشلت العقول، لا لشيء لأن الثورة لم تسبقها كما ذكرت مرحلة الإعداد

[1] سيد محمود القمني انتكاسة المسلمين للوثنية ص 37.

والتكوين، مرحلة جد ضرورية من أجل تحقيق التمرد الفكري. التمرد على التراث وانتقاده خطوة ضرورية للتخلص من سلاسل الفكر الأسطوري والثوابت الدينية، ومن ثم تحديث المجتمع العربي الاسلامي، لكن غياب الموقف النقدي هو الذي سنح للسلفية و رواد الإسلام السياسي أن يطلعوا علينا بعماماتهم، مما أدى إلى ردة أصولية اجتاحت العالم العربي، وهذه الردة تعود أحد أهم أسبابها هو أن الثورات العربية المعاصرة حاولت تغيير الأبنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية دون تغيير مماثل على مستوى الأبنية الثقافية والقوالب الذهنية فانقلبت إلى ثورة مضادة[2] وذلك بالضبط ما حدث في تونس منذ 2011.

لا ننكر أن للدين وظيفة إجتماعية سياسية كذلك نفسية إزاء الإنسان، إلا أن ذلك كان في مرحلة تاريخية قد مر بها، كمرحلة الإيمان بالسحر والقوى الخفية اللامنظورة و لا نشكك في الدور القيم الذي أداه في تحقيق الوحدة والسلم الإجتماعيين، فالدين كان غالبا ما يندمج أو يدمج مع الدولة أو المدينة أو الإمبراطورية فيكون دين دولة، بيد أن الرؤية تغيرت في العصر الحالي لدى السواد الأعظم، ولم يعد الدين ركيزة أساسية داخل الحياة كما أن النظم السياسية الحالية تغيرت بسبب إنتشار قيم العلمانية والحريات الفكرية الفردية حتى أن إقصاءه من الحياة العامة أصبح لا يشكل خطرا على التماسك الاجتماعي بفضل وجود دساتير وقوانين تحفظ الدولة والإستقرار الاجتماعي، ناهيك أننا نجد اليوم من يعيشون بلا دين أو لا دينيون ومع ذلك لم تضطرب نفسيتهم ولم تختل مسيرتهم الحياتية. هل يعنى ذلك أفول مهمة الدين وإضمحلاله؟ استحالة أن يضمحل الدين، ولكن ما تغير هو أنه لم يعد ظاهرة سائدة ومهيمنة على معظم المجتمعات، أي أصبح ظاهرة فردية هذا كل ما في الأمر.

يوجد تحفظ كبير تجاه لفظ النقد في العالم العربي الإسلامي، إنه يعود أولا وبالأساس للفهم المعتل والسقيم له، إضافة إلى عدم تدريب الأذهان على تقبل الجديد والخوف منه وهو راجع للبنية التقليدية العتيقة للذهنية الإسلامية، وإفتقارها للحس التاريخي البراغماتي الذي يجعل الذهن مرنا حتى يستوعب المبدأ الكوني الذي هو بحق المبدأ الوحيد يمكن إعتباره ثابتا، الحركة الدائمة والإحتياجات اللامتناهية والتغير المستمر، فضلا وأنه يجب الوعي كون مفهوم النقد ليس تهكما ولا تعديا على المقدس، إنه إعادة النظر والمراجعة وطرح فهم جديد، تحديد للنقائص والهينات التي تعاني منها الذهنية الإسلامية من أهمها وكونهم تركوا على الواضحة ووضع حد للفهم والمقاربة الميتاتاريخية.

---

[2] الانسداد التاريخي لماذا فشل مشروع التنوير في الغرب، هشام صالح ص 290.

إن التمرد الفكري أشد صعوبة من الثورة الفكرية، ففي التمرد مكابدة ومثابرة، ألم يتهم غاليليو بالهرطقة من طرف الكنيسة لأنه غير فهمنا للعالم والكون من خلال بحوثه وتجاربه العلمية، وعندما وصل الخبر لديكارت أخفى كتابه المعنون كتاب العالم لأنه يتضمن نفس النتائج التي توصل إليها. أما مارتن لوتر قوبلت إصلاحاته الدينية بالرفض الشديد واتهم كذلك بالهرطقة والقائمة تطول. ولا نظن أن العالم العربي الإسلامي لم يعرف موجة النقد والإصلاح، فمدرسة الاعتزال التي تعتبر المحاولة الأبرز، لم تنجح تجربتها لعقلنة أسس الدين ونزع الأسطرة عنه،* أيضا أبو بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي ونقده لمفهوم النبوة، وإبن رشد الفيلسوف صاحب كتاب تهافت التهافت الذي دافع فيه عن النظرة الفلسفية الجديدة للدين والثيولوجيا، كل هذه المحاولات تم لافضها من قبل المدرسة التقليدية التي ترنو للميتاتاريخ.

إن المحاولات التي تصبو لتخليص الدين من كل مقاربة ميتاتاريخة لا تزال مستمرة في العالم العربي الإسلامي، ويمكن توصيفه كصراع أفكار، صراع بين الحركة والثبات، بين الفيزياء الميتافيزياء، والسقطة الكبرى تكمن في طبيعة الذهنية الإسلامية التي تنبذ الرؤية والفهم التاريخي المتغير للدين بصفة عامة، كما أنها تتناول مفهوم المقدس من الجانب المطلق وليس النسبي، إنها ترفض الأخذ بالمقدس على أنه يختلف باختلاف عادات وتقاليد الشعوب وتراثهم، علاوة لوجود حساسية مفرطة تجاه علم التاريخ و مبدأ تاريخية الدين ونصوصه.

*إن متقدمي المعتزلة كإبراهيم النظام وثمامة إبن الأشرس كانوا أكثر جرأة مقارنة بالمتأخرين كالجبائي حيث أنكر النظام ما روي ونقل في معجزات النبي من إنشقاق قمر وتسبيح الحصى في يده ونبوع الماء من أصابعه والأجرأ من ذلك كله أنكر أن يكون القرآن معجزا في بيانه، أما ثمامة نفى أصلا ضرورة المعجزة كدليل على النبوة وذهب إلى أنه لا يحتاج النبي في الحجة على نبوته إلى أكثر من سلامة شرعه. أنظر الفرق بين الفرق باب النظام والأشرس عبد القاهر البغدادي.

مبدأ تاريخية الدين ونصوصه، يعنى أن نظمه الداخلية من تعاليم ومبادئ، أوامر ونواهي، ليست قوالب جاهزة مسقطة إسقاطا قهريا، بل مسايرة للعوامل الأرضية والظروف الوضعية ومنسجمة مع ثقافة بيئته ومجتمعه. إن هذا المبدأ يتميز بدرجة عالية من الثقة، ذلك وأنه يفحص صحة الخبر ومدى اتساقه بالعودة إلى أحوال المجتمع الفكرية والنفسية والعلمية. إنها طريقة حصيفة ورصينة، لا تقيس صحة الخبر بالنظر لمن دونه ونقله وإنما بالنظر للبيئة والمحيط اللذان تلقى منهما الناقل الخبر، ذلك هو منهج إبن خلدون الذي لا يقدس الناقل ولا يسلم لما دونه أو نقله لأنه أتحف بهالة من التهليل والإجلال من قبل معاصريه، علينا التأكد من صحة الخبر بعد مقارنته مع خبايا وخفايا زمانه. لقد تفطن إبن خلدون للأخطاء المنهجية الفادحة التي وقع فيها معظم المؤرخين المسلمين، من بينها الإعلاء من شأن الناقل، فلان عرف بالنزاهة والموضوعية، بالتالي يعتبر ما نقله صحيحا من دون مراجعة أو تثبت، فضلا عن نزوعهم للأسطرة واللامعقول :«وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لإعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط » .[4]

إن المنهج الخلدوني جمع بين التاريخ وعلم الإجتماع والفلسفة، ويمكن القول إنه قريب جدا للمنهج الذي إعتمده الشاعر معروف الرصافي، عدم قبول الخبر أو الرواية إلا بعد عرضه أو عرضها على محك النظر والتبصر، ثم التساؤل عن مدى معقوليتها وتطابقها مع أحوال عصرها من عمارة أو لغة أو أدب. والجدير بالملاحظة فإن المنهج الخلدوني سيلقى ملاذه في هذا البحث وسيمثل حجر الأساس خاصة أثناء مناقشتنا لما طرحته مدرسة الإستشراق الجديدة، ودراستنا للعوامل الوضعية لنشأة الإسلام، وسياعدنا في التحليل التاريخي والإبستيمولوجي للقرآن مع تفكيك سوره وإعادة ترتيبها حسب الصيرورة التاريخية والمؤثرات النفسية للنبي محمد.

لقد إنتقد ابن خلدون بصرامة بالغة ما تناقلته أقلام المؤرخين وألسنة الإخباريين المسلمين ولم يتوانى في وصف مادتهم بالخرافة والأسطورة مع أنه يوجد فرق كبير بينهما، عادة ما يكون المؤرخ لصيقا بالواقع والمادة، ويغربل الأخبار قبل نقلها عكس الإخباري الشغوف بقصص المعجزة، وكتاب السيرة

[3] مقدمة ابن خلدون، ج 1، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ص 92.

ليسوا استثناء، فقد طالهم النقد الخلدوني كالطبري وإبن إسحاق، إنها إشارة خفية لا يتفطن لها إلا القارئ الحصيف وهي عدم خلو السيرة من بعض الروايات الأسطورية وعلينا الحذر منها. إن مشج التاريخ الذي هو علم وضعي وأرضي محض ينظر في الأسباب والعوامل الاقتصادية والإجتماعية أيضا النفسية، بالأسطورة التي تضرب عرض الحائط بكل هذه العوامل، واعتمادها على أحجية كن فيكون، راجع بالأساس إلى تحفظ المؤرخين والفقهاء المسلمين الشديد من مبدأ تاريخية الدين ونصوصه، ثم وضعهما خارج مجال الدراسة التاريخية. ما سبب هذا التحفظ وتلك الحساسية تجاه هذا المبدأ؟ لماذا يصرون عن فصل الدين ونصوصه عن النسق التاريخي التطوري؟

كما ذكرت في الفصل السابق، عدم تدرب الذهنية الإسلامية وإعدادها على فهم واستيعاب تاريخية الأفكار وتسلسلها كان السبب المباشر في كبوتها، فلا وجود لفكرة مجردة عن كل خلفية ومنفصلة عما سبقتها، قال ابن خلدون :« فيجلبون الاخبار عن الدول، وحكايات الوقائع في العصور الأول، صورا تجردت عن موادها، وصحافا انتضيت من أغمادها».[5]إن كل فكرة، هي نتيجة تظافر جهود متقدمة عليها زمنيا، هيأت الأرضية ودمَّثَتْهَا* حتى تتولد وتتمظهر الأفكار اللاحقة، إنها قاعدة أولية في الإبستيمولوجيا التي تدرس السلم التاريخي للنظريات العلمية، إنه جدل صاعد من الأدنى إلى الأعلى بعد المرور بحلقات تتوسط هذه الحركة. نظرية أفلاطون في المعرفة أفضل مثال لكي يتضح مبدأ تاريخية الدين والنصوص، بداية من مرحلة الظن ثم الشك تليها الرياضيات وأخيرا المثال، وكان قد اختصر هذا الجدل في شكل خط عمودي مقسم إلى ثلاث أجزاء الطرف الأدنى يعبر عن الحقيقة الحسية المادية، الطرف الأعلى يعبر عن المثال أو الحقيقة الثابتة الميتافيزيقية، والطرف الأوسط يشغله علم الرياضيات الذي يوحد بين العالمين.

إن هذه النظرية جادة في طرحها، مختصرة في ذلك صراع الأفكار والموجودات، إلا أنها تجعل من الحقيقة الميتاتاريخية الغاية القصوى وهو الجانب الذي ينبغي تعديله وتحويره برفع صفة المثال والميتاتاريخ عن الحقيقة ودمجها في عجلة الحركة التاريخية والقول إنه لا توجد حقيقة مثالية بل ظرفية ووقتية، ونفتح بذلك الخط الأفلاطوني ونجعله لا نهائيا. لكن ألا نسقط في الكبوة التي تعاني منها الذهنية الإسلامية، عثرة الحقيقة المطلقة الثابتة؟

لقد سبق وأشرت أن متطلبات واحتياجات الإنسان دائمة وفي تصاعد مطرد وتتغير بتغير العمران وأحوال البيئة ما يجعل منها حركة متواصلة لا تنتهي، إن ذلك ينضوي تحت مظلة قانون التغير

---

[4] ص 83.

*ليَّنَ أو سهَّلَ، أزال الخشونة والجفاء عن الأرض.

والتطور الدائب، الذي هو القانون الأوحد الثابت دون أي قانون آخر، وكل قانون إلى تبدل وتغير عدا التطور والتغير الذي هو القانون الأزلي الأبدي أبدا مطلقا،[5] فالثابت إذن ليس الحقيقة المطلقة بل المتغيرة.

إن قبول الخبر لا لشيء لأن الناقل ثقة لا تعدو أن تكون محاولة لعزله عن بيئته وهو ما حدث مع الإسلام بالقول إنه صالح لكل الأزمنة والأمكنة وبالتالي فوق التاريخ والسبب هو أن القرآن قد سنَّ هذه القاعدة أسوة بالآية ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران/19) لما كان مصدر القرآن إلهيا والإله يكون عادة فوق النسيج السببي، ويعلم ما يصلح بعباده، فمنطقي أن الدين الذي سيختاره و سيرضاه سيكون حتما فوق النسيج السببي، لأن المطلق لا يصدر عنه سوى المطلق.

لو وضعنا القرآن تحت مجهر الدراسة التاريخية ستتغير هذه الرؤية رأسا على عقب، ولعلمنا أن الآية جاءت لتساير تغير الوضع السياسي منسجمة مع معطيات إجتماعية جديدة داخل الدولة اليثربية، ذلك وأن النبي محمد كان حريصا على توحيد الجبهة الداخلية، وتنشأ هذه الآية مباشرة بعد غزوة بدر الكبرى[6] كمحاولة جريئة وذكية تشهد بعبقرية صاحبها إزاء المتغيرات السياسية و الإجتماعية للأوضاع وتدشينا لمرحلة تاريخية جديدة طرأت على الدولة، ومعلوم أن هذه الغزوة حقق فيها المسلمون نصرا كبيرا على صناديد الأرستقراطية المكية قريش، مما شجعهم على الغزو والإغارة وقطع طريق الإيلاف، الطريق الذي تمر عبره القوافل محملة بالسلع الثمينة من توابل وحرير، فالدولة كبرت هيبتها وتعاظمت شوكتها وازدادت قوتها مما جعل من محمد قائدا عسكريا نافذ البصيرة ذو سياسة حكيمة، بقدر ما هو نبي، وتغيرت بذلك فلسفته السياسية مع غير المسلمين خاصة القبائل اليهودية في يثرب، فلم تعد للمصلحة المشتركة فائدة كبيرة ، فالسلاح قد فاض بعد بدر ولم تعد الحاجة ملحة لسلاحهم، والمال قد جاء من فداء الأسرى المكيين،[7] وكان لا بد من إزالة تناقضات دولة يثرب من تعدد عقائدي وقبلي بجمع الشمل وقلب سياسة الدولة من قبائل متحالفة إلى الدولة الموحدة.[8]

كان وضع الدولة قبل هذه الآية يتميز بنوع من الحرية الدينية، إضافة إلى ضعفها العسكري والإقتصادي مقارنة بما ستؤدي إليه نتائج غزوة بدر، والعدو الأول هو قريش وصناديدها، ثم إن كسر شوكتها فرض على محمد كقائد عسكري تحمل عبء مسؤوليته المبادرة بالتخلي التام عن الحرية، أي قبول الاختلاف الديني مع أهل الكتاب وتبنى فكرة الوحدة بإزالة الفروق والإختلاف وتوحيد مجتمع

---

[5] انتكاسة المسلمين إلى الوثنية، سبق ذكره ص 36.
[6] جلال الدين السيوطي أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولى 2002، ص 53.
[7] سيد محمود القمني حروب دولة الرسول ج الأول، الناشر مدبولي الصغير الطبعة الثانية 1996 ص 125.
[8] نفسه.

الدولة اليثربية وجعله قالبا واحدا، وعلينا أن لا نذهب للقول أن القرار المحمدي كان إختيارا نابعا من إرادته، ولكن فرض عليه فرضا بحكم الوقائع الأرضية والعوامل البيئية، فقد كان لا بد من حسم في الموقف السياسي نحو توحيد لكل العناصر، وتخليص يثرب من العناصر المناقضة للتطور الجديد، وكان لا بد من موقف باتر لكل لون من المعارضة الداخلية كخطوة إجرائية أساسية.[9] ومن هنا تظهر حنكة ومهارة محمد كقائد عسكري، أولا إلتزامه الكامل بالصيرورة التاريخية، غير متعال على المؤثرات المادية الأرضية وخاضع لها، وكنبي ثانيا بإظهاره أن هذا المتغير صدر عن إله حكيم قدير أحاط علمه بالماضي والحاضر والمستقبل، وذلك يوجه أنظارنا لتطور السياسة النبوية وتحول في نسق المعارف، إعتناق فكرة ثم اللي صفحا عنها، أو إضفاء بعض التغييرات عليها. إنها حالة نفسية تأرجحت بين الضعف والحيرة، السخط والهدوء، الحزن والفرحة، وعلى هذا النحو تكون الآية نتيجة لتحول سياسي وطفرة تاريخية، مما أدى إلى تغير في الرؤية بسبب معطيات جديدة فرضها الواقع.

لقد استوعب النبي محمد منذ السنوات الأولى لدعوته أن الدين في ظاهره يشغل الحيز الاهوتي إلا أنه في جوهره يخدم الناسوت، كإستنهاض الهمم والتحفيز على القتال، وذلك يتمظهر بجلاء عندما نعود إلى الأحداث التي سبقت معركة بدر، فبعد أن بعث كلا من بسبس بن الجهني و عدي بن أبي الزعباء الجهني يتجسسان له أخبار قافلة أبي سفيان بن حرب[10] استشار الناس وأخبرهم عن أحوال قريش، ثم استشار الأنصار أملا في نيل دعمهم الكامل في محاربتهم، لأنه كان يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا من دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو في بلادهم. قال سعد ابن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال أجل. قال : آمنا بك وصدقناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد. استبشر محمد عندما سمع هذا القول وتشجع مما أكسبه ثقة بنفسه، فأردف: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.[11]

لا شك وأننا أمام ردود أفعال تكشف عن براغماتية محمد وذكائه من خلال فرض الإنسجام بين الأحداث الأرضية والمقدس السماوي، ذلك وأنه علم سلفا مدى قيمته وأهميته في نفوس الناس، فالوعد النازل من السماء دائما ما يكتسي صفة الثبات والأزلية، إنه الوعد الحق كما وصفه القرآن

[9]نفسه.

[10]عبد الملك إبن هشام السيرة النبوية، علق عليها عمر عبد السلام تدمري ج الثاني دار الكتاب العربي، ص257.

[11]نفسه ص 258.

مرفوق بالحصانة. وهنا يثور سؤال: الأنصار بقيادة سعد إبن معاذ أظهروا الولاء والرضا لخوض المعركة ومؤازرة النبي، فلا حاجة إذا لتدخل المقدس الديني في هذه الحالة؟

إن الموافقة جاءت من طرف سعد ابن معاذ، صحيح أنه شخصية قيادية لدى الخزرج ولديه سلطة واسعة عليهم لكن ذلك لا يضمن لمحمد رضوخ كل العناصر، وطبيعي أن يتردد بعضهم ويرفض الخوض في الحرب ضد قريش ولا يلقى نداؤه الدعم الكافي، وبناء على ذلك فإن السبيل الوحيد لتبديد التردد والخوف لا يتحقق إلا من خلال تدخل المقدس وحسم الموقف.

ما ذكرناه يعتبر نبذة مقارنة بما سأتطرق إليه في الفصول التالية من أحداث ووقائع تثبت بطريقة لا لبس فيها أن محمد أن كان بشرا كبقية البشر، يخطط ويرسل الجواسيس، يصاب في حروبه وغزواته، يفكر ويستشير يمارس الخداع والتمويه من أجل نجاح دعوته، ولا شك أن شعار الفيلسوف والسياسي الإيطالي نيكولا ميكيافيل الغاية تبرر الوسيلة نجد صداه في السيرة المحمدية، ولا نستبعد أن ميكافيل تأثر ببعض سلوكياته واتخذها كنموذج في كتابه الأمير. على الرغم من ذلك لم يتوانى المؤرخون وكتاب السيرة والمغازي من جعله كائنا خوارقيا وأسطرته، عبر خرق المألوف والعادة والارتقاء به فوق التاريخ والنسيج السببي. توجد حقيقة علمية قال بها علماء الإجتماع وهي أن فهم الإنسان من خلال فهم الواقع الإجتماعي الذي عاش فيه هو الذي يجعلنا نتواصل معه أكثر، وأن كل إضافة لا واقعية مؤسطرة إلى حقيقة واقعية هي تعبير عن عدم فهمه، وعن وضع يراد حجب حقيقته في أبعادها التاريخية الإجتماعية الثقافية والدينية.[12]

لو قرأنا السيرة قراءة موضوعية ومتأنية مجردة من التقديس والإيمان الطفولي، وذلك سيكون شبه مستحيل بالنسبة للمسلم العامي لأنه لا يغلب رجاحة عقله، لوجدناه شخصية تساير الأحداث الأرضية والنواميس المادية وعدم خرقها، لوجدناه شخصية ترتكب الأخطاء ولا تخلو من معايب[13]وهو ما يؤكده النص القرآني عندما يلقي عليه باللائمة أو يعاتبه بين الفينة والأخرى، بالرغم من ذلك تجد المسلم يثور ويزمجر إذا تلقف منك هذا القول وقد يتهمك بالمروق والزندقة، وكما أكدت فإنني لا ألقي عليه باللائمة فهو لا ناقة له ولا جمل، إنما الثبور كل الثبور من المنهج الخرافي الذي كرسته المؤسسة الإسلامية عبر مؤرخيها ومحدثيها الذين سلخوا الإسلام ونبيه من إطاره الواقعي التاريخي وارتقوه به إلى إطار أسطوري ايماني غير تاريخي. إذا إطلعنا على كل ما تناقلته ألسنة المؤرخين والإخباريين لرأيناهم كيف يتنافسون على أسطرة محمد، أما الأوائل فقد كانوا أكثر تحفظا مقارنة بالمتأخرين، فمثلا ابن

[12]لفتنة المقدسة عقلية التخاصم في الدولة العربية الإسلامية، ابراهيم محمود، الطبعة الأولى يناير 1999، ص 34.
[13]الشخصية المحمدية سبق ذكره ص 17.

هشام لا يورد إلا عشر معجزات للنبي، فإن هذا العدد يتضاعف أربع مرات بعد قرنين القرن الخامس هجري عند أبي الحسن الماوردي في كتابه أعلام النبوة، ويتضاعف العدد مع أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة فيتوسع فيما ورد عند ابن هشام موجزا، فإن أولى المعجزات النبوية التي يوجزها ابن هشام في أربع أسطر عن سلام الحجر والشجر عليه ﷺ عند خروجه لقضاء حاجته يفرد لها البيهقي تحت عنوان إنقياد الشجر لنبينا محمد بابا بكامله.[14] ويتضاعف العدد مع المحدث المالكي القاضي عياض في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى حيث ذكر مائة وعشرين معجزة.[15] أما ابن الكثير فقد حافظ على عدد المعجزات ولم يذكر أخرى جديدة، ولكنه كثف في نقل روايات [16]متضاربة الأسانيد حول المعجزة الواحدة، مثلا رواية تسليم الحجر والشجر يسهب في ذكر طرقها المتعددة والمختلفة، ولا يخفى عن القارئ الذي يرجح المنطق التاريخي الوضعي على منطق المخاريق والشعبذات الموقف الحرج الذي شعر به ابن الكثير، ذلك وأن كل المعجزات التي وردت في كتب السيرة خبر آحاد، ومعلوم أن خبر الآحاد دائما ما كان موضع جدل، فخبر الآحاد غالبا ماتكون مصداقيته متدنية مقارنة بالمتواتر، ما دفع ابن الكثير إلى تعداد أخبار الآحاد حتى يظهر الخبر وكأنه حقيقة تاريخية ويقينية.

ولسائل أن يسأل، إذا كان القرآن يشهد على تاريخيته وتاريخية الإسلام ونبيه، فما كل هذا الإصرار من طرف الأصوليين على تجريدهما من كل مقاربة تاريخية وواقعية والإرتقاء بهما إلى الميتاتاريخ؟ إن ذلك يعود بالأساس إلى أزمة نفسية مفادها رفض ونبذ مبدأ تاريخية الدين ونصوصه، لأنه حسب رأيهم القول أن كلا من الإسلام والقرآن يسايران العجلة التاريخية والنسيج السببي الأرضي طعن صريح في مصداقيتهما، مما يجعل منهما مصدرين وضعيين يطرأ عليهما التغير والتعديل، وذلك لا يصلح إلا مع الأديان الوضعية، ولم يخطر ببالهم أن قيمة الدين تكمن في تصالحه مع النسيج السببي والواقع الأرضي واستجابته للمتغيرات والمتحولات، وسوف نرى كيف أن الإسلام أكثر إنسجاما وتلائميه مع الواقع خلافا لليهودية والمسيحية، وكيف أن القرآن يتميز بسمة معدومة في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ألا وهو تأريخ الأحداث ومسايرته لها، مما يجعله مرآة عاكسة لأخبار وثقافة ومعارف وآداب عصره، فعندما نقول تأريخ فذلك لا يعني أن القرآن كتاب تاريخ. قد أبالغ لو قلت إنه عندما نقرأ النص القرآني، فإننا بصدد قراءة وثيقة تاريخية، اجتماعية، ومعرفية صادقة، ومن خلاله نكتشف تطور نفسية النبي محمد بما أنه شخصية خاضعة تحت النواميس الطبيعية وليس

[14] نفسه ص 39.
[15] ص 48.
[16] ص 57.

مستقلا عنها، فمن خلال القرآن بإمكان كل باحث جدير بهذا الاسم أن يزيح ركام الخرافات التي راكمتها السيرة والمتكلمون والمفسرون.[17]

إن الأزمة النفسية التي عانى منها المؤرخون والمفسرون والمحدثون المسلمون سواء الأولين أو المتأخرين تفصح بأسلوب غير مباشر عن حالة الخوف والحيرة التي عاشوها إزاء خلو حياة محمد الحقيقية من مغامرات الأعاجيز والخوارق وعلموا مسبقا أنه بشر كالبقية خاضع للمؤثرات والعوامل التاريخية الوضعية ولم يرضوا بالقبول بهذه الحقيقة وما زاد الطين بلة هو ذلك السؤال المحرج الذي حاججتهم به نصارى الشام كيف يكون محمد نبي وهو بلا معجزات؟[18] سؤال عَمَّقَ أزمتهم النفسية، فسقطوا في أسطرة السيرة حتى يبلسموا جراحهم، ولقد أفرد سيد القمني بابا كاملا بعنوان المزايدات في قصة بدر يوضح فيه مدى الهوس والخبال الميتاتاريخي الذي انحدروا فيه، حيث أورد في هذا الباب بعض الروايات البطولية الخارقة للعادة نسوق البعض منها: ويروى أن خبيب ابن عدي ضرب يوم بدر فمال شقه فتفل عليه رسول الله ﷺ ولأمه ورده فانطبق. ثم يتقدم صاحب دلائل النبوة بمجموعة من الروايات يراها من تلك الدلائل ومنها "وعكاشة بن محسن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع في يده فأتى رسول الله فأعطاه جذلا من حطب وقال: قاتل بها يا عكاشة، فلما أخذه من يد رسول الله هزه فعاد سيفا طويل القامة شديدة المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسول الله.[19] ثم يضيف: ومثله قول حكيم بن حزام: التقينا فاقتتلنا فسمعت صوتا وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصى في الطست، وقبض النبي القبضة فرمى بها، فانهزمنا... وسمعت صوتا من السماء وقع إلى الأرض كأنه صوت حصاة من طست، فرمى رسول تلك الحصى يوم بدر فما بقي منا أحد.[20] ثم يواصل القمني قوله: وإذا كان يوم بدر، هو يوم هبوط الملأ الأعلى من الملائكة على خيولها تحمل سيوفها فلا بأس على مؤمن إن زاد فقال: " ويقال: إنه كان مع المسلمين يوم بدر من مؤمني الجن سبعون".[21] نقول إن حديث نزول الملائكة ليس بمبرر حتى نفصل الإسلام والقرآن عن الحركة التاريخية والنسق الوضعي، وذلك لا يعنى أن ننكر ما جاء في القرآن من نزول الملائكة ومعاضدتهم المسلمين، بل نقول إن ذلك راجع إلى مدى حنكة ودهاء النبي محمد على فهم الوضعية الحرجة للمسلمين قبل المعركة و في خضمها، فالمسلمون كانوا أقل عددا و وفرة من مقاتلي قريش يوم بدر وسرعان ما شعر النبي بحساسية المسألة، مما قد يحمل المسلمين على النكوص ويفقدوا الثقة بأنفسهم، فسرعان ماستوعب حقيقة

[17] من محمد الايمان إلى محمد التاريخ سبق ذكره، ص 15.
[18] نفسه.
[19] حروب دولة الرسول ج 1 سبق ذكره ص 99.
[20] نفسه
[21] نفسه

كون العامل النفسي له تأثير عظيم مقارنة بالعامل العسكري ثم إلحاق الهزيمة بالعدو، يؤكد القرآن تلك الحالة النفسية المرتبكة المتخبطة للمسلمين ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الانفال 11/10).

إن حديث الملائكة ليس سوى طمأنة للقلوب وتثبيتا للأقدام، كما أنه إستنهاض للهمم وتحفيز على القتال، إنه دمج بين السماء والأرض ليخدم في آخر المطاف الجانب النفسي والعسكري و السياسي، ولقد أشار تقريبا معظم كتاب السيرة أن رجالا من الأنصار شعروا بالخوف على النبي فجعلوا له عريشا فوق تلة لكي يحتمي بها : وقال ابن اسحاق وغيره : كان سعد ابن معاذ رضي الله عنه واقفا على باب العريش متقلدا بالسيف ومعه رجالا من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفا عليه من أن يدهمه العدو من المشركين.[22] ما يبين اضطرابهم وحيرتهم، فمن جهة ينقلون أخبارا وروايات تثبت تاريخية وبشرية محمد، ومن جهة أخرى ينزلقون في الميتاتاريخ وذلك نابع كما قلنا من أزمتهم النفسية الحادة. وبمناسبة حديثنا عن الأزمة النفسية لا شك وأن ما انتهت اليه بحوث فرويد، توضح لنا أكثر نزعة المؤرخين المسلمين الميتاتاريخية وشغفهم بالأسطورة من خلال دراسته لموسى ومذهب التوحيد والأبعاد الاجتماعية لهذا البطل ومهم ذكر ما كتبه: إن جميع الشعوب المتدينة تقريبا قد عظمت في الشعر والأسطورة من باكر الأزمان أبطالها، الملوك والأمراء الأسطوريين مؤسسي الديانات أو السلالات المالكة أو الحواضر، وباختصار أبائها القوميين. فقد راق لها، بوجه خاص، أن تسبغ على تاريخ ميلاده هؤلاء الأبطال وحداثتهم ملامح خارقة. ومن الحقائق المعروفة منذ طويل الأزمان والتى لفتت انتباه عديد من العلماء التشابه المذهل بل التطابق في تلك القصص بين شعوب متباينة تفصل بينها مسافات طويلة.[23]

إن توسع الدولة الإسلامية بغزوها البلدان والشعوب المجاورة التي كانت أصلا على دين النصرانية أو اليهودية أو المجوسية، وضع المسلمين أمام تحدي كبير، أدبهم الأسطوري التوراتي الإنجيلي الذي يطفح بقصص أعاجيز أنبياء بنى اسرائيل والحال أنها كانت ذو طبيعة حسية مادية، أما نبي الإسلام فإن معجزته لغوية بلاغية تتمثل في القرآن، وتلك معضلة كبرى شكلت شوكة أمام المشروع السياسي الذي رفع رايته الإسلام منذ اللحظات الأولى للدعوة ألا وهو سيادة العرب والعجم وامتلاك

[22] بن الكثير البداية والنهاية، مكتبة المعارف، 1991 ج الثالث، ص 271
[23] موسى والتوحيد، سيغموند فرويد.

كنوز كسرى وقيصر، ذلك وأن المعجزة البلاغية منحصرة في أهلها الذين يتقنون لغة النص وهي بلا قيمة تذكر لدى الشعوب الأخرى لعجمة لسانها وجهلها بالعربية، فلا سبيل لانصهار المجتمعات والثقافات الجديدة في الدولة الإسلامية إلا عبر اقتناعهم بالإسلام وذلك لن يتم إلا بالمعجزة الحسية،[24]ومن هنا بدأ مشروع أسطرة الإسلام ورسوله من خلال سلخهما من منطق التاريخ ودمجهما في منطق الميتاتاريخ، وتجاوز كل الحدود بدفاع المؤرخين المسلمين عن الشعبذات والبهلوانيات، مما رسخ الفكر السحري الغرائبي. أخيرا، أصيب العقل العربي الإسلامي بالشلل التام.

كانت فترة حكم الخليفة العباسي المتوكل خلال القرن الثالث هجري التاسع ميلادي انتصارا للأسطورة، إسلام الحديث على العقل إسلام المعتزلة، لقد أحدث نكسة في الذهنية العربية الإسلامية آثارها بادية إلى اليوم، إعادة تأسيس الإسلام كديانة معجزات ونبوءات مثل اليهودية والمسيحية، فعلي ابن ربن الطبري -في كتابه الدين والدولة في اثبات نبوة محمد- بعد تكليف رسمي من المتوكل أخذ على عاتقه أسطرة الإسلام ونبيه، ونظرا أنه نصراني سابق كان مؤهلا أكثر من غيره لإعادة رسم صورة الرسول تحت ضلال الميتاتاريخ واجتثاثه من التاريخ.[25] تواصلت عملية الأسطرة إلى حد تجريد نبي الإسلام من بشريته وتأليهه وأعطيت الأولوية للرسول على الرسالة، ولم يعد الإسلام دين الله إنما دين محمد أو ما يصطلح عليه بالشريعة المحمدية.* في الواقع، فإن جوهر الإسلام أكثر عقلانية ومنطقية مقارنة باليهودية والمسيحية، وقولي ليس نابع من تحيز أو لا موضوعية بل من أدلة وشواهد تاريخية ومادية سأتطرق لها في الفصول القادمة، فإذا أردت أيها القارئ الكريم أن تعلم لماذا الإسلام أكثر عقلانية؟ فصبرا جميلا.

كان من الأفضل للعلماء المسلمين المتأخرين دراسة النص القرآني دراسة تاريخية منسجمة مع العوامل والمؤثرات الخارجية، كان عليهم إعادة النظر في التاريخ الإسلامي وغربلته من قصص الخرافة، كان عليهم تبنى المنهج العلمي الموضوعي في تفاسيرهم وأعمالهم من خلال إعادة ترتيب سوره ترتيبا يخضع للحركة التاريخية والانفعالات النفسية، ولو فعلوا ذلك لساهموا في إخراج العقل العربي من سباته ولتمكنوا من إزاحة حجرة العثرة التي ضاعفت تكبيل وتقييد الذهنية العربية الإسلامية، وذلك برفع هالة التقديس التي وضعها الأوائل حول التاريخ الإسلامي، بيد أن المشروع السياسي التوسعي للدولة غلب المشروع النهضوي العقلاني، فالشرط الأولي لكي تنهض الشعوب هو إعادة النظر في

[24] المعجزة أو سبات العقل في الإسلام ص 165-166.

[25]ص 170-171.

*لقد حاول التيار العقلاني منذ عصر المتوكل وبعده التصدي لتيار الميتاتاريخ والأسطورة بالرجوع لإسلام القرآن الخالي من الأعاجيز والشعبذات، وهي محاولة لإعادة الإسلام والقرآن لسياقه التاريخي وسموا بالقرآنيين، غير أن هذا التيار يختلف كثيرا مع القرآنيين الذين ينكرون التراث الإسلامي والسنة.

تاريخها وديانتها، ونحن نوافق العفيف الأخضر في قوله لولا البحوث الغربية حول الإسلام والقرآن لبقينا نجهل الكثير عنهما، لا ننكر أن ما قدمه ثلة من العلماء المسلمين ساهم نوعا ما في رسم الإطار العام للدين، خاصة أعمال السيوطي والواحدي حول أسباب نزول الآيات، لكن ذلك يبقى غير كاف أو دعنا نقول قطرة في محيط، علما أنهما لم يقدما على تحقيق الأهم المتمثل في ترتيب السور القرآنية ترتيبا تاريخيا، وهنا تظهر سقطة أخرى للذهنية العربية الإسلامية هو العجز التام عن تنظيم الأفكار والربط بينها ربطا منطقيا وعقلانيا والسبب هو عجز المثقف العربي عن الكتابة بالمفاهيم العقلانية المنتجة للعقلانية الفلسفية والعلمية وللأخلاق النفعية، وفي نظر العفيف الأخضر فإن ذلك عائد بالأساس إلى تأثير القرآن الذي يغيب فيه الرابط المنطقي بين السور والآيات فضلا عن رمزية الله الفعال لما يريد كيف يريد ومتى يريد، سلاحه الوحيد هو الفكر السحري، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، أي إرغام الواقع على إعطاء نتائج مخالفة لقوانينه.[25]

ما ذكره العفيف الأخضر جد مهم، فهو يعتبر تشخيصا عميقا لعيوب وسقطات الذهنية العربية الإسلامية، وهذه السقطات يمكن عرضها من خلال نظرية معرفية تعتبر العمود الفقري للعقل البشري ألا وهي علائقية الأفكار.[26] لقد أسهب الفيلسوف الإنجليزي دايفيد هيوم في شرحها :« (...) أثناء الكتابة السردية ينبغي للأحداث والأفعال التي ينقلها الكاتب أن تخضع للترابط والتلاحم لتكوين ضرب من الوحدة والتناغم وذلك هو هدف الكاتب وغايته ويجب أن يعمل على الإلتزام بها منذ البداية (...) عندما يشرع المؤرخ في كتابة تاريخ أوروبا خلال حقبة زمنية معينة سيكون تحت تأثير مبدأ العلاقة الجامعة بين الزمان والمكان، وكل الأحداث والوقائع التي سيسردها لن تخرق الإطار الزماني والمكاني التي دارت فيه تلك الأحداث والوقائع حتى وإن كانت مختلفة ومتضاربة (...) إلا أن العلاقة المعتادون عليها أكثر من غيرها في الكتابة السردية هي علاقة السبب بالنتيجة، يستطيع المؤرخ من خلالها إقتفاء سلسلة الأحداث بأسلوب تصاعدي فيبلغ الحلقة الأولى للسلسلة (...) وعليه أن يتجنب وقوع شرخ في سلسلة الأحداث التي يسردها لقرائه وكلما كانت السلسلة مترابطة وملتحمة كلما كانت أقرب للمنطق (...) يبدو وأنه في كل الأعمال الأقرب من الملحمة منها إلى التراجيديا ينبغي وجود نوع من الوحدة. ولا سبيل لكي نسمح لأفكارنا للدخول في مغامرة غير محسوبة العواقب إذا أردنا إنتاج عمل يوفر للإنسانية الترفيه الدائم. ويبدو أن كاتب سيرة أخيل* عليه الربط بين الأحداث وإظهار اللحمة والتماسك بينها».[27]

---

[25] من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ سبق ذكره، ص 25.

[26] Association des idées.

*شخصية بطولية في الأسطورة اليونانية.

[27] دايفيد هيوم رسالة في الفهم البشري ص 22-23 الكتاب إلكتروني ترجم من الإنجليزية إلى الفرنسية من طرف فليب فوليو سنة 2002.

إن مبدأ علائقية الأفكار يعتبر حجر الأساس بالنسبة للعقل البشري لأنه يترجم عن السبب والنتيجة، عن التركيبة الإبستيمولوجية للعقل وتاريخية الفكر، لا وجود للإنجاز أو اكتشاف صادر من فراغ أو بضربة سحرية، بل هو ثمرة تظافر جملة من الظروف والعوامل المتداخلة، ما يجعلنا أمام نسق أو ميكانيزم عظيم يتطلب الدراسة والتحليل انطلاقا من منهج علمي وفلسفي صارم، ومن هنا نستوعب أكثر سقطات الذهنية العربية الإسلامية، تظهر في الغياب الكامل للتسلسل التاريخي والمنطقي أثناء دراسة الدين والاستناد على المقاربة السحرية الغامضة، إيمانا وأنه فوق التاريخ. وما الآية 19 من سورة آل عمران التي غالبا ما يستدل بها لإثبات أن الإسلام دين أزلي، هي في الحقيقة مجرد انعكاس لظرف وحدث سياسي فرض على النبي في المدينة، فنشأت الآية من أجل خدمة مصلحة الدولة. سنكشف في قادم الفصول كون الآيات القرآنية ليست سوى انعكاسا للصيرورة التاريخية والإجتماعية، وذلك ليس بجديد عن المؤسسة الإسلامية، لأنه ينضوي تحت دراسة أسباب نزول الآيات، دراسة تشير إلى تاريخية النص القرآني.

إن دراسة أسباب نزول الآيات طريقة تكشف عن تاريخية النص، صيرورته وتطوره مجاريا في ذلك متغيرات الوقائع والأحداث وعدم ثباته، فمن خلال هذه الدراسة نتمكن من رفع الحجب التي أحيطت به ومسحة الإبهام والغموض التى أصبغت عليه. ولئن أكدت أنهما معنيان بالسياق الظاهري للقرآن، أي أن فهمنا للآيات لا يختل، فقط الإطار الزماني والمكاني معنيان بذلك الغموض والإبهام، فإن الواحدي يذهب أبعد من ذلك ويعلن صراحة أنه سيكون صعبا إن لم نقل مستحلا تفسير الآيات وفهمها:«غير أن الرغبات اليوم عن علوم القرآن صادفة كاذبة فيها، قد عجزت قوى الملام عن تلافيها، فآل الأمر بنا إلى إفادة المبتدئين بعلوم الكتاب إبانة ما أنزل فيه من الأسباب، إذ هي أوفي ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها. لإمتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ».[28]

إن دراسة أسباب نزول الآيات يضعنا داخل النسيج التاريخي السببي للنص وهو يرتكز على نظرية علائقية الأفكار التي تمثل العمود الفقري للمعرفة والعقل البشري، ولقد تفطن الواحدي أن عدم الإلمام بأسباب النزول يعتبر معضلة كبيرة ويسقطنا في مغالطات جمة، ذلك وأن عدم الإحاطة بالنسيج التاريخي للنص سيعطى فرصة ثمينة لمن يرغب في التلاعب بمفاهيمه وسياقاته لخدمة مآربه وهو ما حصل بالفعل طيلة التاريخ الإسلامي. إن المطلع على التاريخ الإسلامي سيجلب إنتباهه ذلك الصراع المرير والجدال الكبير بين الفرق الإسلامية، بين متكلمين و سلفية أشعرية وشيعة خوارج ومرجئة، واللافت أن الكل يعتمد على القرآن كمرجع أولي، ولو تفحصنا الآيات المعتمد عليها لوجدناها متفقة مع عقيدة كل فرقة ومنسجمة مع فلسفة كل مقالة، ولسائل أن يسأل، إذا كان القرآن كتابا واحدا غايته الهداية والإصلاح ورفع الاختلاف ولجم الأفاكين، فلماذا نجده يدعم أقوال الفرق الإسلامية رغم تناقضاتها الصارخة ؟ تنطبق عليه مقولة الفيلسوف ابن رشد :

يوم يمان إذا لقيت ذي يمن وإذا لقيت معديا فعدناني

إن الخبط العشوائي الذي عاشه المتكلمون المسلمون زهاء قرنين بين التخيير والتسيير بين العلم الإلهي المطلق والنسبي، بين التجسيم والتنزيه، يعود أساسا إلى تاريخية النص، تطوره وتغيره،

[28] الواحدي أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1991 ص 10.

صيرورته وارتقائه، استجابة للحوادث الأرضية والظروف الاجتماعية وترجمانا صادقا للحالة النفسية والمكتسبات المعرفية للنبي، فالقرآن هو لا شعور محمد، بكل متشابهاته والتباساته وتناقضاته الوجدانية، وتقلبه من النقيض إلى النقيض، من التسيير إلى التخيير.[29] إن هذا القول يحيلنا إلى بشرية نبي الإسلام، والبشر متقلب الأحاسيس والنوازع، هو موضوع تتعدى عليه المؤثرات الخارجية والانفعالات النفسية والتجاذبات المادية، والبشر ليسوا بكائنات مستقلة ثابتة بل متصلة بالمادة تتغير حسب تغير المعطيات الأرضية والبيئة، وذلك يعنى بالضرورة وجوب تبنى فكرة ثم تعديلها في حال ظهور جزئيات جديدة تعارضها أو التخلي عنها كليا إذا ثبت عدم جدواها مع تقدم الزمن، وهذا يحيلنا بدوره للتاريخ ويقصي تماما الميتاتاريخ، فالقرآن هو نتيجة لتطور النفسية المحمدية، وبناء عليه، فإن تخبط المتكلمين والاصوليين السلفيين، سببه المباشر هو سلخ وتجريد النص عن سلمه التاريخي والارتقاء به فوق الأحداث الأرضية والانفعالات النفسية والتعامل معه كنص جامد أزلي. لو تأملنا في هذه المسألة بتعمق سنلاحظ أنها غير بعيدة عن التحزبات المذهبية والتحالفات السياسية، **ففلسفة التسيير تبرر بأسلوب غير مباشر استلاء الأمويين على السلطة والمجازر التي اقترفوها، أما فلسفة التخيير جاءت لتخدم مصالح العباسيين ضد الأمويين**، وفي هذا السياق يقول الواحدي:« و أما اليوم فكل أحد يخترع شيئا ويختلق إفكا وكذبا ملقيا زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب نزول الآية. وذلك الذي حدا بي إلى إملاء هذا الكتاب الجامع للأسباب، لينتهيَ إليه طالبوا هذا الشأن والمتكلمون في نزول هذا القرآن، فيعرفوا الصدق ويستغنوا عن التمويه والكذب ويجِدُوا في تحفظه بعد السماع والطلب».[30]

لئن كانت دراسة أسباب النزول، علما وأنها تبقى ناقصة في العديد من جوانبها، غير أنها تعتبر من بين أعظم الأعمال التي أنجزها المفسرون المسلمون، فهي تميط اللثام عن العلاقة المتينة الرابطة بين القرآن وبيئته، معالجا العقبات التي تعترضه على مختلف الأصعدة، لذلك فإن القرآن هو وثيقة تاريخية تتضمن جملة من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الجذرية وثورة على السائد بقيادة النبي محمد، ولو انتهج المؤرخون المسلمون المنهج التاريخي في دراستهم وتفسيرهم للقرآن وتحليلهم للسيرة، لأدركوا أن معجزة القرآن الحقيقية والتي لا ريب فيها هي تناوله و معالجتة للمسائل الأرضية مع تطور خطابه وتبدل أسلوبه، آخذا في حسبانه التجارب الماضية، متعظا من مواجهاته السابقة، موظفا

[29] من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ ص 15.
[30] أسباب النزول ص 11.

الأسلوب الحجاجي الوجداني أثناء رده على أهل الديانات، والأسلوب المنطقي في تبيان تهافت أفكار وعقائد المكيين.

إن معجزة محمد الوحيدة هي توحيد شمل القبائل العربية ولَمِّ شعثهم واستئصال النعرات الطائفية وإحداث نهضة كبرى بإثبات الشخصية العربية وهويتها، الخروج من عالم البداوة واقتحام عالم الحضارة والمدينة. ما يلفت الإنتباه في التراث الإسلامي، هو ضحالة الكتب التي تدرس وتوضح علل وأسباب نزول الآيات، فقط الواحدي وبعده السيوطي خاضا غمار تجربته، والسؤال الذي ينبغي علينا طرحه ؛ لماذا لم يهتم المسلمون الأوائل بهذه المسألة ؟ لماذا لم يتركوا للأجيال اللاحقة مصنفات عديدة كمصنفات الحديث والتفسير والسيرة ؟ لماذا لم يبدعوا في هذا الإختصاص الذي يعد بحق علما قائما بذاته ؟

يعزو الواحدي مصاعب دراسة علل وأسباب نزول الآيات إلى احتراز السلف عن القول في نزول الآية، كما يعزوها لوفاة معظم الذين يعلمون فيمن نزلت الآيات.[31] إلا أن ذلك يعتبر مجردة تبريرات غير منطقية، فكيف نفسر وجود آلاف الأحاديث من صحيح وحسن ضعيف وموضوع؟ مع تواجد روايات مفصلة ودقيقة للسير والمغازي؟ فضلا عن حفظ المسلمين الأوائل للقرآن جمعه وتدوينه، ألم يكن في مقدورهم تدوين فيمن نزلت الآية وسبب نزولها ؟

الحقيقة أنه وقع صرف النظر عن هذه الدراسة القيمة، التضبيب والتعمية عليها، ذلك وأن القول بأسباب النزول يعنى دمج القرآن بالأرض، أو بالأحرى المقدس يتأثر بالوضعانية، والوضعانية هي الظروف المادية النسبية التي يطرأ عليها التبدل والتغير، إنها حقيقة غير ثابتة لأنها تتغير بتغير العمران، الثقافة، العادات، التقاليد، والنص مقدس فوق التاريخ، إنه ضرب من الميتاتاريخ ومصدره السماء لا الأرض. ثم إن القول بأسباب النزول يدخل النص في النسيج السببي، عجلة التاريخ والحركة، إنما المطلوب هو سلخه عن محيطه والتعالي به إلى ما فوق بيئته، بجعله نموذجا ومثالا صالحا لكل الأزمنة والأمكنة، وفي صورة قولنا أن سبب نزول الآية هو وليد الضرورات الأرضية والمصلحة السياسية كما أوردناه مع الآية 19 من سورة آل عمران، سينجر عنه تحكم الأرض في السماء، أو بعبارة الفيلسوف الألماني نيتشه قلب الأفلاطونية، فنقول السماء تحاكي الأرض لا العكس، مما سيجعل من النص نتيجة للحاجيات والرغبات الإنسانية، أو بالأحرى سيجعل من النص شأنا إنسانويا محضا وهو أمر خطير للغاية في العقيدة الإسلامية، وبالتحديد في الإسلام السني الأشعري.

[31] نفسه.

لو اطلعنا على التعريف المصاغ للقرآن من قبل المتكلمين والفقهاء الأوائل سنلاحظ أنه تتطور مع الزمن وطرأت عليه بعض التعديلات، حسب العقيدة الإسلامية القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى نزل به جبريل على نبينا محمد ﷺ وهو المكتوب في المصحف المبدوء بسورة الفاتحة المختتم بسورة الناس.[32] أما التعريف الثاني فلا يختلف كثيرا عن الأول مع تعديل طفيف، القرآن هو كلام الله تعالى ووحيه المنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ المكتوب في المصحف، المكتوب في المصحف المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدي بإعجازه، أما التعريف الثالث القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، المنزل على النبي محمد ﷺ باللغة العربية، المعجزة المؤيدة له، المتحدي به العرب، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر.[33]

نلاحظ أن التعديل الذي ألحق بالتعريف الثاني والثالث يكمن في كلمتين الأولى خاتم الأنبياء والثانية غير مخلوق، وهما صيغتان نعتيتان، الأولى حملت على النبي صفة ختم النبوة والثانية حملت على القرآن صفة عدم الخلق. علينا أن نضع في الحسبان كون التعاريف الثلاثة تلزم المُسْلِم المؤمن المُسَلِمْ وأن القرآن نص مقدس مصدره السماء لا الأرض، شأن جميع الديانات التي لديها نظمها وحدودها الداخلية المحرم تجاوزها واختراقها. إن التعريفين الأخيرين يشتركان في ميزة واحدة، إنها الثبات والجمود، نفي الحركة والتاريخ، إلغاء التطور والتغير، فختم النبوة تعنى وضع حد لسلسلة الأنبياء والرسل المتواترة، ولما كان الأنبياء والرسل يحملون على عاتقهم مهمة الإصلاح الاجتماعي السياسي الاقتصادي والثيولوجي في الحقبة التاريخية القديمة فإن هذا الإصلاح بلغ أوجهه، فبعد النبي محمد البشرية لم تعد في حاجة للإصلاح، ذلك وأن الإسلام هو الحلقة الأخيرة في سلم التطور التاريخي المعرفي والأخلاقي. قصص الأنبياء منذ آدم مرورا بنوح، إبراهيم، لوط، إسحاق، يعقوب، موسى، فعيسى، تصور لنا صراعا بين الزندقة والإيمان، الفسوق والتقوى، الخير والشر، الشيطان والله، إنه صراع يشكل لنا تاريخا من نوع خاص، ليس كتاريخ العلوم أو تاريخ الدول والممالك أو تاريخ النظم الاقتصادية والاجتماعية، فهذا النوع من التاريخ لا يعرف سقفا أو محطة نهائية ينتهي إليها، إنه أزلي الحركة دائم التطور دائب التغير، لذلك فإن صفة ختم النبوة قد يراها المسلم المؤمن أمرا عاديا وليس إشكالا، ذلك وأن الإقرار بهذه الصفة تعنى أن حركة الإصلاح انتهت و السلم التاريخي وصل إلى حلقته الأخيرة والمعرفة البشرية اكتملت ورغبات واحتياجات البشر لن تتجدد بعده لأن النبي بسنته وكتابه ترك البشرية وليس فقط المسلمين على الواضحة، إنه متمم مكارم الأخلاق، متمم وليس معدل أو مطور بل

[32] الدكتور محمد عابد الجابري مدخل إلى القرآن الكريم ج 1 مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الأولى 2006، ص 17.
[33] نفسه ص 18.

متمم وفي التمام اكتمال وفي الاكتمال نهاية، وعلى غرار ذلك فإن ختم النبوة يجعل من الإنسان مقلدا لا مجددا، مطبقا لا باحثا، فكل محاولة تجديد أو بحث تعتبر غير مجدية أو انحراف عن الحقيقة المطلقة التي جاء بها النبي، وربما لا نبالغ إذا قلنا أن المسلمين الأوائل ومن بعد مرحلة الانحطاط الفكري تحديدا القرن الثالث والرابع عشر ميلادي الذي يقابله القرنين الرابع والخامس هجري، قد أصبغوا على محمد صفة الألوهة، فكيف نفهم إذا ذهول الصحابة من وفاة نبيهم وخاصة الصحابي عمر الذي إعتقد أنه لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، [34] والله ليرجعن رسول الله ﷺكما رجع موسى،[35] كلام دفع الصحابي أبو بكر للقول : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت.[36]

بجملته تلك، رفع أبو بكر اللغط والصدمة اللتان أصابتا المسلمين إضافة فإنه درأ شبح الترهل والترنح اللذان يحومان حول مستقبل الدولة الإسلامية الفتية و بحنكته ودهائه السياسيين وهو أمر معقول جدا ناهيك وأنه الذراع اليمنى للنبي، تدخل وأنقذ الموقف وما يؤكد دهاءه هو ربطه بين السماء و الأرض بتلاوته للآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.[37] ذكر الطبري آية ثانية تلاها يومها أبو بكر ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.[38] إن القانون أو الأمر النازل من السماء يكون دائما

---

[34]لقد طرح المستشرق الفرنسي بول كازانوف في كتابه محمد ونهاية العالم نظرية ملفتة للإنتباه، مفادها أن النبي محمد كان له إعتقاد أنه لن يتوفى قبل مجيئ يوم القيامة، أي أنه سيكون شاهد عيان على أهوال ذلك اليوم وسيشهد العقاب الذي سينزل على الكافرين، ومن خلالها سعى لشرح لماذا لم يوصي بخليفة بعده، والحقيقة أن هذه النظرية ليست ضربا من الخيال والشطحة الفكرية بل تستند إلى إشارات قرآنية واضحة وصريحة أضف أنها محيرة لأنها تجعل من ميعاد يوم القيامة قريب جدا من بينها : وقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن مع الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (الحجر 99/98/97). وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون (الصافات 178 /179). فاليقين هو الحق الذي سيظهره الله والآية الثانية تشير للعذاب الذي سيسلط على الكافرين ليس له راد، إنه قريب جدا وهو عذاب يوم القيامة، مما دفعه للقول أن النبي محمد متأثر بعقيدة الرجع في الديانة المسيحية وذلك ما نستشفه من إعلان عمر أن النبي صعد إلى الجبل، أي أنه سيرجع ليقطع أيدي وأرجل المنافقين. قد يكون محمد قد إعتقد فعلا بأنه لن يتوفى وسيشهد عذاب الكافرين، ولكن ملاحظتنا أن الآيات التي تحيل لهذه العقيدة كلها مكية، مما يجعلنا نميل لتشخيص الحالة النفسية للنبي، فلئن كان القرآن يمثل لاشعوره وشعوره، أفراحه وأحزانه، علما وأنه كان مستضعفا منكسرا مضطهدا في مكة، فإن إنتقامه وغضبه وحقده سيتعاظم، فضلا عن شعوره الإحباط والخيبة، فسنكون إذا أمام صيغة أدبية وخيالية في غاية من الروعة من نسيج الوجدان، وهي انعكاس لتلك الحالة النفسية. أما اليقين والإبصار فهو ليس يوم القيامة بقدر ماهو إلا إنتصارا كاسحا لكلمة الإسلام بإخضاع قبائل الجزيرة ثم إنتشاره وقيام الدولة الإسلامية.

[35] إبن هشام السيرة النبوية سبق ذكره ج 4 ص 306.

[36] ابن جرير الطبري تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية، ج 3 ص 201.

[37] نفسه.

[38] نفسه ص 202.

مرفوق بنوع من الحصانة فيلتزم به بلا تردد وبلا عربدة ولو لم يردف أبو بكر الآية لما استجيبت دعوته ولتفككت أواصر الدولة الإسلامية الفتية، وهكذا تمثل الآية منعرجا تاريخيا حاسما، إنها تثبيت لثقة المسلمين بأنفسهم واستنهاضا لهممهم وشد عزمهم وذلك ما نفهمه من كلام عمر : إن الله عَمَرَ محمد ﷺ وأبقاه حتى أقام دين الله وأظهر أمر الله وبلغ رسالة الله وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك وقد ترككم على الطريقة، فلن يهلك هالك إلا من بعد البينة والشقاء، فمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمد وينزله إلها فقد مات إلهه فاتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم، ثم ختم كلامه قائلا : إن سيوف الله لمسلولة وما وضعناه بعد، ولنجاهدن من خالفنا.[39] إن الجملة الأخيرة تستوقفنا، لنستنتج أن ما قاله عمر قريب من خطاب التشييج العسكري، يظهر لنا كجنرال يعد العدة، محاولا حمل إصر المسلمين، ورافعا للصدمة والذهول بوفاة قائدهم، ومن ثم تحفيزهم على إستكمال مشروع النبي بإقامة دولة المسلمين وامتلاك كنوز كسرى وقيصر.

عودة إلى أبي بكر الذي أراه أذكى صحابي وقولي ليس نابعا من تحزب إلى عقيدة السنة بل لأنه استوعب وأحاط بما لم يحط به البقية، ألا وهو جعل المقدس كمطية لحل مشاكل وعُقَدِ المجتمع والسياسة، بتلاوته لتلك الآية أقر بتاريخية النص وأنه لا يمكن فصله عن النسيج السببي الأرضي ولا يمكن سلخه عن زمانه ومكانه، أي أنه خدمة لمصلحة أرضية وهي حفظ تماسك الدولة وانقاذها من التمزق، و ما يلفت الإنتباه في ما قاله عمر عند سماعه لتلك الآيات : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم.[40] وضح الطبري أكثر مراد ردة فعل عمر والمسلمين: فحلف رجال أدركناهم من أصحاب محمد ﷺ : ما علمنا أن هاتين الآيتين نزلتا حتى قرأهما أبو بكر يومئذ.[41] وذهب ابن الكثير إلى أبعد من ذلك بقوله: فقال عمر: هذه الآية في القرآن ؟ والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم.[42]

إن ردة فعل عمر والمسلمين تتطلب الوقوف عليها والنظر فيها، إنها اشارة مبطنة تحيلنا لفهم يختلف كليا عن الفهم التقليدي لظاهرة الوحي، فالوحي حسب المنهج التعليمي المفروض من قبل المؤسسة الإسلامية يقتصر على شخص الرسول فحسب، ونحن نلاحظ من خلال ردة الفعل هذه أن الصحابة وهم ليسوا بأنبياء يشتركون في ظاهرة الوحي، مما يجعل منها ظاهرة جماعية وليست فردانية وهو أمر بالغ الأهمية.

---

[39] ابن كثير السيرة النبوية سبق ذكره ج 4 ص 483.
[40] ابن هشام السيرة النبوية ج 4 ص 307.
[41] تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 203.
[42] نفسه ص 482.

لقد أفرد السيوطي في كتابه بابا بعنوان فيما أنزل من القرآن على لسان بعض الصحابة[43] ، إلا أنه لم تستوقفه تلك الجزئية ومر عليها مرور الكرام، إنها سقطة معظم المفسرين والمؤرخين المسلمين صراحة، عندما يفسرون القرآن ويدرسون الإسلام تجدهم يغضون الطرف عن كثير من المسائل التي لا يقدر العقل الإيماني على فهمها مبررين ذلك بنوع من القصور العقلي وهو في الحقيقة هروب وانزواء، ولكي يخرجوا من المأزق رفعوا لواء الفكر الغيبي السحري، ذلك وأنهم لا يتعاملون مع الدين معاملة سببية وتاريخية، ميالون لتجريده عن إطاره السببي التاريخي.

إن الموقف الذي اتخذه أبو بكر أحدث انقلابا للفهم التقليدي لظاهرة الوحي، لقد رفع الغطاء عن صورته الحقيقة، ولما كان الوحي والقرآن وجهين لعملة واحدة، يتضح أن الوحي مواكبة ومسايرة المتغيرات الأرضية والمتطلبات الاجتماعية. إن موقف النبي إزاء التعدد الديني في دولة يثرب بعد معركة بدر جعله بلا ريب يغير الاستراتيجية السياسية، ثم اتخذ موقفا حازما بالتوجه نحو التوحيد الشامل الكامل. إن موقف أبو بكر دليل إضافي يضعنا على مسار فك لغز ظاهرة الوحي، فمبدئيا هو اتخاذ القرار السليم والمناسب حسب الظرفية التاريخية، إنه تفكير وضرب من الإلهام[44] وظاهرة النسخ في القرآن تقطع بذلك، إنها برهان دامغ على تاريخية النص القرآني.

إذا قلنا أن الوحي هو ضرب من اتخاذ القرار السليم والمناسب بعد عملية تفكير ، وإذا كانت ظاهرة النبوة إصلاحا وثورة ضد السائد في التاريخ القديم خاصة وأنهما أي الوحي والنبوة متعاضدتان، فإنه علينا الإقرار كون الواقع يتغير مع تقدم الزمن، وأن الإصلاح المحدث من قبل النبي هو رهين بيئته ولا يمكن أن يكون فوق التاريخ ، ويجب التعاطي معه من منظور وضعي تاريخي، وبناء على ذلك علينا قراءة ختم النبوة من زاوية غير تقليدية، لأنها تجعل التاريخ مغلقا غير آبه باحتياجات ومتطلبات المجتمعات المتجددة ، فكيف يمكن للإصلاح الديني وتعاليمه الذي نشأ في بيئة معينة أن ينسحب على جميع الأزمنة والأمكنة؟ كأن لسان حالنا يقول إن التاريخ مع الإسلام قد أصبح ستاتيكيا ولم يعد ديناميكيا. هنا يثور سؤال: إذا كان الله فوق الزمان والمكان حسب المعتقد الإسلامي، لايسري عليه التاريخ فطبيعي أن تكون شريعته أزلية؟

إن تلاقي السماوي بالأرضي يُفقد الأول صفة الثبات التي يتميز بها عادة السماوي، فالثابت السماوي والمتغير الأرضي لا يلتقيان إلا في صورة انقلاب الثابت إلى متغير أو المتغير إلى ثابت،

---

[43] جلال الدين السيوطي الإتقان في علوم القرآن، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى 2008، ص 82.
[44] سأتطرق لظاهرة الوحي وسأسهب في شرحها في الفصل السابع عشر.

فالمعادلة المقبولة هي المتغير مع المتغير أو الثابت مع الثابت، وذلك قانون حتمي أشار إليه القرآن ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾(الإسراء 95).

إن الملائكة التي هي كائنات نورانية غير مادية حسب العقيدة الإسلامية موطنها عالم المثال، في صورة حالة نزولها إلى الأرض تصبح طبيعتها متغيرة غير ثابتة، متقلبة ومتموجة، وتلك طبيعة الأرضي المادي، التبدل والتغير الأزليين، فيتدخل الدين كمحاولة إصلاح، ولكن ذلك الإصلاح لن يكون ثابتا بل سيكون قطعا نسبيا، وعليه أن يتكيف مع الأرضي، والأرضي استحالة أن ينقلب ثابتا لأن طبيعته وجوهره التغير كالماء الجاري الذي لا يسكن على أثر البتة، وإذا قلنا أن الإله فرض شريعة ثابتة على ما هو أصلا متغير، فذلك يعنى أن هذا الإله لا يأخذ بعين الاعتبار القانون الذي أودعه في الطبيعة، قانون التغير[45]، ورأفة ورحمة بمخلوقاته عليه أن ينزل شريعة تضع في حسبانها متغيرات العصر، وذلك لن يتحقق إلا من خلال تجديد النبوة وجعل التاريخ منفتحا، أي رفع وحذف الختم للسلسلة النبوية، بيد أن الإشكال العتيد الذي سنصطدم به هو إيمان المسلم الراسخ أن سلسلة النبوة اكتملت مع النبي محمد أسوة بالآية ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾. (الأحزاب 40) إن الآية مدنية تنتمي لقرآن الدولة لا الدعوة، [46] ومعظم القرآن المدني ليس معنيا بالشأن الأخروي بقدر ما يشغله الدنيوي وتحديدا السياسي، ولما علمنا أن الشأن الدنيوي لا يبقى على حاله يسري عليه النسيج التاريخي، فإن الآية ينبغي النظر إليها من الزاوية التاريخية، إنها تعكس ثورة على العرف الاجتماعي الذي كان سائدا ومعمولا به قبل ظهور الإسلام ألا وهو التبني.

إن التبني يشوه نسب المتبنى واسمه يلحق بغير والده ولقد شعر النبي بخطورة الظاهرة فثار عليها لأنها قد تربك التناغم والتماسك العائلي فضلا أنه أراد تبكيت بعض المسلمين الذين تعجبوا كيف تزوج حليلة ابنه.[47] فالآية هي إيذان بانتهاء عرف التبني من جهة والتأكيد على أن محمد ليس أبا أحد من المسلمين بل خاتم النبيين صفة تؤكدها الآية وتثبتها من جهة ثانية. لكن اللافت أن الآية صرحت أن محمد خاتم النبيين لا المرسلين ويوجد فرق شاسع بينهما، فالنبي لا يأتي بشريعة جديدة ومهمته التذكير

[45] توجد فرقة اسلامية تدعى الكرامية نسبة لمحمد بن كرام الذي نفى أن علم الله ثابت وقديم وقال أنه محدث ، وما جعله يتبنى هذه الفلسفة هو تفطنه لما سيفضي إليه القول بعلم قديم أزلي.

[46] الفرق بين قرآن الدعوة والدولة ستكون له وقفة في البابين الخامس والسادس.

[47] السيوطي أسباب النزول، ص 209.

بالشريعة السابقة واصلاح ما فسد منها، أما الرسول فيأتي بشريعة جديدة[48] مغايرة تحدث منعرجا في المسار التاريخي، وهو اسم على مسمى رسول حامل لرسالة ونبي حامل لنبوءة.[49]

وتبعا لذلك فإن الآية أعلنت انتهاء ظاهرة النبوة لا الرسالة، مما يعنى أنه ستظهر رسالات بعد الإسلام كثورة ضد السائد، بهدف التكيف مع المتغيرات الاجتماعية والفكرية والعلمية، وعندما نقول رسالات جديدة لا نقصد أنبياء إنما أشخاص يحملون رسالات إصلاحية كابن خلدون في علم الاجتماع أو الحسن ابن الهيثم في البصريات أو الخوارزمي في الرياضيات أو البيروني في علم الفلك أو كانط في الفلسفة أو فرويد في علم النفس. هكذا نعيد للتاريخ طابعه الديناميكي، عسى أن يتحرر العربي المسلم من كبوته، ويكف عن الإعتقاد بأنه بلغ الذروة ولا حاجة له للتجديد وإعادة النظر في الدين.

لقد تعالت أصوات من داخل المؤسسة الإسلامية محاولة بث الحياة في عجلة التاريخ التي شاخت وهرمت ورضيت بالبقاء في سجن الماضي والعيش على التراث، من بين هذه الأصوات فقهاء أدركوا أن النصوص المقدسة جاءت لخدمة الصالح الأرضي لا الصالح السماوي، ولتيسير المعاش لا لتعقيده من أبرزهم، نجم الدين الطوفي الحنبلي الذي تجرأ على كسر أهم القواعد الفقهية لا اجتهاد مع النص، فأباح الاجتهاد حتى مع النصوص الواضحة القاطعة استنادا الى اجتهادات الخليفة عمر مع نصوص قرآنية وحدود تشريعية ربانية قاطعة كفريضة متعة الحج ومتعة النساء والمؤلفة قلوبهم لاختلاف المصالح بدوران الأزمان وبذلك قدر الطوفي أن رعاية مصالح الناس تعلو على النص.[50] ويسجل التاريخ الإسلامي محاولة ثانية لإحياء عجلته وصاحبها الفقيه الجويني الذي أيقن بحسه الفذ أن المستقبل يتطور في قفزات هائلة، فيأتي زمن على الناس لن يعلموا فيه بأصول الشريعة الإسلامية حتى تصبح الشريعة تاريخا غير فاعل وربما غير موجود نتيجة مفارقة الواقع لأنه يتغير ويتطور بالضرورة دون أن ينال النص الديني ذاته التغير والتطور.[51] ثم يسجل التاريخ محاولة ثالثة قد تكون الأجرأ والأقوى مقارنة بما سبقها، إنها مبادرة الشاطبي الذي ارتأى أن الفقه هو لون من الإجابات المعدة سلفا لكل مسألة حدثت أو قابلة للحدوث أو متخيلة، والفقه بهذه الإجابات المسبقة لا يقف بهذا المعنى ندا للزمان الذي جاء بأسئلة جديدة لم تخطر على خيال الفقهاء القدامى وليس لديهم اجابة عنها لأنها لم

---

[48] إن شريعة النبي محمد ليست جديدة بأتم معنى الكلمة لانها نهلت من شعائر ما قبل الإسلام وأعيد صياغتها لتخدم الشأن التوحيدي، إلا أننا يمكن أن نعتبرها جديدة ذلك وأنها هجين من العادات والتقاليد والطقوس السابقة ليتولد منها دين جديد، فتطور الأديان هو تطور خطي لا تقطعي، وذلك ما تعلمنا إياه فلسفة العلوم كون النظريات العلمية تنهل مما سبقها وتعيد دمجها لتعطي نظرية جديدة.

[49] النبي prophète وقد يكون أصل الكلمة عبري مشتق من (نابي) ما يدل على الرائي.

الرسول messager

[50] انتكاسة المسلمين الى الوثنية سبق ذكره، ص 29-30.

[51] ص 30.

توجد بعد، لذلك لا بد أن يختلف الحكم بحسب ظروف الواقع، ليستخلص قاعدة فريدة مفادها أن المعروف ما تعارفت عليه قيم وعادات زمانه، والمنكر هو ما أنكره العرف الاجتماعي وقيم زمانه.[52]

إن هذه المحاولات الثلاث لا تعدو أن تكون تخليصا لكل من الإسلام والقرآن من شرنقة الميتاتاريخ ودمجهما في العجلة التاريخية، ومن ثم دراستهما دراسة تربطهما بالإطار الزماني والمكاني، دراسة مادية لا تعلو بهما إلى مرتبة النموذج الثابت المثالي، كما أنا ترمي إلى تهيئة الذهنية العربية الإسلامية للتصالح مع منطق التاريخ، جريان الواقع وتبدل المعطيات، ليأتي زمن تصبح الشريعة كوثيقة تاريخية ندرسها للاطلاع على عادات وأخلاقيات وأفكار ومعتقدات الشعوب والمجتمعات الغابرة فيتحول الدين إلى عامل غير ملح.

رغم كل المجهودات الجسام لحلحلة عجلة التاريخ واستفزاز الذهنية العربية الإسلامية - بالمعنى الإيجابي - للتعامل مع المقدس الديني كصيرورة تاريخية يسري عليها الزمان وهي بالتالي قد لا تصمد أمام المد الأرضي بسبب تحولاته وتغيراته الدائبة الدائمة، نجد استماتة للتمسك بميزة عدم تاريخية النص استنادا للآية قرآنية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة/3). إنها تنتمي كسابقتها لقرآن الدولة، وقرآن الدولة معني بالتجاذبات السياسية الاجتماعية مع المسلمين وأهل الكتاب، وعليه، فإن الآية لها دلالة سياسية، الأولى كونها نزلت في السنة العاشرة [53] و في هذه السنة تمكن محمد من اخضاع وتوحيد شبه كلي لقبائل الجزيرة، وقد سبق في السنوات التسع الماضية حدوث تحولات سياسية جذرية في المعاملة مع أهل الكتاب وخاصة اليهود بعد أن حاول استدراجهم والتضرع إليهم[54] ليؤمنوا به كنبي مذكور عندهم في التوراة، إلا أن استقواء شوكة الإسلام والمسلمين دفعته أخيرا لإعلان قطيعة تيولوجية مع الإرث اليهودي التوراتي، كتغيير اتجاه القبلة واستبدال صوم عاشوراء برمضان واعتبار أن الكعبة بناها ابراهيم وابنه اسماعيل أب العرب، كما اعتبره المؤسس الأصلي للإسلام،*كل ذلك لإثبات أن الإسلام أكثر أصالة وأقدم من الدين اليهودي، فكان بذكائه الذي فاق ذكاء عرب الجزيرة كلهم مجتمعين وببصيرته التي تعدت الحاضر والماضي لتشمل المستقبل أن يجعل من الدين الجديد نموذجا يحتذي به وذلك لا يتحقق إلا من خلال التعالي على النسيج التاريخي السببي، جاعلا كل الأنبياء مسلمين، بعثوا من أجل رسالة الإسلام فأصبحت العربية لغة الجنة.

---

[52] ص 31 .

[53] أسباب النزول الواحدي ص 192.

[54] ابن هشام السيرة النبوية ج 2 ص 200.

*﴿ملة أبيكم ابراهيم هو الذي سماكم المسلمين من قبل﴾ (الحج/78)

ثم أعلن محمد أنه أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا تأكيدا على أن التاريخ منذ بدء بعث الأنبياء والرسل كان هدفه اقامة الإسلام لينتهي بمجيئه، فيكون آخر من يضع لبنته الأخيرة.[55] يمكن الاستنتاج أولا من خلال السياق التاريخي للآية أنها ترسيخ لهوية قومية عربية بمعونة الدين الجديد. ثانيا تحول الوضع الاقتصادي للدولة، ذلك وأن إخضاع القبائل ساهم في تعاظم الثروة المالية للدولة اليثربية خاصة بعد السيطرة على مكة وبصورة أخص بعد فرض الجزية على أهل الكتاب وتحول وجهة الغزوات لما وراء الجزيرة العربية كسرى وقيصر، فأصبح الإسلام نعمة حقيقية على العرب، لقد جعلهم أمة واحدة في دولة واحدة وأخرجهم من عصر البداوة إلى عصر التحضر والتمدن.

إن الصفة الثانية التي ألحقت بالنص القرآني هي كلام الله غير المخلوق، جاءت للرد على من قالوا أنه مخلوق، وأول من صرحوا بذلك هم المعتزلة الذين أدركوا أن تبني فكرة لا مخلوقية القرآن يترتب عنه الإخلال بتاريخية النص وجوهره التطوري الأرضي،* كما يعطي صورة غير عادلة عن الاله، لأن في عدم تعامله مع مخلوقاته الخاضعة للزمان والمكان، المقهورة بقوانين النسيج السببي التاريخي، يعد ظلما وجورا، فالتعامل معهم ينبغي أن يكون متدرجا لا كاملا ودفعة، يبدو أن ظاهرة النسخ تقطع بتاريخية النص وكونه أبعد من أن يكون قديما غير مخلوق، بيد أن المدرسة السلفية ممثلة بأحمد ابن حنبل وأبو الحسن الأشعري رأت أن القرآن غير مخلوق قول ينجر عنه اقصاء لتاريخية النص، ولعهم شعروا بالإحراج، فالإقرار بتاريخيته ينزع عنه صبغة الأسطرة والمنطق السحري الإعجازي، ويجعله مواكبا للأحداث الأرضية ويتطور حسب الرغبات والاحتياجات الإنسانية، وكانوا قد نجحوا في احكام الأغلال على الذهنية الإسلامية، بالنفور من المنطق الإستقرائي التاريخي، وابقاءها في أوهام الماضي و بحر الأعاجيز فضلا عن اتخاذهم أسلوب الترهيب بالمقدس كأمثل سبيل لإخضاعهم تحت إيديولوجية الدولة.

[55] إن النبوة مثل البناء غير المكتمل الذي تنقصه لبنة أنا تلك اللبنة.

*يوجد من المعتزلة من أنكروا أن سورة المسد من القرآن.

الباب الثاني

منطقة الشرق الأوسط والجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام

الأسطورة هي عبارة عن قصر ايديولوجي

مبني بواسطة حصى وأنقاض خطاب اجتماعي قديم

كلود ليفي ستراوس

إن تصفح أحوال الجزيرة العربية قبل الإسلام واستقراء خفاياها يفرض علينا التطرق للمسرح السياسي والاقتصادي والعسكري الذي هيمن على منطقة الشرق الأوسط تحليله ثم تفكيكه، والمطلوب هو العودة قليلا إلى الماضي ببضع قرون قبل ظهور الإسلام حتى نفهم الظروف الجيوسياسية والجيوسوسيولوجية التي أدت إلى نشأة هذا الدين، وأول مرحلة هي دراسة طبيعة العلاقات التي جمعت بين عرب الجزيرة وحضارات الشرق القديم ومن بينها امبراطورية آل ساسان الفرس وامبراطورية بيزنطة التي خلفت الامبراطورية الرومانية، فالعلاقة بين هذا الثالوث متداخلة ومتشعبة، ولكن قبل دراسة هذا الثالوث فإنني سأخصص بضع صفحات للحديث عن الآشوريين والبابليين وعلاقتهم بعرب الجزيرة وهو ثالوث يسبق الأول نظرا والأثر العظيم الذي تركوه في أذهان سكان منطقة الشرق الأوسط.

علاقة العرب بالفرس تعود إلى القرن الخامس ق.م أيام الأخمينيين، كما سجل التاريخ اصطدامهم بالآشوريين واحتكاكهم بالبابليين. اصطدموا بالملك الآشوري شليمنصر الثالث بقيادة رجل يدعى جندب أو جندبو، الذي شارك في حلف ألفه ملك دمشق بيرداري بهدف كبح جماح الأطماع التوسعية للآشوريين ووضع حد لتدخلهم في شؤون المماليك الصغيرة والامارات ولاسيما مملكة حلب، فقرر الوقوف في وجه الامبراطورية وذلك بتأليف حلف مع الملوك السوريين مستعينا بالقبائل العربية، أمد جندب الحلف بألف جمل وبمحاربين، ودارت المعركة عند مدينة كركر الواقعة شمال حماة سنة 854 ق.م انتهت بانتصار ساحق للملك الآشوري.[1] الجدير بالذكر، هذا النص المكتوب من طرف شليمنصر يمثل أول مصدر تاريخي جاء فيه اسم العرب، وليس لدينا حاليا نص متقدم عليه ذكر فيه هذا الاسم، والظاهر أن جندب كان يتقلد منصبا هاما لدى القبائل العربية قريب من العمدة أو الملك والذي كان يطمح لِلَمِّ شمل القبائل وتوحيدها تحت راية واحدة، أما جغرافيا فإن جندب عمل على توحيد بعض القبائل العربية الشمالية. وعليه، فإن مشروعه السياسي بقي محدود الأفق.

أما احتكاكهم بالبابليين وتحديدا الكلدانيين كان أيام الملك نبونيد، علما أن المؤرخين المسلمين يؤكدون التواصل المباشر بين العرب والملك نبوخذ نصر، ولا نستبعد الحقيقة التاريخية لهذا التواصل نظرا وأن القبائل العربية على مر التاريخ، بالرغم من أنهم لم يتمكنوا من تأسيس دولة ثابتة الأسس

[1] محمد جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1، ساعدت جامعة بغداد على نشره، الطبعة الثانية 1993، ص 575-576.

والدعائم تضم شعذهم وتفتتهم، ثم تقضي على نعراتهم وصراعاتهم، شكلوا تهديدا كبيرا ضد أعظم الممالیك والامبراطوريات وأرهبوهم، مما دفعهم للتفاوض معهم لتحييدهم واتقاء شرهم.

يبقى الخبر الأول أهم من الثاني في سياق بحثنا، فقد شن الملك نبونيد حملة عسكرية على القبائل العربية الشمالية ووصل إلى يثرب بعد ان احتل تيماء سنة 552ق.م والتي اتخذها مقرا له وأصبحت العاصمة الثانية لبابل.[2] إن الجزيرة العربية طيلة التاريخ القديم والوسيط ظلت منيعة ضد جيوش الممالیك والامبراطوريات، وذلك يعود بالأساس إلى قساوة المناخ الحار الجاف، وقلة الموارد المائية الأودية والأنهار، وكل محاولة للتوغل في صحرائها تبوء بالفشل، والسبب مساحة صحراءها الشاسعة، فكلما توغل الغزاة فيها كلما ازدادت مسافة خط الامداد ليكون مآلهم الجوع والعطش فيعودون على أدراجهم القهقري. تبقى محاولة نبونيد فريدة من نوعها، لأنه تحدى ظروفا مناخية قاهرة، فاحتل تيماء ووصل إلى أعتاب يثرب، ولسائل أن يسأل؛ لماذا فكر هذا الملك من احتلال تلك المدينة وجعلها عاصمة ثانية لمملكته؟ قد يكون الجواب الرغبة في التوسع، الاستلاء على ثروات القبائل والمدن المجاورة، كانت ديدنه، شأن ديدن جميع الملوك والحكام الذين تقلدوا عروش الامبراطوريات والممالیك العظمى عبر التاريخ. بيد أن الحقيقة أشد تعقيدا وعمقا، إن ما حمله لخوض تلك المغامرة يرجع لأسباب سياسية دينية وتيولوجية، بقدر ما كانت إقتصادية أو عسكرية.

لقد كان هذا الملك إبن كاهنة معبد إله القمر يدعى سين في مدينة حران، عرفت بتقواها وبنفوذها الروحي الواسع[3]، وتأثره الشديد بهذا الإله دفعه لإدخال تغييرات جذرية على الديانة البابلية الرسمية، والجدير بالملاحظة فإن عبادة إله القمر سن لم تكن غريبة في الأوساط الدينية لدى البابليين، غير أن نبونيد عمل على تفريد هذا الإله أي عبادته وحده وجعله فوق بقية الآلهة، ومنهج التفريد* في تاريخ الأديان سنقف عليه كثيرا في الفصل القادم، هو نزوع نحو التوحيد الخالص، إنه نزوع أي ميل وليس توحيدا أصيلا بأتم معنى الكلمة. لقد مارس البابليون منهج التفريد بجعل الإله مردوخ في المرتبة الأولى يليه ثلاثي يتألف من إله القمر سين وشامش إله الشمس والزهرة إلهة الخصب.[4] لكن مردوخ بقي خالق الكون والإنسان، أما الثلاثي فهم خاضعون لإرادته منسجمون مع أحكامه، وبرفعه لمردوخ واستبداله بسين، أحدث نبونيد ثورة دينية في المنظومة التيولوجية وهي بدعة خطيرة أدخلته في صراع

---

[2]نفسه ص 610-611.

[3] عزيز سباهي أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية، دار المدى للثقافة والنشر الطبعة الثانية 1999، ص 60

* Hénothéisme.

[4]نفسه ص 58.

حاد مع الكهنة. كانت توجد روابط تجارية وطيدة بين الكلدانيين والقبائل العربية مما شجعته لإقامة مستوطنات في تيماء ودومة الجندل ويثرب وأسكن فيها بابليين.[5]

لقد أقام نبونيد في تيماء زهاء عشر سنوات وتنقل مرار وتكرار بينها وبين يثرب ولم يقتصر على تمكين البابليين فحسب لهذه المنطقة كذلك اليهود،[6] إنها معلومة مهمة وجالبة للانتباه. نعلم جيدا أنه بعد السبي البابلي 597 ق.م كان ينظر لليهود على أنهم رعاع وخدم كما أن ميولهم التوحيدية في تلك الفترة بزعامة الحاخام إزرا (عزير) جعلت منهم أصحاب بدعة تيولوجية وهم يعيشون في أوساط الغالبية منها تؤمن بالتعدد وتنبذ التوحيد، فالتوحيد لم يظهر بغتة وفجأة كما يظن الكثيرون بل عبر صراع فكري وتاريخي طويل وشاق. إن الدين اليهودي الذي ينزع لتوحيد الإله يهوه ترك أثرا عميقا في الحياة الروحية لبابل وأحدث ثورة عقائدية لدى شريحة واسعة من السكان جعلتهم يعتنقونه،[7] ولا شك أن الملك كان من بين جملة المتأثرين باليهودية وبنزعة التفريد التي تتسم بها، إذن يكون اختياره لتيماء ليس من باب الصدفة، إنها بقعة بعيدة عن الأنظار ومعزولة يقدر على ممارسة طقوس الإله القمري بحرية تامة، ويمكن أن نذهب أبعد من ذلك بالقول أن نبونيد قد يكون يهوديا.

إن اليهودية ديانة قمرية، والقمر كان معبودا من غالبية سكان الشرق القديم ولا سيما من قبل الذين يعيشون في الصحاري ويحيون حياة البداوة والترحال، ذلك وأن أهل الصحاري وجدوا في القمر ضالتهم، فبعد يوم تكون فيه الشمس في كبد السماء تكوي جلودهم وتلحف وجوههم، يسدل الليل ظلامه والقمر يرسل نوره فيروح عنهم ويشعرهم بالسكون والطمأنينة، ولو حللنا اسم يهوه لوجدناه مشتق من فعل هوى يهوي ونقول تهوي الريح ويهوي النسيم، ويهوه لا يتجلى إلا من بين الغيوم والسحب والرياح في الكتاب المقدس[8]. إن القمر في نظر القدماء هو جرم متقلب بسبب ظاهرة خسوفه، يخضع للصيرورة والتبدل غير ساكن على عكس الشمس، سلوكه هوائي مثله مثل البدوي الذي لا يهدأ له بال يعيش على الترحال، وتبعا لذلك اعتبر اليهود الليل وقتا مقدسا لأن يهوه يفضله للتجلي لعباده، وبالتالي نفهم احتفالاتهم الخاصة بالبدر والهلال، أضف إلى ذلك فإن التعبيرات التي استعملها الكتاب المقدس عند ظهور يهوه اصطلاحات فلكية قمرية.[9] ولعل ما قاله سبينوزا يعتبر خير شهادة على ذلك، إذ تربي هذا الفيلسوف في كنف الديانة اليهودية، حيث كتب أن لفظ يهوه يدل على

---

[5] ص 60.
[6] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج الأول ص 618-619.
[7] أصول الصابئة ص 61.
[8] سيد محمود القمني الأسطورة والتراث، المركز المصري لبحوث الحضارة الطبعة الثالثة 1999، ص 176.
[9] ص 177

الريح : فعبارة روح الله أو يهوه لا تعني في بعض النصوص إلا ريحا قوية عاتية منا نجد في أشعيا (40 : 8).[10]

من خلال ما تقدم نستطيع القول إن نبونيد حتى ولو لم يكن يهوديا كان متأثرا بها، فأراد المزج بينها وبين الدين البابلي الرسمي، غير أنه لقي رفضا شديدا من الكهنة وذلك ما يفسر توغله جنوبا في الصحراء العربية وبناءه لمعبد إله القمر سين لكي يتعبده في ليل الصحراء المظلمة الهادئة. إن ظاهرة التفريد كانت سائدة قبل ظهور الإسلام علاوة على وجود تيار تيولوجي عرف بالتوحيد الخالص المسمى بالحنفية ومعتنقوه هم الأحناف المتحنفون المتحنثون، والسؤال ألا يعود أصل هذا التيار للدين الذي رسخه الملك نبونيد ؟

عثر في سنة 1956 على لوحة مدفونة في خرائب جامع حران وترجمت إلى الإنكليزية تتحدث عن مجموعة من الأعراب شنوا هجوما على المستوطنات التي أقامها نبونيد في تيماء ويثرب ولكن تصدى لهم الملك بقوة ولم يتمكنوا من التغلب على الجيش البابلي نظرا لتمرسه ومهارته الفائقة في الحروب وانتهوا بالاستسلام له، ثم عقد الصلح معهم سنة 548 ق.م[11] أي أربع سنوات بعد احتلاله لتيماء وادخال الدين الجديد. لا نستبعد أن الأعراب الذين أقاموا الصلح مع الملك قبلوا طقس إله القمر سين وتأثروا به وعملوا على إذاعته ثم انتشر في كامل أرجاء الجزيرة العربية، سوف نرى ما إن حدث ذلك بالفعل في الصفحات القادمة.

تأتينا أخبار عن علاقة الجزيرة بالفرس الأخمينيين التي ترجع وفق ما أشرنا للقرن الخامس ق.م في أعمال شيخ المؤرخين هيرودوتس اليوناني، وهذه العلاقة كانت مع القبائل العربية الشمالية لا كل القبائل، فبحكمهم بدوا رحلا يعيشون في بيئة يهيمن عليها القحط والجفاف يضطرون للهجرة صوب أقصى الشمال، ما يسمى بمنطقة الهلال الخصيب، الممتدة على طول العراق والشام التي تتمتع بمناخ جد ملائم للزراعة وبأنهارها المترامية وبتربتها الممتازة، بحثا عن الاستقرار وتأمينا لحياتهم المهددة بالعطش، فأين وجد الماء وجدت الحياة، وطبيعي أن يحتكوا بأعظم الممالك والإمبراطوريات وينهلوا من معتقداتهم وثقافاتهم. وفي هذا الإطار يمدنا شيخ المؤرخين بمعلومات مهمة حول ظروف مساعدة القبائل العربية للأخمينيين أثناء غزو قمباسوس الثاني لمصر سنة 525 ق.م وأمدوه بالجمال والماء.[12] ذكر أن جميع سكان آسيا اعترفوا بسلطان كورش مؤسس امبراطورية الأخمينين ومن بعده قمباسوس ما

---

[10] رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، مؤسسة هنداوي 2020، ص 143.

[11] المفصل في تاريخ العرب ج الأول ص 614-615.

[12] نفسه ص 622.

عدى العرب، انهم لم يخضعوا كالرقيق البتة لسلطان الفرس، وإنما تحالفوا معهم وأصبحوا حلفاء وأصدقاء مهدوا لهم الطريق لغزو مصر، ولولا مساعدتهم تلك لما تمكنوا من ضمها للإمبراطورية.[13]

الجدير بالملاحظة، ليس جميع العرب كانوا قد رفضوا الإنصياع لسطوة الفرس الأخمينيين، ذلك وأن داريوس حكم منطقة عرباية وقد سماها ماتو أرابي، وهو وصف لا ينسحب إلا على بادية الشام والمنطقة الواقعة بين آشور وبابل منطقة سنجار والحضر وليس الجزيرة العربية،[14] وتلك جزئية توضح لنا غلظة عرب الجزيرة، أنفتهم، كبرياءهم، وكرامتهم، فبالرغم من بداوتهم وعدم تحضرهم إلا أنهم رفضوا الذل أو الانصياع للغريب. ذكر هيرودوتس أن بلاد العرب كانت تعطي الجزية من الطيب سنويا، كونها من الطيب يدل أنها لم تكن لغاية سياسية على خضوع العرب للفرس، وانما كانت جعالة سنوية تدفع من قبل رجال القوافل المتاجرة للسلطات الحاكمة التي تأتى بالتجارة العربية الجنوبية لبيعها في بلاد الشام ومصر.[15]

انطلاقا من هذا السياق التاريخي، سنكتشف كيف تطورت شريعة الإسلام، وسنتمكن من التعرف على شخصية العربي، تكوينه النفسية وعلاقته بالمجتمع، ذلك وأن الشرط الأولي لتَكَوُّنِ الدين يكمن في دراسة البيئة التي نشأ فيها ومحيطه، فلا وجود لفكرة مسقطة من فراغ، أو دين ولد دفعة واحدة بلا عوامل اجتماعية وظروف تاريخية، مهدت له الطريق وهيأت له الأرضية.

[13] ص 623.
[14] ص 625-626.
[15]نفسه.

نأتي الآن إلى الثالوث الثاني وهو أقرب إلى الإسلام من الثالوث الأول، ونقصد الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية. لم يكن الفرس الساسانيون يتمتعون بنفس درجة القوة والهيمنة التي كان عليها الأخمينيون، ومع ذلك نستطيع القول إنهم شكلوا صورة طيبة أعادت أمجاد الفرس وملاحمهم البطولية في الشرق الأوسط. منذ الخسارة التي مني بها الأخمينيون من جيش الإسكندر المقدوني، خفت الصوت الفارسي وتراجع بصفة ملحوظة وفقد جانبا كبيرا من سطوته السياسية في المنطقة ثم بدأ عصر الهلنستي، مسرح امتزجت فيه الفلسفة والأساطير الإغريقية بمعتقدات وطقوس الشرق القديم. إن أمجاد الفرس وانتماءهم القومي وحضارتهم العريقة كانت عبارة عن محرك دفعهم بقوة لاسترجاع مكانتهم وإعلاء كلمتهم، فجاءت المحاولة الأولى من طرف الفارثيين نسبة إلى فارث، وهي ولاية ستراب (satrape)تقع في الشمال الشرقي الإيراني. منذ عهد الأخمنيين قاد أشكان الأول امردا ضد والي فرثيا أندراغوراس سنة 247 ق.م، تمكن من الإطاحة بمملكة السلوقيين وريثة امبراطورية الاسكندر والعدو الأول للفرس. [16] لطالما أكد الفارثيون أنهم ينحدرون من سلالة الأخمنيين، فبحكم الوقع الذي تركته هذه العائلة في وعي الجماهير الإيرانية من تفوق وريادة على جميع الأصعدة، بحث الفارثيون عن إثبات أنهم لا يقلون شأنا وسلطانا ونسبوا أنفسهم للسلالة الأخمينية. لقد عمل الفارثيون على وضع حد للمد الهلنستي من خلال حركة ثقافية ترمي إلى إعادة ترسيخ الهوية الفارسية، ولكن لم تلقى حضها لأن الكتابة التي تعتمد على النسق الأبجدي أثبت نجاعته وأفضليته مقارنة بالكتابة التي تقوم على النسق المسماري، ولم يتمكنوا من التخلص تماما من ذلك المد.[17]

لم يرى الحكام والملوك الروم في الإمبراطورية الأشكانية ندا موازيا لهم أو خطرا على مصالحهم في الشرق الأوسط، بيد أن الوضع السياسي انقلب رأسا على عقب منذ مجيء الساسنيين* بقيادة أردشير الأول الذي تمرد هو أيضا على الحكومة الفارثية وأطاح بهم بعد قرابة أربع قرون من الحكم سنة 224م.

حاز أردشير على لقب ملك الملوك، وأرسى جذور حكومة قوية بزغت منها أسماء لملوك أقوياء، أظهروا حزما وشدة جعلت الروم يهابونهم ويرون أنهم متكافئون معهم في القوة، وحسبوا لهم حسابا،

[16] A.D.H. Bivar, Cambridge History of Iran, vol. 3.1, London & New York, Cambridge University Press, 1983, 624 « The Political History of Iran Under the Arsacids », p. 21–99.
Paul Bernard, « L'Asie centrale et l'empire séleucide », vol. 4, no 2, 1994, p. 473-511

[17] « Les inscriptions de la perse Achéménide et leurs traductions », Nazila Khalkhali sous la direction d'Annie Brisset, Thèse soumise à la faculté des études supérieures et postdoctorales dans le cadre des exigences du programme du Maîtrise en traductologie, école de traduction et d'interprétation université d'Ottawa, p 10

*يرى بعض المؤرخين أن ساسان هو اسم لشخصية أسطورية سليلة الأخمينيين.

فوضعوا استراتيجية دفاعية للتصدي لهم، كبح أطماعهم التوسعية وحماية أراضيهم في المنطقة. حافظ البيزنطيون خلفاء الروم على هذه الاستراتيجية بل كانوا أكثر حزما وشدة، فعملوا على استعادة الأراضي التي ضمها الامبراطور الروماني تراجان 98-117 م ذو الطموحات التوسعية، مثل أرمينيا و بلاد ما بين النهرين ومقاطعة بترا في الأردن، ثم تخلى عنها خليفته أدريانوس 117-138م بعد اتخاذه سياسة خارجية تقوم على احياء السلام وتقليص المساحات الشرقية، لأن التوسع الكبير الذي حققه سلفه كان قد أصاب الامبراطورية بشلل عسكري ورأى فيه اتساعا أكثر من الازم، وهجر سياسة الاندفاع العسكري لسلفه بغية وقف النزف الاقتصادي البشري للامبراطورية.[18] إن المستفيد الأول من هذه السياسة هم الفارثيون الذين استطاعوا ضم المزيد من الأراضي، فامتدت امبراطوريتهم إلى ما بعد دجلة والفرات، لذلك اتهمه لوسيوس كويتوس قائد في الجيش المراكشي أن سياسته أدت إلى تفريط في حقوق الشعب الروماني،[19] ولكن أعتقد أن ما أقدم عليه أدريانوس سببه المباشر هو أن العدو لم يكن منافسا قويا في نظره، فقرر التراجع وتحويل أنظاره إلى الداخل، والحقيقة أنه لم يقع صدام بين الروم والفارثيون، ولم تقع سلسلة من الحروب الدامية المنهكة كتلك التي ستندلع بين الساسانيين والبيزنطيين.

لقد كانت منطقة الهلال الخصيب محل مد وجزر بين الإمبراطوريتين، فالحدود لم تبقى على حالها والحروب على قدم وساق، والقبائل العربية كانت داخل معمعة تلك الحروب، فالهلال الخصيب هو ملاذ الأعراب الوحيد في الخلاص من خطر الجوع والفناء، فيتجهون نحوه بحكم غريزة المحافظة على الحياة، الخضرة والخصب وُجِدَا حيث يكون الجو الطيب والماء الغزير، وهما متوفران في الهلال الخصيب وفي أطراف جزيرة العرب، أقصى الجنوب، اليمن.[20] ثم إن شجاعة وبسالة الأعراب هيمن على طبعهم وسلوكهم بالرغم من عدم تحضرهم، والحال أنهم عاشوا في نظام قبلي طغى عليه التشتت والتشرذم، ذلك لن يتغير إلا بمجيئ الإسلام.

نهاية حكم الفارثيين على يد الساسنيين قلب الموازين الجيوستراتيجية لهذا الثالوث، حدود الإمبراطوريتين أصبحت أكثر تقلبا، ذلك وأن الساسانيين كانوا عازمين على كسر هيبة البيزنطيين الذين باتوا أكثر وعيا بخطورة المنافس، فلم يتوانوا في الإستماتة بالدفاع عن مصالحهم، لن يتم ذلك إلا من خلال الاستعانة بالقبائل العربية الشمالية.

[18] لإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الإنهيار د. أحمد غانم، دار المعرفة الجامعية 2007، ص 69-66.
[19] ص 68.
[20] ص 68.

شرعت كل من الامبراطوريتين منذ القرن الرابع على تحصين حدودهما بإنشاء حصون وقلاع ليس لدرء الخطر المتأتي من كلا الطرفين فحسب، بل لردء هجمات القبائل العربية القاطنة في منطقة الهلال الخصيب الباحثة عن ظروف مناخية ملائمة للحياة. لقد كان الأعراب أولى بأس شديد في المعارك والحروب رغم عدم امتلاكهم لجيش نظامي ودولة مؤسسات، مارسوا الترهيب ضد أعظم الممالك وامبراطوريات الشرق القديم، وأنهكوا جيوشهم وآلتهم الحربية، وقد كانت لهم خبرة عجيبة في التفطن لمواطن ضعف الحكومات، وكانوا على أهبة التربص والإستعداد للإنقضاض على ثرواتهم ومزارعهم إذا ما أتيحت لهم الفرصة، أو لا حظوا ضعفا أو تساهلا تجاههم،[21] وربما قوة الأعراب تكمن في عدم امتلاكهم لدولة ثابتة الحدود وتبنيهم النظام القبلي البدوي وذلك ما أورده اميانوس مارسيليانوس أحد الشخصيات البيزنطية التي تقصت أحوال الأعراب ودرست طبائعهم وتركيبتهم النفسية قائلا :« يجب علينا ألا نتخذ العرب أصدقاء لنا أو أعداء، ذلك لأنهم شعب من الرحل يتنقلون من موضع لآخر ، ثم ينقضون بأسرع من لمح البصر فينهبون جميع ما تقع عليه أيديهم، فهم أشبه بالعقبان التي تنقض على فريستها من حالق ثم تقلع في سرعة خاطفة مبتعدة عنها».[22]

إنها شهادة تكشف بجلاء النظرة العامة للبيزنطيين إزاء الأعراب بين القرنين الثالث والرابع، ذلك وأنه من الصعب عقد الصلح معهم أو اعتبارهم كأصدقاء، فقد ينقلبون في أية لحظة، ولا يمكن معاداتهم لأنهم أبناء الصحراء وهم أعلم بها. لقد فهم مارسيليانوس أن القوة لا تكفي لضبطهم، وأن الجيوش النظامية لا تستطيع أبدا تعقب فلول الأعراب التي تتراجع بسرعة إلى البادية حصن الأعراب، والتي من الصعب إن لم نقل استحالة بلوغها من طرف جيش نظامي، ثم إن تجربة الروم معهم ومن بعدهم البيزنطيين علمتهم أن التوغل في الجزيرة العربية يشكل خطرا وتهديدا كبيرين على جيوشهما، التيهان في صحراء مترامية الأطراف مع شح في مواردها المائية، وبالتالي فإن احتمالات الهزيمة تزداد، فالعربي هو ابن البادية وهو أخبر بها من الحضر، و يعرف جيدا مواضع الاكسير، اكسير الحياة، وهو الماء، ومنه فإنه من الحماقة والتهور اتخاذهم كأعداء.[23]

أطلق اليونانيون على أعراب الجزيرة وبادية الشام تسمية السراقيون وكانوا يسمونهم بهذا الاسم، اختلف المؤرخون في تحديد معنى اللفظ، فزعم البعض منهم أنها مركبة من سارة وقين أي عبيد سارة، وقال آخرون أنه مشتق من سرق إشارة إلى غزوهم وكثرة سطوهم، وقال آخرون أنه تصحيف

---

[21] ص 602.
[22] العرب على حدود بيزنطة وإيران نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأداب، 1964 ص 51.
[23] المفصل في تاريخ العرب ج الثاني ص 603.

لكلمة شرقيون أي سكان الشرق.[24] المعنى الثاني أحق بالتصديق، لأن الأول هو أسطورة توراتية، والتوراة هجينة التاريخ والأسطورة وبعيدة عن التاريخ، أما الثالث فهو ضعيف لأنه ليس فقط الأعراب هم سكان الشرق، كذلك الفرس والمصريون والبابليون والعبرانيون والكنعانيون، ولم يسموا بهذا الاسم، ثم ان مدلول الكلمة تطور خلال القرن الرابع والخامس والسادس، فأطلق على العرب كافة وشاع استعماله في القرون الوسطى، ولا تحسب أن اسم سراقيون فيه حط من شأنهم بل العكس، ذلك وأن حميتهم و بسالتهم في المعارك والحروب أثبتت أنهم عنصرا ليس هينا، قادر على تغيير المعادلة السياسية والعسكرية في المنطقة، وهو ما حدث بالفعل مع امارتي المناذرة والغساسنة. اعتبرهم ماسيليانوس في القتال بلا استثناء، انهم يعيشون نصف عراة، يتحركون في مساحات شاسعة على خيل سريعة، لا تمس أيديهم المحراث ولا يغرسون شجرا ولا يعرفون زراعة، بل هم تجوال دائما يذرعون البادية الواسعة طولا وعرضا، لا يعرفون القرار في بيوت ولا يخضون لقانون أو سلطان، وليس في وسعهم البقاء طويلا تحت سماء واحدة فحياتهم حركة دائبة.[25] وأضاف: « إن المرأة تتزوج في موضع وتلد في موضع آخر وتربي أطفالها في موضع ثالث دون أن تعرف للإستقرار طعما، ويختتم حديثة بالقول إنهم قوم جافي الطباع ».[26]

إن حياة البداوة مع غياب كيان واضح المعالم يضم شملهم وتؤطر حياتهم، إضافة إلى شظف العيش، فرض عليهم كل تلك الخصائص، فهم لم يختاروا أن يكونوا كما وصفهم ماسيليانوس، إلا أن الطبيعة المقفرة هي من حددت لهم ذلك المصير، ولربما يراهم معظم علماء الأنتروبولوجيا والاثنوغرافيا على أنهم برابرة متوحشون، غير أنهم يحملون صفات الشرف والعزة، دائما ما كانوا يطمحون لحياة أفضل عند مقارعة أعظم الممالیك والامبراطوريات، إذ نجحوا من فرض أنفسهم على ملوك بيزنطا وفارس، فعقدوا الصلح معهم عبر اقامة امارات عربية شمالية لعبت دور حراسة الحدود، وصد هجمات أعراب الوسط والجنوب.

تأتينا شهادة ثانية من الأسقف البيزنطي اوفميوس الذي وصف بدقة حياتهم وأخلاقهم، أما حياتهم تتصف بالبساطة والبدائية، كان موضع اقامتهم يتألف من خيام خفيفة الحمل وسهلة الطي ما يدل على عدم وجود حياة حضارية، أما أخلاقهم تتجلى من خلال رغبتهم الجارفة في حياة أكثر استقرارا.[27] سابور الفارسي الملقب بذي الأكتاف 310-379 م المعروف بفتكه للأعراب وإلحاحه

---

[24] ص 26-28.

[25] العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 52.

[26] نفسه.

[27] نفسه ص 68.

للقضاء عليهم، أدرك في آخر المطاف مكانتهم وفعاليتهم، وأنه لا يمكن معاداتهم إلى الأبد، بل ينبغي التقرب إليهم وعقد الصلح معهم وذلك ما أقدم عليه، يبدو أن سابور اكتشف القوة الكامنة فيهم، الشدة والبأس في الحروب، وفكر في الاعتماد عليهم لتحصين الحدود ومهاجمة الامبراطورية البيزنطية.[28]

لقد شكلت قبائل العرب الشمالية خطرا كبيرا على ممتلكات الإمبراطوريتين، سرعة فتكهم والانقضاض على القوافل التجارية ثم الهروب في صحراء الجزيرة وعدم امكانية تعقبهم ومحاصرتهم، لم تكفي الحصون والقلاع التي شيدها كل من الامبراطوريتين لدرء خطر السراقينيون الأعراب، فقد اشتهروا بمقدرتهم على الغارة الخاطفة فمباغتة العدو، بحيث لم يتركوا للروم ولا للفرس فرصة لتنظيم قواتهم لخوض معارك نظامية، فهم ينقضون فجأة ويضعون يدهم على ما يجدونه ناشرين الهلع والرعب والاضطراب ثم يسارعون في الانسحاب.[29] مما شكل عبئا حقيقيا لكلا الحكومتين، علاوة على قدرتهم في حماية الطرق البرية بين عالم الحضر وعالم البادية، فهم وحدهم سادة البوادي وفي أيديهم اكسير الحياة الماء، ولقد استغلوا أهمية هذه الطرق التي تشق البوادي وهي شرايين التجارة العالمية فتحكموا في مسالكها واستغلوا أهمية الماء بالنسبة للقوافل والجيوش. أخيرا، خلص كلا الحكومتين بأنه لا مناص من التعامل معهم، والتعامل مع الظرف الجيوسياسي الذي رسم ملامحه عرب الشماطيلة القرنين الرابع والخامس.

ان رغبة الأعراب في تحقيق الاستقرار ساهم بشكل كبير في استدراجهم من طرف البيزنطيين، ذلك وأن مصالحهم السياسية ألزمتهم التواصل معهم، ثم الاعتماد عليهم كقوة عسكرية ضاربة حتى يضمنوا سيطرتهم على الشرق وتدعيم وضعهم، ولقد سلك الروم سبل التفاوض بارضائهم، ثم ورثت بيزنطة سياسة أسلافهم الروم، سياسة الانفتاح والتفاهم والصداقة مع احدى المجموعات البدوية بغرض أن تعتمد عليها في اخافة القبائل الأخرى، فحدود شبه الجزيرة وبادية الشام في حوار مباشر مع حدود الامبراطورية البيزنطية، تلك الحدود المعرضة للغارات في أية لحظة، وعليه، بذل البيزنطيون شتى المحاولات لاجتذاب العرب والتعاون معهم.[30] لا شك أن الدين لعب دوره وساهم في تطويع كثير من القبائل العربية الشمالية المتعطشة للقتال. بدأ حكام بيزنطة منذ القرن الثالث وعلى امتداد القرن الرابع في نشر بعثات تبشيرية لتنصير أعراب جنوب الشام والأردن، فالنصرانية نجحت في احلال التفاهم والتقارب مع السراقينيين، بفضل النصرانية عرف جانب من الأعراب حياة الاستقرار ودخلوا في علاقات

---

[28]المفصل في تاريخ العرب ج الثاني ص 638-639.
[29]لعرب على حدود بيزنطة وإيران ص 133.
[30]ص 62.

شخصية مع الأديرة التي علمتهم الرهبنة، حياة التعبد وقلة الحركة، لذلك نفهم لماذا حارب الإسلام الرهبانية وأقصاها من حياة الأعراب محاولا احياء حماسهم وحميتهم في الغزو والإغارة بغية نشر الإسلام وتوسيع أركان الدولة، وهو ما أعلنه النبي محمد بالقول : عليكم بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام.[31]

اعتنق أعراب الشام والأردن النصرانية على المذهب اليعقوبي الذي يقول بأوحادية طبيعة المسيح، اللاهوت اتحد بالناسوت، هو مذهب يتفق مع الدين الرسمي لبيزنطة الذي سنه قسطنطين في القرن الثاني القائل بألوهية المسيح وانصهار بشريته في ألوهيته، وسمحت لهم بتكوين إمارة أو مشيخة، وهي امارة العرب الغساسنة منذ القرن الثالث، فالغساسنة هم عملاء وعرب الروم، تحالفوا معهم ضد الفرس، ولطالما تخفى البيزنطيون وراء آلتهم العسكرية لتهديد مصالح الفرس. وفي الطرف المقابل، عمل الساسانيون على التقرب من عرب العراق وعقدوا معهم تحالفا موجها ضد الروم، فمنذ اعتلاء أردشير الملك المؤسس العرش، تقرب من القبائل العربية وسمح لهم بتأسيس امارة غربية سميت بإمارة اللخميين المناذرة، والغاية هي تأمين الحدود الغربية للإمبراطورية ودرء خطر أعراب الجنوب واستعمالهم كمنطقة عازلة، ومن ثم الاستعانة بهم لتهديد المعسكر المقابل. اعتنق اللخميون النصرانية على المذهب النسطوري، ساند الفرس عقيدة نسطورس لا لأنها تعارض المذهب اليعقوبي فحسب، بل لأنه شبيه بالديانة الزرادشتية القائمة على المثنوية، إله الخير وآخر للشر، فالمذهب النسطوري يقول بثنائية طبيعة المسيح، أي أن الناسوت لم ينصهر في اللاهوت، والزرادشتية ذات طبيعة مثنوية. ان سياسة استصلاح الأعراب والتقرب إليهم استمرت بعد اردشير وهو ما فعله سابور الملقب بذي الأكتاف، حيث استدعى قبائل عربية عديدة وأسكنها في مواضع متعددة من العراق لتساعده في حربه ضد الروم.[32]

كانت الوظيفة الجيوسياسية لكل من اللخميين والغساسنة تتمثل في تحصين الحدود وردع هجمات القبائل التي لم تدخل في السلم مع الامبراطوريتين أو تتحالف معهما، وسيكون من الخطأ إذا اعتبرنا الإمارتين كدولة، لأن الدولة عليها أن تتمتع بسيادة مطلقة، فالإمارتين كانتا تحت تبعية الفرس والبيزنطيين، يمكن القول أنهما كبش فداء، ملتزمين بحماية الوجهة الخلفية لكلا الامبراطوريتين، وما نستنتجه هو كون الحكومتين اعتمدا على العرب من أجل دحر العرب، فلا يعرف دواليب الأعراب وخفاياهم إلا الأعراب أنفسهم، وإن صح التعبير فإن امارة اللخميين والغساسنة كانتا دولا عازلة[33] بمعنى حماية حدود الامبراطوريتين ضد الهجمات الخاطفة للأعراب، وعليه فإننا لا يمكن الحديث عن

[31]ورد في مسند أحمد رقم الحديث 11774 وابن مبارك في الزهد رقم الحديث 827.
[32]مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية جورج حداد، مكتبة العلوم للطباعة والنشر، ص 21.
[33]العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 48.

دولة، فمصيرهما مرتبط بحكومة الامبراطوريتين، لذلك يجد استعمال كلمة امارة أو مشيخة. وفي كل الأحوال، يمكن القول إن الأعراب الذين دخلوا في تحالف مع الفرس والروم حازوا على الامتيازات كالهدايا والمنح المالية المغرية والألقاب للقيام بالحراسة على أكمل وجه، وكان أعلى لقب يعطى هو الفيلارك أي العامل. لقد وعى الأعراب مكانتهم في رسم ملامح الوضع الجيو السياسي، وأنهم يشكلون رقما صعبا في المعادلة السياسية، يجب الاعتماد عليه إما بالرضى أو الإكراه، فمهمة حراسة الحدود لا يقدر عليها سوى الأعراب، وتأمينها ضروري لإبعاد شبح الهجوم المباغت، فبين الفينة والأخرى يستغلون الفرص السانحة والظروف المؤاتية لإرغام الحكومة على رفع جعالاتهم وزيادة امتيازاتهم، وإلا عدلوا عن الحراسة وهاجموا هم أنفسهم تلك الحدود، وهو ما حدث بالفعل في كثير من المناسبات، خروج فيلاركات الغساسنة والتحاقهم باللخميين والعكس.[34]

لم ينصاع اللخميون والغساسنة لسلطة الامبراطوريتين، فكانوا أحيانا يتمردون على الحكومة ويخرجوا عن سيطرتها ليرسلا بعثة دبلوماسية للتفاوض معهم وارضائهم، وكان بعض الفيلاركات يرغبون بأن يعاملوا كملوك لا كعملاء متبعين، امرئ القيس على سبيل المثال عميل اللخميين حوالي النصف الأول من القرن الرابع عرب الفرس، نصب نفسه كملك، وهناك مصادر أكدت أنه ملك، وهو رقيم (نص أو لوحة) يعود للقرن الرابع يوجد الآن في متحف اللوفر كتب عليه ما يلى :« هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد التاج، واخضع اسد ونزار وملوكهم، فلم يبلغ ملك مكانته».[35] وتتحفنا الرواية الإسلامية بالقول أن معظم الفيلاركات كانوا يطلقون على أنفسهم لقب ذي القرنين لقب الاسكندر المقدوني، تلك الشخصية التاريخية التي تأثر بها مجمل أعراب الدول العازلة وصاروا يطمحون لكي يكونوا مثله ويبلغوا مبلغه ويحققوا ما حققه من انتصارات وبطولات خارقة للعادة، وبالفعل لقد أثبت عرب الدول العازلة من بينهم المنذر ابن النعمان عميل الفرس حنكته العسكرية ودهاءه السياسي إلى درجة أن الفرس تفوقوا في كثير من المناسبات على الروم بفضل مخططات المنذر وشجاعته ومهارته، حتى أن حكام بيزنطة فكروا في جذبه لهم عبر إغرائه بالأموال، إلا أن المنذر كان مخلصا للفرس، وليس اخلاصه بصفة لا تفارقه، أي أصيلة، فيه بل لو استطاع لفعل وانقلب ضد الفرس، والسبب هو أن أملاك اللخميين التي كانت تحيط بالحيرة عاصمتهم، إنما هي امتداد طبيعي لمناطق ايران الغربية بحيث شكلت معها ما يشبه أن يكون وحدة جغرافية، ومعناه فإن كل محاولة للفكاك من سلطة الفرس سيعرض هذه الأملاك للخطر.[36] ونعيد ما قلناه سابقا كون العرب

---

[34] المفصل في تاريخ العرب ج الثاني ص 631.
[35] العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 39-43.
[36] ص 117-118.

دائما ما كانوا يترصدون حدوث ثغرات في الحكومة ويقتنصون مواطن الضعف وينتظرون الفرصة المناسبة لتوجيه ضربة مباغتة وموجعة لكل من الفرس والروم، وكأنهم يحاولون الإطاحة بكلا الامبراطوريتين من أجل بناء الدولة العربية القومية الموحدة لشتاتهم، التي ستخرجهم من عالم البداوة إلى عالم الحضارة. سيلاحظ الدارس لثالوث العرب، الفرس، والروم، أن فرص عديدة تمظهرت ليوحد فيها العرب كلمتهم ويكونوا قوة سياسية ضاربة قد تقلب المنطقة رأسا على عقب، ولكن هيهات، الحسد والغيرة طغى على سجيتهم، ناهيك عن عصبيتهم القبلية، فعندما يرون قبيلة بلغت مستوى من التفوق وأصبحت أفضل من الأخرى سرعان ما يغيرون عليها ويطيحون بها فيعودون إلى المربع الأول. لقد نهشوا لحم بعضهم البعض، حتى في أيام الصلح بين الفرس والروم اشتعلت نيران الحرب بين المنذر والحارث عميل الغساسنة، وقررت كبرى الدولتان تجاهل الحرب العربية، ذلك وأن الأمر لا يعنيهما في شيء، وتلك هي آفة العرب وبنيتهم النفسية التي لطالما شكلت عائقا عظيما أمام تحقيق مشروع الكيان السياسي، ولن يزول إلا بمجيئ الإسلام.

بلغ عرب الدول العازلة بفضل خوضهم الطويل لغمار الحروب طيلة قرنين ونصف وهم ممزقين بين الفرس من جهة والروم من جهة ثانية، درجة متقدمة في صناعة الأسلحة والتقنية العسكرية، جعلتهم يحضون بالاحترام والتقدير من كلا كبرى الدولتين، إلى حد أن الساسانيين ولوا إليهم مزيدا من الاهتمام وباتوا أكثر وعيا أنهم عنصر فاعل في مستقبل حروبهم ضد الروم. لا شك أن الدارس للديوان الذي سجل أيام العرب تلك الملاحم التي وحدت في معظم الأحيان كلمتهم وحولتهم إلى كتلة واحدة صامدة تقارع العدو وتلحق به الهزيمة ولو في عقر داره، دليلا يبين قدرتهم على التغيير، انه ضرب من القصص البطولية ولو أن فيها شيئا من المبالغة، إلا أنها تعكس بصدق خلق الأعراب وتركيبتهم النفسية ورغبتهم الجامحة للسمو بأنفسهم وعدم الرضوخ للإهانة والإذلال. من بين ذلك القصص ملحمة ذي قار الشهيرة، إنها يوم من أيام العرب الكبرى، اليوم الذي تمكنوا فيه من إلحاق هزيمة نكراء بالفرس، وأثبتوا أن بمقدورهم كسر شوكة كبرى جيوش الفرس.[37] لقد أحيط بالحدث هالة من الفخر جعلته أقرب إلى الأسطورة، وطبيعي أن يفعلوا ذلك فقد حققوا المستحيل، الاطاحة بأكبر جيش عرفته المنطقة، ولقد ترك أثرا عميقا في أدبياتهم قبل مجيئ الاسلام وزيدت عليه كثير من التزويقات والخوارقيات، وعلى كل حال فإن يوم ذي قار يبقى دليلا تاريخيا يكشف لنا وجود ارادة لدى الأعراب للخروج من قاع القمقم، ولكن هي ارادة بالقوة وليست بالفعل أي ارادة لم تبلغ درجة

[37] ص 147-148.

الاكتمال، وقفت العصبية القبلية والشخصانية*كحجرة عثرة أمامها ولن تزول إلا بظهور الدين، يعمل على تحطيم الأطر الاجتماعية القبلية القائمة على ظاهرة التفاخر والتناحر.

*الشخصانية هي الشعور بتعالي وتفوق الأنا وعدم الانصياع للمؤثرات الخارجية فالعربي بحكم بداوته وترحاله في الصحراء يميل دائما للحرية ويرفض بشدة الانحباس في الأطر الاجتماعية الثابتة، وهي كما يصفها ابن خلدون الأنفة.

الفصل السادس: الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في شبه الجزيرة العربية

ان بحثنا ينطلق من العام الى الخاص، من الكل إلى الجزء، درسنا أولا الإطار التاريخي العام لمنطقة الشرق الأوسط، احتكاك العرب بمجتمعات الشرق القديم، ونحن في هذا السياق نمهد الطريق لتقويض الفكرة التي يتبناه معظم المسلمين أن العرب والجزيرة كانتا بمنأى عن التيارات الفكرية العقائدية السياسية السائدة قبل ظهور الإسلام، وكأنهما كانتا في عزلة تامة لا يعرفون شيئا ولا يدرون بما يجرى من حولهم، ثم نزل عليهم الإسلام فجأة، بطريقة سحرية أخرج العرب من سباتهم، فكرة تنم عن جهل مطبق بالماضي واهمال مطلق لتاريخية الأفكار، ويبدو أنهم تبنوها بغية التأكيد على عدم تأثر الإسلام بالبيئة التي نشأ فيها والقول أنه تجربة فريدة من نوعها غير معنية بالنسيج التاريخي الذي أحاط به، ولم ينهل من معارف وفلسفات عصره، وتلك فكرة فسيدة وذهنية ركيكة، ولو درسوا تاريخ الأفكار وفلسفة الأديان لادركوا أنه لا توجد حقيقة من فراغ وكون الدين هو علم مقنن، يتطور بتطور الانسان وتغير أفكاره تجاه الواقع والحياة ومعاملته مع الآخر ومكانته في المجتمع ولا يمكن أن نتناوله من منظور مثالي ميتافيزيقي، إنه حركة ديالكتيكية دائمة تقوم على التأثير والتأثر، والميتافيزيقيا لا تعترف بذلك.

ان الإطار الجيوسياسي خلال القرن الثالث والرابع ميلادي يعكس وضعا استثنائيا في شبه الجزيرة العربية، الوسط والجنوب كانا محاطان بحزام ممتد على طول المنطقة الشمالية، حزام ممثل في المناذرة والغساسنة بهدف درء الهجمات الخاطفة، وعندما قلنا دول عازلة فإن ذلك لا يعنى عزل عرب الوسط والجنوب عن الفضاء الخارجي، أو عدم تسلل التيارات الدينية والفلسفية إليهم، بل دورهم انحصر في صد العدوان لا القوافل التجارية أوالاتصالات الخارجية، فالجزيرة هي مركز وفود سكان الشرق، كنعان مصر الشام العراق فارس، لقد بؤرة من المعتقدات، لقد مثلت ملاذا للفارين بسبب عقيدتهم المتعارضة مع الديانة الرسمية لبلدانهم، ولا شك أن تواجد قبائل يهودية في يثرب ومكوثهم هناك ليس من باب الصدفة، نظرا وأنه لم توجد دولة ذات سيادة في الجزيرة قبل ظهور الإسلام أو ديانة رسمية تطارد المهرطقين، بل الجو الديني السائد كان حرية المعتقد والدين. وعليه، كانت شبه الجزيرة العربية محطة عبور أكبر الممرات التجارية في الشرق قبل وبعد ظهور الإسلام، وشهدت تلك الطرق نماء وازدهارا بمرور الزمن، وخصصت لنقل مستوردات الهند شرق افريقيا وبلاد اليمن إلى الامبراطوريتين. ربما ذلك التواصل التجاري يفسر لنا لغز تواجد ألفاظ غريبة في اللغة العربية

والقرآن، ولقد تفطن اللغويون المسلمون لغرابة بعض الألفاظ ولم يقفوا على معناها فحبسوها كلها من صميم العربية.[39]

بعد أن ألقينا نظرة خاطفة على الإطار الخارجي لشبه الجزيرة وموضعها في المنطقة، ورأينا أنها لم تكن معزولة، فالعرب كانوا يشاركون في صنع القرار ورسم ملامح الوضع الجيو ستراتيجي، سنتطرق الآن للإطار الداخلي، دراسة أحوالها على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. المرحلة الأولى وضحت لنا علاقة شبه الجزيرة بالمنطقة (الشرق الأوسط)، أما المرحلة الثانية ستوضح لنا علاقة سكان الجزيرة ببعضهم البعض من هجرات ونزوح وصراعات وانقلابات، علما أن الوضع الداخلي يؤثر على الوضع الخارجي، فمنطقة الشرق الأوسط بمثابة اللوحة الفسيفسائية، وشبه الجزيرة كانت جزءا لا يتجزأ منها، ما سيحدث في الفضاء الداخلي ستكون له تبعات مباشرة على الفضاء الخارجي.

لكي نفهم الأحوال الداخلية لشبه الجزيرة أرى لزاما الوقوف على موضوع أصل العرب الذي سيفرض علينا فك لغز كبير ألا وهو بلاد اليمن. أغلب الدراسات الانتروبولوجية والتاريخية تتفق على أن أصلهم من اليمن، والواقع أن الماضي السحيق لليمن هو من أعقد وأصعب المسائل، لأنه لا يمكن حلها بسهولة، فحضارة اليمن بقيت مطمورة لقرون، وما نملكه من معلومات عنها يبقى شحيحا بالرغم من المجهودات الجبارة من طرف المستشرقين لفك ذلك اللغز، والسبب أن المعاول لم تضرب فيها كما ينبغي، والبعثات الأركيولوحية عددها محدود ولم تجد ظروفا ملائمة بسبب غيات الاستقرار السياسي.

كتابات المسلمين حول حضارة اليمن كثيرة ولا يمكن طبعا الاعتماد عليها لأن الأسطورة والخرافة وجدا سبيلهما إليها، وذلك ما نوهت له في بداية الكتاب، وأنه يجب الحذر من أعمال المؤرخين المسلمين لأنهم مولعون بحديث الأسطرة وهدفنا هو اجتثاثه لا تثبيته. لفك هذا اللغز، يمكن الإعتماد على ما دونه مؤرخووا اليونان مثل هيرودتس وبعض الرحالة الذين نبغوا في الحديث عن العرب وتقصي أحولهم، كذلك سترابون الذي عاش في القرن الأول ميلادي، وبطليموس الذي عاش في القرن الثاني للميلاد، أيضا اراتوستان فيلسوف وجغرافي عاش في القرن الثالث ق.م. والجدير بالذكر، فإن ماضي اليمن وتاريخها هو أعرق من أن نرجعه للقرن الثالث ق.م، فتاريخها يعود إلى قرن الثامن ق.م والبعض يرى أنه يعود إلى القرن الثاني عشر ق.م. المهم أن كتابات اليونانيين تبقى بعيدة عن الاسطورة، ذات طابع تاريخي صرف، لذلك فهي ستمدنا بمادة كفيلة لتوضيع ملامح حضارة اليمن، ولا ننسى كذلك بعض بحوث المستشرقين التي تميزت بدرجة عالية من الجدية والمصداقية.

[39]في طريق الميثولوجيا عند العرب سبق ذكره ص 15.

ان توظيف الفيلولوجيا علم أصول الألفاظ والكلمات سيساعدنا لفك اللغز، السؤال الذي علينا طرحه؛ هل لفظ عرب إحالة على قومية وجنس أم صفة؟ بالرجوع الى نصوص الآشوريين والبابليين يبدو أن لفظ عرب لا يحيل إلى قومية بل على صفة، ذلك وأن الآشوريون عندما سجلوا حروبهم وغزواتهم ذكروا لفظ أريبو أو ايربو Aribu و السياق هنا لا يحيل إلى جنس أو قومية انما إلى صفة، وتعني سكان البادية أو الذين يسكنون الصحراء.[40] ورد في الكتابات البابلية لفظ ماتورابي، ماتو تعني أرض والكلمة أرض الأعراب والمراد منها أرض البادية، وبناء عليه فإن الآشوريين والبابليين والفرس كانوا يصفون كل من يسكن البادية والصحراء بالعربي، ونقول فلان يحيى حياة العرابة، أي الجفاف والقفر، كما ورد اللفظ في اللغة العبرية، يدل على البداوة وحياة البادية.[41]

أول من استعمل لفظ عرب من اليونان هو المؤرخ أخيلوس حوالي القرن الخامس ق.م. كان مُلِما بأحوال سكان الجزيرة وأطلق لفظ أرابا على العرب وأضاف إليهم سكان سيناء ونهر النيل، إذن فإن لفظ عرب عند اليونان والرومان شمل سكان المناطق المقفرة الجافة على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم.[42] في المقابل، لفظ اليمن يشير لمناطق الخصبة والمزدهرة، واللفظ لوجدناه مشتق من الامتنان، يقال فلان ممتن أي راض وسعيد، وقد أطلق على اليمن "العربية السعيدة". ليس من قبيل الصدفة وقع اختيار هذا الإسم، فالعامة تنطق بلأسماء وتعتقد أنها وضعت بطريقة اعتباطية، ولو قمنا باستقراء الأسماء المستعملة في حياتنا اليومية لوجدناها مشتقة من جذور وأصول لغوية ومراجع تاريخية. ان المناخ الذي كان سائدا في اليمن شبيه بمناخ منطقة الهلال الخصيب، كثرة الأمطار ووفرة المياه، وبطبيعة الحال فإن الاستقرار لا يتحقق إلا بوجود الأرض الخصبة الصالحة للزرع، وذلك يحتاج للأمطار. أطلق اليونان والرومان اسم العربية السعيدة على بلاد اليمن لخصوبة أراضيها التي تتساقط فيها الأمطار بغزارة، وقد كانت مركزا تجاريا كبيرا محتكرا لتجارة البخور والتوابل والحرير، ولعبت دور نقطة الوصل بين شرق افريقيا وبلدان آسيا كالهند والصين، حلقة وصل من جنوب الجزيرة عبر البر إلى الشام وفارس ثم اليونان. لا نبالغ لو قلنا إن اليمن بثروتها المناخية والإقتصادية تحكمت في اقتصاد الشرق القديم طيلة قرون، وذلك التحكم لم يكن قبل ظهور الاسلام بقرن أو قرنين إنما بدأ منذ القرن السابع أو السادس ق.م. أُطلِقَ على السكان الذين يقطنون اليمن عرب الجنوب، ذلك لا يعني أنهم يحيون حياة البداوة والترحال مثل عرب الشمال، ولكن وقع تسمية أهل اليمن بالعرب لأن اللفظ شمل الجميع، فالبداوة والجفاف هما الميزة الأساسية للمناخ أما الخضرة والخصوبة فهما استثناء. ناهيك أن

---

[40] المفصل في تاريخ العرب ج الأول سبق ذكره ص 15-16.
[41] ص 17-18.
[42] ص21.

أهل اليمن الذين عاشوا حياة الاستقرار وذاقوا طعم التمدن والحضارة كانوا يُعرفون بأنفسهم باستعمال أسماء مدنهم كسبأ وهمدان وحمير.[43]

خلال القرن السادس ق.م، لم يوجد تقسيم واضح لسكان شبه الجزيرة، فلا أحد يجرأ على ترك الازدهار الاقتصادي و الرخاء الاجتماعي، ليحيى حياة البداوة والترحال في مناكب الصحراء. معظم العرب، باستثناء أعراب بادية الشام والبترا، كانوا يعيشون في أقصى الجنوب أين وجدت وفرة الأمطار. هنا في حديثنا عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي سنذكر صنفين من العرب، الأول عرب الجنوب وهم سكان اليمن، وعرب الشمال ونقصد بالشمال البدو. يلخص لنا القرآن بأسلوب مقتضب الوضع الاقتصادي للجزيرة﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ (سبأ/15) مدينة سبأ من بين أشهر الممالك التي حكمت اليمن، والأرجح أن تاريخها يعود إلى القرن السابع ق.م، وأخبارها وصلت إلينا بوفرة مقارنة ببقية الممالك. لقد وصف القرآن بدقة الوضع الاقتصادي معتبرا أن ما وصلت إليه المملكة من رخاء وازدهار معجزة إلهية، وكأنها جنة فوق الأرض، تشير الآية للوضع الاجتماعي والإقتصادي كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ، أي أن أرضها خصبة ومنتوجها من الثمار والغلال وفير وذلك دليل على رغد العيش.

احتلت مملكة سبأ مكانة اقتصادية عظيمة في التاريخ القديم، حيث كانت الشريان النابض للتجارة العالمية عبر البر والبحر، ويبدو أن حكوماتها المتعاقبة يمتلكون مهارات عالية في تسيير شؤون الدولة. لقد استغلوا الثروة المناخية من خلال بناء السدود لتوزيع مياه الأمطار على سهولها الزراعية، وسد مأرب هو من أعظم تلك السدود، وتبين أنه يروي أكثر من أربعة آلاف من الأفدنة،[44] محولا الأرض اليابسة إلى جنان. بناء السدود كشف عن مستوى تقدمهم في علم الهندسة المدنية، وسد مأرب هو السر وراء تلك القوة الإقتصادية للمملكة، انهياره مثل كارثة حقيقية. أشار القرآن كون انهيار السد سينجر عنه تدهورا حادا للوضع الاقتصادي ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ (سبأ/15) الخمط هو الحامض والأثل هو الهالك، انهيار السد يعني بداية الإنحدار، يؤكد القرآن أن الله من أراد ذلك بسبب تكذيب الرسل، والقرآن دائما ما يجعل الله فاعلا في التاريخ، وقد يكون ذلك للوعظ فحسب، لأن الانهيار عائد بالأساس في التفريط في صيانته، وقد وقع ترميمه مرار وتكرارا من قبل السبئيين، إلا أنه لم يصمد أمام الزمان. الآيات من سورة النمل تكشف مدى القوة السياسية للمملكة﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ

[43]ص 23.
[44]العرب قبل الإسلام د. خليل يحيى نامي، مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف، ص 96.

وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ (النمل/24/23/22) هذه القصة نجد صاداها في التوراة، وهي تتحدث عن ملكة أطلق عليها الإخباريون اسم بلقيس، وصلت اليها أخبار مملكة سليمان وحكمته، حب اطلاعها دفعها للذهاب إليه، غير أنه لم يجد علماء الآثار دليلا ماديا يثبت وجودها التاريخي، ونحن لدينا قائمة طويلة وعريضة بأسماء ملوكها. إذن، فالقصة رمزية لا غير وظفها، كُتّاب التوراة بهدف تضخيم مكانة مملكة سليمان والرفع من شأنها. ولئن كانت تلك الشخصية رمزية فهذا لا يشكك في القوة السياسية لسبأ ودورها في المنطقة كمركز تجاري عظيم. صحيح أن التوراة مزيج من التاريخ والميتاتاريخ ولكنها تمدنا ببعض الإشارات والقصص الرمزية القابلة للتأويل شأن كل النصوص الدينية، فنقرأ فيها كون ملكة سبأ وصلت إلى مدينة القدس في محفل كبير، مكون من الجمال الحاملة للعطور والذهب وكمية هامة من الأحجار الكريمة.[45] إن ذلك المحفل ليس من وحي الخيال إنما هو إشارة مبطنة للثروة الإقتصادية لسبأ. اليات التالية تبين القوة السياسية والعسكرية للمملكة؛ ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾. (النمل 35/33/34/32)

الآيات من سورتي سبأ والنمل سلطت الضوء على ازدهار المملكة ومدى قوتها، ولما أكدنا رمزية القصة، أي أنها ليست تاريخية، إلا أننا نستخلص منها مستوى التحضر الذي وصل إليه عرب اليمن بين القرن الثامن والسابع ق.م. أشارت الآيات ضمنيا إلى طبيعة الحكم الذي يرتكز على المشورة والنقاش في الحياة السياسية، عكس الحاكم المستبد، كما تتمتع المملكة بجيش نظامي قوي مطيع لحاكمه وللمملكة ، ولكن ما يلفت النظر هو ما صرحت به ملكة سبأ بالقول إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، يبدو أن طبيعة النظام في سبأ لم يكن ملكيا، انما هو مكربي أو مقربي. ذلك ما أفصحت عنه النقوش الأثرية السبئية، ومعنى المقرب هو التقريب، وكرب أي دنا وكل دان قريب فهو مكرب، والمكربين هم كهنة وسطاء بين الآلهة والشعب. رأى بعض المؤرخين أن حكمهم دام زهاء ثلاث قرون ثم تحول إلى ملوكية.[46] أثبتت بعض الكتابات للملك الآشوري سرجون القرن السابع ق.م أنه تسلم هدايا من مكربي سبأ،[47] ما يكشف عن وجود تواصل سياسي بينهما، وما بلغت إليه من قوة

[45] سفر الملوك الأول 9-10.
[46] المفصل في تاريخ العرب ج الثاني ص 228-229.
[47] ص 278.

سياسية وازدهار اقتصادي، وذلك طبيعي إذا قلنا أن اليمن كانت مركزا تجاريا لعبور السلع التجارية نحو الشمال.

إن أفضل وسيلة تخول لنا تقصي الوضع الاجتماعي هي الدين، فالدين كما أوردنا ينظم المجتمع ويقننه. نظام المكربين لعب دورا رياديا في الحفاظ على التماسك الاجتماعي، ذلك وأن المكرب يستمد سلطته من الآلهة، ويلعب دور الوسيط، وهذا النظام يسمى تيوقراطيا. أثناء التنقيبات الأثرية لمجمع الآلهة، اكتشف الباحثون أسماء كثيرة وحسبوها للآلهة، فخرجوا بمجمع موسع لكل منطقة على حدة، يحتوي على عدد هائل من الأسماء، ومع استمرار البحث تبين أنها ليست أسماء آلهة بل صفات، وأن الها واحدا قد تتبدل صفته حسب المنطقة، واتضح فيما بعد أن السبئيين يدينون بمجمع آلهة واحدة، وبانتقال الإله إلى مكان آخر يتغير اسمه. الأمثلة على ذلك عديدة، فاسم كهل هو صفة أو لقب لإله معين نسبة إلى المملكة المعينية التي سبقت حكومة سبأ، اسمه وُد اله القمر وتحول اسمه إلى المُقَة مع السبئيين، كذلك رحمان أي الرحيم ومنعم أي المنعم، ومن الصفات والألقاب ما يبدأ بـ ذو أو ذات، ومن بين هذه الصفات ذو خلص وذو شرى وذو قبض وذات حميم، وهي كما يظهر صفات وألقاب وليست بأسماء.[48]

خلصت بحوث المستشرقين أن الديانة الرسمية لليمنيين، عرب الجنوب، هي ديانة نجمية يتحكم فيها آلهة ثلاث، الشمس والقمر والزهرة، والديانة النجمية ومعتقد التثليث ورثهما اليمنيون من حضارات الشرق القديم، خاصة الكلدانيين والبابليين الذين نبغوا في علم الفلك والتنجيم، كان الصابئون نسبة إلى ديانة الصابئة هم في الحقيقة تلاميذ الكلدانيين، عاشوا في جنوب العراق وعلى تخوم شمال الجزيرة العربية، انتشار عقيدتهم وفلسفتهم التي تعتبر الأجرام السماوية أجسام روحانية وكوسطاء وشفعاء بين الإنسان والآلهة بين العرب هو أمر مؤكد اعتمادا على مبدأ تاريخية الدين وتطوره، والدين الصابئي يميل إلى التفريد أي عبادة إله واحد مع الاعتراف ببقية الآلهة. لا شك أن حملة نبونيد على تيماء كانت أول حلقة وصل ساهمت في تصدير فكرة الديانة النجمية التفريدية. تتحفنا النقوش الأثرية برموز للدلالة على الثالوث الإلهي، فنجد دائما قوسين مزدوجين متجهين نحو الأعلى دلالة على القمر، ودائرة دلالة على الشمس، ونجمة دلالة على الزهرة، وإله القمر يتبوأ مكانة عليا داخل الثالوث، فهو المركز ورمزه الثور وذلك للشبه بين قرنه والهلال، وله ألقاب متعددة من بينها ذي سماوي أي رب السماء، والرحمان، والحكم أي الحكيم.[49] يرى بعض الباحثين أن اليمنيين عرفوا التوحيد الخالص

[48] موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح، الأعمال الكاملة، الطبعة الرابعة 2017، ص 407.
[49] ص 408.

بعبادتهم إله القمر، ونحن نري أنهم تفريديون وليسوا بموحدين، ناهيك ووجود التثليث الذي يتعارض مع فكرة التوحيد الخالص.

إن انحدار مملكة سبأ حوالي القرن الأول ميلادي، أزاح اليمن عن السيطرة على مركز التجارة العالمية في الشرق، ولم تحضي المملكة الحميرية وريثتها بنفس القوة بالرغم من أنها سيطرت نوعا ما على الموانئ والطرق التجارية البحرية، ويبدو أن البحر الأحمر أخذ تسميته من الحميريين. في الواقع، عدة عوامل تضافرت فأدت إلى فقدان عرب الجنوب مركزهم، أبرزها انهيار سد مأرب الذي تسبب في نزوح موجة كبيرة منهم، فشتت وحدتهم وفرق جمعهم. وصول الرومان للبحر الأحمر والسيطرة عليه ومحاولتهم في مناسبات عديدة احتلال اليمن، إضافة إلى تدخل الفرس والاستلاء على الطرق التجارية البحرية، وذلك ما أكده المؤرخ بروكوبوس السيزاريProcope de Césarée عميل البلاط البيزنطي، كون نسبة كبيرة من السلع الواردة من الهند المتجهة للخليج وبلاد الرافدين يقع الاستلاء عليها من طرف التجار الفرس، كلها عوامل سرعت من تدحرج مكانة عرب الجنوب الاقتصادية.

الفصل السابع: ثنائية القحطانية والعدنانية وفك لغز النسب الأسطوري التوراتي

كنت قد ذكرت أن العرب لم يتمكنوا من إقامة دولة تجمع شتاتهم وتوحد كلمتهم، وما تفضلت به في الصفحات السابقة قد يتعارض مع الذي ذكرته، لم يقيموا دولة إنما حضارة برمتها، وربما سيشعر القارئ بنوع من التناقض مما ذكرنا. في حديثنا عن اليمنيين وصفتهم بأنهم عرب الجنوب، وفي الحقيقة لم يطلق عليهم اسم العرب إلا مؤخرا، لأن العرب صفة يراد منها الذين يسكنون البادية والصحاري ويعيشون حياة الترحال، لكن التوصيف انسحب فيما بعد على الحضر والبدو، ونحن عندما تحدثنا عن الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ربطناه بشبه الجزيرة، ولم نحدد الشمال أو الجنوب، فالجنوب ممثلا باليمن ولكنه جزء منها. ثم إننا تعاملنا مع المشهد كقطعة واحدة غير مجزأة، والوضع العام لشبه الجزيرة يتضح عندما نقوم بتصنيف مضبوط لسكانها، عرب الوسط والشمال من جهة، وعرب الجنوب من جهة أخرى. إن المشهد معقد نوعا ما، إنه بمثابة اللغز، فاليمنيون ليسوا عربا لأنهم حضر وهم عرب لأنهم أصبحوا بدوا، وذلك بعد نزوح موجة منهم إلى الشمال واستقروا في الحجاز بسبب تدهور الوضع الاقتصادي. وبناء عليه، فإن العرب الذين لم يتمكنوا من إقامة دولة وحضارة هم عرب الوسط والشمال وليس عرب الجنوب. لقد أكد جرجي زيدان أن عرب الشمال الذين نزحوا من الجنوب بقوا خاملي الذكر لأنهم لم يؤسسوا دولا.[50]

توقفنا في العنصر السابق على جملة من العوامل أدت إلى تقهقر اليمن وفقدان دورها الريادي كمحطة ترانزيت بين الهند وافريقيا من جانب والروم والفرس من جانب آخر. سقوط مملكة سبأ واحتلال الروم البحر الأحمر الذي كثيرا ما اعتمد عليه عرب الجنوب لعبور سلعهم، إضافة إلى تحرش الفرس بالسفن التجارية والطرق البحرية، ولم يعد لسكان اليمن رئة يتنفسون منها، وأصبحت لقمة سائغة أمام القوى الكبرى الممثلة في الساسانيين والبيزنطيين عشية ظهور الإسلام، فخضعت للاحتلال الفارسي سنة 570 ق.م، وحاول البيزنطيون احتلالها أيضا بمعونة أبرهة الحبشي سنة 540 ق.م.

لم يبقى الوضع الاجتماعي على حاله في اليمن، ولقد أشرنا أن انهيار السد الذي حصل في عديد من المرات إنجر عنه انشطار المجتمع وتشتت عرب الجنوب ونزوحهم إلى الشمال وتحديدا منطقة الحجاز، وتأتينا أخبار هؤلاء النازحين من صدور الكتب الاسلامية على أنهم عرب من أصول عدنانية، مقابل عرب القحطانية وهو ما يعرف في التاريخ الإسلامي بالصراع بين عدنان وقحطان.

---

[50] العرب قبل الإسلام جورجي زيدان، دار الهلال ص 188.

إن ذلك الصراع هو في واقع الأمر عائد للعصبية القبلية، أي التفاخر بالأجداد والأنساب، ولو تمعنا في المسألة، فإن كلا من قحطان وعدنان لا أثر تاريخي لهما. أما اسم قحطان ورد في التوراة، ولا وجود لعدنان أو ربما هو مشتق من عدن مدينة في اليمن. لا شك أن عرب الشمال الذين تركوا حياة التحضر كانوا في صراع دائم مع عرب الجنوب، وهو صراع أنساب، فأهل المدر يتفاخرون عليهم ويعتبرون أنفسهم أعلى منهم شأنا لأنهم شيدوا حضارة وسكنوا القصور، أما أهل الوبر فهم بدو رحل لم يعرفوا الحضارة ولم يسكنوا المدن، ونحن لا نقصد هنا بالأوائل النازحين من اليمن إنما المتأخرين عنهم الذين سمعوا عن أجدادهم بالتواتر ما عاشوه من تمدن وقوة وحفظوه في ذاكرتهم. كما أن الكتب الاسلامية لا تمدنا بأي أمارة ترفع طلاسم ثنائية العدنانية والقحطانية، بل نجد في كلامهم خلط وتخليط، تضارب وتناقض، وطبيعي أن يكون الأمر كذلك فكل ما وصلنا مصدره الإخباريون الذين ينقلون ولا يفحصون الخبر، فهم شغفون بحديث الأسطرة كما وضحنا ذلك سابقا.

اعتبر المستشرق الفرنسي جوزيف هاليفي حدث النزوح إلى الشمال أسطورة والزعم أن القبائل التى سلكت طريق النزوح تنتسب إلى اليمن هو خبر ميتاتاريخي. كذلك المستشرق الألماني تيودور نولدكه الذي شكك في ذلك النسب ورآه محض خرافة، ونحن نرجح ذلك الرأي ونقول إن انحدار العرب من شخصين الأول قحطان والثاني عدنان لا أساس له، إنه يعود لميزة لدى الأعراب ألا وهو التفاخر بالأنساب والعصبية القبلية كما ذكرنا. لا نسلم كون النزوح حدث بالفعل، فقد يكون قد نسجته مخيلة أعراب الشمال للإعلاء من شأنهم واثبات أنهم أصيلوا اليمن وأن أجدادهم عاشوا الحضارة والتمدن، ونقل المؤرخون المسلمون[51] في كتبهم ذلك الصراع القبلي المحموم بين مكة والمدينة عشية ظهور الإسلام وخلال الأيام الأولى من دعوة. بنو هاشم الذين يزعمون أنهم من سلالة عدنان يتفاخرون على الأوس والخزرج لأن النبوة أستلت منهم، والأوس والخزرج ادعوا أنهم ينحدرون من عابر وقالوا إنه النبي هود وهو من سلالة قحطان، ونلاحظ ذلك الإسقاط بين هود وقبائل الأوس والخزرج الذي لا أساس له لكي يثبتوا أن النبوة أستلت منهم كذلك. لقد خلصت بحوث جواد علي، أنه لا وجود تاريخي لعدنان وقحطان، وقال إن الأول قد يكون كناية لحلف وجد قبل الإسلام،[52] إنما هو ليس بكناية ولا بحلف، بل نسيج المخيلة.

لقد تأثر العرب بالقصص التوراتي وما فيه من نسب، واعتقدوا أن الأحداث التي يسردها تاريخية ولا سيما عهد الآباء بداية من إبراهيم إلى موسى، فاستلهموا منهج كُتاب التوراة الذين أرادوا نسج تاريخ

[51]ابن هشام والمسعودي
[52]المفصل في تاريخ العرب سبق ذكره ج الأول ص 482.

وماضي سحيق لهم، وربطوا أنفسهم بإبراهيم، قالوا إن يهوه الإله وعده بمضاعفة نسله وبتوريث أحفاده أرض كنعان بعده. غير أن البحوث الأركيولوجية الحديثة أثبتت أنه لا وجود تاريخي لأحداث سفر الآباء، كله محض خيال وأسطورة، غايته تأسيس أصل ونسب متعاليين على بقية الشعوب. لقد تعايش العرب مع اليهود في شبه الجزيرة طيلة قرون قبل ظهور الإسلام*واستمعوا لتوراتهم، استوعبوها ثم استلهموا منها المنهج الأسطوري في تدوين الأنساب، ومن هنا نفهم أن قصة عدنان وقحطان شبيهة بقصة سام وحام ويافث في التوراة.

شعر العرب أهل البادية بوجود جد بعيد لهم ألا وهو اسماعيل الابن البكر لإبراهيم، واستشعروا نوعا من القرابة بينهم وبين اليهود، فاليهود عبرانيون حياتهم شبيهة بحياة العرب، عاشوا في البادية وتنقلوا فيها، وقالوا (العرب) أن الأصل الذي يجمعهم باليهود واحد، واعتقدوا أنهم أبناء ابراهيم من اسماعيل، وأن ابراهيم ترك اسماعيل مع أمه هاجر في صحراء الحجاز لا برية فران في سيناء، والبعض أُوَّلَ التسمية وقال أن صحراء الحجاز يطلق عليها برية فران كذلك، ثم قالوا أن اسماعيل تزوج من الجراهمة، هم أول من سكنوا مكة بعد أن نسبوا إليه بناء الكعبة مع إبراهيم. أصداء هذه القصة تعود إلى عشية ظهور الإسلام، ويبدو أن الأحناف هم أول من نطقوا بها. ان الأحناف هم موحدون باطنيون، كانوا ينادون بالتوحيد وعبادة الله مباشرة من دون وسائط ولا شفعاء، انهم يرفعون معتقد التوحيد الخالي من الشرك، والرسول كان منهم. زعموا أن سكان الجزيرة كانوا موحدون، ولكن فسد هذا التوحيد بعد ادخال عبادة الأصنام وزاغوا عن الدين الأصلي، الدين الحنيف، وربطوه بإبراهيم الجد البعيد للعرب. إن موقف الأحناف قريب من ثنائية العدنانيين والقحطانيين ومتأثر بمنهج التوراة، التأسيس لماض عريق متجذر في القدم، يصب في مجرى صراع الأنساب والعصبية القبلية. لم تكن دعوة الأحناف، عبادة الله الواحد الأحد، غريبة في أوساط شبه الجزيرة، بل إن العرب قبل الإسلام عرفوه ولكن بأسلوب عليه مسحة من الموروث الديني الرافدي الكنعاني، ألا وهو التثليث، إضافة إلى المورث الكلداني الصابئي القائم على التفريد، غير أن إقصاء الأحناف لمبدأ التوسط بين الله والانسان كان يشكل خطرا على المكيين وخاصة قريش التي ترى فيه تقويضا للحرية الدينية وتهديدا للاقتصادها وضربا لأواصر المجتمع المكي القرشي، وذلك ما سنتطرق إليه ونوضحه في الصفحات القادمة.

ان كل ما ذكره العرب من نسب ابراهيمي اسماعيلي هو حلقة من العصبية القبلية التي نسجتها مخيلة العقل العربي المتعطشة لترقيع وضعه الاجتماعي الصعب، المتمثل في حياة البداوة والترحال

*أسكن الملك نبونيد بعض اليهود في يثرب منذ القرن السادس ق.م.

وعدم الاستقرار، فعساهم بالنسب الابراهيمي الإسماعيلى يوطدون أرحامهم ويحققون لحمتهم في بيئة مقفرة ومتوحشة، يطغي عليها الغزو والإغارة وغياب دولة المؤسسات الراعية لمصالح الفرد.

شرح ابن خلدون المسألة:« و ذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة. وهي لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والإبل تدعوهم إلى التوحش والقفر لرعيها من شجرة، ونتاجها في رماله كما تقدم، والقفر مكان الشظف والسغب، فصار لهم إلفا وعادة وربيت فيه أجيالهم، حتى تمكنت خلقا وجبلة، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال، بل لو وجد واحد منهم السبيل الفرار إلى حاله، وأمكنه ذلك لما تركه، فيؤمن عليهم اختلاك أنسابهم و فسادها».[53]لقد أكد ابن خلدون أن قصص النسب يخدم غاية اللحمة الاجتماعية لدى العرب، خاصة وأنهم أهل بداوة وترحال، فالعصبية هدفها الذود عن شرف وعزة القبيلة، « ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد».[54] حقيقة أن الإسلام عمل على اصلاح مجتمع البداوة من خلال الغاء العصبية بين القبائل العربية، بغية توحيدهم تحت راية واحدة، علما وأنه لم يقضي عليها تماما لأنه يحتاجها من أجل الرد على أهل الكتاب، وتبكيت أصحاب النحلات، وذلك يظهر بجلاء في حديث الرسول عن نسبه أنه محمد ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.[55] في حديث آخر يعلن أن الله اصطفي كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريش من كنانة واصطفى من قريش بنني هاشم واصطفاني من بني هاشم.[56] هذا وقد أكد في مناسبات عديدة أن نسبه يعود إلى عدنان واتهم بالكذب النسابين الذين تجاوزوا عدنان إلى اسماعيل، ونجده في مرحلة أخرى يربط نسبه بإسماعيل، فأي الحديثين أصح؟

كلا الحديثين صدرا عن الرسول ولا يوجد تناقض، ذلك وأن الأول كان في مرحلة متقدمة من الدعوة، أي السنوات الأولى في مكة، أما الحديث الثاني فهو بعد الهجرة، أي في المدينة، فالوضع تبدل والمعطيات تغيرت، فمحمد كان شخصية براغماتية وليس كما صوره المؤرخون المسلمون كائنا خوارقيا، فهو يتأثر بالمحيط الخارجي فيثور على أفكار سابقة كان قد تبناها في مكة، قرارته يجب أن تكون منسجمة مع الظروف الجديدة، وفي المدينة يوجد اليهود أصحاب الأدب التوراتي الهائل الذي

---

[53]مقدمة ابن خلدون الجزء الأول تحقيق عبد الله محمد الدرويش، الطبعة الأولى 2004، ص 257.
[54]ص 254.
[55]صحيح البخاري رقم الحديث 3851.
[56]صحيح مسلم رقم الحديث 2286.

يتفاخرون به على المسلمين والنبوة منهم ومن جدهم ابراهيم* أب الانبياء، فكان لزاما أن يلحق نسبه بإسماعيل، وهو توظيف للعصبية لصالح المسلمين والإعلاء من شأنهم برسم ماض سحيق لهم ووضع حد لكبرياء اليهود في المدينة، فالدعوة المحمدية هي بمثابة ترسيخ لهوية عربية وإرساء لقومية جديدة، مع إحداث ثورة في البنى المعرفية والإجتماعية من خلال الإسلام. عندما يستمع المسلم لهذين الحديثين سيرتبك ولن يتمكن من معرفة أي الحديثين جدير بالتصديق وسيسقط حتما في دوامة السند، وما أدراك ما السند، الذي هو ليس علما، بل شطحة من شطحات المحدثين المتحزبين المتعصبين، وأفضل سبيل هو الدراسة التاريخية التي تعالج الدين انطلاقا من المنهج الواقعي الوضعي، وتحلل الشخصية المحمدية تحليلا نفسانيا واجتماعيا، علما أن الحديث كما بينا في الفصل الأول، وظف كسلاح من قبل الخلفاء ومن خلفهم لتبرير الواقع السياسي، لكن هذا لا يعنى اقصاء الحديث برمته.

ان كل وماصلنا من قصص وروايات حول الشجرة الجينية للأعراب هو اقتباس للمنهج التوراتي وليس من التاريخ في شيء، يمكن اعتباره محاولة لإعادة تشكيل و صياغة بطولات وخوارقيات العهد القديم، ثم توظيفها من جانب الأعراب بغية التأسيس لماضي خارق للعادة، شأن ما أقدم عليه اليهود العبرانيون بعد السبي واحتكاكهم بالبابليين الكلدانيين في القرن السادس ق.م، ثم ان الجدير بالذكر، كل الشعوب والمجتمعات عبر التاريخ ربطت واقعها الأرضي بالسماوي، نجد في الأساطير الغربية (اليونانية والرومانية) أو الأساطير المشرقية (الفرعونية البابلية الفارسية والصينية). غاية الأسطورة الأولى هي التنقيب نسب سماوي وتأسيسه، يجب التنويه أن البدو الرحل اهتموا بإشكال النسب أكثر من الأمم الأخرى، لأنه كما نوهنا عاشوا حياة البداوة المقفرة، ولم يعرفوا الحضارة ولا التمدن. ان مسألة النسب لدى العرب واليهود تعمل على تقوية اللحمة الاجتماعية، ولكنها ضربا من الميتاتاريخ، وذلك ما وضحه ابن خلدون« :إن النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة، وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام».[57]

« حتى تتم المناصرة والنعرة»، بمعنى مناصرة فئة ضد فئة، وذلك ما أقدم عليه محمد في المدينة بإرجاع نسبه ونسب العرب إلى اسماعيل، أما النعرة فتقوية شوكة المسلمين ومنحهم الثقة بأنفسهم إزاء الأدب والتراث اليهودي الهائل، ثم اعتبره أمر وهمي أي لا سند تاريخي له أو بتعبير آخر

*ابراهيم كلمة آرامية الأصل وتعني الأب.
[57]المرجع السابق ص 256.

ضرب من الأسطورة. تظهر هنا قيمة منهج ابن خلدون، عدم الالتزام بالعرف والتسليم بالروايات لأنها طوقت بهلام المقدس. بناء على ما سبق، فإن ثنائية القحطانية العدنانية إلى جانب النسب الابراهيمي الاسماعيلى، يمكن تصنيفها كملحمة اسطورية شأن بقية الملاحم التي دونتها الحضارات. كل ما وصلنا من أخبار حول موضوع العرب البائدة من جديس وطسم والعماليق والجراهمة وهلم جرا، ليس سوى تأثرا بقصص التوراة وملاحم العهد القديم، وذلك ما ذهب إليه د. طه حسين، رغم أنني لا أتفق معه في مسألة نسب الشعر الجاهلي على أنه منحول ولا علاقة له بحياة العرب قبل الاسلام، سنتوقف على هذه المسألة في الصفحات القادمة.

الفصل الثامن: أحوال العرب قبل الإسلام ونزع نفحة الميتاتاريخ عن مكة والكعبة

ان دراسة أحوال العرب قبل الإسلام يمثل تحديا كبيرا بالنسبة إلى أي باحث يخوض غماره ويلوج بحاره، ذلك وأن الأسطورة والميتاتاريخ تغلغلا في مفاصله وكل ما لدينا هو شرنقة من روايات وأقاصيص ألف ليلة وليلة. البعض وهم من داخل المؤسسة الاسلامية يعزون ذلك إلى عدم التدوين والتعويل على الذاكرة والمشافهة، ولكن يبدو أن المسألة لا صلة لها بالذاكرة أو المشافهة، ألم يدون التراث الاسلامي من سيرة وحديث بعد الإسلام بزهاء قرن ومع ذلك لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة إلا وسجلوها، بل الحقيقة هو أنه وقع اهمال وتشويه فترة ما قبل الإسلام وكل ما ذكر عنه هو مجرد شذرات من هنا ومن هناك نلقاه عند ابن هشام في كتابه السيرة النبوية. ان ابن هشام شأن جميع المؤرخين المسلمين تلقفوا روايات الأخبارين يهيمن عليها الطابع الأسطوري الخرافي، ولم يضعوها تحت محك النظر، إنما تعاملوا معها كنص مقدس منزل من السماء. كل ما فعلوه هو تنقية بعض الأخبار السقيمة ثم دسها في كتبهم. كل خبر اشتموا منه رائحة طيبة عن سلوكيات وأخلاق العرب قبل الاسلام أهملوه أو شوهوه من أجل الإعلاء من شأن الإسلام. إن ذلك نابع كما ذكرنا سابقا من سقطات الذهنية الاسلامية التي لا تؤمن بحقيقة تاريخية الأفكار وترفض بشدة اعتبار الدين كإفراز من افرازات الوضع الاجتماعي والاقتصادي، تعاملت مع الدين كموضوع مسقط من فراغ بلا عوامل أو ممهدات أدت إلى ظهوره. لا نبالغ إذا قلنا أن المؤرخين والمفسرين المسلمين مارسوا التعتيم والتضبيب على تلك الفترة وجعلوها بلا قيمة وبلا همة، ناهيك أنهم وصفوا تلك الفترة بالجاهلية، ولا ندري ماذا يقصدون بلفظة الجاهلية ؟ هل تعنى الجهل ما يرادف حالة اللاعلم ؟ أم هي حمية الجاهلية كما يصفها القرآن ؟ أم العصبية القبلية ؟ أم الهمجية والبربرية ونهش الناس بعضهم بعضا؟.

الدكتور جورجي زيدان من بين أشهر الباحثين الذين طرقوا باب هذا الموضوع قائلا :« فبقي هذا التاريخ (العرب قبل الإسلام) إلى أمد غير بعيد مجموع غرائب خرافات ومبالغات تتناقلها الأجيال بلا ولا تمحيص، ولا تزداد بالنقل إلا اضطرابا وابهاما».[58]ثم يصفه بالسقم :« ليس في تواريخ الأمم الراقية أسقم من تاريخ العرب قبل الاسلام، حتى تهيب الكاتبون الخوض فيه وعرة مسلكه وتناقض الأحوال فيه، بعكس تاريخهم ما بعد الإسلام، فانهم لم يتركوا خبرا إلا من أخباره أو رواية أو واقعة إلا دونوها وفصلوها، كأنهم شغلوا بهذا عن ذاك أو لعلهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية وإقامة مجد الاسلام

[58]العرب قبل الإسلام، سبق ذكره، ص 9.

مكانها».[59] ومع ذلك، فإن د. جورجي زيدان سقط هو أيضا كمعظم الباحثين المسلمين في البت بالروايات الميتاتاريخية وقصص ألف ليلة وليلة، وكأن الحقيقة الميتاتاريخية أصبحت قدر كل باحث يفكر في تقصى وتصفح أحوال العرب قبل الإسلام، ونحن في هذا الكتاب سنحاول فك اللغز من دون الرجوع إلى حديث الأسطرة.

ما وصل إلينا حول أحوال العرب قبل الاسلام كثير وممجوج بالأساطير، وما زاد الطين بلة تعرضه للتشويه والتضبيب، وطبيعي عندما يتطلع القارئ المسلم على تلك المعلومات ستنطبع في ذهنه صورة عرجاء وخرساء لا يتعلم منها سوى أن العرب قبل الإسلام كانوا خارج التاريخ ولا دور لهم، وبمجيئ الإسلام دخلوا فيه، لذلك نبهت منذ البدايات على أنه يجب توخي الحذر من المادة المقدمة من طرف المؤرخين المسلمين، بيد أن البعض منهم وقع تحت تأنيب الضمير وأبوا إلا أن يقولوا كلمة الحق، ومثلما يقال السكوت على الحق شيطان أخرس. يقول المؤرخ ابن قتيبة في العرب قبل الإسلام :« إن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساكنها».[56] ويجاريه بهذا الرأي ابن رشيق :« ان العرب اعلم الناس بمنازل القمر وأنوائها».[57] وقد يكون موقف ابن قتيبة وابن رشيق فيه شيء من المبالغة إلا أن ما سجلوه هو الحقيقة بعينها ذلك وأن العرب نهلوا من الصابئة وصابئة الجزيرة هم تلامذة الكلدانيين.[58] عُرف الكلدانيون بنبوغهم في علم الأفلاك والأجرام السماوية والتنجيم وهم أول من وضعوا خريطة للأجرام السماوية، في المقابل اعترف البيروني* بأنه كان لدى العرب ما لم يكن لغيرهم، وخلدوا ما عرفوه بالأشعار والأراجيز والأسجاع، لكن أين ذهبت كل تلك الأشعار والأراجيز ؟ لقد أتلفت عن قصد أو عن غير قصد، ومن ميزاتهم أنهم اشتقوا أسماء الكواكب السبعة من صفاتها، والقرآن نقل الخبر عنهم مستعملا الصفة التي أطلقها العرب على الكواكب الخمس السيارة وهي الخنس الجواري الكنس (عطارد المشترى الزهرة زحل المريخ) عدا النيرين الشمس والقمر.[59]

أما حمية الجاهلية فليست بصفة سلبية، لقد شجع عليها الرسول في غزواته وسراياه بهدف استنهاض همم المسلمين وتحفيزهم على القتال بجعلهم صفا واحدا أمام العدو، والرسول لم يبد مشاعر التودد والتقرب للقرشيين في المدينة أسوة بالآية ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمشركين واغلظ عليهم﴾. فالحمية ميزة الأعراب في القتال والدفاع، وظفها الرسول بعد أن عدلها لصالح الدين الجديد.

---

[59] ص 17.
[56] في طريق الميثولوجيا عند العرب سبق ذكره، ص 82.
[57] نفسه.
[58] الأسطورة والتراث سبق ذكره، ص 82.
*فيلسوف فلكي ورياضي من أصول فارسية.
[59] في طريق الميثولوجيا عند العرب ص 83.

أما الهمجية والبربرية فإن قريش تمكنت نسبيا من القضاء عليها ما عدى في محيطها، لتبلغ درجة من التحضر، وحققت ما لم تحققه بقية القبائل، وسنوضح ذلك لاحقا. وصف د جورجي زيدان حقبة العرب قبل الاسلام قائلا :« إذا فنحن نرفض بأن نصف فترة ما قبل الإسلام بالجاهلية وإنما نصفها بفترة التمهيد أو التحضير للإسلام، ذلك وأن الإسلام لم يعلن قطيعة جذرية مع قيم و عادات العرب بل هضمها وأعاد بلورتها في ثوب حداثوي جديد لا يتجاوز حدود حقبته».

ان الباحث عندما يطرق باب أحوال العرب قبل الإسلام سيجد نفسه أمام صخرة ضاربة بجذورها عتية عن التحطيم والاجتثاث ألا وهي مكة ومن ثم الكعبة، فالإسلام انبثق من رحم مكة والكعبة هي قبلته والأساس الذي بني عليه، وبالتالي فإن الحديث عن فترة ما قبل الإسلام تدفع الباحث دفعا للوقوف أمام هذه الصخرة. ان الباحث الذي ليس لديه مشكلة مع المنهج التعليمي للمؤسسة الإسلامية سيسلم وبلا أدنى شك أو تساؤل بالروايات والأخبار التي نقلت الحقائق الميتاريخية لكل من مكة والكعبة، وربما نعطي للباحث عذره لأنه سيرتطم بعامل المقدس، نادرا من يكتب في هذا المجال وهو متحرر من سلطته، فتجده كلما حاول الاقتراب إلى موضوع مكة والكعبة سرعان ما يقب في ذهنه التراث الديني، فينكص على عقبيه، إنه لا يرغب أن يتجشم أدنى عناء لكي يسلك ذلك الطريق المحفوف بالألغام وعمامات الأئمة والشيوخ، وذلك مرده الخوف من النقد.

ذكرنا في العنصر السابق ما عرف بنزوح عرب الجنوب إلى الشمال الشرقي من الجزيرة بعد تدهور الوضع الاقتصادي لليمن وفقدان مركزيتها التجارية كنقطة ترانزيت في الشرق القديم. كما ذكرنا أن بعض المستشرقين يشككون فيها ويرونها أسطورة لا تختلف عن أسطورة تأسيس مضاض ابن عمرو الجرهمي لمكة، ونحن لا نستبعد ذلك، فغرضنا في هذا الكتاب هو نزع نفحة الميتاتاريخ ليس عن مكة والكعبة فحسب بل عن القرآن والإسلام ونبيه، ومع ذلك سنتعاطى مع الرواية الاسلامية كنقطة انطلاق ثم نناقشها ونفككها، ومن ثم اعادة بناءها بعيدا عن الأسطورة.

تأتينا من صدور الكتب الاسلامية* خبر قبيلة سميت بخزاعة، وقيل أنها أزاحت سيطرة الجراهمة عن مكة بعد أن نزحت من الجنوب إلى الشمال فرارا من التبعات الإقتصادية لانهيار السد، أما السنة التي انهار فيها فإن المصادر تؤكد أنه قد تعرض للترميم والصيانة في مناسبات عديدة ووقع التخلي عنه وتركه لمصيره في فترة حكم الحميريين الذين أطاحوا بحكومة سبأ، والتقويم الحميري يبدأ سنة 115 ق.م أي أواخر القرن الأول ق.م. حدثين يمكن تصنيفهما كحقيقة تاريخية وصلا إلينا عن

*تاريخ الطبري وابن الكثير وابن الأثير.

طريق النقوش والوثائق ونستطيع الاطمئنان إليهما، وهما انهيار السد وسنة التقويم الحميري. بدأت اليمن تفقد سيطرتها على الطرق والموانئ التجارية البحرية تزامنا مع الحميريين، والسنة التي انهار فيها السد تماما يقال سنة 570م أو 575م. لا يمكن طبعا الجزم بصحة هذا الخبر لأنه قد يكون انهار قبل ذلك، ثم إن ضبط السنة التي انهار فيها السد غير متاح بسبب تضارب الأقوال والمعلومات ، قد يكون وضعه الاخباريون والمؤرخون المسلمون كأمارة رمزية، لأنه حسب الرواية الإسلامية، 570 م هي سنة ميلاد محمد، فأرادوا ربط الانهيار بذكرى ميلاده للدلالة على إرادة الهية، وكإشارة مبطنة أن مركز الثقل الاقتصادي انتقل من اليمن الى مكة بمولده، وهو نفس ما وقع مع حدث أبرهة الذي حاول احتلال مكة سنة 570 ، لتتدخل السماء وتحمى الكعبة، مع ان السنة التي هاجم فيها ابرهة الكعبة هي سنة 545 السنة التي تفشى فيها مرض الجدري، وهو خبر مؤكد. نلاحظ كيف تهوي ألسنة الإخباريين للتلاعب بالخبر، قصه وتلصيقه، واظهاره على أن له دلالة تاريخية، ومع الأسف نحا مجمل المؤرخين المسلمين ذلك المنحى السقيم.

ان التسمية التي حظيت بها قبيلة خزاعة ليست بدلالة على قومية أو جنس، بل هي صفة أو لقب مثله مثل العرب. خزاعة في اللغة العربية هو اشتقاق من فعل تخزع، والتخزع تعنى الافتراق أي مفارقة المكان أو القبيلة. نقول تخزعت عن المدينة أو عن أهلي أي فارقتهم وتركتهم وقصدت بقعة أخرى. هناك رواية وردت على لسان الأخباريين، مؤداها أن خزاعة تنتسب إلى عمرو ابن لحي الخزاعي الذي سافر إلى الشام واستورد عبادة الأصنام وكان أول من أفسد العقيدة الابراهيمية الاسماعلية الممتدة طيلة حكم الجراهمة، وأنها سميت بخزاعة لأنها تخزعت عن بقية قومها وهم الأزد، تخلفت عنهم وأقامت بمكة، ويذكرون بيتا ينسبونه لحسان بن ثابت شاعر الرسول :

ولما هبطنا بطن مر تخزعت   خزاعة عنا في حلول كراكر[60]

دعنا من كل ما ذكره الإخباريون لأن معظمه يتأسس على الأسطورة، سوف نحلل المسألة انطلاقا من تسمية تلك القبيلة. إن الانسان يميل إلى النزوح منذ فجر التاريخ حينما يفقد المقومات الأساسية للعيش والتوطن، حصول موجة نزوح من اليمن إلى الشمال قد يكون منطقيا وحدثا تاريخيا، ذلك وأن كل ما ذكر حول المماليك والحكومات التي تعاقبت على العربية السعيدة ليس بخيال أو فانتازيا، وتضعضع القوة الاقتصادية لليمن أمر موثق لا جدال فيه، لم يصلنا عن طريق الاخباريين، كما أن تعرض اليمن للاحتلال من طرف البيزنطيين بتحريض أبرهة ملك الحبشة، ثم توالى عليها الفرس

[60] المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 438-439.

خلال القرنين الرابع والخامس، عوامل تفرض على الانسان أن يختار النزوح، إذا شعر أن البلد الذي يعيش فيه يتهاوى وقد بطرت معيشته. يمكن تشبيه تلك الموجة النازحة من اليمن بأسطورة خروج اليهود العبرانيين من مصر إلى كنعان، مع أنه حدث ميتاتاريخي وهو من وحي خيال كتاب التوراة لأن لديهم مآرب سياسية واجتماعية، لقد استوعبوا أن الدين أمثل سبيل لتحقيق التماسك الاجتماعي وتحقيق الوحدة السياسية. أما خروج مجموعة رأت بلدها يتهاوى وينحدر ويكيل له العدو الضربات الاقتصادية الموجعة فبعيد عن الأسطورة وهو مقبول عقليا ومنطقيا. تلك المجموعة النازحة ينطبق عليها فعل التخزع، لقد تخزعت عن مسقط رأسها محملة بعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها نحو الشمال، لتستقر في الجبال والمرتفعات، البقعة المسماة بالحجاز، والحجاز في اللغة هو الحاجز والمانع، ونقول فلان يحجز عن فلان بمعنى الحيلولة، وفيه المنع والصد، فلا غرابة أن تحضي تلك البقعة بهذا الاسم كأرض حامية لأولئك المتخزعين، والسؤال في أي قرن نزحوا ؟

من الصعب تحديد ذلك ولكن سنحاول تقديم الإجابة انطلاقا من شهادات بعض اليونانيين. ليس لدينا نص صريح ذكر فيه اسم مكة أثناء فترة التمهيد للإسلام، ولكن لدينا شهادة جاءتنا عن طريق الفلكي والجغرافي اليوناني الشهير بطليموس في القرن الثاني ميلادي حيث ذكر في كتاباته مدينة باسم مكربة مشتقة من التقرب أو القربان، أسوة بالمكربين الذين حكموا مملكة سبأ، سموا بالمكربين لأنهم يتكلمون باسم الاله.[61] لعل ماذكره المستشرق الألماني بروكلمان كون مقرب تعنى الهيكل، هو الأقرب إلى الصواب.[62] نبغ بطليموس في رسم الخرائط واشتهر بكثرة ترحاله بين الشرق والغرب، وكان له باع في علم الجغرافيا، فهو من بين المؤسسين لهذا العلم. ثم إن اليونانيين اهتموا بالجزيرة منذ أيام المؤرخ هيرودوتس، يبدو أنهم سجلوا كل كبيرة وصغيرة فيما يتعلق بها وبأحوال العرب قبل الإسلام، ومادتهم علمية جديرة بالثقة، فالتاريخ عند اليونانيين هو علم قائم بذاته يتأسس على قوانين عقلية ومنهجية بعيد عن الأسطرة وقصص ألف ليلة وليلة لا كالأخباريين المسلمين. بناء على ذلك، فإننا نجزم أن بطليموس قام برحلة عبر البحر الأحمر، علما أنه كان يتردد على مصر في تلك الفترة بحكم مركزيتها العلمية والفلسفية خلال القرن الأول ميلادي، كان قد وصل إلى سواحل الجزيرة الغربية وبالتحديد سواحل الحجاز، حيث عرف مكة وذكرها في كتابه. وعليه، فإن مكة أسست قبل القرن الثاني ميلادي من طرف الخزاعيين، ونحن نرجح القرن الأول ق.م سنة نزوحهم، والمنطقة التي استقروا فيها حازت على تسميتها بعد بناءهم الكعبة، وذلك في القرن الأول ميلادي.

---

[61] المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 9-10.
[62] تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ترجمه نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة الخامسة دار العلم للملايين، ص 31.

إن هؤلاء المتخزعين بعد نزوحهم من الجنوب وصلوا إلى منطقة الحجاز، وجدوها محصنة ومحمية بفضل تضاريسها الوعرة ومناخها الصحراوي الجاف، واللافت وجود واد غير ذي زرع رأوا فيه رمزا للحياة في بيئة مقفرة وشاحبة. نحن نعتمد على القرآن كوثيقة تاريخية صادقة في وصف المكان لا على ما تناقلته ألسنة الأخباريين. فضل المتخزعين حط الرحال بإقامة الخيام حول الواد واستغلوا مرتفعاته للتحصن والاحتماء فيها في حالة تعرضهم للغزو من طرف البدو، ثم سموا ذلك المكان باسم مكة. هناك احتمالات توصل إليها الباحثون حول أصل التسمية، فهي إما نسبة لـ المُقة المذكور آنفا وهو إله القمر السبئ، ذلك وأن بعض الباحثين ومن أشهرهم الباحثة ثريا منقوش اكتشفوا كون أهل اليمن يَلْكِنُون القاف كاف على ضوء ما جاء عند ابن طيفور المصري والقيرواني، وما جاء على لسان الرسول الفقه يماني والحكمة يمانية، لتكتسب المعلومة مزيدا من الواقعية بالعودة إلى المسعودي الذي سجل في كتابه مروج الذهب كون البيت أي الكعبة بنيت لعبادة الكواكب[63] نظرا وتأثر أهل الجزيرة بالمعتقد الصابئ الذي يعتبر الأجرام السماوية كائنات روحية ووسائط بين الانسان والله ، أما الاحتمال الثاني ، فإن مكة مشتقة من مكربة ومكرب أي مكان يتخذ للتقرب إلى الله وتقديم القربان.

كلا الاحتمالين يتأسسان على ظاهرة لغوية وهي تشابه الألفاظ والمصطلحات في النطق والكتابة، صراحة لا يمكن الاعتماد على هذه الظاهرة لأنها قد تسقطنا في مغالطات بقدر ما تحل الإشكاليات، ولقد أقدم على ذلك د. كمال صليبي محاولا التلاعب بأسماء الأعلام والمدن متخذا التشابه كبرهان، إنها محاوله يائسة للتدليل على أن أحداث التوراة لا سيما سفر الخروج وغزو بلاد كنعان لم يحدثا في مصر بل في الجزيرة العربية. حاول كمال صليبي نقل مسرح الأحداث وقلب التوراة رأسا على عقب، لأن البحوث الأركيولوجية المعاصرة أثبتت بصورة لا غبار عليها أن كل ما سجل في التوراة بداية من ابراهيم إلى موسى، ما يعرف بعصر الآباء* مرورا بالخروج وغزو بلاد كنعان، هو محض ميتاتاريخ ولا صلة له بالتاريخ. إن اعتبار مكة نسبة لـ المقة إله القمر السبئ لا يمكن الوثوق به، ثم ان هذا الاستنتاج قد يصيب وقد يخطئ، فكثيرة هي الالفاظ والمصطلحات المتشابهة، إلا أن ذلك لا يعنى أنهم يشتركون في نفس الدلالة. أما الاحتمال الثاني مكة هي من التقرب والقربان، فهو لا يتعدى كذلك ظاهرة التشابه في النطق، ونحن أحلنا إلى شهادة بطليموس فقط لتحديد القرن الذي ظهرت فيه مكة لا لتحديد أصل التسمية.

---

[63] الأسطورة والتراث ص 158.

*يرى بعض الباحثين ومن بينهم د. خزعل الماجدي أن عشر أنبياء ذكروا في التوراة ومن بينهم ابراهيم انما هم في الواقع ملوك سوماريون وبابليون حولوهم كتاب التوراة إلى أنبياء راجع كتاب كيف أصبح عشر ملوك سوماريون أنبياء للدكتور خزعل الماجدي.

يبقى الاحتمال الأخير الأقرب إلى الحقيقة هو أن اسم مكة يعود إلى مُكَا وهو اسم ذو أصول بابلية يعنى البيت.[64] لقد أشرنا آنفا إلى ظاهرة احتكاك العرب بحضارات الشرق القديم من بابليين وكلدانيين، كما أن الجزيرة ظلت أبوابها مفتوحة لاستقبال الفارين المضطهدين بسبب معتقداتهم وهرطقاتهم المتعارضة مع الدين الرسمي لبلدانهم، علاوة على تسرب عقائد بلاد الرافدين ومن أهمها الصابئة واستقبالها للتيارات الماجوسية والمانوية هو أمر مؤكد لا جدال فيه، وكان من نتائجه دخول عدة مفردات ومصطلحات وانصهارها في اللغة العربية. ناهيك أن المفسرين المسلمين وقفوا حائرين إزاء كلمات عديدة في القرآن ولم يجدوا لها معنى واضحا ، ولم يدركوا أنها ذات أصول غير عربية، فأودى بهم الأمر إلى تصنيف كتب فيما يعرف بغريب القرآن، تلك نتيجة لرفضهم مبدأ تاريخية الأفكار، تواشج الثقافات والديانات والاستقاء من بعضها البعض، ولو استوعبوا الجدلية التاريخية للدين والفكر، لما تجشموا كل ذلك العناء.

ورد اسم بكة في القرآن مرة واحدة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران 96) ما يدعم الأصول البابلية للكلمة، فبكة تعنى البيت في اللغة البابلية. مدينة بعلبك في لبنان مركبة من بعل الاله الكنعاني وبك البيت، معناها الحرفي بيت بعل، علما أن دلالة بعل هي السيد أو الرب، وليست اسما، بل لقب أو صفة، إذن يصبح معنى الكلمة بيت الرب، وفي القرآن ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ (قريش4/3) حاول د. سيد القمنى ايجاد رابط لغوي بين لـ مقة اله القمر السبئي ورب البيت معتبرا أن الألف واللام اشارة لـ إيل إله الحضارة الأوغاريثية التي نشأت في سوريا حوالي الألف الثانية ق.م، و مقة هي في الأصل مكة بعد أن انقلبت القاف كاف[65]، فالكلمة هي بيت إيل، ذلك وأن الله في العربية ليس سوى تطورا لإيل، وبين إيل والله تشابه واضح، غير أن المحاولة لا تخلو من تكلف، ونحن نرى أن مكة إيحاء للبيت الذي بني من أجل الطواف والعبادة. إذن يمكن القول أنه بفضل الكعبة حازت المنطقة المحاطة بالجبال اسم مكة، ذلك وأن الكعبة هي دير للتعبد والطواف الحج، وبالتالي فإن مكة والكعبة يكملان بعضهما البعض، أي لا وجود لمكة لولا الكعبة والعكس.

لئن كانت مكة التي شيدها المتخزعون مخصصة للعبادة والطواف بالكعبة التي أصبحت مع تقدم الزمن مقصدا لكل عرب الجزيرة بهدف الحج، فإن الكعبة هي من فرضت تسمية مكة على منطقة الحجاز، ذلك وأن العرب أثناء الطواف بالكعبة يصرخون ويهللون، يرقصون ويغنون، والعرب قبل

---

[64] العرب قبل الاسلام جورجي زيدان سبق ذكره ص 275.

[65] الاسطورة والتراث ص 154-155.

الإسلام كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي المكان فَنَمُكَّ، نَمُكَّ بمعنى التصفيق والتصفير.* هذا الرأي قريب إلى الصواب، لأنه توجد أدلة سنذكرها لاحقا تكشف لنا أن طقوس البغي المقدس -كنذر لعشتروت آلهة الخصب والولادة ويُرمز لها بكوكب الزهرة- كانت تقام حول الكعبة، ثم ان طقوس البغي المقدس كانت منتشرة في كامل أرجاء الهلال الخصيب وتسربت إلى شبه جزيرة.

نقل الإخباريون أن أول من بنى بيتا مكعبا هو بديل ابن ورقة الخزاعي،[66] ويبدو أن الأنباط عرب البترا هم أول من استوردوا هندسة التكعيب من بلاد كنعان، كما أنهم أول من عبدوا اللات من العرب ثم انتشرت عبادتها داخل شبه الجزيرة، ومع الزمن أصبحت الهة العرب الكبرى. أصول اللات ليست عربية بل كنعانية واسمها إيلة أو إيلات، وهي صيغة التأنيث لإيل كبير الآلهة الكنعانية الأوغاريثية، وقيل أنها زوجته، عبدها الأنباط منذ القرن الثالث ق.م كآلهة للخصب. بعض المؤرخين قالوا إن الات تمثل الشمس عند الأنباط وآخرون قالوا الزهرة. لم تُمَثَّل في عصور ما قبل الميلاد في هيئة بشرية بل عبدت في شكل صخرة مربعة، ومن هنا جاء اسمها كعبو المستمد من شكل صخرتها.[67] إن بناء بيوت على شكل مكعب كانت ظاهرة منتشرة في الشرق القديم، شيدت بهدف الحج، فالحج ظاهرة قديمة رافقت الانسان منذ فجر التاريخ، سواء لدى البابليين والآشوريين والمصريين أو الهنود والفرس. لقد لاحظ الانسان وعقله يحبو طريق المعرفة، معرفة سر الكون والحياة، أن الدائرة هي أكمل الأشكال الهندسية، وكان الفلاسفة اليونان قد توسعوا في هذه النظرية كنقطة ارتكاز لتفسير العالم وبناء نموذج له. تبوأت الدائرة مكانة وقيمة فكرية وعلمية لا تضاهيها أية قيمة، الفيلسوف اليوناني برمينيدس الذي عاش حوالي القرن الخامس ق.م ومؤسس مدرسة ما بعد الطبيعة، اعتقد أن الدائرة هي أساس الفكر والوجود حيث كتب :« الحقيقة الأولى هي أن الوجود موجود ولا يمكن أن يكون غير موجود، لأنه إذا كان هناك إمكانية أن لا يوجد فإن هذه الإمكانية ستكون معدومة، لا يمكن تلفظها، ولا يمكن التفكير فيها، والقول أن الوجود موجود هو السبيل الوحيد للخروج من هذه المعضلة، إن الفكر يقوم على الوجود، وإذا انعدم الوجود ينعدم الفكر، والعالم مستحيل أن لا يوجد أو هو نتيجة اللاوجود، وبالتالي لا وجود للكون والفساد، والعالم كما هو أبدا لا يتبدل ولا يتغير، وإن كان العالم كذلك فعليه أن يكون منسجما متسقا ومكتفيا بذاته، ما يفسر اتخاذه الشكل الدائري».[68]

---

*﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنفال/35)

[66] المفصل في تاريخ العرب ج السادس ص 432.

[67] موسوعة تاريخ الأديان ج الثاني سبق ذكره ص 377-378.

[68] تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القاهرة للنشر1953، ص 28-29.

أصبغت الدائرة برداء الفكر الصوفي فتحولت إلى حقيقة مثالية، لا شك أن فلاسفة اليونان اقتبسوا هذه الفكرة من عند البابليين والكلدانيين، فالبابليون شيدوا ما يعرف بالزاقورة، اتخذت شكل البرج الهرمي الشبيه بالكعبة، تحيط به ساحة كبيرة لاستيعاب الحجاج، ويدور حولها سلم صاعد في شكل دائري، في أعلى الزاقورة يوجد معبد تقام فيه مناسك الذبح.[69] أيضا وجد على قمة المعبد هلال، وهو رمز سين إله القمر.[70] أما الكلدانيون هم أول من وضعوا رسما للأجرام السماوية وعددها سبعة، ثم أخذ العدد سبعة رمزا سحريا بالتوقف عند سبعة كواكب التي حسبوها آلهة أو ملائكة، وجلي أن العدد سبعة تحول إلى وحدة قياسية للطواف حول البيت المكعب. جميع هذه المعتقدات ذات الصبغة البابلية الكلدانية الصابئية تسربت إلى شبه الجزيرة العربية وورثها الإسلام. لقد اعتبر القرآن العدد سبعة عددا مقدسا، فطبقات السماء سبعة، ودرجات الجنة سبعة، والسنابل السبع، والسنوات السبع العجاف، والبقرات السبع، والطواف حول الكعبة سبعة أشواط.[71] إذن الحج ظاهرة عرفتها جميع الأديان بلا استثناء سواء التعددية أو التوحيدية.

لقد تأثر العرب بالديانة الصابئية التي تقدس الكواكب وتعتبرها وسائط (شفعاء) بين الإنسان والله، فالات والعزى ومناة التي هي بنات الله أو ملائكة ليست سوى كواكب في الأصل، الات الشمس، والعزى القمر، والمناة الزهرة، وهناك اختلاف بين الباحثين ويرى توزيعا آخر مخالفا لما ذكرناه، وآخرون مثل د.سيد القمنى يرى أن الآلهة الثلاث جميعها ترمز لكوكب الزهرة، لكن الأرجح أنها ترمز لكواكب ثلاث لا كوكبا واحدا، ونلاحظ مبدأ التثليث وهو مبدأ تبنته جميع أديان الشرق القديم، إنه بمثابة مرحلة تمهيدية للتوحيد الخالص. انطلاقا من ظاهرة الحج والطبيعة النجمية الصابئية لعقيدة العرب قبل الإسلام نستطيع القول إن الكعبة هي صرح ذو دلالة فلكية وتنجيمية، فالإنسان خلال ملحمته في البحث عن أصل الوجود كان دائما يعتقد بوجود سر كامن في السماء وأهاله ما فيها فقدسها واضعا أسس علم التنجيم وهو من أقدم العلوم التي مارسها الإنسان. إذا قلنا أن الكعبة هي في الحقيقة مركز ذو صبغة دينية فلكية ألا وهي التقرب للإله عن طريق الشفعاء، فذلك قد يقلب الحقيقة التاريخية حول بناء الكعبة، ربما جماعة الصابئة هم البناة الحقيقيون للكعبة، ما يدعم هذه الفكرة وجود كعبات متعددة منتشرة في مناكب شبه الجزيرة كمحجات للعرب.[72] يرجح بعض الباحثين أن الملك نبونيد هو من بنى الكعبة، كعبة الحجاز، وذلك أمر مستبعد لأن نبونيد وصل إلى تيماء ويثرب،

---

[69] الحج عبر حضارات الأمم، ماجدة مرتضى مؤمن، دار مشعر، ص 34-35.
[70] رب الزمان ودراسات أخرى، سيد محمود القمنى، مدبولى الصغير، ص 149.
[71] الأسطورة والتراث ص 92.
[72] المفصل في تاريخ العرب ج السادس ص 44-445.

ونحن نرى أنه بحملته تلك لعب دورا كبيرا في تدعيم أواصر المعتقد الصابئي نافثا روح ديانة فلكية تفريدية في قلب الصحراء. حدث ذلك خلال القرن السادس ق.م وهو تاريخ يسبق ظهور الاسلام بألف عام، فلا عجب أن يرث عرب الجزيرة تعاليم الدين الصابئي وهندسة التكعيب ومبدأ التثليث، كلها مستوردة من حضارة بلاد الرافدين وكنعان. وبناء عليه، فإن بناء الكعبات انطلق في القرن الخامس أو الرابع ق.م. هناك أدلة أثرية وتاريخية نستطيع من خلالها القول إن الخزاعيين ليسوا بناة الكعبة، وعندما وصلوا لمنطقة الحجاز وجدوها أصلا قائمة على أسسها وربما قاموا بترميمها لأن الزمن أخذ منها مأخذه، ومن ثم يكون تاريخ الكعبة متقدم أكثر مما نتوقع، ولكن هذا لا يعنى أننا سنصدق بروايات الأخباريين حول الجراهمة أو القصص البطولي لبعض الأعراب حول شخصية ابراهيم واسماعيل وهاجر لأن ذلك القصص كما أكدنا هو ميتاتاريخ ونحن نكتب للتاريخ.

إن إعادة الكعبة إلى التاريخ ربما سيفرض علينا العودة إلى العصر النيوليثي الألف السادسة ق.م، أين نجد الإرهاصات الأولى للأساطير والديانات، ما يعرف بالثقافة النيوليثية التي سبقت الثورة المدنية بقيادة السومريين في الألف الرابعة ق.م. لقد كَوَّنَ الإنسان في هذا العصر أسطورة تتأسس على المفاهيم الزراعية الأرضية وستتحول فيما بعد إلى مصدر إلهام لكل الديانات التي ستنشأ في منطقة الشرق. لم يترك لنا إنسان العصر النيوليثي وثائق أو نصوص فالكتابة لم تظهر بعد ولكن ترك لنا رسوما وابداعات تشكيلية على جدران الكهوف والصخور تترجم عن تصوراته ومخيلته حول الوجود والحياة، ومن هذه الأعمال التشكيلية نجد أسطورة الأم الكبرى، في الواقع فإن هذه الأسطورة تعود للعصر الباليوليثي،[73] تعكس أفكار الإنسان الأول في المجال الديني، مصورة القوة الإلهية في شكل وماهية انثوية، هي الأم الكبرى للكون.[74] إنها أسطورة ذات فحوى ومضامين تتصل بالزراعة وغدت جوهر نظم الإنسان السياسية والاجتماعية متمركزة حول الهة واحدة هي سيدة الطبيعة.[75] كانت الآلهة الأم من انبثاق العصر الباليوليثي ونضجت في العصر النيوليثي، قدسها الإنسان وعبدها بعد أن نحت لها تماثيل طينية تظهر على شكل إمرأة عارية بلا رأس أو مطموس الملامح، الكتفان دقيقتان الذراعان نحيلتان الساقان في جزئهما الأسفل ضعيفتان وقصيرتان، أما المنطقة الوسطى التي تتكون من الثديين البطن والحوض فهي مضخمة مقارنة ببقية الجسد وذلك ليس صدفة بل لإظهار أهمية الجهاز التناسلي للأنثى كرمز للخصوبة والحياة.[76] لقد كان للمرأة في العصر الباليوليثي والنيوليثي مكانة اجتماعية ودينية بارزة، ذلك

[73] بدأ حوالي 30.000 ق.م وينتهي في 10.000 ق.م.
[74] لغز عشتار فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع دمشق، ص 23-24.
[75] نفسه.
[76] ص 41-42.

وأن إنسان ما قبل ظهور الكتابة رأى في المرأة قوة إلهية غيبية، فكان يكن لها الحب والرغبة الخوف والرهبة في آن، فمن جسدها تنشأ حياة جديدة ومن صدرها ينبع حليب الحياة. بدأ الانسان في العصر الباليوليثي يكتشف الزراعة وتمكن منها بمجيئ النيوليثي، لاحظ أن الأرض التي تمده بالغذاء، فهي وجهة لجسد الأنثى، كان يرى أن جسد المرأة يخفى سرا مرتبطا بتبديات الطبيعة والكون، وراء الوجود والطبيعة أنثى عظمى هي منشأ الموجودات ومردها ومن رحمها صدر كل شيء. إن سيطرة المرأة على مختلف الأوجه الحياتية لهذا العصر دفع العلماء لوصفه بالعصر الأمومي، وأطلق على الهة الأم أسماء كثيرة من بينها نمو الالهة البدئية والمياه الأولى عند السومريين، وعشتار عند البابليين وعناه عند الكنعانيين وأفروديت عند اليونانيين، ومناة عند العرب.[77] لقد صاغ الإنسان أسطورة هبوط الهة الخصب والأرض إلى العالم السفلى لإنقاذ إبنها تموز من زبانيته، حدث يحيل لتعاقب الفصول. عندما تهبط إلى العالم السفلى تصبح الأرض باهتة جافة مقفرة وتفقد بريقها، وعندما تصعد تعود الأرض مخضرة ومزهرة، ما يعرف بملحمة عشتار إلى العالم الأسفل، وهي ملحمة تدل على القيمة التي اكتسبتها هذه الهة، فقد أصبحت محركا كونيا لأحداث العالم. في الأثناء ارتقى بها الفكر الانساني إلى مرتبة التجريد وجعل لها رمزا سماويا ألا وهو كوكب الزهرة. بلغت عبادة الأم الكبرى الزهرة أوجهها بعد الثورة المدنية بقيادة السوماريين وظهور الكتابة والمدينة، وخص لها الآشوريون مكانة استثنائية، إنها الهة الحرب والمذابح في النهار، والهة اللذة والإغواء في الليل، إنها الهة اللذة الحب والفرح، عبادتها ترتبط بالعاهرات المقدسات المعروفات باسم عشتاريتو، ولما كانت الزهرة الهة الحياة والولادة والاخصاب فطبيعي أن تكون طقوس العبادة قائمة على الجنس أو بالأحرى البغاء أو العهر المقدس، إنها عبادة داعرة متفشية بحدة في منطقة الشرق القديم، ولسائل أن يسأل ماهي الغاية الغيبية الدينية لرفع العنان والقيود أمام إقامة علاقة جنسية حرة بين الرجال والنساء؟

إن المسألة ليست معلقة بغياب الزواج كمنظومة إجتماعية لتقنين وضبط العلاقات بين الرجال والنساء أثناء تلك الحقبة، ولكن المسألة غايتها أبعد من ذلك. الحقبة التاريخية التي أُطلق عليها اسم العصر الأمومي كانت تعتبر المرأة كعصب حي للمجتمع وللحياة، فالأم تهب الحياة عن طريق الولادة، وجسدها كان ينظر إليه على أنه طاقة إلهية غيبية يجب أن تقام إزاءه طقوس عبادة ألا وهي العهر والبغاء، حيث أعتبرت بكارة الأنثى كأفضل قربان يقدم للأم الكبرى الزهرة وهي كما نلاحظ نوع من

[77] ص 27.

الصلاة والدعاء للتقرب وضمان لتكاثر الحيوان والإنسان والنبات،[78] خاصة وأن الإنسان العصر الأمومي شغله الشاغل هو المجال الزراعي. قد يظهر مثل هذا الطقس غريبا ومنافيا للمنطق والحس السليم في نظر البعض، وذلك أمر طبيعي فالفكر الانساني مثل الجنين الذي يمر بمراحل تكوين.

لم تقتصر عبادة الزهرة على أعتاب الشرق القديم فحسب بل تعدت ذلك وعبرت فيافيه البحر المتوسط، وصلت إلى اليونان عن طريق تجارة الفينيقيين وأطلق عليها أسماء عديدة من بينها أفروديت عند اليونانيين وفينوس عند الرومان. ولا تحسب أن الديانات التوحيدية بقيت بمنأى عن طقوس عبادة الزهرة، إنها لم تسلم هي أيضا من فتنها، حيث نجد في سفر نشيد الإنشاد المنسوب للملك سليمان، أناشيد غزلية مكشوفة تماما تنضح بالتعابير الجنسية، وهي في شكل حوار جمع بين العشيق وعشيقته، يصف العاشق مفاتن عشيقته واقتدارها الجنسي، وربما أقوى دليل على تسرب طقوس الزهرة في الديانة اليهودية هو نسخ الأعياد اليهودية لأعياد الزهرة في صيغتها الكنعانية، واللافت هو تسرب أسطورة السنوات السبع المكتشفة في أوغاريث وصداها واضح للعيان في قصة يوسف المنقولة توراتيا وقرآنيا. كما أن عيد الفصح الذي يحتفل به اليهود والمسيحيون سنويا ليس سوى بقايا من عبادة الزهرة ذلك وأنه تقام له المراسم في مستهل فصل الربيع، بالانجليزية إيستر وهو في النطق قريب جدا للاسم عشتار.[79]

لقد استبدلت المسيحية الأم الكبرى الزهرة الهة الحب والفسق والعشق بالسيدة مريم، وما يدلل على ذلك أنه في بعض المناطق الريفية في إيطاليا الجنوبية تدعى بـ أفروديت وهو اسم الزهرة لدى اليونان، والجدير بالملاحظة فإن المسيحيين يلقبون مريم بـ ماري وهو ما يطلق عادة على الهة الخصب. عبد العرب كذلك الزهرة ونسجوا حولها أساطير ورثها فيما بعد الإسلام وهي أسطورة الملكين هاروت وماروت اللذان وقعا في فتنة امرأة حسناء أغوتهما لممارسة الجنس معها، ثم ارتقت إلى السماء بعد أن تعلمت منهما كلمة السر، فمسخت كوكبا (الزهرة). يروى عن عبد الله إبن عمر أنه كان إذا رأى الزهرة يلعنها ويقول هذه التي فتنت هاروت وماروت. وفي حديث عن عبد الله إبن عمر : أن النبي إذا رآها كان يقول : طلعت الحمراء فلا أهلا ولا سهلا.[80] ويبدو أن تقديس العرب ليوم الجمعة ليس من فراغ إنما عائد إلى تأثرهم الشديد بالهة الخصب والجنس الزهرة، فيوم الجمعة بالفرنسية هو Vendredi نلاحظ Ven مأخوذة من Vénus كوكب الزهرة.[81]

---

[78] الأسطورة والتراث ص 76.

[79] ص 78-80.

[80] راجع تفسير القرآن العظيم لابن الكثير الآية 102 من سورة البقرة، وتفسير الطبري ص 345-346.

[81] ص 91.

إننا نقترب رويدا رويدا من فك معضلة الكعبة لنصل إلى الاستنتاج التالي؛ إن ديانة العرب قبل الإسلام نجمية فلكية تقوم على مبدأ التثليث شأنها شأن كل ديانات الشرق القديم، وفي نفس الوقت متأثرة بطقوس عبادة كوكب الزهرة التي هي مناة. وُجِدَ في فناء الكعبة صنمين هما إساف ونائلة، تقول الرواية الإسلامية على أنهما كان شخصين تاريخيين، فجر إساف بنائلة داخل فناء الكعبة فمسخهما الله هذين الصنمين.[82] إن الحقيقة التاريخية وراء قصة إساف ونائلة وقع تزييفها وتحريفها من طرف المؤرخين المسلمين، ذلك وأن ما أقدما عليه هذين الشخصين ليس بعمل محرم بل مقدس. لقد مارسا الجنس كعبادة ونذر للزهرة، إلا أن العقل الإسلامي لم يقبل بهذه الحقيقة لأنها تتعارض مع الإسلام، ولو عدنا إلى الآية 158 من سورة البقرة وقرأنا سبب نزولها* سندرك أن الطواف بين الصفا والمروة كانت عادة معروفة عند عرب الجاهلية، فلما رأى الصحابة الرسول يهرول بينهما اندهشوا وأهالهم الأمر، وكأنهم أرادوا أن يقولوا كيف نقدم على القيام بطقس كان معمولا به قبل الإسلام؟ واندهاشهم نابع من الحشمة صراحة، لأنهم علموا سلفا أن اساف ونائلة هما مقدسين عند عرب الجاهلية ويرمزان إلى طقس البغي المقدس، أي يمثلان عبادة جنسية سادت في مختلف أنحاء شبه الجزيرة. إن المؤرخين والمفسرين المسلمين شعروا بالحرج لأنهم لم يروا في العلاقة الجنسية الحرة بين الرجل والمرأة عملا مقدسا، فنسجت مخيلتهم تلك القصة بهدف ترقيع المسألة والتعتيم عليها، ولعل ما ذكره أبو داوود السجستاني في كتابه المصاحف جدير بالانتباه، حيث عرض مختلف المصاحف المتداولة بين الصحابة بعد وفاة النبي وما تحتوي عليه من اختلافات في معاني الآيات، ففي مصحف ابن العباس نجد آية نكاح المتعة *ذو دلالة مقتصرة على حيز زمني معين: فما استمتعتم به منهن (إلى أجل مسمى) فآتوهن أجورهن فريضة.

نلاحظ الزيادة في مصحف ابن العباس، وضعناه بين قوسين، واضح أن غايتها تحديد الغاية الزمانية ما يجعلها غير عابرة للأزمنة والأمكنة، لقد فهم ابن العباس منذ 1400 عام أن حيزا كبيرا من النص القرآني مرتبط بزمانه ومكانه والظروف المحيطة به، وبالتالى يستحيل تجريده عن إطاره، لكن مصحف ابن العباس أحرق مع جملة المصاحف على يد عثمان. على أية حال فإن المتعة فرضها محمد في المدينة بسبب مقتضيات الوضع العسكري والسياسي، حيث كان يخرج جيش المسلمين للحرب والغزوة لأيام وأسابيع ويفارقون أزواجهم فكان لزاما أن تفرض المتعة حتى لا يختل التوازن النفسي والجسدي للمقاتلين، فالكبت الجنسي قد يؤثر على أداءهم فتخفت حميتهم وحماستهم الحربية. هذا

[82] ابن جرير الطبري تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف القاهرة، ص ج الثاني ص 284.

*﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

*﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء/24)

القانون الذي يتسم بحرية الممارسة الجنسية، أقتبس من طقوس عبادة الزهرة المنتشرة حول الكعبة ولا نغالى إذا قلنا إنها كانت ماخورا وذلك بشهادة الكلبي.

ما حصل هو استبدال اساف ونائلة بالصفا والمروة واستمرار تقديس طقس الطواف بينهما، ووقع نسج رواية حول المكان نجدها في المصادر الإسلامية مؤداها أن آدم وحواء عندما هبطا نزلا مفترقين وظلا هائمين حتى التقيا وعرف آدم حواء، عَرَفَ فيها معنى الجماع، وجامع آدم حواء على ذلك الجبل الذي عُرِفَ بعرفة، الوقوف بعرفة هو طقس مقدس عند العرب، فهو من بين أهم مناسك الحج الجاهلي، فكانوا يتجهون إلى ذلك المكان أفواجا ذكورا وإناثا يبيتون ليلتهم حتى يطلع عليهم النهار.لا شك أن تجمعهم فوق جبل عرفة لم يكن للنزهة إنما لممارسة طقس الجنس الجماعي. لو عدنا إلى طقوس الحج الجاهلي فسنجد طقسا يدعم نظرية البغي المقدس، حيث أنهم كانوا يطوفون حول الكعبة عراة تماما، وتوجد رواية إسلامية مثيرة تقول : إن الحجر الأسود كان أبيضا لكنه إسود من مس الحيض في الجاهلية، ودم الحيض عند الأقدمين هو سر الميلاد. [83]

بناء على ما سبق نكون قد أعدنا كل من مكة والكعبة إلى السياق التاريخي وأحطنا بالعوامل الأرضية لذلك الصرح الديني، وهي محاولة لتقديم مقاربة تاريخية واستبعادا للميتاتاريخ الذي دائما ما تلجأ إليه المؤسسة الإسلامية، ونحن نريد أن نتعامل مع الدين كعلم خاضع لجملة من القوانين والمبادئ المضبوطة الدقيقة، وذلك سيتضح أكثر في الصفحات القادمة، حيث سندرس الدين من منظور اجتماعي وتاريخي بحت وسنفهم من خلاله العوامل المباشرة التي جعلت مكة تحتل المرتبة الأولى مقارنة ببقية المدن، ودورها الرئيسي في ظهور الإسلام.

[83] الأسطورة والتراث ص 163.

الفصل التاسع: قريش والثورة الاجتماعية الدينية بقيادة قصي ابن كلاب

أطاحت قبيلة قريش بخزاعة وهيمنت على الحياة الاقتصادية والسياسية بعدها، ذلك ما نجده في بطون المصادر الإسلامية.[84] إن منهجنا يقوم على الاحتراز منها، لكن لا يعني إقصائها تماما على غرار المدرسة القرآنية أو المستشرقين المعاصرين. إن حديثنا عن قريش ضروري، فهي قبيلة لعبت دورا مركزيا في ظهور الإسلام إلى جانب الكعبة المكية، ثم إنهما متشابكين ومتداخلين ولا يمكن الفصل بينهما. قد تكون خزاعة هي قريش وقريش ليست سوى ظاهرة تطورية لخزاعة، فخزاعة هي لقب وصفة وتعني الفراق، والحال ذاته فيما يخص قريش.

نستهل بحثنا إنطلاقا من أصل الألفاظ ودلالاتها، فخزاعة تعني التخزع والفراق كما بينا، وفي الفراق تشتت وتبعثر، تصدع وتفكك. أما قريش فهي عكس ذلك. لقد احتار بعض المؤرخين المسلمين حول أصل الكلمة، وانتهي البعض الآخر بأنها تعنى التجمع بعد التشتت، التأليف بعد التشظي، وذلك ما أورده إبن الكثير :« وأما إشتقاق قريش، فقيل من التقرش، وهو التجمع بعد التفرق، وقيل قريش قريشا من التقرش وهو الكسب والتجارة، حكاه ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهري : الكسب والجمع، وقد قَرَشَ يَقْرُشْ (نظن المقصود هنا القرش أي الهرس بالأضراس، كما تعنى أيضا جمع القروش أي المال). وقال البيهقي : إن معاوية قال لابن العباس : فلم سميت قريش قريشا ؟ قال لدابة تكون في البحر، تكون أعظم دوابه يقال لها : القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته».[85]

انطلاقا مما ذكره ابن الكثير، يمكن القول إن قريش ما هي إلا مرحلة تطورية في تاريخ المجتمع العربي قبل الإسلام، والقرآن يقر بهذه الحقيقة التاريخية ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيۡشٍ ﴾﴿ إِۦلَـٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ (سورة قريش)

نقرأ في قاموس المحيط مايلي؛ قَرَشَهُ يَقْرُشُهُ ويَقْرِشُهُ، قطعه وجمعه من ههنا وههنا وضم بعضه إلى بعض ومنه قريش لتجمعهم إلى الحرم، أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها أو لأن النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوما، فقالوا: تَقَرَشَ، أو لأنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل قريش أي شديد (...) أو سميت بمصغر القرش، وهو دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها.[86]

---

[84] تاريخ الطبري.

[85] البداية والنهاية سبق ذكره ج الثاني ص 187.

[86] قاموس المحيط مجد الدين محمد يعقوب فيروز آبادي، مؤسسة الرسالة ، ص 602.

يبدو أن خزاعة وقريش هما وجهين لعملة واحدة، أي أن صفة قريش والتقريش حازت عليها خزاعة بعد إنتقالها من حالة الفراق إلى حالة الإتحاد، من حالة الفوضى إلى حالة النظام، وبالتالي فإنه لا وجود لقبيلتين الأولى سبقت الثانية والثانية أزاحتها من الحكم بعد أن تسلمت مفاتيح الكعبة، فبين خزاعة وقريش حركة تطورية وتغير للبنية الاجتماعية والفكرية.

لا شك أن أنجع طريقة تمكننا من الإحاطة بدلالة قريش هي الاستناد إلى القرآن، فالقرآن قرن مع التقريش صفة الإيلاف وفعل التأليف، ما يحيل إلى وجود علاقة متبادلة بينهما، فإذا اتضح لغويا أن الإيلاف هو التأليف فمن البديهي أنها مرحلة تأتى بعد عدم التأليف أي عدم الوحدة وغياب النظام. وعلى هذا االنحو، فإن قريش مصطلح له دلالة تاريخية سياسية واجتماعية، إنها دلالة تكشف أولا عن تحول كبير في التركيبة الإجتماعية والمعرفية للعرب، وهو يتبدى أولا من خلال الإنتقال من حالة عدم التماسك إلى حالة التماسك وهو بالضرورة التأليف. ثانيا التحول السياسي، فالمجتمع اللامتماسك أصبح يميل إلى تماسك، وذلك مؤشر واضح يميط اللثام عن تغير سياسي كبير، وبالالي فإن قريش هي نتيجة لمتغير عميق طرأ على مجتمع شبه الجزيرة العربية انطلق مع حدث بناء مكة، والسؤال؛ كيف بدأت إرهاصات ظاهرة التقريش والإيلاف؟ لماذا انبثقت من مكان الكعبة المكية لا من مكان آخر؟

منهجنا يرتكز على قاعدة أساسية في تاريخ العلوم قانون العلية أو السببية، حيث لا وجود لفكرة نشأت من العدم أو من فراغ، وبالتالي ظهور عوامل هيأت المناخ ومهدت الأرضية أمر لا جدال فيه. للإرادة الإنسانية دور في خضم هذا التغير، تتدخل من أجل تغيير الواقع الاجتماعي والسياسي، بتعبير آخر الإرادة الإنسانية تتخذ تلك العوامل والظروف كمطية للتغيير. إن المجتمع المتخزع هو مجتمع ما قبل ولادة الإرادة الإنسانية، كان قد فر من موطنه الأصلي وانتهى به المطاف إلى منطقة جبلية قاحلة يصعب العيش فيها، واكتسبت طابعا روحيا دينيا بسبب تواجد صرح يطاف حوله للتقرب إلى الله بتقديم القربان إلى الآلهة. ثم إن المناخ السائد في شبه الجزيرة كان ذو طبيعة قبلية، كل قبيلة تأبى الخضوع تحت سيطرة قبيلة أخرى، لأن القبيلة جعلت العربي يتمسك بعادات وتقاليد الأسلاف ويذود عن حرمتها ويرفض قطعا التفريط فيها، ما جعل عقلية عرب القبيلة محافظة إزاء تراث الأجداد. نحن أمام مجتمع البداوة، فالعرب هم مجتمع الصحراء، والصحراء لا تحدها حدود ولا تحيط بها جدران، وذلك أثر على ذهنية العربي أيما تأثير، فأصبح متعطشا للحرية، والحرية في نظره هي الأنفة الكرامة والكبرياء. الصحراء والبداوة هما عاملان ساهما في تربية العربي بترسيخ الفكر التحرري. للفكر

التحرري قبل نشأة الإسلام أثر كبير ساهم في تغييب اللحمة الاجتماعية والسياسية[87] وعزز التفتت والتشرذم الاجتماعيين وهو عائد إلى ظاهرة العصبية القبلية. أضف إلى ذلك المناخ الصحراوي البدوي الذي يقوم على سلطة الجماعة لا الفرد، صحيح أن الكهنة كان لديهم مكانة مرموقة، غير أن وظيفتهم لا تتعدى الاستشارة والإرشاد ولا يمارسون الحكم، ذلك هو المجتمع البدوي الصحراوي المتحرر من الأطر الثابتة والجامدة الذي لا يرضى بسلطة متأتية من الخارج وليست منبثقة من قبيلته. إن الفكر التحرري كان لونا من ألوان السياسة في مكة، حيث لم توجد سلطة يحتكر عليها فرد أو مجموعة من الأفراد لديها تحزبات عقائدية وفكرية معينة تتحكم في الحياة السياسية، بل الحكم كان يشترك فيه مجمل الأطياف والطبقات المكونة للمجتمع، وذلك عزز استقلال مكة سياسيا وحفاظها على حيادها الديني بالرغم من تواجدها على تخوم الصراع الساساني البيزنطي، وفي هذا السياق يعد الفكر التحرري ضامنا رئيسيا أدى إلى نوع من الديمقراطية الدينية في مكة، وهو العامل الذي حولها إلى بؤرة من الهرطقات والتعددية الفكرية، إلا أنها فرضت واقعا اجتماعيا غير منسجم وغير متماسك سياسيا ودينيا بسبب العبادة المحلية، فكل قبيلة لها ربها وصنمها الخاص.

كانت ظاهرة الغزو سائدة بقوة في شبه الجزيرة، وكانت مورد رزق جميع القبائل العربية، فالعامل البيئي شكل دافعا لهذه السياسة، سلسلة جبلية تهيمن على مجمل مساحتها وسهول مقفرة جرداء تتخللها في الوسط، كما تتسم منطقة الحجاز بذات التضاريس مع طقس شديد الحرارة وقلة الأمطار ومنحدرات يتخللها واد عقيم. أما العامل الثاني فهو طمع القبائل ببعضها البعض، في المجتمع القبلي، جرت العادة أن تطمع القبائل القوية في القبائل الضعيفة وتستقوي عليها خاصة تلك القبائل المتحالفة، لتستولي على أملاكهم وثرواتهم، علاوة على تأثير العلاقات الشخصية بين سادات القبائل كالزواج والطلاق، الحسد والتنافس، كلمة نابية قد تثير حربا بين شخصين لا ينتميان إلى نفس القبيلة أو عمل سفيه جاهل يثير حربا وغزوا بسبب عصبية قومه له.[88] ذلك حال غياب مفهوم الدولة ككيان شامل يجسد الوحدة وانصهار جميع القبائل كبنية متماسكة منسجمة، واستبعادا للنظام القبلي الذي يرسخ التفتت والتشرذم.

لم تعرف شبه الجزيرة العربية مفهوم الدولة قبل ظهور الإسلام، ونخطئ لو اعتقدنا أن المناذرة والغساسنة يجسدون هذا المفهوم، لأن الدولة لا تتحقق من دون سيادة، بالتحكم والسيطرة على كامل المجال الترابي مع استقلالية القرار السياسي ووحدة المجتمع. المناذرة والغساسنة كانتا إمارتين تابعتين

---

[87] لقد كانت القبائل العربية قبل ظهور إيلاف قريش والإسلام تقوم على رابطة الدم وهو نوع من اللحمة، إلا أنها تقتصر على أفراد نفس القبيلة ما جعلها لحمة نسبية وغير شمولية.

[88] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج الخامس ص 333-334.

للساسانيين والبيزنطيين ولا يمارسان السيادة المطلقة، وبالتالي فإنه لا يمكن تصنيفهما كدولة مستقلة، ذلك هو المشهد على المستوى السياسي الاجتماعي والاقتصادي المهيمن شبه الجزيرة قبل ظهور إيلاف قريش على الساحة. إن إيلاف قريش هو ظاهرة تمثل نوعا من الثورة الاجتماعية وحلقة وسط صوب تحقيق وحدة المجتمع العربي، إيلاف لم يظهر بطريقة اعتباطية إنما ثمرة الإرادة والجهد الإنسانيين. ولئن كانت ظاهرة إيلاف قريش سعيا لإحداث تغيير في بنى المجتمع العربي فإن اليد البشرية لعبت فيه دورا خلاقا عن طريق الدفع له بهدف الخلاص من الواقع المتخزع واقع الفراق وعدم الأمن والاستقرار، بمعنى غياب الإيلاف. يؤكد المؤرخون المسلمون أن جذور قريش تعود لشخصية تدعى فهر، اسمه بالكامل؛ فهر ابن مالك ابن النضر ابن كنانة ابن خزيمة ابن مدركة ابن مذر ابن نزار ابن معد ابن عدنان.[89] انبثقت قريش من عائلة فهر، إنها تمثل فرع فهر وأبناؤه وما كان فوق فهر فهو ليس بقرشي بل كناني[90]، إن مسألة الأنساب مشكوك فيها عند الأعراب كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ولكن إذا سلمنا جدلا بصحتها سوف نجد أن كنانة كان له ابنان النضر ومالك، مالك وضع فهر، فهر وضع غالب، غالب وضع لؤي، لؤي وضع كعب، كعب وضع مرة، ومرة وضع كلاب، ثم كلاب وضع قصي.[91]

قصي ابن كلاب يعتبر المحفز الأول لظاهرة التقريش في مكة، شخصية فذة وداهية يتمتع بوعي سياسي فاق كل الحدود.[92] في تتبعنا لسلسلة النسب التي علينا الإحتراز منها، غرضي هو التركيز على هذه الشخصية التاريخية، وهي بمثابة الحاجز الفاصل بين الميتاتاريخ والتاريخ، ذلك وأن كل ما ذكره الإخباريون من أحداث وملاحم سبقت ميلاده لا يمكن الوثوق به ولكن انطلاقا من قصي تطأ أقدامنا التاريخ ونبتعد عن الخرافات والخزعبلات، وذلك ما أكده د. جواد علي: « وهو أول رئيس من رؤساء مكة يمكن أن نقول أن حديثنا عنه هو حديث عن شخص عاش حقا وعمل عملا في في هذه المدينة التي صارت قبلة الملايين فيما بعد. فهو إذن من الممهدين، وهو أول رجل نتكلم عن بعض أعماله ونحن واثقون مما نكتبه عنه ونقوله».[93]

رغم تاريخية هذه الشخصية ووجودها الفعلي في مكة إلا أنها لم تسلم من ظاهرة الأسطرة، فنسج حولها أعاجيب وبطوليات خارقة للعادة، وطبيعي أن يقع ذلك فقصي هو عبقرية سياسية لا نظير لها، كما أنه يعتبر الأب الروحي للدولة الإسلامية والمنظر الأول لها، وهو مشروع سيسعى أبناؤه من بعده على تحقيقه وسيخرج من حالة التنظير إلى حالة التطبيق مع حفيده النبي العربي محمد بن عبد الله،

---

[89] المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 18-19.
[90] نفسه.
[91] ص 478-480.
[92] الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، سيد محمود القمني مدبولي الصغير الطبعة 1996، ص 81
[93] المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 22.

فلا عجب أن تكتسب شخصيته مكانة عظيمة في نفوس العرب لترتقي إلى مرتبة أبطال الأساطير، وبالفعل فإن المشروع السياسي والاجتماعي الذي وضع لبناته أسبغ عليه النفح الأسطوري. ناقش الكاتب خليل عبد الكريم شخصية قصي وأسهب في دراستها وتحليلها، مبرزا أن أفضل ما ذكر عنه نجده عند المؤرخ محمد ابن يوسف الصالحي الشامي، وهو من مؤرخي القرن العاشر الهجري : « والحق أنني لم أجد فيما قرأت عن قصي خيرا مما خطه الإمام محمد ابن يوسف الصالحي، وربما أتاح له تأخره النسبي الاطلاع على كتب التواريخ والسير منذ عصر التدوين حتى زمانه، فألف موسوعة ضخمة في سيرة النبي العربي صلى الله عليه وسلم، أطلق عليها سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد».[94]

إن كلمة قصي في اللغة العربية تعني البعد ويقال قَصِيَ قَصاً وقَصَاءً أي بَعُدَ، وقال الخطابي : «سمي قصي لأنه قصى قومه أي تقصاهم بالشام، فنقلهم إلى مكة».[95] يبدو أن قصي سمي قصيا بهذا الإسم لأنه أحدث ثورة اجتماعية سياسية عن طريق الدين، تمكن من نقل العرب من حالة التخزع، الشتات والفراق، إلى عرب الإيلاف، التماسك والوحدة. لقد أقدم على تغيير واقع اجتماعي متشرذم ومشتت، وذلك بإرساء نظام الإيلاف. لعب قصي دورا رياديا جعل من مكة حرما آمنا ومقصدا لجميع القبائل العربية وغير العربية، بعد أن فرض أسلوب التقريش واقعا جديدا في مكة، مستأصلا لخزاعة التي تحولت لقريش، فانتهت السيادة المكية إلى قبيلة قريش حتى ظهور الإسلام بفضل نظام الإيلاف. في القرآن إلى نجد صدى لهذا المعنى ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ (آل عمران/103).

إن نظام الإيلاف يقوم على مفهوم الأخوة بين العرب، الأخوة ضد التناحر والصراعات الدائرة بينهم طيلة فترة ما قبل الإيلاف، إنه تأليف القلوب على الوحدة والتناغم، قصي هو الشخصية الوحيدة التي تمكنت من تحقيق ذلك. بدأ بالتقريش، وهو جمع شتات الأعراب الموزعة على السهول والجبال الحجازية وجمعهم حول الكعبة ثم ألف بينهم. بسياسة التقريش استطاع أن يحول مكة إلى مركز تجاري كبير لاستراحة القوافل التجارية على طريق الخط التجاري بين اليمن والشام، وبالتالي فإن التقريش جاء نتيجة مرحلة تطورية أحدثت تغيرا جذريا في التركيبة الإجتماعية ونهضة اجتماعية ظهر صداها بتحويل وجهة الأعراب إلى التجارة واعتزالهم حياة الغزو والإغارة.

---

[94] قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية خليل عبد الكريم، سينا للنشر الطبعة الثانية 1997، ص 36.
[95] نفسه.

لقد أدرك قصي منذ وقت مبكر أنه يستحيل توحيد القبائل العربية وزرع وازع التكافل من دون خلق مصلحة مشتركة تحملهم على ترك العصبية القبلية ولو لفترة وجيزة، وتلك المصلحة* هي الاشتغال في التجارة. فظاهرة التقريش هي نتيجة لتجمع القبائل المتناثرة والمتناحرة وما جمعها إلا المصلحة المادية المشتركة ألا وهي التكسب المادي.[96] نجد في بعض المصادر الإسلامية أن قريش سميت في الماضي بالنضر ابن كنانة عندما كانوا مشتتين وجاء قصي فألف بينهم فسموا قريش، وسياسة التقريش تعني الجمع والتوحيد لذلك سمي قصي بالمجمع فقيل في حقه :

قصي أبوكم كان يدعى مجمعا   به جمع الله القبائل من فهر[97]

بتلك السياسة الذكية، نجح قصي في إقناع القبائل ولو جزئيا بتجاوز الأنانة القبلية -أي القبيلة هي محور الحياة العامة والخاصة بحيث يذوب الفرد في القبيلة-،[98] والنظر نظرة أفقية تتعدى الأطر الإجتماعية الضيقة وتشمل القبائل مجتمعة. سياسة التقريش دربت الفرد العربي البدوي على الأخذ بعين الاعتبار مصلحة الآخرين، وهي مقدمة واعدة ووميضا على درب بدايات تشكل القومية والهوية العربية، وذلك سيصل ذروته مع الإسلام. إذن فالتقريش والإيلاف، هما مرحلة نحو ظهور الدين الجديد، علما أن سياسة التقريش والإيلاف، لم تقضي نهائيا على العصبية القبلية ولم تنزع عن العرب صفة السراقينيين، لكن الحال مختلف تماما في مكة أين نجد نوعا من النظام الذي يشبه نظام الدولةفي طوره الجنيني. لما كانت سياسة التقريش تقوم على مفهوم المصلحة المادية المشتركة فذلك يبدو بديهيا إذا قلنا إن كلمة قريش تعني أيضا القرش، والقرش هو الكسب المالي، وهو تجمع الناس في مجتمع مترابط واستعداده للدفاع عن مصالحه من خلال فرض الأشهر الأربعة الحرم، وفيها لا يتقاتل القبائل ولا يأكلوا بعضهم بعضا، وقد تحولت هذه الأشهر إلى عرف وتقليد عربي مع أحفاد قصي لا سيما هاشم.

إلى جانب التقريش ذكرنا الإيلاف وهو مكمل للأول، إنه تأليف كما قلنا بين القبائل الضاربة على الخط التجاري الواصل بين مكة وبين حدود الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية، وتأليف بين القبائل الضاربة في باطن الجزيرة، وتأليف بين قريش وبين الإمبراطوريتين.[99] التأليف إذن ثلاثي، توحيد البيت الداخلي المكي، ليتجاوز مكة إلى القبائل المجاورة، مخترقا الفضاء الخارجي، مؤسسا لعلاقات

* شكلت هذه المصلحة ضربا من التحالف بين القبائل المختلفة، سياسة كانت شائعة من التاريخ القديم، حيث نجدها لدى اليونانيين تسمى **amphictyonie** تعنى مهنة مقدسة، تلك المهنة هي طبعا التجارة. لعبت المصلحة دورا كبيرا في إقامة مراسم الحج وبيذ كل أشكال العنف.

96 حروب دولة الرسول سبق ذكره ج الأول ص 10.

97 المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 24.

98 الشخصانية الإسلامية د. محمد عزيز الحبابي دار المعارف الطبعة الثانية، ص 9.

99 حروب دولة الرسول ج الأول ص 11.

ديبلوماسية بين الجزيرة من جهة، وإمارتي المناذرة والغساسنة من جهة ثانية، ثم الإمبراطوريتين من جهة ثالثة.

إن سياسة التقريش والإيلاف التي انطلقت مع قصي تعتبر بمثابة المعجزة العربية، ذلك وأنها استطاعت عن جدارة كسر حواجز النظام القبلي الذي جعل العربي يقبل مبدئيا الإتحاد والتكافل مع القبائل المجاورة وهو ليس بإتحاد فعلي –فذلك لن يتحقق إلا مع الإسلام- بل هو ضرب من المهادنة المقيدة بشروط، سياسة جعلت أهل مكة في تعاون وثيق فيما في التجارة حتى كادوا يكونون وكأنهم شركاء مساهمون في شركة تجارية عامة.[100]

إن نجاح ظاهرة التقريش والإيلاف لم يكن مقتصرا على إرادة وعزيمة قصي فحسب في تغيير الواقع وزرع البذور الأولى للدولة الإسلامية المستقبلية، إنما توقف أيضا على جملة من العوامل الطبيعية والسياسية التي تمظهرت إبان القرنين الرابع والخامس. أما العوامل الطبيعية فإنها تكمن في الوضع الجغرافي والبيئي لمنطقة الحجاز المحاطة بالجبال يتخللها واد جاف مع مناخ مقفر واحات وغابات مرهومة* وتضاريس وعرة، ففترة الجفاف تدوم لستة أشهر تليها بعض زخات كبرى لحيوية النباتات الصحراوية الشديدة، ولكي نعود إلى الحياة القومية والعابرة مثل الإعصار الذي جعلها تنبعث وتنهض، حينئذ يمكننا أن نشهد هذا المشهد البديع والجميل، وهو أن نرى الصحراء حتى في أجزائها الأكثر عريا تتحول إلى حديقة كبرى إلى سهل شاسع، لكن هذا الرخاء قصير الأمد، إذ لا تتأخر شمس لاذعة وبلا رحمة عن إحراق كل شيء.[101] تلك الظروف البيئية ساهمت بشكل كبير في دفع القرشيين للميل إلى السلم لأن في السلم تأمين لحياتهم المحاطة بشبح الغزو والإغارة، إنها سياسة ذكية للنأي بالنفس، فنفخت في روعهم صفة درء السيئة بالحسنة، الشر بالصبرو الحلم، والكلام السيئ البذيء بالكلام الحسن المخجل، فتغلب حلمهم على جهل الجاهلية.[102] نلاحظ أن الظروف البيئية أثرت على سجية أعراب مكة وأكسبتهم ميزة أخلاقية واجتماعية مقارنة ببقية القبائل، مما جعل مكة وما جاورها محيطا يتسم بالتحررية المطلقة من الناحية الدينية والاقتصادية، فترى الوافد إليها يمارس شعائره بكل حرية، والتاجر يبيع ويشتري بكل حرية، لأنه في بلد آمن بفضل سياسة الإيلاف والتقريش ذات الطبيعة السلمية الهادئة. لئن ساهمت هذه السياسة في إحداث معجزة اجتماعية واقتصادية حولت مكة ومجتمعها إلى قوة رأسمالية ضاربة، إلا أنها صَيَّرت المجتمع القرشي أقل حمية وحماسة تجاه الغزو،

[100] المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 26.
* المطر الخفيف.
[101] مدخل إلى علم اجتماع الإسلام يوسف شلحت، تعريب خليل أحمد خليل، دار الفارس للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2003، ص 37.
[102] المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 20.

وأقل اندفاعا للحرب، جانحا إلى السلم وسياسة التفاوض، فالقرشي بارع في التفاوض والمهادنة، ولا يركن إلى الحرب إلا دفاعا عن النفس لذلك قيل أن سجية قريش الخوف، وأنها لا تحسن القتال وإذا حاربت خسرت الحرب.[103]

أما العوامل السياسية تكمن في التحولات الجغراسياسية الكبرى بداية من تهاوى اليمن السعيد مع ظهور الحميريين ثم احتلالها من قبل الفرس في النصف الثاني من القرن السادس، بينما تضعضعت أحوال المناذرة والغساسنة قبل ظهور الإسلام، ووقعت تحت الاحتلال المباشر من الفرس والروم، وذلك أحدث بالضرورة فراغا سياسيا في المنطقة الممتدة من سواحل المحيط الهندي جنوبا وحتى الخط الفاصل بين الامبراطوريتين في بادية الشام شمالا، يمكن أن نستقرئ هذه العوامل كما يلى :

أولا ؛ شكل إحتلال اليمن (العربية السعيدة) من قبل الفرس انتزاعا لسيادة المسالك البحرية التجارية من الحميريين وهو تحول مثير أدى إلى ترنح للنشاط التجاري البحري وبقيت مكة بمنأى عن تلك التحولات وحافظت المسالك البرية التي تشق صحاري الجزيرة مستقلة عن موجة المد والجزر السياسية خلال القرنين الخامس والسادس وورثت مكة الوظيفة الإقتصادية بعد أن كانت في كنف اليمن.[104]

ثانيا ؛ بفضل سياسة التقريش المشفوعة بالإيلاف إستطاع البدو أن يلعبوا دورا مهما في تجارة العالم، ولم تكن السفن أنذلك تستطيع عبور البحر الأحمر المملوء بالجزر التي تجعل الملاحة خطرا عليها، ومن عيوب الملاحة في البحر الأحمر عدم توفره على الموانئ وبه كثيرا من الشطوط الضحلة التى كان اقتراب السفن منها أمرا محفوفا بالمخاطر، ولم تكن السفن تستطيع استعمال الخليج الفارسي بسبب تواجد الفرس، فأصبحت المواصلات البرية هي الطريق المهم للتجارة عبر البادية بين الشمال والجنوب الشرق والغرب.[105]

ثالثا ؛ إن مرور السلع عبر الطرق البرية لم يكن إختيارا بل اضطرارا، ذلك وأن الطرق البرية لم تكن مأمونة وهو ظرف سيمثل منعرجا حاسما في تاريخ مكة السياسي والإقتصادي، حيث تحولت من مجرد محطة على الطريق تقبض العشور والضرائب على السلع إلى حاضرة تجارية تظهر فيها طبقة من التجار تحتكر الأمر لنفسها، وذلك ما تحدث أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام:« ثم انحط اليمنيون وحل محلهم في القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز، وكان ذلك منذ بداية القرن

[103] ص 21.
[104] الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية سبق ذكره ص 57.
[105] نفسه.

السادس للميلاد، فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق الشام ومصر وقليلا ما كانوا يبيعونها في أسواق فارس لأن التجارة مع الفرس كانت في يد عرب الحيرة، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم».[106]

رابعا ؛ داخل هذا المعترك السياسي والاقتصادي بتموجاته وتقلباته، حافظت منطقة الحجاز على استقلاليتها كما احتفظت مكة بمناخ عربي خالص بعيد عن مجال الصراع الدولي وبطش القوى المستعمرة، وما عزز وضعها الاستثنائي هو عدم خضوعها لسلطان أو حاكم متفرد بنفوده، وتلك ميزة رسخها قصي، حيث أن السلطة كانت محور تقاسم وتشاور بين أفراد الطبقة الأرستقراطية.

خامسا ؛ وجدت مسالك برية أخرى استعملت لمرور القوافل التجارية صوب الشام غير أن سلسلة الحروب اللانهائية بين الإمبراطوريتين دمرت تلك المسالك ولم يسلم إلا المسلك الذي يشق مكة ويتفرع شمالا إلى فرعين نحو فارس شرقا وروما شمالا والبترا غربا،[107] وهذا العامل بالتحديد أكسب الكعبة المكية مكانة لا نظير لها لتيسير التبادلات التجارية وتأمينها فحظيت بالمسؤولية التاريخية ألا وهي القيام بأمر تجارة العالم خلال القرنين الخامس والسادس، وهذا الظرف بالذات يجسد المثل العربي الشهير : مصائب قوم عند قوم فوائد .

هذه مجمل العوامل التي ساهمت في تمهيد الأرضية لاندلاع نهضة اجتماعية أدت فيما بعد إلى نهضة اقتصادية هبت على المناخ المكي قبيل ظهور الإسلام، وقصي استغل تلك الظروف بغية إرساء واقع جديد متمثل في تأليف القلوب الذي نجح نسبيا في تجاوز العصبية العشائرية، فأصبحت مكة بمثابة الوسيط التجاري بين الجنوب والشمال، وصفها القرآن برحلة الشتاء والصيف، الأولى صوب اليمن والثانية صوب الشام. إن تسارع تلك الأحداث وإفرازاتها الوضعية ومن ثم تدخل جذوة قصي الثورية شكل ضربا من المعاضدة ولدت مشهدا اجتماعيا وسياسيا ينبئ بقيام وحدة عربية مسبوقة بثورة دينية.

ذكرنا أن قصي أدرك منذ وقت مبكر استحالة توحيد القبائل العربية من دون زرع التكافل الاجتماعي القائم على المصلحة المادية المشتركة المتبلورة في التكسب المالي (القرش)، بيد أن ذلك غير كاف لتحقيق الوحدة الاجتماعية والاقتصادية، ما يفسر توظيف قصي للدين لبلوغ مرمى مشروعه السياسي. لقد اعتمد قصي على الدين لتنظيم المجتمع العربي وترسيخ مفهوم الدولة الدينية أين نجد

[106] فجر الإسلام أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1987، ص 12-13.
[107] حروب دولة الرسول ج الأول ص 12-13.

الرئيس أو الحاكم يجمع بين القداسة الدينية والسلطة الدنيوية، ما يجرنا لميدان علم الاجتماع الديني. إن علم الاجتماع الديني يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية الدينية والعلاقات الاجتماعية للدين من الداخل والخارج، هو مزيج بين علم الاجتماع وعلم الأديان، وعلم الاجتماع الديني يعتبر فرع من فروع علم الاجتماع، ويمكن أن نلخص أهم القضايا التي يتناولها كما يلي :

أولا : يتخذ الدين بالضرورة موقفا من الأشكال الاجتماعية العلمانية الطبيعية القائمة كالأسرة القبيلة الشعب والدولة، وتمثل دراسة العلاقات المتبادلة بين الدين وهذه الأشكال الاجتماعية أول أهدافه.[108]

ثانيا : يكون الدين نفسه نمطا اجتماعيا خاصا، ولا نجد مثل هذه الأنماط إلا في الأديان الشمولية العالمية (اليهودية المسيحية والإسلام). والجماعات التي تدرس هي جماعة المعلم والتلاميذ، المعلم وحوارييه.[109]

أية طريقة لجأ إليها قصي للمزج بين الدين والدولة بين المادي والروحي ؟ لقد لجأ لظاهرة الحج، نعم إن الحج إضافة إلى كونه ذو مغزى غيبي ديني فإنه يخدم في نفس الوقت مصلحة دنيوية ألا وهي التجارة، والكعبة هي رمز الحج العربي، لذلك أول ما أقدم عليه قصي حينما بدأ بسياسة التقريش و الإيلاف هو الاستيلاء على سلطة الكعبة المكية ولم يكن أن يتم لولا سياسة المصاهرة، فتزوج بابنة حليل بن حبشية الخزاعي اسمها حُبي، وحليل هذا كانت له سلطة على الكعبة قبل مجيئ قصي، فعلم أن نيل تلك السلطة وافتكاكها لن يكون إلا بالتقرب منه، وعندما توفي حليل اقتنص قصي الفرصة وأخذ مكانه. نقل إبن هشام ملابسات سياسة قصي التي تنم عن دهاء وخبث لا نظير لهما :« ثم إن قصي بن كلاب خطب إلى حليل بن حبشية بنته فرغب فيه حليل فزوجه، فولدت له عبد الدار وعبد مناف و عبد العزى وعبدا، فلما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل. فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريش قرعة* إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده، فكلم رجالا من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فأجابوه».[110]

تأتي الخطوة الثانية وهي جوهرية ومن دونها لم يكن بإمكانه استكمال سيطرته على مكة، إنها توليه أمر الكعبة باشترائه مفاتيحها من أبي غبشان الخزاعي مقابل زق من الخمر.[111] وصف ابن الكثير

---

108 المدخل إلى علم الإجتماع د. محمد الجوهري 2004، ص 268.
109 نفسه.
* أي النخبة.
110 السيرة النبوية عبد الملك ابن هشام سبق ذكره، ج الأول ص 136.
111 ص 137.

تلك الصفقة بقوله : فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق من الخمر وقعود فكان يقال : أخسر من صفقة بنى غبشان.[112] بسيطرته على الكعبة أصبح قصي سيد مكة، وذلك ما تؤكده المصادر الإسلامية حيث أدركت خزاعة بخطورة تلك الخطوة ورأت أنه سيحول بينها وبين بيت الله فعزمت على محاربته.[113] هنا يثور سؤال ثان؛ لماذا الحج بالذات يعد ركيزة لرأب الصدع بين القبائل ومن ثم تحقيق ضرب من التكافل والتماسك الإجتماعيين مازجا الدين بالدولة ؟

إن ظاهرة الحج تعكس مستوى راق من الوعي والحضارة في العصور القديمة والوسيطة، فالحج يعتبر مناسبة يلتقي فيها الحجاج من كل صوب وحدب، رغما عن الإختلافات الثقافية والأثنية الصارخة بين الحجاج إلا أنهم يجدون أنفسهم منجذبين لا شعوريا لذلك الصرح الديني، وقد تكون فرصة لتثمين سبل الحوار والتفاهم، وبالتالي يخلق نوعا من التلاقح الثقافي والحضاري وإزالة تلك الفروقات الكامنة بينهم. وهو ما أشار إليه محمود الحوت :« وكان في الجزيرة كعبات بمثابة محجات للعرب يفدونها في مواسم معينة من السنة اعتادوا أن يقيموها لتبادل المصالح المشتركة، وكانت لهذه المواسم أسباب هامة في سيادة أهل الحجاز وخاصة قبيلة قريش في كثير من الأمور».[114]

يمكن أن نقارن الحج بتكنولوجيا الأنترنت تلك الشبكة العنكبوتية التي تجمع بين الناس بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم، وربما ما تقوم به الأمم المتحدة في العصر الراهن في الإقرار باجتماع سنوي محدد الزمان والمكان يذهب له المندوبون من أقطار مختلفة بهدف التعاون في شتى الميادين لا يبتعد عن الحج، إنما هو حج ولكن في ثوب حداثي عصري. ومن هنا نستوعب حيوية هذه الظاهرة ولماذا أعار لها قصي إهتماما بالغا وسار أسلافه على دربه والتزموا بسياسته، وكان قصي قد ولى عناية فائقة لما يعرف بالسقاية والرفادة، أي اصطناع الشراب الطعام للحجاج، إلى جانب ذلك قام بحفر بئر سماها "العجول" لسقي الحاج والمعتمر، فالحج هو الملتقى السنوي لقبائل عرب الجزيرة كافة وفيه تروج التجارة وتنعقد عدة أسواق قرب مكة وما حولها من بينها سوق عكاظ وذي المجنة.[115]

بناء على ما سبق، نستنتج أن الكعبة المكية احتلت مكانة بارزة بداية من القرن الخامس مقارنة ببقية الكعبات، وذلك عائد للأسباب التي ذكرناها، منها الطبيعية، السياسية، والإنسانية، ما يعلل خفوت قيمة باقي الكعبات ومن ثم اضمحلالها واندثارها مع تقدم الزمن، لأنها لم تحضي بنفس المركز الجغرافي الذي حظيت به الكعبة المكية، كما أن الحتمية الطبيعية من تسارع للأحداث والوقائع

---

112 البداية والنهاية ابن الكثير
113 السيرة النبوية ابن هشام ص 143.
114 في طريق الميثولوجيا عند العرب سبق ذكره، ص 122.
115 قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ص 41.

السابقة الذكر جاءت في صالحها ومهم أن نورد ملاحظة الباحث محمود سليم الحوت في هذا الصدد : ويجب ألا يخطر على بال أحد أن مكة وإن إرتفعت مكانتها عن سواها من أماكن العبادة هي القبلة الوحيدة في الجزيرة، فقد كان للعرب كعبات عديدة أخرى تحج إليها في مواسم معينة وغير معينة.[116]

تظافر جملة من الظروف السياسية والإقتصادية شاءت أن تجعل من الكعبة المكية المحج الأول والرئيسي لجميع القبائل مما أدى إلى أفول الكعبات. لقد ساهمت الحرية الدينية في الإعلاء من شأنها نظرا وأن قريش أهل تجارة من الطراز الأول، والتجارة مهنة منفتحة على العالم والمجتمع بمختلف أطيافه وفئاته، فمن الطبيعي أن يتحلوا بنوع من المرونة الدينية مع التجار الوافدين للقيام بالحج والمتاجرة، تلك المرونة كانت عاملا مباشرا في في تكاثر الأصنام حول الكعبة، والتي ترمز للأرباب المجلوبة رفقة الحجاج التجار تاركين إياها في الكعبة ليعودوا إليها في الموسم القادم، مما نتج عنه تكاثر المواسم المكية بالاحتفالات الدينية بالأرباب المختلفة، وكثر الخير والبركة من التجارة، وكان حتميا أن تهفو قلوب العرب وتجتمع عند الكعبة، فيها أربابهم ومعاشهم مرحهم وسمرهم، وأن تضمحل بالتدريج شأن بقية الكعبات التي توارت ثم طواها النسيان.[117]

هكذا إذن نستخلص ميزة الحج وقيمته، ولماذا اعتمد عليه قصي كشرط أساسي لادعيم أسس التقريش ومن ثم الإيلاف، فهو يمثل العمود الفقري لمفهوم الدولة. الدولة هي كيان يتكون من مجتمع ويحتوي على مؤسسات وقوانين، مما يعطى النظام والوحدة السياسية. وعليه، فإن الحج هو مقدمة واعدة من أجل الوحدة العربية من خلال تأليف القلوب وفرض المصلحة المشتركة المتمثلة في التجارة. إن عظمة شخصية قصي ودورها التاريخي في بناء الوحدة والقومية العربية أمر لاجدال فيه، فمن خلال مزجه المقدس بالسياسة، استطاع وضع اللبنة الأولية للدولة، كما أن مخططه ساهم بدرجة كبيرة في جعل العرب يشتغلون في التجارة والإبتعاد عن حياة الغزو، مما حفزهم للسفر والاطلاع على حكومات عرب الغساسنة والمناذرة، كذلك حضارة الفرس والروم، فسكن في نفوسهم حلم الدخول في الحضارة والخروج من البداوة. خلاصة القول، التجارة عملت على تثوير البنى المعرفية والإجتماعية لدى العربي.

عن طريق الدين أضفى قصي مسحة مقدسة على قريش وأصبحوا أهل الحرم وبيت الله الحرام، والحرام هو التحريم والدفع، ونعتت بآل الله وجيران الله وسكان حرم الله وبأهل الله.[118] لقد وُصِفَ قصي بالدين المتبع في قومه "فكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع".[119]

---

[116] في طريق الميثولوجيا عند العرب ص 133.
[117] الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية ص 74.
[118] المفصل في تاريخ العرب ج الرابع ص 25.

عندما جمع قصي شتات العرب في مكة وخارجها جمعهم حول الكعبة، وذلك ليس اعتباطا بل استراتيجية تعكس مدى دهائه وخبثه السياسي، فالكعبة رمز للقداسة وبيت الله الحرام ولا يتجرأ الغزاة العرب على انتهاك حرمتها والمحاربة فيها وهو ما أفصح عنه بالقول :« فو الله لا تستحل العرب قتالكم، ولا يستطيعون إخراجكم فتسودوا العرب أبدا ».[120] لقد أدرك منذ اللحظات البواكر أن للدين تأثيرا كبيرا على نفوس الناس مهما تضاربت آراؤهم وأفكارهم، ومزجه بالدولة أمر ضروري حتى تكتسب هيبتها وتكون ذو سيادة مطلقة، إنه تلاقي السماوي بالأرضي وهو ما أشرنا إليه في الفصل الأول كون السماوي ليس سوى أسلوب لتقنين وتأطير الأرضي ومسايرة له، لذلك فإن ظاهرة النسخ في القرآن ليست اعتباطية، بل وجدت لغرض محدد وغاية معينة ألا وهي مواكبة التغيرات الأرضية والتحولات الوضعية نتيجة دوران الزمان وتبدل المكان.

حاول الباحث خليل عبد الكريم تحديد المرجعية التاريخية التي استقي منها قصي وأحفاده وخصوصا عبد المطلب جد الرسول سياسة مزج الدين بالدولة مؤكدا أنها تسللت إلى الجزيرة عبر دولة الروم :« فإذا ثبت أن أهل مكة كانوا على اتصال بغيرهم من الأمم أو من حولهم فإن انتقال الأفكار أمر طبيعي لا يمارى فيه أحد وعبد المطلب في الذؤابة العليا من أهل مكة إذن هو لابد أن يكون على علم بما كان يجري من أمور في الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)، ويعرف كيف كانت تحكم وماذا كان يدعيه حكامها، وسمع عن النظرية القيصرية البابوية، وأن الإمبراطور أو القيصر أو هرقل كان يعلن على الملأ أنه نائب الله على الأرض، فأدرك وهو من صفوة قريش لماحية بل وألمعية مدى أثر الدين في تدعيم الدولة وتوثيق أركانها وترسيخ قوائمها، فأعجبه ذلك أيما إعجاب فطبقه بطريقة فذة واقتدار بالغ تتوافق مع موجبات بيئته ومقتضيات مجتمعه».[121]

أما انتقال الأفكار وعملية التأثر والتأثير فتلك حقيقة لا جدال فيها، فالدين منظومة معرفية خاضعة لحركة التاريخ، والقول إن عبد المطلب نهلها من الروم فإنه أمر غير مؤكد، ونحن نؤوب للقول بأن نظرية تناظر الديني بالسياسي قديمة قدم الحضارة، نجد آثارها منذ الحضارة السومرية التي تعتبر فجر الحضارات، ثم توارثتها الأجيال طيلة آلاف السنين. إن المجتمعات القديمة كونتها ديانات قديمة، وكانت عقيدتها الأولى أن كل إله يحمي أسرة أو مدينة دون سواه وأن الإله لا يوجد إلا من أجلها، وتبعا لذلك فإن الملكية والميراث وكل الإجراءات الاجتماعية الدنيوية لا تنظم عن طريق الطبيعة أي الإرادة

---

[119] تاريخ الرسل والملوك ابن جرير الطبري ج الثاني، دار المعرفة المصرية، راجعة محمد أبو الفضل، ص 259.
[120] قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ص 44.
[121] ص 67.

الإنسانية بل عن طريق الديانات.[122] يمكن أن نستخلص أن نظرية الدولة الدينية التي تجمع بين السلطة الروحية والمادية كانت تعكس توجها عاما لمعظم مجتمعات التاريخ القديم والوسيط، ثم تعرضت للنقد مع فلاسفة عصر الأنوار خلال القرن الثامن عشر.

[122] علم الاجتماع الديني د. عبد الله الخريجي، الطبعة الثانية 1990، ص 73.

الباب الثالث

الأسباب الوضعية والاجتماعية التى أدت إلى ظهور الإسلام

لو أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء

عبد المطلب ابن هاشم

الفصل العاشر: محمد قبل إعلانه النبوة وأسباب رغبته الملحة من أجل التغيير

إن القراءة السلفية المتزمتة للإسلام تقوم على الميتاتاريخ، ذلك وأن المؤسسة الإسلامية التقليدية ساهمت في إرساء وترسيخ بدايات متعالية عن النسيج السببي التاريخي للإسلام والبحث عن التبريرات الغيبية الأسطورية التى لا تخدم الدين إنما تضره. التاريخ هو علم قائم بذاته وعمل المؤرخ لا يرتكز على دراسة الأحداث وعرضها بأسلوب متسلسل فحسب، بل تسليط الضوء على الأسباب الأولية فحصها وتمحيصها ومن ثم بيان إفرازاتها السياسية والإقتصادية والإجتماعية، ذلك منهج يتعارض تعارضا حادا مع الميتاتاريخ والتعليلات الغيبية الأسطورية ويقوضه، مؤسسا في آن لفهم تاريخي وعلمي وموضوعي للظاهرة الدينية.

إن الإجابة عن سؤال لماذا وجد الدين؟ وما هو سبب كيانه وتمظهره؟ هو عبثي في نظر المؤمن التقليدي، فهو يعتقد بوجود علة سحرية أدت إلى وجوده وبالتالي إقصاء واستبعاد كلي للذهنية التاريخية العلمية التي تتأسس كما أوضحنا على قاعدة التطور (تاريخية الأفكار) ومنطق التجربة والملاحظة. هذه الرؤية السقيمة والركيكة للظاهرة الدينية ساهمت في تعطيل الفكر النقدي الرصين في العالم العربي والإسلامي، وأجهضت كل المحاولات الرامية إلى إعادة قراءة تاريخ الأديان والتراث قراءة بعيدة عن التشنجات العاطفية الإيمانية، وكل من يفكر البحث في الميدان الديني عليه أن يلتزم بقوانين ومعايير المؤسسة الدينية التقليدية وكأنها مطلقة غير قابلة للمراجعة وإعادة النظر. مثلما نوهت في بدايات هذا الكتاب فإن المسلم لا ناقة له ولا جمل، إنما هو ضحية منهج منتهي الصلاحية، وسنحاول سأحاول تبيان الأخطاء الفادحة التي يقع فيه التفكير التقليدي تجاه الظاهرة الدينية، والحرص على تخليصه من القيود الميتافيزيقية الغيبية ومن ثم اعداده على قبول الفهم الوضعي الواقعي.

يعتقد المؤمن التقليدي أن الإسلام ليس له خلفية تاريخية، بتعبير آخر، نشأ من فراغ، وهو بذلك متعال عن النسيج السببي والمسوغات التاريخية والدوافع الإجتماعية والإقتصادية، إنه معطى جوهري جاهز. إن الدراسة المجردة من كل مقاربة ميتافيزيفية سحرية، ومخترقة لحجب الميتاتاريخ، تثبت عكس ذلك. إذ تثبت أن الإسلام يعبر عن مرحلة إنتقالية صوب نهضة إجتماعية واقتصادية وثورة معرفية واجتماعية بقيادة محمد بن عبد الله، وذلك يعني وجود ماض ذو ملامح معقدة ومتداخلة تحتاج لبحث وتحليل رصين وعمل كؤود، حتى نحيط بالعوامل الموضوعية التي ساهمت في ظهور الإسلام.

تظهر عظمة محمد من خلال مشروعه السياسي الرامي إلى وضع حد لظاهرة العصبية القبلية واستئصال كلي لداء التفاخر والتناحر بين الأعراب ثم ترسيخ القومية العربية من خلال اختراق الأطر الصحراوية البدوية. لقد أدرك منذ ريعان عمره وبوادر نضجه أن الدين القبلي القائم على العبادة المحلية ساهم في تغذية الفرقة والعداوة بين الأعراب، والحال أنه حفيد عبد المطلب ابن هاشم ابن قصي سليل عائلة عريقة عملت بخطى حثيثة ودؤوبة طيلة عقود من أجل قلب البنى المعرفية للمجتمع العربي. لقد ورث فلسفة قصي الاجتماعية الدينية ذات الصبغة الثيوقراطية الصرفة، مشروع نَظَّرَ له كل من قصي وأحفاده هاشم وعبد المطلب، ثم انتقل إلى طور التطبيق الفعلي العياني مع محمد ابن عبد المطلب ابن هاشم، ومهم ذكر ما أورده الشاعر معروف الرصافي في حقه :« محمد أعظم رجل عرفه التاريخ، أحدث في البشر أعظم انقلاب في الدين والسياسة والاجتماع، وقد أوجد هذا الانقلاب بواسطة نهضة عربية المبتدأ عالمية المنتهى، بدلت مجرى الحياة الانسانية وحولتها إلى ما هو أعلى مما كانت عليه قبلها حتى ان آثارها في قليل من الزمن عمت الشرق والغرب».[123]

لقد لا حظ بفضل حكمته ونفاذ بصيرته – بديهي أن يكون كذلك فدم قصي يسري في عروقه- أن الواقع على شتى أحواله يحتاج إلى تغيير كلي وجذري، يمكن أن نعتبره مرحلة متقدمة من الإصلاحات التي انطلقت مع قصي ابن كلاب وامتددت إلى جده عبد المطلب مرورا بابن هاشم. إن نظام التقريش والإيلاف هو في الحقيقة مقدمة غايته تحقيق وحدة سياسية عربية شاملة تنتهي بتأسيس دولة الأعراب المستقبلية، وكنا قد أشرنا سابقا كون ما حققه المناذرة والغساسنة لا يرقي إلى مفهوم الدولة الكاملة المستقلة، بل هو إمارة تأسست لخدمة مصالح الفرس والروم، كما أن المماليك التي قامت على أطراف الجزيرة (اليمن) جوهرها القبيلة كوحدة نظام سياسي واجتماعي ظل فيه المجتمع مفتت ومفرق فلم تنصهر الجماعة في شعب واحد كالشعب المصري أو الروماني، إنما ظلت القبائل وحدات قائمة متمسكة بكيانها.[124] لم يعرف العرب قبل الاسلام نظام المدينة كوحدة سياسية كما هو الحال عند اليونانيين، إنما كانت القبيلة تمثل الوحدة الأساسية مثل قريش في مكة وثقيف في الطائف، وجرى العرف عندهم الانتساب للقبائل لا للمدن.[125] كان مفهوم الأمة غريبا عند العربي البدوي، ولم يعرفه قبل الإسلام، الذي هَدَّمَ الأطر القبلية العشائرية، موسعا آفاق نظرة البدوي المنحصرة بين القبيلة والصحراء، مخترقة تلك الحدود البيئية الضيقة لتصبح نظرة عالمية شمولية.

---

[123] الشخصية المحمدية المرجع السابق، ص 16.
[124] مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول د. أحمد ابراهيم الشريف دار الفكر العربي، ص 35.
[125] نفسه.

ما أقدم عليه محمد هو موجة ثانية من الإصلاحات التي انطلقت مع قصي واستكمالا لثورته الاجتماعية الدينية، يمكن أن نلخصها في جملة واحدة "لا معبود إلا الله ". إنها جملة تختزل فلسفته ودوافعه من أجل التغيير. ثم إنه قد علم سلفا استحالة تحقيقه في ظل التفرق العقائدي وتعدد العبادات والأرباب اللذان ساهما بشدة في زيادة الفرقة القبلية، بحيث أصبح عائقا مستمرا في سبيل المحاولات التي قامت من أجل خلق كيانات سياسية في جزيرة العرب.[126] إضافة إلى الطبع القبلي الذي يأبى الرضوخ إلى حاكم أو ملك يتزعم ذلك الكيان السياسي، فالبدوي لا تسمح له كرامته الانصياع إلى أوامر غريب وفد من قبيلة أخرى ومكة خير مثال تدل على صفة الأنفة والكبرياء لدى العرب البدو واعتزازهم بالقبيلة ومفاخرها فقيل في حقها " ألا إن مكة لقاح لا تدين لملك".

بحسه الفذ وذكائه السياسي عَلِمَ أن استكمال المرحلة الأخيرة من موجة الاصلاحات لن تتأتى إلا عبر تثوير البنية المعرفية لدى الأعراب، ونقصد هنا الفهم الفلسفي الديني بالأساس الذي هيمن على المعتقد قبل الإسلام أو العصر الخزاعي القرشي. لا شك أن تعدد الأصنام والأنصاب يشكل عائقا سياسيا دينيا واجتماعيا أمام مشروع توحيد القبائل حتى يصبح قيام الدولة أمرا ممكنا. في هذ السياق يأتينا من صدور الكتب الإسلامية خبر شخصية تدعى عمرو ابن لحي الخزاعي الذي أدخل العبادة الوثنية إلى الجزيرة، وأفسد الروح التوحيدية الإبراهيمية الخالصة. ذلك هو المشهد التاريخي المحمول على ألسنة الأخباريين والمؤرخين المسلمين، كان العرب على دين ابراهيم وذلك في العصر الجرهمي، ثم حادوا عنه بسبب البدعة التي جلبها عمرو ابن لحي من الشام، ونحن كنا قد أكدنا أن كل ما ذكره العرب حول ابراهيم واسماعيل ناتج عن احتكاكهم باليهود طيلة قرون ومحاكاتهم للبطوليات والملحمات التوراتية وشعورهم القوي بوجود أصل مشترك، وبالتالي فإنه لا يعدو أن يكون ضربا من الميتاتاريخ، ولعل القرآن أصدق برهان على ما نقول ؛

﴿يسٓ ﴾﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ (ياسين5/1)

هذه الآيات تكشف أن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا ظاهرة النبوة، فكيف نزعم أن إبراهيم وإسماعيل وفدوا إلى شبه الجزيرة وتركوا آثارهم هناك ؟

إن المشهد يوحي وكأن العرب قبل الإسلام كانوا في عزلة تامة، لم يتأثروا بما دار من حولهم، والقول أن عمرو ابن لحي هو من أفسد العقيدة الابراهيمية بعيد عن الصواب، فنحن نرى أن عبادة

---

[126] الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية ص 66.

الأصنام والأوثان متصلة بماضي يعود إلى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، عبادة تسربت إلى الجزيرة ليس بين يوم وليلة انما عبر تاريخ طويل مرتبط بالمعتقد الصابئي والأوغاريتي. ذهب الباحث محمود سليم الحوت إلى هذا الرأي :« غير أن هنالك روايات تفيد أن تأليه الأحجار أو تقديسها يرجع إلى ما قبل أسطورة عمرو ابن لحي الذي كما يقولون نشر عبادة الأصنام بعد ان جلبها من الشام».[127] نلا حظ أنه وصف حادثة عمرو ابن لحي بالأسطورة، أي أنها من اختلاق الإخباريين المسلمين.

ما أشيع حول عقيدة العرب قبل الإسلام يقوم على مغالطة مفادها أن ديانتهم ديانة وثنية، ولكن في حقيقة الأمر هي ديانة تفريدية لا تتعبد الأصنام ولا تقيم إليها النذر كآلهة قائمة لذاتها، انما كوسائط أو شفعاء بين الإنسان والله. لم تكن الأحجار سوى رمز يحيل إلى إله الكعبة المكية، وهذا الإله هو الله ذاته المذكور في القرآن، وهناك أدلة كثيرة تثبت ذلك. مما يفسر سبب انكار بعض الباحثين والمؤرخين المسلمين مثل د. طه حسين مصداقية الشعر الجاهلي واعتباره منحولا وأن الأصل هو القرآن، وذلك يعود أساسا لحضور اسم الله في الشعر الجاهلي بقوة، فتشعر أن العرب مؤمنون بالله، وهو ما أربكهم وجعلهم في حيرة من أمرهم، فأجمعوا أنه منحول عن القرآن دفاعا عن صورة الله في الإسلام. ولكيلا يختلط بصورة الله في الجاهلية، قالوا إن اسم الله في هذه النصوص حل محل اسم اللات القديم.[128] رغم عبادة العرب آلهة متعددة إلا أن أفئدتهم كانت تهوي إلى رب الكعبة المكية وهو إله كل الأرباب أو رب الأرباب فاللات والعزى والمناة ليسوا سوى وسائط، وتلك شهادة أوس بن حجر في قوله :

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله إن الله منهن أعظم

ويشهد أنه رب السماء الذي ينزل المطر :

ألم ترى أن الله أنزل مُزنة   وعفر الظباء في الكناس تقمع[129]

وقال النابغة الذبياني عندما مرض النعمان ابن المنذر :

أَلِكني إلى النعمان حيث لقيته   فأهدى له الله الغيوث البواكرا

وفي القرآن :

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ (الزمر/3)

[127] في طريق الميثولوجيا عند العرب ص 47.
[128] موسوعة تاريخ الأديان الشرق القديم فراس السواح المرجع السابق ص 403.
[129] ص 400.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف/106)

ويشهد على ايمانهم بالله :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت/61)

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت/63)

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان/25)

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف/9)

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف/87)

لم تنشأ الأنصاب إلا كطريقة للتبرك بها، فالعقل البشري وهو يخطو خطواته الأولى نحو المعرفة، تخيل أن السماء سقفا صلبة متكونة من طباق سبع أعلاها مكانا لعرش الاله، ومن ثم اعتبر كل ما يتساقط من الأعالي مقدسا، فتخيل العقل البشري أن النيازك جزء من السماء الحاوية لعرش الله، وليس إلا بسبب هذا الدافع المعرفي البدائي وقع تقديسها فنشأت الأنصاب.

لم يكن اتجاه عرب ما قبل الإسلام إلى الأحجار عبادة لذاتها، وانما اتخذت قبلة في الصلاة إلى الله لأن فيها تتمثل الكعبة.[130] تقديس تلك الأحجار مبني على تقديس الكعبة كبيت الله الحرام. لم يكن هبل الصنم الذي جلبه عمرو ابن لحي حسب الأسطورة إلها قائما بذاته، بل هو رمز للإله الأوحد المعبود، كما أنه ليس اسم علم، انما لقب لا اشتقاق له في العربية، ذو جذور كلدانية كنعانية عبرية، وهو في الأصل "هبعل ". أما الهاء فهي أداة تعريف في العبرية، ومعنى بعل السيد أو رب المدينة، والعين الزائدة يسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال.[131] إن في استيراد العرب لهبل لم يقصدوا به استيراد إله جديد مغاير عن إله القرآن، بل استيراد صورة منحوتة لإله الكعبة القديم، فاختلطت العبادة الغير تصويرية بالعبادة التصويرية، وبذلك جمعت قريش ومن كان قبلها في مكة بين عبادة تصويرية لإله الكعبة رمزت إليه بتمثال، وعبادة لا تصويرية بقيت ترمز للإله نفسه بالحجر الأسود القديم.[132]

---

[130] الدين في شبه الجزيرة أبكار السقاف، نحو آفاق أوسع ص 24-25.

[131] ص 27.

[132] موسوعة تاريخ الأديان المرجع السابق، ص 403.

إن هذا القول فيه جانب كبير من الصواب، إلا أننا ندعم فكرة أن هبل إضافة إلى كونه كبير الآلهة، فقد لعب دور الرب الوسيط بين الإنسان والله، فتمثال هبل يكشف لنا دواليب اشتغال العقل والمعرفة. للإنسان قوتين، قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات وقوة خيالية متصرفة في عالم الأجسام. لقد مَرَّ العقل بمرحلة لم يكن فيها قادرا على فهم الحقائق العقلية المجردة من دون اللجوء إلى مرجع أو سند حسي مادي يستحضر من خلاله المعقول المجرد، فهبل هو صورة مجسمة، عندما يتضرع إليها العابد يدنو إلى فكرة الله المطلق اللامتحيز في الزمان والمكان، وتبعا لذلك، فإن تعدد الأصنام يدل على محدودية العقل البشري، طريقة لجأ إليها كوسيلة للتشفع والتقرب إلى الله معلنا :

ما جعلنا الأصنام إلا قبلة لنا في عبادتنا الله وما كان تضرعنا إليها إلا تشفعا بها إلى الله[133]

من هنا تتجلى حقيقة فلسفية دينية بقيت مطمورة ومخفية في ثنايا التاريخ، قوامها أن العرب قبل الإسلام عرفوا الله، عبدوه وآمنوا به، فالشرك لم يكن تشويها لصورة الله بل تنزيها، ذلك وأن الله فوق سبع سماوات ذو كينونة سامية، ومن ثم تعالى المتعال عن أن يتصل بالكون والكائنات إلا بواسطة وسطاء تقف في المرتبة وسطا بين الألوهية والبشر، وعلى ذلك يكون من المحال الاتصال بالإله إلا عن طريق من قد خلق من الملائكة.[134] وبناء على ما ذكرناه، تتضح الصورة النهائية التي تخبرنا أن ديانة العرب قبل الإسلام ليست الوثنية إنما ديانة الصابئة.* وجدت هذه الديانة ملاذا إلى باطن الجزيرة بالنظر إلى احتكاك العرب الدائم بمن حولهم من حضارات وخاصة معتقدات وادي الرافدين، ونحن نرجح أن الملك البابلي نبونيد يعود له الفضل في ذلك. رأى الشهرستاني أن مذهب الصابئة متعصب للروحانيين ملائكة السماء، وهم يعتقدون أن للعالم فاطرا ويرون من الواجب عليهم معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، فيتقربون إليه بالمتوسطات وهم الروحانيون المقدسون جوهرا وفعلا وحالة.[135] أما البيروني كان قد لخص معتقد الصابئة واعتبرها توحيدية :« ونحن لا نعرف عنهم إلا أنهم أناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح ويصفونه بالسلب لا بالإيجاب كقولهم لا يحد ولا يرى ولا يظلم ولا يجور ويسمونه بالأسماء الحسنى مزاجا، أي ليس عندهم صفة للحقيقة وينسبون التدبير إلى الفلك واجرامه ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها ويعظمون الأنوار» .[136] أما المؤرخ والقاضي صاعد الأندلسي حسم المسألة بالقول : وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة الله تعالى، وإنما كانت عبادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها في الهياكل، لا على

---

[133] الدين في شبه الجزيرة ص 28.
[134] ص 18.
*اتخذ القرآن موقفا متسامحا تجاهها ومنحها أهمية كبرى بوضعها إلى جانب اليهودية والنصرانية.
الشهرستاني، الملل والنحل.[135]
[136] تكوين العقل العربي محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 135-154.

ما يعتقده الجهال بديانات الأمم وآراء الفرق من عبدة الأوثان، ترى أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم ولم يعتقد قط هذا الرأي صاحب فكرة و لا واربه صاحب العقل دليل ذلك قوله تعالى ﴿أَلاَ لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ . [137]

في القرآن آيات عديدة تدل أن العرب عبدوا الملائكة

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ﴾ (الصافات149/150)

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (الإسراء39).

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف19).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ (النجم27).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ40).

إنها عبادة من أجل التقرب ونيل الشفاعة فحسب، فالملائكة جواهر روحانية يتقربون إليها تقربا إلى الله متخذين الكواكب كرموز لها. كل كوكب له ملاكه الخاص المشرف عليه، جاعلين للكواكب هياكل. ولما كانت كلمة هيكل تعني البيت كما أفدنا سابقا، إذن يتضح السبب الرئيسي وراء بناء الكعبات وانتشارها المكثف في أنحاء شبه الجزيرة، إلى جانب طقس البغي المقدس اعتبرت كهياكل ترمز للكواكب الروحانية بغية القيام بالطقوس الصابئية. وتبعا لذلك فإن عبادة الأصنام كانت ذات مغزى فلسفي ديني عميق ورصين، مرتبط بعبادة الكواكب والنجوم وليس ساذجا كما تدعى المؤسسة الإسلامية.[138] وهنا تتجلى حقيقة تاريخية مسكوت عنها، قوامها أن العرب قبل الإسلام لم يروا في الشرك حطا من قيمة المعبود بل ترفعا وتنزيها، لهذا كانت قريش تقول إذا أهلت للطواف بالكعبة : "لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك". هنا يثور سؤال: إذا كانت قريش مؤمنة بالله وتعرفه حق المعرفة أية فحوى يمكن استخلاصها من الدعوة المحمدية ؟ أيعقل أن دعوته انطلقت حتى تؤمن قريش والعرب بالله ؟

قطعا ! فالحقيقة عكس ذلك، فإن قريش لقبت ببيت الله وحرمه وهم أهل الله، فدعوة الرسول غايتها ليس التعريف أو الإيمان بالله، انما رفع وإزالة الوسائط والتضرع إليه مباشرة، وعلى غرار

---

[137] كتاب طبقات الأمم القاضي صاعد الأندلسي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت 1912، ص 44.

[138] في الفكر الديني الجاهلي د حمد ابراهيم فيومي، دار المعارف، ص 6 .

ذلك، فإن محمد رغب في تنزيه صورة الله من شوائب الوساطة والشرك، ثم إنه أيقن أن المشروع السياسي الكبير الذي نظر له أسلافه يبدأ من خلال الدين وتثوير البنية المعرفية لدى العرب، أي الانتقال من العبادة الحسية التعيينية إلى العبادة المجردة العقلية، فالله غير متحيز و غير محدود، فكرة ما انفك عمل على ترسيخها حتى يحرر عقلية البدوي المنحصرة في القبيلة وربها ويعتنق فكرة الله الغير المحدود لكي تتلاشى الكثرة في الوحدة، نقصد بالكثرة الأرباب وتعدد الأصنام (الوسائط)، أما الوحدة الله الواحد الذي لا شريك له.

إن الوحدة هي حقيقة ميتافيزيقية ثابتة لا يصيبها التبدل أو التغير، في مقابل الكثرة التي هي حقيقة متغيرة. القبائل والعشائر تختزل في الكثرة، أما هبل الصورة التجسيدية التقريبية لفكرة الله تختزل في الوحدة، إذن توجد قوتين متنافستين ومتوازيتين، الوحدة تحوي مشروع التوحيد السياسي بإقامة دولة الأعراب المستقبلية ومحال تحقيقها إذا لم ترفع الوسائط، وتلك جزئية نفهم من خلالها لماذا حارب الرسول بلا هوادة المعتقد الصابئي، لأنه رأى فيه عائقا سياسيا أمام التجسيد المطلق لفكرة الإيلاف والتقريش. إنه في حذف الكثرة، تعدد الأرباب الوسائط، يعتبر بمثابة الإصلاح للمجتمع البدوي. اصلاح يتجلى في ضرب العبودية، عبودية التعصب الأعمى لعادات وتقاليد الأسلاف، فضلا عن تأليه العشيرة (القبيلة)وانحصاره فيها، فالعشيرة هي وحدة سياسية اضافة إلى كونها وحدة منزلية.[139] والجدير بالذكر، فإن ذلك التعصب صادر عن المعتقد الأرواحي الذي يكن تقديرا كبيرا للأجداد وعبادة الآلهة القبلية، ولقد ردد القرآن في سور عديدة آية ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾*أي أن المنتهى ليس للقبيلة أو رئيسها بل لله، الله هو الموجود الأسمى والمرتبة العليا التي لا تعلو عليها مرتبة عنوانها لا موجود إلا لله،[140] بمعنى تلاشي الكثرة في الوحدة.

لم يجد محمد في الأسلوب التوحيدي ذو النفح صابئي فكرة توحيدية خالصة، نلاحظ أن ثنائية الوحدة والكثرة Dualisme حقيقة وجودية ساهمت في تعطيل تماسك وتلاحم المجتمع البدوي، فالتغيير يبدأ عندما ترفع الوسائط وننظر للوجود نظرة غير مجزأة أو منفصمة، بل كقطعة متجانسة متناظرة محورها الله. إذن، يكون التوحيد الديني مقدمة لتحقيق التوحيد السياسي، وذلك ما ما فتئ أن سعى إليه الرسول طيلة دعوته الإصلاحية، ولقد سجل القرآن رغبته تلك؛

---

[139] مدخل إلى علم اجتماع الإسلام المرجع السابق ص 61-62.
*البقرة 281/245 يونس/ 56 هود/34.
[140] الشخصية المحمدية سبق ذكره ص 19.

﴿ أَلاَ لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر/4)

منذ الأيام الأولى من الدعوة شن محمد حربا كلامية ضد قريش، متهما إياها بالكذب والكفر، فهي تعلم أن الله واحد، ورغم ذلك تزعم أنه يوجد أولياء (وسائط وشفعاء) لكي يقربوهم إليه. لقد رأى أن المعبود الحق ليس في حاجة إلى وسائط للتقرب، وكأنه بعيد عن خلقه و عما يدور في فلكه، وذلك يضع محل شك وريب العناية الإلهية، فالوجود والله متداخلان متمازجان، ولقد عبر القرآن عن هذه النظرة الفلسفية الميتافيزيقية ؛

﴿هُوَ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد/4)

بعد فترة تحنث وتأمل طويلين، إضافة إلى تأثره بأفكار الفلسفة الحنيفية قبل إعلانه النبوة، لم يعد يرى في الوجود سوى الله، فاندمج فكره في الوجود ناسيا وجوده الجزئي، معتبرا أن الوجود الحقيقي هو لله، كحقيقة مطلقة لا نهائية، وهو الموجود الحق. و بعد، فإنه بتلاشي الكثرة داخل الوحدة Monisme ساعيا إلى تغيير واقع شبه الجزيرة المتشرذم، وطي مرحلة الطبيعة العشائرية القبلية، فالقبائل ليس لها وجود حقيقي، أما الموجود الكلي المطلق يمثل انعكاس الشعور المحمدي في القرآن؛ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال/17)

نستخلص أن ما توصل إليه مبني على فلسفة وحدة الوجود التي توصل إليها فلاسفة الهند قبل الإسلام بألف سنة. هنا يثور سؤال : كيف توصل محمد بن عبد الله إلى فلسفة وحدة الوجود ؟ أيمكن القول أنه تأثر بما نهله من تعاليم المانوية والزرادشتية نظرا وأن الجزيرة بؤرة من التيارات الدينية الفلسفية الوافدة قبل الإسلام؟ إن تأثره بالتيارات والهرطقات الدينية الفلسفية السائدة في شبه الجزيرة أمر واقعي، لا سيما التيار الحنيفي الذي سنتطرق إليه في الصفحات القادمة، نظرا وممارسة العرب للتجارة، والتجارة من بين أكثر المهن المنفتحة على الآخر، فذلك سيكون لزاما الاتصال بالشعوب المجاورة والتعرف على معتقداتهم. إلا أنه يجب الإعتراف أن محمد لم يكن شخصية مقلدة أو متبعة لتعاليم وأفكار الديانات خاصة اليهودية والنصرانية المنتشرة في طبقات المجتمع البدوي العربي، إنما مجددا، أي ينهل مما هو متاح ولا يتركه على حالته، لقد عمل على إعادة صياغته بأسلوب أدبي ومعرفي منسجما مع الثقافة العربية البدوية. إن الإسلام لا يعدو أن يكون محاولة لتجاوز النصرانية واليهودية من خلال التوحيد بينهما وانتاج دين جديد، شريحة واسعة من المسلمين يقرون أن الإسلام جاء لتصحيح أخطاء الديانتين السابقتين.

إن رغبة محمد كانت قوية وجامحة، تعدت مأمول قصي ابن كلاب، صحيح أن ما حققه قصي خطوة عظيمة نحو توحيد القبائل لكنها بقيت غير كافية، فنظام الإيلاف والتقريش أضفى ضربا من التوحيد والتماسك من الناحية الظاهرية، أي أنه لم يحسم المشكل الذي يعد العائق الأصلي لحالة التشرذم القبلي، ألا وهو عبادة الأرباب والتشفع بها، وذلك ما تجرأ عليه بمواجهة دين الأسلاف والتمرد ضده. إذن يبدو أن التغيير، تغيير الواقع الأرضي، رهين الدين، هنا تكمن عظمة محمد، حيث استوعب حقيقة أن السماوي جُعِلَ لمسايرة الأرضي وليس العكس. مع الوقت، تعاظمت تلك الرغبة وبقيت في نفسيته قبل إعلانه النبوة، ولم يفصح عنها إلا بعد تفطنه أن شروط النبوة كامنة فيه، معلنا أن العرب عليهم أن يصبحوا أمة واحدة، ذلك وأن مصطلح الأمة الذي جاء به ولم يعرفه العربي قبل الإسلام، شكل دعامة ثورة اجتماعية واقتصادية وسياسية كبيرة، أوحت بتفجير الأطر القبلية العشائرية الضيقة، ومن ثم التوحيد الشامل والكامل للأعراب، وقد أفصح القرآن عن هذه الحقيقة؛

﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون /52)

آية ترفع الستار عن النهضة الفكرية والاجتماعية التي حفزت النبي العربي، فالمشروع المحمدي ديني المبدأ سياسي المرمى سيجعل من الأعراب البدو أمة عظيمة وموحدة تحت "شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله". إنه بحق إنقلاب عظيم يتمثل في رفض النموذج البدوي للإنسان العربي قبل الإسلام، والإسلام ليس سوى إفرازا اجتماعيا سَرَّعَ في تفجير الأطر القبلية مؤسسا لنموذج جديد لإنسان شبه الجزيرة، واضعا إياه ضمن منظومة اجتماعية غير مسبوقة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة، إلى الولاء للأمة القومية. [141] لربما نفهم هاهنا تأثر الرسول بشخصيتي موسى ومن ثم إبراهيم، حيث ما انفك القرآن يردد قصتهما، وموسى هو من بين أكثر الشخصيات المذكورة تليه شخصية إبراهيم وذلك ينم عن الحالة النفسية المحمدية كما سنوضح ذلك في الفصل القادم. في الفترة الأولى للدعوة (الفترة المكية) شعر أن مشروعه لا يبتعد كثيرا عما رغب فيه النبي موسى كمحرر للشعب اليهودي من العبودية والذل صوب الحضارة والقوة أرض الميعاد، أما في السنوات المتأخرة من الدعوة شعر أنه قريب شخصية إبراهيم فإبراهيم أمة مثله مثل أمة محمد :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل/120)

علاوة على ذلك، قرب اللحظة المنتظرة منذ عقود وهي قيام دولة الأعراب التي ستخلصهم من حياة البداوة وستنزع عنهم صفة السراقيين، مع نسف ظاهرة العصبية القبلية، ولا ننسى أن

[141] حروب دولة الرسول الجزء الثاني المرجع السابق ص 193.

شخصية ابراهيم هو رمز للتوحيد الديني. ثم إن تردد ذكر هاتين الشخصيتين في القرآن يندرج ضمن لغة الوحي الترميزية المجازية، لأنه أصبح واضحا للعيان اليوم تحت ضوء البحوث التاريخية والأركيولوجية المعاصرة أنه لا وجود تاريخي للأنبياء* باستثناء الرسول العربي. مع تطور الدعوة خاصة بعد الهجرة وبث البذور الأولى للدولة التي ستضم شتات الأعراب وتلم شعثهم، بدأ يتضح أن مصطلح الأمة الذي تردد كثيرا على لسام محمد، ينبئ بحدث سياسي عظيم سيطوى مرحلة تاريخية يمكن تسميتها بحالة غياب الدولة، ودخول مرحلة جديدة ألا وهي حالة التمدن، وتبعا لذلك، فإن مصطلح أمة في الدين الجديد ليس اعتباطيا أو عرضيا، إنه يعكس كيانا اجتماعيا جديدا شديد الصلة، أي أنه يناقض البداوة والقبلية، متماهيا مع معنى المدينة والحضارة.[142]

إن تعدد الأرباب الوسائط مثل كما قلنا عائقا كبيرا أمام التوحيد السياسي بإقامة دولة عربية، إلا أنه يجب الاعتراف كون تلك العقيدة تقوم على مبدأ الحرية الدينية. فلئن كانت مكة مقصدا للحجاج قادمين من مختلف القبائل، فإنه لمن البداهة أن تدافع قريش وهي سيدة مكة على الحرية الدينية، كل قبيلة وربها، كما علينا أنلا نتناسى غاية الحج الحقيقة المرتكزة على التجارة. ذلك ما كانت تراه قريش وتفضله حارصة على ديمومته. يمكن القول إن قريش عملت على حماية الحرية الدينية للحفاظ على مكانتها كسيدة لمكة ولكل القبائل ولا يمكن أن تحفظ سيادتها وتفوقها إذا لم تشجع الرأسمالية ومبدأ تكدس الثروة لصالحها. أما محمد، فقد أدرك أن الحرية الدينية تعطي انطباعا براقا تهوى إليه الأنفس، ولكنه يخدم مصالح قريش، ليس كل قبيلة قريش، بل فئة بعينها الممثلة في بنو أمية وتهميشا للفئات الأخرى كبنو هاشم. ومن ثم فإن مبدأ الحرية الدينية والطابع القبلي، وإن كانا يتأسسان على مفهوم الديمقراطية، غير أنهما يشكلان حجرة عثرة أمام مشروع التوحيد الديني السياسي. من هنا نفهم سبب محاربة الرسول لمبدأ الحرية الدينية والديمقراطية السياسية بعد الهجرة، لأن تأسيس الدولة منوط برضوخ الجميع تحت سلطة السيف الإسلامي، فَفُعِّلَتْ استراتيجية الاغتيالات من أجل إخماد أية محاولة للتمرد أو الثورة، لأنها تشكل تهديدا كبيرا على وحدة والتماسك. علينا ألا نرتكب مغالطات بعض المنتقدين للإسلام أيضا المستشرقين، كون الإسلام انتشر بالسيف، لقد كان استعمال القوة ضروريا لأن العرب معروفون عرفوا بطبعهم الهائج وسلوكهم المتقلب، فما إن لاحظوا ضعفا في خصمهم إلا وانقضوا عليه كانقضاض العقاب على فريسته، وذلك ما وضحناه في الفصل الثاني.

*أقصد أنبياء بنى إسرائيل، لكن قد يكون هناك أنبياء بقوا مطمورين، والتاريخ لم يذكرهم، فالشاماني الذي يعيش آسيا الوسطى يعتبر كنبي، لأنه يرى نفسه كوسيط بين الإله والناس. أما زرادشت وماني يعتبران كأنبياء في الأدب الفارسي ولهما وجود تاريخي مثبت على عكس أنبياء بنى إسرائيل من آدم إلى عيسى.

[142] ص 194.

آخرون ممن يسمون أنفسهم بالتنوريين الإصلاحيين، حاولوا إلباس الإسلام ثوب الحداثة، فأنكروا جملة وتفصيلا أن تكون غزوات النبي محمد بدافع الاحتلال وفرض السيطرة بالقوة، وهو ما يسمى في الشريعة الإسلامية جهاد الطلب، قالوا إن كل غزواته غرضها الدفاع. لقد كان الهدف الرئيسي للنبي إصلاحي بالأساس، اصلاح المجتمع البدوي والنهوض بالعرب كأمة من خلال دخول عالم الحضارة والمدينة، وذلك محال من دون قيام الوحدة السياسية التي كانت شغل شاغل قصي ومن خلفه، فإذا تبين أن غاية محمد بن عبد الله نبيلة، تصبح الوسيلة أيا كانت مبررة، وبناء على ذلك يسقط اعتراضهم.

لقد شهد محمد قبل اعلانه النبوة حالة من الاضطراب السياسي والاجتماعي دارت داخل البيت القرشي، ساهمت في تغذية الفرقة بين أفراد القبيلة الواحدة، ولولا ترجيح العقل والحكمة، لاندلعت حرب غير محمودة العواقب، مما أثر على نفسيته وتكوينه السياسي. تركت تلك الحادثة أثرا في ذهنيته، ليحسم أخيرا أمره بضرب ظاهرة الحرية الدينية ومبدأ الديمقراطية بيد من حديد، لأنه لا يمكن الاعتماد عليهما لكي يصبح حلم الوحدة السياسية حقيقة واقعية.

الفصل الحادي عشر: الصراعات السياسية داخل البيت القرشي

كنا قد رأينا كيف لعبت شخصية قصي ابن كلاب دورا عظيما في محاولة غير مسبوقة لتأليف القبائل عبر فرض التقريش مرورا بالإيلاف، وتكمن قيمته الفلسفية في احداث ثورة اجتماعية دينية جاعلا من قريش سيدة مكة بلا منازع، بعد أن جمعها ووحدها حول الحرم المكي (الكعبة)، فحازت لقب أهل الله، وهو شرف كبير، أسبغ على قريش وما حولها إلى قبيلة شبه مقدسة، كأنها مختارة من السماء لكي تجسد أوامرها ونواهيها فوق الأرض. كان لحادثة الغزو الفاشلة التى تعرضت لها مكة من قبل جيش أبرهة أثرا عميقا في نفوس القبائل العربية وغير العربية، حيث أشارت المصادر الإسلامية[143] كيف لقي ذلك الجيش حتفه تحت وابل من الحجارة حملتها طيور لم تحدد المصادر جنسها ولا نوعها، ذكر المؤرخ السهيلي " أن الطير كانت انيابها كالسباع، وأكفها كأف الكلاب".[144] وواضح في كلامه ميول لحديث الطلاسم والمعجزات، وهي صفة ملازمة مع الأسف لمعظم المؤرخين المسلمين. أما ابن هشام نقل " فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجر في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك.[145] وهذا كلام يكتنفه الغموض ولا يبتعد عما ذكره السهيلي، ولو فحصنا الحادثة بموضوعية، لوجدناها لا تتعدى الظاهرة الطبيعية، يتابع ابن هشام قوله : وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ طائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون، قال ابن اسحاق : حدثني يعقوب ابن عتبة : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري في أرض العرب ذلك العام.[146] بهذا القول تزول غمامة الغموض ويقوض حديث الطلاسم والأعاجيز، فكل ما حصل أن جيش أبرهة تعرض لموجة وبائية فتاكة من الجدري طرحتهم أرضا، وذلك ما أكده الأستاذ عباس العقاد قائلا : وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لاشك وهو فتك الجدري بجنود أبرهة وانهزامه عن البيت، إن حديث الجدري الذي فشا سنة 569 ميلادية مثبت في تاريخ بروكوب السيزاري Procope de césaré الوزير البيزنطي المعروف".[147]

أردت التطرق لهذه الحادثة لكي أسلط الضوء على ثلاثة أمور مهمة :

---

[143] السيرة النبوية ابن هشام، تاريخ الطبري، الروص الانف السهيلي.
[144] الروض الانف في شرح سيرة ابن هشام، ج 1 ، ص 156.
[145] السيرة النبوية ابن هشام ج الأول سبق ذكره ص 67.
[146] ص 68.
[147] العقاد طوالع البعثة المحمدية ص 145-146.

أولا : غزوة أبرهة تدل على المكانة الإقتصادية والإجتماعية العظيمة التي بلغتها مكة، وذلك بفضل صفتها كمكان يستقبل الحجاج والتجار مما حولها إلى قطر عالمي خاصة بعد انهيار اليمن السعيد وامساكها بزمام التجارة العالمية في الشرق الاوسط كممر ترانزيت بين الشمال والجنوب.

ثانيا : إن استراتيجية الإيلاف المشفوعة بالتقريش أحدثت طفرة اجتماعية هائلة، حيث بدأ الأعراب البدو ينحدرون نحو التماسك والتلاحم الإجتماعيين وهذا وحده يعد معجزة، هذه الطفرة و إن كانت ايجابية إلا أنها أفرزت تبعات خطيرة على التركيبة القبلية التقليدية، فأصبح المجتمع المكي متمايز طبقيا وانتهت الثروة في يد فئة دون أخرى، أي لدى قريش كسيدة لمكة ومهيمنة على رأس المال.

ثالثا : احتلت مكة مكانة تجارية مرموقة لا سيما بعد زوال بقية الكعبات وبقاء الكعبة المكية، وذلك ما كان أن يكون لولا سياسة قصي ابن كلاب الذي أفنى عمره في ارساء الجذور الأولية للدولة العربية المستقبلية، ونحن لا نبالغ لو قلنا أن قصي استطاع بالفعل تحويل مكة إلى جمهورية صغيرة تجارية[148] وهي جمهورية أساسها الدين، السياسة والدين فيها متآزران متضايفان.

فلا عجب إذن أن يوجه أبرهة آلته العسكرية لاحتلال مكة والسيطرة على ثرواتها ثم إزاحتها من المشهد الإقتصادي العالمي، لأنها بمكانتها وهيبتها لم يعد لليمن أثر يذكر، حيث انتقل ميزان القوى الإقتصادي إلى مكة بعد أن كان في حوزة اليمنيين طيلة قرون، وبالتالي فإن حادثة أبرهة تدل بأسلوب لا جدال فيه أن مكة أصبحت منارة تشع على المنطقة برمتها وقريش اكتسبت مركزا مقدسا، لذلك لقبوا بأهل الله، يدافعون عن حرمة الحرم المكي، ولقد تعاظم سيط قريش بعد فشل غزوة أبرهة، واعتقدت قريش والقبائل المجاورة أن قوة غيبية تدخلت فعلا للدفاع عن الكعبة.[149] ما صرح به عبد المطلب عندما تحاور مع أبرهة قبيل شنه الهجوم : « إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه».[150] بقي صداه في أذهان العرب والعجم، حيث تبين أن قريش قبيلة مقدسة، الله ينصرها في حروبها إلى درجة أنه قيل في حقها : إذا حاربت قريش حارب الله عنها.

ما أصابته قريش من ثروة طائلة ومكانة مرموقة عائد وبلا شك إلى سياسة قصي ابن كلاب، لكن لم تستمر الأمور على أحوالها بعد وفاته، وما حصل شبيه بما حصل يوم وفاة الرسول، صراع محتدم بين الصحابة والأنصار حول من يخلفه، اشتد الصراع بين أبناء قصي وهو صراع من أجل السيادة على مكة وامتلاك الثروة، ومن يمتلك الثروة يحوز على السيادة. اشتد الصراع بين ورثة قصي، عبد

---

[148] الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية المرجع السابق ص 97.

[149] لخص القرآن الحادثة في سورة الفيل. ربما نفهم لماذا اختار المؤرخون والأخباريون تلك السنة كموعد لميلاد الرسول 570 م حتى يصبغوا على ميلاده طابعا أسطوريا.

[150] السيرة النبوية ابن هشام ص 65.

العزى وعبد ابن قصي و عبد الدار وعبد مناف، إنه صراع محموم وطويل الأمد بدأ مع الورثة، ثم حمي وطيسه بين أبناء الورثة لاحقا، وامتدت تبعاته إلى اللحظة التي ظهر فيها الإسلام، ساهم في تعزيز الفرقة والبلبلة داخل البيت القرشي، كتب د. جواد علي :« ولما ظهر الإسلام كان النزاع العائلي على رئاسة مكة قائما، وقد تمثل في تنافس الأسر على الرئاسة، اشتهر بعضها بالثراء والغنى، واشتهر بعضها بالوجاهة الدينية أو المكانة الاجتماعية».[151]

قبل أن يتوفى قصي، مَكَّنَ ابنه البكر عبد الدار من سلطة مكة وقريش، جاعلا له دار الندوة، وهو من أسسها وبعثها، وهي دار مشورة في أمور السلم والحرب، إنها بمثابة مجلس المدينة التي عَرَفَ من خلالها رؤساءها كيف يحصلون على الثروة وكيف يستعيضون عن فقر أرضهم بتجارة تدر عليهم أرباحا عظيمة، وفيها يجتمع الرؤساء وأعيان البلاد للتشاور في الأمور والبت فيها، زيادة عن ابرام عقود الزواج والمعاملات إنها دار مشورة وحكومة في آن واحد.[152] لم يرث ابنه البكر دار الندوة فحسب، انما الحجابة حجابة الكعبة، والسقاية وهي سقاية الحاج، والرفادة وهي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي ليصنع به طعاما للحاج، وتلك عادة رسخها قصي في قريش وتمسكوا بها حتى بعد موته، ذلك وأنه زرع فيهم روح التدين حيث أوصاهم:« انكم جيران الله وأهل بيته، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق للضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم شرابا وطعاما أيام الحج حتى يصدروا عنكم».[153]

ذكر الكاتب خليل عبد الكريم السبب الذي دفع قصي إلى تفضيل عبد الدار عن البقية، لأن إبنه البكر ومن عادة العرب أن يختص الأب ابنه البكر بكرائم ما خلفه من منصب أو جاه أو غيره على سائر أبنائه باعتباره ولي العهد.[154] مستدلا على قوله بظاهرة اجتماعية يطلق عليها علماء الإجتماع التعاقب.[155] أما د. جواد علي فقد أورد رأيا آخر حول المسألة حيث قال :« ويذكر الإخباريون في تعليل اعطاء عبد الدار هذه الإمتيازات أن عبد الدار كان ضعيفا، وأن عبد مناف شقيقة كان قد ساد في حياة أبيه وكثر ماله».[156] يبقى الرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب، حتى وإن كان تفضيل قصي لعبد الدار عائد لكبر سنه أو عادة سارية في العرب، فإننا نقول أنه أخطأ في حكمه.

---

[151] المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام سبق ذكره ج الرابع ص 59.
[152] ص 47.
[153] ص 59.
[154] قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية سبق ذكره ص 47.
[155] نفسه.
[156] المرجع السابق ص 59.

منذ تأسيس قصي لقريش، عمل على ارساء الإرهاصات الأولى للوحدة السياسية وإن كانت في الطور الجنيني، ولا يمكن أن نتعلل بالعادة، فهو الثوري الاول الذي أقدم على ما لم يقدم عليه أسلافه، وهو إحداث طفرة اجتماعية كبيرة في المجتمع البدوي. عدم الإلتزام بمبدأ المساواة بين أبناءه ساهم على نحو غير مباشر بتقويض تلك الوحدة السياسية الدينية التي عمل على تثبيتها طوال عمره، لذلك فإننا نجزم أن خطأ قصي الوحيد هو عدم الحيادية في توزيع الميراث، وهو ما سيؤدي إلى سلسلة من الصراعات السياسية داخل البيت القرشي من أجل الرئاسة والسلطة وستتواصل حتى بعد ظهور الإسلام، وسيكون من بين التحديات الكبرى أمام الدعوة المحمدية والاعتراف بمحمد كنبي للعرب كما سيأتي.

عندما استقرت السلطة لدى عبد الدار، لم يعترض البقية على حكم قصي، قبلوا ورضوا به ولم يعترضوا عليه، إلا أنه من الواضح أن الأذهان لم يهدأ بالها والشعور بغياب التكافؤ في الإرث ولد احساسا من الغيظ والحقد فكان أن توارث الأبناء أحقاد الآباء.[157] فما إن توفي قصي، إلا وأجمع هاشم ونوفل والمطلب وعبد شمس بن مناف أن يأخذوا من عبد الدار ما ترك لهم من حجابة ورفادة وسقاية والندوة ورأوا أنهم أحق بها منهم لشرفهم عليهم، وناصر قبائل بنو عبد مناف وشكلوا حلفا أطلق عليه "حلف المطيبين" فرد بنو عبد الدار ومن آزرهم "بحلف الأحلاف أو لعقة الدم".[158]فسر ابن الكثير تفاصيل تلك الأحداث: ثم لما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف التي كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار، وكان أكبر أولاده، فلما انقرضوا تشاجر ابناؤهم في ذلك وقالوا : إنما خصص عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه، وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنا قصي فنحن أحق به واختلفوا اختلافا كبيرا، وانقسمت بطون قريش فرقتين فرقة بايعت بنو عبد الدار وحالفتهم وفرقة بايعت بنو عبد مناف وحالفوهم على ذلك.[159]

أما المؤرخ برهان الدين الحلبي فيوضح تأجج ذلك الصراع السياسي وتنامي الأحقاد بين أبناء العمومة : فلما مات عبد الدار وأخوه عبد مناف، أرادو بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد الشمس والمطلب، وهؤلاء إخوة لأب وأم ونوفل أخوهم لأبيهم، أن يأخذوا تلك الوظائف من بني عمهم عبد الدار، وأجمعوا على المحاربة، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم عند باب الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاقدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على

---

157 الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الاسلامية ص 89.

158 قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ص 48.

159 ابن الكثير البداية والنهاية ج الثاني ص 194.

أنفسهم فسموا المطيبين ...، وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم، وهم بنوا مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي بن كعب على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دما وصاروا يضعون أيديهم فيهت فسموا لعقة الدم.[160]

هكذا سارت الأحداث واجتمع الحلفين المطيبين ولعقة الدم للقتال، وباتت مكة على شفا حرب أهلية وقودها هذه القبائل المنقسمة إلى قسمين. تجمعت الغيوم وتجهمت الآفاق وكادت هذه الحرب أن تندلع لو لم يحل حرص قريش على بقاء الوحدة القومية كما أنها تأبى أن تسفك الدماء في بيت الله.[161] ولو حاربت، فماذا سيكون موقف بقية القبائل وهي الحائزة على لقب أهل الله وحامية حرم بيته، ومن ثم فإن قريش مسالمة في طبعها، فهي تزاول مهنة التجارة، ومن طبع التاجر الابتعاد عن الخصومات والحروب.[162] كانت تبتعد عن القوة في تمشية مصالحها التجارية والاعتماد على سياسة الحلم واللين والقول المعسول والكلام المرضي، ومن خلال سياسة اللين والمسالمة والمفاوضة كانت تبدأ بحل ما يقع لها من صعوبات مع الناس،[163] وبطبعها الذي يقدم صوت الحكمة والعقل على القوة والحرب أدركت قريش خطورة الموقف وهو أن ذلك الصراع في حالة اندلاعه وعدم كبحه فسيكون بمثابة الكارثة الاقتصادية التي سيحل عليها وتفريطا في المصالح التجارية مما سيلحق ضررا فادحا بإنجازات قصي وما حققه من هيبة. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الحرب الأهلية ستشوه صورة قريش في أعين بقية القبائل، سيضرب مكانتها وسيزعزع سلطانها، فلم يكن أمام قريش من بد إلا الجنوح إلى السلم واللجوء للتفاوض وحل الخلافات بالحوار، وتلك ميزة قريش وأشرافها لم تكن أبدا معنية ببدء الحروب والنزاعات كما سيتضح فيما بعد، إلا أن كُتَّابَنَا المسلمين عفا الله عنهم، لم يتركوا سيئة إلا وألصقوها بقريش، معتقدين أنهم يقدمون خدمة للإسلام.

إن شعور القريشيين بقوة صلة الرحم فيما بينهم إلى جانب صنعة التجارة التي مارسوها وتضلعوا فيها، فضلا عن أنهم أهل الحرم الذين تنظر إليهم كما أوردنا القبائل نظرة احترام و تقديس،[164] كان وحده كفيلا لكبح شبح الحرب، ثم عدم إعطاء فرصة للذين يتربصون الدوائر، خاصة بعدما تحولت مكة لمحطة ترانزيت ومنارة تجارية مسيرة لخطوط الإمداد. بعد هذه الأحداث، تقاسم أبناء العمومة - وهو في الحقيقة تقاسم هدفه إعادة توزيع للثروة وهيكلة للسلطة – أفضى إلى نوع من المهادنة والمساومة، فبينما احتفظ بنو عبد الدار باللواء والحجابة تنازلوا عن السقاية والرفادة والقيادة

---

[160] برهان الدين الحلبي السيرة الحلبية، دار المعرفة بيروت ج الأول، ص 21-22.

[161] الدين في شبه الجزيرة سبق ذكره ص 62.

[162] المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج الرابع ص 36.

[163] نفسه.

[164] قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ص 91.

وكانت من نصيب عبد مناف.[165] لقد ساهم حيازة عبد مناف على السقاية والرفادة في الإعلاء من شأنهم ومنزلتهم في الخارج، ليصبحوا سفراء لدى حكومتي الإمبراطوريتين. لكن علينا التنويه إلى جزئية ستساعدنا على فهم العوامل الإجتماعية والوضعية التي ساهمت في ظهور الدين الجديد، تلك الجزئية تكمن في القسمة. إن تنازل بنو عبد الدار عن السقاية والرفادة لصالح عبد مناف كان إيذانا لانفراده بالسلطة والتحكم في الشؤون السياسية والإقتصادية في مكة، والسبب هو أن السقاية والرفادة ينضويان تحت الشعيرة الدينية، شعيرة الحج التي اعتمد عليها قصي كما بينا ذلك، لكي يثبت الأسس الأولى لبناء وحدة اجتماعية قومية وتقارب دموي بين الأعراب، ما يمثل مقدمة من أجل تمظهر الدولة، وهو المشروع السياسي الكبير الذي داعب جفن قصي ومن خلفه.

إن الحج هو استراتيجية دينية في ظاهرها سياسية في باطنها، من يتحكم فيها سيحوز على الرئاسة والسلطة، لأنها ظاهرة إجتماعية سيطرت على فكر الانساني خلال التاريخ القديم ولعبت دورا عظيما في توحيد المجتمع. يقوم نزع الخلاف وتقريب وجهات النظر، وبالتالي تحقيق نوع من اللحمة. فبالحج تستقطب مكة العرب فيلتقون حول الكعبة ويمارسون الأنشطة التجارية، محرمين على أنفسهم القتال (الأشهر الحرم)، ذلك يعني روحا دينية عربية بدأت تتبلور.[166] إذن فإن عبد مناف لم يرضى بالسقاية والرفادة اعتباطا بل بدهاء وخبث سياسي، لأن في السقاية* والرفادة وظيفتان لُحمَتُهما الجود وسداهما البذل والعطاء والقائم بهما بذكره والثناء عليه ركبان الحجيج والمعتمرين.[167] ثم ورث أبناء عبد مناف شرف السقاية والرفادة المتمثل في إطعام وسقاية الحجاج ونبغ فيها هاشم ومن بعده عبد المطلب فكانا أن ساهما في تدعيم نظام الإيلاف والتقريش من خلال عقد المعاهدات وأخذ الحبال من ملوك روما وحمير.[168]

أجمعت معظم المصادر الإسلامية، بتحلي هاشم بصفتي الكرم والجود وفضله على قومه. نقل ابن هشام رأيا مفاده أن هاشم أول من سن رحلة الشتاء والصيف، ولا نستبعد وجود هذين الرحلتين منذ قصي، لأن مهنة التجارة هي من مخلفات هذه الشخصية، ثم إنه في عهد هاشم بلغت مكة درجة من الثراء والإزدهار الاقتصادي ما لا تضاهيه أية قبيلة، وقيل أنه سمي هاشما إلا بهشمه الخبز لقومه، قال ابن الزبعبري الشاعر :

---

[165] الدين في شبه الجزيرة ص 62.

[166] د. سلوى بالحاج صالح، دثريني يا خديجة دراسة تحليلية لشخصية خديجة بنت خويلد، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثانية 1999، ص42.

*مكة مدينة شحيحة المياه، كان الحجاج يلاقون عنتا شديدا في الحصول على الماء. تفطن قصي لخطورة المسألة، وأنه ينبغي توفير منابع المياه حتى ينشط ظاهرة الحج نظرا ومشروعه السياسي، فقام بحفر الآبار في وادي مكة، وحفرت قريش آبارا كثيرة بعده كما أورد ذلك ابن هشام، حفر عبد المطلب بئر زمزم، لذلك اكتسبت وظيفة سقي الحجاج سمة عظيمة وشرفا عظيما لمن يزاولها.

[167] قريش من القبيلة إلى الدولة إلى المركزية، ص 49.

[168] حروب دولة الرسول ج الأول المرجع السابق، ص 12.

عمرو الذي هشم الثريد لقومه   قوم بمكة مسنتين عجاف[169]

يمكن القول إن شخصية هاشم مثلت حجر الزاوية لقيام الوحدة العربية بعد قصي، فاعتناءه وحرصه بحجاج البيت الحرام، وحثه القرشيين المساهمة في الرفادة، جاء كمحاولة من أجل تمكين قريش من بسط السيطرة على البيت الحرام، من يتحكم فيه يدير الحج ثم يبسط سلطانه على بقية القبائل. في الأثناء، عمل على توطيد نظام الإيلاف عبر عقد تحالفات مع القبائل بإغرائها بالهدايا والعطايا وجعلها عنصرا فاعلا في التجارة بشرط ألا تعتدي على القوافل المارة، وهذا هو عين التكتيك كما سماه سيد القمني،[170] فالمعادلة هي خذ منى وهات. إنه تكتيك يعتمد على الترهيب والترغيب، الترهيب من الإعتداء على قريش وقوافلها، لأنها حامية حمى الدين وبيت الحرام فهم أهل الله، والترغيب من خلال تشريك كل قبائل الجزيرة في العملية التجارية، وهو انجاز عظيم حَوَّلَ مكة إلى مركز تجاري كبير له أطرافه. ففي ظل نمو العلاقات التجارية والاقتصادية مع الامبراطوريتين، لأنهما كانتا يعولان على الطريق التجاري الوحيد الذي يشق مكة ليزودهما بما يلزم، أصبحت مكة وما جاورها اتحاد عشائر.[171] إلا أن هذه الطفرة الإجتماعية الهائلة لم تلغي حرية القبائل، يعنى حرية المعتقد وعدم الانصياع إلى رؤساء القبائل الأخرى، وكان قد عمل الرسول على اجتثاثها بعد هجرته إلى المدينة.

لم تصبح مكة اتحاد عشائر إلا بعد أن حرص هاشم على تطبيق بنود الفلسفة الاجتماعية للإيلاف، بل كان مؤمنا إيمانا راسخا كون الطفرة الاجتماعية المتمثلة في التقريش ستعطي ثمارها أكثر في حال نجاح الإيلاف، وليضمن ذلك النجاح دفع اخوته إلى أن يأخذوا أمانا وعقودا مع سائر الملوك الذين كانوا على حوافي جزيرة العرب.[172] تبعا لذلك، فإنه على يد هاشم واخوته خرجت قريش إلى نطاق التجارة الخارجية وتنظيم القوافل لنقل التجارة بين الشمال والجنوب الشرق والغرب، وأقاموا اتصالات مباشرة مع الفرس والروم.[173]

---

169 السيرة النبوية ابن هشام سبق ذكره، ج الأول ص 157.

170 حروب دولة الرسول، ص 19.

171 د. أحمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، ص 126.

172 قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، ص 52.

173 مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص 142-143.

يجب التنويه أن فلسفة الإيلاف ما كان لها أن تتقدم بالوحدة العربية وتوسيع نطاق التجارة لولا التعويل على الحج، فالحج بدوره هو رهين التفكير الديني الممزوج بالسياسة وهو منهج أول من سَنَّهُ قصي لا غيره، بالدين نقيم الدولة، أو الدين طريق لإنشاء دولة العرب المستقبلية.*

لعل ما يدعم أكثر تلك الحقيقة هذه الموعظة الهاشمية لقريش : يا معشر قريش، إنكم جيران بيت الله أكرمكم الله بولايته وخصكم بجواره دون بنى اسماعيل وأنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهو ضيافة، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم.[174] إنها موعظة تدل على اتخاذ هاشم مكة كحاضنة دينية لمشروع الدولة وقريش صاحبة مقاليد القيادة، والسبب هو بلا شك ما يحيط بالكعبة من هالة غيبية، فهي بيت الله ورمزه المقدس، فالإنسان عندما يكون بالقرب منها وكأنه في حضرة الله. من هنا نفهم تركيز هاشم على مكة، إنها النموذج المثالي الذي يجمع بين السلطة الدينية الكعبة، والسلطة الإقتصادية التجارة، والسلطة السياسية متمثلة في نظام التقريش المشفوع بالإيلاف. ذكر البلاذري أبياتا لمطرود بن كعب تلخص الحالة السياسية والإقتصادية لقريش وللقبائل العربية تحت نظام الإيلاف :

يا أيها المحول رحله   هلا نزلت بحال عبد مناف ؟
هبلتك أمك لو نزلت عليهم ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها   والراحلون رحلة الإيلاف[175]

بهذا التكتيك، علا صيت هاشم واقترن اسمه بإعانة الفقير وسقاية الحاج والذود عن مكة وقريش. إن الغيرة والحسد يتملكان الإنسان أمام الآخر الناجح والمحبوب من طرف العامة، وهو ما حصل بين هاشم وأخيه عبد شمس، فجذور الصراع السياسي المشتعلة بين عبد الدار وعبد مناف لم تخمد وظلت خابية لتطفو على السطح مع الأحفاد، وسبب هذا الصراع هو الغيرة المتأتية من التنافس الدائر بين هاشم وأخيه غداة اقتسام الوظائف بينهما السقاية والرفادة لهاشم والقيادة والندوة لعبد شمس.[176] لكن التنافس سرعان ما تحول إلى عداوة واضحة مع أمية بعد وفاة عبد الشمس، ولعل أفضل مؤرخ مسلم بحث في أصول وماضي هذا الصراع هو تقي الدين المقريزي تلميذ ابن خلدون عاش في القرن الخامس عشر حيث كتب : وكانت المنافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصي وبين ابن أخيه أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف وسببها : أن هاشما كانت إليه الرفادة التي سنها جده قصي بن كلاب

*نريد تفنيد الآراء والنظريات التي تدعي أن الإسلام ليس بدين دولة، أي أن الرسول لم يكن غرضه إقامة دولة للعرب، بل همه الرسالة، ولكنهم تغافلوا عن عمد أو جهل أن الاسلام يجمع بين السلطة الروحية والسلطة الأرضية، النبي محمد مارس السياسة من خلال تعاليم الدين، وإلا فما الفائدة من الحدود التي يظهر للعيان أنها جعلت لضبط الحياة الاجتماعية والمحافظة على النظام وبالتالي ضمان استقرار الدولة.

[174] الدين في شبه الجزيرة، ص 63.

[175] ذكره سيد القمني في كتاب حروب دولة الرسول ج الأول ص 12 منقول من أنساب الأشراف حققه د. حميد الله دار المعارف القاهرة ج الأول ص 59.

[176] نفسه.

بن مرة مع السقاية، وذلك أن أخاه عبد شمس كان يسافر وقلما يقيم بمكة، وكان رجلا مقلا وله ولد كثير، فاصطلحت قريش على أن ولى هاشم السقاية والرفادة، (...) وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيرا وكان قوما من قريش يترافدون وهم أهل يسار (...) وكان يطعمهم أول ما يطعمهم قبل يوم التروية بيوم بمكة، فكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن (...)، وكان أمية بن عبد شمس ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من اطعام قريش فعجز عن ذلك، فشمت به ناس من قريش وعابوه، فغضب ونافر هاشما على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين، وجعل بينهما الكاهن خزاعي عمرو بن الحمق وكان منزله عسفان.[177]

يبدو أن الإحتكام إلى الكاهن الخزاعي جَنَّبَ قريش مرة أخرى صراعا داخليا قد يهدر الدم ويضرب الإتحاد العشائري الذي أرساه هاشم على مدى سنوات، بيد أن العداوة بقيت متأججة حتى بعد أمية بن عبد شمس وسيمتد صداها إلى ما بعد وفاة الرسول، تجلت أكثر في الصراع الذي دار بين علي ومعاوية، ثم الأمويين والعباسيين، بل إن آثار هذا الصراع كامنة إلى اليوم بين ما يعرف بالروافض والنواصب، وكما وصفه د. حسين مؤنس على أنه موضوع ظل من الموضوعات السياسية الحية التي لا يمل المسلمون قط الحديث فيها حتى أصبحت بالنسبة لكل عصر وكأنها مشكلة سياسية راهنة.[178] وتلك سقطة من سقطات الذهنية الإسلامية، التنقيب في الماضي ليس لأخذ العبرة والتعلم من الأخطاء ودراسة صيرورة الأحداث دراسة محايدة بعيدة عن التشنجات المذهبية والعاطفية، إنما لإثارة النعرات الطائفية والتجييش أو البحث عن مَزَلَّة للحط من الآخر والتحقير منه، فضلا عن تقديس الشخصيات واختلاق التبريرات الواهية للترقيع على الشناعات والفضائح التي اقترفتها.

حاولت قريش رأب الصدع من خلال إقامة حلف الفضول بين القبائل القرشية، وهو حلف يعكس مدى اتساق خلق قريش وحلمها وقوة إيمانها بمساعدة الفقير والمحتاج والعمل على توطيد اللحمة ونبذ التفرقة، فتعاقدوا وتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد مظلمته.[179] وقد شهد محمد ذلك الحلف وهو لا يزال طفلا، وبعد أن استقر إليه الحال وصار رسولا أثنى عليه قائلا : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت.[180]

---

[177] كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تقي الدين المقريزي، حققه وعلق عليه د. حسين مؤنس، دار المعارف، ص 38-41.
[178] نفسه ص 5.
[179] السيرة النبوية ابن هشام ج الأول ص 154.
[180] ص 154-155.

لقد كان محمد شاهد عيان على حالة سياسية واجتماعية في ظاهرها متماسكة، غير أنها في الحقيقة هشة ومهددة بالإنهيار في أية لحظة، وذلك ما أثر على نفسيته تأثيرا عظيما مما جعله ينفر من الحرية الفردية والعقدية كما أشرنا، وهو ما دفعه للتفكير بجدية في إحداث موجة ثانية من الإصلاحات تحسم الصراعات الداخلية، وذلك لن يكون إلا من خلال وضع ملامح دين جديد.

الفصل الثاني عشر: الدين كمحاولة لتجاوز الصراعات الداخلية وتحقيق للوحدة المرجوة

ينبغي التطرق في هذا الفصل لشخصية رئيسية لعبت دورا إجتماعيا بارزا في ظهور الإسلام إلى جانب قصي وهاشم، ألا وهو جد محمد عبد المطلب. على الرغم من الصراعات السياسية الداخلية التي كانت تنخر إستقرار وتوازن البيت القرشي لم يتوانى عبد المطلب في مواصلة سياسية الإيلاف، طبيعي أن يواجه عبد المطلب صعوبات جمة، فهو وريث هاشم ليجد نفسه في مناخ مشحون سياسيا مكدر بالضغائن والأحقاد الناجمة عن العداوة بين هاشم وابن أخيه، حيث نُفِيَ هذا الأخير إلى الشام. لقد عقد هاشم قبل وفاته تحالفا مع الخزرج في يثرب، ومعلوم أن اليثاربة وخاصة الأوس والخزرج هم أهل حرب، فأراد أن يشد بهم مئزره في مواجهة بنو أمية فتزوج سلمة بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار،[181] وترك ابنه عبد المطلب ينمو ويربو ويرضع الفروسية بين أخواله، وحيث كان كل التاريخ الديني يتواتر هناك في مقدسات اليهود.[182]

لم يرث عبد المطلب السقاية والرفادة إلا بعد وفاة المطلب أخو هاشم، إذ أنه لم يعمر طويلا، فأدركته المنية تاركا المهمة لعبد المطلب. ولما قلنا إنه تربى في يثرب بين أخواله، عزم الرجوع إلى مكة لتسلم الوظائف، ليجد عَمَّهُ نوفلا واضعا يده على أملاك بنى هاشم مستهينا بحداثة سنه، علما أن نوفل بقي على الحياد طيلة الصراع الطاحن بين هاشم وأمية، فاستنجد بأخواله اليثاربة، فسرعان ما أدرك أنه لا قبل له بأخوال عبد المطلب متراجعا عن فوره ورد أملاكه، ولكنه في نفس الوقت خرج عن الحياد الذي كان قد التزم به وانضم إلى عبد شمس،[183] ليتضاعف ذلك الشرخ بين أبناء العمومة ويتأجج لهيب الصراع الداخلي. بالتزامن مع هذه الأحداث التي عصفت بالبيت القرشي بدأت ملامح جذور الدولة الدينية تتمظهر شيئا فشيئا، حيث واصل عبد المطلب تطبيق فلسفة الإيلاف بغية تحقيق الوحدة السياسية.

كنا قد أشرنا أن الخطوات المتبعة من طرف قصي ثم هاشم الرامية لإحداث إنقلاب جوهري في المجتمع القبلي من خلال توليف القبائل ومن هنا جاء الإيلاف، مهمته الأساسية تكمن في الإنتقال من طور تنافر وتصارع القبائل إلى طور التناغم والتفاهم بتشريكهم في المصلحة المادية المتمثلة في "التجارة"، ولقد تفطن كل من قصي وهاشم إلى عامل اجتماعي قوي سيكون حجر أساس الوحدة السياسية والثورة الإجتماعية ألا وهو الدين. عبد المطلب لم يشذ هو أيضا عن هذه القاعدة، وأدرك أنه

[181] السيرة النبوية ابن هشام ج 1، ص 158.
[182] الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، المرجع السابق، ص 97.
[183] ص 98.

يلزم إضافة العنصر الديني لمعاضدة قيام الوحدة السياسية، ومن ثم فإنه تميز عن كل من سلفيه قصي وهاشم لأنه نادى بتطبيق بعض الأمور التي تعد بحق بداية لثورة عربية ستستكمل مع حفيده رسول العرب المستقبلي. في هذا الصدد يعتبر عبد المطلب مثلا رائعا للتوحيد الصافي والخالص النقي بمناداته رفض التوجه في العبادة إلى الوسطاء،[184] وهو ما يعرف في تاريخ العرب قبل الإسلام بظاهرة التحنف، وهي ضرب من الفلسفة اللاهوتية كان لها أتباع، ونحن مضطرون للحديث عن هذه الظاهرة بأسلوب مقتضب – على أنها تحتاج فصلا كاملا – لأن محمد يعد من بين كبار أقطاب الحنفاء.

بادئ ذي بدء، لم تسلم هذه الظاهرة من شراك الأسطرة والميتاتاريخ، وكم هي عديدة القضايا الفكرية واللاهوتية التي تعالج من ذلك المنظور الركيك والباهت أثناء دراسة المسلمين لتاريخهم. يجب الإعتراف مسبقا أن البحث في تاريخ هذه الظاهرة جد وعر إذا لم نقل غير متاح بالمعلومات التي لدينا، فالمصادر الأجنبية لم تتحدث عنها، أما المصادر الإسلامية ذكرت عن الأحناف بضع شظايا لا ترتقي بأن تكون نصا علميا وتاريخيا يعول عليه، وكأن المؤسسة الإسلامية عملت على تهميش الظاهرة وأتباعها. لعل الإستعانة مرة أخرى بالدراسة الفيلولوجية – دراسة اللغة بالرجوع إلى محيط نشأتها – سيساعدنا على فهم الظاهرة. يبدو أن أصل الكلمة سرياني، فالسريان يطلقون لفظ حنف Hanafa على الصابئة، ونجد صداها في النصوص العربية الجنوبية، وردت بمعنى صبأ أي مال وتأثر بشئ ما، [185] ونحن نؤيد هذا المعنى لأن المصطلح يشير لمفهوم الخروج عن عادات وتقاليد المجتمع أو مخالفة العرف السائد.

إن سبر أغوار ظاهرة التحنف ستكون مستحيلة في صورة لو اعتمدنا على مادة الإخباريين، وهو ما أكده د. جواد علي، حيث أنهم رسموا صورة غير واضحة عن عقيدة الحنفاء، غامضة مطموسة في كثير من النواحي، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية،[186] وهنا يثور سؤال ؛ لماذا نقل الإخباريون تلك الصورة الغامضة والمشوهة عن الحنفاء ولم يعتنوا بها ؟ ألم يعتادوا على ذكر تفاصيل كل صغيرة وكبيرة بصرف النظر عن قيمتها؟ إن الظاهرة تعود إلى ما قبل الإسلام، ونوهنا سابقا أن كل خبر أو حدث تفوح منه رائحة طيبة تعرض للتعتيم والتضبيب ثم سلبه جوانبه الحميدة وسماته السمحة والهدف هو اظهار أن كل ما هو سابق للإسلام لا قيمة له، وأن الإسلام جاء بالحضارة والرقي لشعب يجهل أدنى مقومات الحياة. سلوك يضمر عن أزمة نفسية عميقة لدى عامة المسلمين متعلق بطمس ممهدات الإسلام، أي كل ظاهرة اجتماعية أو دينية مهدت الظروف لظهور الإسلام ينبغي

[184] الدين في شبه الجزيرة ص 67.
[185] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج السادس، ص 453.
[186] نفسه.

اقصاءها وتجريدها من كل قيمة، فالإسلام نزل من السماء ولا صلة له بالأرض، وذلك يعكس سقطات الذهنية الإسلامية.

إعتبر د. جواد علي أن الطريق الأوحد لنزع الغموض عن ظاهرة الأحناف لا يتم إلا بالعودة إلى الشعر، البحث فيه ومحاولة تنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافية منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية.[187] الشعر في هذا المطاف هو بمثابة جذوة من نار داخل طريق حالك، ولا عجب أن الشعر كان دائما سجلا وواقعا حيا لأخلاق وعادات وعقلية وعقيدة العرب قبل الإسلام، فالشعر تعبير عن طبائع الناس وعوائدهم وتفكيرهم، الشعر في لغة العرب يعني العلم، يقال ليت شعري أي ليت علمي، وأشعره بالأمر أي أعلمه به، ومن ثم فإن الشاعر هو العالم.[188]

أشهر الأسماء التي تنتمي للحنيفية نذكر ؛ قس بن ساعدة المتوفى سنة 600 م قال:

الحمد لله الذي لم يخلق الخلق عبث[189]

وكان محمد بن عبد المطلب يحب الإستماع له عندما كان يخطب في سوق عكاظ، وفي آخر كل خطبة يلقيها كان يعلن توحيده الخالص مناديا : " بل هو الله المعبود الواحد. ليس بمولود ولا والد. أعاد وأبدى، وإليه المآب غدا".[190]

أمية ابن أبي الصلت المتوفى سنة 624 قال :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور

أيضا :

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور من الشمس المضيئة والهلال[191]

وقال زهير ابن أبي سلمى المتوفى سنة 627 م:

لمن الديار غشيتها بالفرفر كوحي في حجر المسيل المخلد

وقال الحصين ابن حمام المتوفى سنة 611 م :

---

187 ص 455.
188 الخلافة الإسلامية، المستشار محمد سعيد العشماوي، سينا للنشر الطبعة الثانية، ص 44.
189 ص 45.
190 الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، ص 112.
191 الخلافة الإسلامية، ص 48.

وخفت الموازن بالكافرين   وزلزلت الأرض زلزالها[192]

وقال زيد بن عمرو بن نفيل المتوفي سنة 620 م :

أسلمت وجهي لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخرا الثقالا

دحاها فلما رآها استوت   على الماء أرسى عليها الجبالا

هذه نبذة من أشعار الحنفاء، نكتفي بهذا القدر لأن هدفنا ليس إستقراء كل ماورد في شعرهم. أول مايجلب الإنتباه هو أن شعرهم ينضح بألفاظ وصفات وأقوال عن الله والإيمان، وهي ستصبح عبارت مكونة لصميم القرآن والإسلام مثل الوحي والبعث ورب العالمين وليس كمثله شيء والشريعة وشفاعة وهلم جرا. إذن أول ما يمكننا استخلاصة من ظاهرة التحنف، أنها من بين الممهدات الرئيسية للدين الإسلامي، ناهيك أن زيد بن عمرو بن نفيل هو أول من ذكر كلمة إسلام، وأسلمت وتعني الرضوخ والطاعة المطلقة تجاه الله.

إن الدعوة إلى إلغاء الوسطاء (الشفعاء) والإيمان بإله واحد يعتبر خروجا عن العرف والتقليد الديني، لذلك قلنا أن هذه الظاهرة هي بمثابة الميل عن شيء والتأثر بآخر، إنه ميل وتأثر يعبر عن ثورة ضد الواقع الديني السائد في شبه الجزيرة. من جهة ثانية، تدعو ظاهرة التحنف إلى التنسك والتزهد وترك عبادة الأصنام، وهو خرق واضح لدين الآباء والأجداد مما جعلهم يلاقون رفضا شديدا من المجتمع، فقرر الكثير منهم عدم الإفصاح عن أفكارهم معتكفين في للكهوف والمغاور البعيدة عن الناس من أجل التأمل والتفكر، معرضين عن شرب الخمر والأعمال المنكرة.[193] في هذا السياق قال المتحنف قيس بن عاصم التميمي :

رأيت في الخمر مصلحة وفيها   خصالا تفضح الرجل الكريما

فلا والله أشربها حياتي   ولا أدعو بها أبدا نديما

فإن الخمر تفضح شاربها   وتجنيهم بها الأمر العظيما[194]

تعمد الإخباريون إقحام معظم الأحناف في الديانة النصرانية لأنهم شعروا بالإحراج، فمنهجهم يرتكز على منهج لاعلمي للدين، والمؤرخون المسلمون ليسوا بمنأى عن ذلك. ولكي يتخلصوا من هذا الإحراج، زعموا أن العرب قبل عمر ابن لحي الخزاعي كانوا على دين ابراهيم، لكن بعدما سافر لحي إلى

[192] ص 49.

[193] المفصل في تاريخ العرب ج السادس ص 455.

[194] الأحناف دراسة في الفكر الديني التوحيدي في المنطقة العربية قبل الإسلام، عماد الصباغ، دار الحصاد للنشر دمشق الطبعة الأولى 1998، ص 59.

الشام جلب الأصنام وأفسد عقيدة التوحيد الإبراهيمية[195]، لتظهر فيما بعد حركة الأحناف كمحاولة للعودة إلى دين النبي إبراهيم وابنه النبي اسماعيل، وكنا قد أكدنا أن انحدار العرب من شخصية تدعى ابراهيم ليس سوى محض ميتاتاريخ، فاحتكاك العرب باليهود طيلة قرون سمح لهم بالاطلاع على التراث التوراتي والتأثر بقصصه الأسطورية والبطولية واعتبروه حقيقة تاريخية، فقالوا بالأصل المشترك، بيد أنه أول من قال بالأصل الإبراهيمي هم الأحناف أنفسهم، والسبب هو الحالة الإقتصادية والإجتماعية التي أفرزها نظام التقريش والإيلاف قبل ظهور الإسلام، وسوف نتطرق لهذا الموضوع في الفصل الموالي.

إن مزاولة التجارة من طرف قريش والانتقال بها من المزاولة المحلية إلى العالمية، ساهم في تراكم وتكدس الثروة في مكة، محدثا شرخا كبيرا داخل النظم القبلية التقليدية فتراجع مفهوم الجماعة في مقابل تعزز مفهوم الفردية، ليعلو صوت الحنفاء كنتيجة لهذا الواقع بهدف إحياء ضرب من الوحدة، ذلك وأن النزعة الفردية هددت النزعة الجماعية فتعاظمت الرأسمالية. وبناء عليه، فإن ظاهرة الأحناف لئن كانت دينية المنشأ فهي سياسية واجتماعية الغاية، ليتدخل هنا دهاء وحنكة الحنفاء بالقول أن العرب أصلهم واحد، إنهم يرجعون إلى النبي ابراهيم وابنه اسماعيل اللذين بنيا الكعبة وبشروا بالدين الحنيف. إن شخصية كإبراهيم كان لها وقعها في أوساط الجزيرة العربية، محاطة بهالة من التقديس والإكبار، حالها كحال أبطال الأساطير اليونانية. يقينا فإن دينا يتخذ ابراهيم مسندا إنما دين سيكون من شأنه جمع الحضر والمضر قاطبة حول مكة وبالتالي سينجر عن هذا الجمع وحدة دينية تجعل من شبه الجزيرة مركزا سياسيا يضارع كبرى المراكز السياسية الفرس والروم، وستتلاشى بذلك الوحدة القبلية وتحل محلها وحدة سياسية أو بالأحرى قومية عربية، ثم سيغدو للعرب سلطان قد يمتد فيطوي سلطان الفرس والروم.[196] إذا كان أصل الحنيفية لا يمت بصلة لا بإبراهيم ولا بإسماعيل ؟ وإذا كنا ألزمنا أنفسنا منذ الصفحات الأولى من هذا الكتاب بمبدأ تاريخية الأفكار كقاعدة لهذا البحث، حيث أنه لا وجود لفكرة أو نظرية أو معتقد مسقط من فراغ، فما هو الأصل التاريخي للحنيفية ؟

في حديثنا عن اليمن السعيد، أوردنا أن الدين الرسمي لعرب الجنوب يتمحور حول عبادة المقة الذي يرمز للقمر في ظل نظام المكربين، أي التقرب من الآلهة أو الإله، وهذا الإله يطلق عليه وُد عند المعينين. في الحقيقة، ديانة المقة هي ديانة توحيدية خالصة، ذلك وأن حضارات عرب الجنوب توصلوا من خلال تجربتهم العقلية إلى الإيمان بوحدانية الخالق وتكريس النشاط الطقسي له وحده،

[195] المفصل في تاريخ العرب ج السادس، ص 450.
[196] الدين في شبه الجزيرة المرجع السابق، ص 66.

وعرفت مماليك الجنوب عبادة ذي سماوي إله السماء، كذلك عبادة الرحمان المنتشرة في الجنوب الذي دعي له مسلمة الحنفي[197]، كما أكدت الباحثة اليمنية ثريا منقوش أن عباد هذا الإله كانوا يعرفون بالأحناف.[198] هكذا إذن تنقشع غمامة الميتاتاريخ عن أصول حركة الحنفاء لتطأ التاريخ، على أنها دخلت إلى اليمن السعيد منذ القرن الأول أو الثاني ق.م، كبقية الديانات والهرطقات التي وجدت ملاذا آمنا في أوساط الجزيرة، لكن ما يميزها مقارنة بالتيارات التوحيدية الداعية لعبادة الرحمان أو المقة أو ذي سماوي أو إيل، هو أن ظاهرة التحنف ولدت وهي حاملة في طياتها مشروعا سياسيا دينيا على مستوى الجزيرة ككل، ذلك ما أكده الباحث عماد الصباغ، مشروع يهدف لاستبدال التوحيد بالتعدد على المستوى الذهني، والوحدة والتشرذم على المستوى السياسي، مثل هذا المشروع يمر عبر إلغاء جميع الأشكال العبادية المحلية التي تعكس وتكرس التفتت الإجتماعي في صورة الحضور المتعدد للأرباب التي تتنوع بتنوع الجغرافيا والانتماء القبلي.[199] تبعا لذلك، يخلص الصباغ إلى أن دخول ظاهرة الأحناف إلى الجزيرة وَلَّدَ صراعا بين رؤيتين دينيتين اجتماعيتين سياسيتين، بين الوحدة والتفتت، بين الشمولي والمحلي، بين القديم والجديد، الذي أسفر عن ولادة الدين الجديد الذي قدم التوحيد المنزه بأرقى أشكاله، قام بتحقيق المشروع التوحيدي الحنفي بشقيه الإيماني والسياسي.[200]

إن فكرة التوحيد التي عمل الحنفاء على تكريسها مستمدة من اليهودية والنصرانية، أي أنها هجينة التوحيد اليهودي النصراني، هجينة لا يعني محاكاة عمياء بل فيها محاولة لتجاوز توحيد الديانتين السابقتين، هو توحيد فوق توحيد اليهود والنصارى، فلم يكونوا يهودا ولا نصارى والقرآن يشير إلى ذلك ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران 67).[201] ولو حللنا أكثر فلسفة الحنفاء، سنجدها منسجمة على الأقل مع كبرى المبادئ الأساسية لكل من اليهودية والنصرانية، وبالعودة للسور القرآنية سنلاحظ أنه في كل مناسبة ترديد للتفاصيل الجوهرية للديانتين مع تغير وتقلب واضح، وذلك راجع بالأساس للحالة النفسية والإجتماعية وخاصة المعرفية للرسول، وهو ما سيكون موضوع بحثنا في الباب الخامس والسادس. على هذا الأساس، فإن الدين الجديد وعلى امتداد كامل النص القرآني ليس سوى انعكاسا للنصرانية النسطورية – الأريوسية التي ترفض فكرة تأليه المسيح وتراها كفرا صريحا، لأن ذلك يؤدي بنا للقول أن مريم ولدت إلها، وبالتالي هي

---

[197] الأحناف دراسة في الفكر الديني التوحيدي المرجع السابق، ص 99.
[198] ذكره سيد القمني في كتاب الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية ص 111 منقول من كتاب التوحيد يمان لثريا منقوش.
[199] الأحناف دراسة في الفكر الديني التوحيدي، ص 100.
[200] نفسه.
[201] المفصل في تاريخ العرب ج السادس، ص 455.

أم الإله، إضافة إلى رفضها التثليث وتعده شركا صريحا، فنزهت الله بالقول أن طبيعة المسيح بشرية صرفة، حيث تعلن النسطورية موقفها من التثليث كما يلي :

" إن إتحاد الله الكلمة، اتحادا حقيقيا في الجوهر مع الإنسان يسوع في شخص واحد تحديد للألوهة، لذلك هو غير ممكن، فقد ولد الإنسان يسوع من مريم مع كل الشهوات والنقائص البشرية، والله الكلمة، سبق فرأى يسوع سينتصر بحربه مع جميع الشهوات، ويتغلب عليها، فأراد أن يخلص بواسطته الجنس البشري ولذلك اتحد به بنعمته منذ لحظة الحبل".[202] إن المسيح في العقيدة النسطورية لا يعدو أن يكون إنسانا اختارته الحكمة للتبشير برسالة سماوية، وهنا تتفق النسطورية تماما مع الإسلام في أمر المسيح. من ناحية ثانية، تأثر التيار الحنيفي بالعقيدة الآريوسية نسبة للاهوتي أريوس الذي عاش في القرن الثالث للميلاد، مثله كنسطورس تبنى موقفا راديكاليا تجاه المسيحية الرسمية برفضه أن يكون المسيح ابن الله وقالت إن المعنى لا يخرج من دائرة المجاز وأن المسيح ابن الله بالتبني. في الأثناء، أعلن أريوس رفضه للتثليث الأقنومي لأن ذلك سينجر عنه القول بآلهة ثلاث.[203]
إن تأثر الحنفاء بالمسيحية البسيطة عائد إلى سببين رئيسيين:

أولا ؛ إن المسيحية الرسمية للإمبراطورية البيزنطية فيها ضرب من التعقيد الإيماني، حيث أنها تقوم على فكرة التثليث الذي كرسه بولس أحد تلاميذ المسيح منذ القرن الأول الميلادي. كان التثليث عبارة عن نتاج محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين – التي نراها محاولة غير موفقة – من طرف بعض الفلاسفة اللاهوتيين الأوائل كأريجينوس Origène عاش في القرن الثالث ميلادي، ونتاجا للإحتكاك المسيحية بالأفلاطونية الحديثة، فالتثليث جاء كمحاولة فلسفية ومنطقية لحل المشاكل التي تعترض الفيلسوف أثناء تفكيره في العلاقة بين الكائن الأسمى الله وهو مجرد من المادة لا يصيبه التغير، وبين العالم الذي هو مادة وتغير، وهو ما مثل إحدى المشاكل الفلسفية العويصة منذ أفلاطون، فاقترح أفلوطين وهو فيلسوف اسكندراني عاش في القرن الثاني للميلاد في وجود كائن إلهي وسيط بين الله والعالم، وسار الأفلاطونيون المحدثون على ذلك المنهج[204]. نحن نلاحظ مدى التعقيد في هذه المسيحية، ذلك وأن الدين يجب أن يكون متلائما مع ذهنية وفاهمة المتلقي حتى يستوعبه، وهذا ما يفسر امتعاض التيار الحنيفي من المسيحية الرسمية، ورأت في المسيحية الخالية من التثليث، القائمة على العقيدة النسطورية– الآريوسية، أكثر انسجاما مع عقلية بدو الصحراء.[205]

---

[202] نفسه ص 84.
[203] ص 87.
[204] مدخل إلى القرآن الكريم ج الأول محمد عابد الجابري، سبق ذكره، ص 39-41.
[205] وفي حديث ينسب لمحمد قال: من خاطب الناس بكلام لا يفقهونه إلا وكان فتنة عليهم.

ثانيا ؛ لقد كانت جزيرة العرب بين القرنين الخامس والسادس مسرحا لنشاط الفرق الدينية والفلسفية لا سيما المتمردة على السلطة الرسمية كالمسيحية الخالية من التثليث، تقوم بتبشير معادي لعقيدة المركز، وهو ما أسفر عن حرب فكرية لاهوتية بين الامبراطورية البيزنطية والحركات الدينية المناوئة، حرب دارت رحاها بين من يعتقد في ألوهية المسيح ومن يعتقد في بشريته، فأفضى الصراع اللاهوتي إلى صراع دولي.[206] صراع انعكس في الإضطهاد المستمر الممارس من طرف الحكومة البيزنطية على تلك الحركات التي تعتبرها مارقة، فالتجأت إلى باطن الجزيرة كمجال لتلاقي الموجات التي كانت تنبعث باستمرار من قطبي هذا العالم.[207] تحت وتيرة هذا الصراع المرير تمنى أصحاب الحركات المسيحية المناوئة ظهور نبي جديد يأتي ليصحح ويصلح ما أفسده النظام السياسي الديني الذي فرضته الإمبراطورية البيزنطية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، لتتحول بعدها إلى باقة من البشارات ستصبح بدورها عند كتاب السيرة ما يعرف بدلائل النبوة.[208] إذن هو الظرف السياسي لا غير دفع أصحاب الديانتين من النصرانية (المسيحية البسطية) واليهودية في الاعتقاد بقرب ظهور نبي، فاستغل الحنفاء تلك الفكرة ونشروها داخل الجزيرة، ولو كان الحنفاء مقلدون لدعوا العرب لاعتناق النصرانية أو اليهودية، غير أنهم رغبوا في تغيير يكون ذو طابع عربي خالص يتجاوز كلا من الديانتين السابقتين، معتقدين اعتقادا راسخا بقرب ظهور نبي، فكانوا رمزا للروح والقومية العربية وتجسيدا للوحدة السياسية.[209]

هناك معلومة مهمة يجب ذكرها في هذا المقام، وصفنا المسيحية المتأثرة بالمذهب النسطوري– الأريوسي على أنها بسيطة، طبعا فنحن بهذا الوصف غرضنا ليس الاستنقاص إنما نريد أن نبين مدى بساطة وبداهة المبدأ الذي تتأسس عليه هذه المسيحية مقارنة بالمسيحية الأرثوذكسية، خلوها التام من الجدل الفلسفي المتمثل في فكرة التثليث. الجدير باذكر ألا نطلق عليها مسيحية بل النصرانية، والنصرانية هي من الناصرة القرية التي نشأ فيها يسوع فسمي يسوع الناصري، قيل أيضا إنها تعني الحواريين الذين ناصروا يسوع أمام اليهود أسوة بالآية ؛

[206] ص 46.
[207] ص 49.
[208] نفسه.
[209] مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، سبق ذكره، ص 262.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ (سورة الصف 14).[210]

وأيا كان الفهم الأول أو الثاني هو الأرب إلى الصواب، فإن النصرانية تعني المعتقد الأصلي للرسالة اليسوعية، أي المعتقدة الذي لم تشوبه تأويلات وتشويهات الكنيسة، خاصة بولس الرسول. لقد وأعلنت الكنيسة الحرب على هؤلاء لأنهم في نظرها هراطقة يؤمنون أن يسوع بشرا وليس إلها، رسول كبقية الرسل، وأطلقت عليهم الكنيسة لقب أبيوني Ebioniste وهو لقب تحقيري، بالعبرية يعني الفقير، والمقصود ليس الفقر المادي بل الفقر الفكري والفراغ النظري، نظرا وأن عقيدتهم رفضت الإندماج بالفلسفة اليونانية.[211] من هنا نفهم لماذا ما انفك القرآن يردد كلمة نصرانية ولا نجد أية إشارة لكلمة مسيحية، وطبيعي أن ينحو هذا المنحى لأن القرآن هو إنعكاس لعقيدة الحنفاء كرمز للتوحيد الخالص البسيط المجرد من التأويلات الفلسفية، والإسلام ليس سوى مستوى متقدم يعبر عن تعاليم التيار الحنيفي. فيما يخص اليهودية فإن الحنفاء لم ينهلوا من اليهودية التلمودية لأن فيها تعاليم تنافي الأخلاق وتحث على العنف والكراهية، بل نهلوا من اليهودية الأسينية، من تعاليمها احتقار الثروة والغنى والاعتزاز بالعفة والتعفف، وجعلوا من التغلب على الشهوات فضيلة.[212] فعلا، لقد كان الحنفاء يتحلون بتلك الصفات الأخلاقية السمحة.

إن في دراستنا للديانتين اللذين مثلا مصدرين أساسيين للحنفاء لاصطفاء تعاليمهم وتكوين معتقدهم نفهم السبب الذي جعل القرآن يردد الخطوط العريضة لكل منهما، فالإسلام مبني على العقيدة الحنيفية التي بدورها تأثرت باليهودية والنصرانية. عودة إلى عبد المطلب الذي كان ينتمي إلى تيار الحنفاء بدعوته لإلغاء الوسائط، ونحن نلاحظ أن الوسائط مبدأ قريب جدا من التثليث وفيه ضرب من التعقيد، فالتضرع والتشفع إلى الله مباشرة بلا وسائط سيكون أكثر بداهة وتنزيها. عبد المطلب عبَّرَ عن الموقف الأخلاقي الحنيفي العظيم بتحريمه الخمر والفسق، آمرا بترك البغي والظلم موصيا بالوفاء بالعهد، ناهيا عن نكاح المحارم وعن الوأد، متبعا التقاليد العربية في قطع يد السارق، حاثا على مكارم الأخلاق، ومحذرا من يوم الحساب، مناديا: « والله إن وراء هذه الدار دارا يجزي فيها المحسن بإحسانه ويعاقب فيها المسيء بسيئاته».[213] لما كان الحنفاء يميلون للعزلة بغية التأمل، كان

---

210 مدخل إلى القرآن الكريم، المرجع السابق، ص 39.

211 ص 42.

212 الأحناف دراسة في الفكر الديني التوحيدي، ص 111.

213 الدين في شبه الجزيرة المرجع السابق، ص 67-68.

عبد المطلب يصعد إلى غار حراء للتعبد وينزل منها داعيا بعبادة الاله الأوحد والرجوع إلى دين الفطرة دين ابراهيم وإسماعيل. لا شك أن عبد المطلب أدرك منذ اللحظات البواكر أن التوحيد السياسي المأمول الذي سيخرج العرب من مساحة ضيقة لإقتحام الفضاء الخارجي وتشييد حضارة كتلك التي عند الروم والفرس لا تتحقق إلا من خلال معادلة ثيوقراطية Théocartie تتلخص في مضاهاة الدين للدولة، أو الدين يضاهي الدولة، لقد تحمس لتطبيقها، لكنه علم سلفا أن المعادلة ستتحقق شرط وجود شخصية قوية حازمة، لها من الصبر والجلد ما لا نجده عند الآخرين، فكان واثقا أن هذه الشخصية ستقب من دائرته المقربة وأقصد أحفاده، وأن هذه الشخصية عليها أن تجمع بين النبوة والملك. أشارت المصادر الإسلامية كون الوحدة السياسية لا تتم إلا بالوحدة الدينية وذلك ما ذكره الحلبي في سيرته : " قال عبد المطلب : قدمت من اليمن في رحلة الشتاء فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور، فقال : من أنت ؟ قلت : من قريش، قال : من أيهم ؟ قلت من بني هاشم، قال : أتأذن لي أن أنظر إلى بعضك، قلت : نعم ما لم يكن عورة، قال : ففتح إحدى منخري إحدى منخري فنظر فيها ثم نظر إلى الأخرى، فقال : أنا أشهد إن في إحدى يديك ملك وفي الأخرى نبوة."[214] إن وجود شخصية تجمع بين الملك والنبوة ليس بتلك السهولة التي نتصورها، فالنبوة تحتاج لشخص قوي له رؤية بعيدة وبصيرة نافذة، وهنا ننقل ما ذكره العفيف الأخضر حول ظاهرة النبوة :« لا وجود للظاهرة النبوية من دون أفراد أقوياء، ومن دون شخصيات خارجة عن المألوف، تمتلك في وقت واحد القدرة على التخيل وعلى الخطابة وعلى التصرف، والذين غالبا ما يكونون جماعة دينية، ويجمعون حولهم كوكبة كاملة من الحواريين والأصحاب لتهيئة أماكن العبادة افرض احترام الضوابط والشعائر».[215]

شعر عبد المطلب –وكان شعوره في محله– أن مثل هذه الشخصية الجامعة بين صفتي النبوة والملك خابئة بين أحفاده، لينظر إليهم محفزا إياهم على الدخول في التيار الحنيفي لأنه يهدف لإقامة دين جديد سيمكن العرب من تجاوز الصراعات الداخلية وترك العصبية القبلية ثم النزوع نحو الوحدة السياسية، فأفصح عما هو كامن في نفسه معلنا : « لو أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء !»[216] لا شك أن تلك الدعوة تركت أثرا عميقا في نفسية محمد الصبي، وأن دولة العرب المستقبلية عليها أن تضاهي الدين، دينا جديدا يعبر عن مسحة عربية خالصة، وهذا الدين هو الحنيفية. بناء على ذلك، كان محمد من أقطاب المتحنفين، والدليل هو خروجه عن عادات وتقاليد قومه قبل اعلانه النبوة،

[214] ذكره سيد القمني في كتاب الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، ص 104 .

[215] ذكره العفيف الأخضر في كتاب من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ ص 83، نقله من كتاب قضية الأنبياء سياسة ودين في افريقيا المعاصرة، للأنثروبولوجي الفرنسي دوزون.

[216] الدين في شبه الجزيرة ص 68.

حيث روى علي ابن أبي طالب قال، قيل للنبي : هل عبدت وثنا قط ؟ قال : لا، قالوا : هل شربت خمرا قط ؟ قال : لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب وما الإيمان.[217] وقال لخديجة : والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط و لا الكهان.[218] وقوله لبحيرى الراهب : لا تسألني عن بالات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما.[219] أورد إبن هشام رواية تثبت قطعا أن محمد كان من المقتدين بتعاليم الحنفاء. عن ابن اسحاق قال : اجتمعت قريش في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما. قال : فخلص منهم أربعة نفر نجيا، وذكر هؤلاء الأربعة، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا أجل، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قولكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به ولا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، قال : فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.[220]

نلاحظ خروج الحنفاء عن مسار عادات وتقاليد القوم، كما أن محمد ليس أول من هجر الأصنام ونبذ الخمر ودعا إلى عبادة إله واحد، بل وجد تيار برمته انقلب وتمرد على المألوف، وهنا يجب أن نورد ملاحظة جد هامة، وهو أن الحنفاء هم إصلاحيون بالأساس، إصلاح من خلال العودة إلى دين الفطرة دين إبراهيم الذي شوهته عبادة الأصنام، فالعرب لهم أصل واحد، هذا الأصل يتمثل في شخصية ابراهيم التي وصفناها بأنها شخصية سورت بهالة من التقديس والإكبار في أوساط جزيرة العرب، وفي حالة استيعاب القبائل هذه الفكرة التي هي من نسيج ذهنية الحنفاء ستنتهج القبائل العربية أخيرا طريق الوحدة السياسية. ذهب د. جواد علي إلى الإقرار كون الحنفاء هم مصلحون إجتماعيون :« لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناسا من النوع الذي نطلق عليهم كلمة مصلحين في الوقت الحاضر. من هذا الطراز الذي يريد اصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل، فهم جماعة ضد الأوضاع الإجتماعية السائدة في أيامهم لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن ادراك الواقع، وقد رأت أن العقل لا يقر التقرب إلى أحجار وإلى التبرك بها والذبح لها، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في امكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها » . [221] في سياق هذا

[217] ذكره معروف الرصافي في كتاب الشخصية المحمدية ص 127، نقله من السيرة الحلبية.
[218] نفسه.
[219] نفسه.
[220] ابن هشام السيرة النبوية، المرجع السابق، ص 251-252.
[221] المفصل في تاريخ العرب ج السادس، ص 457.

الحديث، اعتبر الأنبياء والحكماء في العصور القديمة مصلحون والإصلاح لا يتأتى إلا على أيديهم،[222] وحري لنا أن نرى في هذا الإصلاح تغيير للواقع السياسي والإجتماعي عن طريق الدين، فالدين كان عاملا من عوامل التطور والتقدم في العصور القديمة،[223] وهنا نستبين أن العرب كانوا على علم بظاهرة النبوة قبل الإسلام، وفكرة النبوة لم تكن غريبة عنهم.

إن ثورة الحنفاء على العادات والتقاليد دفع معظمهم إلى عدم الإفصاح عن أفكارهم، ناهيك أن قريش كانت تتوجس منهم لأن احترام العادات والتقاليد هو أمر مقدس في نظرهم، فاختاروا العزلة والإبتعاد عن القوم، مفضلين الاعتكاف في الكهوف لا يخرجون منها إلا لحاجة شديدة وضرورة ماسة، يتحنثون فيها ويتأملون الكون في تلك المواضع الهادئة الساكنة كغار حراء.[224]

أدلة كثيرة تكشف لنا وبلا مماحكة أن محمد كان ينتمي إلى تيار الحنفاء، لكن شاء بعض الباحثين في هذا الشأن رفض التسليم بحنيفيته، وهو ما ارتأى إليه المستشار سعيد العشماوي حيث أورد :« وكان من العوامل وطأة لهذه النظرة ومهدت لذاك الاتجاه، وجود امارات وأمراء وممالك وملوك في شبه الجزيرة وعلى مدى تاريخها، والنظر إلى الرئيس على أنه أمير أو ملك، والخلط بين القول والقيل والزعم والأمر والرياسة، وقيام نظام إداري في مكة موزع بين بطون قريش لا ينقصه إلا ظهور ملك أو غلبة أمير ليصبح دولة موحدة قوية تسود بلاد العرب جميعا. هذا بالإضافة إلى إنتشار الفكر الديني والمفردات الدينية والتوحيد بالله لدى شعراء العرب، وارتفاع شأو الحنيفية، مما حمل المخطئون على الظن بأن النبي أحد هؤلاء».[225] أمر غريب صراحة عندما يقول إن إنتماء الرسول للتيار الحنيفي هو محل الظن أو الخطأ، ذلك وأن حنيفية الرسول تستند على أدلة واضحة أو بالأحرى دامغة، ونذكر هنا رواية واحدة كفيلة بأن تكشف عدم صحة ما تفضل به العشماوي ؛ " قدم أبو عامر الراهب، لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، قدم المدينة ورأى الرسول وسأله : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين ابراهيم، قال : فأنا عليها، فقال الرسول : لست عليها، ولكن أدخلت فيها ما ليس منها، وقد سماه الرسول الفاسق.[226] في رواية أخرى رواية أخرى وهي كثيرا ما تتردد في كتب الحديث نقرأ " عرض عمر ابن الخطاب على الرسول أشياء كان يقرأها في التوراة تتفق مع ما جاء به، فغضب وقال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والله لقد جئتكم بالحنيفية السمحة، ولو كان موسى ابن

---

[222] مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، المرجع السابق، ص 260
[223] نفسه ص 266.
[224] المفصل في تاريخ العرب ج السادس، ص 509-510.
[225] الخلافة الإسلامية، المرجع السابق، ص 61.
[226] ذكره د.جواد علي في مفصله ج السادس ص 458.

عمران حيا ما وسعه إلا أن يتبعني".[227] وقد قيل أن الصحابي عبد الله ابن مسعود في قراءته لآية إن الدين عند الله الإسلام (آل عمران 19) قرأ الحنيفية عوض الإسلام.[228]

وربما سيستدرك على هذه الروايات بالقول : الحديث فيه الصحيح والضعيف الموضوع والمكذوب، فأقول دعك من الحديث ولنذهب إلى القرآن، يتضمن آيات عديدة[229] ذكرت كلمة حنيفية، ألا يشير ذلك قطعا أن محمد كان من المتحنفة قبل إعلانه النبوة، وأن الإسلام ليس سوى عقيدة الحنفاء ولكن في ثوب جديد. نحن نعطي الكاتب عذره لأنه في كتابه " الخلافة الإسلامية "سعى جاهدا لإظهار أن الإسلام ليس بدين دولة، أي أنه أراد كسر المعادلة التي وضحناها آنفا "الدين يضاهي الدولة"، إلا أنها محاولة لا تخلو من تكلف وتناقض، إننا نتفهم الظروف السياسية التي عاشها في مصر، ظهور تيار ديني سلفي رجعي تكفيري عرف بالإسلام السياسي ورفضه للدولة المدنية، وفي ذلك تهديد كبير للحرية والعلمانية، فما كان له إلا التصدي لهذا التيار، فاختار التنقيب والنبش في الجذور الأولى للإسلام ودعوة رسوله، عازما الفصل بين الإسلام كدين والخلافة كسياسة، غير أنها كانت محاولة غير مجدية، فالقرآن ببنيته الثنائية مكي ومدني، يحسم الإجابة عن سؤال هل الإسلام دين دولة؟ سوف نتطرق إلى هذا الموضوع لاحقا. نعيد ما قاله د. محمد عابد الجابري في وصفه للقرآن المكي والمدني، كون الأول قرآن الدعوة والثاني قرآن الدولة.

ذكرنا من بين الحنفاء شخصية زيد بن عمرو ابن نفيل الذي ربما قد يكون أول من دعا القبائل العربية إلى التوحيد ونزع الوسائط بالعودة إلى الدين الحق دين إبراهيم، ذلك ما أشار إليه ابن هشام في سيرته نقرأ ؛ قال ابن اسحاق : وحدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهرة إلى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده : ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري.[230] لم ترضى قريش بدعوة زيد وضايقته فتعرض للأذى من قبل الخطاب ابن نفيل أبو عمر ابن الخطاب، فأخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة ومنع من الدخول إليها.[231] هنا نذكر حادثة وردت في المصادر الإسلامية يمكن أن نعتبرها كنقطة تحول عظيمة في فكر الرسول ودفعته لخوض التجربة الحنيفية؛ مرة مارا على شعبة من شعب مكة وجد زيد بن عمرو بن نفيل محمد بن عبد الله فيها فدعاه محمد إلى تناول شئ

[227] ذكره خليل عبد الكريم في قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، ص 231.
[228] أبو داوود السجستاني كتاب المصاحف، الطبعة الأولى 1936، المطبعة الرحمانية مصر، هامش الصفحة 59.
[229] البقرة أية 38، آل عمران آية 35، النساء آية 124، الأنعام آية 79، 162، يونس 105.
[230] ابن هشام السيرة النبوية المرجع السابق، ص 254.
[231] نفسه ص 260.

مما ذبحه للأرباب فكان جواب زيد : إني يا محمد لا آكل شيئا ذبح للأصنام.[232] وعند ابن هشام : إني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.[233] هذه الحادثة حيرت ابن هشام وأحرجته، فحاول أن يخرج من هذا الإشكال، كيف وفق الله زيدا إلى ترك أكل ما ذبح على النصب، ورسول الله كان أولى بهذه الفضيلة في الجاهلية ؟ ردود ابن هشام لا تخلو من تكلفات وتحكمات وتلك ميزة كتاب السيرة والمؤرخين المسلمين عندما يصطدمون بخبر لا ينسجم ومبدأ نظرتهم للرسول، حيث ينظرون إليه كصورة مجردة عن الواقع لا تتأثر بمحيطة الخارجي، والقول أن زيد استبق محمد في أمور سيحرمها الإسلام فيما بعد قد يضع محل شك وريبة مصداقيته، هو حكم باطل، فالإسلام هو هجين المعتقدات السائدة في بيئته، والرسول نهل منها وحافظ على ما يتماشى والبيئة العربية البدوية وأسقط جوانب أخرى، فتأثره بما سبق يعكس تاريخية الدين وهي حقيقة مثبتة تنسحب على كل الأديان. نحن في هذا الكتاب نريد أن نثبت عكس ذلك، نريد أن ندحض ثابتة لاهوتية مؤداها أن الإسلام والقرآن إضافة إلى جزيرة العرب لم يتأثروا بمحيطهم الخارجي، وذلك هو المنهج الميتاتاريخي، لا يأخذ بعين الإعتبار الظروف والأسباب المحيطة بالدين، بل يعمل على نسفها وكأنه نزل من السماء من دون ممهدات. ليس من شأننا الرد على ابن هشام، بيد أننا نستطيع تفنيد اعتراضاته بآية قرآنية واحدة، حيث قال: كيف وفق الله زيد إلى ترك أكل ما ذبح على النصب ورسول كان أولى بهذه الفضيلة، فنجيبه : ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (سورة الجمعة 4).

لا شك في أن تلك المقابلة مع زيد غيرت مجرى حياته ودفعته للتفكير مليا في معتقدات وعادات القوم، ويمكن الجزم أن محمد سلك درب زيد بعدها، درب التيار الحنيفي، فالمقابلة كشفت أن محمد لم يكن أول من خرج عن التقاليد الموروثة بل سبقه زيد، لكن الظروف شاءت أن يكون محمد هو رسول العرب ومصلح أحوالهم وقائدهم نحو انقلاب سياسي واجتماعي عظيم. أدلى الرصاف دلوه في المسألة، لماذا لم تكن النبوة والملك من نصيب زيد وهو الذي سبق محمد بالقول: «فلو كان لزيد بن عمرو ما كان لمحمد من عزم وحزم، ولو أوتي ما أوتيه محمد من دهاء وذكاء ومن فصاحة وبلاغة، ولو تيسر له ما تيسر لمحمد من أعوان، ومن اطلاع على ما جاء في الكتب القديمة من قصص أنبياء وأخبارهم، ولو كان له ما كان لمحمد من طموح إلى غاية عظمى وإحداث نهضة كبرى لكان كمحمد، و لجاء بما جاء به محمد، ولكان محمد من أتباعه».[234]

[232] الدين في شبه الجزيرة المرجع السابق، ص 69.
[233] ابن هشام السيرة النبوية، هامش الصفحة 253.
[234] الشخصية المحمدية، ص 131.

إن كل هذه الصفات كان قد تحلى بها زيد، أما العزم والحزم فإنه من بين أبرز الحنفاء عزما وحرصا، لما ضايقه الخطاب بن نفيل وحاصره وأطرده من مكة خوفا من أن يفسد العادات والتقاليد الدينية لقريش لم تنكسر شوكته ولم يهدأ ولم يخفت حماسه، بل حاول الدخول إلى مكة سرا بغية مواصلة دعوته وهداية قريش إلى دين إبراهيم دين الوحدة السياسية. جاء في سيرة ابن هشام كيف حاول زيد دخول مكة بالرغم من الأذى الذي تعرض له : ووكل به الخطاب شبابا من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم، فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلا سرا منهم، فإذا علموا بذلك، آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم.[235] كيف لا يكون ذكيا وداهية وهو الذي بدعوته أراد أن يوحد القبائل، لقد أدرك منذ اللحظات البواكر أن الدين الإبراهيمي عامل وحدة لا فرقة وهذا يحسب على ذكائه ودهائه. وكيف ليس بفصيح ولا بليغ وهو الذي نهل محمد من شعره كلمة أسلمت وإسلام وكلمة دحاها واستوت:

أسلمت وجهي لمن أسلمت   له الأرض تحمل الصخر الثقالا
دحاها فلما رآها استوت   على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا ماهي سيقت إلى بلدة   أطاعت فصبت عليها سجالا[236]

وكيف ليس له أعوان وهو الذي تمكن بدعوته ضم أصوات كثيرة ناصروا وآزروا تلك الدعوة، سالكين الدرب الذي اختاره من أجل تحقيق التوحيد والوحدة، واستكمالا للصرح الديني الذي وضع أولى لبناته ألا وهو الدين الحنيف، وهؤلاء الأعوان هم ؛ أمية بن أبي الصلت الثقفي، سويد بن عامر المصطلي، وكيع بن زهر الأيادي، عامر بن الظرب العدواني، علاف بن شهاب التميمي، زهير بن أبي سلمى، الملتمس بن أمية الكناني، خالد بن سنان العبسي، وكعب بن لؤي بن غالب.[237] وكيف ليس له إطلاع بالكتب المقدسة والجزيرة العربية تعتبر حاضنة ديانات وهرطقات كثيرة والإدعاء بعدم معرفته بالكتب المقدسة وكأن لسان حالنا يقول إنه لم يعش في الجزيرة ولم يخالط سكانها، بل إن دعوته إلى دين إبراهيم برهان يكشف أن زيد مطلع على التوراة وإلا من أين عرف تلك الشخصية التوراتية. وكيف يمكن أن ننظر إليه كشخصية تفتقد للمشروع النهضوي ومسلوبة من كل طموح و دعوته لعبادة إله واحد هي أصلا ذات مرمى سياسي مبطن، وذلك ما أشرنا إليه أن تيار الأحناف منذ دخوله للجزيرة كان يحمل مشروعا سياسيا دينيا غايته استبدال التشرذم والتصدع القبلي بالتماسك واللحمة، ناهيك أن كلا

[235] ابن هشام السيرة النبوية المرجع السابق ص 260.
[236] الدين في شبه الجزيرة، ص 70.
[237] الأحناف دراسة في الفكر الديني التوحيدي، المرجع السابق، ص 33.

من ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمر ابن الخطاب لما قالا للرسول: أنستغفر له قال : إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.[238]

إننا لا نتفق مع الرصافي حول هذه الجزئية، ونرى أن استلام محمد بادرة التغيير والتثوير يعود بالأساس إلى ظاهرة النبوة، فالأحناف ولئن كانت دعوتهم تحمل في طياتها مشروع توحيد سياسي إلا أنه لم يجرأ أحد منهم على القول بأنه نبي مرسل. إن ظاهرة النبوة كانت معروفة عند العرب بسبب احتكاكهم باليهود والنصارى، ولكنها كانت منحصرة في بني اسرائيل فحسب، وحتى نظرية النبي المنتظر كانت عقيدة يهودية، إذ أنهم كانوا يأملون مجيء نبي يعيد أمجاد مملكة اسرائيل والعودة إلى أرض الميعاد، أما النصارى فهم أيضا كانوا ينتظرون عودة المسيح حتى يقيم مملكة الله على الأرض، فكلا الديانتين يقومان على الإنتظار. إننا نخالف نظرية انتظار الأحناف لنبي، ثم إن الحنفاء قاموا بالتنظير للدين الحنيف وكانوا يعلمون أنه الدين الحق فليس لهم حاجة بنبي مرسل من عند الله حتى يهديهم إلى الطريق الصواب، بل إنهم اهتدوا إليه من دون نبي ولا وحي، وهو ما دفع ابن هشام للتساؤل كيف نبذ زيد عبادة الأصنام والأنصاب، ونبذ مالم لا يذكر عليه اسم الله من الذبائح قبل نبوة محمد؟ نعم الشيء الذي ميز محمد عن بقية الأحناف هو إعلانه النبوة، أي أنه ربط دعوته بالسماء، في حين أن البقية لم يفعلوا ذلك، فمشروع التوحيد عندهم صادر من ضرورة اجتماعية واقتصادية، إجتماعية التفكك القبلي، اقتصادية ظهور تباينات طبقية صارخة بين الأثرياء والفقراء بسبب الأرباح الطائلة التي أغدقت على قريش، وذلك طبعا عائد لمزاولة التجارة. أما محمد فقد كان على علم بهذه المتغيرات الإجتماعية والإقتصادية الخطيرة، والأخطر أنه أعلن نبوته داخل هذا المعترك المشحون سياسيا بين بنو هاشم وبنو أمية، نبوته لم تأتي اعتباطا وصدفة، لأنه كان متحنفا صادقا مع نفسه. لقد اعتقد حقا أنه وقع اصفاؤه كنبي للعرب، إنها تجربة ذاتية ومغامرة شيقة حملته إلى عالم المتصوفة والرهبان كما سنرى، وسوف نحلل ظاهرة الوحي لاحقا.

[238] ابن هشام السيرة النبوية ، ص 255.

في هذه المرحلة من التحليل نصل إلى نقطة مفصلية إزاء نشأة الدين الجديد. إن جملة من العوامل الإجتماعية والإقتصادية فرضت واقعا استثنائيا أدى إلى بزوغ الإسلام، طبعا ليست وحدها هي من ساهمت في ذلك بل كذلك العوامل العقائدية والفردية. لا شك في أن سياسة التقريش المشفوعة بالإيلاف قلبت البنية الإجتماعية التقليدية لمكة وما جوارها رأسا على عقب، فلم تعد القبائل العربية متناحرة متصارعة، صفة أصبحت عرضية بعد سن الأشهر الحرم الأربعة، فبفضل التقريش والإيلاف انتقلت القبائل من حالة التنافر إلى حالة التآزر، إنها خطوة عظيمة نحو التوحيد السياسي، علما وأنها لم تقضي كما ذكرنا على العصبية القبلية والحرية الدينية. إن التقريش كمحاولة لفض النزاع بين القبائل عاضده الحج، وهدف الحج هو ديني دنيوي في آن، حيث يحج العرب من كل صوب وحدب إلى الكعبة بغية ممارسة الطقس الديني وعقد التفاهمات التجارية، ومن هنا نفهم لماذا حافظت قريش على الحرية الدينية وجعل الكعبة كمجمع للأصنام، فكل صنم يمثل رب قبيلة، ودعت القبائل لترك أصنامهم في فناء الكعبة ليحجوا إليها في السنة المقبلة، ولو تخيلنا ذلك المشهد سنستشعر ضربا من التوافق والإنسجام بين القبائل العربية كمقدمة للوحدة الإقتصادية تتبعها السياسية.

إن سياسة قريش ولئن أحدثت طفرة اجتماعية هائلة، إلا أنها أفرزت تناقضات وتباينات صارخة وذلك عائد بالأساس للتجارة. لقد استقرأنا في بدايات هذا الفصل العوامل الجغراسياسية التي جعلت منطقة الحجاز بصورة عامة ومكة بصورة خاصة محطة ترانزيت، ونحن لا نبالغ لو قلنا أن تلك العوامل جعلت من شبه الجزيرة جسرا عالميا للتجارة وتبادل شعوب الشرق والغرب وشعوب آسيا وافريقية مختلف المنتجات الطبيعية والصناعية، وتبادل التأثير والتأثر.[239] وكان لهذا الإندماج في السياسية الإقتصادية العالمية –علما أن مكة ومنطقة الحجاز التزما بالحياد السياسي والديني تجاه الإمبراطوريتين– مقدمة لظهور النزعة الفردانية الرأسمالية، والسبب متمثل في التجارة، حيث كانت تجارتهم مع الفرس الساسانيين و البيزنطيين تدر عليهم بكميات كبيرة من الدنانير والدراهم وغيرها من العملات الأجنبية الأخرى. [240] إن مهنة التجارة جعلت القرشيين منفتحين على العالم الخارجي مما أكسبهم مهارة في التفاوض وقبول الآخر المختلف دينيا وثقافيا، وكان لهذا الإنفتاح مصدر من أهم المصادر لثروة قريش، لقد عظمت قوافلها التجارية حتى لتبلغ الواحدة خمسمائة ألفا أو ألفين

[239] د.حسين مروة النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية الجاهلية- نشأة وصدر الإسلام، ، المجلد الأول دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية 2008، ص 377.

[240] برهان الدين الدلو، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، دار الفارابي لبنان بيروت، ص 52.

وخمسمائة بعير تحمل مختلف السلع، ويشترك فيها عامة قريش.[241] ذكر المؤرخ برهان الدين الدلو معلومة مهمة بخصوص الحج : « وكان الحج إلى جانب التجارة موردا هاما لقريش، تبيع ما عندها للأعراب القادمين إليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة، وتشتري منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع، وتشتري في مقابل ذلك ما يحتاج إليه أهل الحجاز وأعراب البادية من مواد وبضائع».[242] لقد لعب الحج دورا كبيرا في اثراء المعاملات والتبادلات بين قريش وبقية أعراب الجزيرة فتولد شعور بالانجذاب تجاه مكة كحاضنة للكعبة وقريش كحامية لحمى الدين، لكن لا ننكر أنه وجدت خلافات مع بعض المدن وأهمها يثرب، وهذا الخلاف بالذات كان سببا لنجاح الدعوة الإسلامية في المدينة، كما سنبينه لاحقا.

أجمعت شريحة هامة من الباحثين والكتاب العرب* على ولادة فكرة القومية العربية قبيل ظهور الإسلام، وذلك عائد بالأساس لظاهرة الحج والتجارة اللذين ساهما في فرص نوع من التقرب بين العرب فشعروا بضرورة الوحدة. ربما لكان لتلك الوحدة أن تتحقق على أرض الواقع، لكن التغير الجوهري للتركيبة الإجتماعية العربية كان حائلا، أي أننا نعترض على فكرة تحقق القومية قبيل ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، والسبب هو الثروات الطائلة التي أغدقت على مكة وقريش، فالقرشيون لم يحسنوا إدارة الأمور، أقصد أنهم لم يوظفوا التجارة كفرصة سانحة لتحقيق مشروع الوحدة السياسية الذي كان الشغل الشاغل لقصي نهاية بعبد المطلب، ويبدو أنه لا يجب أن نلقي عليهم باللائمة، فالوضع يشبه ظاهرة كرة الثلج التي تتعاظم شيئا فشيئا أثناء هبوطها في منحدر، فالثروات الطائلة المتأتية من التجارة أحدثت انقلابا كوبرنيكيا أصاب المجتمع القرشي في تكوينه، يتمثل في تهشيم الأسس القديمة لروابط القبيلة.[243] إنه تهشيم يعزى لتوزيع غير عادل للثروة، حيث أقدمت بعض الأفراد من العشائر المكية، الإنقضاض على العائدات التجارية وجعلوها لحسابهم، فلم تعد مكة هي القابضة لعشور مرور القوافل التجارية، بل فئة معينة انفردت بذلك على حساب الفئات الأخرى، ومع حجم التجارة الهائل بدأت الإنقسامات الطبقية الحادة في الظهور داخل القبيلة نفسها، ولم تبقى بقية القبائل بمنأى عن هذا الإنقلاب نظرا وأنها مرتبطة بحركة مكة التجارية،[244] وذلك ما أكده د. أحمد ابراهيم الشريف :« وقد أدى نشاط بعض أسر مكة في التجارة إلى حصولها على ثروات طائلة، وقد أسهم رجل واحد من أهل مكة هو أبو أحيحة بن سعيد ابن العاص بن أمية بثلاثين ألف دينار في

---

[241] نفسه.

[242] ص 50-51.

*مثل سيد القمني، برهان الدين الدلو، حسين مروة، خليل عبد الكريم، أحمد ابراهيم الشريف وغيرهم.

[243] حروب دولة الرسول ج الأول سبق ذكره، ص 17.

[244] نفسه.

القافلة التي كان يقودها أبو سفيان وكانت السبب في موقعة بدر(...) كذلك كان عبد الله بن جدعان التيمي والوليد ابن المغيرة المخزومي من أثرياء مكة، وكان الأول يشرب من كأس من ذهب، وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال حتى كان أحدهم وهو عبد الله بن ربيعة يلقب بعدل قريش وقد كام تاجرا موسرا وكان متجره اليمن. كما كفن أحد الموتى وهو عبد المطلب بن هاشم في حلل ألف مثقال من الذهب، وطرح عليه المسك حتى ستره». [245]

يوجد عامل ثان ساهم في تعاظم الثروة يتمثل في انتشار ظاهرة الربا، حيث كان مظهرا من مظاهر الحركة الإقتصادية الإجتماعية، وكان فاحشا جدا في مكة، دَرَّعلى المرابين أرباحا كثيرة مع تلاعبهم بالديون، بأن يؤخروا آجالها أو يقدموها أو يضيفوا إليها، مما يؤدي إلى خراب المستدين واستعباده. [246] إن هذه الثروة الطائلة واحتكارها من طرف أسرة واحدة أدى إلى تمايز مشط بين أفراد القبيلة الواحدة وحتى بين القبيلة والأخرى، وما زاد الطين بلة هو انتشار التعامل النقدي نتيجة التعاملات التجارية مع الفرس والروم مما عمق الفوارق والتفاوت، فكك بالتدريج روابط النظام القبلي القديم، مما أفرز بدوره فئة إجتماعية متمثلة في العبيد والمعدمين، المحرومون من الإستفادة من العملية التجارية القائمة داخلة ذات القبيلة. [247]

قبيل هذا المتحول الإجتماعي والإقتصادي الذي شبهناه بالإنقلاب الكوبرنيكي، كان الأفراد داخل القبيلة يتمتعون بالمساواة المطلقة والإمتلاك الجماعي لوسائل الإنتاج والثروة، فالقبيلة عبارة عن وحدة منزلية منطوية على نفسها وتقوم بسد حاجاتها جميع أفرادها هم بنو عم، [248] غير أن المتحول المشار إليه أربك وحدة القبيلة أيما إرباك، ذلك وأنها بعد أن كانت وحدة مصغرة متماسكة متراصة، تهوي للإتحاد مع بقية القبائل تحت ظل التقريش المشفوع بالإيلاف حصل العكس. بسبب الثراء الفاحش الذي أصاب بعض أعضاء القبيلة على حساب الآخرين، أصبحت غير مسئولة عن الفرد فيها فانتشرت ظاهرة الخلع، أي خروج البعض عن سلطتها وهؤلاء هم الخلعاء المشردين، علاوة على بروز طائفة الصعاليك، وكل ذلك ناتج عن التجارة التي راكمت رأس المال لدى أفراد بذاتهم، وذلك أدى إلى تحول الولاء من القبيلة إلى الطبقة، وأخذت قيم الولاء الجمعي تتراجع أمام ظهور شكل جديد من العلاقات الاجتماعية تمثلت في الفردية، أي إعلاء قيمة الفرد دون الجماعة. [249]

---

[245] مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول سبق ذكره، ص 232-233.
[246] مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي المرجع السابق، ص 55.
[247] حروب دولة الرسول ج الأول ص 17.
[248] مدخل إلى علم إجتماع الإسلام سبق ذكره، ص 59.
[249] حروب دولة الرسول ج الأول ص 18.

من جانب آخر، تَرَهَّلَت ظاهرة العصبية القبلية التي أشرنا إليها في الفصل الأول، فالعصبية لعبت دورا هاما في تلاحم العرب، فهي تقوم على رابطة الدم، وتحولت إلى عصبية طبقية وهي أشد خطورة من الأولى. فإذا كانت العصبية القبلية تحافظ على وحدة القبيلة ضامنة تكافلها وتآزرها، فإن العصبية الطبقية تجمع بين مصالح أصحاب الثروات على تفرقهم من قبائل مختلفة، وفي المقابل يجمع الشقاء بين المستضعفين. لتبرز تحالفات جمعت بين الأثرياء، وهي تحالفات أكبر من القبيلة لأنها تعتبر محطة تجمع بين شرائح اجتماعية تنتمي لمختلف القبائل، إنها شرائح الأثرياء التي أقامت تحالفات كحلف ذي مجاز وتنوخ، حلف قريش والأحابيش، حلف الفضول والمطيبين، حلف الأحلاف ولعقة الدم، وحلف الحمس وغيرها.[250]

إن هذه التحالفات لا تعبر عن تقارب العرب ووحدتهم كما ذهب إلى ذلك برهان الدين الدلو وأحمد ابراهيم الشريف، بل إنها عين تفتت وتفكك الوحدة المرجوة من طرف السلك الهاشمي من جانب، وتيار الحنفاء من جانب آخر. لقد كان مراد هاشم بتكريسه الإيلاف ومن قبله قصي، هو إغراء القبائل وإعطائها الجعالة المالية حفاظا على مرور القوافل التجارية، كتجسيد لضرب من الوحدة الإقتصادية والإجتماعية، اعتمادا على العامل التجاري، كما أنه حَوَّلَ الجانب الديني المتمثل في الحج عاملا يخدم المصلحة الإقتصادية، وهو ما أشرنا إليه قدوم العرب من مختلف أرجاء الجزيرة بغية ممارسة الحج واستغلال تلك المناسبة الدينية لعقد التفاهمات التجارية. بيد أن التجارة بعد أن عَوَّلَت عليها قريش بهدف الوصول إلى الوحدة، أصبحت عامل تفرقة، وكأن المشهد عاد إلى ما قبل سياسية التقريش. طبيعي أن يعود إلى ما قبل سياسية التقريش وقد كونت الأسر الثرية كتلا للدفاع عن مصالحها ضد الأسر الفقيرة والمعدمين والصعاليك والخلعاء، لتلبس العصبية ثوبا جديدا إنه ثوب العصبية الطبقية، فاتسع البون بين أفراد القبيلة ذاتها.

من بين تلك الأسر تأتي بنو أمية في المقدمة، لقد تحكموا في الأسواق التجارية وكان لهم حضور قوي في عملية الربا حيث أن معظمهم كان من المرابين[251]، مقابل فقر أسرة هاشم وعبد المطلب، ونحن نتفق مع د. سيد القمني حول أسباب فقر هذه الأسرة، إنه يعزى بالأساس إلى المنافسة التي كنا قد أسهبنا في تحليلها وكانت حلقة من حلقات الصراع السياسي المحموم داخل البيت القرشي، بالرغم من ممارسة هاشم للتجارة وباعه الكبير فيها ثم اكتسابه لمحبة القبائل العربية –فقد هشم الثريد للجوعى بيديه فأصبحت كنيته هاشم أي الشهامة– إزداد فقره المادي لأنه رغب في كسب الشرف

[250] نفسه.
[251] مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، ص 55.

الرئاسي بالجود والفضل، في حين أن بنو أمية لم يكونوا مثاليين كأسرة هاشم وعبد المطلب، إنما تعاملوا مع الواقع ببراغماتية عالية ودهاء مفرط، ليعملوا على تقوية سلطتهم ونفوذهم بالإعتماد على التراكم الثروي.[252] علق د. حسين مؤنس في مقدمة كتاب النزاع بين بنو أمية و بنو هاشم على السؤال الذي أثاره المقريزي لماذا انتهت الخلافة في يد الأموين دون الهاشميين بالقول : « وهذه الحقيقة تجيب عن السؤال الذي وضعه المقريزي ثم لم يجب عنه وهو : كيف وصل بنو أمية إلى الخلافة وهم كانوا في رأيه أقل القوم استحقاقا لها ؟ الجواب : أن الخلافة ما دامت قد أصبحت سياسة وقوة ومالا وجاها، فإن الذي يفوز لها هو الأمهر في شئون الدنيا والسياسة والقوة والمال، ولا يتنصر فيها قط الأتقى أو الأقوم خلقا أو الأشد تمسكا بالدين ».[253]

إن فكرة القومية العربية الممهدة للوحدة، تلاشت أمام ظهور هذا التناقض الطبقي الصارخ، مما يدفعنا للقول إن مشروع التوحيد السياسي لم يعد ممكنا، فالمصلحة الذاتية هيمنت على القرشيين، مما أسفر عن تشتت القبيلة وضياع دورها كمجمع أسري، حيث أصبح كل فرد ينظر إلى مصلحته الخاصة ومصلحة أفراد عائلته، ليعلو صوت الحنفاء مناديا بالعودة إلى الدين الحنيف دين إبراهيم كمحاولة لإعادة إحياء فكرة التوحيد الديني في أذهان العرب بالقول أن أصل العرب واحد إنه ابراهيم وابنه اسماعيل اللذان بنيا الكعبة. كان عبد المطلب جد الرسول من بين الحنفاء الأوائل الذين أعلنوا أن العرب يعودون بجذورهم إلى نسب واحد، رغم تحزبهم وتفرقهم فهم أبناء إسماعيل ابن إبراهيم.[254] سوف يصبح هذا الإعلان المبدأ الأساسي للدين الجديد، لذلك فإن عبد المطلب لعب دورا عظيما في ظهور الإسلام ناهيك وأنه اعتبر كمؤسس لملة أطلق عليها ديانة عبد المطلب.[255] في الأثناء، علا صوت آخر وهو لأمية ابن أبي الصلت من بين أكابر الحنفاء وشيوخها، يقال أنه تمنى أن يصبح نبي العرب قبل محمد، وما يهمنا هو شعره الذي لخص المشهد الإقتصادي والإجتماعي الذي هيمنت عليه المصلحة المادية الضيقة والتجاذبات الطبقية الأسرية :

ألا كل شئ هالك غير بنا   والله ميراث الذي كان فانيا
ولي له من دون كل ولاية   إذا شاء لم يمسسوا جميعا مواليا
وإن يك شئ خالدا ومعمرا   تأمل نجد الله من فوقه باقيا

---

[252] حروب دولة الرسول ص 19.
[253] النزاع بين بنو أمية وبنو هاشم، سبق ذكره، ص 10.
[254] الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية سبق ذكره، ص 101.
[255] ص 100.

له ما رأت عين البصيرة فوقه   سماء الإله فوق سبع سمائيا [256]

بهذه الأبيات توجه أمية للأعراب محاولا تذكيرهم كون الله سيرث الأرض ومن عليها، وكل ما يملكه الإنسان في هذه الحياة غير دائم، فهو يبحث عن فض ذلك النزاع بين الطبقة الثرية والفقيرة بالرجوع إلى عيادة الله الواحد الأحد وأن المالك والغني الحقيقي ليس سوى الله. ثم انفجرت شفتاه بوصف يوم الحساب جزرا وترهيبا :

يوم ذي العرش يعرضون عليه   يعلم الجهر والكلام الخفيا

يوم نأتيه وهو رب رحيم   أنه كان وعده مأتيا

يوم نأتيه مثل ما قال فردا   لم يذر فيه راشدا وغويا

أسعيد سعادة أرجو   أم مهان بما كسبت شقيا

رب كلا حتمته وارد النار   كتابا حتمه مقضيا [257]

يتضح من أول وهلة قيمة هذه الدعوة كمحاولة للترهيب، ترهيب أثرياء قريش من يوم الحساب فهو آت لا محالة، لينصف المظلوم والمحروم ويعاقب الذي تسلط وتجبر، والهدف من الدعوة يبقي حث الأعراب على تجاوز الشهوات الدنيوية والمصالح المادية لأنها غشاوة أعمتهم عن الطريق الحق، طريق عبادة الله الواحد الأحد بالرجوع إلى دين الفطرة.

أما بعد، فإن فكرة القومية العربية تراجع أثرهما ولم يعد لها وجود يذكر في أذهان معظم الأعراب، نتيجة للثروات التي أغدقت على مكة وتحولها إلى مركز رأسمالي مع ظهور طبقة الأرستقراطية المتحكمة في الأسواق والإقتصاد أربكت فكرة القومية، فالقومية كانت سائدة قبل أن تتحول مكة إلى فناء تتكدس فيه الأموال وبعد استغلال بعض الأسر على النصيب الأعظم منه، فلا يحصل الفقراء والمعدمين منها سوى على النزر اليسير، وذلك ما أوضحه الدلو : « ولا يحصل فقراء القبيلة و الصعاليك من الغنيمة إلا على الفتات. وقد استتبع هذا التفاوت في الملكية الخاصة تفاوتا في المعيشة وتمايزا اجتماعيا بين أفراد القبيلة الواحدة أدى إلى انقسام الأحرار إلى أغنياء وفقراء، إضافة إلى الانقسام الذي كان قائما بين الأحرار والعبيد».[258]

يبدو منطقيا أمام هذا المشهد المرتبك إجتماعيا وإقتصاديا، أن يعلو صوت التغيير من أجل إعادة توزيع عادل للثروة، إعادة لن تتم إلا بإحياء القومية والرجوع إلى البنية الكلاسيكية للقبيلة، عسى

---

[256] الدين في شبه الجزيرة سبق ذكره، ص 74.
[257] ص 75.
[258] مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، ص 59.

أن تُغَلِّبَ القبائل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهذا الصوت هو صوت الأحناف. من هنا فإن فكرة النبوة تفرض نفسها إذا اعتبرناها ضربا من الإصلاح الأخلاقي والإجتماعي، ولما قلنا أن العرب عرفوا ظاهرة النبوة بفعل إحتكاكهم باليهود والنصارى، فهل ذلك ينتهي بنا للقول أن العرب كانوا ينتظرون نبيا ؟ إنني لن ألتزم بهذه القاعدة التي أكدها جل الباحثين المعاصرين في التاريخ الإسلامي، فالعرب الذين انتظروا نبيا هم العرب اليهود، ومعلوم أن العقيدة اليهودية تقوم أساسا على المختار، بمعنى مجيئ نبي في آخر الزمان لكي يعيد أمجاد اليهود و بناء الهيكل الأسطوري ومملكة إسرائيل الأسطورية، ثم إن النبي الجديد عليه أن يكون من بني اسرائيل لا من العرب، أما العرب النصارى فهم أيضا انتظروا نبيا يأتي حتى يصلح عقيدة المسيح التي أفسدتها الكنيسة وينتقم من اليهود لأنهم رفضوا المسيح وكفروا به، ولقد أشرنا إلى ذلك في العنصر السابق كون الجو العام والسائد في الجزيرة سمته الإنتظار، إنتظار نبي. أما عرب الحجاز ومكة والطائف وثقيف ويثرب وغيرها من المدن، فمعلوم أنها كانت تعتنق ديانة وثنية ولكنها وثنية تفريدية متأثرة بالمعتقد الصابئي، أي تعترف بوجود الله وتقر بوجود شفعاء له، فهي وثنية كما بينا وليست بساذجة كما رأت القراء التقليدية السلفية لتاريخ الدعوة الإسلامية. موقفنا إذا إزاء مسألة انتظار العرب نبيا هو كالتالي، صحيح أن العرب انتظروا نبيا ولكن ليس جميعهم، بل العرب اليهود والنصارى، وهؤلاء شكلوا شريحة واسعة في المجتمع العربي قبيل ظهور الإسلام، تبقي الآن مسألة الأحناف من انتظار نبي، فهل حقا انتظروا مجيئ نبيا ؟ نقول تمنوا ولم ينتظروا، لأن في الإنتظار حتمية تاريخية، أما التمني فهو احتمالية تاريخية، أي امكانية حدوثه من عدمه متساوية، فهذا أمية ابن أبي الصلت الذي كان أكثر شخصية مرجحة لسبق محمد بالنبوة كان يرجو مجيئ نبي :

ألا نبي منا فيخبرنا   ما بعد غايتنا في رأس محيانا[259]

ننوه في هذا المقام أن تمني الأحناف مبعث نبي كان هدفه تحقيق أرضية صلبة للإصلاح الاجتماعي الأخلاقي، أي المصلح النبي أفضل من المصلح الغير نبي، فالمصلح النبي ستكون قراراته وأحكامه نازلة من السماء، والسماء هي رمز المقدس، والمقدس يعني التنفيذ الفوري الإلزامي، لأنه قرار صادر عن الإله والإله فوق المتغيرات المادية والظروف الوضعية، ما عدى ذلك فإن الأحناف بداية من عبد المطلب قد حَرَّمُوا أمورا كثيرة مثل عبادة الشفعاء، شرب الخمر، أكل الربا، وشَرَّعُوا الصلاة والصوم والزكاة وهي تشريعات مكونة لجوهر الدين الجديد. الحقيقة هي أن الأحناف لم يحتاجوا إلى نبي مرسل حتى يعرفوا هذه القضايا التشريعية و الغيبية، إنما احتاجوه لكي يصلح المجتمع الذي انحدرت فيه فكرة

[259] الخلافة الإسلامية، سبق ذكره ص 69.

القومية العربية وتهشمت فيه أسس القبيلة، وذلك لن يكون إلا من خلال نبي يدعو إلى الدين الحنيف، بمعنى أن الدين جاهز ولكنه يحتاج لنبي، وكأن الحنفاء كانوا على دراية تامة أن دعوتهم ستذهب أدراج الرياح في مجتمع تغولت فيه الرأسمالية والمصلحة الفردية، والأخطر من ذلك حدوث طفرة فكرية لدى عرب قريش المتمثل في رفض لكثير من أشكال المعجزات الميتافيزيقية القديمة، رفض تجده على سبيل الحصر لدى المكيين من الطبقة الأرستقراطية المترفة، حتى أصبحت تلك الميتافيزيقا القديمة في مأثوره الجديد على لسان الصفوة التي أتيحت لها ثروة التزود بالثقافة الحضارية في مدارس الإمبراطوريات وجامعاتها مجرد أساطير الأولين.[260] ليس رفض المعجزة في نظر بعض المكيين يعتبر كضرب من المعاندة والمكابرة، إنما هو ردة فعل تعبر عن الفطنة والذكاء، لأنهم يعلمون أنه يوجد الكهان والعرافون الذين كانوا قد تعرضوا إلى مس من الجن، فطلب المعجزة من قبل المكيين هو عبارة عن أمارة حسية تجريبية للتفرقة بين الكاهن والنبي. تبعا لذلك، فإن ظهور نبي يعمل على اصلاح المجتمع وإعادة قيم التكافل القبلي، يأتي لنصرة المعدمين والمحرومين بإعادة توزيع الثروة والضرب على أيادي الطبقة الأرستقراطية، والأهم إحياء فكرة القومية والوحدة السياسية اللذين كانا ضروريين لئلا يتلاشى ويتفكك المجتمع العربي، ومن هنا نستنتج كون ظهور نبي عربي له علله الأرضية مندرجة ضمن مسار التاريخ وليس الميتاتاريخ.

إلى هذا الحد، سنكون أمام ظاهرة عويصة وشائكة وهي بلا شك من ضمن المسلمات الإيمانية الغيبية لدى عامة المسلمين باختلاف تحزبهم وتشيعهم، انها ظاهرة النبوة. إن ظاهرة النبوة تعتبر من الواضحات يجيبك المسلم، محمد قبل أن يولد، بل منذ خلق السماوات والأرض، اصطفاه الله ليكون رسولا للعالمين، وكما نبهت منذ البدايات، أن منهجي المتبع في هذا الكتاب، تاريخي علمي فلسفي، ولو لم يكن كذلك ما كنت أفكر في كتابته أو حتى التفكير فيه، لأنني أنظر للدين كظاهرة علمية لا غيبية، ومن ثم فإن تحليل هذه الظاهرة يفرض علينا تحليل ظاهرة الوحي. في الحقيقة، النبوة والوحي متلازمان متداخلان، يستحيل الفصل بينهما، إلا أنني لن أسهب كثيرا في الحديث عنها، إنما سنستقرأ عللها استقراء بعيدا عن المنافحة الغيبية، وسوف نتعمق فيها أكثر في الفصل القادم.

إن فهم ظاهرة النبوة يستوجب قراءة تاريخية ونفسية للرواية الإسلامية، فلا يمكن الإستغناء المطلق عنها مثلما أشرنا إلى ذلك في التوطئة. الرواية الأولى هي رواية الملكين وشق البطن، رواية ذكرتها كل المصادر الإسلامية، لن نستأقرئها جلها. سأعتمد بالأساس على سيرة ابن هشام، حيث نقلها على

---

[260] حروب دولة الرسول، ص 21.

* أسوطه إذا ضربت بعضه ببعض، المسوط عود يضرب به. راجع السيرة النبوية لابن هشام هامش الصفحة 190.

لسان حليمة السعدية مرضعة الرسول : قالت فرجعنا به، فو الله إنه بعد مقدمنا بشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعناه فشقا بطنه فهما يسوطانه*، قالت فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائما منتقعا وجهه، قالت : فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له : مالك يا بني، قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا شيئا لا أدري ما هو، قالت : فرجعنا إلى خبائنا.[261] ذكر ابن هشام رواية شق البطن وعنونها كالتالي؛ حديث الملكين اللذين شقا بطنه. إلا أن محمد الصبي لم يذكر ملكان بل رجلان عليهما ثياب بيض وهذا فرق كبير، لأن الملاك هو كائن غيبي لا نعلم جنسه ولا نوعه، ولفظ رجل وإن كان مجردا فله بالضرورة وجود في الذهن، غير أنه مستوحى من التجربة، إنه قالب فكري بلا عوارض يقابله موضوع حسي بعوارضه (لونه، طوله، حجمه إلخ)، والملاك ليس برجل ولا بإمرأة لأنه بلا تحقق عيني نستطيع التثبت منه حسيا وتجريبيا، بمعنى أنه يبقى ذو جدل لغوي، فهل هذا يعني أن محمد الصبي لم يكن متأكدا من هوية اللذين شقا بطنه ؟ لقد تطرق معروف الرصافي لهذا المشكل وعالجه بأسلوب فلسفي، حيث أورد أن رواية شق البطن تكررت خمس مرات، وفي كل مرة تتبدل صياغتها، وآخرها أثناء رحلة الإسراء. المرة الأولى جاءت كما أوردنا أعلاه وكان ابن ثلاث سنوات، والثانية ابن عشر سنين، والثالثة كان ابن عشرين سنة، والرابعة عند مجيئ الوحي.[262]

عندما أتم العشرين ربيعا، تخبرنا الرواية الإسلامية عن أبي كعب عن أبي هريرة قال : يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله جالسا وقال : لقد سألت يا أبا هريرة، اني في صحراء ابن عشرين سنة وأشهر إذا بكلام فوق رأسي وإذا برجل يقول لرجل أهو هو، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسا، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ففلقه بما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له أخرج الغل والحسد فأخرج شئيا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم نقر ابهام رجلي اليمنى وقال : اغد واسلم، فرجعت فبها رحمة على الصغير ورأفة على الكبير.[263] ما يلفت الإنتباه هو التساؤل الذي طرحه الرجل الأول للثاني أهو هو ؟ فإذا كان هذا الرجل هو من شق صدر محمد في سن الخامسة لماذا يطرح السؤال ؟ لا شك أن الإنسان تتغير ملامحه بين فترة الطفولة والشباب، يتفيل، أي تتغير ملامحه، طبيعي إذا أن يطرح السؤال، ولكن إذا قلنا ملكا فالمسألة تختلف،

---

[261] نفسه.

[262] الشخصية المحمدية، سبق ذكره، ص 107.

[263] ص 108. منقول عن السيرة الحلبية.

لأن الملاك كائن غيبي لا يتأثر بقوانين الطبيعة، فإذا كان التساؤل صادر عن ملاك فذلك خلف، بالتالي لا يمكن أن يصدر إلا عن إنسان، خلاصة القول، لم يكن محمد متأكدا من هوية هذين الرجلين.

تتكررت الرواية في المرة الرابعة بأسلوب مغاير، وهي التي كانت عند ابتداء الوحي. روي عن النبي أنه قال جاءني جبريل وميكائيل فأخذني جبريل وألقاني لحلاوة القفا ثم شق عن قلبي فاستخرجه، ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج، ثم غسله في طست من ماء زمزم، ثم أعاده مكانه، ثم لأمه، ثم أكفاني كما يكفي الإناء ثم ختم في ظهري.[264] يتضح أن محمد هذه المرة قد سمى الأشياء بمسمياتها، لأن في المرات السابقة كان يتحدث بإبهام، فالرجلان هما الملكان جبرائيل وميكائيل، والصدر هو الذي تعرض لعملية الشق لا البطن، والشيء الذي أخرج هو الحسد والغل في هيئة علقة بعد أن كان شيئا لا يدري ما هو. نلاحظ إذن التدرج في الرواية مع اختلاف في الصياغة والأسلوب، وذلك لا يعني تناقضا أو تضاربا أو أحد هذه الروايات موضوع، بل كلها صحيحة لأنها متعلقة بتاريخية حياة محمد، بما قبل النبوة وما بعدها، ونحن قد نرجح تاريخية هذه الرواية[265]، (بعض المفسرين كالقرطبي والألوسي ربطوها بسورة الشرح) على الرغم من أن معظم ما كتبه المؤرخون عن حياة محمد قبل مجيئ الوحي هو في معظمه ميتاتاريخ، وكل ما نعلمه هو لا يتعدى الشذرات، ما عدى زواجه من خديجة ورحلته إلى الشام مع عمه وحضوره الأسواق محطات يمكن تضنيفها ضمن التاريخ، أما الباقي فقد استلهمه ابن اسحاق أول من كتب السيرة من الأناجيل والأساطير الشعبية السائدة في بيئته، وقفى البقية الأثر نفسه. أتفق في هذا السياق مع ما قاله المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون : « لو جمعنا كل ما هو تاريخ عن محمد لما تجاوز صفحة ونصف من كتاب أما الباقي فأساطير». مع أن قوله فيه مبالغة لأن الفترة التي تعد بالفعل أساطير هي ما قبل النبوة، وربما يقدم لنا القرآن إشارات واضحة عن حالته النفسية والإجتماعية قبل النبوة من خلال سورة الضحى، أما في مكة والمدينة فالقرآن وثيقة تاريخية صادقة من خلاله نستطيع دراسة المحطات الكبرى لحياته، وبالقرآن نغربل السيرة التي امتزجت فيها الأسطورة بالحقيقة.

إن رواية شق الصدر هي بداية لتمظهر النبوة، فالنبوة بمعنى نبي أي التنبؤ بما سيحدث وبالتالي فإن الشخص الذي لديه صفة النبوة ينبغي أن تكون بحوزته صفة ليست عند الآخرين، يرى مشاهد لا يراها الآخرون، ويسمع أصواتا لا يسمعها الآخرون وهي حالة نفسية قريبة جدا لحالة المتصوفة، علما أن الصوفي لا يدركها إلا بعد جهد ومكابدة نفسية عظيمة، بالإنعزال والتأمل والتعبد،

---

[264] ص 109. منقول عن السيرة الحلبية.

[265] جاء على لسان الإخباريين أن أمية ابن أبي الصلت التقى الرهبان وتوسموا معالم النبوة فيه، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة، فلما كانوا يقفون على الأجوبة، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه، لولا بعض النقص في علاماتها عنده، كما رووا قصصا عن شق طيرين لقلب أمية، لتنظيفه وتهيئة النبوة فيه. راجع المفصل في تاريخ العرب د. جواد علي ج الخامس ص 481. ننوه أن ما ذكره جواد علي جاء على لسان الأخباريين ونعلم أن الإخباري مادته أسطورية ولا تمت بالتاريخ بصلة، فالرواية تبقى محل أخذ ورد.

وذلك ما قام به محمد قبل النبوة نظرا وأنه متحنف، اعتزل أقرباءه وأصحابه، مكوث في غار حراء لفترات طويلة يتعبد ويتأمل، وهناك رأى ما لم يره الآخرون وسمع ما لم يسمعوه، وهي تجربة فردية لا جماعية.

إن هذه الرواية تسلط الضوء على أمر هام لم يتوقف عنده كثير كتاب السيرة، يتعلق بالعلامات النبوية قبل النبوة، وتوسم الناس فيه سواء المقربين منه أو الغرباء وجود علامات في محمد الصبي تنبئ كونه النبي المستقبلي، فلو كان الأمر كذلك لما فزعت حليمة السعدية مرضعته وحسبت أنه تعرض إلى مس من الشيطان، وهي الحادثة التي ذكرها ابن هشام مباشرة بعد حادثة شق الصدر تحت عنوان حليمة ترد محمدا ﷺ إلى أمه : قالت : وقال لي أبوه : يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت : فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر، وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت : قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين، قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت: نعم، قالت : كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لنبي لشأنا، أفلا أخبرك خبره، قالت : قلت : بلى، قلت : رأيت حين حملت به : أنه خرج مني نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام.[266]

نلاحظ خوف حليمة على محمد وظنها أن ما حصل له قد يكون مسا من الشيطان، في حين طمأنت آمنة والدته حليمة بالقول: أن لابنها شأنا مع عدم توضيح مغزى قولها، فقط تحدثت عن نور أضاء ما بين المشرق والمغرب لحظة ولادته، حدث منحول من الأناجيل ذو طابع الأسطوريال خوارقي. الجدير بالملاحظة، فإنه عندما سئل محمد بعد النبوة عن أمه قال إنها في النار كذلك أبوه،[267] دليل على أنهما لم يستشرفا قط إرهاصات نبوته، وهو ما يضع موضع شك روايات دلائل النبوة التي نقلها المؤرخون المسلمون، ما دفع الحلبي في سيرته بالإقرار بمعجزة إحياء الله لوالديه لكي يؤمنا به. خلاصة القول، فالسيرة المحمدية تعرضت لأعظم حملة من الأسطرة على مر القرون، وهو تجن وظلم كبيرين لسيرة رجل عاش حياة لم تخرق مجرى النواميس المادية والسنن الطبيعية.

نوبات من الصرع اعترت محمد قبل النبوة، حالة يعبر عنها أهل السير وحفاظ الحديث بقولهم« أخذه ما يأخذه عند نزول الوحي»[268]، ولا تحسب أن هذه النوبات طعن في ذهنية وعقليته ، حاشى وكلا، فقد كان ذو ذكاء عملي وحس براغماتي ممتاز، فتلك النوبات التي كانت تعتريه بنسق متقطع

---

[266] ابن هشام السيرة النبوية، ص 190.
[267] السيرة النبوية ابن الكثير ج الأول، ص 236 و 239.
[268] الشخصية المحمدية ، 114.

يعود أساسا إلى اضطرابات نفسية لم تؤثر مطلقا على المدارك العقلية لصاحبها، وكيف لرجل أن يكون غير متوازن عقلانيا وهو الذي دوخ العرب وأخرجهم من الصحاري والبراري واضعا لبنات الدولة العربية الإسلامية التي تأسست على أنقاض أعظم امبراطوريات التاريخ الوسيط ؟ وكيف لرجل أن يكون مزاجه مختل وهو الذي وحد كلمة العرب وأطر عصبيتهم القبلية بإنشاء دين جديد تجاوز مبدأ التوحيد لكل من اليهودية والنصرانية؟ إن تلك النوبات لم يستوعبها كتاب السيرة ووقفوا حائرين أمامها واعتبروها جزء من الوحي، ولكن قبل أن تكون وحيا فهي نوبات عصبية تؤدي بصاحبها إلى الغشيان. قال صاحب السيرة الحلبية : روى ابن اسحاق عن شيوخه أنه كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما يصيبه قبل ذلك، قال : وهذا يدل على أنه كان يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه الإغماء بعد حصول الرعدة وتغميض عينيه وتربد وجهه ويغط كغطيط البكر.[269]

لقد اتهم المكيون محمد بالجنون كذا مرة، إلا أن المفسرين والمؤرخين لم يفحصوا الإتهام بترو، مندفعين بحماسهم الإيماني، ناعتين قريش بالكفر لوصفها له بالجنون، ولكنه اتهام لم يصدر عن مكابرة أو معاندة، بل عن تجربة سابقة، حيث علمت سلفا أن محمد يسقط بين الفينة والأخرى مغشيا عليه، ورأت كيف تتبدل قسمات وجهه وتحمر عينيه ويتعرق وهو في حالة بين النوم واليقظة، لم تفهم قريش ما الذي يحصل معه، فهم ليسوا بعلماء نفس أو أعصاب حتى يشخصوا تلك الحالة، وبالتالي نفهم لماذا إتهمته بالجنون، فليس منطقي بالمرة أن تصفه بالجنون لأنه يتلفظ بكلام مسجوع، فكل العرب في نظرها قادرون على أن ينسجوا كلاما مسجوعا، أيعني أن كل العرب مجانين ؟ فهم أهل بيان وشعر، وليس منطقيا أن تصفه بذلك لأنه أعلن نبوته، فقريش كما قلنا والعرب كافة عرفوا ظاهرة النبوة، فليست بغريبة عنهم ولم يكونوا يروا في أنبياء بني اسرائيل صفة الجنون واعتبروهم أشخاصا مؤيدين بالمعجزات، طلبوا من محمد الإيتان بمعجزة لكي يؤمنوا به وذلك يدل كونهم لم يعتبروا الأنبياء مجانين، إذن فإن ترداد صفة الجنون في القرآن إشارة مبطنة إلى نوبات الصرع المرفوقة بالاضطرابات النفسية التي كانت فعلا تعتريه قبل النبوة وأثناء الوحي.

توجد إشارة ثانية في القرآن يمكن من خلالها تشخيص حالة محمد النفسية والعصابية وهي الآية 7/6 من سورة الأعلى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ ﴾﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾. أورد القرطبي في تفسير هذه الآية : عن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان يتذكر مخافة أن ينسى فقيل : فقد كَفَيتُكَه. وفي رواية أبي صالح عن إبن عباس : فلم ينسى بعد هذه الآية حتى مات إلا ما شاء الله. وعن

[269] نفسه، نقله الرصافي عن السيرة الحلبية.

سعيد عن قتادة : كان رسول الله لا ينسى شيئا إلا ما شاء الله. وقيل : إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك، فإذا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كليا. وقد روي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة فحسب أبَي أنها نسخت، فسأله فقال : نسيتها.[270] وواضح للعيان كون النسيان لا يعني النسخ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى هذا القول ومن بينهم القرطبي، فالنسخ هو مواكبة لمعطيات الواقع وتكيف مع الظروف الجديدة، فالمسألة ليست فتشريع حكم، لأن الحكم السابق نُسي، وبالتالي فإن النسخ عملية تجعل من النص مسايرا للمتغيرات والمتطلبات الأرضية. أما الآية التي ذكرنا فهي تتحدث عن النسيان، نسيان بعض الآيات، مقابل طمأنة الوحي بالقول إلا ما شاء الله، أي الذي سينساه الرسول من آيات هو بمشيئة الله، ومن هنا نستنتج أن نسيان محمد للآي حقيقة وليس خيالا وذلك راجع لنوبات الصرع التي تنتابه قبل وبعد الوحي، فالصرع يؤدي إلى فقدان جزئي وليس كلي للذاكرة، ولما كان الصرع حالة نفسية وعصابية لم يكن لمحمد القدرة على وضع حد لها، فهي خارج نطاق إرادته، خشي نسيان الآيات القرآنية تحت تأثيرها، ليتدخل الوحي معلنا أن علم الله ليس له حد فهو يعلم الجهر وما يخفى.

إن لغز تكرار الرواية يزول إذا قلنا أن محمدا منذ صباه كانت تغشاه تلك النوبات، وعلى هذا النحو نفهم سبب تكرارها، فالحالة ليست متعلقة بالوحي عن طريق الملاك جبريل، بل بحالة نفسية عصابية لازمته منذ الصبا. عندما كان يسقط مغشيا عليه وهو في حالة النوم واليقظة، تتمظهر له مشاهد غامضة ويسمع همسات خافتة، ولئن كانت لحالة نفسية عصابية، فإنها أخذت منحى قريب مما يعيشه المتصوفة وتجربتهم في الكشف الباطني. قال الغزالي معرفا الصوفية :« ... وعلمت أن طريقتهم (المتصوفة) إنما تتم بعمل وعلم، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله » .[271] ألا ينطبق هذا التعريف على الحنيفية والحنفاء؟ حتما فالصوفية والحنيفية لهما قواسم مشتركة، محمد تنطبق عليه هذه المواصفات لأنه منهم، ولعل ما قالته خديجة له عندما رجع مهرولا من غار حراء حتى تهدئ من روعه لهو خير دليل :« والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».[272]

ثم يواصل الغزالي الحديث عن تجربته الصوفية وهي نسخة طبق الأصل من التجربة المحمدية :« فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الإختيار، اصمم العزم على الخروج من بغداد

[270] الجامع لأحكام القرآن، أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد محسن التركي، ج 22، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 2006، ص 226-228.
[271] المنقذ من الظلال أبو حامد الغزالي، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس ص 130.
[272] تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر، ص 298-299.

ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي الرحيل ! الرحيل !».[273] هذا الصراع بين شهوات الدنيا والضمير هو ما حصل تقريبا مع محمد قبل النبوة، روى الحلبي في سيرته أنه قبل النبوة خشى الرسول على نفسه أن يكون تعرض إلى مس من الجن : " ... فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم رسول الله أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى، قالت أي أم أيمن : حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه، يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، ويقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا، فلم يزالوا حتى ذهب معهم فغاب معهم ما شاء الله، ثم رجع مرعوبا فازعا : فقلن ما دهاك ؟ قال : اني أخشى أن يكون بي لمم، فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت ؟ قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي يا محمد لا تمسه، قالت : فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ ".[274] إن الأصنام تمثل شهوات الدنيا الصادرة عن الشيطان لإبعاد الناس عن عبادة الله، في حين الرجل الأبيض يمثل الضمير النفسي المحمدي الذي كان يتمظهر له عندما تعتريه نوبات الصرع، إنه منادي الإيمان. نلاحظ إذن تقارب التجربة الصوفية للغزالي والتجربة الحنيفية لمحمد، فقد عاش فترة طويلة ممزقا بين عادات وتقاليد قريش من جهة، وتعاليم الحنيفية من جهة أخرى لينتصر في الأخير للثانية.

ثم تحدث عما رآه وسمعه وشعر به أثناء الخلوة والعزلة : « ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها (...) ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد (...) وعلى الجملة، ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الإتحاد، وطائفة الوصول ».[275] إن عزلة وخلوة محمد داخل غار الحراء، مع نبذه لعادات وتقاليد قومه وإيمانه الصادق بتعاليم الحنيفية ونوبات الصرع التي تنتابه، إضافة إلى إرادته الجامحة من أجل التغيير وإصلاح المجتمع العربي، هي عوامل اجتمعت وتلاقت، فمكنته من عيش تجربة الوحي وهو في الغار.

في حقيقة الأمر، لم يكن محمد واعيا بما يحصل له إثر دخوله في نوبة الصرع، لذلك كان يعتقد أنه قد أصابه مس من الشيطان، فتارة يغشى عليه تحت تأثير النوبات التي كانت تختلجه منذ

---

[273] المنقذ من الظلال ص 135.
[274] الشخصية المحمدية ص 127-128. نقله الرصافي من السيرة الحلبية.
[275] المنقذ من الظلال ص 139-141.

وقت مبكر، فيسمع همسات ومشاهد غامضة لا يستطيع تفسيرها، وطورا إذا اختلى بنفسه يسمع نداء ينادي يا محمد يا محمد، وهو في الحقيقة نداء الإيمان نابع من أعماق ذاته نتيجة التأمل واعتزال الناس طيلة أيام وشهور داخل غار حراء، إلا أنه لم يفهم ولم يستوعب تلك الحالة، وظن أن له قرين من الشيطان، ومعلوم أنه في المجتمع البدوي أنذاك، الكهان كانوا تحت سطوة الشياطين إلى جانب الأشخاص المنحوسين، ومحمد كان يخشى على نفسه من أن يكون كاهنا فلا شيء أشد بغضا عنده من الكهنة والأصنام. جاء عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله قال لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد. وفي رواية أرى نورا وأسمع صوتا، وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر، وفي رواية والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا قط ولا الكهان، وإني لأخشى أن أكون كاهنا، وفي رواية أخشى أن يكون بي جنون، فقالت : كلا يا ابن عم، ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله انك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم، وتصدق الحديث، وفي رواية إن خلقك لكريم.[276] يتضح إذا عدم معرفة محمد بمستقبله كنبي للعرب، فالنبوة لم تأتيه بغتة أو بطريقة عفوية، إنما توفرت عوامل نفسية؛ مرض الصرع، عوامل إيديولوجية؛ اعتناقه للتعاليم الحنيفية التي تنص على التغيير والإصلاح العقائدي والاجتماعي، عوامل إقتصادية؛ تراجع القيم القبلية أمام تعاظم الرأسمالية وظهور الطبقة الأرستقراطية، إضافة –وهو الأهم– إلى العوامل الفردية؛ أقصد زوجته خديجة. لقد لعبت خديجة دورا حاسما أدى إلى ظهور النبوة والإسلام برمته، فالفضل يعود إليها، وربما لا نبالغ لو قلنا لولا خديجة لما كان للإسلام وجود البتة.

[276] الشخصية المحمدية ص 118، نقله الرصافي من السيرة الحلبية.

الفصل الرابع عشر: دور خديجة في تمظهر النبوة

قليلة هي البحوث التي تناولت خديجة بالدراسة القائمة على منظور موضوعي مجرد من المقاربات الغيبية، منتهية إلى نتيجة مفادها أن خديجة لعبت دورا كبيرا أدى إلى ظهور الإسلام. ففي اللحظة التي رأى فيها محمد ما رأى أثناء إنعزاله عن قومه في غار حراء، خديجة كانت أول من آزرته وواسته، وحينما عاد مهرولا من غار حراء وهو في حالة ذعر لا توصف، معتقدا أن ما رآه ليس ملاكا بل شيطانا، خديجة لم تصده ولم تنبذه، إنما استقبلته استقبال الأم الحنون، وربما لو كانت امرأة غيرها لما تصرفت بذلك السلوك الرصين الحكيم الذي يعكس قوة شخصيتها وذكائها، ومدى ثقافتها الدينية والإجتماعية. لو عدنا للمصادر الإسلامية، سيرة إبن هشام أو تاريخ الطبري، سنلاحظ أنهما لم يسهبا في الحديث عن خديجة، فزواج محمد منها صادر عن القوى الغيبية، أي أن اختيار خديجة لمحمد كزوج لها غير متأت من إرادتها بل من إرادة غير منظورة لا صلة لها بالأحداث الأرضية. إضافة إلى ذلك، توجد حلقة مفرغة في جميع كتب السيرة بلا استثناء حول دور خديجة التاريخي والديني سواء في تمظهر وتثبيت النبوة أو ظهور الإسلام، فجل كتاب السيرة يقومون بقفزة سحرية تمتد بين لحظة الزواج ولحظة الوحي، وتلك ثغرة كبيرة في التاريخ تمظهر الإسلام سببها يعود إلى إقصاء المؤرخين المسلمين الفهم التاريخي للدين مقابل تكريس الفهم الميتاتاريخي الذي يفصله عن عوامله الأرضية، فالإسلام حسب زعمهم ليس نتاج مقدمات إجتماعية واقتصادية وثقافية، بل نتاج معادلة تختزل في كن فيكون، منهج ساهم في شل طاقات العقل العربي الإسلامي على الإستقراء والتفكير المتحرر من قيود المقدس الديني، وهذا المقدس هو العائق الإبستيمولوجي والتاريخي الأول في فهم الإسلام وشخصياته كظاهرة غير مخترقة من طرف غشاوة الماقبليات العقائدية.[277]

إن المقدس يسلب الشخصيات إرادتها الحرة، والمصادر الإسلامية صورت خديجة كشخصية عاشت في فترة سيطر عليها المقدس لا التاريخ، فالمقدس يجعل من الأحداث والأفعال إفرازا من إفرازات المشيئة الإلهية. لقد إصطفى محمد للنبوة والرسالة، فتحولت حياته كلها منذ ولادته إلى سلسلة من الرموز المترابطة التي تعده لتلك النبوة. تبعا لذلك، أصبحت خديجة حلقة من حلقات تلك السلسلة ورمزا من تلك الرموز فاصطبغ ذلك اللقاء بهالة غيبية. ساهم المؤرخون المسلمون في تعزيز هذا المنهج الأسطوري السحري بسرد بعض الأخبار عن خديجة، لو سجلناها في كراس لن تتجاوز

[277] دثريني يا خديجة دراسة تحليلية لشخصية خديجة، سبق ذكره، ص 11.

صفحة ونصف، تاركين عالم الواقع قاصدين عالم الخيال.[278] سوف نعيد شخصية خديجة إلى عالم الواقع كما فعلنا مع الإسلام ونشأته، علما وأن هذه النشأة سنفهمها أكثر أثناء دراستنا وتحليلنا للسور القرآنية حسب التسلسل التاريخي.

إن أول جزئية لافتة للإنتباه تستوجب التوقف عندها هي مكانة خديجة الإجتماعية قبيل ظهور الإسلام، فالمصادر الإسلامية على اختلاف مشاربها أكدت مزاولة خديجة للتجارة، ممارستها للتجارة تعكس رؤية المجتمع البدوي للمرأة، إنها لم تكن نظرة دونية كما سوقته المؤسسة الإسلامية، وهو منهج سقيم وغير نزيه، نوهنا إليه سابقا في خضم دراستنا لموضوع العرب قبيل الإسلام. كيف يمكن أن تكون منزلة المرأة وضيعة قبل ظهور الإسلام والمجتمع سمح لخديجة بممارسة التجارة؟ مهنة خولت لها إقامة علاقات تجارية مع الرجال والإحتكاك بهم. نقل إبن هشام عن ابن اسحاق : وكانت خديجة بيت خويلد امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياها، بشيء يجعله لهم.[279] نقل ابن سعد عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة بيت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي إمرأة حازمة، جلدة، شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسبا، وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال.[280] من المستبعد أن المكانة المرموقة التي حظيت بها خديجة متوقفة على نسبها، وقد وضحنا أن تركيبة المجتمع العربي تعتمد أساسا على فكرة العصبية القبلية، فجميع القبائل العربية تمارس التجارة، ثم إن بروز التباين المشط بينها سببه احتكار فئة للثروة وحرمان أخرى فلا تحصل إلا على النزر اليسير، على أيه حال فإن خديجة مثال حي يقلب الصورة المشوهة التي رسمتها المؤسسة الإسلامية حول مكانة المرأة قبيل الإسلام.

كانت خديجة تعرف العديد من الرجال وتلتقي بهم بحكم امتهانها التجارة، وفي الأثناء وصل إليها خبر محمد على لسان ميسرة أحد خدامها : وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله به من كرامته فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله، فقالت له فيما يزعمون : يا ابن عم إني رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليها نفسها.[281] وهنا نريد التعرض للعامل الذي حفز خديجة للزواج من محمد، وجلي أن الدراسة المتاتاريخية للإسلام ستقصى العوامل الموضوعية، فالمشيئة الإلهية أرادت ذلك، حدث منقوش في

[278] ص 13.
[279] السيرة النبوية ابن هشام سبق ذكره، ص 213.
[280] كتاب الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، ص 109.
[281] السيرة النبوية ابن هشام، ص 213-214.

اللوح المحفوظ، وعليه لا داعي للبحث أو النظر. ذهب الباحث خليل عبد الكريم إلى كون اختيار خديجة لمحمد ليس إعتباطيا إنما عن قصد، وأحال ذلك إلى التنبؤات حول قرب ظهور نبي في جزيرة العرب،[282] ذاكرا رواية ابن اسحاق بخصوص حديث الرهبان من النصارى والكهان العرب واليهود بأمر الرسول قبل مبعثه : وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله قبل مبعثه لما تقارب زمانه لما تقارب زمانه الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فيما وجدو في كتبهم من صفته وصفة زمانه لما كان في عهد أنبيائه إليهم فيه.[283]

إن إنتظار العرب لنبي قول يحتاج إلى إعادة مراجعة، لأنه لا ينسحب على جل العرب بل على فئات بعينها، موزعين بين اليهود والنصارى والأحناف وذلك ما وضحناه في العنصر السابق، ثم إن فكرة إنتظار نبي يترجم بانتظار مصلح إجتماعي وديني مهمته قلب أسس القبيلة التقليدية التي تختزل في العصبية، والأهم هو التمرد على القيم الرأسمالية التي تغلغلت في تفكير معظم القبائل ومن بينها قريش، فالوضعية كانت أكثر من ملائمة بالنسبة للأسر الثرية تخدم مصلحتها الإقتصادية، أضف إلى ذلك فإن الدين الصابئي التفريدي منسجم مع التوجه الرأسمالي لقريش، فما الداعي إذن للتغيير ؟ هذا عامل من بين العوامل المفسرة لتعنت قريش وما جاورها إزاء الدين الجديد ورفضها له، لأنها أدركت منذ الوهلة الأولى أنه يتعارض مع مصالحها. إن تطلع العرب للتغيير والإصلاح قول لا يجافي الصواب ولكنه نسبي، فليس كل العرب رغبوا فيه، فالوضع التجاري الرأسمالي كان يدعم نزعتهم الرأسمالية المحضة، ولو عدنا للسور المكية المنتمية للجيل الأول، الخمس سنوات الأولى من الدعوة، سنلاحظ خطابا يتسم بالإستهجان والتثريب، فالخطاب كان شديد اللهجة تجاه أثرياء قريش، ولا ننسى أن النزعة الرأسمالية ساهمت في ضمور الغيبيات والإيمان بالميتافيزيقا، ولم يعد الدين يحتل قيمة معنوية وروحية لدى الأثرياء.

بناء على رواية إنتظار العرب لنبي، تطرق عبد الكريم إلى بعض المخاريق والشعبذات المتصلة بولادة محمد ملتقطة إياها مسامع خديجة : وظلت عاما بعد عام وسنة وراء سنة تتلقى أخبار أعاجيب محمد ومعجزاته البواهر حتى أيقنت أنه هو الموعود أو المنتظر المأمول الذي طال عشق الناس وحنينهم إليه، ولهذه الأعاجيب والمعجزات والخوارق والمدهشات والمضادات للنواميس الطبيعية باب مستقل ندرسها فيه ببسط (...) لأن تلك الأمور المعجزات التي تتابعت وتوالت مع أطوار محمد منذ الولادة حتى الشباب حازت قصب السبق وكبشت (تناوله بيده) نصيب الأسد من إنتباه الطاهرة

---

[282] فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم، دار مصر المحروسة، القاهرة 2004، ص 33.
[283] نفسه.

إلى محمد وأنه فاذ لا مثيل له وفريد لا ضروب له ووحيد لا شبيه له وأنه دون غيره هو القادم والمنتظر المأمون الذي بشرت به الكتب التي ترجمها ورقة إلى العربية.[284] انطلاقا من هذا القول نفهم أن العامل التي المحفز لخديجة لمباعلة محمد هو ذلك الكوكتال من المخاريق التي تناقلتها كتب السيرة المتصلة بولادته وما بعدها، وكنا قد حللنا هذه النقطة خلال الفصل الأول، حيث مرت المخاريق بمراحل خضعت لعملية من التضخيم الأدبي جعلت منه شخصية تنتمي إلى الأساطير والفولكلور، رغم أن سيرة الرجل سواء قبل النبوة أو ما بعدها لم تخرق النواميس الطبيعية ولم تشذ عن المألوف، بيد أن كتاب السيرة عفا الله عنهم، بداية من ابن هشام وصولا إلى الحلبي، شغلتهم معضلة لاهوتية ألا وهي كيف يكون للأنبياء والرسل معجزات حسية بينما رسول الإسلام لم ترافقه أية معجزة؟ جرح أصاب نفسية كتاب السيرة وأربكهم، ولا شك أن حماسهم الإيماني وحميتهم الدينية دفعتهم بقوة إلى إبتكار وإختلاق هذه المعجزات حتى يبلسموا جراحهم النفسية، فالمعجزة هي الولوج إلى عالم الفانتازيا والخيال، إنها مخدر فكري واجتماعي تُمْنَحْ لمن نخر اليأس إرادته وضرب الوهن تفكيره، رافضا للواقع راغبا في التمرد عليه والتخلص منه، ليس بالتشمير على السواعد وعقد النية على العمل الحازم واستقراء للواقع بدراسته دراسة موضوعية، بل بتفعيل المخيلة، فتعيد إعادة تشكيل الواقع بالقص والتلصيق، التفكيك والتركيب كما يحلو لها. ما قاله د. العفيف الأخضر يلخص هذه الحالة « : من خلال القرآن بإمكان كل باحث جدير بهذا الإسم أن يزيح ركام الخرافات، التي راكمتها السيرة والمتكلمون والمفسرون ردا على نصارى بلاد الشام منذ القرن الثامن الذين عقدوهم بسؤال المحرج ؛ كيف يكون محمد نبي بلا معجزات ؟»[285]

إن اتساع الدولة الإسلامية على حساب الثقافات الدينية المجاورة كالزرادشية والمانوية والنصرانية، وضع المسلمين أمام تحد كبير يتمثل في إقناع هؤلاء بتعاليم الدين الجديد، استحالة أن يتم ذلك بالقرآن لأنه مكتوب بالعربية، إذا كان لزاما على المسلمين الأوائل أن يجعلوا لمحمد معجزات حسية مع أن القرآن يبرئ محمد من أية معجزة. سيرا على هذا المنهج، بلغ كُتَّاب السيرة مستوى خرافي في إختلاق المعجزات، محطمين الأرقام القياسية. إن المعجزات برهان النبوة، وهو ما يؤكده القرآن بذكره لمعجزات أنبياءبني إسرائيل، ولقد أشكل اللاهوتي يوحنا الدمشقي على المسلمين خلال القرن

[284] ص 34-35.
[285] من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ سبق ذكره، ص 15.

الثامن الثاني للهجرة بالقول :« كيف يكون نبيكم نبيا محاربا ؟ وكيف يكون نبيكم بلا معجزات، والحال أن المعجزات هي برهان نبوة أنبياء الكتاب المقدس ؟»[286]

التزاما بمنهجنا التاريخي المتبع في هذا الكتاب، فإن الآية 8 من سورة الضحى تزيل حجب الخوارق عن سيرة محمد ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ﴾. الآية جاءت في صيغة الماضي تعيدنا إلى فترة ما قبل النبوة، فلو رافقت الرسول سلسلة من المعجزات منذ الولادة فلن يمر بمرحلة الضلال، والضلال هنا هو أن يحيد الشخص عن الطريق المستقيم ويتيه في فيافيه المجهول، وهي إشارة كيف كان يتبع عادات وتقاليد قومه قبل تأثره بعقيدة الحنفاء، ولو كانت المعجزة حاضرة منذ ولادته لما كان عليه أن يضل، فالمعجزة هي تأييد سماوي يعكس إتصال السماء بالأرض والإلهي بالبشري، فالقول أن محمد كان مؤيدا بالمعجزة منذ البداية فإن ذلك عليه أن يزيل صفة الضلال، ثم إنه مباشرة بعد الضلال يتحقق الهُدى، هُدى إعتناق عقيدة الحنفاء والسير على دربها. فسر القرطبي الضلال بعدم الدراية بالقرآن والشرائع، أي عدم الدراية بقصص الكتاب المقدس قبل تلقيه لها من طرف الحنفاء المطلعين على اليهودية والنصرانية، والشرائع هي شرائع الحنفاء، فالإسلام كما قلنا يمثل عقيدة الحنفاء لكن بأسلوب أدبي مغاير. إن المعجزات التي أوردها كتاب السيرة لو كانت بالفعل حصلت لكانت أمارة على نبوته، والنبوة هي القرآن المتضمن للشرائع وما كان عليه أن يضل، لا سيما وأن القرآن أصبح فيما بعد معجزة نبي الإسلام الوحيدة. ولقد احتار بعض المفسرين حول مغزى هذه الآية فالتجأوا للتأويل، سلاحهم السحري للإلتفاف على الفهم الحقيقي والسياق التاريخي للقرآن، فقالوا المراد بهذا أن النبي ضل في شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع وقيل إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام، وكان راكبا ناقة في الليل، فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة على الطريق.

التوسل بحديث المعجزة يبدو وكأنه السبيل الوحيد في نظر السواد الأعظم من المسلمين عندما يصطدمون بفكرة يشتمون منها رائحة البشرية المحضة لمحمد، لأن مبتغاهم الرئيسي تحويل سيرته الذاتية إلى سيرة أسطورية، إذ جردوه من صفاته البشرية واستبدلوها بصفات شخص بين البشر والإله، وتلك شخصيات لطالما سجلت الأساطير على مختلف انتماءاتها حضورها ودورها المهم في التحكم بمجرى الأحداث الأرضية، مثل فشنوا وشيفا آلهة الديانة الهندية، إذ يتخذان شكل البشر يطلق عليهما مصطلح أفاتار أو نصف إله.

---

[286] ص 64.

إن التمعن في الآيات 6 و7 و8 و9 من سورة الضحى يكشف السير العادي والطبيعي لحياة محمد قبل النبوة، فقد حرم من حنان الأم في سن مبكرة جدا ست سنوات،[287] وبانفصاله عن أمه، ولد في نفسيته فراغا عاطفيا وأزمة نفسية حادة، فمعلوم أن الطفل الذي يحرم أو يفقد أبويه في سن مبكرة قد يؤثر على طبعه وسلوكه وحتى خُلُقِه، فما كان مصيره إلا التيتم والعيش بلا مأوى وبلا استقرار، ليستقبله ويأويه عمه أبو طالب، ثم وجد في خديجة الغنى والمأوى وكانت بمثابة الأم الرؤوم له. وبالعودة للآيات الأولى من السورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ يمكننا أن نستخلص الأزمة النفسية الحادة والعميقة التي مر بها خلال طفولته، فالتوديع هو الهجران، والقلى هي الكراهية، فمحمد كما قلنا فقد أبويه وعاش يتيما وربما لم يكن محبوبا من أمه آمنة، ما يفسر تسليمه إلى المرضعات ومن أشهرهم حليمة، فالقرآن في مجمله هو اللاشعور الباطني لمحمد ومرآة تعكس مشاعره المطمورة، لذلك فالآيات لم تأتي كردة فعل على انقطاع الوحي فحسب، إنها أيضا صدى لذكرى قديمة أليمة، ذكرى فراق أمه له بإعطائه للمرضعات،[288] وأتهم بأنه الأبتر من طرف قريش في مكة، والأبتر هو المقطوع أي مقطوع النسب، كما نعت بالصنبور، والصنبور هي النخلة التي خرجت من أصل نخل أخرى لم تغرس. لعل الآية 12 من سورة هود ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ تمحو ركام المعجزات المنسوبة لمحمد قبل وبعد النبوة، فالآية إشارة واضحة للاضطراب والاكتئاب النفسي الذي عاشه بسبب غياب المعجزة، لو أنزل عليه كنز، أي معجزة حسية كتلك التي حصلت مع الأنبياء لما كان الأمر كذلك، أما قوله أو جاء معه ملك، تعنى أيضا لو جاءت معه معجزة، يراها المكيون فيصدقوه، فمن شدة الاكتئاب النفسي، ترك أو كاد أن يترك محمد الوحي لأنه ليس بمعجزة حسية كالتي رافقت أنبياء بني إسرائيل.

هكذا يبين لنا القرآن كأصدق مصدر ووثيقة تاريخية عن الإسلام أن سيرة محمد ليست بسيرة أساطين الأساطير، بل لرجل عاش حياة عادية مجردة من كل الشعبذات والمخاريق التي نسبها له كتاب السيرة تزويقا وتهويلا وإفتراء. بعد هذا الإستطراد الذي فرض علينا فرض علينا بطريقة لا شعورية، ةأراه ضروري لكي نرد على المنهج الأسطوري الذي كرسه المؤرخون وكتاب السيرة لفهم الإسلام كظاهرة منفصلة عن الأسباب والعلل الأرضية، جاعلين الشخصيات كدمى منزوعة الإرادة تحركها القوى الغيبية، نعود الآن للسؤال : لماذا تزوجت خديجة محمد أو لماذا إختارته من دون سائر الرجال ؟ .

[287] ابن هشام السيرة النبوية، ص 193.
[288] من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ، ص 42.

إن قرار الزواج جاء بعدما سمعت خديجة عنه، ولا شك أن بصرها وقع عليه، فمحمد كان يمارس مهنة التجارة رفقة عمه أبو طالب وكانت له سفرة معه إلى الشام، ولقد ثبت أن التجارة مهنة مفتوحة تجعل ممن يزاولها يقيم علاقات واتصالات مع الآخرين ليكتشف خباياهم ومكنوناتهم. كتب ابن هشام: وكانت خديجة بنت خويلد إمرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشئ تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجارا، فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أ يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا. وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار.[289] واضح أن خديجة كانت تعرف رجالا كثر، إلا أن محمدا شد إنتباهها بفضل خلقه وأمانته، وأجمعت جميع كتب السيرة أن سن محمد عند زواجه بخديجة كان خمسة وعشرون ربيعا،[290] تحديد سنه ليس مهما، لأن العرب لم تعرف تسجيل الأعمار معتمدة على صيغة تقريبية، فالبعض يقول ثلاثة وعشرين والبعض الآخر ثلاثين، ولكن المؤكد فإن زواجه من خديجة كان بعد وفاة جده عبد المطلب واعتناقه لتعاليم الحنفاء، وهؤلاء قلة قليلة في المجتمع العربي امتازوا بحسن الخلق والسلوك، مما يفسر اختيار خديجة له من دون سائر الرجال، فخديجة تاجرة محنكة وقوافلها كثيرة، لذلك فهي تحتاج لشخص تستطيع أن تثق فيه حتى تستأمنه على ثروتها، وهذا لا يعني أن اختيارها له نابع من إشباع مصلحة مادية فحسب، بل إنها رغبت فيه ودخل قلبها، ويبدو أنها رأت فيه ملامح الشاب الذي لم يعش طفولته كما يجب، لذلك عاملته معاملة الأم تجاه ابنها ولم تعتبره كزوج بقدر ما اعتبرته ابنا لها، علاوة على تواضعه وزهده أسوة بأخلاق الحنيفية. هنا قد يعترض علينا بالقول : إن محمد لم يكن الشخص الوحيد الذي يتحلى بصفات الخلق الكريم وهناك تيار كامل عرف واشتهر بذلك وهو تيار الحنفاء، فلماذا اختارت محمدا بالذات ؟ إن ما يميز محمد عن بقية الحنفاء هو مزاولته التجارة وتعلمها من جده عبد المطلب، حيث أنه ورث عنه التجارة والتحنف بالصعود إلى غار حراء إقتفاء بأثر عبد المطلب. كانت التجارة بمثابة المنعرج الثاني في مسيرته، أما الأول فهو التأثر بالحنيفية، مهنة مكنته من الإلتقاء بخديجة والتعرف عليها، أيضا فتحت له الطريق للسفر إلى الشام والإطلاع على الأحوال السياسية والإقتصادية لكل من إمارتي المناذرة والغساسنة.

سبق وتحدثنا عن هاتين الإمارتين ودورهما السياسي في صد هجمات البدو الوافدة من الصحراء إضافة إلى غارات السلب والنهب. ولئن مكنا العرب من رسم ملامح المشهد السياسي والتحكم فيه، إلا أنهما لا يمثلان نموذج الدولة العربية المستقلة التي طمح إليها قصي ومن ثم هاشم، فقد كانا أداة في

---

[289] السيرة النبوية ص 212-213.
[290] ص 212.

أيدي الفرس والروم، فالدولة المرجوة عليها أن تنقل العرب من حياة البدو إلى حياة التحضر بإقامة السلطان السياسي على بقية القبائل والشعوب وتنزع فتيل العصبية القبلية والطبقية بين العرب، علما أن الدولة العربية الإسلامية لم تقضي عليها، بل أطرتها جاعلت منها سلاحا ضاريا يوظف من أجل التوسع السياسي بمحاربة أصحاب الملل والنحل وطي السلطان الفارسي البيزنطي. رغم أنهما لم يمثلا النموذج المثالي للدولة، ولكنهما ساهما بشكل كبير في نفث روح التحضر والفكر الديني من كتب مقدسة ورسل داخل أعماق الصحراء.[291] لا شك أن اتصال التجار العرب الدائم بهذين الإمارتين، فكرة الكيان السياسي بدأت تتبلور في أذهانهم، فالسفرة التي قام بها محمد تحت إشراف خديجة مكنته من فتح نافذة ليطل على العالم الخارجي ويكتسب مزيدا من الخبرة التجارية، أصبح لديه قدرة على التفاوض والتفكير البراغماتي، والتفكير البراغماتي هو بلا شك مفتاح نجاح الدعوة وهو ما سنوضحه في الفصل القادم.

إن كتاب السيرة بداية أقدمهم وصولا إلى أحدثهم، روجوا لفكرة حدوث خوارق وأمور ما فوق طبيعية حفزت خديجة وشجعتها للزواج من محمد، ولما كانت خديجة تستأجر الرجال في مالها بلغها صدق حديث محمد، عظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله الرسول وخرج في مالها ذلك، وخرج معه ميسرة.[292] أثناء هذه السفرة ينقل لنا كتاب السيرة ومن بينهم الطبري قصة الراهب و الشجرة[293]، حيث نزل محمد عند شجرة، يقال أنها شجرة لا ينزل عندها إلا الأنبياء، لا نعلم عن أية شجرة يتحدث، لماذا لم تذكر فصيلتها أو نوعها؟ فلفظ شجرة مجرد وعام يشمل جميع فصائل الشجر، إنه حقيقة إسمية تبقى منحصرة في اللغة لا تفيد الإحالة إلى الواقع. ثم إنها على ما يبدو حاملة لصفة استثنائية، فقط الأنبياء ينزلون عندها، إن شجرة بهذه الأهمية والظاهر أنها محببة لدى الأنبياء، ما كان على كتاب السيرة أن يمروا عليها مرور الكرام ويتجاهلون وصفها بدقة، ألم يذكر القرآن شجرة التين والزيتون وخصهما بالإسم.

حاول إبن الكثير حل هذه المشكلة بالقول : يريد - أي قول الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي – ما نزل الآن، وإلا فلم يخل أن ينزل تحتها كثير من الناس غير أنبياء.[294] لا أعلم كيف أوَّلَ إبن الكثير قول الراهب، إنه تأويل متعسف قلب معنى الجملة رأسا على عقب، فقول الراهب أوضح من

---

[291] الدين في شبه الجزيرة، سبق ذكره، ص 53.
[292] تاريخ الطبري ج الثاني، سبق ذكره، ص 280.
[293] نفسه.
[294] السيرة النبوية إبن كثير هامش الصفحة 263.

وضوح الشمس " مانزل تحت هذه الشجرة إلا نبي " لاحظ قوله "إلا" وهي أداة تفيد الإستثناء في اللغة العربية كقول مثلا: "كل شيء ينقص بالإنفاق إلا العلم". إنها هفوة كبيرة من مفسر ذو باع قد أحاط بمقاصد اللغة ونواهيها. إن قوله "ما نزل الآن" إضافة من عنده، لأنه أدرك المشكل الكامن في القصة، ذلك وأن القول أن الأنبياء فقط هم من نزلوا عند الشجرة يستوجب معرفة دقيقة لها وذكر لنوعها ، فأراد تجنب المشكل بالقول "أن الكل ينزل عندها لا الأنبياء فحسب، لتصبح غير مستثناة". على أية حال فإن الحادثة جزء من حملة الأسطرة، أسطرة السيرة وتبيان أن خديجة رغبت فيه بعد أن حكى لها غلامها ميسرة ما حصل أثناء السفرة من نزول عند الشجرة وإضلال الملكين، وذلك ما أفادت به سلوى بالحاج صالح بالقول : " لن نتعرض هنا إلى ما دار بين ميسرة وخديجة من حديث لا يدخل في باب الواقع بقدر ما يدخل في باب الأساطير النبوية إضلال الملكين وقول الراهب ".[295] عندما تقدمت خديجة لمحمد وعرضت نفسها عليه قالت : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك ووسطك (توسطك في قومك وكونك من أعرقهم) في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه.[296] السؤاالمثار هنا : إذا كانت خديجة تقدمت وعرضت نفسها عليه بسبب الخوارقيات التي تلقتها سواء من محيطه أو من ميسرة، وأدركت مسبقا أن له شأنا كبيرا أي النبي المنتظر، فلماذا لم تعلن ذلك صراحة وتقول له إني رغبت فيك لحسن خلقك وصدق حديثك وأنك ستكون القادم المنتظر مصلح الأمة. إن السبب الذي دفع خديجة لا صله له بحديث المعجزة، وما دفعها هو الوازع الأخلاقي فحسب، أضف أنها اعترضت بعراقيل للزواج منه، فقد رفض أباها هذا الزواج. نقل إبن سعد في طبقاته: أخبرنا خالد بن خداش بن عجلان، أخبر معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر أن أبا مجلز حدثت أن خديجة قالت لأختها : انطلقي إلى محمد فاذكريني له، أو كما قالت، وأن أختها جاءت فأجابها بما شاء الله، وأنهم تواطئوا على أن يتزوجها رسول الله، وأن أبا خديجة سقي من الخمر حتى أخذت فيه، ثم دعا محمدا فزوجه.[297] ونقل الطبري في تاريخه : قال الواقدي : ويقولون أيضا إن خديجة أرسلت إلى النبي تدعوه إلى نفسها – تعني التزويج– وكانت إمرأة ذات شرف، وكان كل قريش حريصا على نكاحها قد بذلوا الأموال لو طمعوا بذلك، فدعت أباها فسقته خمرا حتى ثمل، وتحرت بقرة وخلقته بخلوق، وألبسته حلة حبرة ثم أرسلت إلى رسول الله في عمومته فدخلوا عليه فزوجه، فلما صحا قال :

---

[295] دثريني يا خديجة المرجع السابق، هامش الصفحة 56.
[296] ابن الكثير السيرة النبوية، ص 263.
[297] الطبقات الكبرى ابن سعد المرجع السابق، ص 110

ما هذا العقير ؟ وما هذا العبير ؟ وما هذا الحبير ؟ قالت : زوجتني محمد بن عبد الله، قال : ما فعلت أني أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش، فلم أفعل.[298]

بعض كتاب السيرة دحضوا هذه الرواية واعتبروها ضعيفة، ونحن لن نخوض في الضعيف والصحيح لأنه كما أكدنا سابقا ليس بعلم موضوعي إنما ذاتي متعلق بنفسية وفكر المؤرخ ولا يقيم للواقع وزنا. من المؤكد أن خديجة لاقت عراقيل في زواجها من محمد، أولا لأنها صاحبة جاه ومال، أما محمد شاب فقير ذو فاقة ليس لديه ما يقدمه لها، ثم ماذا سيقول المحيطون به ؟ إن محمد تزوج خديجة إمرأة تفوقه سنا طمعا في مالها وطلبا في جاهها وهو المعروف بالزهد والتواضع وأخلاق الحنيفية، لذلك أبى الزواج من خديجة في بداية الأمر، مع أن بعض كتاب السيرة مثل ابن الكثير وابن هشام، ذكروا أنه عندما جاءه طلب الزواج، إستشار مباشرة أعمامه فحضي بالموافقة ثم تزوج منها. من جهة ثانية، نجد في بعض المصادر أنها أرسلت إلى محمد مراسل عديدة ومن أبرزهم امرأة تدعى نفيسة.[299] ومهما كان الأمر عليه، فإن الظروف المحيطة بزواج خديجة من محمد دارت بشكل إعتيادي منسجم مع النواميس الإجتماعية والأخلاقية لذلك الزمان، سبب الزواج لا صلة له بحديث المعجزة أو بالتنبؤات التي إلتقطتها مسامع خديجة، فهي لم يكن لديها علم مسبق بأنه سيكون نبي العرب المنتظر، نعم كانت تعلم أنه على خلق عظيم وتواضع شديد وزهد كبير، رأت فيه ملامح الطفل اليتيم المفتقد لحنان الوالدين، وسوف نوضح كيف أن خديجة هي من ألهمته بفكرة النبوة.

لعله وراء إختلاق حديث المعجزة محاولة للتعتيم على مكانة المرأة في المجتمع العربي عشية ظهور الإسلام، فالظاهر أن خديجة هي من اختارت زوجها وليس العكس، ما يفند الفكرة الشائعة كون المرأة قبيل الإسلام مسلوبة الإرادة وغير حرة، فخديجة تمثل نموذج المرأة ذات الشخصية القوية المالكة لحرية الإختيار والقرار، ونخطئ لو قلنا إنها إستثناء، فمن غير المنطقي القول إن المجتمع العربي البدوي لم يعرف سوى خديجة كإمرأة ذات مال وجاه، كما لا يمكن التحجج بثروتها الطائلة كتبرير لهذه المكانة الاجتماعية وبالتالي السماح لها باختيار زوجها، ذلك وأن ثروتها لم تكن بنفس حجم ثروة كبار أثرياء قريش من الطبقة الأرستقراطية أمثال الوليد بن المغيرة وأبو سفيان.[300]

بعد أن تم ذلك الزواج ندخل في مرحلة من الغموض، جل كتاب السيرة أهملوا تلك الفترة التي تبدأ بالزواج وتنتهي بحدث غار حراء. إن خديجة لم تكن زوجة فحسب، لد لعبت دور الأم التي تواسي

---

[298] تاريخ الطبري، ص 282.
[299] فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، ص 48.
[300] دثريني يا خديجة ص 37.

إبنها في الصراء والضراء، وتصرف عنه الإكتئاب والذعر نظرا وأن محمد حرم كما من حنان الأم ولم يعرف أباه، فطبيعي أن يعيش فترة عصيبة من الإضطراب النفسي، ونوبات الصرع التي كانت تختلجه بين الفينة والأخرى عمقت تلك الأزمة. لاحظ كتاب السيرة والباحثون العرب المختصون في التاريخ الإسلامي، أن خديجة كانت أكثر من زوجة واضعين إبهامهم على طبيعة العلاقة بين خديجة ومحمد: "تزوج محمد من السيدة خديجة بنت خويلد التي وهبته إخلاصها وحنانها ".[301] وقولهم : " إنها لتذوب رحمة به وحنانا وإشفاقا عليه وخوفا."[302] ونحن نستشف من هذه الكلمات مشاعر الأمومة، ويبدو أن التعبير الذي وظفه القرآن هو الأمثل والأنسب من خلاله نفهم أكثر طبيعة هذه العلاقة، إنه فعل "دثر". حينما رجع مهرولا من غار حراء خائفا مضطربا من المشهد الذي رآه، سارع للإرتماء في حضن خديجة وقال لها : "دثريني يا خديجة". إنها صورة مفعمة بالمشاعر والمعاني الروحية يتجاوز المعنى الظاهر إلقاء الغطاء والدثار، فخديجة بمثابة الملجأ أو الملاذ، إنها الأم الرؤوم.[303] إن الصورة التي تناقلها كتاب السيرة توحي وكأن محمد لم يزل صبيا ارتمى في حضن أمه باحثا عن الأمان والطمأنينة، فالحدث الذي عاشه أصابه بالذعر والخوف الشديدين، شعر بالموت عندما غَتَّهُ جبريل ثلاث مرات، في المقابل فإن خديجة الأم تحميه وتغطيه غطاء الرأفة والحنان.[304]

أهمل كتاب السيرة المدة الزمنية التي امتدت بين لحظة الزواج ولحظة الوحي. رأى بعض الباحثين من بينهم خليل عبد الكريم أنها فترة التكوين لمحمد أي فترة الإعداد للنبوة، ونحن نتفق مع هذا الرأي،[305] غير أنه نرفض أن يكون هذا الإعداد مقصودا، بمعنى أن خديجة وابن عمها ورقة قاموا بتدريس محمد قصص التوراة والإنجيل، فالإسلام كما قلنا هو دين هدفه منذ البداية تجاوز التوحيد اليهودي النصراني، لا ننكر أن الإسلام متأثر بكبرى التعاليم الديانتين السابقتين، ولكنه يبقى تجربة محمد الفريدة. لقد نهل من المعتقدات السائدة في شبه الجزيرة وصاغها بأسلوب أدبي وفلسفي منسجم مع روح الثقافة العربية.

كانت شخصية خديجة عاملا أساسيا أدى إلى ظهور الإسلام وتمظهر النبوة، لأن الزواج منها وفر له الوقت الكافي للتأمل والتفكير في قضايا ومشاكل المجتمع العربي، والجدير بالذكر، فإن رغبته الملحة من أجل التغيير والإصلاح إكتملت معالمها خلال هذه الفترة، نظرا وثروتها وجد الإستقرار

---

301 فترة التكوين في حياة الصادق الأمين ص 81.
302 نفسه.
303 دثريني يا خديجة المرجع السابق، ص 76.
304 ص 77.
305 فترة إنقطاع الوحي التي قدرها معظم كتاب السيرة بثلاث سنوات هي فترة الإعداد الفعلي للنبوة.

والهدوء، عرف بحبوحة العيش، حيث نقلته خديجة من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء.[306] نقل خليل عبد الكريم ما قالته الباحثة المصرية بنت الشاطئ حول فترة التكوين : (...) فمنذ أن إستقرت به الحياة في رعاية الزوجة الرؤوم وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي، أتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلى التأمل وميل إلى التفكير.[307]

تأمل محمد وفكر في المعتقدات المنتشرة في المحيط المكي مثل النصرانية، لا شك أن ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة حاور محمد وتحدث معه في قضايا الدين وعادات وتقاليد القوم، والرجلين كانا على توافق تام، محمد متحنف وورقة نصراني، مع أن بعض الروايات تقول أنه من الحنفاء، ولكن الأرجح كان نصرانيا. إن نصرانية ورقة هي في نظر الكنيسة هرطقة، فهي منشقة عن الدين الرسمي الذي يؤمن بصلب وتأليه المسيح، إذ أن نصرانية ورقة تمثل البرعم الأول للعيسوية قبل أن يكلف بولس بنشر عقيدة المسيحية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، لقد تحدثنا عنها حيث وضحنا أنها عقيدة تنكر التثليث وتؤمن بعدم ألوهة المسيح أو صلبه ، وهو ما يفسر تأثر الإسلام بهذا المعتقد وتردده في القرآن.

نوهنا سابقا كون نصارى الجزيرة كانوا ينتظرون نبيا على عكس الحنفاء فهم يرجون ظهور نبي منهم حتى يصلح المجتمع العربي الذي تفشت فيه قيم الرأسمالية مع تحقيق التوحيد السياسي، أما بالنسبة للنصارى تصحيح العقيدة التي أفسدتها الكنيسة بإدخالها التثليث، وورقة هو بلا شك من بين المنتظرين لهذه اللحظة، لحظة ظهور النبي، لذلك تحمس كثيرا عندما قصت له خديجة ما حصل مع زوجها ليثبت نبوته مباشرة وبلا تردد. خلاصة القول، فإن ورقة لعب دورا هاما من أجل ظهور الدين الجديد، نظرا وكونه إبن عم خديجة، كانت شخصية قريبة جدا منه، ونحن لا نلمح لفكرة كون ورقة لَقَّنَهُ القرآن، حاشا وكلا، فالقرآن هو تجربة محمد الفريدة من نوعها الرامية للتغيير والإصلاح، وهو بمثابة الوثيقة التاريخية الصادقة، وشاهد العيان المرافق لصاحبة، الذي يعكس تقلباته الفكرية والنفسية. إن علاقته بورقة ما كان لها أن تكون لولا وساطة خديجة، فورقة بفضل إطلاعه الواسع على الديانتين اليهودية والنصرانية ومعرفته الإنجيل والتوراة، حفزه على الإلتقاء بتعاليم هذه الديانات، علما وأنه كان متحنفا ممتعضا من عادات قومه، مما جعله يبحث عن دين آخر يكون كمقدمة للإصلاح الإجتماعي والإقتصادي.

نعود لشخصية خديجة ودورها الريادي في ظهور الإسلام وتمظهر النبوة. إن ثراءها وفر لزوجها الوقت كي يذهب للتأمل والتحنف في غار حراء، وقد كان ذهابه للغار مكثفا قبيل حدث الوحي وخاصة

---

[306] فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، ص 264.
[307] ص 263.

في شهر رمضان، يطعم المسكين ويطوف بالكعبة ثم يرجع إلى بيته. قال إبن اسحاق : حدثني بن كيسان قال : فكان رسول الله يجاور أي يعتكف، ذلك الشهر في كل سنة، يطعم ما جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته.[308] اطعامه المساكين في كل مناسبة عند صعوده إلى الغار، قول نستخلص منه أمرين، الأول ؛ المال الذي ينفقه على هؤلاء المساكين هو مال خديجة بالتأكيد، لأنه كان فقيرا وليس باستطاعته فعل ذلك، وكأن خديجة ساعدته على الذهاب إلى الخلوة من أجل البقاء لفترات طويلة بعيدا عن بيته للتعبد والتأمل وذلك يذكرنا بالتجربة الصوفية، هنا يتجلى دور خديجة الريادي حيث علمت سلفا أن زوجها من الأحناف، والأحناف كانوا يرجون مجيئ نبي لكي يصلح المجتمع العربي ويحدث ثورة عقائدية، ونحن لا نستبعد فكرة أن خديجة حدست وليس علمت، أن ما يقوم به محمد هو سير على خطى الأشخاص البارزين في مجتمعاتهم الذين نبذوا العادات والتقاليد طامحين للتغيير، الأنبياء هم خير مثال على ذلك، فأول خطوة حتى يصبح النبي نبيا هو إعتزال القوم، والتدبر في قضايا العقيدة والمجتمع، والتأمل المجرد، وهو ما يفسر مسارعتها في طمأنة محمد عندما رجع مرتجفا خائفا وبشرته بالنبوة. لا شك أنها كانت مشغولة بقضايا مجتمعها وبضرورة إصلاحه، منفتحة على مشاكله، لذلك نستبعد أنها كانت ترى في مساندتها له مساهمة لتحقيق هدف، تتجاوز شخصها كزوجة لتستجيب لحاجة مجتمعها.[309] الثاني ؛ إطعام المساكين يعكس الهوة الإجتماعية والإقتصادية السائدة في المجتمع العربي عشية ظهور الإسلام، وكنا قد تعرضنا للعصبية الطبقية ومما مثلته من خطورة إزاء قيم التكافل والمساواة بين الأفراد، تعاظم ثروة المستفيدين من التجارة مع تعاظم شجعهم مما أدى إلى تفريخ الفقراء والمعدمين، فإطعام المساكين فيه رمزية مبطنة، ألا وهي سخط محمد على الطبقة الأرستقراطية المكية، راغبا في إعادة توزيع عادل للثورة، وذلك لن يتم إلا عبر الدين الجديد.

نأتي الآن للحدث الأبرز وهو نزول الوحي على محمد في الغار ثم رجوعه مسرعا إلى بيته : وانصرفت راجعا إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مضيفا إليها، فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكة ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.[310] إن جلوسه على فخذ خديجة، يوضح أكثر طبيعة العلاقة بينهما، إنها تقوم على مشاعر الأمومة، الأم

[308] ابن هشام السيرة النبوية، ص 267.
[309] دثريني يا خديجة ص 84.
[310] ابن هشام السيرة النبوية، ص 269.

الرؤوم التي تخشى على ابنها أن يصيبه مكروه وفي حالة إصابته تواسيه وتشد مئزره، علاقة الأم بابنها لا يمكن أن تكون علاقة الند للند إنما علاقة التابع بالمتبوع، فالجلوسعلى فخذها يضعنا أمام مشهد طفل الذي يحتمي بأمه لكي تدافع عنه. ما يلفت الإنتباه أكثر هو قولها : "إني **لأرجو** أن تكون نبي هذه الأمة". إن خديجة لم تقل إنك نبي هذه الأمة، بل قالت لأرجو أي أن الأمر غير محسوم إنما إحتمالي، وهو يدعم ما تفضلنا به آنفا بالقول أن خديجة لم تعلم مسبقا كون محمد هو القادم المختار، والفضل يعود لمشاعر الأمومة، ولو كانت العلاقة مفتقدة لمثل هذه المشاعر ما كان للنبوة أن تتمظهر ولا للإسلام أن يظهر.

دعنا نفترض إمرأة أخرى في مكان خديجة، هل كانت ستواسيه وتثبته، أو بالأحرى تلهمه فكرة النبوة؟ إن علاقة خديجة بمحمد علاقة إستثنائية مما يدفعنا للجزم أنه في صورة تزوجه بامرأة غيرها ما كانت لذلك أن يحصل، ببساطة لأن علاقته بها تقوم على مشاعر الأمومة، ولو كانت زوجة أخرى لقالت له مثلا إنك تتوهم أو تتخيل أو مسك شيطان، وما ظهر رسول عربي يدعو إلى دين الإسلام. إن خديجة مثل الحنفاء، ترجت ظهور نبي، بعد تدحرج المجتمع العربي في فيافيه فوارق إجتماعية مشطة، واقع كان يستدعي ظهور شخصية قوية تغير مجرى الأمور بإحداث ثورة كبرى، وعليه، نفهم لماذا كانت متحمسة لفكرة النبوة.

مباشرة بعد أن طمأنته وثبتته بالقول أن ما حصل معه قد يكون إرهاصا من إرهاصات النبوة، هرولت إلى ورقة بن نوفل، نقل إبن هشام الخبر قائلا : ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله أنه رأى وسمع، فقال روقة بن نوفل : قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقيني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له : فليثبت.[311] يتضح هاهنا عدم تيقن خديجة من نبوته، ولو كانت، فما الداعي للذهاب إلى ورقة للتأكد من الأمر، إنها ترجت ظهور نبي، وفي الرجاء إحتمالية لا حتمية. رغم عدم تيقنها من النبوة، ساندت زوجها وأعانته معنويا على تجاوز أزمته النفسية، إنها جزئية مهمة تحتاج إلى وقفة وتأمل، لأنها ليست إعتباطية، بل لأن خديجة مطلعة على الديانات السائدة في المجتمع العربي وخاصة اليهودية والنصرانية، امتلكت معرفة واسعة بقصص الأنبياء وبالروايات التوراتية، إضافة إلى قربها من ورقة بن نوفل، إذ أن كتاب السيرة أجمعوا على نصرانيته وإلمامه بالتوراة. عندما إستقبلت خديجة محمدا لم تتفاجأ بما سمعته ورأته، ومباشرة دثرته بدثار مشاعر وعواطف الأمومة وبشرته

[311] ص 269-270.

بالنبوة، ولعل القارئ الغير ممحص، سيمر مرور الكرام أمام هذا المشهد الغريب، وسيبرره بحديث الطلاسم والمعجزات.

إعتقد محمد أنه تعرض إلى مس من الجن مما يحيلنا إلى نوبات الصرع التي كانت تعتريه أثناء اليقظة، لكن المشهد المهيب الذي رآه كان في المنام وليس في اليقظة كما سنبين لاحقا، مما يعني أنه لم تراوده ولو للحظة فكرة النبوة أو أن ما وقع له هو إرهاص من إرهاصات النبوة ظانا أنه الجنون، وحتى بعد الخبر الذي جاءه على لسان خديجة بأنه القادم المنتظر، ظل معتقدا كون ما حصل له ليس سوى مس من الجن، اعتقاد لم يتبدد قط، لقد أشار صاحب الكشاف الزمخشري أن العرب كانت تعتقد أن سبب الصرع هو مس من الشيطان. نقل الطبري الخبر قائلا : (...) فجاء إلى خديجة فقال : يا خديجة ما أراني إلا قد عرض لي (يقصد أصابني مس من الجن)، قالت : كلا : والله ما كان ربك يفعل ذلك بك، ما أتيت فاحشة قط.[312] أنظر ردة فعل خديجة الحاسمة، كأنها حدست أن زوجها سيكون له شأن عظيم، فهو الذي يطعم المسكين، يؤدي الأمانة، يساعد الضعيف، وينبذ شرب الخمر وعبادة الأصنام، فردت عليه ردا حاسما جازما ينفي مس الجن ويدعم ضمنيا فكرة النبوة.

لا نتفق في هذا المقام مع ما قاله الرصافي أن فكرة النبوة حصلت لمحمد عن طريق هجر عادات وتقاليد قومه ومن خلال حادثة نكوصه لكي يحضر عيدا لتعظيم الآلهة، ولكن عندما إقترب من صنم سمع صوتا يجزره عن فعل ذلك.[313] لا أعلم كيف لم يخطر ببال الرصافي أن فكرة النبوة تعد ظاهرة شائعة في المجتمع العربي قبيل الإسلام سواء في مكة أو في المدينة، وربما في المدينة حضورها أبرز نظرا وتمركز كبرى القبائل اليهودية، محمد كان يعلم بظاهرة النبوة وبتعاليم الديانتين السابقتين، وربما سيعترض علينا بالقول إنه كان أميا ؟ فنجيب : إن الثقافة العربية قبل الإسلام ثقافة مشافهة وليست مكاتبة، والقرآن كان يحفظ ولقن شفويا، فلماذا لا تعترض على هذه وتعترض على الأخرى، فإذا ثبت أن العرب ثقافتهم ثقافة مشافهة، أمية محمد تصبح حجة لا معنى لها، لأن السمع والترديد كفيل بالتعرف على المعتقدات السائدة في المجتمع العربي، علما وأنه توجد اعتراضات على أميته، سنتطرق إليها في الفصل القادم.

بقي محمد شاكا في نفسه وفي حالة نفسية جد مضطربة معتقدا وأن ما رآه شيطانا وليس ملكا، وهنا يتجلى دور خديجة الحاسم، فقد لعبت دور المحفز لحدث النبوة حتى يبلغ الذروة ولا يخفت، مبددة له شكوكه، ولو كانت زوجة غير خديجة لتعاملت مع الحدث ببرودة وبلا حماس، وما كانت

---

[312] تاريخ الطبري ج الثاني ص 299-300.
[313] الشخصية المحمدية المرجع السابق ص 128-129.

النبوة من نصيبه، ونحن بهذا القول نستقرئ عاملا آخر جعل من محمد نبيا من دون سائر الأحناف، ألا وهو ذكاء وعزم خديجة وحبها له، والتعامل معه وكأنه إبنها الفاقد لحنان الوالدين. وها هي تشد عزمه مرة أخرى بعد ذهابها إلى ورقة، إنها طريقة ذكية تقطع وأن علاقتها به علاقة أمومة لتتمظهر النبوة وتثبت على يديها. قال إبن اسحاق : وحدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير : أنه حُدِثَ عن خديجة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله، أي ابن عم أتستطيع أن تخبرني به. فجاءه جبريل كما كان يصنع، فقال رسول الله لخديجة : يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني، قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخدي اليسرى، قال : فقام رسول الله فجلس عليها، قالت هل تراه ؟ قال نعم، قالت : فتحول فاجلس على فخدي اليمنى، قالت : فتحول رسول الله فجلس على فخذها اليمنى، فقالت : هل تراه ؟ قال: نعم، قالت : فتحول فاجلس في حجري ؟ قالت : فتحول رسول الله فجلس في حجرها، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم، قال : فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله جالس في حجرها ثم قالت له : هل تراه ؟ قال : لا، قالت : يا ابن عم اثبت وابشر، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.[314]

إنها طريقة حصيفة وأسلوب ذكي استعملته خديجة لتبين لمحمد بالتجربة العملية لا بالقول النظري أن ما رآه ملكا وليس شيطانا، نبوته متوفقة على نجاح خديجة في إزالة شكوكه حول هوية الشيء الذي تمثل له، ولو لم تنجح في ذلك ما كان لدين يدعى الإسلام أن ينشأ. إن الطريقة المستعملة تفيض بمشاعر الأمومة والحب والحنان، هنا نذكر ما كتبته بنت الشاطئ حول علاقة خديجة بمحمد – علاقة كانت كفيلة لكي تلهمه فكرة النبوة أو بالأحرى نقول لقد أصبح محمدا نبيا بفضل خديجة– حيث كتبت : " (...) وضمته إلى صدرها وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة في قلبها، واستشعر الراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق إلى فراشه فتضعه فيه كما تفعل أم بطفلها الوحيد وتهدهده بصوتها الحلو وتنشر على مضجعه أسنى الأحلام. وتلقته خديجة من صحوه بين ذراعيها وحدثته بما سمعت من ورقة بن نوفل، المرجعية الذي طفق يتابع التجربة عن كثب ويشير على الطاهرة بما تفعله في كل مرحلة فرنا محمد إليها مليا بنظرة تفيض شكرا وامتنانا".[315] فعلت خديجة ذلك لأن محمد مازال يعتقد أنه واهم ومجنون، فتصرفت تصرفا يبين قطعا أنها لبيبة، فهي كالأم من ناحية والحكيمة من ناحية أخرى، تضعه على فخذها الأيسر فالأيمن ففي حجرها كما تضع الأم طفلها، وهو يطاوعها كما يطاوع الطفل أمه.[316]

---

[314] ابن هشام السيرة النبوية ج الأول ص 270-271.
[315] فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، ص 81-82.
[316] دثريني يا خديجة ص 83.

الرواية الموالية التي نقلها ابن هشام من على لسان ابن اسحاق تتضمن وصفا لا مثيل له يكشف وبلا مماحكة أو مشاكسة أن محمدا كان يرى في خديجة الزوجة الأم. قال ابن اسحاق : وقد حدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث، فقال : قد سمعت أمي فاطمة بنت حسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أني سمعتها تقول : أدْخَلَتْ رسول الله بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبريل، فقالت لرسول الله : إن هذا لملك، وما هو بشيطان.[317] فأية صورة نقلتها فاطمة بنت حسين ؟ أليست ذو دلالة رمزية ؟ ففي إدخالها لمحمد بينها وبين درعها صورة توحي بالإتحاد والحلول بين جوهرين على الطريقة الصوفية. هكذا نستبين أهمية خديجة الحاسمة في ظهور النبوة فهي التي عاضدته وساندته ولولها ما كان لمحمد أن يكتسب الثقة في نفسه، ولبقي يعتقد أن ما رآه في الغار جن وليس ملكا، ففي صورة بقاءه على تلك الحال هل ستتوفر فرصة ثانية لمحمد لكي ينال النبوة ؟ شخصيا أشك في ذلك، لم أبالغ إذن عندما قلت لولا خديجة ما كان للإسلام أن يوجد أصلا.

أحاديث كثيرة في التراث الإسلامي تصف خديجة بأوصاف جعلتها في مقام القديسين، وطبيعي أن يكون محمد ممتن لها فالفضل يعود إليها، إذ أعانته في تجاوز محنته النفسية ووهبته الثقة في نفسه، لأنه كما أوردنا لولاها لبقي يعتقد أنه تعرض إلى مس من الجن، وبقي وفيا لذاكرتها حتى بعد موتها بسنوات واكتسابه للأزواج وأملاك اليمين، وكان دائما يذكرها بخير ولا شيء يغضبه ويحثه على الحنق هو التعرض لها بكلمة فيها مس أو خدش لذاكرتها، وأشهر تلك الروايات عندما قالت في حقها عائشة كلاما أزعج محمدا وأغضبه " إنها عجوز حمراء الشدقين وإن الله أبدله خيرا منها " فصكها بقوله : " إنه غير صحيح بالمرة وأن الله لم يبدله خيرا منها، فقد آمنت حين كفرت قريش بي وواستني بمالها وآزرتني ورزقت منها الولد في حين أن أي واحدة من النساء التسع لم يفعل".[318] لم يكتفي محمد بالدفاع عن ذاكرتها بل إعتبرها خير نساء الخلق مع مريم أم يسوع المسيح وآسيا إمرأة فرعون، عن ابن العباس قال: قال رسول اللهﷺ: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ومريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون.[319] ولا عجب عندما إنتقلت إلى الرفيق الأعلى أصابه حزن شديد إلى حد المرض، ناهيك أنه سمى عام رحيلها بعام الحزن.

أرغب هاهنا بأن أدلي بدلوي في قضية لطالما شغلت أذهان الباحثين المسلمين وأرهقتهم وسببت لهم حرجا أمام تيار الفكر الحر والمنتقدين للديانات، قضية زواج محمد بأكثر من أربعة إضافة إلى أملاك اليمين، ربما مفتاح الجواب على هذا السؤال كامن في خديجة، حيث بينا بالأدلة الواضحة

---

[317] السيرة النبوية ص 271.
[318] فترة التكوين في حياة الصادق الأمين ص 88.
[319] ص 89.

والإشارات الدامغة أنها لم تلعب دور الزوجة بقدر ما كانت الأم الرؤوم، والرجل قبل أن يتزوج يرى في أمه نموذجا يحتذي به ويأمل أن تكون زوجته المستقبلية كأمه، شعور يفسر كثرة نسوته وأملاك يمينه بعد الهجرة لأنه ببساطة كان يبحث عن زوجة كخديجة تهبه حنان وعواطف الأمومة.

الباب الرابع

مكة

يا معشر قريش أعطوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

عتبة بن ربيعة

أعطوني كلمة تدين لكم بها العرب وتخضع لكم بها العجم.

الرسول محمد بن عبد الله

والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر.

الرسول محمد بن عبد الله

إلى حد هذا المستوى من هذا البحث، أظن أن القارئ لا حظ وبشكل لافت وأننا نتبع منهجا منظما يعتمد على التدرج التاريخي، فمثلما بينا منذ البدايات لا وجود لفكرة أو دين مسقط من فراغ ومن دون ممهدات، محاولة فصل الدين عن أسبابه الأرضية لم يعد مقبولا اليوم وعلينا العمل على تقديم فهم وقراءة جديدة تتفق مع روح العصر. تلك هي إذا الأسباب والعوامل الوضعية التي ساهمت في إندلاع ثورة عقائدية فكرية لواءها الدين الإسلامي بقيادة محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم شعارها لا معبود إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولست أول من تحدث عن ذلك بل إن المكتبة العربية تحتوى على مثل هذه البحوث إلا أنها على استحياء، اصفرت أوراقها و الغبار تراكم على واجهتها.

في الفصل الأول وضحنا أهمية المنهج التاريخي في دراسة الدين بصفة عامة وفسرنا لماذا يتوجس معظم المسلمين من إخضاع الدين لمنطق التاريخ، ورأينا كيف أن القرآن الركيزة الأولى للإسلام منسجم من ألفه إلى يائه مع الصيرورة التاريخية، ثم بدأنا الفصل الثاني بدراسة تاريخية في أسلوبها فلسفية في مقصدها الغاية منها إستقراء الوضع السياسي والإجتماعي للمجتمع العربي قبل الإسلام، وفي تطبيقنا للمنهج التاريخي تطبيق للمبدأ الذي ألزمناه على أنفسنا ؛ لا شيء يولد من فراغ، وأن الأفكار حتى يكون لها معنى ومقصد عليها أن تخضع للترابط(Association)، وهو ما أكده الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزي هيوم، فالمؤرخ عليه أن يحاول قدر الإمكان ربط الأحداث والوقائع ببعضها البعض ملتزما بقانون السببية حتى يضفي تدرجا منطقيا وسلسا لما يكتبه، يفهمه القارئ ويستوعبه محافظا على نظام أفكاره، فالمؤرخ يجب أن يكتسب المنهج الفلسفي .

أشرت في المدخل إلى بعض نظريات مدرسة الإستشراق الجديدة بهدف التعقيب والرد على أفكارهم، ولم أفعل ذلك للدفاع عن المؤسسة الإسلامية التقليدية أو للذود عن التراث، بل لأن الأدلة التاريخية والمنطقية تقوض تلك النظريات، كما أنني فعلت ذلك لأن الدراسة التي أنوي عرضها منسجمة مع الإطار الزماني والجغرافي المتعارف عليه، وأن محمد هو الشخصية التاريخية الوحيدة على عكس بقية الأنبياء. ثم إن القول بنشأة الإسلام خارج محيط الجزيرة العربية يتعارض تعارضا صارخا مع بنية القرآن. في فصل الرابع لاستكمال المنهج التاريخي ووظفناه لتقصي مراحل التكوين لكل من مكة والكعبة، فهما مهبط الدين الجديد محاولين نزعة نفحة الميتاتاريخ، لنصل إلى قبيلة قريش ودراسة بداياتها فنظام التقريش والإيلاف. صيرورة تاريخية أفضت إلى ثورة إجتماعية دينية بقيادة قصي بن كلاب ثم هاشم ثم عبد المطلب، شخصيات عملت على تجسيد فكرة الكيان السياسي الموحد عبر

توحيد القبائل، إلا أن التجارة التي عَوَّلَ عليها هاشم أصبحت عامل تفرقة، ظرفية أفرزت ما يسمى بالتيار الحنفي وهو تيار إصلاحي وكمحاولة لكبح جماح تقهقر عجلة التاريخ إلى الوراء، فالتاريخ حركة إلى الأمام، يتقدم حتى يفرز ضرورة الإصلاح الديني نتيجة التناقضات الإجتماعية الصارخة. ثم تأتي العوامل الفردية، وهما ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد. كانت خديجة على دراية بمعتقدات كبرى الديانتين الإبراهيميتين اليهودية والنصرانية والفضل يعود لابن عمها ورقة، وهي كما رأينا ساندت محمد بكل ما تملك، السند المادي والمعنوي، لتنمو في آخر المطاف الثمرة وتنضج وأصبح ممكنا قطفها، فالنبوة هي الثمرة، وقطافها يعنى نضجها على يدي خديجة. على مر الفصول السابقة قمنا بتتبع النسق التاريخي للإسلام، وصولا إلى الذروة ألا وهي تحقق النبوة. هنا نحن على أعتاب صيرورة تاريخية جديدة، مختلفة عن الأولى وأشد تعقيدا، إنها السلم التطوري للدين الجديد. ل**م يبرز الإسلام دفعة وبغتة، تعاليمه من تشريعات ومحرمات أوامر ونواهي، لم تسقط جاهزة من السماء، لقد مرت بمراحل متدرجة، مرتبطة إرتباطا وثيقا بالواقع والظروف الأرضية المحيطة به، وفي تتبعنا لهذه الصيرورة سنقوم بتشخيص الحالة النفسية المحمدية، فالقرآن مرآة تعكس طبيعة ناقله، وهو شاهد عيان وناقل للأحداث التاريخية.** إنه تجربة محمد الفريدة، إذ لم يتلقى القرآن من شخص بعينه، إنما هو مجمل الأفكار والإعتقادات والمبادئ التي نَظَّرَ لها بعد تأثر دام طويلا بالثقافة السائدة خلال القرن السابع.

إن رسم معالم صيرورة الدين الجديد لن تتم إلا بالإستناد على المرجع والركيزة الأولى المؤسسة له وهو القرآن، ولكن دراسة كيفية تطور الإسلام مستحيلة في ظل الترتيب الحالي للسور القرآنية، ترتيب لا يخضع لنسق تاريخي محكم، وعليه، ينبغي إعادة ترتيبه وتبويبه حسب عجلة التاريخ، محاولة نجد صداها في كتاب الدين في شبه الجزيرة لأبكار السقاف :« لا نتناول القرآن وننشره لتسير العينان على سطوره وإنما لسير الفكر بين سطوره ولا لنقرأ هذه السطور، إلا بحسب الترتيب التاريخي لهذه السطور، فلن يتاح لنا فهم الدين الإسلامي ولا تفهم ماهية الشريعة الإسلامية ولا ماهية حلول الإسلام للمشكلات الدينية، (...) قسمان إنما القرآن وكل قسم إنما عن الآخر مختلف الصبغة والطابع وسطور القسم المكي غير سطور القسم المدني، لا أسلوبا فحسب بل جوهرا وروحا».[1]لا شك وأننا سنصطدم بمطب يتمثل في عدم توفر مراجع ومصادر موثوقة تساعدنا على إعادة ترتيب السور ترتيبا يكشف التطور التاريخي للإسلام وشخصية محمد، ما عدى بعض الإشارات التي لَمَّحَ إليها إبن هشام في سيرته، إضافة إلى مطب أكثر ضراوة وهو إعتبار الترتيب الحالي مقدسا، أي وحيا إلهيا، لذلك

[1]الدين في شبه الجزيرة سبق ذكره، ص 90-91.

فإن مسألة التسلسل التاريخي للسور القرآنية يعتبر كتحد كبير، خاصة إذا تعاملنا مع الترتيب الحالي على أنه مقدس. نجد محاولات أو دعنا نقول شبه محاولات لكُتَّاب السيرة لرسم إطار تاريخي واضح للسور القرآنية، أسباب نزول الآيات الذي تطرقنا إليه آنفا وقلنا أنه لم ينل حظه الكافي من الدراسة والتدقيق، وتوجد علامة أعتبرها واعدة، وهي بنية القرآن المنقسمة إلى جزءين رئيسيين ؛ القرآن المكي والقرآن المدني. إن أول خطوة علينا القيام بها لقراءة السور قراءة تاريخية هي البدء بالقرآن المكي تحليله والنظر فيه ثم قراءة القرآن المدني، والجدير بالملاحظة فإن تقسيم القرآن إلى مكي ومدني من طرف كُتَّاب السيرة يعتبر إرهاصا من إرهاصات القراءة التاريخية للقرآن، إلا أن السور المكية والمدنية غير منظمة وليست مرتبة، ودورنا يتمثل في إعادة تنظيمها وترتيبها إلتزاما بمبدأ ترابط الأفكار. قبل الشروع في ذلك، يجب أولا الحديث عن طبيعة القرآن المكي، والنظر في قضية قداسة الترتيب الحالي.

إن القرآن بترتيبه الحالي يبقى مبهما ومستعصيا على الفاهمة، وهو قول لن يقبله المسلم، لأنه يرى في الترتيب الحالي إعجازا إلهيا أو ضربا من اللغز الذي لا يمكن أن يستسيغه العقل، وكم هي مُتيَّمَة أذهان عامة المسلمين بالأمور الغامضة واللامنطقية التي تعترضهم في القرآن، وكم هم منبهرون عندما تعترضهم آية أو كلمة أو سياق أو حدث لا يجدون له إجابة شافية، فيتعللون بالإرادة والعلم الإلهي، وهي في نظري هروب من المشكل وحيلة ذكية حتى لا يشغلوا عقولهم، إلى جانب توظيفهم للحلول السحرية، ظانين أنهم يقدمون خدمة عظيمة للقرآن عندما لا يتناولونه من الزاوية العقلية والدراسة التاريخية الموضوعية.

إعادة طرح ترتيب جديد للسور القرآنية ستجعل منه نصا يخضع للتدرج التاريخي والترابط الفكري كاشفا في آن عن حالة النبي النفسية، ولئن كانت الدعوة قد إنطلقت من مكة لتدوم سنوات، ثم ينتقل مسرح الأحداث إلى المدينة، فإن تحديد طبيعة القرآن المكي سيكون شرطا ضروريا، شرطا سيوضح لنا كيفية إعادة تنظيم السور. لكن ما المقصود بطبيعة القرآن المكي ؟ أليس القرآن ذو طبيعة واحدة سواء في مكة أو المدينة ؟ هل توجد طبيعتين مختلفتين للقرآن ؟ ببساطة، القرآن المكي هو قرآن الدعوة، قرآن تميز بأسلوب نحوي وبلاغي يختلف عن القرآن المدني، بدأ في مكة بألفاظ وجمل مسجوعة، وانتهى في يثرب بأسلوب هادئا في صرامة وصارما في هدوء.[2]

بعض كُتَّاب السيرة كابن هشام والطبري وابن الكثير رتبوا السور الأولى فقط، سورة اقرأ تأتي في المقدمة تليها المزمل فالقلم فالمدثر، إلا أن المادة الإسلامية يستحيل الوثوق فيها لا لشيء، لأنها لم تتعامل مع القرآن بعقلانية، إنما من منطلق الإيمان والقداسة. تقريبا جل المصادر الإسلامية خالية من إشارات تساعدنا من إعادة ترتيب وتنظيم تاريخي للسور، ولقد ذكرنا أن أول محاولة الكاتبة والباحثة المصرية أبكار السقاف التي تعد الأولى حسب اطلاعي في العالم العربي والأكثرة جرأة، نظرا وأن العالم العربي الإسلامي لا يزال يعتقد أن وضعية الإسلام تختلف عن كل من اليهودية والمسيحية، فالرأي السائد هو أن هاتين الديانتين طالهما التحريف بمرور الزمن* على عكس القرآن الذي بقي في منأى عن كل تحريف، وبالتالي لا داعي لتقديم قراءة جديدة أو مراجعة للإسلام، وكل محاولة للقيام بذلك يعد مسا للمقدس وتشويها لدين الله، وعليه، فإن إعادة ترتيب وتنظيم السور يعتبر هرطقة وكل من يدعو

---

[2] الدين في شبه الجزيرة ص 91.

*أما ديانات والفلسفات الآسيوية مثل الهندوسية والجاينية والبوذية والطاوية والكونفوشوسية تعتبر ترهات مع الأسف في نظر المسلم السلفي التقليدي، ولا يجب دراستها أو فهمها.

إلى ذلك قد يعرض حياته للخطر، ذلك وأنه في إعادة ترتيب السور محاولة لتحريف القرآن، والسبب كما ذكرنا يعود للإعتقاد الراسخ بوحيانية هذا الترتيب، وحتى ندرأ عن أنفسنا هذه التهمة، سنبين في الصفحات القادمة أن الترتيب الحالي إجتهادي وليس توقيفي.

يتميز القرآن المكي بأسلوب أدبي خاص والمبدأ المهيمن عليه هو السلمية، أي لا يوجد فيه تحريض أو تجييش على القتال أو الحرب، وذلك طبيعي لأن النبي وأنصاره طيلة الفترة المكية كانوا قلة قليلة، وأسس الدولة لم يتم وضعها بعد. الطابع السلمي هو الإطار العام للقرآن المكي، حالة الضعف جعلت منه يلجأ في بعض الأحيان إلى العنف اللفظي، وهو أمر منطقي لمصلح حانق على أثرياء قريش وصناديدها. في المقابل، غياب المعجزة الحسية* وتعنت قريش أدى إلى تعاظم ذلك الحنق مستعملا أسلوب الترغيب والترهيب خاصة في سور الجيل الأول والثاني، لذلك جاءت معظم السور المكية في أسلوب حماسي تعبوي أثناء الحديث عن اليوم الآخر والحساب والعقاب وما ينتظر المؤمنين من نعيم في الدار الآخرة. ومن ثم، فإن غياب الدعم المادي والعسكري دفعه إلى الإبداع والتفنن في وصف أهوال يوم الآخرة، وكأنه السبيل الوحيد للمواساة ورأب صدع المسلمين، **فمحمد كان جادا في رسالته صادقا في نبوته، وعندما رفضته قريش شعر بصدمة نفسية كبيرة، لأن إيمانه بما هو عليه فاق كل الحدود، وكثيرة هي المشاهد الأخروية التي تعبر عن نهاية العالم ويوم الحساب تعكس في الحقيقة محاولة للإصلاح الإجتماعي من خلال منطق الترهيب**. نلاحظ أن القرآن يلمح في مواضع عديدة أن يوم الحساب أصبح قاب قوسين أو أدنى، وكأنه سيحصل غدا أو بعد حين، إنه أسلوب أدبي رائع نستخلص منه أمرين ؛ الأول تحمس محمد ورغبته الجامحة من أجل التغيير، تغيير واقع مترد. الثاني توظيف هذا الأسلوب كسلاح ضد الكافرين برسالته، الكافرين بضرورة الإصلاح والتغيير، إذن يمكن القول أنه من مميزات القرآن المكي هو ما يعبر عنه بالأخرويات، ما يصطلح عليه بعلوم الآخرة عند اليهود و النصارى (Eschatologie).

طغى على القرآن المكي السجع لا سيما في سور الجيل الأول، وذلك نفسره بحالة محمد النفسية، السور الأولى تعادل السنوات الأولى للدعوة، ما يعني تحمسه واندفاعه، فضلا عن خوفه وذعره من عدم وجود السند المعنوي اللازم حتى تنجح الدعوة. لعل اتهام قريش محمد بأنه شاعر يعود لتوظيفه المكثف والمكرر للمقدمات السجعية في أوائل السور كضرب من القسم، ولكن هذا التشابه بين الشعر والقرآن المكي ليس كاملا، ذلك وأن القرآن لا يلتزم دائما بالقافية، قاعدة أدبية إلتزم بها الشعراء العرب، مع أنه بجب الإعتراف أن القرآن المكي في سوره الأولى، يشبه من عدة جوانب

*هناك معجزتين، الأولى حسية التي أشار إليها القرآن مع الأنبياء السابقين، والمعجزة االلفظية هو القرآن في حد ذاته.

الأسلوب الشعري، نظرا والتزامه بالمقدمات السجعية، إذ شعر المكيون أن فيها ضربا من التكلف فاتهموه بالكهانة. سجل التاريخ العربي قبيل الإسلام أقوالا لبعض الشعراء والكهنة الموغلة في توظيف السجع، والجدير بالذكر فإن السجع في غضون العصر القرشي هو لغة التعبير الديني.[3] من أشهر تلك الأشعار شعر الكاهنة الزبراء :

واللوح الخافق، والليل الغاسق
الصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق
إن سجر الوادي ليأدد ختلا، ويرق أنيابا عصلا
وأن صخر الطود لينذر ثقلا، لا تجدون عنه معلا.[4]

ومن ألوان هذا السجع الديني قبيل الإسلام تأتينا أقوال ربيعة بن ربيعة واصفا أحوال يوم القيامة :

يوم يجمع فيه الأولون والآخرون
يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه السيئون.[5]

و يسترسل مقسما :

والشفق والغسق
والفلق إذا اتسق
إن ما أنبأتك به لحق.

كما سجل التاريخ قبيل الإسلام ضروبا من السجع لشعراء آخرين من بينهم أمية بن عبد شمس :

والقمر الباهر، والكوكب الزاهر،
والغمام الماطر، وما بالجو من طائر،
وما اعتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر.[6]

---

[3] الدين في شبه الجزيرة، ص 83.
[4] نفسه.
[5] ص 84.
[6] نفسه.

كانت قريش على علم بهذا الأسلوب السجعي الديني، فاعتبرت القرآن لا سيما سوره الأولى التي تنتمي للفترة المكية، لا يختلف عن هذا النوع من السجع، ما دفعها للإعتقاد أن هذا الكلام صادر عن شاعر أو كاهن وليس عن نبي. هذا التشابه بين سجع سور القرآن وشعر الكهان دفع بعض المسلمين للقول إن سجع القرآن لا يمكن مقارنته بسجع الكهان لأنه فريد من نوعه، ليس فيه تكلف، إنما جاء بأسلوب يجاري اللسان ومضمونه أرقى من أشعار سجع الكهان، وهذا حكم ذاتي لشخص متحمس للدين. مهما كان عليه الأمر، **فإن النبي محمد سبق وأكدنا أنه لم يكون معزولا عن محيطه، لقد تأثر بما من حوله من معتقدات وأفكار***، لكن ذلك لا يعني أنه مقلد، بل إنه رسم أسلوبا استثنائيا، لأنه أراد أن يتجاوز الديانتين السابقتين من ناحية الشكل والمضمون، كما أنه كان حريصا على تطهير الدين المكي من مظاهر الشرك. إن شهادة المستشرق الألماني تيودور نولدكه هي خير دليل على ما نقول : « ترسخ اعتقادنا بأن محمدا آمن من صميم نفسه بحقيقة ما دعي إليه من أن يستبدل بعبادة العرب الكاذبة للأصنام دينا أسمى يمنح الغبطة للمؤمنين».[7]

إن الشكل والمضمون يمثلان نقطة ارتكاز لإعادة تنظيم وترتيب السور. قَدَّمَ نولدكه عملا رائعا لا نظير له، حيث تمكن انطلاقا من دراسة الشكل والمضمون، من فرض تسلسل تاريخي للسور القرآنية. لا حظ نولدكه، ملاحظة كانت في محلها، أن السور المكية تتميز بطابع أدبي بلاغي يختلف عن السور المدنية، السور المكية فيها ضرب من الثوران النفسي. [8] آيات قصيرة وسجعية، السور المكية الأولى تأتي في المقام الأول، حيث نشأت في أول الدعوة، والسبب يعود إلى حالة محمد النفسية، حيث كان غاضبا حانقا على أثرياء مكة، مهددا إياهم بقرب الآخرة وتوعدهم بنار جهنم. هذا الثوران يعود أساسا إلى تحمسه، نظرا وأنه آمن حقا بأنه نبي مرسل، بعد تثبيت خديجة له، تخلص من فكرة أن له قرين من الجن وكون ما حدث معه في الغار لا يعدو أن يكون إرهاصا من إرهاصات النبوة، وهو بتلقيه النبوة دخل في إتصال مع قوة غير منظورة (الملاك جبريل) الذي كان يعتقد أنه جن، لكن الفضل يعود لخديجة وابن عمها ورقة اللذين ساعداه على تجاوز محنته النفسية. **إذن الأسلوب الأدبي السجعي ذو الآيات المقتضبة كان نتيجة الثوران والهيجان النفسي خلال اللحظات الأولى من الدعوة.**

---

*منذ سنوات ظهرت بعض المصادر من خارج التراث الإسلامي حدثتنا عن محمد قبل وبعد النبوة، أهمها ما نقله مؤرخ أرميني يدعى سيبوس عاصر الفتوحات الإسلامية والحرب التي دارت بين علي ابن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان حول الخلافة حيث كتب:« **وفي ذلك الوقت، كان هناك رجل من أبناء إسماعيل اسمه محمد، تاجر، قدَّمَ نفسه لهم كواعظ يدعو للصراط المستقيم، وعلَّمهم أن يعرفوا إله إبراهيم، لأنه كان مُتَّعَلِماَ جدا، ومُتَمَرِّساَ في تاريخ موسى»**. أنظر كتاب محمد وامبراطوريات الإيمان، د. شون ويليان أنتوني، ترجمة عبد الكريم الوظاف، ص 114.

[7]تاريخ القرآن، تيدور نولدكه، نقله إلى العربية جورج تامر، دار نشر ديتريش فسبادن 2000، ص 4.

[8]ص 32.

لقد إعترف المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير أن فضل نجاح نولدكه في إعادة ترتيب السور يعود إلى تتبع الأسلوب القرآني (الشكل النحوي الأدبي)، إضافة إلى الموضوعات السياسية والدينية، مشيرا وأنه إنتهى إلى تقسيم القرآن المكي إلى ثلاث أنواع : الأول ذو طابع إيجازي، الثاني حددت مواقف النبي من معارضيه، والثالث اهتمت بتحديد الشعائر الدينية والمحرمات الغذائية والعلاقات مع الوثنيين المسيحيين واليهود.[9]

في إعادة ترتيبنا للسور علينا الإلتزام بقاعدة أعتبرها كمفتاح أثناء هذه المهمة ألا وهي **الحالة النفسية والإجتماعية للنبي محمد.** الفترة المكية كانت طويلة وشاقة، شهدت الدعوة فيها ترنحا واضحا، مشاعر التردد والخوف انتابت محمد في السنوات الأولى، خوف سوف نحلله في دراستنا للسور المكية الأولى، وهو ما استنتجه نولدكه كونه كان ضعيف العزم.[10] صفة لم تلازمه طيلة الدعوة، أي من مكة إلى المدينة، بل لا زمته في الأشهر والسنوات الأولى عندما كان فاقدا للدعم المعنوي، وذلك يكشف عن طبيعة تطور الدعوة الإسلامية، حيث لم تخرق نواميس الطبيعة فقد كانت بشرية صرفة مرتبطة بالعوامل الأرضية، فخوفه خلال السنوات الأولى لا يعود إلى افتقار الدعم المعنوي فحسب – صحيح أن خديجة ساندته في البداية لكن ذلك يبقى غير كاف أمام ثقل وعظمة المهمة التي أوكلت إليه– إنما يعود أيضا لذكائه العملي،[11] إذ كان على علم بإمكانياته المحدودة في مكة، قلة الأنصار وعدم توفر السند العسكري، حالة أدت به إلى إطلاق العنان إلى ظاهرة العنف اللفظي في القرآن ردا على بعض أثرياء مكة الذين سخروا واستهزأوا به وعدم القدرة على الرد والانتقام. من هنا نفهم أن الأسلوب اللغوي والأدبي للقرآن مرآة تعكس حالة محمد النفسية، بداية من مكة إلى المدينة.

إن ذكاء محمد العملي يمكن استخلاصه فيما يلي؛ الإحاطة بالإمكانيات المتاحة، التربص بالعدو، الرصانة في أخذ القرار، ثم الإنقضاض عليه إذا سنحت الفرصة، خلافا ذلك يعتبر مغامرة غير محسوبة العواقب، إنه ضرب من التكتيك السياسي يقيم البرهان على دهاءه انطلاقا من تكيفه وتأقلمه مع الظروف المحيطة وتجنب الركوب عليها. تبعا لذلك، اعتمد النهج المحمدي في السنوات الأولى من الدعوة على العمل السري والإلتزام بالأسلوب الوعظي.

رغم تعدد مواضيع القرآن المكي، فإنه يتضمن مفهوما مبثوث تقريبا في جل سوره، إنه مفهوم الرجاء، أي أن استحالة تحقيق ما هو مرغوب فيه في الدنيا يقع إرجاءه إلى الآخرة. خلال الفترة المكية،

---

[9]القرآن نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، ريجي بلاشير، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني بيروت، ص 26-.27
[10]تاريخ القرآن ص 5.
[11]نفسه.

ما كان باستطاعته أن يقدم شيئا ملموسا يجازي به أتباعه مقابل إعتناقهم الدين الجديد والقبول به كنبي مرسل، لتصبح الجنة السبيل الوحيد لسد ذلك الفراغ الكبير بوصف نعيمها وتعداد خيراتها. تفنن القرآن في عرض مشاهد الجنة إلى حد المادية، وهي ردة فعل طبيعية، محمد في مكة كان ضعيف الحال، لم تتبعه إلا شرذمة من الفقراء والمعدمين الذين رأوا في الدين الجديد خلاصهم ومناسبة للتمرد ضد أثرياء مكة بعد أن استبعدوهم من خيرات التجارة. ومما لا شك فيه، فإن قصص الأنبياء المكرر في عديد من المناسبات كان ضربا من الإيحاء الرمزي، فمثلا قصة موسى ومحاولته لإنقاذ شعبه تعكس في الحقيقة الوضع البائس للفقراء والمعدمين في مكة، موسى هو في الحقيقة يرمز بكيفية مبطنة للنبي محمد، الرجل المغوار قائد ثورة المحرومين ضد السلطة الغاشمة قريش التي تضاهي قوتها وعزها وثراءها قوة وعزة وثروة فرعون، ولما كان النبي محمد ضعيفا في مكة، فقد وعد أتباعه ورفاقه أن الله سيورثهم الأرض، والأرض هي رمز السلطة والحكم، إن المستضعفين موعودين منذ الفترة المكية بأن يكونوا حكاما.[12] لا حظ المحلل النفسي سيغموند فرويد تشابها بين موسى ومحمد، وتقاربا في مجرى الأحداث.

سلكت الدعوة المسار السري في بداياتها أسوة بالآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء 214). والأهم من ذلك كانت سياسية العفو والصفح الجميل السياسية هي المتبعة طيلة القرآن المكي، ليتبدل الحال في المدينة ويتم نسخ تلك السياسية بسياسة حربية تنبئ بقيام دولة الأعراب المستقبلية التي اتخذت يثرب كبداية لها.

[12] فصول من تاريخ الإسلام السياسي، هادي العلوي، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، الطبعة الثانية 1999، ص 25.

الفصل السابع عشر : ترتيب سور القرآن هل هو مقدس أم بشري ؟

إن التطرق لمسألة قدسية أم بشرية ترتيب السور بدءا بالفاتحة وانتهاءا بالناس يبدو معقدا وشائكا، فلا حاجة للمسلم المؤمن الخوض في هذه مسألة لأنه لا طائل من ورائها، ثم إنه يسلم غيبا أن النبي قبل وفاته أمر أصحابه بوضع السور ليكونوا الترتيب الحالي، بل البعض منهم ذهب إلى أبعد من ذلك بالقول أن الترتيب الحالي يخفي ضربا من الإعجاز، وقد وظفوا طاقاتهم الخطابية واللغوية الجبارة لإبراز البصمة الإلهية وراء هذا الترتيب، ولقد تحولت مسألة الترتيب الحالي للسور جزء من المعضلة الكلامية التي أثيرت في القرن الثاني والثالث من الهجرة تحت ما يسمى بمعضلة خلق القرآن، ليس القرآن فحسب غير مخلوق إنما كذلك الكتاب بورقه ونقشه و ترتيب السور.

موقفي من الترتيب الحالي هو كالتالي ؛ تجنبا للبلبة وتبكيتا للأهل الملل الأخرى الذين شملتهم رقعة تمدد الإسلام وقع تقديس الترتيب الحالي كخطوة إستباقية لكل من يحاول إعادة النظر فيه وبالتالي استبعادا لإحتمالية كون الأيدي البشرية تدخلت في وضع اللبنات الأولى للقرآن، إذن فنظرية تقديس هذا الترتيب كانت وليدة الظرف السياسي، فلو قيل بأن الترتيب بشري وليس توقيفي، فإن ذلك قد يخلق لغطا بين المسلمين لا سيما أن الدولة الإسلامية لا تزال في طورها الأول طورها الجنيني ولم تتحول إلى إمبراطورية بعد، على غرارا ذلك، فإن تقديس هذا الترتيب جاء كوسيلة ذكية لوأد كل محاولة تمهد للتمرد ضد الدولة الإسلامية وخلفائها، لأن إعادة النظر فيه يمكن أن يزعزع إيمان المسلمين وذلك يعد بمثابة الكارثة، كارثة قد تنتهي بتفتت الدولة وتفكك أركانها نظرا وأنها دولة دينية، ودينية تلك الدولة. لا شك أن القرآن مقدس لا لأنه كلام الله الموحى إلى نبيه فحسب، بل لأنه سبب وحدة الأعراب وتجمعهم تحت سقف واحد وراية واحدة.

معضلة الترتيب الحالي ستحملنا لمسألة جمع القرآن، المصادر الإسلامية أجمعت أن الخليفة الأول والثاني هما من أقدما على جمع السور في كتاب واحد، القرار اتخذه أبو بكر مع عمر بعد معركة اليمامة التي راح ضحيتها سبعون من حفاظ القرآن، فخشي أبو بكر وعمر من أن يضيع القرآن كله فأمرا زيد بن الحارثة بهذه المهمة. ثم يأتي دور الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي قام بجمع ثان للسور مثبتا الترتيب الذي لدينا اليوم، وعلى هذا المنوال، جُمِعَ القرآن وفق مرحليتين رئيسيتين؛ الأولى إنطلقت مع الخليفة الأول والثاني، أما الثانية إنطلقت مع الخليفة الثالث الذي ثبَّتَ الترتيب المتداول اليوم، من الفاتحة إلى الناس.

إن مسألة جمع القرآن تراوحت بين رؤيتين، الأولى سنية والثانية شيعية، وما ذكرناه هو يندرج ضمن الرؤية السنية، نجد أدق تفاصيلها عند البخاري في صحيحه وردت في باب «كتاب فضائل القرآن» تحت عنوان «باب جمع القرآن». هناك رواية ثانية تتعلق بمسألة الجمع تقرها الرؤية السنية أوردها البخاري تختص بتوحيد القراءات، حيث أورد البخاري أنه عندما كان الخليفة عثمان منهمكا في تجهيز جيش من أهل الشام والعراق لغزو أرمينية وأذربيجان قدم عليه حذيفة ابن اليمان وقال له : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب إختلاف اليهود والنصارى. رأى حذيفة إختلاف المجندين العراقيين والشاميين في قراءة القرآن، كل فريق يعتبر قراءته وحدها هي الصحيحة. ثم تخبرنا الرواية كيف أرسل عثمان إل حفصة بنت عمر يطلب منها نسخة الصحف التي جمعت أيام أبي بكر لعمل نسخة منها، وأمر النساخ بالرجوع إلى لسان قريش إذا إختلفوا في شيء لأن القرآن نزل بلسانهم.[13] تضيف الرواية أنه عندما أنهى هؤلاء النساخ نقل الصحف التي كانت لدى حفصة في مصحف واحد، رد عثمان الصحف إليها وأرسل إلى كل الأمصار بنسخة من المصحف الجامع وقد سمي بالمصحف الإمام، ثم أمر بما سواه في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.[14] واضح أن تحمس الخليفة الثالث لتوحيد القراءات صادر عن رجل سياسة لا رجل دين، فاختلاف القراءات قد يخلق بلبلة في المجتمع الإسلامي قد يؤدي إلى تشويه فكرة قداسة القرآن. إن قوله كون القرآن نزل بلسان قريش حقيقة لا غبار عليها، فالقرآن سبق وأكدنا أنه نشأ في المحيط القرشي المكي، وبالتالي جاء ليخاطب مجتمعا بلغتهم الأم التي جُبِلُوا* عليها، وعليه فإن القول بأنه توجد آيات قرآنية لم تفهم في زمانه وفهمت في عصرنا الحالي هو سفسطة كلامية.

الرؤية الشيعية جاءت منقسمة بين من يؤكد أن الجمع بدأ مع الخليفة الأول والثاني، وصاحب هذه التوجه الإمام الشيعي أبو القاسم الخوئي في كتاب البيان في تفسير القرآن، التوجه الثاني يقول إن النبي محمد هو أول من أمر بجمع القرآن وهو من رتب الآيات والسور، والحقيقة أن هذا الشق من الشيعة يريد تجريد الخلفاء الثلاثة من شرف المهمة التي وكلت إليهم، فهم اغتصبوا الخلافة من علي، إذن علينا استبعاد هذه الفكرة لأنها تنضح بالتحزب المذهبي. الإمام الخوئي حاول قدر الإمكان التحلي بالموضوعية مع أننا نعلم جيدا لا وجود ومع الأسف للموضوعية عند الفقهاء واللاهوتيين المسلمين على مر القرون، ومع ذلك فإن الخوئي يتفق مع الرواية السنية ويختلف معها في جوانب، الإختلاف انحصر في لفظ الجمع.

[13] مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عابد الجابري سبق ذكره، ص 218.

[14] نفسه.

*اعتادوا.

ذكر الخوئي الرواية السنية المنقولة عن قتادة حيث سأل أنس بن مالك قال : من جمع القرآن في عهد النبي ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.[15] الرواية الثانية رواها الطبراني وابن العساكر عن الشعبي أنه قال : « جمع القرآن على عهد رسول الله ستة من الأنصار هم أبي بن كعب، زيد بن ثابت، معاذ بن جبل، أبو الدرداء، سعد بن عبيد، وأبو زيد».[16] استنتج الخوئي إلى أن كلمة جمع في هذا السياق لا تعني ضم السور والآيات إلى بعضها البعض إنما تعني الحفظ، لأنه اعترض بأن تكون فئة محددة تمكنت لوحدها من حفظ القرآن عن ظهر قلب في زمن النبي دون البقية، ثم استخلص أن المقصود بعملية الجمع الموكلة إلى هؤلاء هو أخذه من القراء والمواد المكتوب عليها وجمعه في مصحف. نحن في هذا الصدد نضع هذه الروايات محك التساؤل، فهي تحيل عملية الجمع إلى الأنصار وكأنها تركز عليهم وتمنح لهم الأفضلية، قد تكون هذه الروايات نابعة عن تحزب طائفي للأنصار الذين طلبوا حقهم في الخلافة بعد وفاة محمد واعتبروا أنهم أحق بها من غيرهم، فلا نستبعد إذن أن غاية هذه الروايات هو الرفع من شأن المكانة الإيمانية للأنصار وإخلاصهم للإسلام ولنبيه وبالتالي أحقيتهم المطلقة في الخلافة، وكما قلنا آنفا علينا التعامل مع التراث الإسلامي من منظور عقلاني نقدي، لا من منظور عاطفي إيماني، ولا يجب طبعا اقصاءه.

إن فكرة جمع القرآن تقودنا إلى التدوين، ولما كان القرآن قد مر بمرحلتين رئيسيتين في تكوينه، الأولى المرحلة المكية والثانية المرحلة المدنية، فهل يمكن القول أن التدوين شمل المرحلتين ؟ جل المصادر الإسلامية حقيقة لا تشير إلى تدوين في المرحلة المكية عدى من حاول الإلتفاف على المشكل بالقول أن التدوين موجود منذ نزوله،[17] وهو في الواقع رأي لا سند له، فكُتّاب السيرة لم يذكروا أن القرآن دُوِّنَ خلال الفترة المكية. لكيلا نلقي الكلام على عواهنه، فإن وضع المسلمين في مكة يتميز بالاضطراب، محمد كان مرتبكا وخائفا وذلك ما عكسته السور المكية التي نشأت في السنوات الأولى، كما أن تفكيره ارتكز طيلة الفترة المكية على نجاح الدعوة وجذب الأنصار مهددا ومتوعدا قريش، محاولته المستمرة لإصلاح المجتمع المكي أين سادت فيه الرأسمالية وتلاشت فيه قيم التكافل والتآزر القبلي، هذا ما يدفعنا للقول إن فرضية التدوين في مكة ليست مستبعدة فحسب بل مستحيلة. لقد أشار الجابري إلى عدم إهتمام المصادر الإسلامية بالكيفية التي تم بها نقل القرآن المكي المكتوب من مكة إلى المدينة بعد الهجرة، ليستخلص أن القرآن المكي كان جله محفوظا في الصدور. [18]

---

[15] ص 220.
[16] نفسه
[17] القرآن نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، هامش الصفحة 29.
[18] مدخل إلى القرآن الكريم، ص 219.

ما يلفت الإنتباه هو كون المصادر لم تطرق إلى كيفية نقل السور المكية المدونة، وهو تخاذل غير مقبول في صورة لو قلنا بأن التدوين شمل القرآن المكي. من الصعب إذن إذا لم نقل استحالة، القول بأن محمد أمر بتدوين القرآن في مكة، ببساطة، لأن شغله الشاغل في مكة كان أساسا نجاح الدعوة وإقناع قريش بنبوته، ثم إن الإسلام كدين جديد لم تتضح معالمه في مكة، نقصد تشريعاته العامة، تشريعات كانت قد نشأت في المدينة أين وجد الدين الجديد أرضية ملائمة، لتتبلور أولى دعائم الدولة الإسلامية. خلال الفترة المكية، تغير أسلوب قرآن، ليصبح نثريا بعد أن كان سجعيا، وذلك يعود إلى الحالة النفسية النبوية، مشاعر الإضطراب والإرتباك والخوف كانت مسيطرة عليه، مما أثر مباشرة على أسلوب القرآن. في ميدان الأدب بصفة عامة، نقول إن الأسلوب الكتابي للأديب يتأثر بشكل كبير بأحاسيسه ومواقفه في تلك اللحظة، الأمر نفسه حاصل مع نبي الإسلام، وذلك ما أكده نولدكه بقوله : « يختلف أسلوب القرآن تبعا لأوقات التأليف المختلفة، مما يدفعنا إلى تأجيل معالجة هذه المسألة بإسهاب إلى حين الكلام عن فترات نشوئه، فبينما تشي بعض المقاطع الأولى باضطراب شديد أو بجلاء هادئ، نجد في أقسام أخرى لغة عادية فضفاضة، أقرب ما تكون إلى النثر».[19]

إن فكرة التدوين ولدت في المدينة وذلك راجع لسببين. أولا ؛ في يثرب نشأ كيان سياسي بقيادة محمد، هذا الكيان هو مقدمة واعدة لضم شمل الأعراب ليتحول مع مرور الزمن إلى دولة مركزها يثرب وقائدها، بناء على ذلك، كان لزاما تدوين القرآن، نظرا لتشكل قومية عربية بفضل الإسلام الذي رسخ بدوره فكرة الأمة العربية وتاريخها العريق الضارب في القدم بالعودة إلى ابراهيم وابنه إسماعيل. إلى جانب القومية، هناك هوية جديدة برزت أعطت للأعراب مكانة اجتماعية دينية داخل عالم ممزق شرقا وغربا بين أكبر ديانتين عرفتهما البشرية هما النصرانية والزرادشتية، فكان تدوين القرآن عبارة عن حاجة سياسية ودينية ملحة لتعزيز موقف الأعراب أمام اليهود والنصارى والمجوس أصحاب كتب سماوية. ثانيا ؛ التدوين جاء لاستبعاد نسيان الآيات، حيث نعلم أن النبي في مكة نسي جزءا من القرآن أسوة بالآية ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ﴾﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ . فالتدوين لم يكن غرضه تأليف كتاب بقدر ما كان طريقة ناجعة لعدم النسيان، ناهيك أن معظم القرآن دون على الجلد والعسب.

تشير بعض الروايات كون النبي أمر بكتابة القرآن دون سواه « لا تكتبوا عني سوى القرآن» كما توجد رواية ثانية تعارض الأولى، إذ تأمر المسلمين بتدوين ما يقوله النبي حتى ولم يكن قرآنا. عن عبد الله ابن عمر قال : قال رسول الله : «أكتب عني فالوالذي نفسي بيده لا يصدر عني إلا الحق».

---

[19]تاريخ القرآن، ص 32.

قد يحكم القارئ ببطلان إحدى الروايتين، فيقول إما الأولى صحيحة أو الثانية أو يرفض التراث جملة وتفصيلا، إلا أنني أرى أن كلتا الروايتين صدرا عن محمد. الرواية الأولى سجلت أحوال المسلمين في السنوات الأولى من الهجرة، لأن دعائم الدولة الإسلامية لم تنشأ دفعة واحدة، وإنما عبر سنوات تلتها الغزوات وتوسع رقعة الدولة، قبل أن يعلن بدء حملته ضد قريش الكافرة بدعوته الرافضة للانصياع إلى إرادته كان محمد نبيا وليس قائدا أو زعيما، أي أن الحديث الأول صدر عنه وهو نبي فحسب، أما الحديث الثاني فقد صدر عنه بعد تغير سياستة عامة وتشريعات الإسلام خاصة تجاه الكافرين من أهل الكتاب ومن ليسوا بأهل كتاب، حيث قويت شوكة الإسلام وأصبح في يد محمد سلطتان، السلطة الدينية والسلطة السياسية، ذلك وأنه يعتبر كأول أول رجل سياسي في التاريخ الإسلامي، سياسي محنك، لا يستبق الأحداث ويتفاعل مع محيطه حسب الظروف معتمدا على الإستقراء والنظر الرصين، إلى جانب المشورة والتريث في أخذ القرار، وكم من ردة فعل صدرت عنه تقطع وبلا أدنى شك على مدى دهائه وعلو حسه البراغماتي. تبعا لذلك، فإن الحديث الثاني يكون قد جاء في سياق مغاير عن الأول، سياق سياسي جعل من محمد قائدا عسكريا وحاكم الدولة الإسلامية التي عاصمتها يثرب.

يعتبر الشيخ السيوطي من بين الشخصيات التي أسهبت في البحث حول مسألة التدوين الجمع والترتيب، حيث نقل في كتابه الإتقان بعض الروايات في هذا الصدد نذكر البعض منها ؛ حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عبيد، عن زيد بن ثابت، قال : قبض النبي ولم يكن القرآن جمع في شيء. [20] وقال الخطابي: إنما لم يجمع النبي القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته.[21]

حسب السيوطي، القرآن كُتِبَ كله في عهد الرسول لكن غير مجموع في موضع واحد وسوره غير مرتبة. هذا الموقف يتعارض مع الرواية القائلة بأن زيد بن ثابت شرع في جمع القرآن من العسب والجلود وتتبعه من صدور الرجال، قول ذكره السيوطي في نفس الصفحة التي أعلن فيها عن موقفه، وعلى أية حال فإنه من الصعب الجزم بأن محمد تمكن من كتابة جل السور القرآنية، لسبب بسيط، القرآن كان ملازما له، وهو عبارة عن ردة فعل شخصه سواء تجاه الخصوم أو الحلفاء، بالتالي فإنه لم يتوقف البتة إلى غاية لحظة وفاته، فالقول بكتابة جل القرآن قبل وفاته قول يجافي المنطق. على غرار ذلك بقي معظم القرآن محفوظا في الذاكرة وهو حفظ متباين، فما حفظه مثلا أبا بكر ليس ما حفظه

[20] الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي، تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 2008، ص 129.
[21] نفسه.

عمر أو عثمان أو حتى علي، وأفضل كتاب يشرح بالتفصيل التباينات في القراءة والتلاوة والحفظ هو كتاب المصاحف للمحدث أبو داوود السجستاني.

عندما إنطلقت عملية جمع القرآن مع الخليفة الأول كلف عمر زيد بالمهمة فرد عليه قائلا : «كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله » ؟ رد نستشف من خلاله أن السور لم تكن أولا قد جمعت في مصحف واحد، ثانيا السور القرآنية لم تكن مرتبة بل مبعثرة على شتات جلود الإبل واللحاف و العسب إضافة إلى صدور الرجال « فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ (التوبة 128-129)، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر، ثم عند حفصة.[22] نلاحظ إذن أن المهمة الموكلة إلى زيد تكشف عن غياب وجود مصحف جامع للسور القرآنية زمن محمد، فكرة تجميع السور في كتاب واحد نشأت بعد وفاته، أقول تجميع وليس تدوين لأن التدوين بدأ فعلا قبل وفاة النبي محمد.

بعض الروايات فُهِمَ منها أن القرآن كان قد جمع في مصحف واحد زمن محمد ومن بينها الرواية التي ذكرناه آنفا : « عن قتادة حيث سأل أنس بن مالك قال : من جمع القرآن في عهد النبي ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد». كلمة «جمع» لا تعني التدوين أو التسجيل إنما الحفظ والتذكر، وهذا موضوع جد مهم في علم اللغة أو فقه اللغة (Philologie) يبحث في تطور اللغة ومفرداتها، معاني المفردات تتبدل عبر الزمن، عدم الإلمام بهذه القاعدة قد يسقط القارئ في الخلط بين المعاني. حينما نقرأ نصا كتب قبل ثلاث أو أربع قرون، تكون معانيه مفرداته، وإن كانت متداولة في العصر الراهن، لها رمزية مغايرة. نذكر رواية ثانية قد تنزع اللبس عن لفظ الجمع : « خذوا القرآن عن أربع، عبد الله ابن مسعود، سالم ابن حذيفة، معاذ ابن جبل، وأبي ابن كعب».[23] الجمع يعني الأخذ، والأخذ هنا يقع عبر المشافهة أي الحفظ والتذكر، وربما قد يلتبس علينا الأمر إذا ما عدنا إلى رواية زيد بن ثابت فهو الذي وكلت إليه مهمة جمع القرآن، إلا أن سياق الرواية يكشف بلا شك أن ذلك الجمع هو ليس حفظا بل استنساخ السور في كتاب، أما كلمة جمع الواردة في الرواية الثانية، أيفهم منها أن هؤلاء الرجال الأربعة قاموا بنفس المهمة التي وكلت لزيد بعد وفاة النبي؟

[22] نفسه.
[23] صحيح البخاري، رقم الحديث 3808.

ليس الأمر كذلك، الجمع في الرواية الثانية جاء في سياق يختلف عن الرواية الأولى، إنه سياق الإلمام بالشيء، رواية ثالثة توضح لنا المعنى أكثر؛ حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن ابراهيم، عن مسروق، عن عبد الله ابن عمر، سمعت النبي يقول : «استقرئوا القرآن من أربعة، من ابن مسعود، وسالم مولى ابن أبي حذيفة، وأُبَي بن كعب، ومعاذ ابن جبل». [24] يبدو واضحا أن فعل الجمع هاهنا هو الأخذ، أي أن هؤلاء الرجال يعتبرون من النخبة الحافظة للقرآن زمن محمد، وهؤلاء لم ينفردوا بحفظ القرآن، إنما بلغوا درجة عالية من الحفظ و التلاوة، ذلك ما بينه السيوطي بقوله :« وتعقب بأنهم لم ينفردوا بل الذين مهروا في تجويد القرآن بعد العصر النبوي أضعاف المذكورين، وقد مات سالم مولى بن حذيفة في وقعة اليمامة، ومات معاذ في خلافة عمر، ومات أبي بن مسعود في خلافة عثمان وقد تأخر زيد بن ثابت وانتهت إليه الرياسة في القراءة وعاش بعدهم زمنا طويلا، فالظاهر أنه أمر بالأخذ في الوقت الذي صدر فيه ذلك القول، ولا يلزم من ذلك ألا يكون أحد في ذلك الوقت قد شاركهم في حفظ القرآن، بل كان الذي يحفظون مثل الذي حفظوه وأزيد جماعة من الصحابة».[25]

إلى حد في هذا المستوى من الدراسة، نطرق نظرية مثيرة للإهتمام، تقر أن محمد قبل وفاته جمع القرآن في مصحف واحد، وهي بذلك لا تأخذ بصحة الرواية الإسلامية، نظرية ترتكز عليها المدرسة القرآنية بصورة خاصة، علينا التوقف عندها لأنه لو اتضح أنها سليمة، فإن الترتيب الحالي للسور هو من فعل محمد نفسه، قام به تحت تأثير الأمر السماوي، وبالتالي سيكون مقدسا. تعتمد المدرسة القرآنية على الآيات المذكورة في سورة القيامة ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة19/16). أعتبرت كإشارة واضحة أن عملية الجمع إلهية، إضافة إلى الترتيب والتلاوة والتفسير. إن دراسة أسباب النزول ستوضح المسألة، هنا سيلاحظ القارئ الكريم لماذا نختلف مع المنهج القرآني الرافض للتراث جملة وتفصيلا، وأسباب النزول يمثل جزءا من هذا التراث. غايتنا من هذا البحث، هو تقديم مقاربة وفهم مخالف لما هو متعارف ومصادق عليه من طرف المؤسسة الإسلامية، لكن ذلك لا يعني كما أكدنا إقصاء التراث، يجب اللجوء إليه حتى يتضح لنا السياق ونرفع اللبس والغموض اللذين يكتنفان النص القرآني.

توجد قاعدة ناجعة لإزالة اللبس عن القرآن، تعرف بتفسير القرآن بعضه بعضا، الآية 114 من سورة طه اكشف لنا الظرفية التي أدت إلى نشأة آيات سورة القيامة؛ ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِٱلْقُرْآنِ مِن قَبْلِ إَن

[24] صحيح البخاري، رقم الحديث .3806
[25] الإتقان ص 155.

يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾. قيل: كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي حرك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه فنزلت وَلاَ تَعْجَلْ بِٱلْقُرْآنِ، ونزل ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ ﴾ ونزل ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾. ذكر الترمذي : قوله تعالى ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ كان رسول الله إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : فكان يحرك به شفتيه.[26320] وقال الضحاك : كان النبي إذا نزل عليه الوحي من القرآن حرك به لسانه مخافة أن ينساه، وقال آخرون: بل السبب الذي من أجله قيل له ذلك، أنه كان يكثر تلاوة القرآن مخافة نسيانه، فقيل له ﴿ لا تُحَرّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد، قوله ﴿لا تُحَرّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان يستذكر القرآن مخافة النسيان.[27] وعن الآية ﴿ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ ﴾ قال الضحاك : إن علينا أن نجمعه لك حتى نثبته في قلبك، وقال آخرون حفظه وتأليفه، وعن قتادة { جَمْعَهُ وقُرآنَهُ } قال : حفظه وتأليفه. ولقد فسر قتادة الآية بالرجوع إلى بيت شعري لعمرو ابن كلثوم :

ذراعي عطيل أدماء بكر   هجان اللون لم تقرأ جنينا

يعني بقوله « لم تقرأ » لم تضم رحما على ولد. أحسن قتادة الفعل عندما رجع إلى شعر العرب قبل الإسلام لأنه أدرك وأن الألفاظ تأخذ معنى خاصا مرتبطا بثقافة وفكر أصحابها في فترة زمنية معينة، تقرأ تعني الضم. نلاحظ إذن أن نشوء الآية جاء كإفراز من إفرازات الحالة النفسية المحمدية، لأنه كان ينسى بعض الآيات القرآنية، وهذا بشاهدة القرآن نفسه، بيد أن المدرسة القرآنية ترفض الأخذ بهذه الروايات لأنها لا تعترف سوى بالقرآن.

إن إقصاء التراث – أسباب النزول – من المعادلة القرآنية لن يحل المشكل بل سيزيده تعقيدا، عندما نقرأ الآية واضح أنها جاءت في سياق ردة الفعل ناهية عن سلوك معين، وذلك ليس له إلا تفسيرا واحدا، معظم الآي القرآني هو ضرب من الإنفعال النفساني والوجداني، فأنت عندما ترى خطرا يداهمك تبتعد عنه، وعندما تتعرض لوخز إبرة تجذب يدك بسرعة، وإذا رأيت شخصا تحبه تغمرك البهجة، وهذا يسمى إنفعالا والقرآن هو كذلك، لو قمنا بإقصاء أسباب النزول، أية صورة التي تنطبع في أذهاننا ؟

إن الآيات السابقة تحدثت عن طبيعة الإنسان ﴿ بَلِ ٱلإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ ثم فجأة ينتقل للقول ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ فما المناسبة الجامعة بين هذين الحدثين ؟ إذا قمنا بإقصاء أسباب النزول، فإن كل القرآن سيصبح ضربا من الطلاسم والألغاز، وهو ما لم تتفطن له المدرسة القرآنية، وفي نفس الوقت سيفتح الباب على مصرعيه أمام الإحتمالات

[26]القرطبي الجامع لأحكام القرآن.
[27]الطبري جامع البيان.

والتحكمات، ونحن نلاحظ أن القرآن يتضمن نوعا من القطيعة أو الشرح المتكرر بين آياته، ذلك لأنه يمثل إنفعال المتلفظ به أثناء تعرضه لعوامل خارجية أو ولادة ظرف إجتماعي، فالقرآن ينشأ حسب الظرف والوضعية.

ما يميز القرآن عن بقية الكتب التي ألفت في تاريخ الأديان، هو أنه جملة من ردود الأفعال، نقرأ آية تتحدث عن موضوع محدد، ثم فجأة يقفز لموضوع آخر ليس له صلة بالأول. لقد لاحظ المستشرقون هذه الميزة الغريبة في القرآن، وكثير منهم لم يفهموا هذا الأسلوب الأدبي الفريد من نوعه، إضافة إلى وجود إشارات واضحة تحيل أن جل الخطاب القرآني منقول عن متكلم ثان غير النبي محمد، وهو وفق العرف الإسلامي الله الذي خاطب نبيه عن طريق الملاك جبريل، وبالتالي فنحن لسنا أمام نص نشأ في ظروف عادية، شخص في غرفته جالس على مكتبه بصدد تأليف كتاب، بل نحن أمام شخص يعيش معتركا، تحيط به جماعة من البشر وتتجاذبه المؤثرات الخارجية.

إن النص القرآني يطفح بما سميناه تعرجات أو بالأحرى تلميحات، من دون الإستعانة بأسباب النزول، تبقى تلك التلميحات بلا إطار زمكاني ولا سياق تاريخي وكما قلنا سيبقى جل القرآن ضربا من الطلاسم والألغاز. لاحظ المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير ذلك : « وإن ميلا شديدا للواقع المفصل والمؤرخ، قاد إلى اخراج إطار تاريخي لذلك البناء أمدت ببنيته وتفاصيله التلميحات الكثيرة الموجودة في القرآن رغم ما يغلب على هذه التلميحات من الغموض والحاجة للإستقصاء».[28]

صنف من المستشرقين ذهبوا إلى أبعد من ذلك وأعتبروا أن أسباب النزول خرافة وليست من التاريخ في شيء، والأرجح أن تلك الأسباب وقع حبكها تحت حكم الأمويين والعباسيين في بغداد، رأي يستند وكون المصادر الإسلامية الراهنة من سيرة وحديث لم تدون إلا بعد قرن ونيف من الدعوة الإسلامية، مما يعني أن القرآن دُوِنَ بدوره طيلة الفترة الأموية والعباسية، وكل ما وصلنا من تراث ليس سوى ضربا من الأساطير. إن هذا الرأي ربما يكون سليما لو كان الأسلوب الأدبي للقرآن جاء بالصيغة المعهودة عند تأليف الكتب المتداولة، الكاتب المؤرخ خاصة، أيا كان انتماؤه حينما يشرع في تأليف كتاب تجده حريصا على فرض التسلسل المنطقي والتاريخي لكتابه، كما فعلنا نحن في هذا الكتاب، معتمدين على مبدأ العام الذي يتدرج من العام إلى الخاص، وهو مبدأ تاريخي يحرص على الحفاظ على التسلسل ونظام الأفكار (Association) ، إنه منهج منطقي يعمل على تبويب الكتاب وجعله قائما على التراتبية (Hiérarchie). القرآن يشذ عن هذا المبدأ، إنه لا يخضع لتسلسل تاريخي بين سوره، ولو

[28]القرآن نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، سبق ذكره ص 25

وقع تأليفه زمن الأمويين والعباسيين أي زمن كبار كتاب السيرة كابن هشام والطبري اللذين قاما بتبويب ما كتبوا في السيرة، لكانت بنية القرآن غير التي نعرفها اليوم. إبن هشام في إعادة تأليفه للسيرة، انطلق من حدث ولادة النبي، تلتها الأحداث التاريخية الحاصلة في قريش قبيل الإسلام، ثم إرهاصات الدعوة إلى تلقي الوحي والنبوة، بعدها بداية الدعوة في مكة فانتقالها إلى المدينة، فما يمكن تسمية كل ذلك ؟ ألا يعد ضربا من التبويب والتنظيم. السؤال إذن الذي يجب طرحه ؛ إذا وقع تبويب السيرة التي هي في مجملها ضرب من الخرافة والميتاتاريخ* كما تذهب إلى ذلك مدرسة الإستشراق الجديدة أثناء فترة حكم الأمويين والعباسيين، لكان القرآن ذو أسلوب أدبي وقصصي يحيل وأنه ألف من طرف شخص أو أكثر، جالس في مكتبته منكب على كتابه، حريص كل الحرص على تنظيمه وتبويبه. ومن ثم، فإن صيغة الأمر« قل » تجعلنا نشك في الظروف العادية التي ساهمت في حبك القرآن، والظاهر بجلاء أننا أمام شخص ينقل ما قيل له للعامة، صيغة تخبرنا كذلك وأن المتكلم يعيش معتركا مثلما نوهنا، في حالة من إلهام أو إنجذاب للنفس (التفكير)، فالقرآن هو نتيجة إنفعالات حَامِلِهِ، يعج بوضعيات تعكس حالات نفسية صادقة مثل الحسرة والغبن، الحزن والإنكسار لاسيما في السور المكية، تشعر وأنها صادرة عن تجارب معيشة أي حصلت بالفعل، وبالتالي لا طعن في تاريخيتها. بناء عليه، فإن صيغة القرآن الأدبية وأسلوبه إضافة إلى بنيته الداخلية يكشفان أن ما ذهبت إليه مدرسة الإستشراق الجديدة بعيد كل البعد عن الصواب، بل مستحيل وغير منطقي.

نعود الآن إلى ما طرحناه حول القرآن، تلك التعريجات (القفزات) التي لا نجد لها إجابة منطقية في حالة عدم الإستعانة بأسباب النزول، والقول إن تلك الأسباب ضرب من الخرافة المفتعلة تحت حكم الأمويين والعباسيين لا أراه أنه يقوم فعلا على براهين قوية تدعمه، نحن نرى أن القرآن وثيقة تاريخية صادقة تخبرنا عن تطور ونشوء الإسلام وتعاليمه، ما يتعارض بشدة مع القول إنه وقع تأليفه زمن الأمويين والعباسيين. على هذا النحو، لا يمكن الوثوق بمنهج القرآنيين إذا عزمنا دراسة تطور الخطاب القرآني من منظور معرفي وتاريخي، لأن عدم الإحاطة بالإطار الزماني والمكاني للقرآن يضعه خارج التاريخ، حالة تجعل دراسته الابستيمية (المعرفية) مستحيلة، فالإبستيمولوجيا لصيقة السلم التطوري للمعرفة الإنسانية، بديهي أنه محال التحدث عن المعرفة من دون الإستناد إلى التاريخ. **هكذا يمكن أن نستخلص كون الآيات في سورة القيامة لا تدل على جمع للسور القرآنية، جمع مصدره**

*نقدنا للسيرة لم نقل لا يعنى التسليم بأنها خرافة برمتها، لقد امتزجت بالأساطير أثناء تداولها على أقلام المؤرخين طيلة قرون، وقد وضحنا ذلك في بدايات الكتاب. هدفنا هو تنقيتها وغربلتها من هذه الأساطير بتقديم تفسير علمي وتاريخي للدين.

السماء لا الإجتهاد البشري، فإعادة دراسة السور حسب إطارها الزماني والمكاني يعري كليا اللبس الذي يكتنف معظم الخطاب القرآني.

أورد السيوطي في إتقانه حديثا أخرجه ابن حنبل واعتبره البعض كدليل قاطع على أن الترتيب الحالي مقدس. عن عثمان ابن أبي العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله، إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع من هذه السورة.[27] واضح أن الحديث ينعى بترتيب الآيات داخل السورة، وغرضنا هو أوسع وأشمل من ذلك لأن بحثنا موجه إلى معضلة ترتيب السور بصنفيها المكي والمدني، وترتيب الآيات لا يشكل عائقا إبستيمولوجيا أمام فهم الظاهرة المحمدية والحدث الإسلامي. لا ننكر أن ترتيب الآيات يفصح عن ذهنية محمد، كيف يفكر وكيف يستنتج وهو ما إشتغل عليه نولدكه، حيث يوجد ضرب من الإرتباك والتشويش الذي يشوب ترتيب الآيات، فقد نجد آية مدنية تليها مباشرة آية مكية أو العكس، ولا نجد رابطا منطقيا بينهما، فمثلا يرى أن الآية 88 من سورة الزخرف لا يمكن ربطها بسهولة بالآية السابقة، مشيرا إلى إمكانية سقوط بعض الكلمات في مطلعها.[28] الآيتين جاءتا في القرآن كالآتي ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿ وَقِيلِهِ يٰرَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. في قراءتنا للآيتين نستشعر غياب التسلسل المنطقي بين الآيتين، ونحن لنا رأي في هذه المسألة، نستبعد سقوط آية بين الآيتين، وإستبعادنا ليس جزميا قد يكون بالفعل سقطت آية أو أكثر، ولكن كنا قد نوهنا إلى هذه المسألة في تحليلنا لسورة القيامة وطبيعة التعريج في الآيات، وذلك يعود بالأساس إلى عامل رئيسي، القرآن نص استثنائي، طريقة صياغته ليست تقليدية، شخص قابع في غرفته منكب على تأليف كتاب، فالقرآن كما قلنا نشأ حسب الظروف السياسية والإجتماعية، أيضا النفسية والسلوكية. الآية 88 نشأت في ظرف يختلف عن السابق، وفي مرحلة الجمع وضعا على هذه الشاكلة، وتلك معضلة الترابط أو العلائقية بين الأحداث التي تطرقنا إليها آنفا. إن النص القرآني لا يخضع في مجمله للنسقية المنطقية، فقد نجد نوعا من الإرتباك، إلا أننا نجده حريضا على إحترام التسلسل بين الأحداث. في الختام، نذكر شهادة للمؤرخ العراقي ذو الأصل الفارسي إبن النديم المتوفي أواخر القرن العاشر، الذي يؤكد أنه رأى في الكوفة مصحفين قديمين يحويان نصوصا ظاهرة الإختلاف في تنظيمها، عناوين فصولها وعدد آياتها مع مصحف عثمان.[29]

---

[27] الإتقان ص 135.
[28] تاريخ القرآن ص 118.
[29] القرآن نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره ص 37.

ارتأى العقل الإسلامي معالجة هذه المعضلة، معضلة التسلسل التاريخي للسور القرآنية، باللجوء إلى المنطق الإعجازي السحري، وكأنها محاولة لتقديم إجابة جاهزة والإبتعاد عن البحث والتفكير في المسألة بجدية، وذلك من بين العوامل المساهمة في نكسته، كالقول بوجود رابط غيبي وخفي بين السور، إنه عقل يرتاح للمنهج الميتافيزيقي الميتاتاريخي ويشمئز من المنهج الإستقرائي العلمي، ولم يستشعروا أن معالجة المعضلة بالأدوات الغيبية لا تقدم حلولا بل تزيد الأمر تعقيدا جاعلة من القرآن نصا يتكون من الألغاز والطلاسم، وإعادة فرض ترتيب جديد يحترم التسلسل التاريخي هو شرط أولي لتقديم فهم منطقي للإسلام برمته، منسجم مع العقلية الحديثة المعاصرة.

إن إعادة ترتيب السور ترتيبا تاريخيا سيفضي إلى نص منسجم من الناحية المنطقية والسردية، وهو عمل شاق محفوف بالعثرات، وذلك يعود إلى جملة من العوامل، أولها صمت التراث الإسلامي عن هذا الترتيب واكتفاءه بدراسة أسباب النزول وعدم ربطها ببعضها البعض، فقط نجد إجماعا حول ظروف نشأة السور الأولى، العلق، المزمل، المدثر، والقلم، هذه السور الوحيدة الموثوق في صيرورتها التاريخية. ثانيا عامل التقديس، تقديس الترتيب الحالي وعده من وحي السماء، ولقد وضحنا أن هذا الرأي جاء لخدمة مصلحة سياسية مغلفة برداء الدين، نقصد الحفاظ على تماسك الدولة الإسلامية في شهورها وسنواتها الأولى، وقد كانت في طورها الجنيني تعصف بها الرياح من كل جانب، رياح الخصوم من أهل الملل الأخرى، فحسمت المسألة بالماورائيات والغيبيات، كما وقع توظيف الماورائيات لحسم مسألة تهيئة محمد للنبوة. **إن التراث الإسلامي بالرغم من غزارته وثرائه، ينسجم في معظمه مع عقلية الطفل الذي لم يتجاوز العشر سنوات أو أقل،** مع أنه والحق يقال، نجد بعض المصنفات التي تعتمد على المنهج الاستقرائي وتأبى الحلول السحرية. إذن، إعادة ترتيب السور يجب أن يتأسس انطلاقا من القرآن وليس من التراث، لأنه كما أشرنا منذ البداية، **القرآن هو السبيل الوحيد لتنقية السيرة والتراث من الأساطير الشعبية والخرافات الفولكلورية.**

إن الدراسة التاريخية لكل من الشكل والمضمون، يمثلان السبيل الأمثل لإزالة حجب الماورائيات عن ترتيب عثمان، وجعله ترتيبا تاريخيا يحترم قانون مبدأ تسلسل الأفكار، فالقرآن مرآة تعكس طريقة تفكير المتلفظ به، ومن خلاله نعيش ملحمة تطور شخصية ملأت الدنيا وشغلت الناس. يجب الإقرار قبل أن نطلق في رسم ملامح هذا التسلسل وأنه كلما إقتربنا إلى السور المكية الأولى كلما إزداد الغموض إزاء علاقة السور ببعضها البعض، ولا يمكن إزالته إلا بالإستعانة بدراسة الشكل والمضمون، الشكل معني أساسا باللغة، أما المضمون فهو معني بالموضوع، موضوع السور.

سور الجيل الأول معظمها مقتضبة وسجعية، تنذر بالعذاب والعقاب اللذين سيصيبان الكافرين بدعوة محمد، خطاب العذاب والعقاب ينسحب على القرآن المكي والمدني، غير أنه في السور المكية وخاصة الجيل الأول يتميز بذوق خاص، يقوم على التفنن في وصف أهوال يوم القيامة، والجدير بالذكر، فإن محمد كان قد تأثر بالقصص الديني والأدب الإنجيلي والتلمودي، فضلا عن الأدب الزرادشتي المتداول في شبه الجزيرة، نهل منه ليس بطريقة المقلد الاعمى، ولكن بطريقة المبتكر على

منوال الثقافة الصحراوية والذوق العربي. علينا عدم نسيان ما دللنا عليه سابقا بالقول إن شبه الجزيرة كانت بؤرة للهرطقات اللاهوتية، ومهبطا لمختلف المعتقدات القادمة من المناطق المجاورة، تأثر نبي الإسلام بها مع إعادة صياغتها ليس بالعجب العجاب.

يطغي على سور الجيل الأول الشعور بالخوف، شعور يعكس عدم الوثوق من نجاح الدعوة في أيامها الأولى، لذلك نجد في السور الأوائل ضربا من إستنهاض الهمة، والدفع للمضي قدما في المهمة، مهمة إصلاح المجتمع والثورة على كل ما هو سائد، سور تراوحت بين الحماس والوجدان الملتهب إنفعالا.[30] يتجلى ذلك في ترديد القَسَم، طريقة مألوفة لدى العرب أنذاك، إلا أن القَسَم يعكس حالة من اليأس والغضب في آن كما سنبين، شعور باليأس بسبب الرفض الشديد المتكرر الذي لقيه من قومه، الغضب بسبب عدم إنصياعهم لنذره ووعيده. لقد تمنى محمد خلال هذه الفترة تدخل معجزة إلهية حتى تبكت الأفواه، لكن عدم حصول ذلك، جعله يلتفت إلى الجمل والكلمات التي يقولها على أنها معجزة ربانية، كان حقا مؤمنا من صميم قلبه أنه بين الفينة والأخرى يتلقى أوامر صادرة عن قوة ماورائية على أن يقول كذا أو يفعل كذا، ما يفسر تكرار صيغة الأمر "قل". من جانب ثان نجد شعور آخر كنا قد ذكرناه هو التمني أو الرجاء، محمد كان متيقن من صعوبة مهمته، مع إيمانه الراسخ بضرورة الإصلاح عبر قلب النظم الإجتماعية والسياسية، وذلك لن يتم إلا عبر تثوير البنية الدينية، ولقد وضحنا ذلك عند حديثنا عن طبيعة القرآن المكي.

لا نختلف مع التراث الإسلامي حول سورة العلق والتي تأتي في مقدمة سور الجيل الأول، لها أهمية بالغة لأنها تمثل ذروة التجربة المحمدية قبيل حدث إعلان النبوة. في الفصل السابق تحدثنا عن ظاهرة النبوة وحاولنا تفسيرها من منظور إجتماعي ونفسي، فالنبوة عدت كحركة إصلاحية في التاريخ القديم، كما أنها تقوم على ظاهرة شديدة التعقيد والغموض ألا وهي الوحي. لم يتوانى التراث عن تقديم تفسير لهذه الظاهرة، ولكنها لا تخرج من فلك الماورائيات ومدار الشعبذات، وكأنها أحيطت بطوق من المحظورات، فالمشهد الذي تقدمه جل المصادر الإسلامية وهو أن محمد قبل حادثة الوحي كان يرى أمورا مريبة ويسمع أصواتا غريبة، حيث جاء على لسان شرحبيل أن رسول الله قال لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء يا محمد، وفي رواية أرى نورا أي يقظة لا مناما وأسمع صوتا وقد حسبت أن يكون والله لهذا الأمر.

---

[30] تاريخ القرآن ص 6.

المصادر على كثرة مصنفيها تجمع إجماعا على هذه المشاهد قبيل حادثة الوحي كإرهاص من إرهاصات الحادثة، هناك نجد رواية أخرى توضح هذه الإرهاصات: طيلة العشرة شهور التي تقدمت الوحي كان يتخلل نومي نور باهر يشبه فلق الصبح وكنت حينما أبتعد عن الديار أسمع أصواتا تنادي يا محمد يا محمد فكنت أنزر يمنة ويسرة ومن خلف فلا أرى إلا شجيرات وصخورا فيأخذني القلق والحيرة. لا ننكر حصول مثل هذه الأمور بناء على تجربة المتصوفة الذي يستمعون إلى مثل هذه الأصوات ويرون مشاهد لا يراها الآخرون، ومحمد هو من رواد تيار الحنيفية في مكة، تيار معروف بزهده وتبتله وعلو أخلاقه وقوة كرمه، وعدم إنكارنا لها ليس لأنها جاءت في كتب كبار المحدثين والمؤرخين المسلمين، كالبخاري والطبري وابن الكثير وإبن هشام، فنحن لا نقدس الأشخاص ولا نجل الأسماء، فذلك منهج من سلك طريق الإيمانيات والمسلمات، فالمسلم عندما يستمع للرواية قد لا يقبلها، ولكن عندما يسأل عن صاحب الرواية فيقال له البخاري أو إبن العباس يسلم مباشرة بالخبر وبلا أدنى تفكير أو مراجعة. سنتطرق لما تفضل به الكاتب خليل عبد الكريم في رده على د. هشام جعيط الذي رفض الأخذ بروايات علامات النبوة قائلا :« وقصة علامة النبوة بين كتفيه ونبوءة بحيرى الراهب وتظليله بالسحابة كل هذا مختلق ولا أساس له في التاريخ إنما يدخل في المخيال الديني الشعبي الذي يتنامى في آخر العهد الأموي».[31]

لقد أصاب جعيط كبد الحقيقة بهذا القول، ملخصا في كلمات جوهر ما نحاول تحقيقه على مدى كتابنا هذا، تصفية وغربلة السيرة وتاريخ بدايات الإسلام من الأساطير والخرافات، غير أن الكاتب خليل عبد الكريم ما انفك يدافع عن التراث دفاعا أعمى مفتقدا للروية ومسلوب الرصانة، فيرد على جعيط قائلا : « أي تاريخ إستند إليه جعيط في الإستعلاء على تنبؤ بحيرى وعلامة النبوة في الكتف ولماذا لم يشر إلى المصادر التاريخية التي تحظى بكل الإحترام وبالغ التقدير التي تؤكدها، هل نقذفها في المحيط ونأخذ باستكباراته هو ومن على شاكلته ؟ » [32] نرد ؛ المسألة برمتها ضرب من الميتاتاريخ ولسنا بحاجة للتاريخ حتى نستند عليه، ثم إن المصادر التاريخية الإسلامية لها مكانتها وسبق تأكيدنا بضرورة الإعتماد عليها، لكن ليس للتهليل والتجليل على شاكلة شعب مقهور أمام الحاكم المستبد، يجب وضعها على محك النظر، إنتقادها وتحديد مواطن الضعف والهون فيها، إذا كانت المصادر محترمة وتؤخذ بعين الإعتبار فهل ذلك يعني إضفاء هالة من التقديس عليها ؟ ذلك نفهمه من قول عبد الكريم، الذي والحق يقال، ساهمت كتاباته وأفكاره في دفعي لبلورة فهم مغاير للإسلام، لا شك أن

---

[31]هشام جعيط، تاريخ الدعوة المحمدية.
[32]فترة التكوين سبق ذكره.

القارئ لا حظ إعتمادي المتكرر على مراجعه في الفصول السابقة، ولكن أنتقد تلك المراجع وأستقي منها بحذر وأعترض على بعض النقاط وأحاول قراءتها قراءة مغايرة، ذلك هو المنهج الذي أعلنت عنه منذ البداية، الإلتزام بالمصادر التاريخية الإسلامية بشرط التعاطي معها من منطلق بشري محض، والبشر يخطئ ويصيب، فهل بالإمكان إستنتاج غير التهليل والإكبار المبالغ فيهما إلى حد التقديس بعد هذا الوصف ؛ إن البلاذري وابن الكثير والسيوطي شموس ساطعة في سماء الفكر الإسلامي ينحني لهم كبار رجال الدين الإسلامي المعاصرون إجلالا، فإذا اتخذناهم سندا لنا في تدعيم أفكارنا وآرائنا فيتعين على هؤلاء إذن (يقصد مؤرخو الإسلام وكتاب السيرة المعاصرون) أن يسلموا بها.[33] إن هذا الإنحناء للشخصيات هو سبب نكسة المسلمين منذ أربعة عشر قرن.

نعود الآن إلى معضلة الوحي، ما الذي حصل مع محمد في الغار المعروف باسم حراء ؟ إن هذا السؤال في نظري يعتبر أشد صعوبة من كل العلوم مجتمعة، هنا يقترح خليل عبد الكريم نظرية في علم النفس محترمة لتفسير هذه المعضلة، تسمى نظرية الحافز النفسي لفرويد، مفادها أن الإنسان عندما يتمنى تحقيق أمنية أو رغبة في حياته ولا يقدر على ذلك، يصبح الحلم الملاذ الوحيد لتحقيقها، وواضح قيام النظرية على فكرة اللاوعي واللاشعور الفرويدي، كما ذهب النفساني النمساوي ألفرد أدلر، كون الإنسان عندما يشعر بالنقص تكون الأحلام فرصة ليحقق ما يشتهيه من تعالي وسيطرة.[34] إن هذه النظرية معقولة، حيث تضعنا على درب الفهم النفسي والإنساني للمعضلة والقطع مع الماورائيات والغيبيات، ولها جذورها في التاريخ العقائدي واللاهوتي، حيث أن كبار المتزهدين والمتصوفة كانوا يرون مشاهد غريبة ويسمعون همسات ووشوشة بعد فترة طويلة من التأمل والتعبد، ومحمد هو من الأحناف الذين كانوا يعتزلون أهاليهم بحثا عن الهدوء حتى يرفعوا من درجة التركيز أثناء التأمل والغوص في سبحات المخيلة. لدينا في التاريخ الفلسفي الديني تجربة فريدة ألا وهي تجربة بوذا الذي وصل إلى مايسمى بالنيرفانا، لا أجد لها رديفا في اللغة العربية، ولكن يمكن فهمها وكأنها ضرب من النشوة الروحية. الجدير بالذكر، فإنه منذ التاريخ البابلي والآشوري ترسخ الإعتقاد بأن الله يكشف عن نفسه في الحلم معلنا إرادة السماء وكاشفا المستقبل.[35] من الضروري الوقوف حول معضلة الوحي وتشخيصها تشخيصا علميا قبل المضي في إعادة الترتيب التاريخي للسور.

---

[33] ص 293

[34] ص 304.

[35] ص 305.

إن الإستشهاد بالفلسفة اللاهوتية القديمة القائمة على جملة من المفردات من عقل فعال، وعقل مستفاد، والقوة المتخيلة، والفيض الأفلوطيني، والعالم العلوي والسفلي، إلخ لمحاولة فهم معضلة الوحي، أمور تجاوزها الزمن، وأصبحت اليوم صبيانيات التي ربما لا تصلح سوى وأن نسردها على الأطفال قبل نومهم، خاصة في ظل التقدم الرهيب للطب وعلم النفس وعلوم الإدراك cognitives sciences.

إن المفتاح الذي سيفك لغز الوحي متمثل في ظاهرة الرؤيا، يصفها التراث الإسلامي بالرؤية الصادقة في المنام. عن عروة ابن الزبير عن عائشة : أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في المنام فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. الرؤيا مقترنة بالنبوة، ولا وجود لها من دون حضور الرؤيا، فإذا كان مصطلح النبي مشتق من النبوءة والتنبؤ بحدث ما، فذلك يحصل عبر الرؤيا التي تخول للنبي توقع المستقبل، وهنا علينا عدم الخلط بين الرؤيا بالألف، والرؤية بالتاء المغلقة، فالأولى مجالها المنام في حين الثانية مجالها اليقظة والبون شاسع بينهما. كثر من عاشوا هذه التجربة الذاتية والإستثنائية عبر التاريخ، فالنبوة بما هي وحي ليست منحصرة مع نبي الإسلام وأنبياء بني إسرائيل، بل هي ظاهرة عامة عرفتها الديانات الوثنية والتوحيدية.[36] تتضمن النبوة إحساسا وشعورا لا يمكن توصيفه بالجمل الإعتيادية، أي أنها حالة نفسية معقدة وغامضة يعجز صاحبها عن تفسيرها، وهو ما دفع محمد مرارا وتكرار أثناء دعوته، للتأكيد وأن ما يقوله ليس شعرا ولا كهانة إنما نبوءة، ولكن المكيون لم يستوعبوا قولته تلك لأنهم لم يعيشوا التجربة، فالتهموه بالجنون، وربما في اتهامهم له بذلك يوجد جانب من الموضوعية، لأن محمد عاش ما يسمى بالاكستاز (exstase) ، ضرب من الوجد الصوفي، هذا الوجد نجده عند جميع الأنبياء عبر التاريخ القديم وخاصة عند الشامانيك أو الشامان (chaman)، وهم أشخاص مقدسون يلعبون دور الوسطاء أو الشفعاء بين المجتمع والأرواح.

هناك إشتقاقين للكلمة، الأول يقال أنها "صامان" مشتقة من "صا" أي المعرفة وبالتالي تعني صاحب المعرفة، أما الإشتقاق الثاني وهو الأرجح، حيث تعود للغة السنسكريتية (sanskrit) اللغة الهندية القديمة، وهي صرمناص وتعني المتعبد الصوفي، والبعض الآخر يعود بالكلمة إلى جذر يحمل معنى الحركة والقفز والرقص. الشامانية تقوم على مفهوم الأرواحية animisme وجود قوة روحية خفية سارية في أجزاء الكون، وما يميز الشاماني عن اللاشاماني هو القدرة على السفر إلى العالم العلوي

[36]من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ سبق ذكره، ص 59.

بروحه، ثم إن التصور الشاماني للإنسان يتلخص في إزدواجية الروح، لدى الإنسان روح تسكن الجسد لا تغادره، في المقابل هناك روح ثانية جزئية قادرة على مغادرة الجسد بحرية أثناء النوم، أو الغيبوبة، أو المرض،[37] نلاحظ هنا التقارب الشديد مع حدث الإسراء والمعراج.

يحاول الشاماني أن يكون محل إهتمام الكائنات الغيبية المافوق الطبيعية، فينغمس في التجارب الصوفية، وذلك قريب جدا من تجربة الأحناف الذي كانوا يرجون قدوم نبي حتى يصلح أحوال المجتمع فانهمكوا في التأمل والعزلة عسى أن تختارهم السماء، كما أن تجربة الشاماني الصوفية تتمحور في غيبوبة الشامان، الغيبوبة كطريق لاشعوري حتى تسافر روحه إلى العالم العلوي أو إلى العالم السفلي، وهو ما كان يحصل مع نبي الإسلام إذ تنتابه موجات من الصرع فيرى ما لا يراه الآخرون ويسمع ما لا يسمعونه. هنا يثور سؤال ؛ لماذا ظاهرة الشامانية تكون حكرا على أشخاص دون آخرين ؟ هل توجد خصائص إستثنائية يجب أن تتوفر لكي يكون الإنسان شامانا ؟

للاضطرابات النفسية والذهنية دور حاسم في تشكل الشامانية، وهو ما أثبته الباحثون النفسانيون، أي أن الشاماني يعاني من مرض العصاب أو الصرع، ولقد كتب أبقراط أشهر أطباء اليونان في العصر القديم، أن داء الصرع كان يعتبر كمرض مقدس، أثناء الصرع يدخل المريض في غيبوبة، وهو ما يفسر لماذا اعتقد محمد عندما كانت تعتريه تلك الغيبوبة وهو غارق في التأمل والتفكير، أن قوة إلهية تحل فيه.[38] إن علوم الطب والإدراك الحديثة لديها موقف آخر من مرض الصرع، موقف أثبت بالأدلة التجريبية على أنه مرض عضوي، حيث يصنف علم الإدراك الصرع على أنه مرض نفسي (psychopathologie) ، مرض نفسي يؤدي بالمريض إلى فقدان القدرة على التمييز بين أفعاله الإرادية واللاإرادية، يصبح عاجزا تماما عن إدراك محيطه الخارجي، مرض يصيب الجهاز النفسي والعصبي في آن. مع تفسير أمراض الإدراك وفهم أعراضها وعللها بطريقة تجريبية وعلمية سقط التقليد الفلسفي الديكارتي الرافع للواء الأنا والذي يعرف الإنسان على أنه جوهر مفكر، حيث أكد ديكارت أنه في قولنا : "أعتقد أن كذا" لا يمكن أن يكون إلا هو هو، أي القول يعود لصاحبه وليس لشخص آخر، ما يسمى في علوم الإدراك الحصانة ضد الأخطاء الهووية (l’immunité à l’erreur d’identification) .[39321]

إن مبدأ الحصانة الهووي في علوم الإدراك وعلم النفس يحصن الفرد من أن ينسب أفعاله وأقواله لشخص غريب أو قوة غامضة خارجة عن نطاق إدراكاته، بيد أن شرعيته إهتزت واتضح أنه لا

[37] فراس السواح، موسوعة تاريخ الأديان الشعوب البدائية والعصر الحجري الكتاب الأول، الطبعة الرابعة 2017، ص 176.
[38] تاريخ القرآن، ص 24.
[39] Marc jeannerod, Le cerveau volontaire, Odile jacob science, p 227
الكتاب باللغة الفرنسية وقمنا بترجمة الفقرات المقتبسة إلى العربية.

يصمد أمام حالات الصرع والازدواج في الشخصية، ذلك ما أثبتته الدراسات والبحوث حول أمراض الإدراك النفسية. التجارب السريرية المعقدة والمتطورة تعتمد على تقنيات جد حديثة مكنتنا من اكتشاف مكونات الدماغ البشري، وفهم أدق دواليبه. كشفت الصورة الدماغية أن النسيج العصبي قد يتعرض إلى نوع من التلف ما يؤثر سلبا على الجهاز الهووي فيؤدي إلى ضرب من الهذيان.[40] مرض الازدواج في الشخصية هو مرض نفسي بالأساس، يعاني فيه المريض حالة من الهذيان الشديد تحمله إلى الاعتقاد وأنه فاقد لإرادة أفعاله وأقواله وأنه أصبح تحت سيطرة قوة غير منظورة. حسب النتائج السريرية المشخصة لهذا المرض، فإن المريض ليست له القدرة على تسيير أفعاله وأقواله والتعرف عليها، لم يعد المتحكم الفعلي لما يفعله أو ما يقوله، وهنا نذكر بعض الشهادات السريرية لبعض المرضى :

1- لا تنتبه إلى ما أقوله لأن شخص آخر الآن يتحدث في مكاني، أنا لست سوى دمية تحركها الخيوط.
2- 2 - كلمات تخرج من فمي، لا أدري، لست قائلها يوجد شخص آخر في فمي.
3- 3 – كل ما أقوله ليس لي إرادة فيه.[41]

إذا فتح طبيب مختص في علم النفس الإدراكي والأمراض النفسية القرآن، سيصطدم ببعض الآيات.* ليستنتج مباشرة بعد قراءتها وأن قائلها تنطبق عليه تلك الأعراض، فانظر إلى البون الشاسع بين العقلية العلمية والعقلية اللاهوتية، الأولى تتبنى منطق الواقع بظواهره المادية وأسبابه الموضوعية، والثاني منكفئ وراء المنطق السحري العجائبي، لدى هذا الطبيب فإن مشهد غار حراء ليس سوى موجة من الاضطرابات النفسية والدماغية وكلها تعود لخلل في الإدراك. الإنسان الذي يعاني من الهلاوس السمعية، قد يرجئها إما إلى داخله النفسي أو محيطه الخارجي، هي هلاوس يطلق عليها بهلاوس الألفاظ الصوتية(acoustico-verbale) ، التفكير يصبح مسموعا و مصدره متكلم من الخارج، خلل يصيب منطقة معينة في الدماغ تسمى الفص الصدغي(lobe temporel). إن دراسة بنية الدماغ قد تكون المفتاح لفك معضلة الوحي وفهمها فهما علميا وطبيا لا سحريا وغيبيا، وبطبيعة الحال فإن هذا القول لن يروق لكل من تربى على المسلمات اليقينية ذو العقلية اللاتاريخية اللاعلمية، عقلية كن فيكون. إن الدماغ مركب من فصوص تجمع بينها شبكة اتصال دقيقة، وعليه، فإن أي اختلال يضرب

---

[40] Le cerveau volontaire p 229.

[41] p 313.

*﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيۤ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِيۤ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّيۤ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس 15).
﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف 9)

تلك الشبكة يحدث اضطرابا في الدماغ وفصوصه، الفص الجبهي (lobe préfrontal) يلعب هذا الدور، دور المحافظة على شبكة الإتصال وعدم التداخل في أدورا بقية الفصوص الدماغية، فعندما يعمل فص معين يقابله عدم نشاط الآخر، فالفص الجبهي يسمى كذلك الفص المانع، أي ينظم سيرورة عمل فصوص الدماغ ويحفظ التناسق والإنسجام بينها. في حال إصابة الفص الجبهي بالخلل، فإن ذلك سيؤثر مباشرة على الفص الصدغي والجداري (lobe pariétal) فيصبحان في حالة نشاط دائم نظرا وأن الفص المانع لم يقم بدوره بسبب الخلل أو التلف الذي لحقه، وتبعا لذلك، فإن نشاط تلكما الفصين يحدثان هلاوس سمعية وبصرية، إلى جانب عدم التعرف على مصدرية أفعاله وأقواله، فينسبها إلى عامل خارجي غير منظور.[42]

أثبتت الدراسات السريرية أن مرض الإزدواج في الشخصية والصرع لهما نتائج جد غريبة على المريض، إلى درجة أنه قد يعتقد ليس رجله أو يده لا يتحكم فيهما بل كل بدنه تحت عامل غير منظور، وبالتالي سيكون مسلوب الإرادة والفعل. علاوة على ذلك، فإن المريض يشعر بازدواجية جسده أو بتنقله، وهذا يقيم الدليل التجريبي والطبي القاطع أن ما يسمى بالخوارق، ليس سوى خلل يصيب شبكة الإتصال لفصوص الدماغ، فالدماغ إذن هو مفتاح ما يعيشه الفرد أحيانا بما يسمى تجرد الروح عن الجسد، أو الرؤيا إلخ. هنا تذكر تجربة مثيرة للإهتمام، إذا قمنا بتعريض دماغ الإنسان إلى صعقة كهربائية، يشعر وكأنه إنفصل عن جسده وهو يطوف في الهواء، ولعلنا سنفهم لغز حدث الإسراء والمعراج الذي حصل مع نبي الإسلام، وهو في حقيقة الأمر رؤيا، مثله مثل تلقيه الوحي في غار حراء. الجدير بالذكر، فإن مرض الصرع إضافة إلى إحداثه إختلالات دماغية، يولد شعورا بعدم الإعتراف بالمرض، نوع من الرفض الشديد وكأنه هو في حالة صحية جيدة والآخرون هم مجانين، وهو ما يطلق عليه عدم الوعي بالمرض (anosognosie)، وربما إذا قمنا بقراءة القرآن في ظل الإكتشافات العلمية والطبية الحديثة سيتغير تماما الفهم التقليدي للآيات، ونحن نلاحظ درء القرآن لشبهة الجنون الموجهة ضد محمد في مناسبات عديدة.* إن ذلك التعنت المتكرر مرده إلى إعتقاد المريض أنه في صحة جيدة في حين الآخرون بلهاء وجهلة، عدم وعيه بالمرض يحميه من الهلاوس السمعية والبصرية. إن فقدان الشخص للحصانة النفسية ضد الأخطاء الهووية يفقده القدرة على تثبيت الإرادة في تحقيق الخيارات وتحديد رؤيته المستقبلية، وتعرض تلك الحصانة يؤدي آليا إلى إتلاف وعي التحكم في الأفكار

---

[42] p 235.

*﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ (التكوير 22
﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُون وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون﴾ (الحاقة 38-42).

والأفعال، ولعل بعض الآيات نفهمها على هذه الشاكلة،* فالوحي قد يكون ظاهرة نفسية معقدة سببها إضطراب حاصل في شبكة الإتصال بين فصوص الدماغ، مما يحمل الشخص إلى الإعتقاد وأنه في حضرة الآلهة. لقد سبق وقلنا أن محمد إعتقد إعتقادا راسخا رسوخ الجبال، كونه دخل في إتصال مباشر مع قوة غير منظورة حسبها في الأول شيطانا فزجع منها زجعا شديدا، ثم طمأنته خديجة وأقنعته وأن ما رآه هو ليس سوى ملاكا لا شيطانا. نلاحظ إذن إنقلابا كبيرا لفهم الآيات الواردة في سور الجيل الأول من القرآن المكي في ظل التشخيص الطبي والنفسي الحديث، لأن هذه السور ما فتئت تردد وأن محمد لا بشاعر ولا بمجنون، تكرار ليس بالإعتباطي، إنما ناتج عن حالة نفسية خاصة عاشها طيلة السنوات الأولى من الدعوة، ولعل قول العفيف الأخضر عكس جزء من الحقيقة بتوصيفه القرآن كوثيقة طبية : «إنقاذ محمد التاريخ من محمد الإيمان بخطاب معرفي عن محمد من خلال تحليل القرآن بعلوم النفس بما هو وثيقة طبية، وسيرة ذاتية ووثيقة تاريخية ذات مصداقية عالية » .[43]

إنطلاقا من هذه المقاربة العلمية تنفك عقدة الوحي وتصبح ظاهرة قابلة للدراسة والنقاش، فإذا قلنا أنه حالة ناجمة عن إضطرابات نفسية وإدراكية فما هي الأسباب المؤدية إلى ذلك ؟ لقد حَلَّل العفيف الأخضر تلك الأسباب وشَخَّصَهَا، معتبرا أن ما تعرض له نبي الإسلام في طفولته لعب دورا هاما في تردي حالته النفسية، ذلك راجع أساس إلى أمه آمنة حينما حملت به. لم يعرف محمد والده، إذ توفي قبل أن يرى النور، ما يؤثر على نفسية الطفل. أضف إلى افتقاده لأمه طيلة فترة الرضاعة، حيث تكفلت به حليمة مرضعته حسب كُتَّاب السيرة، وفي هذا السياق يؤكد علم النفس أن غياب الوالدين عن الطفل في أيامه الأولى قد يسبب اختلالا في تكوين شخصيته ويؤثر على سلوكه، فالطفل في حاجة إلى عيني الأم حسب علم النفس الحديث.[44] علاوة على ذلك، فإن وفاة زوج آمنة والد محمد بعد فترة وجيزة من الزواج قد يكون شكل صدمة على نفسية الأم، مرت بمرحلة من القلق والحيرة قبل ولادته، حيرة ولدتها أزمة التكفل بالطفل والإنفاق عليه خاصة في مجتمع ذكوري، ما جعلها تعاني من إنهيار عصبي أَثَّرَ سلبا على محمد وهو في بطن أمه. إذن، حالة الأم المتأزمة نفسانيا وعصبيا بسبب وفاة زوجها كانت لها عواقب على الجنين، عندما وضعته، عاش محمد الطفل ظروفا صعبة بداية بفقدانه حنان الوالدين، فضلا عن تشاءم القبائل العربية منه، فالطفل الذي يموت أبوه قبل ولادته يعتبر مشؤوما.[45] نجد في القرآن إشارة إلى ذلك * أي أن مبغضك هو الذي لا نسب له، أو إذا مات انقطع

---

*﴿ قل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ (الأنعام 50)

[43] من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ ص 13.

[44] نفسه.

[45] ص 38.

ذكره. الظاهر أن قريش كانت تعايره نظرا وأنه لا نسب له، وقيل أيضا أنه صنبور، والصنبور هو الغصن المقطوع من شجرة.

قلنا إن الظروف الصعبة التي عاشتها آمنة، لعبت دورا في نحت شخصيته وتراكم ترسبات الاضطرابات النفسية والإدراكية مع تأثر فصوص الدماغ بشكل واضح، وهنا تنقلب رأسا على عقب القراءة السابقة للوحي المذكورة آنفا، كذلك قراءتنا لرواية الملكين اللذين شقا على بطنه لتطهير قلبه وتنقيته، مشهد قد يكون ناتج عن خلل في الإدراك وتداخل شبكية الإتصال بين فصوص الدماغ وبالتالي هو هلوسة بصرية وسمعية ليس أكثر.[46] لا شك وأن القارئ له تحفظ شديد على ما تفضلنا به وكونه تجاوز للحدود بالتظنن والتشكيك في المدارك العقلية والعصبية للنبي، فكيف يمكن لشخص يعاني من هكذا أعراض أن يصلح مجتمعا ويدوخ العرب ويقضي على العصبية الطبقية ومن ثم يتمكن في وضع اللبنات الأولية لدولة العرب المستقبلية ؟ إن القول كون ظاهرة الوحي هي إفراز لجملة من الإضطرابات النفسية الدماغية لا يعني الفقدان الكلي للإرادة أو التفكير، توجد أسماء كثيرة عرفها التاريخ كانت تعاني من مشاكل نفسية أو عصبية، وبالرغم من ذلك بلغت مراتب عالية في التفوق والإبداع، بل إن المرض نفسه شكل السبب المباشر لنجاح تلك الشخصيات والنبي محمد هو واحد منهم، ولا ننسى ما أكده أبقراط أن مرض الصرع هو مرض مقدس لدى القدماء، أي الشخص الذي يعاني منه مرجح لكي تختاره الآلهة.

عودة إلى الظاهرة الشامانية وهي ظاهرة تتعلق بالدين البدائي، فالشامانيون هم أنبياء، وسطاء بين الأرواح والبشر ويصعدون بأرواحهم إلى العالم العلوي. إنهم يعانون من إضطرابات نفسية وذهنية ما يفسر سبب إتصالهم بالآلهة، في المقابل توجد دراسة علمية ثانية تستبعد أن يكون الشامانيون كلهم مضطربين نفسانيا وعصبيا، في أغلب الأحيان هم مرضى نفسانيون ولكن ذلك ليس ضرورة حتمية، بل بعض الشامانات لم يحوزوا على رتبة الشامان إلا بعد تمكنهم من الشفاء، أي نجحوا في شفاء أنفسهم، وبالتالي فإن الفوز بموهبة الممارسة الشامانية هو مقدمة لحل الأزمة النفسية التي سببتها الاعراض الأولى للإنتخاب أو النداء. [47] بناء على ذلك، نستبين أن المرض النفسي أو الدماغي لا يؤثر سلبا على المدارك الصحية لمن عاش ظاهرة الوحي، إذن فالنبي محمد لم يجد صعوبة في التعايش مع تلك الإضطرابات النفسية والذهنية، حيث أن مرض الصرع سمح له وهو في غار حراء مكان بعيد عن الضوضاء ومثالي للتأمل والتبصر أسوة بخلق ومعتقد الحنفاء، بالدخول في حالة من الأونيريزم، حيث

---

* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ '(الكوثر الأية 3)

[46]من محمد الأيمان إلى محمد التاريخ ص 46

[47]موسوعة تاريخ الأديان، الشعوب البدائية والعصر الحجري، ص 162.

يعرفه علماء النفس والأطباء كنشاط ذهني يشبه الحلم، ولكن يحدث خارج النوم، قوامه رؤى وغالبا ما يحدث بعد نوبة الصرع. ثم إن الأونيريزم يؤدي بالشخص إلى مرحلة الإكستاز (extase) ضرب من الوجد والشطح الصوفي، إنه شرط ضروري للنبوة، الشخص يهذي والهذيان ليس له معنى سلبي لأن فعل هذى يهذي، مرادف للتنبؤ في الكتاب المقدس.[48] إن الشطح الصوفي يشتمل على هيجان عصبي وفقدان للذاكرة ما يفسر نسيان نبي الإسلام لبعض الآيات ونسخها، ومن ثم فالإكستاز يخلع عن صاحبه لباب الوعي ليقتحم عالم المخيلة، عالم ليس فيه قيد أو شرط فينسج ما يشاء من صور وأفكار، وذلك قريب جدا من عالم الجنة وعالم النار في القرآن.

توجد إشارات في النص القرآني نستخلص عند التوقف عندها أن وحي القرآن هو ضرب من الرؤيا التي تحصل عن طريق القلب لا البصر، والرؤيا القلبية لا تحصل للأشخاص العاديين بل للأشخاص الذين بلغوا درجة متقدمة من التصوف والعزلة الذاتية، فعاشوا الوجد والشطح الصوفي ليتمكنوا من رؤية أشياء لا يراها الآخرون﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ ﴾﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ (النجم 14/11). ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ ﴾﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء 193-194). ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل/102) آيات من خلالها نستنتج وأن الوحي عملية نفسية تتم عن طريق القلب، فالملاك جبريل هو صورة رمزية تمثل حالة الوجد التي عاشها محمد تحت تأثير مرض الصرع و مظلة التأمل الصوفي، أما القرآن فيمثل إلهامه.

[48] من محمد الإيمان ص 74.

تلك هي وجهة النظر التي تقدمها البحوث والدراسات العلمية والنفسية الحديثة، ونحن نعلم سلفا أن وجهة النظر هذه تنسف الوازع الروحي لقيمة الوحي وتنزل بها إلى الوضعانية التاريخانية التي تنفر منها وبشدة العقلية المؤمنة الدغمائية، ولكنها حسب رؤيتي فيها جانب إيجابي، حيث أنها ترتقي بالظاهرة الدينية إلى مصاف العلوم وتخلصه من الفهم السحري الميتاتاريخي، وهذا هو المطلوب في زمن لم تعد فيه الأساطير والخرافات تسيطر على ذهنية العامة، طبعا ما عدا العقلية التقليدية العتيقة المؤمنة، حتى أن الغرب تمكن من تقديم قراءة جديدة للمسيحية منسجمة مع التقدم العلمي والحداثة وتخلص إلى الأبد من الفهم المتزمت واللاتاريخي للدين، وذلك ما يحتاجه اليوم العالم العربي الإسلامي، فهم وقراءة جديدة للدين تقوم على المنهج الإستقرائي، النفسي، النقدي، والتاريخي. شخصيا لا أتبنى هذا الموقف من ظاهرة الوحي، لأنني أعتبره مسايرة للأحداث والوقائع، ومحاولة للتمرد على الوضعية الإجتماعية والإقتصادية السائدة في شبه الجزيرة إبان القرنين السادس والسابع الميلادي، ولما أكدنا كون النبي هو مصلح، فالوحي سيكون الأداة لتحقيقه وتجسيده على أرض الواقع، وسيأتي توضيح هذه الفكرة أكثر في قادم الصفحات .

قلنا وأن ترتيب السور ترتيبا دقيقا أي ترتيب يفضي لمعرفة إذا ما كانت سورة تسبق سورة أو تأتي بعدها يكاد يكون مستحيلا خاصة فيما يتعلق بالقرآن المكي، ولكن توجد منهجية حديثة وواعدة تتأسس على التحليل الإبستيمي الفيلولوجي والمقاربة التاريخية الجدلية. نولدكه كبير المستشرقين الألمان تفطن إليها وطبقها في كتابه وسنعتمد عليها لكي نعيد ترتيب السور القرآنية. الثابت والمتداول في العرف الإسلامي أن سورة إقرأ أقدم سورة، ونحن نتفق مع التراث في ذلك، نتفق معه كونها أول السور مع أننا نختلف في كثير من التفاصيل. أول ما يلفت الإنتباه هو فعل الأمر "إقرأ"، ويعلل كتاب السيرة سياق هذا الأمر بالرؤيا التي أسهبنا فيها آنفا الحاصلة في غار حراء. إبن هشام تحدث عن الحادثة مؤكدا في نفس الوقت أن عامل الرؤيا حاصل في اليقظة لا المنام. أما إبن إسحاق أول من صنف السيرة، تختلف روايته عن إبن هشام، ذلك وأن عامل الرؤيا واقع في المنام : « خرج رسول الله إلى غار حراء كما كان يخرج لجواره ومع أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل بأمر الله تعالى. قال رسول الله : جاءني جبريل وأنا نائم فقال : إقرأ فقلت : ما أقرأ ؟ حتى ظننت أنه الموت، ثم كشطه عني فقال : إقرأ ، فقلت وما أقرأ ؟ فعاد لي بمثل ذلك ثم قال : إقرأ فقلت وما أقرأ ؟ وما أقولها إلا تنجيا أن يعود لي بمثل الذي صنع بي فقال : إقرأ باسم ربك الذي خلق ... » إلى آخر

الآية.[49] الجدل واقع في لفظ إقرأ هل يعني القراءة من صحيفة أو كتاب ؟ إنطلاقا من قول ابن هشام ذلك ما نفهمه، إجابة محمد ما أنا بقارئ، توحي وكأن جبريل عرض عليه كتابا وطلب منه القراءة، في حين أن المشهد مغاير تماما لهذه الحقيقة. هنا يثور سؤال : هل إختلطت الكلمات على ابن هشام ومن بعده البخاري وتداخلت الروايات فأصابها الوهن والضعف، فتغير الخبر من ما أقرأ إلى ما أنا بقارئ ؟ واضح أن الفرق بينهما كبير، ما أنا بقارئ تنفي قدرة القراءة، أما ما أقرأ فهي استفهام عن الشيء المراد قراءته وبالتالي لا تدحض قدرة القراءة، وشتان بين هذا وذاك.

لدي رأي في هذه المسألة، ألا وهو قد يكون وقع بالفعل قلب الخبر الذي نقله إبن إسحاق من طرف بعض كتاب السيرة، ونعلم جيدا أن التراث الإسلامي سجل على مدى قرون وهو نتيجة تراكمات وإمكانية الزيادة والنقصان واردة، قلب الخبر جاء بعد محاولة إظهار وتثبيت صفة إعجازية لنبي الإسلام وهي صفة عدم القراءة والكتابة، حيث قلنا أن غياب المعجزة الحسية لمحمد أرهق كتاب السيرة والمسلمين الأوائل بصفة عامة، وبدأوا في رحلة البحث عن معجزة وإلصاقها به، وذلك يأتي في غضون حملة الأسطرة الشعواء التي حللناه سابقا لحياة رجل لم تخترق ولو للحظة واحدة نواميس الطبيعة. مما لا شك فيه، فإن كتاب السيرة استبان لهم وأن مضمون القرآن متطابق مع حكايات وقصص مشهورة في أوساط شبه الجزيرة، خاصة عند أهل الكتاب، وبالتالي فإن رواية تلك الحكاية والقصص ليس بمعجزة، وهو السبب الذي دفع كتاب السيرة في تسليط الضوء على أمية محمد.

ما نقله الطبري يتفق مع ما نقله إبن إسحاق :« (...) ثم أتاني فقال : يا محمد أنت رسول الله، قال : فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال :يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله، ثم قال : اقرأ قلت : ما أقرأ ؟ قال : فأخذني فغتني ثلاث مرات ».[50] كما ذكر الطبري أن الحالة التي كان فيها أثناء تلقيه للوحي هي حالة النوم لا اليقظة : «جاءه جبريل بأمر الله فقال رسول الله ﷺ : فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ فقلت ما أقرأ ؟ فغتني حتى ظننت أنه الموت ».[51] قد يتساءل القارئ : لماذا تؤيدون الرواية الثانية أي رواية ما أقرأ أو ماذا أقرأ ؟ سؤال في محله، والإجابة على وجهين، أولا ؛ هل كان جبريل وهو ملاك بعث من أجل مهمة وهي تبليغ الوحي، هل كان على غير علم أن محمد لا يقدر على القراءة والكتابة ؟ إذا كان على علم فإنه تكليف بما لا يطاق، ذلك يعنى أن الله بعث جبريل إلى محمد ليطلب منه القراءة وهو يعلم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وهذا خلف. ثانيا ؛ إن جبريل لم يعرض على محمد كتابا ملموسا من ورق وحبر عندما طلب منه

[49] السيرة النبوية لإبن إسحاق، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت ص 168.
[50] تاريخ الطبري سبق ذكره، ص 298.
[51] ص 300-301.

قراءته، وذلك هو الفهم المتداول لدى المسلمين، أو دعني أقول الذي رسخته المؤسسة الإسلامية التقليدية. هنا نأتي على لفظ اقرأ، ذلك وأن فعل "إقرأ" في السورة يفيد التلاوة والإرتجال أي شخص يستمع لكلام ثم يعيده، وليس القراءة من كتاب إنما القراءة من الذهن أو القلب، إنه ضرب من الإستحضار والآية المذكورة في سورة القيامة تدعم هذا القول : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْآنَهُۥ﴾ فعل إتبع أي أعد وارتجل وكرر ما قيل وما سمعت، وبناء على ذلك فإن القراءة هاهنا بمعنى التلاوة (Reciter) ولا بمعنى التهجي من كتاب أو من ورق، المقصود مجرد التلفظ بالأصوات لا التتبع بالعين لحروف نص مكتوب (Lire, Read).[52] قراءة أكدها خليل عبد الكريم بالقول : « إن الملك لم يعرض عليه شيئا ليقرأه فإذا طلب منه القراءة مع عدم وجود المقروء فهذا ما لا يقره عاقل، إذن ما طلبه ملاك الرب من محمد في غار حراء بقوله اقرأ هو احفظ واجمع واستظهر الآيات والسور التى سأنقلها إليك بلاغا من الله جل شأنه».[53] جاء جبريل بكتاب في المنام وعرضه على محمد : «فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب». إنه كتاب ليس بورقي إنما ضرب من الإلهام والإنجذاب النفسي نتيجة التأمل والعزلة، ونفهم ذلك من قوله بعد أن غطه ثلاث مرات وتلا آيات سورة العلق وانصرف عنه : « و هببت من نومين وكأنما كتب في قلبي كتاب ».[54] وهذا يؤكد رأينا السابق حول الوحي كظاهرة وجد Ecstacy تتم تحت تأثير عوامل نفسية.

لاحظ نولدكه أن لفظ اقرأ في السورة الأولى لا تفيد القراءة النصية الورقية، بل إن فعل قرأ تستعمل في القرآن بمعنى التلفظ المنخفض أو تمتمة النصوص المقدسة، ثم تطور الفعل لاحقا. اليوم عندما يقال فلان قرأ مباشرة نفهم القراءة النصية الورقية، نولدكه نَبَّهَ أنه من المستحسن فهم فعل قرأ في القرآن على خلاف ذلك. من جهة ثانية، استقرأ العديد من الروايات التي تذكر أن نبي الإسلام حينما يقول شيئا تأتي بصيغة " ثم قرأ " والمقصود أنه تلا غيبا من القرآن، ثم شرح كون الكلمة ليست بسامية قديمة ويفترض أنها انتقلت إلى بلاد العرب من الشمال على الأرجح، حيث يبدو أن معنى الكلمة "نادى".[55] نقل البخاري في صحيحه : حدثنا عمرو بن خالد قال : حدثنا الليث عن يزيد عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلا سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير ؟ قال : «تطعم الطعام، وتقرأ السلام من عرفت ومن لم يعرف ».[56] ونقل أيضا : حدثنا يحي بن بكير حدثنا الليث ابن عقيل عن ابن شعاب قال : أخبرني عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله ﷺ يوم خسفت

---

[52] مدخل إلى القرآن الكريم، سبق ذكره ص 79-80.
[53] دولة يثرب بصائر في عام الوفود، خليل عبد الكريم ص 23.
[54] تاريخ الطبري، ص 301.
[55] تاريخ القرآن، ص 31.
[56] صحيح البخاري، رقم الحديث 12.

الشمس قام فكبر وقرأ قراءة طويلة ثم ركع ركوعا طويلا إلى آخر الحديث.[57] واضح أن لفظ اقرأ من خلال هاتين الروايتين يعنى التلاوة والإستحضار من القلب والحافظة.

أثناء غزوة بدر استشار محمد أصحابه حول الخطة المناسبة لمباغتة ومواجهة قريش، الحباب ابن منذر ابن الجموح من بين الصحابة الذين استشارهم قبيل الغزوة، قال ابن اسحاق : فَحُدِثْتُ عن رجال من بني سليمة أنهم ذكروا : أن الحباب ابن منذر ابن الجموح قال : يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من قوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُبُ إلى آخر الرواية.[59] إلا أن ابن الكثير يضيف رواية أخرى لهذه لم ينقلها ابن هشام جاء فيها ما يلي: قال الأموي: حدثنا أبي، قال : وزعم الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن العباس قال : بينا رسول الله ﷺ يجمع الأقباص (أي جماعة من الناس) وجبريل عن يمينه إذ أتاه ملك من الملائكة فقال : يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام. فقال : هو السلام ومنه السلام وإليه السلام.[60] أخيرا تتضح المسألة، إذ أن لفظ إقرأ في القرآن يفيد الإعلان والتلاوة والإلقاء، والمقصود من يقرأ عليك السلام هو يلقي عليك السلام لا غير. إن تحديد المعنى الصحيح للفظ اقرأ ضروري، ذلك وأن فهمنا سيغير لحدث الغار وهو حدث ليس بالعيني، أي ليس في اليقظة إنما في المنام، وربما ابن هشام في نقله لسيرة ابن اسحاق لم يرق له المشهد ، مشهد رؤية الملاك وحصول الوحي أثناء المنام لأنه استشعر نوعا من الحرج، فالنائم قد تنتابه الكوابيس والهلوسة، يرى أشياء غريبة هي نتيجة المخيلة وليست واقعية، لذلك قد يكون ابن هشام بدل الرواية وجعلها رؤية حسية حتى يضفي عليها الشرعية، وله عذره في ذلك، إذ أنه عاش في السنوات الأولى من الدولة العباسية، والعباسيون أقاموا دولة ذات صبغة دينية، الدين والسياسة فيها متناغمان متآزران.[61] هذا الصنف من الدول يستمد شرعيته من الدين كنص سماوي فوق النقد والمراجعة، وقد تؤدي مساءلة المسلمات الدينية إلى تهديد حقيقي للملك أو الخليفة وللدولة برمتها، فكان من الأحسن غلق هذا الباب، باب المساءلة، وإن تطلب الأمر تبديل وتغيير الرواية لتبكيت الخصوم من أهل الديانات الأخرى.

---

[57] رقم الحديث 3203.

[59] ابن هشام السيرة النبوية ص 263.

[60] ابن الكثير السيرة النبوية، سبق ذكره، ص 402.

[61] لمزيد التوسع في هذا الموضوع راجع كتاب التوظيف السياسي للفكر الديني في العصر العباسي من 749 إلى 861 م، وهو أطروحة دكتوراه تقدم بها الطالب محمد حسين الزبيدي تحت إشراف غنية ياسر كباشي، جامعة بغداد 2020.

نأتي الآن إلى لفظ أمي المذكور في القرآن، هل يعني حقا عدم القدرة على القراءة والكتابة ؟ قلنا أن هذه الصفة لطالما احتفى بها كتاب السيرة والمفسرون المسلمون لإبراز المعجزة المحمدية والقرآنية، وهم يرتكزون في ذلك على بعض الآيات القرآنية ومن بينها :

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ﴾﴿ذ‌ٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران 75).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ﴾ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ﴾ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلأَغْلاَلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿فَٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيۤ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف 157).

تقابلها آيات أخرى نستنتج منها أن لفظ أمي تعني الذين لم يعرفوا ظاهرة النبوة أي ليسوا من أهل كتاب ؛

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (البقرة 78).

﴿فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾(آل عمران 20).

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة 3).

إن لفظ أمي في الحقيقة لا أصل له في العربية، ذلك ما أكده عابد الجابري من خلال المعنى الاصطلاحي للفظ :« يرى كثير من اللغويين والمفسرين والمتكلمين أن لفظ الأميين يعني الذين ليس لهم كتاب دين سماوي، فهم إذن غي مقابل أهل الكتاب، وبالتحديد اليهود والنصارى أصحاب الإنجيل. وقد ذكر الراهب الأصبهاني نقلا عن الفراء قوله الاميون هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب. ومن جانب آخر فإن كثير من الباحثين لاحظوا أن اليهود كانوا يطلقون على غيرهم لفظ الأمم أي الوثنين، وكان الرومان يطلون على غيرهم اسم باربارا بمعنى المتوحشون، وكان العرب يطلقون على غيرهم من

الشعوب اسم العجم، فكذلك كان اليهود يطلقون على غيرهم من الشعوب لفظ الأميون أي المنسوبون إلى الأمم الأخرى التي ليس لها كتاب منزل ».[58]

الآيات الأولى من سورة اقرأ صورت تلك الحادثة المهيبة التي مثلت بداية للدعوة الإسلامية، كما كانت بداية لسلسلة من الأحداث المضطربة هزت بشدة نفسية محمد، لولا معاضدة خديجة له وتثبيته على درب النبوة. إن بقية الآيات توحي وأنها متأخرة زمنيا لأنها تتحدث عن الإنسان كيف يتحول إلى طاغية عندما يمتلك الثروة،

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

إنها بداية القطيعة مع أثرياء مكة وطبقتها الأرستقراطية من التجار وأصحاب الجاه والسلطة، وستتعمق هذه القطيعة في كامل سور الجيل الأول. الآيات الأخيرة ؛

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾﴿ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

تشير للثنائية التي يقوم عليها المجتمع المكي، الجماعة الغنية المتحكمة في مصادر الثروة وهي بالتالي مارقة، والجماعة الفقيرة المنكسرة التي مانفك محمد يدعوها للتمرد وعدم الطاعة، وما يلفت الانتباه هو الأسلوب البلاغي الموجز في العبارة، أسلوب الوعيد والتهديد الذي سيتطور مع الزمن والظروف.

المدثر هي السورة الثانية حسب التسلسل التاريخي للقرآن المكي، وذلك مبني على لفظ "المدثر" ويعني الدثار، لفظ يعكس حالة محمد بعد حادثة الغار والهلع الذي أصابه والإرباك الذي مسه، التراث الإسلامي يذكر كيف طلب من خديجة أن تدثره، كما أن حالة الادثار هذه مرتبطة بنوبات الصرع التي تنتابه وكانت المحفز الرئيسي لظاهرة الوحي. الآيات الأولى تسير نحو مزيد من تعميق القطيعة مع الطبقة الثرية المكية ؛

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴾﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾

ملامح الثورة الإجتماعية والإقتصادية بدأت تتشكل من خلال هاتين السورتين. إن الخمس الآيات الأولى من سورة المدثر فيها ضرب من التحفيز، تحفيز من أجل المضي في الدعوة وإصلاح

[58]مدخل إلى القرآن الكريم ، ص 73 .

المجتمع عبر إعلان التمرد ضد الطبقة الثرية المكية، ولما كانت الدعوة في بداياتها المتعثرة تواجه مجتمعا حسيا وماديا، فالماورائيات ليست من أدبياتها، وكيف يؤمن بها وله القدرة على توفير كل ما لَذّ وطاب، فالمال كثير والجاه وفير، كان لحديث الوعد والوعيد المرفق بالصبر والإنتظار صدى في جل سور الجيل الأول، وذلك سيتضح أكثر من خلال دراسة نفسية محمد، فالحسرة والضيم أفرزا ردة فعل عنيفة ضد الكافرين به. إن توظيف الأخرويات (Escathologie) أي وصف أحداث وأهوال يوم القيامة كان أداة للتنفيس عن المكبوت والمكنون، وسلاحا للترهيب والترغيب الذي سيتخذ شكلا تصاعديا، ولنا في هذه الآيات افتتاحا لهذا الأسلوب ؛

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

مع تقدمنا في تحليل سورة المدثر، ستعترضنا جملة من ردود أفعال قوية وثورية، جاءت في صيغة سجعية بيانية، موجزة ومؤثرة، شأن جميع سور الجيل الأول ؛

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً﴾ ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴾﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ ﴿كَلاَّ إِنَّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴾ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ﴾ ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

كلام يستهدف رجلا مكنى بالوحيد، حسب التراث الإسلامي هو الوليد ابن المغيرة أحد أثرياء مكة وصناديدها، وكان قد رأى فيما يقوله محمد ليس سوى ضربا من السحر.[59] الآية 31 ؛

﴿ومَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلاَّ مَلَـٰئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰناً وَلاَ يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

تختلف صياغتها بلاغيا عما سبقها، لقد جاءت نثرية بعيدة عن أسلوب السجع وهو أسلوب سور الجيل الثالث، وذلك ما لاحظه نولدكه،[60] معتبرا إياه وكأنها أضيفت في فترة متأخرة، والأرجح الفترة المدنية لأنها تعرض الطبقات الأربعة للمجتمع العربي في القرن السابع، أولا المؤمنون، ثانيا أهل

[59]أسباب النزول الواحدي، سبق ذكره، ص 468.
[60]تاريخ القرآن، ص 79.

الكتاب، ثالثا، الكافرون، رابعا المنافقون. نعلم جيدا أن شريحة المنافقين لم تظهر إلا في المدينة أين وضع محمد اللبنات الأولى للدولة العربية الإسلامية، كما أن تذييل الآية ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ قد تكون تكملة الآية 30 ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. يخلص نولدكه أن الآية أقحمت لشرح وتفسير الآية 30 حول السر من عدد ملائكة النار.

إن هذا الأسلوب البياني السجعي القائم على التهديد والوعيد المهيمن على سور الجيل الأول، لم ينجح في وضع حد لكبرياء قريش وأفلاذ كبدها، بل ازداد الموقف بينها وبين ابنها محمد توترا، وذلك ما دفعه للإلتفات إلى المظاهر الكونية* والقسم بها، إنه أسلوب خطابي وأدبي آخر سيعترضنا كثيرا على امتدادا سور هذا الجيل، وهو ليس اعتباطيا، إنما صادر عن جوانب نفسية واجتماعية سنعرضها في قادم الصفحات. لم تُقِمْ قريش لهذا الكلام وزنا، ولم ترى في أسلوبه أمرا استثنائيا يبرهن على نبوته، فما كان لها أن تعلن ؛ كلا و الله ! ليس هذا القول على الله إلا افتراء.[61] إثر ذلك الرد القاسي، تعاظم سخطه واستشاط غضبه مما جعل الآيات الأخيرة تحيد عن الترغيب والترهيب لتنتهج طريق الحرب الكلامية، الطعن في شخوصهم مشبها إياهم بالحمر المستنفرة ؛

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً﴾. (المدثر52/49)

<u>**أنتجت سور القلم، المزمل، المسد، الشرح، فالفاتحة**</u> بعد إقرأ والمدثر. هذه السور الخمس علاوة على القاسم المشترك بينها في البنية النحوية والبلاغية، فإنها جاءت في سياق ظرفي طغى عليه الشعور بالصعوبة الحادة والعبء الثقيل الذي ألقي على عاتقه خلال السنوات الأولى من الدعوة، ذلك وأن إعلانه بأنه نبي العرب كمرسل من عند الله، جوبه بنفور ورفض شديدين من طرف قريش، وذلك انعكس وبلا أدنى شك على نفسيته، الخوف من الفشل، ناهيك وأنه لايزال في أول الطريق، وهو ما أصبغ هذه السور المكية بطابع الخوف، ثقل المهمة، مع موازاة للحرب الكلامية الشعواء بينه وبين أثرياء مكة، من ثلب وتبخيس وتقريع وتجريح. يبدو واضحا أنه ما صدر عنه في المدثر تجاه قريش المعتزة بدورها التاريخي الذي ورثته منذ عهد المؤسس الأول قصي ابن كلاب، دور تقريش القبائل والحفاظ على حرمة البيت، فضلا وأنهم سموا بأهل الله وحامين لبيت الرب، أغضبها كثيرا، فكيف لرجل من آل بنو هاشم، شق عرف بفقره وعوزه، يشبه ثلة من قريش وهم رجال من آل بنو شمس،

*﴿ كَلاَّ وَٱلْقَمَرِ ﴾﴿وَٱللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾﴿إِنَّهَا لإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾﴿نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (المدثر 36/32).

[61] الدين في شبه الجزيرة سبق ذكره ص 95.

شق عرف بغناه وقوته بالحمر المستنفرة، ولا غرو أن تتفاعل قريش مع هذا الخطاب الذي يندرج في سياق الحرب الكلامية والعنف اللفظي، فهي لم تكن البادئة به، ليرد عليه وحيد قريش أمجنون محمد أم مفتون ؟ وعن هذا التساؤل أجاب الأخنس ابن شريق –شخصية تنتمي إلى الطبقة الثرية المتغطرسة التي يحقد عليها محمد– قائلا : مجنون ! لينطلق الرد من شفتيه مصاغا في جمل قصيرة وعبارات موزونة مقسما بحوت يونس[62] ؛

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾.

مباشرة بعد هذه العبارات التي درأت شبهة الجنون عنه، لم يتوانى في تقريع وثلب الخصم وهما الوليد والأخنس ؛

﴿فَلاَ تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾.

بتلك الجمل المسجوعة رَدَّ لهم الصاع صاعين، فبالزنيم قذف الأخنس وهو أقذى ما تقذف به العرب الخصوم. وجاء في تفسير الطبري أن العتل هو الشديد المنافق، ونقل عن يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : حدثني معاوية بن صالح عن كثير بن حارث عن قاسم مولى بن معاوية قال : سئل الرسول ﷺ عن العتل الزنيم قال : الفاحش اللئيم. [63] والزنيم في كلام العرب الملصق بالقوم وليس منهم ومنه قول حسان بت ثابت :

وأنت زنيم نيط في آل بني هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال آخر :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم

تنتهي السورة على وقع البون الشاسع بين المتقين والمجرمين، وهما المسلمين وقريش خاصة الطبقة الثرية، إنه ضرب من التهديد والوعيد سلاح القرآن المكي الأبرز، نظرا للموقف الضعيف الذي لازم محمد طيلة الفترة المكية، كما أن الإسلام لم تقوى شوكته بعد.

[62] ص 92-93.
[63] تفسير الطبري.

لعل هذه الآيات واضحة جلية منسجمة مع الحالة المحمدية المنكسرة ؛

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (القلم 46/44).

إن في الإستدراج ترقب وترصد، ينبئ بحالة نفسية متأزمة بسبب صعوبة المهمة والخوف من عدم نجاحها، وما كان لمحمد سوى الانتظار والصبر، وذلك ما سيقع اعلانه صراحة في سورة المزمل، ومن ثم يجب الإشارة كون القرآن المكي تهيمن عليه خاصية الاستدراج، مرحلة مهدت لحدث كبير ألا وهو الهجرة صوب المدينة، إنما نجاحها سيكون رهين الصبر والجلد. في الختام حاول القرآن تعزيز موقف محمد بالتذكير بالنون، كنية النبي يونس الذي التقمه الحوت وبقي في بطنه أياما، ويأتي في أسلوب أدبي رائع ؛

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ ﴿لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

تلك النوبات التي تغشاه بين الفينة والأخرى، كانت علامة فارقة، حيث اعتقد اعتقادا راسخا أنه في حضرة قوة فوق طبيعية، وسورة المزمل تعكس هذه الحالة مشيرة إلى الزمن الذي غالبا ما كانت تعتريه نوبات الصرع، وهو الليل ؛

﴿يٰأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾﴿قُمِ ٱلَّيلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾﴿نِّصْفَهُ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴾﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل 4/1)

في الليل تهدأ النفوس وتهجع الرؤوس، وتصبح النفس أكثر قابلية لاستقبال التخيلات والانطباعات النفسية عما هي عليه في وضح النهار،[64] أثناء الليل ناجي محمد ربه عسى أن يحقق الراحة النفسية ويكتسب مزيدا من الثقة. ربما القيام آناء الليل لا يعكس التقوى والإيمان بقدر ما يعكس الخوف والريبة، حالة كما قلنا رافقته طيلة الدعوة في مكة، وصف القرآن الليل ؛

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

يقصد أن ناشئة الليل أشد ثباتا من النهار وأثبت في القلب، فيواطئ سمعك وبصرك وقلبك بعضه بعضا.[65] أما فيما يتعلق بالنهار ذكر القرآن ؛

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾

---

[64] تاريخ القرآن ص 25 .
[65] تفسير الطبري.

يعني جُعِلَ لقضاء الحوائج والنوم.[66] الصورة التي رسمها القرآن إزاء الليل والنهار تبدو منسجمة مع الوضع العام لمحمد في السنوات الأولى من الدعوة، كثرة الصلاة والابتهالات والأدعية آناء الليل مؤشر واضح يكشف حالة الخوف والشعور بالصعوبات، فقريش يستحيل عليها أن تقتنع بأن ما يتلفظ به ابنها هو من عند الله، فلم يجد بدا إلا أن يواسي نفسه بالقرآن، عسى أن يصبر على ما أصابه، ويبعتد عن خوض الحرب الكلامية ولو مؤقتا ؛

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ (المزمل/10)

ثم مباشرة يتنقل الخطاب للتهديد والوعيد بعذابات الآخرة وفيه استدراج ؛

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴾ ﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾. (المزمل 16/11)

الإشارة إلى حدث موسى وفرعون ملفت للنظر، هنا يتطرق القرآن لأول لهذه القصة، ثم ستتكرر بصفة مطردة في بقية السور. عرض القرآن حدث موسى وفرعون بأسلوب مقتضب ولم يتوسع في التفاصيل وتلك ميزة استثنائية على عكس الكتاب المقدس. سيلاحظ القارئ الحصيف تدرج القصص القرآني في ذكر التفاصيل، تفاصيل قصص الأنبياء وشخصيات أخرى، والسؤال؛ لماذا لم يذكر القصة برمتها مثلما هو الحال في قصة النبي يوسف من دون تكرار أو في كل سورة يكشف عن جزئية غائبة في سابق السور؟ القراءة التقليدية قدمت سوى اجابات خطابية وغير منطقية، لم تقدم اجابة منطقية مقنعة بل حاولت الالتفاف عليه بالقول؛ إن القصص القرآني هو من المتشابهات وليس من المحكمات. سنؤجل دراسة وتحليل هذا المشكل عندما نتقدم أكثر في الترتيب التاريخي، ولكن الإجابة الأولية عن هذا السؤال ستكون من منطلق نفساني وأدبي وبيئي، **أي أن نفسية محمد هي من تشكل السور والقصص القرآني، أقصد بالنفسية حالة الذعر أو الاطمئنان، حالة الحزن والضيق أو الفرح والانشراح، وذلك مرتبط ارتباطا عضويا بالبيئة، أي الظروف المحيطة بمحمد دفعته ليصبغ السور بطابع خاص.** إن عدم ذكر كل التفاصيل يعود للغرض والمقصد من السورة، فالسور الى ذكرت التفاصيل تخدم الحالة والظرفية الزمانية والمكانية لمحمد وأتباعه من المسلمين، في المزمل وقع الاكتفاء بإشارة مقتضبة وهي في واقع الأمر، جاءت انسجاما وتناغما مع وضعته المتأزمة المضطربة، وزادها تأزما الحرب الكلامية وتبادل التهم.

[66]نفسه.

تنشأ سورة المسد كواقعة تدعم وضعية محمد المتأزمة بسبب قريش، حسب المصادر الإسلامية، فإنه كان قد عقد العزم – عزم سينعقد على طول القرآن المكي– لكي ينادي في قريش ويدعوهم للاستجابة اليه مهددا إياهم في آن بعذاب يوم شديد، ليرد عليه عمه أبو الحكم ردا لا يخلو من إهانة على غرار رد الأخنس : تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فتأتي سورة المسد كتلبية لانفعال محمد النفسي واستجابة لردة فعل متشنجة وانسياقا لتلك الحرب الكلامية قائلا ؛

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ ﴿سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾. *

في ذات الفترة انتجت سورة الشرح تحت وطأة الخيبة والصدمة التي تلقاها من قريش وعمه، وهي محاولة لتثبيته على خطى الدعوة والرفع من معنوياته بالتذكير بحادثة قديمة وقعت له في طفولته وهي حادثة شق الصدر ورفع الوزر ؛

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

في المجمل فإن سورة الشرح تمثل ضربا من التعزية، تعزية ستكون حاضرة بقوة على مدى القرآن المكي، انها مواساة الهية له، والجدير بالذكر، فإن الحالات التي تستدعي التدخل الإلهي لشد مئزر محمد متكررة، وذلك راجع للوضعية الصعبة للدعوة، حيث أنها مسارها متعثر اضافة أن الذين اتبعوه في السنوات الأولى هم من الطبقة السفلى الفقيرة.

موضع سورة الفاتحة معقد، وأعتقد أنها تنتمي إلى وقت متأخر علما وأن التراث الإسلامي يضعها في زمن متقدم خلال اللحظات الأولى من اعلان محمد نبوته،[322]** والبعض الآخر رأى أنها نزلت مرتين، أي في مكة والمدينة. لو حللنا سورة الفاتحة تحليلا معرفيا وفيلولوجيا[323]*** يتعاطى مع ظروف نشأة السورة مع عدم عزلها عن اطارها التاريخي، سنكتشف أن تركيبتها اللغوية، مضمونها وموضوعها، يعكسان جوانب لافتة ترجح تشكلها ونشأتها في زمن متأخر، قد تنتمي الى سور الجيل الثاني أو الثالث، غير أنني فضلت وضعها في سور الجيل الأول لسبب بسيط، ألا وهو تماهيها مع صيغة من صيغ الدعاء تعكس المناجاة والابتهالات. لا شك أن الفاتحة لها مكانة مرموقة في الاسلام فهي بمثابة عماد هذا

*يوجد من المعتزلة من أنكر أن سورة المسد من القرآن لأنهم رأوا فيها جبرية تضع عدالة الإله على المحك، فكيف ينزل الله سورة يحسم فيها كفر أبا لهب وأن النار مثواه، ماذا لو أسلم أبا لهب ؟ الا يعد ذلك ظلما ؟ الدعاة المسلمون رأوا في سورة المسد اعجازا لأنها تنبأت بعدم جدوى ايمان عم النبي المكنى بأبي لهب، ونحن نقول لو كانت اعجازا فذلك سيطرح معضلة منطقية، فكيف يبعث الله رسولا لرجل كتب عليه الكفر سلفا في اللوح المحفوظ، ألا يعد ذلك عبثا ؟

**ذهب بعض المفسرين كالواحدي والبيهقي والسيوطي، أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن وليس سورة إقرأ، تضارب يكشف مدى الإشكال التاريخي الذي طرحته سورة الفاتحة.

***علم يدرس النصوص القديمة انطلاقا من المخطوطات المتوفرة، إنه يقوم على النقد الأدبي واللغوي والتاريخي. Philologie

الدين، يجب تلاوتها أثناء الصلاة حتى تعطي مشروعية لها. قيل في الفاتحة أنها تلخص القرآن برمته. أول ما يجلب الانتباه هو غياب الفعل "قل" الذي اعتدنا عليه في معظم سور القرآن سواء المكية أو المدنية، ما يعني غياب ذلك العنصر المتخفي وراء القائل الذي هو الله حسب التراث الإسلامي* يحثه على القول والفعل، بل عندما نقرأ السورة نشعر وكأنها دعاء صدر عن شخص أو جماعة تناجي الرب. فضلا عن ذلك فإن للفاتحة تسميات عديدة في التراث الإسلامي مثل : سورة الصلاة، سورة اللازمة، سورة الدعاء، سورة التفويض، سورة المناجاة. أسماء تكشف جزءا من هوية السورة وتسلط الضوء على اختلافها عن باقي السور، فهي دعاء ومناجاة وتفويض، أي أن بنية الخطاب فيها ينطلق من الأسفل إلى الأعلى، من الفرد باتجاه الرب، وهو عكس بنية الخطاب في السور الأخرى، إتجاه الخطاب فيها من الأعلى إلى الأسفل، أي الخطاب موجه من الإله إلى الفرد، أو من المعلم إلى التلميذ.[67] وذلك ما دفع نولدكه للكشف عن الإقرار بوجاهة رأي زميله المستشرق موير،[68] مفاده أن سورة الفاتحة نشأت قبل الدعوة المحمدية. **

إن مسمى الرحمان لم يظهر إلا في سور الجيل الثاني، حيث وصف محمد الله بالرحمان كمحاولة للإزالة الفروقات وإذابة التناقضات بين إله مكة وإله اليمن المسمى برحمان اليمامة الذي عبده وتكلم باسمه مسلمة الحنفي المشهور بمسيلمة الكذاب في التراث الإسلامي، نجد صدى ذلك في سورة الإسراء ؛

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَـٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾. (الإسراء 110)

رأي المستشرق موير يبدو منطقيا والأقرب إلى الصواب، فالفاتحة ليس لها مكان في تسلسل القرآن التاريخي، وربما هي أقدم من القرآن وتسبق الدعوة الإسلامية بسنوات. رأى نولدكه أن آيات سورة الفاتحة تنحدر من أصل يهودي ومسيحي،[69] ذلك وأن الصلوات اليهودية والمسيحية تاريخيا تبدأ بإعلان الحمد لله.

---

*وهو في الحقيقة ضمير محمد الأخلاقي ووازعه النفسي الذي اعتقد أنه إلها بصدد التواصل معه. قل صادرة عن ضميره ونفسيته لا عن إله غير منظور، تفرغ لشتم الخصوم والتهديد والوعيد.

[67] قراءة في تاريخ سورة الفاتحة، جمال علي الحلاق، منشورات الجمل ألمانيا، الطبعة الأولى 2012، ص 112

[68] تاريخ القرآن ص 99.

**كثير من المفسرين نقلوا روايات تثبت أقدمية سورة الفاتحة وعدوها من النصوص الأولى القديمة وأنها من السور الأساس، والأساس هو أصل الكلام ومبتدؤه، وهو ما يتأسس عليه لاحقا. فالقول بقدمها وبأنها الأساس يتضمن قراءة لا تتوقف زمنيا عند بداية الدعوة المحمدية بل إلى ما قبلها، وأقصد تاريخ الجيل الأول من الأحناف. انظر قراءة في تاريخ سورة الفاتحة ص 120 – 121.

[69] تاريخ القرآن ص 100.

قد يعيننا السياق التاريخي من أجل إماطة اللثام عن الفاتحة، فمحمد قبيل حدث الغار كان ينتمي للتيار الحنفي،[70] تيار عرف بالتوحيد الخالص ومعرفته بتعاليم اليهودية والنصرانية، ما يعني أن هذا الدعاء كان معلوما داخل أوساط شبه الجزيرة، فتأثر به وأحدث عليه بعض التغييرات ليعطيه نفسا عربيا خالصا منسجما مع روح الدين الجديد.

الآيتين الأخيرتين من الفاتحة ؛ ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يتضمنان نقدا صريحا وحسما للجدل مع أهل الكتاب، جدل لم يكن باستطاعة محمد حسمه في مكة، على الأقل خلال السنوات الأولى، وذلك عائد لحالة الضعف والوهن التي عاشتها الدعوة، فالنقد الصريح لعقيدة اليهود والمسلمين لم يبدأ فعلا إلا بعد التحول إلى المدينة لأن الظروف تغيرت والمعطيات تبدلت ودخل المسلمون في احتكاك عنيف مع اليهود وجدال حاد معهم. قد نجد تفاعلا قرآنيا مع أهل الكتاب في مكة إلا أنه لا يرقى إلى مستوى التقويض وضرب الأسس، أسس الديانتين اليهودية والنصرانية. وبناء عليه، فإن الفاتحة إما أن تكون متأخرة أي لا تنتمي للسور الأوائل كالعلق والقلم وإما سابقة لمحمد و الإسلام، ونحن نرجح الإمكانية الثانية، فبنية اللغوية للفاتحة تدل على أنها متداولة في المحافل الليتورجية (Liturgie)* قبيل الإسلام، فضلا وأن المتكلم هو الضمير "نحن"، وكأن جماعة ملتفة في دير أو معبد أو بطحاء تتلو هذا الدعاء تقربا للرب وطلبا للمغفرة، فقد يكون اليهود أو النصارى، ولا نستبعد تأثر محمد بذلك الدعاء فأقحمه لا حقا في النص القرآني كدعاء يعتمد عليه الدين الجديد وسمي بالفاتحة فيما بعد. **

لو كانت الفاتحة تبدأ بفعل "قل" أي قل الحمد لله، لحلت المعضلة، ولقلنا بين قوسين أن (الله) هو من يأمر نبيه بقول هذا الدعاء، فهل يعقل أن الإله يحمد نفسه بنفسه؟ ذلك ما حاول الطبري اثباته مفعلا في ذلك آلته الخطابية مستندا على منهج التلاعب بالكلمات وتزويق الألفاظ شأن

[70] ورد في المسند لابن حنبل ما يشير إلى تأثير زيد بن عمرو بن نفيل على محمد بن عبد الله. عن سعيد بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ بمكة هو وزيد بن حارثة، فمر بهما زيد بن عمرو بن نفيل فدعوه إلى سفرة لهما، فقال : يا ابن أخي، إني لا آكل مما ذبح على النصب، قال : فما رؤي النبي ﷺ بعد ذلك أكل شيئا مما ذبح على النصب.

*المحافل الليتورجية مجموعة الطقوس من أدعية وابتهالات ومناجاة.

**لئن كان النص القرآني يعكس لا شعور محمد وحالته النفسية في كثير من المناسبات، فإن جزءا كبيرا منه كان قد أنتج تحت تأثير فلسفة الحنفاء قبل إعلانه للنبوة. المتحنف زيد بن عمرو بن نفيل كان من بين أبرز الحنفاء الذي نرجح أن محمد استلهم منه بعض مفردات سورة الفاتحة. في تفسيره للآية السابعة من سورة الفاتحة﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ نقل ابن الكثير بعض الاحداث عن سيرة زيد قال : إنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال : أنا من غضب الله أفر، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله، فقال : لا أستطيعه. فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى. ليس اعتباطا أن ينقل ابن الكثير قصة زيد في تفسيره للفاتحة، فدلالة المغضوب عليهم والظالين تم استخدامهما من قبل زيد بن عمرو بن نفيل نتيجة لجدل اليهود والنصارى في الشام.

أغلب المفسرين والمؤرخين واللاهوتيين الأوائل في التاريخ الإسلامي. أخذنا الطبري كمثال من بين عشرات إن لم نقل مئات الأمثلة للمفسرين المسلمين، عندما يشعرون بصعوبة المسألة يحاولون حلها بأقل الأضرار، فالطبري يرى أن غياب "قل" في الفاتحة صادر عن أسباب إيمانية وغيبية وليست موضوعية تاريخية. وهنا نورد خَطَابَة الطبري لتبرير المسألة :« فإن قال قائل : وما معنى قوله الحمد لله ؟ أحمد الله نفسه جل ثناؤه فأثنى عليها، ثم علمناه لنقول ذلك كما قال ووصف به نفسه ؟ فإن كان ذلك كذلك، فما وجه القول إياك نعبد وإياك نستعين وهو عز ذكره معبود لا عابد ؟ أم ذلك من قيل جبريل أو الرسول ﷺ فقد بطل يكون ذلك لله كلاما. قيل : بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه، ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل، ثم عَلَّمَ ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختبارًا منه لهم وابتلاءً، فقال لهم قولوا : ﴿ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾وقولوا : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ مما علمهم جل ذكره أن يقولوه ويدينوا له بمعناه، ذلك موصول بقوله : ﴿ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وكأنه قال : قولوا هذا وهذا ».[71] يبدو جليا أن الطبري شعر بصعوبة المسألة وأدرك أن غياب الفعل "قل" أو "قولوا" يمثل مأزقا حقيقيا، فما كان عليه إلا تبرير ذلك الغياب بأن الله حمد نفسه بنفسه، لو انتهت السورة عند﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾لربما قبلنا هذا التبرير، ولكنه يصبح لا معنى له مع الآية الموالية﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مبرزة تناقضه وعدم تماسكه، فالله هو المعبود لا العابد، فهل يعقل أن المعبود يعبد ذاته؟ ما كان على الطبري إلا مواصلة تفعيل آلته الخطابية – مع العلم أن الخطابة شكل من أشكال المغالطات المنطقية– وحتى يخرج من المأزق قال: أن الله حمد نفسه وأثنا عليها ثم قال لهم قولوا﴿ ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ وقولوا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، والعجيب قوله : وكأنه قال –يقصد الله– قولوا هذا وهذا. لو اتبعنا تبرير الطبري سنضطر للقول أن فعل "قل" الحاضرة في معظم السور القرآنية ليست ملزمة، وبالتالي يمكن اسقاطها، إلا أن القرآن وفق القراءة الإيمانية الغيبية، هو كلام الله الموجه لرسوله يحثه على سلوك معين وقول كلام محدد، فجاء معظمه في صيغة قل، فلو كانت سورة الفاتحة تعلم محمد والمسلمين كيف يعبدون الله، فما السبب من غياب الصيغة قل أو قولوا إياك نعبد واياك نستعين؟ أليست الصيغة الموالية "قل الحمد لله رب العالمين أو قل إياك نعبد واياك نستعين" أكثر عقلانية ووضوحا وبالتالي نتجنب كل مراوغات وتبريرات الطبري حول المسألة؟ لكنه لا يأبى أن يمعن في المراوغة، وإليك حجته في غياب لفظ "قولوا" : فإن قال : وأين قوله "قولوا"، فيكون تأويل ذلك ما ادعيت ؟ قيل : قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها إذا عرفت مكان الكلمة ولم تشكك أن سامعها يعرف بما أظهرت من منطقها، ما حذفت حذف ما كفى منه الظاهر

[71] جامع البيان في تفسير القرآن، المجلد الأول مؤسسة الرسالة، ص 61

من منطقها، ولا سيما إن كانت تلك الكلمة التي حذفت قولا أو تأويل قول. فكذلك ما حذف من قول الله تعالى: ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ لما علم بقوله عز وجل إياك نعبد واياك نستعين من معنى أمره عباده، أغنت دلالة ما ظهر عليه من القول عن إبداء ما حذف.[72]

أيها القارئ الكريم، ألا تشعر بأن هذا الكلام لا يزيد المسألة إلا تعقيدا ؟ ألا تشعر بارتباكه وافتقاره للوجاهة والمنطق ؟ يريد اثبات كون العرب عند سماعهم للحديث يعلمون ضمنيا وبأسلوب غير مباشر مكان اللفظ وإن لم يكن حاضرا، بتعبير آخر، العرب عند سماعهم لآيات الفاتحة ليس بالضرورة نطق لفظ قل أو قولوا لأنهم يعلمون مكانه في الآية أو الجملة، ويدركون أنه قد أسقط، عند سماعهم للآيات نفسها يفهمون أنها موجهة لتعليم محمد وأتباعه كيف يحمدون الله ويثنون عليه. رد الطبري ينطبق عليه وضعية شخص يغرق، يحرك يديه ورجليه لكن بلا جدوى، يحرك جميع أعضاءه بكل ما أوتي من قوة، فتراه يتخبط والأمواج متلاطمة في كل الجهات، تسمع ضجيجا وخوارا، ومع كل ذلك الجهد الجبار فإنه يبقى في مكانه لا يتحرك قيد انملة، ينطبق عليه المثال العربي "نسمع جعجة ولا نرى طحينا". لو أخذنا بكلام الطبري فما علينا إلا إسقاط لفظ قل من جميع السور القرآنية، ونعلم جيدا أن ذلك مستحيل في نظر المسلمين، فالقرآن هو وحي الله المنزل على رسوله، كلام معجز لا يطاله التغيير ولو بحرف واحد، ومن ثم فإن لدينا بعض الأمثلة القرآنية التي تفند تبرير الطبري، فمثلا المعوذتين، أليستا موجهتين لتعليم محمد كيف يتعوذ من الشيطان، وكيف يتعوذ من أعمال السحرة وشر الخلق والغسق؟ سورة الإخلاص أليست موجهة لتعليمه كيف يوحد الله؟ هذه السور عبارة عن تعليم واضح وجلي لمحمد خلال السنوات الأولى من الدعوة، تعليمه عقيدة الدين الجديد التي تقوم على حذف الوسائط وتوحيد الله الخالص. تنحل العقدة بسرعة وبطريقة سهلة وبسيطة، بلا تكلف وبلا تعنت أو مماحكة أو ترقيع أوتلفيق، إذا قلنا إن الفاتحة هي دعاء متداول في شبه الجزيرة قبيل الإسلام، وفيما بعد تم اقحامها في القرآن. لا شك أن ما حمل الطبري على الاستماتة في موقفه هو ذعره الشديد من الفرضية التي تعتبر الفاتحة ليست من القرآن، موقف ليس بجديد في التاريخ الإسلامي، فالصحابي عبد الله ابن مسعود كان لا يرى الفاتحة من القرآن،* ولم تكن موجودة في مصحفي علي ابن أبي طالب وجعفر الصادق.

---

[72] ص62.

* أورد السيوطي عن الإمام فخر الدين الرازي : إن ابن مسعود كان ينكر كون الفاتحة والمعوذتين من القرآن. وأورد أيضا نقلا عن ابن حجر في شرح البخاري : قد صح عن ابن مسعود انكار ذلك، فأخرج أحمد وابن حيان عنه : إنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه. وأخرج عبد الله بن أحمد في زيادات المسند والطبراني وابن مردويه من طريق الأعمش عن أبن إسحاق عن عبد الرحمان بن يزيد النخعي قال : كان عبد الله ابن مسعود يحك المعوذتين من مصاحفه، ويقول انهما ليستا من كتاب الله. وأخرج البزار والطبراني من وجه آخر عنه : إنه كان يحك المعوذتين من المصحف، ويقول إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما، وكان عبد الله لا يقرأ بهما. بينما جاء

قد يثار اشكال ها هنا مرده لعبارة السبع المثاني في القرآن التي وردت في سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر 87)

رأى بعض المفسرين أن المقصود من السبع المثاني هي سورة الفاتحة، لأنها تتكون من سبع آيات بدءا من " بسم الله الرحمان الرحيم " إلا أن هذا التفسير لا يحل الإشكال بل يزيده تعقيدا. أولا ؛ يوجد حرف الواو وهو حرف عطف "سبعا من المثاني والقرآن العظيم"، وفي اللغة العربية حرف العطف يجمع بين شيئين متمايزين منفصلين، مثلا نقول جاء أحمد وأصحابه، فأحمد حقيقة وأصحابه حقيقة ثانية ولا يمكن المزج بينهما، وعليه فإن الآية 87 من سورة الحجر لا تثبت أن الفاتحة من القرآن حتى ولو قلنا أن السبع المثاني هي الفاتحة، بل تثبت أنها ليست من القرآن، وكأن حدث التنزيل لم يتوقف على القرآن فحسب، إنما شمل شيئا آخر هو السبع المثاني، أي أن الوحي وحيان، وحي القرآن ووحي السبع المثاني، وبالتالي سنعقد ما هو معقد أصلا. ثانيا؛ لا يمكن أن نعتبر أن "بسم الله الرحمان الرحيم" آية أو جزءا من الوحي كما تدعي القراءة الإيمانية الغيبية، فعبارة "بسم الله الرحمان الرحيم" لها جذور تاريخية. كان العرب قبل الإسلام يستعملون في أول كلامهم أو خطبتهم "باسمك اللهم" وأول من استعملها هو المتحنف أمية بن أبي الصلت، حيث تعلمها من راهب نصراني. الرواية تقول إن عجوزا قطعت الطريق على قافلة أمية وتسببت في تنفير الإبل، ولما عجز ومن معه في جمعها استعان براهب كان قابعا في صومعة بالقرب من مكان الحادثة، فدله على قول "باسمك اللهم" وهكذا نجت القافلة من العجوز وسحرها.[73] إذن المتحنف أمية ابن أبي الصلت هو أول من أشاع استعمال عبارة "باسمك اللهم" في مكة، والجدير بالذكر فإن عبارة "بسم الله" التي يختصرها العرب بالتسمية أو البسلمة تعود إلى الكتاب المقدس.[74] هنا يثور سؤال : أي رابط تاريخي فيلولوجي بين عبارة "باسمك اللهم " وعبارة " باسم الله الرحمان الرحيم " ؟ إن العبارة الثانية ولدت من رحم الأولى، أي أنه قبل أن يستعمل محمد بسم الله الرحمان الرحيم استعمل باسمك اللهم خلال السنوات الأولى من الدعوة، لكن حين برز مشكل إله مسلمة الحنفي بعد زيارته مكة قبل الهجرة وهو الملقب بالرحمان إله اليمامة، ظهرت الحاجة إلى دمج الرحمان الرحيم ببسم الله لتصبح بسم الله الرحمان الرحيم، كمحاولة للتوحيد بين إلهين، إله مكة وإله اليمن، وبذلك يزول الحرج.

في كتاب تأريخ القرآن للزجاني نقلا عن ابن النديم: قال ابن سيرين : وكان ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه، ولا فاتحة الكتاب. واضح أنه وجد خلاف بين الصحابه حول سورة الفاتحة من أن تكون من القرآن أم لا.

[73] مروج الذهب الجزء 1 ص 84.

[74] تاريخ القرآن، ص 104.

إن هذا التطور التاريخي الفيلولوجي لعبارة باسم الله الرحمان الرحيم يكشف أنها ليست وحيا، فبعض الصحابة كانوا يقرأون الفاتحة من دون ذكرها، وهي إضافة لاحقة على النص. *

تواترت السور خلال هذه الفترة من الدعوة، فترة سادها الارتباك والضعف، إضافة إلى حيرة وخوف نفسيين سيطرا على محمد، ليتضح أكثر ويبرز الخطاب الأخروي، عرض أهوال يوم القيامة مع التفنن الأدبي والخطابي في وصفها والإسهاب فيها، وذلك يدخل ضمن سياسة الترهيب والترغيب، سلاح محمد ضد خصومة نظرا لضعف موقفه وتردي حالته، **فتنشأ سور التكوير، الأعلى، الليل فالفجر**.

فاتحة سورة التكوير تصف بأسلوب أدبي وخطابي الكوارث الطبيعة والأهوال العظيمة الملازمة ليوم القيامة ؛

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾﴿ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾﴿ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴾﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ (التكوير9/1).

أسلوب أدبي يؤكد تميز سور الجيل الأول للقرآن المكي، من عبارات قصيرة ولغة سجعية، وحضور القَسَم، القسم بظواهر الطبيعة وموجوداتها، القسم في واقع الأمر، يعكس خطاب محمد طيلة الأشهر الأولى من دعوته، القائم على التهديد والوعيد، وكأنه يسعى إلى ارباك قريش والأرستقراطية المكية أن أشد وأقسى العذابات ستفتك بهم، وطبيعي اللجوء لمثل هذا الخطاب من رجل اصطدم بالواقع ومصاعبه، فضلا عن افتقاره للقوة الازمة لتجاوزه.

تحت وطأة الرفض الشديد لطلب محمد بعبادة الله وحده من خلال اقصاء الوسائط، وتحت صدمة الإستخفاف به واتهامه بأنه مجنون ومفتري أنتجت نفسيته آيات سور التكوير مصرحة بسمو مهمته التي كلف بها[75] بعد القسم بالخنس الجوار الكنس وهم الكواكب الخمس السيارة ؛

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾ ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ ﴿ وَٱللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾. (التكوير21/15)

*قال النبي نوح لاتباعه عند صعود السفينة ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما بعث الملك سليمان برسالة لملكة سبأ ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هذه الآيات تثبت أن العبارة تعتبر كديباجة للخطاب، وليست وحيا.

[75] القرآن نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، سبق ذكره، ص 50.

الآيات تعلن ولأول مرة أن ما يتلفظ به ليس من تأليفه بل هو وحي من الله، مع درئ صفة وتهمة الجنون الموجهة له

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾. *

ثم تؤكد حدث الرؤيا؛

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾. (التكوير25/23)

إنها رؤيا الملاك جبريل في الغار كرد على الذين رأوا في الوحي إلهاما دنيويا أو شيطانيا، لا حقا في سورة النجم، سيتم دحض التهمة الموجهة من الخصوم. في ذات السياق نجد الآيات 27 و 28 كمحاولة للتخفيف من محنة محمد ازاء قومه، بالإقرار أن الاستقامة، الايمان بالله وحده وبمحمد نبيا، هو فعل وسلوك إرادي اختياري وليس جبري ؛

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ (التكوير28/27)

كَلِمُ أرهفت اليه الرؤوس القريشية واشتدت مسامعهم له وارهفت اليه ارهافا، ذلك وأن قريش تؤمن بالتعددية الربوبية والدينية لأغراض تجارية محضة. فرحت قريش بعقيدة الإختيار وانشرحت لها، ولعلها شعرت –وقد خاب شعورها بعدها– ذلك أن الدين الجديد الذي يدعو إليه محمد باستطاعته أن ينصهر في بوتقة الديانات الأخرى مع الحفاظ على التعددية، لكن سرعان ما يأتي الرد بجعل عقيدة الإختيار مرتبطة بإرادة سابقة وعلوية وهي الإرادة الإلهية لتردف السورة ؛

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير29)

التحول المفاجئ من عقيدة التخيير إلى عقيدة التسيير أصاب قريش بالصدمة والذهول، وشعرت بتناقض صارخ وغير منطقي، وطبيعي أن ترفض الجبر لأنه لا يخدم مصلحتها الإقتصادية والإجتماعية، لتزداد قريش تعنتا ومعاندة، مكابرة ومماحكة، فيعلن الوليد ابن المغيرة وحيد قريش "إنه

---

*نقرأ في سورة الحاقة ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ لقد جعل النفي هذه المرة يأتي على لسان الله نفسه كتأكيد قوي على المصدر الإلهي للقرآن، وذلك في ظل موجة الشك والحيرة وعدم اليقين التي أحاطت به خلال الأشهر الأولى من الدعوة. لقد كان محمد خلال السنوات الأولى من الدعوة مهتما بمحاربة فرضية أنه مجرد شاعر أو كاهن، وأن القرآن نتاج لقريحته الشعرية. نقرأ في سورة الطور﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾. لقد تطور التحدي للإيتان بكتاب شبيه للقرآن، وذلك سيتضح أكثر خلال الفترة المكية المتوسطة (سور الجيل الثاني) والمتاخرة (سور الجيل الثالث).

كلام بشر" ومؤيدا لحكم الوحيد أعلن عتبة ابن ربيعة "افتراه على الله"،[76] وتلا هذا الحكم موجة استنكارية من الجانب القرشي واصفة محمد بالافتراء على الله، وتعالت هذه الموجة العارمة وتدافعت حتى المدى الذي لم يستطع محمد له صدا في هذه الفترة من حياته في مكة، ففي هذه الفترة كانت حياته تتسم بالصبر وارجاء العقاب إلى فيما بعد، ومن ثم اكتفى بالاتجاه ناحية هذا الذي كذبه وعنه تولى ينعته بالأشقى [77]؛

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ ﴾﴿لاَ يَصْلَـٰهَآ إِلاَّ ٱلأَشْقَى ﴾﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (الليل 15/14)

تلك هي الظروف التاريخية والعوامل النفسية التي أدت إلى نشأة سورة الليل تحت وقع الرفض والشجب الذي جوبهت به دعوته وأفصحت عنه شفتاه قرآنا.

نسعى من خلال التسلسل التاريخي للسور إيجاد نوع من الروابط البمنطقية بين السورة والأخرى، وأسباب النزول في التراث الإسلامي يبقى غير كاف ومنقوص مالم نقل مشوه لأنه تناول كل سورة على حدة بطريقة مشرذمة لا تخضع لتسلسل تاريخي واضح. نحن نبحث عن علائقية المؤرخ التي تحدثنا عنها آنفا، وقلنا إنها ضرورية إذا أردنا أن نكتب نصا تاريخيا أو علميا يحترم قواعد المنطق، والتاريخ هو علم، يعني يجب أن يكون ملتزما بقواعد العقل لا العاطفة والاعجاز، غير أن المسلمين ظلوا طيلة أربعة عشر قرنا ومع الأسف، يحفظون آياته ويتدارسون سوره حسب تسلسل عاطفي اعجازي، يرتفعون به عن ظروفه التاريخية وبئيته الإجتماعية والإقتصادية.

نلاحظ في بدايات سورة الليل دعوة محمد قريش للتصدق، والصدقة تضفي على سور الجيل الأول طابعا خاصا، ذلك وأن المسلمين كانوا نزرا يسيرا، فضلا عن حالة ضعفهم، طبيعي أن يتوجه محمد إلى الأرستقراطية المكية بخطاب الوعيد والتهديد، تهديد أثرياء قريش أن عدم التصدق والشجع يقابله العذاب في الآخرة؛

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (اليل10/5)

الملفت أن هذه الدعوة ليست فرضا انما طلب غير ملزم، وذلك كما قلنا عائد لظروف الدعوة والحالة النفسية المحمدية. مع مرور الوقت ستصبح الصدقة زكاة ملزمة خاصة بعد وضع اللبنات الأولى للدولة الاسلامية في يثرب.

[76]الدين في شبه الجزيرة، ص 100.
[77]نفسه.

تحت وقع التكذيب والاتهام بالافتراء على الله، والانتقال المفاجئ من التسيير إلى التخيير، تَشَكَّلَ خطاب الوعيد والتهديد، التهديد بنار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى، ويظهر أنه تهديد موجه لابن المغيرة وابن ربيعة، محاولا في آن حثهم على الصدقة ومعاونة الفقير والمحتاج وذلك يندرج ضمن مشروع محمد الإصلاحي، محاولة لم تلق صدى، فيسترسل الكلم لتنشأ سورة الفجر مقسما فيها بالفجر وليال عشر، بعبارات مقتضبة تتسم بالسجع ووقع غنائي يؤثر في النفوس، ثم يردف ضاربا الأمثلة من قصة عاد وثمود وفرعون ؛

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴾﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ (الفجر11/1)

يسترسل الكلم القرآني موجها انتقادا حادا لقريش والأرستقراطية المكية بحب المال وعدم اكرام اليتيم ومساندة المظلوم ؛

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر20/17)

عبارات تكشف عن الهوة العميقة بين طبقتين مكونين للمجتمع المكي بين أثرياء وفقراء. ضرب ضرب محمد في هذه السورة بشكل عابر قصص عاد وثمود وفرعون، ولاشك أن قرية تسمى بالإرم كانت ضمن الأساطير الشعبية التي كانت متداولة قبيل ظهور الإسلام لدى العرب، لِتُمْعِنَ الرؤوس القرشية في الجحود والنكران، فتعلوا الأصوات معلنة "إنها أساطير الأولين"، أما النضر ابن الحارث أحد مثقفي قريش وأعلمها رأسا فقد خرج عن صمته قائلا: «إن هذا لإفك افتراه إن هي أساطير الأولين اكتتبها. » [78]

لم تفهم قريش المغزى الحقيقي لاستحضار محمد لهذا القصص وهي تعلم أنه ضرب من الأساطير. أولا القصص القرآني كما سنوضح لا حقا غرضه ليس ابراز حقيقة تاريخية حصلت في الزمان والمكان، وهو ما لم يستوعبه أيضا المسلمون الأوائل كالطبري وابن الكثير وابن هشام وغيرهم، وللأمانة هناك بعض المفسرين تبنوا أطروحة كون القصة في القرآن غرضها لا تاريخي، بل رمزي لأخذ العبرة والموعظة فقط.* أطروحة كان قد تحدث عنها العديد من الباحثين والفلاسفة، لكنها جوبهت برفض

---

[78] ص 101.

*قال الرازي حول القصة في القرآن بشكل عام : إن المقصود ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها. أما النيسابوري فيذهب إلى انه مشركو مكة لم يعرفوا المقصود منها أي من قصص القرآن فقالوا : أساطير الاولين وخفي عليهم أن الغرض منها بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم ونقله من العز إلى الذل.

شديد من طرف المؤسسة الإسلامية السلفية. ثانيا وهو الأهم، الخطاب الديني الجديد هدفه اصلاحي بالأساس، لم يكن من المستطاع أن ينطلق من فراغ، من أرض قاحلة غير مزروعة، فالإسلام قام باقتباس المنظومة القديمة من معارف العرب المنسية الضائعة، التي كان الإسلام في بعض أوجه نشاطه الروحي يعيد صياغتها ويحث على استعادتها بلغة جديدة، بتعبير آخر الإسلام هو تكيف للماضي وتجدير له، فلم يجد غضاضة في إعادة إنتاج أساطير الأولين والتفاخر بها.[79] بناء على ذلك، ما لم تدركه قريش هو أن الدين الجديد ليس سوى إعادة صياغة للعادات والتقاليد والقصص التي كانت معروفة ومعلومة في الأوساط العربية ليسبغ عليها طابعا جديدا يتلاءم مع المرحلة الجديدة، أي إعادة بعث هذه الأساطير من خلال أرضية جديدة بغية إصلاح المجتمع عقائديا وفكريا، فالإسلام ما كان بمقدوره القطع كليا ونهائيا مع منظومة من العبادات والشعائر والطقوس والأساطير، وما كان له أن يتجاهلها وإنما عمل على إعادة تكييفها. إن خير مثال على ذلك هو ذلك الدعاء المتداول* لدى القبائل ويرددونه عشية ظهور اللإسلام أثناء الطواف بالكعبة وكنا قد وضحنا ذلك في الباب السابق.

مع التقاط مسامعها لهذه الأساطير، ازداد الشك القرشي تجاه ابنها، فهذا القصص معلوم في الأوساط العربية، وقريش لم تكن تحتاج لرسول من عند الله حتى يخبرها بفحواه، نعم لقد اختلطت لدى قريش المفاهيم ودعني أقول لم تفهم تأويله﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (يونس / 39). جازمة أن ما يتلفظ به محمد ليس سوى كلام بشر افتراه على الله وأنه كلام اتخذه كمطية لأغراض سياسية، متخذا تعاليم الحنيفية المنتشرة في أرجاء شبه الجزيرة حتى يحقق السيادة عليها، ليرتفع هذه المرة صوت أمية بن عبد الله من بين كبار الأحناف مشككا في دعوته قائلا: « أنا أعلم أن الحنيفية صدق لكن الشك يداخلني في محمد ».[80]

---

[79] إرم ذات العماد من مكة إلى أرشليم البحث عن الجنة، فاضل الربيعي، بيروت لبنان 2000، ص 13-14.
*عَدَّلَ الإسلام الدعاء من "لبيك اللهم ما لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إلا ملك هو لك تملكه وما ملك"، إلى "لبيك لاشريك لك إن الحمد والنعمة والملك لك لبيك".
[80] الدين في شبه الجزيرة ص 101

الفصل الواحد والعشرون: فترة الفتور وأية قراءة تفسر أسبابه وظروفه ؟

يذكر التراث الإسلامي أن الوحي قد انقطع طيلة مدة وجيزة، واختلفت الآراء حول طول هذه المدة، البعض يقول سنتين والآخر ثلاث سنوات، ولكن الأرجح دامت ثلاث سنوات. نقل ابن هشام عن ابن اسحاق : قال ابن اسحاق : ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه.[81] بيد أن معروف الرصافي له رأي آخر حيث اعتبر أن فترة فتور الوحي لم تمتد طيلة ثلاث سنوات كما أنها لم تدم ثلاث أيام، أي أنها ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، والدليل على أنها ليست طويلة هو لأن محمد بعد حدث الغار ونشأة سورة إقرأ بقي يدعو سرا ثم أمره الله بإظهار الدعوة أسوة بالآية 94 من سورة الحجر ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ فلو أن فترة الوحي دامت ثلاث سنين للزم أن يكون إظهار الدعوة بعد ستة سنين من بدء الوحي، والواقع هو أن اظهار الدعوة والقيام بها جهرة كان بعد ثلاث سنين من بدء الوحي.[82] رأينا في مسألة انقطاع الوحي وهو أن بعدما حدث مع محمد ما حدث واعتقد جازما أنه النبي المستقبلي للعرب، انطلق في الدعوة ولم يتردد في الجهر بها معلنا أنه رسول أمين جاء ليبلغ رسالة ربه. لاشك أن العشر سور التي عرضناها حسب التسلسل التاريخي تثبت ذلك، في المدثر محاولة صريحة لتثبيت عزيمة محمد ﴿قم فأنذر﴾، في المزمل محاولة لمواساته والابتعاد قليلا عن مناكفة قريش والصبر على كلامهم المؤذي ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾، ثم تشكل خطاب التهديد والوعيد، ثم محاولة التخفيف من وطأة المصاعب والعقبات التي اعترضها (سورة الشرح) وارجاء العقاب (سورة الليل)، فضلا عن الاستدراج (سورة القلم) أخيرا القسم بالكوارث الطبيعية الكونية التي سترافق يوم الحساب (سورة التكوير). هذه السور نلاحظ أنها نشأت في ظروف نفسية تميزت بالاضطراب والغليان، وكأننا أمام شخص متحمس لحقيقة رآها ومتأكد من صحتها، محاولا إقناع أصدقائه بها، ولكن دون جدوى، فيصاب باليأس والحيرة. ذكر نولدكه أن سور السنوات الأولى تعكس الحماس (Enthousiasme) الذي حَرَّكَهُ وجعله يرى الملائكة المرسلة من عند الله فَعَبَّرَ عنها بالقرآن.[83]

بعد أحد عشر سورة عكست حربا كلامية وسلسلة من الاتهامات بين الجانبين، خفت نشاط محمد طيلة سنتين إلى أقصى حد، من 610 إلى 612 ميلادي. فترة عدها المفسرون والمؤرخون المسلمون كفترة صمت وفتور للوحي، اعتبروها على أساس أن جبريل توقف عن إلهامه والإيحاء إليه،

[81] السيرة النبوية ابن هشام، ص 275
[82] الشخصية المحمدية ص 144.
[83] تاريخ القرآن ص 68.

قراءة تصدر عن غير براغماتي للدعوة المحمدية، لقد فصلوا الاسلام والقرآن عن عجلة التاريخ. أما من الناحية التاريخية البراغماتية، هنا نذكر رأي المستشرق الفرنسي بول كازانوف حيث كتب: « محمد ليس رجل الرواية المعاصرة الذي يدرس تقلبات ذاته. إنه ينظر للهدف، يقفو أثره بحدسه السياسي النشط والمتبصر بقدر ما ينظر اليه بقبس النبوة الصادق» .[84] قراءة تؤسس لدين التاريخ، محمد شخصية تعاين وتستقرئ الظروف والمعطيات المحيطة به ثم يتخذ القرار، فالرجل بعيد كل البعد عن عقلية الروائي، فالروائي ينقاد للعاطفة والخيال، أما محمد فهو ينقاد لما يمليه عليه الواقع، ونحن ندرسه من هذه الناحية، الناحية التاريخية البراغماتية لا الإيمانية الغيبية.

نظر محمد مليا في المسألة ووعى جسارة المهمة التي ألقيت على عاتقه، صعوبة اقناع قريش أنه نبي العرب المستقبلي وموحد رايتهم وكلمتهم تحت سقف واحدة، وبالتالي أراد أن يخطو خطوة إلى الوراء مبتعدا قليلا عن أنظار قريش ويعود إلى عزلة، هذه المرة ليس للتأمل ومجاهدة النفس بل للتفكير في استراتيجية جديدة للدعوة، لأنه يعلم سلفا أن مشروعه الاصلاحي لن يرى نور الشمس في حالة عدم تلقيه المساعدة من أشخاص آخرين يكونون محل ثقة يمكن التعويل عليهم. لقد كشفت السور الأولى التركيبة الاجتماعية المكية مطلع القرن السابع، مجتمع منقسم إلى طبقتين، طبقة الأثرياء منا الأرستقراطية، وطبقة الفقراء المعدمين. امتكلت الأولى الامتيازات الاقتصادية؛ السيطرة على الأسواق الموسمية وشؤون الحج، في حين لم تتحصل الثانسة سوى على الفتات التي يقتات منها، لذلك وجد في الدعوة تعبيرا عن وعيه المكبوت، إنه شعوره بالأذى الذي يناله جراء التفاوت المادي الاجتماعي، اضافة إلى ما يعانيه من شروط فداحة المرابين والمحتكرين، وهو ما يفسر مسارعة هؤلاء الفقراء والمعدمين الانضمام للدعوة متحملين أشد الأذى.[85] صراع طبقي صرحت به سور قرآنية عديدة جاءت على لسان الأنبياء مثل نوح ولوط وهود وصالح وشعيب، وهي في الحقيقة انعكاس للحالة النفسية المحمدية وللمسلمين، نذكر على سبيل المثال ؛

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلاَّ ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (هود27)

تعكس الآية الجدلية بين طبقتين الفضلاء من الطبقة الأرستقراطية، والأراذل من طبقة المعدمين والمهمشين، من الوهلة الأولى، تظهر وكأنها تحيل إلى مجتمع وواقع غير المكي، فهي تتحدث

---

[84] Mohammed n'est pas un personnage du roman moderne qui étudie les fluctuations de son moi. Il voit le but, il le suit avec tout son instinct de politique avisé et lucide en même temps qu'avec son illumination de prophète sincère. Paule Casanova, Mohammed et la fin du monde, p 7

[85] النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، سبق ذكره، ص 383.

عن مجتمع النبي نوح. إن الآيات التي تتحدث عن معاناة الأنبياء والرسل والجدلية القائمة بينهم وبين مجتمعاتهم هي في الواقع تخفي حقيقة لم يتفطن لها معظم المفسرين والمؤرخين المسلمين، إنها آيات تعكس الحالة النفسية المحمدية أولا، والوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ثانيا، ولعل السؤال الذي سيتجلى في ذهن القارئ: هل قصص الأنبياء والرسل إضافة إلى الصراع بين المؤمنين والكافرين، الخير والشر، هو غير تاريخي؟

علينا أن نوضح أن النص القرآني ليس كتاب تاريخ أو علوم، وعندما التزمت منذ البداية بالمنهج التاريخي، فذلك لا يعني أننا نقر كون جل ما ورد في القرآن ينتمي للتاريخ، ناهيك أنه يتضمن أساطير شعبية متداولة في الوسط العربي وظفت لمناصرة الدعوة وغلفت برداء الدين الجديد مانحا إياها معنا جديدا منسجمة مع متطلبات مرحلة تاريخية جديدة. قصص الأنبياء والرسل يمثل تاريخا، ولكن ليس التاريخ الذي درسناه في المدارس والجامعات ومواقع الانترنات، حدث سنة كذا مما انجر عنه كذا فكانت النتيجة كذا، لا ليس هذا هو الغرض، بل الغرض من تاريخ قصص الأنبياء وتكرارها هو التركيز على البعد النفساني لصاحب الدعوة وحالة الإسلام والمسلمين، أي بتعبير آخر الجدلية بين الأنبياء والكافرين وما تمخض من معاناة ومحن ومكابدة ومثابرة ومواجهة، هو تأريخ للنفسية المحمدية وتطور لنسق الإسلام، وسنقف عند هذه الجزئية عند دراسة سور الجيل الثاني والثالث، نعود الآن إلى تحليل فترة الفتور..

سور إقرأ، المدثر، المزمل، القلم، المسد، الشرح، التكوير، الليل، الفجر، كانت كافية لتحديد طبيعة القرآن المكي المبكر والحالة النفسية المحمدية التي لم تكن واثقة من نجاح الدعوة وقلب بنية المجتمع المكي والعربي، حالة نفسية مضطربة وحائرة، ساخطة على أثرياء مكة متعطشة للتغيير والتثوير، إلا أن حسه البراغماتي دفعه كما قلنا للتراجع وهو تراجع تكتيكي. المصادر الاسلامية عالجت مسألة فتور الوحي بأسلوب غيبي وسحري، كل قارئ لتلك المصادر لا يجد ما يشفي غليله من ظروف الفتور وأسبابه، طبعا فإنني أتحدث عن القارئ الذي يبحث عن قراءة جديدة للدين بصفة عامة، قراءة منطقية تقوم على قاعدة الأسباب والنتائج، لا الضربة السحرية والإرادة الغيبية. لو كانت بدايات الدعوة الاسلامية مشفوعة بضربة سحرية لنجحت منذ أيامها الأولى وما كان لمحمد أن يتكبد ذلك العناء وحلقات طويلة من الصراع.

مرحلة الفتور تعتبر كمرحلة لمراجعة استراتيجية الدعوة، أيضا مراجعة للذات، فقد طغى عليها صراع نفسي مرير، لعل الحديث الذي نقله البخاري عن عائشة يبين ذلك، وصفت عائشة كيف حزن

الرسول حزنا شديدا من انقطاع الوحي وكيف حاول أن يلقي بنفسه من شواهق الجبال.* فترة فتور الوحي تمثل منعرجا حاسما في سيرورة الدعوة، حيث خفت صوتها لتنتقل إلى السر، فترة اعتبرها التراث كفتور للوحي، ونحن نرى عكس ذلك بل إن الدعوة بقيت مستمرة ولكن التزمت الكتمان والحذر وبدأ صاحب الدعوة بعد أن نفض يديه من قريش يدعو أقاربه من عشيرته. فترة جمعت بين الاضطراب النفسي والشعور بالضيم والحسرة إضافة إلى الخوف وحالة اللايقين، لتنتقل الدعوة من العلن إلى السر، في هذه الفترة أوثق فيها صاحب الدعوة عرى الصداقة بابن أبي قحافة أبو بكر الذي كان بمثابة التريث والتوثب والاستعداد، إضافة إلى تمتين الأواصر بزيد ابن الحارثة.[86] وعى محمد رهانات المرحلة، وهي علامة تنبئ بمرونة فكره وحسه البراغماتي الذي أشرنا إليه سابقا، والحس براغماتي يأخذ بعين الإعتبار متطلبات ومعطيات الواقع أو دعنا نقول إكراهات الواقع، وذلك يثبت وبلا مواربة تملكه لفن السياسة، والعرب لم يعرفوا علم السياسة وفلسفتها بمفهومها الحديث، إنما كانوا عرفوه تحت مفهوم الدهاء، مفهوم متداول في كتب الفقهاء كالماوردي والمفكرين كابن خلدون، تحول بمرور الزمن إلى علم سمي "بالدهائيات".

يتضمن هذا العلم قواعد الحكم وأسلوب التعامل مع الغير من الرعية و الأعداء،[87]حيث بدا صاحب الدعوة في هذه الفترة جادا في تعبيد الطريق نحو الهدف من خلال مفاوضة كل من توخى مؤازرته، أبا بكر وزيد يأتيان في المقدمة وكلاهما مثلا مرتعا خصيبا للدعوة، ولا شك في أن التقرب منهما يعكس دهاءه، وقدرة شخص على التفاوض وكسب وِدِّ الآخرين. لقد كان تاجرا**، بفضلها تعلم واكتسب فن التعامل مع الآخرين، نكتشف في ثنايا هذا السلوك مدى قدرة النظر المحمدي في اجتلاء

---

*كان الأجدر خديجة أن تنقل هذا الحديث لا عائشة لأن حينها كانت طفلة بنت خمس أو ست سنوات. العجيب أن الثراث الإسلامي لم ينقل رواية واحدة عن خديجة ونسب معظمها إلى عائشة التي لم تشهد الأشهر الأولى من الدعوة، مما يدفعنا لتوخي الحذر تجاه صحة هذه الرواية.

[86]الدين في شبه الجزيرة ص 102.

[87]فصول من تاريخ الإسلام السياسي سبق ذكره ص 6.

أغلب المصادر الإسلامية استبعدت أن تكون مهنة محمد قبل النبوة هي التجارة، مؤكدة على أنه كان راعيا. هناك مصدر من خارج الدائرة الإسلامية وهو عبارة عن بقايا رسائل كتبها يعقوب الرهاوي حوالي 680 ميلادي 60 هجري عندما كان حينها أسقف الرها، وصف محمد على أنه مؤسس السيادة الجديدة للعرب، كتب :« سافر محمد لممارسة التجارة في ولايات فلسطين من العرب، من فينيقيا ومن سكان صور.»** آيات كثيرة في القرآن تدعو قريش للتأمل في المشاهد التي تقبع في الأراضي التي يجتازونها، ويناشد بشكل متكرر العقلية الأخلاقية للروح التجارية لهؤلاء المسافرين التجار.
﴿وعَلَيهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ الآية من سورة المؤمنون 22 والآية 80 من سورة غافر والية 12 من سورة الزخرف)وفي سورتي الأنعام الآية 97 ويونس الآية 22 نقرأ ﴿وَهْوَ الذِّي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا في ظُلُمَاتِ البَّرِ والبَحْرِ ﴾. القرآن يكشف عن إلمام مذهل بالبحر والملاحة البحرية، حيث يصور البحر وعواصفه العارمة بوضوح، آيات مستمدة من تجربة مباشرة للملاحة البحرية. (انظر كتاب محمد وامبراطوريات الإيمان، د. شون ويليام أنتوني، ترجمة عبد الكريم الوظاف ص 140-141.
ربما الآن نفهم لماذا استبعد بضع المؤرخين وكتَّاب السيرة المسلمين أن يكون تاجرا، ذلك وأنها مهنة تسمح لمن يمارسها بالسفر والإطلاع على ثقافات ومعتقدات الشعوب المجاورة، إنهم عملوا بلا هوادة على تصوير محمد كشخص لا يعرف شيئا، سجين رقعة جغرافية محدودة، وتصويره على أنه أمي (لا يكتب ولا يقرأ) طبعا الغاية من ذلك إعطاء طابع اعجازي للقرآن.

الهدف واستشراف المستقبل ورسم استراتيجية واضحة المعالم، وهو ما يفسر عدم استسلامه واعتزاله للتجربة. لطالما وقع تعليل ذلك، أي تعليل عدم ترك محمد للدعوة وانصرافه عنها بأسلوب ايماني لا يمت بالواقع واكراهاته، رأى المسلمون في هذا السلوك برهانا على نبوته ودليلا واضحا على صدق رسالته، ولم يدركوا ما الذي أخفى حَقِيقَةً الاستبسال المحمدي ومقاومته للعوائق الجسام التي اعترضته خلال دعوته، لقد أخفى الخير العظيم لقريش خاصة والعرب عامة، هذا الخير ليس الإيمان بالله كما أكدنا فقريش تؤمن به وهي الملقبة بحامية بيت الله، بل توحيد القبائل وإقامة دولة متماسكة ومقارعة كبرى الأمم الفرس والروم، الدخول في التاريخ وصنعه بعدما كانوا على هامشه، حيث أفصح عن غايته النهائية قائلا : قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة فأيكم يؤازرني في هذا الأمر ؟[88]

يقينا فإن الدين الجديد هو عين الخير، خير الدنيا والآخرة، لأنه سيحدث نهضة عربية ستأتي على الأخضر واليابس، "أَسْلَمْتُ" هي الكلمة التي كابد للحصول عليها من الأعراب زهاء عقدين، كلمة سيملكون بها العرب وسيدين لهم بها العجم. كما ستحدث تغييرا في التنظيم الاجتماعي والسياسي للأعرب، تغيير نعيد ونؤكد ليس من فراغ إنما انطلاقا من موروث ماضوي. إن استبسال محمد في دفاعه عن هذا الدين واستماتته على الرغم من جسارة العوائق سببه ليس إيماني محض، صحيح أنه آمن من صميم قلبه بمشروعية الدين الجديد وحبه الخالص لقريش ساهم بشكل كبير في تحمل المشاق والهموم، ولكن سببه الحقيقي يبقى دنيوي بقدر ما هو أخروي، فالرجل مسكون بعقلية التخاصم، أي أنه ترعرع وشب في بيئة لا تخلو من صراعات وذلك ما كنا قد حللناه في الفصل الحادي عشر، حيث أكدنا أن الحنيفية غايتها دينية سياسية بالأساس، دينية إلغاء الوسائط، سياسية توحيد القبائل. الشيء الذي شَدَّ محمد للإسلام هو حرصه الكبير على القضاء على عقلية التخاصم، والتخاصم هو التشتت وغياب التودد،[89] إنه الفتنة بعينها. نجد آيات قرآنية متعددة تتحدث عن الفتنة وآثارها السلبية على تماسك المجتمع، وآيات الفتنة تعكس الجانب النفسي لصاحب القرآن، حالة من التوجس.* ذلك ما يفسر تغييره لاستراتيجية الدعوة من العلنية إلى السرية، مركزا على رَصِّ الصفوف الداخلية لبني هاشم وخاصة أقربائه أي عمل على كسب الود، والود سينتج حتما التكاتف بين الأفراد، هو الشرط الرئيسي لنجاح الدعوة، وعليه فإن مرحلة الفتور تعتبر كمراجعة للذات ووضع مسار جديد للدعوة أعطتها دفعة وأكسبتها عنفوانا.

---

[88] الدين في شبه الجزيرة، ص 105.
[89] الفتنة المقدسة عقلية التخاصم في الدولة العربية الإسلامية، سبق ذكره، ص 35.
*لقد نجح محمد في توحيد كلي لقبائل شبه الجزيرة ولكنه فشل في القضاء نهائيا على ظاهرة العصبية القبلية التي استمرت بعد وفاته بقرون ويظهر ذلك بين الأمويين والعباسيين.

بناء على ما سبق يتجلى الهدف من فترة الفتور، فهو لا يرتبط بتوقف الوحي لبضع سنوات، بل مرتبط بضرب من التكتيك، قراءة معطيات الواقع والتعامل مع اكراهاته وعدم الركوب عليه، بتعبير آخر التراجع خطوة من أجل كسب خطوات، وبالفعل لقد ساهم هذا التكتيك في ارباك قريش كما سيأتي، والجدير بالذكر فإن انتشار الإسلام في شبه الجزيرة كان بفضل منطق التكتيك السياسي المحمدي ومعاضدة أصحابه ولا وجود للمنطق الإعجازي السحري، فصيرورة الإسلام على عكس اليهودية والمسيحية صيرورة براغماتية. نجح محمد في التعاطي مع اكراهات الواقع، والأخذ في حسبانه البيئة التي نشأ فيها، والأهم من كل ذلك نجاحه في مسايرة الأحداث انطلاقا من مكة وصولا إلى المدينة، ولو نظرنا بتمعن في الملحمة المحمدية وتطور الإسلام سنجدهما ضربا من الديالكتيك. (الجدلية)

يتضح الهدف من فترة الفتور، يتمثل في العمل الحثيث والسري على كسب بعض الوقت، لأنه استحالة مواجهة قريش وأفلاذ كبدها بمفرده، يجب أولا نيل وِدِّ بعض الأفراد. وِدُّ كان قد ناله عندما أقدم على ما لم يقدم عليه الآخرون بعتق زيد من العبودية، إنه حدث عظيم يعكس تباشير ثورة إجتماعية عميقة، عتق سيصبو له البقية من الأعراب، ظاهرة قد تنتشر كالنار في الهشيم، وهو ما أربك قريش والطبقة الأرستقراطية. ففي عتق العبيد ضرب لطبقة السادة، والعبيد الإماء، والموالي، ثم إن العتق ضرب عقدة التمييز بين الأغنياء والفقراء، السادة والعبيد، إنها عقدة النسب، فعتق زيد من العبودية أثلج صدر الكثيرين، فرأوا في الإسلام فرصة حقيقة لقلب الموازين الطبقية وتحقيق ثورة اجتماعية. اتباع محمد سيكفل للعبيد والمعدمين نسبا، ونعلم أهمية النسب لدى الأعراب، ولا شك أن عتق زيد هو ترجمة صادقة لما أفصح عنه محمد : اتبعوني أجعلكم أنسابا !والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر !

شعرت قريش بالقلق الشديد من هذا الإعلان وأدركت إن ابنها يسعى إلى تأليب العبيد على أسيادهم، وعليه فإنهم باتوا يرون فيه وفي ودعوته خطرا كبيرا يتهدد مصالحها التجارية، إذا استمر قد ينهي مكانتها كحامية مكة والكعبة وتفقد صفة القداسة التي اكتسبتها منذ قصي ابن كلاب وعبد المطلب، فالأرستقراطية القرشية مصالحها تتوقف على وجود العبيد، والعبيد يمثلون عنصرا أساسيا في تكوين الجيش الحامي للتجارة، نلاحظ كيف عمد محمد إلى سياسة ضرب الطبقة الأرستقراطية المتغطرسة التي تحب المال حبا جما ولا تحض على طعام المسكين، السور المكية الأولى عكست تباشير الثورة الإجتماعية والإقتصادية كما سيأتي لاحقا. يوجد عامل خارجي مؤثر ساهم بشكل كبير في تمسك محمد بالدعوة وعدم الاستسلام للمد الرافض لها، إنه الظهور الواضح لعلامات الوهن التي أصابت كلا من الامبراطورية الفارسية والبيزنطية، ولا شك أن الظروف أصبحت ملائمة والفرصة

سانحة لتحقيق وحدة سياسية عربية تحت قيادة واحدة تدك عروش هاتين الإمبراطوريتين وتملأ مكانتهما. من هنا فهمت قريش أن محمد غايته المخفية وراء الدعوة سياسية المرمى، فهو يطمح للسلطة والسيادة على مكة لتتوسع فتشمل كل أرجاء شبه الجزيرة ثم تجوب الفضاء الخارجي، محمد في نظرهم ليس سوى مجرد مغامر طموح يهدف لغرض سياسي يبدأ بضرب قريش في مقتل، في مصالحها التجارية، حتى إذا تهيأ له الأمر امتلك أمر الحجاز وزحف على ممالك الروك والعجم. لئن كان في هذا القول جانب من الصحة فإنه لا يعكس الحقيقة برمتها، ذلك وأن نظرة قريش لمحمد تبقى عرجاء، لأنها لا تصوب الأنظار نحو المستقبل، بمعنى أنها تنظر إلى الآن فحسب، كسب الأموال وتحقيق الثراء الفاحش دون التفكير في المدى البعيد، وهذا من بين العوامل التي جعلتها ترفض الدين الجديد، لأنها شعرت أنه سيجردها من مكانتها الإقتصادية والإجتماعية. أما نظرة محمد فهي موجهة للمستقبل موجهة لتحقيق نعيم سيغمر جميع القبائل العربية، إنه يريد تحقيق نهضة عربية بأيادي عربية، لذلك فإن الإسلام كان له دور تقدمي في تغيير خريطة الواقع الاجتماعي والمعرفي في شبه الجزيرة والمناطق المتاخمة. إذن هذه النهضة العربية التي ستجعل العرب أنسابا وتقضي على العصبية القبلية ثم تحصد كنوز كسرى وقيصر يستحيل أن تتحقق من دون وحدة سياسية عربية.

الفصل الثاني والعشرون: العودة مرة ثانية إلى سياق سور الجيل الأول

تلك هي العوامل والظروف التي هيمنت على فترة الفتور وهدفنا هو تقديم قراءة منطقية لهذه الفترة، نحاول عدم فصل الدين عن بيئته بتحقيق تصالح بينه وبين الواقع والتجربة، ولو اطلعنا على كتب التراث الإسلامي لوجدنا أمورا عجيبة وغريبة، شباب اليوم يستحيل أن يستوعبها أو يستسيغها، وكنا قد نوهنا في بدايات الكتاب إلى هذه النقطة كون التقدم التكنولوجي والعلمي أحدث طفرة في عقول الشباب، إنه لم يعد يقبل بالتبريرات الغيبية والتفسيرات الاعجازية المبهمة، مما قد يدفع البعض منهم الشعور بأن الدين ينافي العقل ويتناقض مع الواقع، طبيعي أن نجد بعض الشباب يترك الدين مفضلا اللادينية.

يبرر التراث الاسلامي توقف الوحي وفتوره بخرافة ملاك يدعى اسرافيل وُكِلَ لمحمد، ونحن نعلم من نفس التراث أن الملاك جبريل هو من تكفل به أول مرة، ولا ندري لماذا وقع استبدال اسرافيل بجبريل طيلة فترة الفتور، ذلك ما نجده في حديث نقله أحمد ابن حنبل رواه الشعبي، أن الله أنزل النبوة على محمد وهو بن أربعين سنة فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل. يظهر من هذا الحديث وكأن محمد عرف اسرافيل أول مرة لا جبريل. طبيعي حدوث هكذا لغط، لأن التناقضات كثيرة في التراث الإسلامي، أولا لأنه بشري، ثانيا محاولة الخروج من المأزق الذي يفرضه الفكر الديني الذي يعالج الأمور بطريقة أسطورية ويأبى التعاطي مع مجريات الأمور من منطلق وضعي. ولو سألنا لماذا اقترن الوحي بإسرافيل ثم اقترن بجبريل، قيل إن الحكمة من توكيل اسرافيل هو أنه الموكل بالصور الذي فيه هلاك الخلق وقيام الساعة، كما وكل بذي القرنين الذي يطوي الأرض وبخالد ابن سنان مالك خازن الأرض.[91]

سورة الضحى تعلن عن نهاية فترة الفتور وايذانا بالعودة إلى مسار الدعوة، من الواضح أنها اكتسبت أنصارا وحصدت أصواتا، وبالتالي فهي تخرج في حلة جديدة تختلف عن البدايات، ومما لا شك فيه فإن الإسلام دخل مرحلة دقيقة في تاريخ تَكَوُّنِهِ، استهلها محمد بالقسم بأن ربه لم يودعه أو يهجره؛

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴾﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلأُولَىٰ ﴾﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ﴾.

---

[91] الإتقان في علوم القرآن ص 44-45.

سورة الضحى تلخص بأسلوب سجعي يتسم بإيقاع يؤثر على الأنفس على غرار جميع سور الجيل الأول، تلخص حياة محمد الطفل الذي تيتم منذ صغر سنه وكان فقيرا محروما فأنعم الله عليه وبعث خديجة لكي تلعب دور الأم وتملأ ذلك الفراغ النفسي، لقد عانى من جفوة عاطفية تمثلت في هجران أمه له، قطعت الروابط العاطفية معه تاركا إياه وحيدا في عالم خطر، الهجران بالعربية القديمة (التوديع)[92]. أنتجت الآيات تحت وقع الحرمان العاطفي وتأزم العلاقة إلى أقصاها مع قريش، السورة إذن هي ترديد لذكرى أليمة، ذكرى طفولية اصطبغت بشتى ألون الفقر والحرمان حتى أغناه الله بمال خديجة ليعلن ذلك جهارة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

بهذه الآيات من سورة الضحى، ازدادت قريش وثوقا من أن الدعوة ليست سوى محاولة للاستئثار بسيادة مكة ودليلهم على ذلك، هو أن محمد من هاشم وهاشم ينتمي الى فرع عبد مناف، فرع هو منذ قصي ومُلْكُ مكة له هدف، وعليه فإن غايته من هذا النداء اتخاذ الرسالة كذريعة لبلوغ الهدف بملك تدين الصحراء له ثم يمتد فيطوي الروم والعجم.[93] كما استقرأت قريش من إعلان محمد "اتبعوني أجعلكم أنسابا ! والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر !" أو " اعطوني كلمة تدين لكم بها العرب وتخضع لكم بها العجم" كون الرجل لديه غرض سياسي متخفي برداء ديني صرف، وأن الكلم الذي يتلفظ به ليس سوى افتراء على الله، ليعلو هذه المرة صوت عبد الله ابن الزعبري من كبار شعراء قريش يهجو محمدا ويقارعه، لتعود الحرب الكلامية ويعود معها أسلوب التهجم والقذف، فيتم <u>انتاج سورة الكوثر</u> تحت وقع السخرية منه وتعته على أنه أبتر، والأبتر الذي لا ولد ولا نسب له، فيأتي الرد بكل قوة وصرامة ؛

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

والكوثر حسب التراث الإسلامي هو نهر عظيم في الجنة من شرب منه لا يظمأ أبدا، وبذلك نفهم **أن محمد لطالما واسي نفسه بالآيات القرآنية، وعزي بها نفسه في مناسبات كثيرة،** سورة الضحى والكوثر خير دليل على ما نقول. اشتدت النبرة الهجومية على قريش، خاصة أشرافها وسخطه يأتي قرآنا في صيغة أدبية متسقة ومنسجمة تدل على مدى عزمه على مواجهتهم رافعا التحدي بالتحدي، ففي هذه المدة –بعد الفتور مباشرة – استرسلت شفتاه قدحا وتقريعا واستخفافا بقريش، **<u>فأنتجت سورة الكافرون</u>**. صدمت قريش وأصيبت في مقتل، كيف لمحمد أن ينعتها بالكفر ؛

[92]من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ، سبق ذكره ص 42.
[93]الدين في شبه الجزيرة، ص 105

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

وكأنه سعى إلى تجريدها من صفة "أهل الله" هيهات ! فإن قريش لن تقبل بذلك وهي التي تؤمن بالله وتؤكد أنه لا معبود إلا سواه، إلا أن طريقة الإيمان تختلف عما سيفرضه الإسلام، وربما لو حللنا كلمة كافر أو كفر، سنجد أنها تعني إخفاء الشيء والتعتيم عليه، ومن ثم فقد يكون شخصين مؤمنين بوجود إله ولكنهما يختلفان في توصيفه فمثلا إسلام المسلمين الأوائل يختلف عن اسلام المتأخرين، فهل اسلام الصحابة مثل اسلام المعتزلة؟ وهل إسلام الحنابلة والوهابية مثل إسلام الصوفية ؟ وذلك ما يدعم أنه لا يوجد إسلام واحد في تاريخ المسلمين، بل اسلامات. لقد شهد القرآن على إيمان قريش في مواضع كثيرة ؛

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون 86-87)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف 9).

إذا كان محمد قد اعترف من خلال القرآن بإيمان قريش، فهي تؤمن أنه لا إله إلا الله، فكيف إذن يتهمها بالكفر وينزع عنها صفة مقدسة حازت عليها منذ الجد المؤسس قصي إبن كلاب ؟ لم تستوعب قريش رهانات المرحلة الجديدة، فنحن إزاء دين جديد يفرض إيمانا جديدا، **شرطه الأساسي يجب أن يمر عبر الإيمان بمحمد كرسول لإله واحد.** [94]**ومن ثم فعليها أن تضيف بجانب إيمانها بالله إيمانها بمحمد كرسول مرسل، فإقرارها أنه لا إله إلا الله غير كاف ولم يعد يضمن مكانتها كحامية لرب البيت، وبالتالي عليها أن تشهد أنه لا إله إلا الله وان محمدا عبده ورسوله.** إن إقتران اسم محمد باسم الله يعكس مدى دهاءه وتكتيكه السياسي، **وكأنه يطلب منهم ضمنيا استبدال الوسائط به شخصيا، فلم تعد الوسائط ضامنة للشفاعة أو يتقرب بها إلى الله**

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس/18)

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر/4)

---

[94] لحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، ص 135.

بل محمد من يشفع لهم، والتقرب إلى الله يمر بالضرورة عبره، لقد سلخ كل الشفاعات إلا شفاعته، وذلك ما سيحقق توحدهم جميعا تحت راية قيادته وحده. [95]

الرواية التي أوردها الطبري في تاريخه نقلا عن ابن اسحاق كشفت مدى حدة الخطاب المحمدي خلال هذه الفترة تجاه قريش وعقيدتهم، خطاب بلغ مستوى التسفيه والترذيل، طبعا فإن ذلك يندرج ضمن التكتيك المحمدي، فقد استوعب أنها لن لن تقبل به ولا بدينه، فما عليه سوى التشكيك في عقيدتهم وآلهتهم بهدف زعزعة وحدتهم وكلمتهم. قال ابن اسحاق فيما حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عنه :«فصدع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبادى قومه بالإسلام، فلما فعل ذلك لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه بعض الرد فيما بلغني، حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام. ومضى رسول الله على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبهم في شئ (أي لا يرضيهم) أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم. مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب: عتبة ابن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وأبو البختري ابن هشام و الأسود ابن عبد المطلب و الوليد ابن المغيرة و أبو جهل ابن هشام والعاص بن وائل ومنبه ابن الحجاج فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه » .[96]

ما أقدم عليه محمد - **نزع شفاعات الوسائط واستبدالها بشفاعته ثم إهانة ديانتها**- أدى إلى استنفار قريش وشعرت أنه عازم على المضي قدما في هذا الأمر الذي يتهدد مصالحها ويبشر بأفول سلطانها. تحدثنا كتب التراث كيف توسلت قريش لأبي طالب وطالبت منه إقناع ابن أخيه على التراجع، ذلك وأن الدعوة اكتسبت زخما واضحا بعد فترة الفتور، لأنها نجحت في جذب المهمشين والمعدمين إلى جانب الموالي والعبيد من الطبقة الفقيرة إثر الوعد المحمدي إتبعوني أجعلكم أنسابا، فالوضع أصبح ينذر بقيام ثورة اجتماعية وسياسية قد يندلع لظاها بهؤلاء الموالي والعبيد، وهذا أمر لشد ما منه تفزع قريش ولشد ما منه تجزع.[97] إن مقابلة أشراف قريش بأبي طالب والحوار الذي دار بينه وبين محمد يعد حدثا مفصليا في مسار الدعوة، لأن هذه الحادثة ستفضي إلى تعاضد أفراد من البيت الهاشمي وتكاتفهم من أجل حماية ابنهم، فما كان إلا رفض محمد طلب عمه، و ما كان رده إلا ترجمانا صادقا عن إرادة وعزم لا مثيل لهما، فجاء الرد بأسلوب تعجب منه أبو طالب وصدمت منه قريش "والله لو وضعوا الشمس في يمين والقمر في يسار على أترك هذا الأمر حتى يظهره الله !"

---

[95]نفسه.

[96] تاريخ الطبري ج الثاني سبق ذكره ص 322-323.

[97] الدين في شبه الجزيرة، ص 109-110.

هذا الرد المحمدي تاريخيته مشكوك فيها، ويعتبر كرواية ضعيفة، إلا أن كثرة تداوله خاصة في الأشرطة الدينية جعل منه حقيقة تاريخية، وعلى أية حال وإن كان ليس تاريخيا، فإنه يعكس البنية الإجتماعية والإقتصادية لمكة في القرن السابع الميلادي، فقوله لو وضعوا الشمس في يمين والقمر في يسار يدل على امكانيات الطبقة الأرستقراطية في مكة، أي أن قريش كانت ثرية بما يكفي إلى درجة أنها قادرة على توفير ما لا يخطر على بال أحد، فوضع الشمس في يمين والقمر في يسار تعبير مجازي لأنه استحالة أن يتملك الإنسان الشمس والقمر، وكأنه أراد أن يقول لهم حتى ولو حققتم المعجزات فإنني لن أتراجع، ولعل ما قاله عتبة ابن ربيعة من كبار قريش يكشف لنا مدى قوة قريش الإقتصادية وثرواتها الفائضة : « يا ابن أخي، إنك قد علمت في المكان في النسب وقد أتيت أمرك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها، إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد تشريفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا » . [98]حتما ! **فإن محمد يريد مالا ويريد ملكا ولكن ليس لشخصه، بل يريد ملكا ومالا يشمل الأعراب كافة فلا يكون حكرا على قريش وحدها، وما ملك ومال قريش إلا نعيما ظرفيا تتمتع به شريحة محدودة وأخرى ترزح تحت وطأة الفقر والحرمان، وهل يمكن المقارنة بين ملك ومال قريش وكنوز كسرى وقيصر؟ ثم إن محمد لا حاجة له بالمال في هذه الفترة لأن لديه مال خديجة، ولا حاجة له بالملك لأن مكة لقاح لا تدين لملك.**

إن الإصرار المحمدي وتمسكه بالدعوة سببه ليس النبوة فهو نبي بلا معجزة، وهذا يعد من بين العوامل الموضوعية لعدم اعتراف قريش بمحمد وبدعوته، ولكن السبب الرئيسي يكمن **في ظهور حزام دفاعي أحيط به،** إنه حزام متكون من أفراد بنو هاشم، ونعلم أن العصبية القبلية هي المحرك الاساسي للأعراب نظرا وأنهم أهل وبر وليسوا أهل مدر، يعيشون في بيئة مقفرة وقاسية، الساري فيها هو قانون القبيلة، ليعلو صوت أبو طالب شعرا :

و الله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسد في التراب دفينا

قطعا ! فإن المنعة الهاشمية التي ساهم أبو طالب في إرساءها مثلت مربط الفرس في النصف الثاني من الفترة المكية، ذلك وأن الدعوة المحمدية والعداوة التي نشبت بينه وبين قريش أحيت الخلاف القديم الذي دَبَّ في الماضي داخل البيت القرشي، بين بنو عبد الدار وعبد شمس وبنو هاشم من أجل السلطة، وقد فسرنا طبيعة هذا الخلاف في الفصل الحادي عشر.

---

[98] ص 112.

ثم استرسلت شفتاه لتعلي من شأن بني هاشم منعتها وعزتها ليرد الإعتبار للبيت الهاشمي الذي كان ضحية للتهميش والاستضعاف بسبب فقره وخصاصته :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخرة   فعبد مناف سرها وصميمها

وإذا حصلت أشرف بني عبد مناف ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت هاشم يوما فإن محمدا   هو المصطفى سرها وكريمها

تداعت قريش غثها وسمينها علينا   فلم تظفر وطاشت حلومها[99]

يبدو واضحا من خلال هذه الأبيات الحماس الذي غَمَرَ أبو طالب والبيت الهاشمي، لأنهم أدركوا أن الدين الذي يدعو إليه محمد، سَيُعلي كلمة بني هاشم داخل قريش، وسينهي أخيرا عقودا من الاستضعاف والتهميش، فَهِمَ أبو طالب أهمية المرحلة التي يمر بها الشق الهاشمي، وفَهِمَ لماذا إستغاضت قريش وأبدت رفضا شديدا لمحمد ودعوته ومدى العداوة التي ظهرت عليها، فكيف لرجل من بني هاشم يَدَّعِي النبوة ويزعم أن ما يتلفظ به هو وحي من عند الله لا دخل له فيه، وهو ينتمي للمستضعفين لا الأثرياء ؟ وكأن قريش لمحت لأبي طالب أن ابن أخيك يبحث عن السلطة والجاه ويسعى جاهدا لسيادة قريش ومكة حتى ينتقم من الشق المناوئ للهاشميين، والأبيات السابقة الذكر جاءت لترد على بنو عبد مناف وبنو عبد الدار وبنو عبد الشمس وتخبرهم أن الهاشميين سيصبحون مستقبلا عنصرا أساسيا في سياسة مكة. ليحلم بنو عبد الدار ونوفل وشمس، وليحلم الأمويون ما شاءوا فالرؤية التنبئية لأبي طالب تتوقع وتخطط، لتطيش هذه الحلوم لأن هاشما ستقف مع محمد حتى تنصره وتنتصر به.[100]

بمعاضدة أبي طالب ابن أخيه والتفاف الهاشميين حوله اشتعلت العداوة الدفينة بين بنو هاشم وبنو نوفل وبنو شمس وبنو الدار مرة أخرى، وكأن التاريخ عاد عقودا إلى الوراء زمن وفاة قصي ابن كلاب الجد المؤسس وصراع الأحفاد على تركته، عَبَّرَ أبو طالب عن هذه العداوة شعرا :

و لما رأيت القوم لا ود فيهم   وقد قطعوا كل العري والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى   وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قزمت علينا وقد أظنهم   يعضون غيظا خلفنا بالأنامل

---

[99]ابن هشام السيرة النبوية ج الأول ، ص 302.

[100]الحزب الهاشمي، ص 142.

نجد في الأحزاب المناوئة للحزب الهاشمي رجالا ينتمون إلى نبلاء قريش أفصحوا عن عداوتهم وحسدهم وغيضهم تجاه الدعوة المحمدية مصرين على أن ما يقوله محمد ليس إلا افتراء وكذبا، ومن بين هؤلاء ؛ عمرو ابن هشام الملقب بأبي جهلا استصغارا واستحقارا حيث روى: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحلموا فحلمنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب ركبنا كفرسي رهان، قالو : منا نبي يأتيه وحي السماء ! والله لا نؤمن به ولا نصدقه، ثم استرسل شعرا :

أتونا بإفك كي يضلوا عقولنا وليس مضلا إفكهم عقل ذي عقل

نفهم من قول أبي جهل أن الحزب الهاشمي آمن بمحمد لا لأنه نبي مرسل، أو لأن ما تلفظ به هو وحي من عند الله، بل لأنهم التقطوا فكرة أن النبوة والرسالة تمثل لحظة تاريخية فارقة، ستجعل منهم أسياد مكة وستكون لهم الأفضلية على بقية الأحزاب داخل قريش. إنها فرصة جاءتهم من السماء يجب استغلالها وعدم التفريط فيها، ومن هنا نفهم سر كل ذلك الاستنفار من أجل الذود عن الدعوة المحمدية. لقد باءت محاولات قريش لإغراء محمد بالفشل، وكما وضحنا فهو ليس بحاجة إلى المال وهو الذي أغناه ربه بمال خديجة، وليس في حاجة إلى الملك لأن مكة لقاح لا تدين لملك، وربما سيستدرك علينا بهذا الموقف المحمدي ويستعمل كحجة ضدنا بالقول : إذا كان محمد لا حاجة له بالمال ولا يرغب في الملك لأنه آمن من صميم قلبه أنه نبي، بالتالي فإن النظرية القائلة بأنه سعى لإقامة كيان سياسي يوحد جميع القبائل العربية تحت رايته وقيادته بغية الظفر بكنوز كسرى وقيصر تسقط ولا أساس لها. فنرد : كلاًّ، فإن المقاربة سليمة ولا تشوبها شائبة، ولكن، **لو كان محمد طالبا للمُلْك لفشلت الدعوة منذ السنوات الأولى ولن تجد مرتعا في قلوب المستضعفين، لأن المُلْك ليس كالرسالة، والبون بينهما شاسع يقاس بسنوات ضوئية، ذلك وأن الأمر الصادر من شفتي مَلِكْ ليس كالأمر الصادر من شفتي رسول، فالرسول يتلقى أمره من الإله على عكس الملك أمره بشري صرف، وعليه فإن أمر الملك سيكون مردودا، أما الأمر الصادر من شفتي رسول فأمر إلهي، والأمر الإلهي لا مرد له.**[101]

في خضم ذلك، ازداد مستوى الاحتقان والعداوة بين أبناء العمومة، ولجأت الأحزاب المتحكمة في المشهد السياسي والاقتصادي وهم بنو عبد الدار وبنو عبد شمس إلى فرض الحصار على الحزب الهاشمي، فلقد حاولت قريش التفاوض وحل الأزمة سلميا وهي المعروفة بحبها للسلم والتحاور وعدم الجنوح للعنف والحرب، إلا أن جميع الحلول استنفذت ولم يبقى لها بدا إلا فرض الحصار التجاري

[101]الدين في شبه الجزيرة، ص 112.

حتى تلحق الأذى بأنصار الدعوة، فسيادتها على مكة لا شك وأنها قاب قوسين أو أدنى من الانحدار. هيهات ! لا تزال الطبقة الأرستقراطية المكية المتعنتة، تنظر إلى مصالحها الآنية الضيقة ولم تستوعب الغرض الحقيقي من الدين الإسلامي، لم تستوعب أنه حركة إصلاحية على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي، سينتهي بتوحيد الأعراب وتوديع البداوة واقتحام الحضار. غير أن قريش، بقى فيها حكماء نافذي البصيرة، قويي القريحة، الذين استوعبوا مثل الحزب الهاشمي، الغرض من الدعوة، استوعبوا ميكانيزمات عجلة التاريخ التي تسير دائما إلى الأمام وتأبى السكون أو العودة إلى الوراء، إنه الحكيم والعجوز المخضرم عتبة ابن ربيعة حيث نَبَّهَ قريش ونصحها معلنا : **يا معشر قريش أعطوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.**

هيهات ! لقد ذهب كلام عتبة أدراج الرياح ولم تتلقف الأرستقراطية المكية نصيحته، كما لم تفهم أهمية المرحلة التاريخية التي تمر بها شبه الجزيرة، وشرح د. سيد القمني ذلك بالقول : « وضاع كلام عتبة وسط ضجيج الحمية المصالح الآنية الضيقة، وتراكم خطأ حسابات الملأ مما دفع إلى خطوات أخرى، ومتغيرات أخرى، وبالتدقيق، يمكن قراءة دوافع ذلك الخطأ الأساسي وكشفه، والذي يمكن برأينا، في مجاهرة النبي بضرب المصالح الآنية والأنانية لأطماع الملأ التي لا تتوقف، بدءا بضرب التعدد الربوبي القبلي بهدف التوحيد الآتي، وإعلانه كفران قريش، وسلبها لقب أهل الله».[102]

إن هذا المشهد التصادمي بين الأحزاب القريشية أدى إلى **<u>انتاج سورة العاديات، التكاثر فالعصر</u>**. تموضعها بعد سورة الكوثر والكافرون حسب التسلسل التاريخي. القارئ لسورة العاديات سيتساءل عن مدى صحة انتماءها للمرحلة المكية الأولى، حيث تعكس بأسلوب خاطف، مشهد الغزو وخيل الغزاة ونار الحباحب التي تنقدح من حوافرها، أيضا الإغارة على عدو صباحا ؛

﴿وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾ ﴿فَٱلْمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴾ ﴿فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴾ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾

إنه مشهد حربي يحيل لقرآن الدولة لا الدعوة* ومع ذلك تنتمي العاديات لمرحلة أي قرآن الدعوة التي تتسم بقلة أعداد المناصرين. السورة أنتجتها نفسية محمد المتحمسة المتوهجة، المتعطشة للتغيير والتثوير. ربما شعر وهو شعور عابر وآني، كون المنعة الهاشمية أكسبته ثقة، ثقة

[102]حروب دولة الرسول ج الأول، سبق ذكره، ص 28-29.
*قرآن الدعوة هو القرآن المكي أما الدولة فهو المدني.

قادر من خلالها على فرض كلمته بالقوة، ولكن سرعان ما فهم أن الوضع غير ملائم للمرور إلى قوة السلاح وأن رهانات المرحلة تستوجب الصبر والعفو عن الأذى ومن ثم التربص بالعدو حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، **فأنتج سور التكاثر،** موضوعها الاستخفاف من الأرستقراطية المكية وبكثرة أبناءها، وهي تأتي كرد ثان يستتبع سورة الكوثر بعد أن اتهموه بالصنبور أي لا نسب له ؛

﴿ أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَّاثُرُ ﴾﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

تشكلت التكاثر تحت وقع الظرفية الصعبة التي مَرَّ بها محمد، قلة المؤمنين مقارنة بكثرة الكافرين (قريش)، **وكأنها محاولة للتنفيس عن المكبوت، فانعكس التنفيس قرآنا.**

سورة العصر تضمنت مزيجا من الوعد الوعيد، والحث على الصبر الجميل واصفة الدين الجديدة بالحق، كل من اتبعه سيكون مآله الفوز في الآخرة، وتبدأ السورة بالقسم وهو الأسلوب الادبي المعتاد لسور الجيل الأول؛

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ ﴿إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾﴿إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

لا شك أن حنق محمد على الأرستقراطية المكية ما انفك يتعاظم، خاصة بعد الحصار التجاري التي فرضته على الهاشميين وعودة تلك العداوة القديمة أيام قصي لتحرك المياه الراكدة، لا أشك أنه رأى انحلالا فضيعا في المجتمع المكي واختلالا باستئثار الملأ (الطبقة الحاكمة) بجمع الثروات والجاه واللذائذ والشهوات، في حين فإن الموالي والعبيد والصعاليك يكابدون الأهوال للحصول على الفتات الذي يلقيه لهم الطواغيت المستكبرون.[103] تحت مشاعر النقمة والغضب على جبابرة مكة **أنتجت سورة الهمزة والماعون**. الأولى توعدت أثرياء مكة أن جمع الأموال لن يصدهم عن نار جهنم ولن يخلدهم في الحياة؛

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ (الهمزة6/1)

أما الثانية حذرت الأثرياء الذين لا يبالون باليتامى والمساكين وإقصاءهم من التوزيع العادل للثروة؛

﴿ أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾﴿فَذَلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (الماعون3/1)

[103]فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم، سبق ذكره، ص 240-241

سور الجيل الأول كشفت أن الإسلام هو حركة إصلاحية لفساد مجتمع عاش في القرن السابع للميلاد، والسور الأولى ليست سوى مرآة تعكس مسار هذا الإصلاح، حركة تكشف جانبا هاما من تكوين بنية محمد النفسية وانغراس بذرة الثورة في خطابه من جهة ثانية.[104]

[104] ص 241-242.

سور الجيل الثاني تختلف عن السور السابقة، اختلاف يطال الشكل أكثر من المضمون، المضمون بقي في مجمله أخرويا يقوم على التهديد والوعيد، الصبر على الأذى، التعزية والسلوان، وذلك كما وضحنا عائد بالأساس إلى نفسية محمد في مكة، علما وأن قصص القرآن الذي يسرد أخبار الأنبياء والصالحين وآدم وإبليس أصبحت أكثر استفاضة ما لا نجده في السور السابقة. وفق نولدكه، فإن السور في هذه الفترة تتميز بتراجع الحماس في صياغة الكلم القرآني، أي أنها إبتدعت قليلا عن الأسلوب السجعي وبدأت تميل للأسلوب النثري : « نلاحظ في هذه السور الانتقال من الحماس العظيم إلى قدر أكبر من السكينة في السور المتأخرة التي يغلب عليها الطابع النثري».[105] إن هذا الميل تدريجي ولم يحصل فجأة، ونتفق فيه مع نولدكه، **محمد رجل خاضع لديالكتيك التاريخ،** أي أن الظروف ورهانات الواقع من تشكل شخصيته وليس العكس، ما يجرنا آليا إلى تاريخية النص القرآني، خضوعه للتطور ويدحض كليا المقاربة الإيمانية الغيبية، كون القرآن فوق التاريخ أو كما يقال في اللوح المحفوظ. استدل نولدكه ببعض الآيات من سور الجيل الثاني والثالث، *تشير إلى إتهام الكافرين محمدا بالكذب و ووقوعه تحت تأثير الجن لأنه غَيَّرَ أسلوب الكلم القرآني وما تبعه من شكل ومضمون، إن الكافرين لم يعرفوا رسولهم لهذا السبب، نلاحظ أنه قدم تفسيرا مغايرا لما تداولته الكتب التراثية في تفسير بعض سور القرآن.

سور الجيل الثاني كما سيأتي بدأ يهيمن عليها الطابع التأملي الهادئ مع تراجع الخيال العنيف، كما هيمن عليها كثرة الأمثلة (قصص الأنبياء)، غير أنها لا تخضع للترتيب المنطقي وفيها نوع من الارتباك والممل والتكرار.[106] نتفق معه فيما يتعلق بالطابع التأملي وتراجع الخيال العنيف، ولكن نختلف معه حول التكرار والارتباك ولنا رأي أخر في هذه المسألة سوف نأتي عليه. **يرجع نولدكه سبب بداية فتور الحماس في سور هذه الفترة إلى احباطات الواقع، يعني اصطدام محمد بالرفض الشديد لدعوته وعدم الإيمان بأنه نبي يوحى إليه،** ونحن لا نستبعد ذلك، **لأن محمد منذ بداية الدعوة إلى نهايتها خاضع لهذه الإكراهات، وهو ليس فوق التاريخ، ولا برجل معجزات، بل هو رجل الواقعية البراغماتية من قمة رأسه إلى أخمص قدميه،** مع أنه علينا احتساب سبب ثان أدى إلى فتور الحماس

---

[105] تاريخ القرآن سبق ذكره، ص 105.
* ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ المؤمنون
[106] تاريخ القرآن، ص 106.

القرآني، الخوف والتوتر كانا أكثر جلاء خلال سور الجيل الأول، عراقيل عظيمة أحاطت به علاوة على غياب المناصرين الذين كانوا قلة قليلة. من جانب آخر، الحماس مرتبط بانطلاق دعوة الناس للدين الجديد، فكل شخص عندما يشرع في إنجاز عمل ما يكون متحمسا له في البداية، ثم شيئا فشيئا يخفت، ويصبح أمرا عاديا، لأنه إعتاد وتمرس عليه، ليتحول إلى جزء من حياته اليومية. الحماس الإيقاعي والأدبي لم يختفي تماما في سور الجيل الثاني، حيث نجد في بعض السور النفحة الحماسية خاصة في محاولة تفنيد معتقدات أهل الكتاب من اليهود والنصارى. ما يميز هذه السور هو مناقشة كبرى القضايا الدينية مثلا :

ولادة النبي عيسى وحسم الجدل حول طريقة والدته.

تفنيد بعض معتقدات العهد القديم.

التطرق إلى حياة كبار الأنبياء كموسى وإبراهيم ونوح.

التعرض إلى جدلية الإيمان والكفر الخير والشر.

كذلك نلاحظ بداية الحضور القوي للصراع بين آدم وإبليس وقصة الطرد من الجنة.

معظم القصص القرآني متفق مع قصص الكتاب المقدس، أي أنه ليس منقولا بطريقة حرفية – مع أنه نجد بعض الآيات منقولة نقلا حرفيا سواء من التوراة أو التلمود- لكن بتصرف. الجدير بالملاحظة، فإن قصة موسى هي الأكثر ترددا في سور الجيل الثاني، ويرى نولدكه أن هذا السبب يعود إلى **شعور محمد أنه قريب جدا لموسى أثناء الفترة المكية**. هذه الفكرة منطقية ومقبولة، لأن تواجده في مكة وما تعرض إليه من صعوبات وعراقيل، تتشابه تشابها كبيرا مع ما عانى منه موسى في مصر ومحاولة تخليصه بني إسرائيل من قبضة فرعون، **ففرعون يمثل سلطة الملأ في مكة، والمضطهدين المعدمين المفقرين في شبه الجزيرة وضعيتهم كوضعية بني إسرائيل، الحرب الكلامية بين محمد وقريش تشبه الحرب الكلامية بين موسى وفرعون، هجرته من مكة إلى المدينة شبيهة بحدث الخروج الجماعي**.

ما يميز هذه السور أيضا هو تراجع ملحوظ لأسلوب القَسَمْ المعقد على طريقة الكهنة قبل الإسلام، واتخاذ أسلوب جديد هو القسم بالقرآن، كما يغلب عليها مقدمات شكلية تحيل وأن هذا القرآن هو كلام الله الموحى مثل تلك آيات الكتاب وقرآن مبين، وربما ترديد لفظ "قل" خير دليل على أن محمد أراد إضفاء طابعا سماويا قدسيا على القرآن. إن هذا التغير ليس اعتباطيا بل مقصودا، رهانات المرحلة فرضت عليه إحداث نقلة نوعية في الأسلوب الخطابي والأدبي بعد حملة شعواء من التكذيب،

خاصة اتهامه بأنه شاعر، فاستبدل القَسَمَ المعقد (قَسَمُ الكهان) الذي كان منتشرا بكثرة قبل الإسلام داخل أوساط شبه الجزيرة، بقسم أكثر بساطة ووضوحا، القسم بالقرآن حتى يبدد الشبهات حوله، ثم **إن القسم بالقرآن يخدم جانبا آخر افتقر إليه محمد ألا وهو المعجزة التي طالما أرهقته طيلة الدعوة، فأراد أن يجعل من الكَلِمَ الذي يتلفظ به معجزة تختلف عن معجزات بقية الأنبياء.** سور الجيل الثاني تتزامن مع حدثين جد مهمين في تاريخ تكوين الدين الإسلامي، أولا الهجرة إلى الحبشة سنة 615 ميلادي، وصحيفة المقاطعة يين 615 إلى 619 ميلادي، ومنذ بدايات المرحلة أنتجت **سور عبس، الشمس، البروج، المرسلات، النبأ، التين، القارعة، القيامة، قاف، البلد، الطارق، المطففين، القمر، الواقعة، صاد، فالأعراف**.

يبدو أن صحيفة المقاطعة ساهمت بشكل كبير في فرض انطباع معين على سور الجيل الثاني، فالصحيفة منعت المسلمين وضيقت عليهم بالجهر بعقيدتهم، فاستغل محمد وأتباعه الأشهر الحرم من كل عام للتحدث بأمر الدعوة. خلال هذه الأشهر كانت فلول العرب تَفِدُ إلى مكة حاجين إلى البيت، وفي هذه الأشهر تضع الخصومات أوزارها، فلا إعتداء ولا إنتقام.[107] قاعدة لن يحترمها محمد بعدما نجح من وضع اللبنات الأولى لدولته في يثرب وإعلانه الحرب على قريش. التضييق الذي فرضته المقاطعة جعلت من سور الجيل الثاني تزخر بالنذر (الإنذار)، والوعد بجنات الخلد والثواب في الآخرة كجزاء للصبر على الأذى والصمود أمام الكافرين. وهنا يظهر السر في توظيف محمد المكثف لملحمة الرسل والأنبياء مع التركيز على العقاب المدمر الذي فتك بالمجتمعات والشعوب التي لم ترضخ لأوامر أنبيائها ورسلها، فكان مصيرها قاتم. فهذه ثمود كذبت بنبيها صالح واستخفت بالمعجزة التي أتى بها وهي الناقة فأصابهم العذاب الرباني ؛

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾ ﴿إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ ﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾. (الشمس15/11)

صالح هو نبي عربي بعث إلى ثمود وهي قرية يقال إنها في منطقة الأردن حاليا والبعض الآخر يرى أنها البتراء، ولثمود تسمية أخرى في القرآن وهي الحجر، عنوان سورة تندرج ضمن سور الجيل الثاني. يوجد نبي عربي ثان هو هود بعث لقوم سمي بعاد، قيل إن هذا القوم وجد في منطقة عُمَان حاليا، والتعرض إلى هذين النبيين العربيين ليس صدفة، بل للإشارة أن العرب في تاريخهم السحيق عرفوا ظاهرة النبوة وهي بالتالي ليست مقتصرة على بني إسرائيل، وفي هذا رد مبطن على قريش والعرب،

[107] الدين في شبه الجزيرة، ص 118.

فهم يرون أن الأنبياء حكر على بني إسرائيل ولا يوجد إذن نبي عربي. المعضلة أن قريش وصناديدها كانوا على علم بقصة ثمود وعاد، **فهي تنتمي ضمن الأساطير والحكايات الشعبية الفولكلورية لدى العرب، وقريش كما وضحنا سابقا لم تكن ترى في الكلم القرآني أية معجزة، بل هو مجرد كلام يقدر أي شخص أن يحبكه على طريقته الخاصة، فمحمد لم يأتي بجديد، إنه فقط يتخذ أساطيرا معلومة في البيئة العربية كبرهان على أن كلامه وحي من عند الله، فما انفكوا يردون عليه "إنها أساطير الأولين".**

ذكر الزمخشري في الكشاف أن النضر ابن الحارث كبير مثقفي قريش درس الطب في نيسابور أعظم مدن فارس في العصر الوسيط، حيث أنه كان يسافر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريش ويقول : « إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة». هذه الرواية تفسر أسباب نزول الآيتان 6 و 7 من سورة لقمان.*

تحت وقع التهكم والتضييق القرشي **<u>أنتجت سورة البروج المرسلات والنبأ</u>**. البروج تبدأ بضرب من الوعد، فيوم القيامة الذي سيحاسب فيه الناس وصف باليوم الموعود، محاولة للتنفيس عن المسلمين في مكة وتخفيف وطأة الحصار من حولهم، أراد محمد أن يرفع من معنويات أتباعه، فاليوم الموعود آت لا ريب فيه وستنفرج الغمة في آخر المطاف، إنها محاولة واضحة لاستنهاض الهمم وشد المآزر. تشير هذه السورة إلى الاضطهاد الذي عانى منه المسلمون الأولون وإلى عقاب الذين يفتنون المؤمنن حيث ينتظرهم عذاب جهنم ؛

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾. (البروج10)

في السورة حديث عن اصحاب الاخدود، حسب التراث الإسلامي فإن هؤلاء مجوس ليسوا بأهل كتاب ولا المشركين العرب. روى الطبري أن قصة أصحاب الأخدود نقلها الصحابي على ابن أبي طالب، مفادها أن رجلا سكر فوقع على أخته وهو على مرأى الناس فقال لهم : إن الله أحل نكاح الأخوات فردوا عليه : إنا نبرأ من الله من هذا القول، فقال : إن الناس أبوا علي، فقالت : خذ لهم الأخدود، ثم أعرض عليها مملكتك، فمن أقر وإلا فاقذفه في النار. ولو عدنا إلى مخلتف مصادر التفاسير الإسلامية، سنلاحظ من تضاربا في نقل الرواية، وهذا دليل على خرافة، أو دعنا نقول موعظة فارسية، وقد تكون تسربت إلى أنحاء شبه الجزيرة وحسبها العرب حادثة واقعية، عدم تاريخيتها لا يعني فقدان قيمتها كرواية تنتمي إلى الحكايات الشعبية. لقد وظفت في القرآن كقصة رمزية لتعلم العبرة منها فقط، وسيأتي الحديث عن طبيعة القصص القرآني وتاريخيته. تعتبر سورة البروج مفصلية في تاريخ تطور

*﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

الدعوة والنفسية المحمدية، لأنها رسخت نظرية الإلهام الإلهي وتأكدت معها عصمة الرسول، ولن تعد الآيات تعلن على أنها كلمات الله نفسه فحسب بل أيضا أصلها من السماء [108]شأن جل سور الجيل الثاني ؛

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾. (البروج22/21)

هذا اللوح المحفوظ مودع قرب عرش الله ؛

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴾ ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴾﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾. (عبس 15/11).

أصبحت المعارضة خلال هذه الفترة قوية، حيث تعرض محمد لأشد أنواع الشجب، فما كان له سوى اللجوء لتصوير أهوال يوم القيامة وأهوالها مواساة لنفسه مهددا متوعدا؛

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٞ ﴾ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴾ ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴾ ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴾ ﴿ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴾ ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ (المرسلات14/7) نجد تكرارا للازمة ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (المرسلات15) التهديد يبلغ أشده ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴾ ﴿ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴾ ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ (المرسلات33/29)

التهديد يعكس مواجهة التحدي بالتحدي ؛

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾. (المرسلات39)

وفي سورة النبأ نجد التهديد نفسه ؛

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴾﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴾ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴾ ﴿ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴾ ﴿ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴾ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ ﴿ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبأ30/21)

سورتا القارعة والقيامة حافظا على المضمون الإسكتولوجي، أسلوب سجعي في بداياته يتضمن تحذيرا ووعيدا؛

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَاكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ يليه وصف للأهوال يوم القيامة، ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ (القارعة4/1)

[108]طور القرآن التاريخي، كانون سل، ترجمة مالك مسلماني، ص 15

وصف تعمقت فيه مخيلته وتفنن في إبراز أهم المشاهد المكونة له في سورة القيامة، **حيث تبدأ السورة بالقسم، ولكن ليس بالقسم المعهود في سور الجيل الأول، قسم معقد على شاكلة سجع الكهان، بل واضح أنه اتخذ منحى آخر أكثر بساطة ووضوحا خال من أي تعقيد أو تكلف، وكأنه يرغب في ابتكار بصمته الخاصة عن طريق القرآن ؛**

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ ﴿ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴾ ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴾ ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ (القيامة9/1)

سورة قاف تحمل في طياتها تحولا جذريا في الأسلوب الأدبي، حيث تستهل بما عرف في التراث الإسلامي بالأحرف المقطعة، ولا نجد ومع الأسف في التراث إجابة منطقية وعلمية حول قضية الأحرف المقطعة في القرآن، ولقد أحيطت بهالة من الغموض والتعقيد، ولم يتردد العقل الإسلامي في توظيف حديث الطلاسم والمنطق السحري الغيبي الذي انتهت صلاحيته في عصرنا الراهن.*

أقسم محمد بالقرآن في بداية السورة واصفا إياه بالمجيد، لقد أضفى على الكلم الذي يتلفظ به صفة القداسة، وكما أشرنا كون القسم بالقرآن بدأ مع سور الجيل الأول وتضاعف مع سور الجيل الثاني، وسيمتد إلى سور الجيل الثالث، و**قد يكون هذا التحول عائد إلى حالة تيقن محمد وأنه رسول بلا معجزة، جاعلا من القرآن معجزته الخاصة به، وهي معجزة لغوية أدبية،** كما نلاحظ حضور لفظ القرآن في هذه سورتي قاف والقيامة، ولا نجدها في سور الجيل الأول، **لعل محمد في هذه الفترة حسم أمره حول تسمية المعجزة التي رافقته من دون سائر أنبياء بنى إسرائيل.** توجد خاصية ثانية في هذه السورة تميز سور الجيل الثاني، إنها مناقشة حجج الخصوم ومحاولة تفنيدها، **وهي خاصية تدل وأن سور الجيل الثاني بدأت تتحول تدريجيا من الطابع الحماسي العاطفي إل الطابع الجدلي العقلاني.** في هذا الصدد، علق نولدكه على سور الجيل الثاني قائلا : **وتحل محل الإعلانات النارية مناقشات مستفيضة للعقائد، لا سيما لمعرفة الله من خلال الآيات المنتشرة في الطبيعة. وترد إضافة إلى ذلك قصص طويلة عن حياة الأنبياء السابقين، تستخدم لإثبات التعاليم وإنذار الأعداء ومواساة الأتباع.**[109]

*الحرف الوحيد المعلوم من بين ما يسمى بالأحرف المقطعة هو الحرف نون في بداية سورة القلم، ونون تعني الحوت في اللغات السامية الشمالية ثم انتقلت إلى اللغة العربية، والسورة تتحدث عن أسطورة نبي يدعى يونس الذي ابتلعه الحوت ومكث في بطنه، القرآن كناه بصاحب الحوت وذا النون. انظر تاريخ القرآن نولدكه، ص 301.

[109]تاريخ القرآن، ص 106.

تكشف لنا سور الجيل الثاني **ابتعاد محمد ولو نسبيا عن أسلوب التقريع والتجريح ضد قريش التي هي بدورها رمته بأقذع النعوت.** في سورة قاف نجد محاولة جادة للرد عليهم بأسلوب عقلاني رصين، حيث اعتبر تعجبهم من فكرة أن رسولا خرج من حاضنتهم، اعتراض تفتقر لأدنى الحجج المنطقية ؛

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (ق/2)

اعتقد معظم العرب أن الرسول لا يمكن أن يكون من صنف البشر، بل شخصية خوارقية مثل الملاك، وهي فكرة يؤمن بها أتباع ديانة الصابئة وستتردد كثيرا في القرآن، **برهان قاطع على ما قلناه سابقا كون العرب هم من أتباع ديانة الصابئة وذلك بشهادة القرآن.** ذكر المؤرخ الشهرستاني في كتاب الممل والنحل حجج الصابئة حول هذه الفكرة، ناقلا الجدل الحاصل بينهم وبين أتباع الديانات الإبراهمية. ثم تطرق مباشرة إلى الرد على موقف العرب من رفض البعث، فهم لا يؤمنون بحياة ثانية بعد الموت. حاول محمد إبراز تهافت هذا الموقف مرتكزا على النظام الموجود في الطبيعة جماله ودقيق صنعه؛

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيۤ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾﴿ وَٱلأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق8/3)

ثم سرد بطريقة مقتضبة قصص الأنبياء وما تعرضوا إليه من تكذيب واستخفاف؛

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾﴿وَأَصْحَابُ ٱلأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (ق14/12)

إن الإستناد على جمالية الكون ونظامه إضافة إلى التذكير بما حصل مع الأنبياء والرسل السابقين هو ما يميز جل سور الجيل الثاني والثالث. **نلاحظ هاهنا التعاطي بحكمة ورصانة مع المخالفين والكافرين وذلك يمثل نقلة نوعية في الخطاب سببه تطور النفسية المحمدية بين الفترات الزمنية. خبر التبشير بالجنة للذين اتبعوه وصدقوه يأتي كمحاولة لتنظيم صفوفهم وتثبيت وحدتهم أمام الممارسات التضييقية والحرب النفسية التي مارستها السلطة المكية، والتبشير بالجنة طريقة ناجعة انبثقت عن لاشعور محمد بغية استنهاض الهمم ورفع المعنويات ؛**

﴿ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق35/32)

نجد في السورة أولى المحاولات للرد على الفكرة اليهودية، الله استراح بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام ؛

﴿وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق/38)

إنها بداية انتقاد معتقدات أهل الكتاب، **انتقاد سيصبح تهجما صريحا مع تقدم الدعوة وتعاظم شوكتها وتطور النفسية المحمدية، هذا الانتقاد هو أهم ميزة تخص سور الجيل الثاني.** أخيرا وليس آخرا، الآية 39 من السورة تثبت وبلا أدنى شك حالة الضعف والانكسار التي كان عليها محمد وأتباعه في مكة، فما كان لهم إلا الصبر على الأذى و تحمله ؛

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ (ق/39)

أنتجت سورة ص وظروف تشكلها شبيهة بسورة ق. تبدأ بالحروف المقطعة وتقسم بالقرآن، وصفته بالذكر بعد أن أضفت عليه صفة المجيد، ثم نعتت الكافرين بالدعوة على أنهم في عزة وشقاق. يقينا ! فالأرستقراطية المكية بكبريائها وثرواتها هي في عزة، وبصراعاتها الداخلية، إشارة إلى تلك الصراعات الدائرة بين الأحزاب المكونة للمشهد السياسي من هاشمين وداريين، هم في شقاق. حسب التراث الإسلامي فإن الآيات الأولى من السورة أنتجت عندما ذهب صناديد قريش إلى أبو طالب ملتمسين التحدث لابن أخيه من أجل العدول عن الدعوة، وذكر الواحدي سبب نزول الآيات : أصاب أبو طالب مرض، فاجتمعت قريش وذهبوا إلى منزله وطلبوا منه التحدث لابن أخيه وحثه على التراجع والكف عن سب آلهتهم. وعندما تحث معه قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ؟ فقال : أي عم أولا أدعوهم إلى ماهو خير لهم منها ؟ قال : وإلام تدعوهم ؟**أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم** . لم تنصاع قريش للدعوة ورفضتها بشدة ورفضت التخلي عن دين الأجداد الذي يقوم على التعددية، فما كان ردها ؛

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ ﴾ (ص7/6)

ما جاء به محمد ليس إلا اختلاق، كلام افتراه على الله في نظر قريش، ثم كيف لرجل من بني هاشم ينزل عليه وحي القرآن من دون الآخرين ؛

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ (ص8)

لقد أصبحت قريش متيقنة من أمر محمد ومن وراءه الحزب الهاشمي، إنهم اتخذوا من الوحي ذريعة ومطية من أجل الترفع عليهم، مقارنة بالأحزاب المتنفذة صاحبة الثروة. ثم تسترسل شفتاه معلنة أنه ليس أول رسول كذب من قبل قومه، بل جميع الرسل والأنبياء كذبت من قبله ؛

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو ٱلأَوْتَادِ ﴾﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُوْلَـٰئِكَ ٱلأَحْزَابُ﴾ ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (ص14/12)

التذكير بالرسل هي محاولة لرفع المعنويات ومواساة للذات، فالصبر على الأذى هو الطريق الوحيد والأسلم الذي يجب التمسك به في مكة نظرا وحالة الضعف. في هذه المناسبة، ربط محمد فعل الصبر بشخصية داوود ؛

﴿ ٱصْبِر عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص17)

في هذه الآية يتضح معنى لفظ الذكر، إنه من فعل ذَكَرَ أو تَذَكَرَ أو تَذْكِيْر، **فمضمون القرآن ليس بجديد في المحيط العربي إنما هو تذكير بما حصل في الماضي السحيق.**

لقد تأثر محمد بشخصية داوود التوراتية أثناء المرحلة المكية، ليس مثلما أثر فيه موسى، ولكن يظهر التأثر به من ناحية الصفة التي حظي بها، داوود كان ملكا ونبيا في آن، **ربما ذلك هو النموذج المرغوب فيه في نظر محمد، إنه نموذج النبي الملك،** فالملك لديه الحكمة، والنبي يمتلك فصل الخطاب، داوود جمع بين الصفتين ؛

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص20)

تأثر محمد بداوود دفعه لنحت صورة مغايرة لما ورد في العهد القديم، حيث نجد فيه حقائق صادمة وفظيعة عن هذه الشخصية، أبرزها تدبير مؤامرة لقتل الجندي أوريا حتى تخلو له زوجته بتشاب الفاتنة الجمال بعدما وقع في حبها حينما رآه من شرفة قصره وهي تستحم عارية، فرغب في معاشرتها فحملت منه وذلك بعد التخلص من زوجها. تأتي فجأة قصة الخصمين وقد ذكرت بطريقة غامضة ومقتضبة ؛

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴾﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَاطِ ﴾﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾. (ص23/21)

لو قرأنا هذه الآيات ألف مرة فإن سيبقى غامضة، فعن أي خصمين يتحدث؟ وما السبب الذي دفعهما للحضور أما داوود للحكم بينهما بالحق؟ تنتهي الآيات معلنة ؛

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾. (ص24)

يزداد السياق غموضا وارتباكا، فعن أي ذنب يتحدث ؟ ولماذا استغفر داوود ربه فجأة وخر راكعا بعد أن وكلت إليه مهمة الحكم بين الخصمين؟ إن الإجابة عن هذا الغموض سنجدها في العهد القديم، فالقصة هي أصلا ضرب من الحكاية الرمزية والإيحاء، قصها النبي ناتان على داوود، علما وأنه لم يكن نبيا بل ملكا. يهوه إله العهد القديم لم يغفر لداوود جريمته ووقع فضحه، من هنا نفهم سبب الغموض في الآيات، إنها محاولة للتخفيف من بشاعة الجريمة، **نظرا وأن محمد أراد التأسيس لمسيرة ناصعة لجميع أنبياء بنى إسرائيل على خلاف العهد القديم الذي نسب إليهم أفعالا قبيحة**، معلنا؛

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص/47)

لقد تناقلت الألسن قصة داوود وبشاعة الجريمة، فصدم منها محمد واشمأز، معلنا أن الله قد غفر لداوود ذنبه، فإله القرآن على عكس إله العهد القديم الذي لا يقبل المغفرة ؛

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. (ص25)

ميزت السورة ولأول مرة بين الفجار والمتقين، بين الأخيار والأشرار؛

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ (ص28)

تمييز سيصبح مع تطور التشريع الإسلامي إلى حجر أساس، فالإسلام يقسم المجتمع بأسره إلى مؤمنين وكافرين، أو دار سلم ودار حرب. أما المؤمنين فمصيرهم ؛

﴿هَذَا ذِكرُ وإِنَّ لِلْمُتَقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلأَبْوَابُ ﴾﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص53/49)

وأما الكافرين فهم طاغون في الأرض فمصيرهم ؛

﴿هَذَا وَإِنَّ للطَاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ (ص57/55)

تالله ! فإن قريش ما انفكت تزداد مكابرة ومعاندة، فأسلوب التهديد والوعيد لم يفلح معها، كما أن فكرة البعث لم تجد صدى في الأوساط المكية، بسبب ثرواتها المالية الطائلة المتأتية من التجارة، ففضلا عن الانقسامات القبلية والطبقية التي أحدثها التجارة فإنها ساهمت بشكل كبير في إحداث تغير فكري عميق لدى الطبقة الأرستقراطية والعربي بصفة عامة، حيث أمسى ظاهرا رفض العربي وخاصة المكي، لكثير من أشكال المعجزات الميتافيزيقية القديمة، خاصة إذا ما كان ذلك المكي من الطبقة الثرية الأرستقراطية المترفة والمتحققة، حتى أصبحت تلك الميتافيزيقا القديمة في مأثوره الجديد على لسان الصفوة التي أتاحت لها الثروة، التزود بالثقافة الحضارية في مدارس الإمبراطوريات وجامعاتها، مجرد أساطير الأولين.[110] أمام هذا المتغير الفكري، أَصَرَّ محمد على المبالغة في توظيف الخطاب الأخروي بتصوير أهوال يوم الحساب والبعث، **فأنتجت سورة المطففين، القمر، والواقعة.**

نجد في الأولى اسرافا للمخيلة والنفسية المحمدية في تصوير الويل والثبور للناكرين للبعث والنشور ؛

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المطففين13/10)

وأسرفت في وصف الجزاء الذي سيناله المتقين ؛

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين 28/18)

كثيرا ما وظفت المخيلة المحمدية المستقبل في صيغة الماضي، وذلك سيبرز بجلاء في سورة القمر، وهو أسلوب أدبي ممتاز يهدف إلى تسليط الضوء على العذاب الذي سينزل بالكافرين هو من تحصيل الحاصل ؛

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين35/29)

[110] حروب دولة الرسول، ج الأول ص 21

في مفتتح سورة القمر نقرأ تحذيرا وتهديدا شديدين للكافرين من المكيين وقريش، مصورا انشقاق القمر مع قرب الساعة، والساعة هي يوم الحساب والبعث، ولقد ارتبطت هذه الآية لدى عامة المسلمين بحادثة مفادها أن محمد عندما كان في مكة أشار بأصبعه للقمر فانشق ثم التأم، وهي قصة تندرج ضمن مشروع أسطرة السيرة، أما نولدكه فاعتبر **قصة انشقاق القمر في مكة خرافة سخيفة كانت نتيجة تفسير خاطئ للآية، مثلها مثل سورة الشرح**.[111] حقا هي خرافة سخيفة ولكن ليست ناتجة عن تفسير خاطئ بل **ناتجة عن اختلاق المعجزات ونسبها لمحمد لسد رغبة جامحة أرقت كتاب السيرة طوال سنوات، بمعنى أنه حتى ولو لم يكن له معجزات فلا بأس من اختلاقها**، ومثلما أوضحنا في الفصل الأول، كيف أن المؤرخين المسلمين أرقهم سؤال: **كيف يمكن لمحمد أن يكون نبيا ورسولا بلا معجزات**؟

تعلن السورة في آياتها الأولى عن اقتراب الساعة وأنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى ؛

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر2/1)

لفظ الساعة تكرر كثيرا في القرآن ومعناه هو يوم القيامة والبعث والحساب الذي سينال فيه الناس الجزاء أو العقاب. العلاقة بين اقتراب الساعة وانشقاق القمر تقوم على السببية، ما يعنى أن هذا لانشقاق لم يحصل زمن محمد كما اعتقد المسلمون وكما روج إلى ذلك المؤرخون، بل حدث الانشقاق مرتبط باقتراب الساعة، أي أنه علامة من علامتها، علامات تتردد في معظم السور المكية. **استعمل القرآن أسلوبا أدبيا خاصا به، إنه يصور حدث الانشقاق واقتراب الساعة وكأنهما من الماضي، أسلوب فريد من نوعه نجده في سور كثيرة، سورة الكهف مثلا. من خلال توظيف هذا الأسلوب ظهر محمد وكأنه واثق مما يتحدر من شفتيه**، كلم يرغب من خلاله ارباك الخصوم والمتربصين بالدعوة، معتبرا العقاب الذي سيسلط عليهم في الآخرة من تحصيل الحاصل. **استخلص كازانوفا المستشرق الفرنسي انطلاقا من دراسة آيات عديدة، أن محمد اعتقد حقا بقرب الساعة وأنه سيكون شاهد عيان على أهوال ذلك اليوم، إلا أن الخليفة الأول أبو بكر أخفى تلك الآيات حتى يحمي عقيدة المسلمين، والأهم من ذلك، درء شبح انهيار الدولة الإسلامية التي كانت في طورها الأول من النمو، وبناء عليه فإن الخليفة الأول أقدم على ذلك الفعل من أجل الصالح العام لا لخدمة شخصه كخليفة**. يبدو أن كازانوفا لاحظ الأسلوب الأدبي الفريد في القرآن، **التعبير عن**

---

[111] تاريخ القرآن، ص 108

المستقبل في صيغة الماضي بطريقته الخاصة، محمد والمؤمنين سيكونون شاهد عيان على عذاب الكافرين يوم القيامة وسيضحكون منهم.

هذا الأسلوب هو نتيجة للحالة النفسية المحمدية، حالة ستكون مختلفة تماما عن تلك التى ستتشكل في المدينة. في مكة كان لا حول له ولا قوة، علما وأن بعض الذين دخلوا في الاسلام خلال الفترة المكية لعبوا دورا كبيرا في تقوية شوكته خاصة الصحابي عمر ابن الخطاب. **إننا لا نستبعد كون محمد قد يكون بالفعل اعتقد الساعة قريبة جدا إلى درجة أنه لن يفارق الحياة قبل قيامها، ونحن نفسر هذا الاعتقاد من منظور نفساني صرف، فقصص الأنبياء عبرت عن حالته النفسية في مكة.**

تالله ! لا تزال قريش متمسكة بانكارها للدعوة ولرفضها المطلق التسليم بمحمد كرسول الله ؛

﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (القمر3)

مع أنها كانت على علم بأخبار الأمم الغابرة والمصير الذي حل بهم ؛

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ (القمر4)

فأخبار الأمم الغابرة من قصص الأنبياء والرسل والصالحين هي ضرب من الحكمة التي نستخلص منها العبر فهي ؛

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (القمر5)

وفي ذلك اشارة مبطنة إلى عدم تاريخيتها، إنها حكمة فحسب والحكمة هي عظة وقصة رمزية. ثم استرسلت الشفاه المحمدية تقص أحوال الأمم الغابرة وما حصل مع أنبياءهم ورسلهم، فنقرأ قصة نوح؛

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ ٱلسَّمَآءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾﴿وَفَجَّرْنَا ٱلأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر12/9)

ثم قصة عاد؛

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر20/18)

ثم قصة ثمود؛

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾﴿فَقَالُوۤاْ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلأَشِرُ ﴾ (القمر23/25)

ثم قصة لوط ؛

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴾﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ (القمر33/35)

ثم قصة فرعون مصر ؛

﴿وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾﴿كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر41/42)

في سورة الأعراف التي أنتجت بعد سورة القمر، ذكر قصص الانبياء بطريقة أقرب إلى النثر منها إلى السجع، مع إضافة بعض التفاصيل، ويمكن القول إن القصص قي الأعراف جاء أكثر وضوحا وإسهابا مقارنة بالقمر. أولا قصة نوح ؛

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّيۤ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف59)

ثم قصة عاد ؛

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف 65)

تليها قصة ثمود ؛

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيۤ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوۤءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الاعراف73)

تليها قصة لوط ؛

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن ٱلْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف80)

تليها قصة شعيب ؛

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي ٱلأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف85)

ولكن هذه الأقوام لم تؤمن برسالات أنبياءها وكان الإنكار والجحود القاسم المشترك بينها ؛

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ (الأعراف102/101)

ولو آمنت لكان مصيرها ؛

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف96)

إلا أن هؤلاء الأقوام طبع الله على قلوبهم الكفر والجحود فكيف تنتظر منهم الإيمان بالرسالة واتباع الدعوة ؟

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ (الأعراف102/101)

بعد الإسهاب في ذكر تفاصيل قصص هؤلاء الأنبياء، خصص القرآن حيزا كبيرا لذكر قصة موسى على ثلاثة مراحل، قبل الخروج من مصر، الخروج من مصر، بعد الخروج من مصر، من الآية 103 إلى الآية 155 وذلك يكشف كما قلنا سابقا مدى تأثر محمد بموسى مقارنة ببقية الأنبياء.

إن قصص الأنبياء غرضه ضرب الأمثال والاتعاض من الماضي، إنه يعطي صورة تنطبق حرفيا على قريش التي لم تؤمن هي أيضا برسولها وكذبت بآياته، إن هذا القصص يقارن قريش بقوم نوح و عاد و ثمود و شعيب ولوط. القوم الذي كذب برسوله أو نبيه لا ترجو منه خيرا في إشارة واضحة لقريش ؛

﴿سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف177)

قريش غير مأسوف عليها لأن قدرها ختم مسبقا ولا داعي من الشعور بالضيق منهم، فالله طمس حواسهم ؛

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰئِكَ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف179)

فهم يعتبرون أنفسهم أهل الله أو بيت الله وهم في الحقيقة انسلخوا عن الإيمان فاتبعوا أهواءهم.

إن الدفعة الأولى من سور الجيل الثاني تعكس بجلاء حالة محمد وأتباعه الذين تعرضوا للحصار من قبل قريش والتضييق على الدعوة، ومما لا يدع مجالا للشك **فإن حدث صحيفة المقاطعة يكشف حالة الضعف والوهن على الفعل، مما جعل من قصص الأنبياء والرسل سبيلا للتنفيس عن الحالة النفسية المحمدية، فهذا القصص لا يتحدث في واقع الأمر عن الشعوب القديمة، بل عن الذين كفروا به.** إن خطاب الوعد بالجنة، جنة فيها ما لذ وطاب والاستطراف بقاصرات الطرف أتراب وطواف الولدان المخلدين والاستمتاع بحور العين ؛

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾﴿ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴾﴿ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾ (الواقعة26/15)

وجنة موغلة في الحسية والشهوانية ؛

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴾﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ (النبأ36/31)

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾﴿ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾﴿فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ (الواقعة40/27)

وخطاب التهديد والوعيد ؛

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ (الواقعة44/41)

لم تستهوي الملذات قريش، ولم يردعها الوعيد بعاقبة عاد وثمود ومدين ونهاية كنهاية قوم نوح ولوط، فهي لديها قناعة لا تزحزح، إنما محمد سياسي، اتخذ الوحي طريقا للاعتراف بما يضمن له السلطة ومطلق السلطان، وأنه ليس إلا مفتريا اتخذ الله إلى هدفه وسيلة واتخذ الدين الحنيف مسندا إليه في دعوته ليكفل لكلمته إصغاء.[112]

---

[112] الدين في شبه الجزيرة، ص 123.

أثناء هذه الفترة العصيبة، فكَّرَ محمد في أن يعرض دعوته على القبائل عسى أن يجد نصرتهم، من بينها كندة، بني حنيفة، كلب، بني عامر، ولكن جميعهم أعرضوا عنه، وقد كان لبني عامر موقفا خاصا تجاهه. يبدو أنها أدركت أن الغرض الحقيقي من الدين الجديد هو التوحيد السياسي المصطبغ برداء الإيمان بالله وحده لا شريك له، ونفهم ذلك من قولها : أرأيت إن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ فكان رده ذكيا : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فأجابوه: أفنهدف نحورنا للعرب فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ كلا فلا حاجة لنا بك. لقد كان الرد المحمدي في غاية من الدهاء والحنكة، فهو لا يمكنه معرفة مآلات الدعوة مستقبلا، فموازين القوى حينها لم تكن في صالحه، لا ننكر أن التحاق بعض الأسماء ساهمت في تقوية شوكتها ببث النشاط فيها، ومع ذلك لا يمكنه الرجم بالغيب، ثم إن محمدا يريد أن تنتهي الأمور لصالح قريش، إنه سعى جاهدا لجعلها سيدة جميع القبائل العربية قاطبة. أمام رفض هذه القبائل لدعوته أصيب بخيبة أمل كبيرة، لقد راهن خلال هذه الفترة العصيبة على توسيع رقعة المناصرين للدين الجديد حتى يكسر حاجز الخوف والضعف، متجاوزا الأزمة النفسية التي عانى منها في مكة، أزمة ناتجة عن غياب المعجزة واعتقاده المطلق أنه نبي هذه الأمة، وإيمانه من صميم قلبه بمشروعه الإصلاحي، قابله الاستهزاء والاستخفاف من طرف قريش، فدخل مرحلة من الشقاء جعلته يشعر بصعوبة مهمته، صعوبة تصل إلى استحالة في ظل الظروف المحيطة به وبأتباعه، **فأنتجت سور طه، القصص، الجن، الصافات، الملك، الحجر، ياسين، مريم، فالفرقان**.

فاتحة سورة طه جاءت استجابة لتلك المرحلة العصيبة بعدما رفض معظم القبائل العربية نصرته ؛

﴿ طه ﴾﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰٓ﴾﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (طه3/1)

الغرض الرئيسي من انتاجها هو التأكيد على أن وحي القرآن هدفه التذكرة وليس الشقاء، **محاولة للتخفيف من وطأة المرحلة العصيبة، فالقول إن القرآن هو تذكرة فحسب، وكأنه يسلم ضمنيا أن الإيمان بالدعوة ليس من الأولويات، مسلمة رفع لواءها طوال الفترة المكية، قوامها أن دعوته ليست إلزامية بقدر ما هي تذكير فحسب، طبعا فذلك نتاج حالة الضعف التي كان عليها في مكة.** ثم إن القرآن هو من وحي الرحمان ؛

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (طه5/4)

فكيف يكون في حاجة لإيمان الكافرين الجاحدين ؟ وله ؛

﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ (طه6)

وقد سبق وأكد أن القرآن ؛

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (طه/3)

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (عبس12/11)

تجدر الإشارة هنا إلى صفة الرحمان، فقد سمى القرآن الله بالرحمان وذلك على امتداد سور الجيل الثاني والثالث، سبق وأشرنا أن محمد حاول إظهار أن الرحمان الذي يعبده اليمنيون والذي دعا إلى عبادته مسلمة الحنفي المشهور بمسيلمة الكذاب في التراث الإسلامي هو نفس الإله الذي يدعو إليه، **من خلال هذا التوحيد بين الإلهين برزت الحاجة لأسماء الله الحسنى، فجميع آلهة القبائل باختلافاتها وتعددها هي في الحقيقة تمثل إلها واحدا،** إله محمد وإله القرآن ؛

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (طه8)

إن هذا التوحيد، توحيد الأرباب في رب واحد يمثل بجلاء فلسفة الأحناف في مكة، مشروع عملوا جاهدين على تحقيقه، ظاهره ديني أما باطنه فسياسي.

ينبغي التطرق أثناء حديثنا عن اسم الرحمان إلى سورة الرحمان، إنه لأمر غريب أن نجدها مدنية في القرآن، فسورة الرحمان ذات نفس مكي أسلوبا ومضمونا، تتضمن جملا قصيرة وهو امتياز مكي، ومن حيث المضمون فهي تندرج ضمن سلك الترغيب والترهيب بعيدا عن التشريع الذي هو لا زمة مدنية. وخلافا لما تزعمه مؤسسة الإسلام فإن تسمية الرحمان غابت تماما في المدينة، أو بالأحرى تراجع محمد عن تسمية إله القرآن بالرحمان، والطبري في تفسيره يذكر خبرا يستوجب الوقوف عنده، حيث أكد أن **سبب تراجعه عن تسمية الرحمان هي موجة التشكيك الموجهة إليه من طرف قريش بأنه يكرم إلهين، الله والرحمان**.

إن مسلمة الحنفي المعروف بمسيلمة الكذاب، زامن محمد في مكة، وقد وجد تنافس بينهما، سعى خلالها لإقناع مسلمة باتباعه على أنه هو الرسول الحق، لذلك، حاول تجريده من إلهه المسمى برحمان اليمامة معلنا أن الرحمان اسم محمول على مسمى لا يحيل لموجود عيني. وبناء عليه، **فإن كل الأدلة تثبت أن سورة الرحمان مكية**. إذن لماذا وضعت ضمن لسور المدنية ؟ لقد شعر المفسرون والمؤرخون المسلمون المتقدمون بخطورة المسألة وسببت لهم إحراجا، **فلو قالوا أن سورة الرحمان مكية فذلك قد يطرح إمكانية تأثر محمد بمسلمة في مكة.** قال جمال علي الحلاق :« إن استخدام

التضبيب في نقل الخبر هو أسلوب مارسته المؤسسة الإسلامية محاولة في تجريد الكثيرين من الفاعلية، وما يخص سورة الرحمان هو القلق إزاء تأريخ كتابتها، بل إن السور لا تمتلك سببا للنزول حسب الواحدي، ويبدو أن المؤسسة انتبهت لذلك فجعلت لا حقا أبا بكر فكر ذات يوم في القيامة وموازين الجنة والنار فقال : وددت لو أني كنت خضراء من هذه الخضر تأتي علي بهيمة تأكلني وأني لم أخلق فنزلت ولمن خاف مقام ربه جنتان. إن كون السورة نتاج المدينة لا يعطيها سببا اجتماعيا للنزول، بل تبدو كما لو أنها مقحمة إقحاما على السياق التاريخي للسور المدنية. أعتقد هنا أن كون السورة نتاج مكي أصلا، وأن جدلا تمخض عن ذكر اسم الرحمان، وأن قريش اتهمت محمدا بالتعلم على يد مسلمة الحنفي، هو الذي دفع المؤسسة إلى تبني موقث النزول المدني، وإقصاء الحقيقة التأريخية كي يبقى تاريخ الإسلام بعيدا عن أي حوار أرضي».[113]إن هذا القول يؤكد ما أعلنا عنه في بدايات الكتاب، هيمنة العقلية السحرية المسكونة بهاجس الماورائيات، ساهم في شل طاقات العقلية العربية الإسلامية وجعلها تعيش في عالم اللاواقع والأعاجيز، إضافة إلى إقصاء المنهج التاريخي أثناء دراسة الإسلام والقرآن.

تسرد سورة طه قصة موسى مع ذكر تفاصيل لا نجدها في السور السابقة، يجب التوقف على هذه السردية التى ستكون مختلفة في بعض تفاصيل القصة مع ما سيأتي في سورة النمل والقصص، وقد أشرنا أن قصص الأنبياء والرسل سواء موسى أو نوح أو لوط أو صالح أو شعيب تردد في مختلف السور، واللافت للإنتباه أن هذا القصص لا يحافظ على سردية واحدة بل تتغير من سورة إلى اخرى، واعتبر ذلك نولدكه تكرارا مملا، إلا أننا نختلف معه في هذه النقطة. إن هذا التكرار للقصص شكل تحديا كبيرا للعقلية الإسلامية، وهو ما أفصح عنه المؤرخ ابن قتيبة في كتابه مشكل القرآن وغريبه : إن تكرار القصة وبخاصة حين تكون الأحداث القصصية واحدة والمواد التاريخية متشابهة والمواقف متفقة أمر يحتاج إلى تعليل وإلى بيان وإيضاح. ما حصل مع موسى في سورة طه يختلف عما حصل معه في النمل أو القصص، في طه ورد ؛

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ   إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ ٱمْكُثُوۤاْ إِنِّيۤ آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّيۤ آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى   فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يٰمُوسَىٰ   إِنِّيۤ أَنَاْ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنَّنِيۤ أَنَا ٱللَّهُ لاۤ إِلَـٰهَ إِلاۤ أَنَاْ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلاَةَ لِذِكْرِيۤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يٰمُوسَىٰ   قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ   قَالَ أَلْقِهَا يٰمُوسَىٰ

[113]مسلمة الحنفي قراءة في تاريخ محرم، جمال علي الحلاق، منشورات الجمل الطبعة الأولى ص 101-102.

فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلأُولَىٰ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوۤءٍ آيَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ (طه23/9)

وفي سورة النمل وردت حسب السردية التالية ؛

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّيۤ آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ يٰمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يٰمُوسَىٰ لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوۤءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوۤءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (النمل12/7)

أما في سورة القصص نجد السردية التالية ؛

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ ٱمْكُثُوۤاْ إِنِّيۤ آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّيۤ آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ ٱلْوَادِي ٱلأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يٰمُوسَىٰ إِنِّيۤ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يٰمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلآمِنِينَ ﴾﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوۤءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (القصص 32/29)

إن القراءة المتأنية لهذه السرديات الثلاث – قراءة تقوم على إعمال العقل لا على نيل الثواب– سوف نلاحظ أن المنطوق يتغير، صحيح أن الحدث واحد، موسى لمح مكانا محاذي لجبل الطور فيه قبس من نار وعندما ذهب إليه تمظهر له الله ودار بينهما حوار فأمره بالذهاب إلى فرعون لكي يبلغه رسالاته. إن العبارات تختلف بين السرديات الثلاث، ولسائل أن يسأل : لماذا العبارات المنطوق بها تتغير في السور الثلاث ولا تحافظ على العبارات نفسها ؟

إن هذا التكرار – وهو ليس بتكرار– أربك المؤرخين والمفسرين المسلمين، ما دفعهم لطرح أسئلة عديدة حول الغرض من تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير كذلك المنطوق، إنه فعلا أمر محير، لأنه إذا قلنا أن هذا القصص يسرد وقائع تاريخية حصلت في الزمان والمكان فلماذا يتغير المنطوق والوصف؟ علما وأن الحادثة التاريخية لها منطوق ووصف واحد، فلنفترض أن لي صديق باشر عمله بالأمس في المؤسسة التى أعمل فيها، قبل أن يباشر إتصل بي على الساعة العاشرة صباحا حتى يستفسر منى بعض التفاصيل تخص عمله نظرا وأنني أقدم منه تجربة، ثم اتفقنا أن نلتقي في الساعة

السادسة مساء في المقهى لكي أوضح له ما طلبه. فلنتأمل جيدا في هذا الحدث، أولا اتصل بي صديقي على الساعة العاشرة وطلب منى استفسارا حول عمله الجديد، ثانيا اتفقنا على أن نلتقي في الساعة السادسة مساء في المقهى. في صورة إذا ما أخبرت صديق ثان يعمل معي بأن الصديق الأول الذي باشر عمله حديثا وطلب مني ما طلب، فيجب المحافظة على المنطوق والوصف، ذلك وأن شخصين عندما يتبادلان أطراف الحديث سيكون هناك منطوق بعينه، إذا قال له مثلا مع الساعة السادسة نلتقي في المقهى الموجودة في شارع كذا، فإن المنطوق يبقى هو نفسه، لماذا يبقى هو نفسه؟ ببساطة لأن الحدث تاريخي ليس وجداني أو عاطفي، وعلم التاريخ هو علم موضوعي دقيق لا دخل للوجدان أو العاطفة فيه.

المؤرخون والمفسرون أصابهم الإرتباك، لأنهم تعاملوا مع القرآن على أنه كتاب تاريخ وهو لا يمت بالتاريخ بصلة، نعم لقد احتاروا أمام هذا الإختلاف في المنطوق والوصف، وكالعادة لم يعالجوا المسألة معالجة موضوعية وعقلانية بل لجأو للحلول السحرية والماورائيات بالقول : إن قصص القرآن جله من المتشابهات.[114] فهم القصص القرآني على أنه مادة تاريخية استنزف طاقات العقل العربي الإسلامي، لا ننكر أن القرآن ينقل أحداث تاريخية تخص غزوات المسلمين واقتسام المغانم، إضافة إلى بعض الوقائع المتصلة بحياة محمد وبعض ردوده على مخالفيه، إلا أن موضوعنا هنا هو قصص الأنبياء والرسل، **وقد أشرنا سابقا أنهم شخصيات غير تاريخية وذلك ما أثبته علم الآثار المعاصر، فالهدف من قص ما حصل معهم هو الموعظة والعبرة لا غير.**

يمكن الجزم أن اللغة القرآنية في معظمها هي لغة وجدانية أدبية وهو ما يفسر اختلاف الوصف والمنطوق، والوجدان هو مرتبط أساسا بالحالة النفسية للناطق، وخير دليل على ذلك هو التحدث عن المستقبل وكأنه فعل انقضى وولى عليه الزمان وذلك ما لاحظناه في سورة القمر، أسلوب أدبي فريد من نوعه لبثِّ الخوف والرهبة في نفوس الكافرين والبشرى في نفوس المؤمنين، فاللغة التى يطغى عليها الوجدان والأدب هدفها استثارة العاطفة، لغة لا تخضع لمنطق أو تاريخ، وبالتالي لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو التكذيب.[115] انطلاقا من هذا الحقيقة نفهم مدى سذاجة عقل المسلم الذي اعتقد أن الآية تدل على انشقاق القمر زمن محمد. **إذا تبين أن لغة القرآن وجدانية أدبية فطبيعي أن يختلف الموصوف والمنطوق ويتغير التركيب بين السورة والسورة، وأصدع مثال على ما نقول هو وصف القرآن عصا موسى عندما ألقاها مرة بالحية تسعى ومرة بالجان**

---

[114]لخطيب الإسكافي، در التنزيل وثمرة التأويل
[115]الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ص 168

الذي يهتز. حتما فإن القارئ المؤمن مسبقا بأن قصص الأنبياء والرسل يروي أحداث تاريخية سيصاب بالحيرة والإرتباك ليتساءل قائلا : هل هي حية أم جان ؟ وشتان بين الحية والجان. البعض من غير المسلمين هم أيضا احتاروا أمام هذا التناقض الصريح في الآيات القرآنية وذهبوا بالقول إن محمد ينسى ما قاله سابقا وذلك عائد إلى مرض أصيب به، ومن أبرزهم العفيف الاخضر. إن هذا الموقف هو راديكالي ومبالغ فيه، بروزه يرجع للمواقف الساذجة وفي بعض الأحيان صبيانية وغير منطقية التي تمسك بها المسلمون عندما اصطدموا بهذا التناقض، متوهمين أنهم بتلك المواقف سيحلون المعضلة وسيقنعون الخصوم. فلنقرأ ما كتبه الزمخشري حول هذا الإختلاف في توصيف عصا موسى :« إن قلت كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحية والجان والثعبان. قلت أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأما الثعبان والجان فبينهما تناف، لأن الثعبان العظيم من الحيات الدقيقة، وفي ذلك وجهان، أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حية حلا بها تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا، فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها. والثاني أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله فلما رآها تهتز كأنها جان وقيل كان لها عرف كعرف الفرس قيل كان بين لحييها أربعون ذراعا».

لو قرأنا كلام الزمخشري ألف مرة، فإننا لن نفهم شيئا، وذلك يذكرنا بما قاله الطبري حول إشكال سورة الفاتحة. جل المفسرين يعولون على الخطابة والتأويل لرفع الإبهام والتناقضات داخل النص القرآني، وهي محاولة لا تعدو أن تكون شطحة كلامية لا تغني ولا تسمن من جوع. إن هذا الخبط الذي سقط فيه المفسرون يعود بالأساس كون أنهم أرادو تفسير الآيات القرآنية من منظور تاريخي، معتقدين أن قصص الأنبياء والرسل هو تاريخي وقع في الزمان والمكان، والقصص غرضه ليس التاريخ إنما العبرة والموعظة. لقد أكدنا منذ بداية الكتاب أن القرآن مرآة تعكس نفسية صاحبه، وفي قراءتنا له نستكشف تلك الحالة النفسية التى تتبدل حسب الموقف والوضعية والبيئة، وعليه فإن لغة القرآن ستكون لغة أدبية وجدانية، ونعلم جيدا أن اللغة الادبية فيها الإستعارة والمجاز والخيال والإيحاء والتشبيه، ذلك ما أكده محمد أحمد خلف الله بقوله :**« إن المسألة في القصة القرآنية هي بعينها مسائل الصور البيانية من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية، وأنها من هنا لا توصف لا بتصديق ولا بتكذيب وإنما هي العرض الأدبي الذي يهز العاطفة ويستثير الوجدان »** . مضيفا :« **صنيع القرآن في العتصر القصصي الواحد**

حين يختلف وصفه في الأقاصيص المختلفة التى تدور حول شخصية واحدة فيختلف منها البناء والتركيب وطريقة العرض باختلاف القصد والغرض وطروف البيئة وتقلبات الزمن». [116]

إن اختيار الألفاظ في القرآن يقوم على أساس نفساني عاطفي وأدبي، فتوصيف العصا بالجان في سورة القصص يشير إلى حالة من الخوف والإرتباك عاشها محمد في مكة، **أي أن سورة القصص نشأت في ظرف يسوده الخوف، فانعكست الحالة النفسية المحمدية على الآية جاعلة من موسى يفر لحظة رأيته العصا وهي تهتز كأنها جان،** أما في سورة طه فإنها نشأت لإزالة الحيرة والإرتباك وظروفها غير ظروف سورة القصص، حيث تكشف مقدمة السورة أن نزول القرآن ليس للشعور بالشقاء بل هو تذكرة فحسب، **فغرض سورة طه غير غرض سورة القصص لأن غرضها إعادة الثقة والطمأنينة بالنفس ودفع الهم والحزن فكان لفظ الحية أليق بالمقام.** أما في سورة الشعراء فقد وصف العصا بعد أن ألقاها موسى لا بالحية ولا بالجان بل بالثعبان المبين؛

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ (الشعراء33/32)

وصف اقتضته الظرفية السردية، فموسى في جداله مع فرعون يحتاج إلى برهان قوي حتى يقنعه، إذن فلفظ الثعبان في سورة الشعراء يخدم غرض الإقناع.[117]

إن التركيبة اللغوية والبلاغية لسورة القمر لهي خير دليل يكشف لغة القرآن المبنية على العاطفة والوجدان، ما يلفت الإنتباه هو ترديد للآية ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي المرسلات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كلازمة بين القصة والقصة. واضح أن قصص الأنبياء في سورة القمر بل في القرآن برمته، **غرضه بث الخوف والرهبة في نفوس الكافرين وتهديدهم بمصير يشبه مصير أولئك الذين كذبوا أنبياءهم وبرسالات رسلهم، واللازمة التى وردت في شكل سؤال استفهام كالسهم الذي يصوت في القلب.** ثم نلاحظ ترديد الآية ﴿ وَلَقَد يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ كلازمة ثانية وردت هي أيضا في شكل سؤال استفهام في نهاية كل قصة، إنها محاولة لكي يلفت انتباه أهل مكة من النبي، وكأن لسان حاله يقول : آمنوا بالقرآن قبل فوات الأوان. **وتبعا لذلك فإن السورة غرضها التخويف من العذاب والإنذار، وعليه لا يمكن إعتبار القصة في القرآن وبصفة خاصة قصص الأنبياء مقصدها الإخبار بالوقائع وتعليم التاريخ، ولكن علينا اعتبارها كقصة أدبية نزلت لقصد عاطفي هو التخويف والإنذار.**[118]

---

[116] ص 169.
[117]ص 172
[118]ص 154.

خلال الفترة المكية الأخيرة توفي أبو طالب عم الرسول سنة 619 م أو 620 م، فاجعة حلت بمحمد وهو الذي شكل سندا قويا لابن أخيه وكان حاجزا منيعا بصد موجة الإستهزاء والإستخفاف به، وهو الذي كف أيديهم عنه. وفاته أربك مسار الدعوة داخل مكة فأصبح ظهره مكشوفا، ذلك وأن أبو طالب رأيه كان محترما في الأوساط المكية ساهم في تعزيز منعة الهاشميين، والأبيات الشعرية المذكورة آنفا هي خير دليل على ذلك. **لقد أدرك أن نبوة ابن أخيه ستعيد المجد للحزب الهاشمي المعروف بفقره وضعفه السياسي**، مجد قد ينتهي بسيادة الهاشميين على الأعراب قاطبة. **لقد شعرت قريش أن محمدا يسعى إلى تحقيق هذا الهدف، سيادة الحزب الهاشمي على بقية الاحزاب والقبائل العربية، وما محمد إلا مغامر، اتخذ النبوة مطية لأغراض سياسية، ذلك ما أجمعت عليه الأرستقراطية المكية، لتتواصل حملة التهجم والحصار والإستهزاء**، فالقضية بالنسبة لقريش هي قضية وجود.

دفعت اكراهات الواقع محمد للبحث عمن يناصر الدعوة من خارج مكة، وبالتحديد الذهاب إلى ثقيف عاصمة الطائف، هنا يتجلى الحس البراغماتي المحمدي بعرض نفسه على القبائل لأنه لو لم يكن براغماتيا لبقي متمسكا بالداخل المكي. نقل ابن هشام عن ابن اسحاق : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى مالم تكن تنال منه من حياة عمه أبي طالب، فخرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه.[119] التوجه إلى ثقيف في هذه الفترة لم يكن اعتباطيا بل مدروسا، فثقيف هي عاصمة الطائف مدينة تقع على بعد ثلاثمائة ميل إلى الشمال من مكة، أرض بركانية اشتهرت بالخصب والماء وفي شمالها جبل أحد ، ومن أوديتها واد العقيق الذي تصب فيه مياه عذبة، كما أن المزارع تحيط بها من جميع الجهات ما عدا الجهة الغربية، والمسافر يجد فيها كما يجد المقيم حاجته من زاد وأمن.[120]

جوبهت دعوة محمد لثقيف بالرفض، رفض يعود لأسباب اقتصادية، ذلك وأنها كانت تخشى من انحدار علاقتها بمكة في صورة إذا ما اتبعته وآمنت بدعوته. تلك خيبة كان لها وقع شديد على نفسيته بعد تعرضه للسخرية والتقريع من أهالي ثقيف، ليعود أدراجه وهو مكسور الجناح مهيض القلب. أثناء طريق العودة إلى مكة لجأ إلى وادي نخلة ليستريح فيه من مشقة السفر وليناجي ربه عسى أن يفرج عن كربه، فلما قضى تلك الليلة قام يصلي تحت النخلة في جوف الليل، وهو يتلو القرآن، مر

[119]ابن هشام السيرة النبوية الجزء الثاني، ص 67
[120]مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول سبق ذكره.

نفر من الجن فاستمعوا إلى القرآن فتعجبوا من سحره وقوة بيانه ثم راحو يخبرون البقية بما استمعوا إليه، إنها حادثة كانت سببا في انتاج سورة الجن حسب التراث الإسلامي.[121]

سورة الجن شأن معظم السور المكية، غرضها هو التخفيف من حدة الصدمة والرفض، وهنا رفض قبيلة ثقيف، فأصبح مهتاجا وحزينا، **ليتخيل جماعة من الجن يعلنون الإيمان**. الجن كمخلوق خرافي، يمتلك قوة خارقة للعادة، وتركيبته غير تركيبة الإنسان، فها هو نفر منهم قد استمع للقرآن وتعجبوا من سحر كلماته، وأدركو أنه ليس بكلام بشر، وكأن محمد يستند إلى شهادة الجن للبرهنة على وحيانية القرآن وكل ذلك صادر من الرفض الذي تعرض وعدم إيجاد صدى بوحيانية ما يتلفظ به. آمن الجن بالقرآن ككلام يهدي إلى الرشد ؛

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوۤاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِيَ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً ﴾. (الجن1)

والأهم من ذلك فإن شريحة واسعة من عالم الجن اعتقدت مثلها مثل عالم الإنس أن الله لن يبعث أنبياء أو رسلا. إنها محاولة لرفع معنويات محمد، ذلك وأنه ليس الإنس فحسب لم يؤمنوا بأنبيائهم ورسلهم إنما أيضا الجن يشتركون معهم في هذه الصفة ؛

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً ﴾﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَداً﴾ (الجن 7/5)

كان قبول الجن لرسالته تعزية جليلة للنبي[122] سبق وأكدنا أن ردة الفعل هذه تندرج ضمن مواساة للنفس لطالما ترددت على طول القرآن، نجدها بغزارة في القرآن المكي. من جهة ثانية، قد يكون الغرض الأبرز للسورة هو تفنيد وهدم معتقدات العرب القديمة حول استراق الجن السمع، ثم إخبار الكهنة بما استمعوا له، إنها محاولة للرد على تهمة كونه كاهن يتعامل مع الجن ؛

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ (الجن 8)

نعم لم يعد ممكنا استراق السمع لأن السماء امتلئت بالحراس وهم الملائكة والشهب الذين يمنعون كل محاولة لاستراق السمع، فقد كانوا أي الجن يقعدون فيها مقاعد للسمع، ولكن اليوم بعد أن بعث النبي محمد رسولا فإن كل مستمع سيجد شهابا رصدا ؛

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ (الجن9)

[121] السيرة النبوية ج الثاني ص 69.
[122] تطور القرآن التاريخي كانون سل، ص 49

إن مثل هذا المعتقد سترفضه العقلية العلمية الحديثة، فالكون والقوانين التى تحكمه هي ذات صبغة كمية وليست كيفية، فوصف الشهب على أنها تترصد محاولات استراق السمع من طرف الجن هو وصف بدائي خرافي، ربما يتلائم مع عقلية إنسان القرن السابع ميلادي، ولكن مع ذلك، **فإن هذا التوصيف يبقى ثورة فكرية قام بها محمد، لأنه أراد تفنيد الخرافات السائدة في أوساط الجزيرة في ذلك الزمان، كما هو محاولة من أجل إصلاح المجتمع العربي الذي كان يؤمن بالكهانة واستبدلها بالرسالة لأنها الكفيلة بمعرفة الغيبيات والاطلاع على اللدنيات ؛**

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدا﴾﴿ إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ (الجن 27/26)

لقد كان إيمان العرب بالجن قبل ظهور الإسلام يعتبر كجزء من المعتقدات الفولكلورية والخرافات الشعبية السائدة في المجتمع، سعى نبي الإسلام لتوظيفها بغية التغلب على عدم ايتانه بمعجزة شأن جل أنبياء بني إسرائيل، ولعل أفضل مثال على ما نقول هو ما نقله الواقدي عندما كان المسلمون في طريقهم إلى تبوك بقيادة النبي سنة 9 تعد الهجرة، فاعترضه ثعبان ضخم وانتصب واقفا أمامه، فقال لمن معه : أتعلمون من هذا ؟ إنه أحد الجن الثمانية الذين يشتاقون سماع القرآن. **يبقى غرض السورة هو إظهار أن فريقا من الجن آمن بالقرآن عندما استمع له وهي طريقة لتعويضه والتخفيف عنه نظرا وأنه نبي بلا معجزة،** وكأن لسان حاله يقول إذا آمن الجن بالقرآن وهم ليسوا إنسا، فإن ذلك يدل على عدم بشريته، وهو بالتالي كلام الله.

أنتجت سور الصافات والملك والحجر خلال هذه الفترة وضمن الدفعة الثانية من سور الجيل الثاني، ومثلما أشرنا فإن وجود تاريخ زمني واضح لكل سورة يعد استحالة، ولكن نحاول الكشف عن الرابط المنطقي بين السورة وما سبقها أو ما لحقها، أو بالأحرى قانون العلائقية الذي تحدثنا عنه سابقا، وهو عمل مظن وليس سهلا على الإطلاق. أنتجت السور الثلاث بعد سورة الجن، وليس بالإمكان تقدير المدة الزمنية هل هي شهر أو شهرين أو ستة أشهر ؟ السور الثلاث لها قاسم مشترك، توضيح لما جاء في سورة الجن ؛

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾﴿وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾﴿لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَىٰ ٱلْمَلإِ ٱلأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾﴿ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات 10/6)

إن هذه الآيات تشرح الحالة التى أصبح عليها الجن بعد نبوة محمد، إنه بمثابة الإعلان عن نهاية الخرافة السائدة في البيئة العربية، الجن لم يعد له بالامكان استراق السمع، فالسماء أصبحت محفوظة من كل شيطان مارد، مما يترب عنه، تقويض للكهانة وتبيان عدم معرفتها للغيب. ولو سأل سائل كيف حفظت السماء ؟ نجد الإجابة في سورة الملك ؛

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾(الملك 5)

ويتردد ذلك في سورة الحجر ؛

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾﴿ إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحجر18/16)

أما تركيبة الجن فهي تختلف كليا عن تركيبة الإنس ؛

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر27/26)

نجد في سورة الصافات تلك الصورة الاسكتولوجية التي يصف مشهدا فريدا من نوعه يبعث على الرهبة والخوف من ناحية وعلى التبشير من ناحية أخرى. في البداية تتم محاولة الرد على منكري البعث والحساب وهي كما قلنا عقيدة الأعراب الراسخة في أذهانهم قبل ظهور الإسلام، ولو تأملنا في الرد لوجدناه جاء في صيغة تعبر عن المستقبل وكأنه انقضى وولى، تلك الصيغة الأدبية لبث الخوف في صفوف منكري البعث والذين لم يؤمنوا بالدعوة؛

﴿وَقَالُوۤاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحۡرࣱ مُّبِينٌ﴾﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَ آبَآؤُنَا ٱلأَوَّلُونَ ﴾﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ وَقَالُواْ يٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾﴿هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(الصافات 21/15)

لا حظ فعل "قالوا" ورد في الماضي في صيغة الجمع، واسم الإشارة "هذا" ، يضع المستمع أمام مشهد يوم القيامة وكأنه حدث، إنه تهديد واضح وصريح موجه لكل شخص لم يؤمن بمحمد رسولا وبالقرآن وحيا وبالبعث حقا، ومصيرهم سيكون حتما الجحيم ؛

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾﴿ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴾﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾﴿ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ

مُؤۡمِنِينَ﴾﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ ﴾﴿ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ (الصافات34/22)

وصف* عذابات الجحيم يبلغ أشده في سورة الملك،

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴾﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴾﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴾﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك11/6)

عذاب سيحل بالكافرين من قريش إلا ؛

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ (الصافات49/40)

يتضح من خلال سور الجن، الصافات، الملك، الحجر، أن النبي محمد عمل بلا هوادة على محاربة خرافة استراق السمع حتى يقطع الطريق على الكهانة والكهنة، محاولة تهدف إلى دفع الشبهة التي وجهت إليه على أنه يتلقى الوحي من الشياطين وبالتالي هو كاهن وليس برسول، والغرض الثاني بيان أن الإصلاح الإجتماعي والإقتصادي والديني يتكفل به الرسول المبعوث من الله لا الكهنة.

---

*سبق وقلنا أن القرآن أسرف في الوصف؛ وصف أهوال يوم القيامة، العذاب الذي سيحل بالكافرين، الجزاء الذي سيناله المتقين، وصف أهل النار وهم يختصمون في جهنم، وصف أهل الجنة وهم يتمتعون بما لذ وطاب. حضور أسلوب الوصف في القرآن طبيعي شأن جل النصوص الأدبية، ولكن قد نجد نوعا من الوصف يذكر تفاصيل التفاصيل، عندما يستمع إليه المتلقي وكأنه يعيش اللحظة، وكأن المشهد يحدث أمام عينيه، يتحول الوصف هنا إلى ما يصطلح عليه في الادب "**Ekphrasis** " المصطلح ذو أصل يوناني يمكن ترجمته بالعربية إلى "شرح كل شيء بالتفصيل" يرادفه مصطلح آخر وهو « **Hypotypose** » وهو بلاغة قوية تصف الأحداث والموجودات بكيفية واقعية، نابضة بالحياة، لافتة للنظر، إنه ضرب من البلاغة التي يوظفها المتكلم عندما يرغب في تمثيل مشهد بطريقة حية وفورية، كما لو كان قد تم تجربته في لحظة التعبير عنه. وبذلك، يتجاوز الإطار السردي والوصفي الكلاسيكي، مما يعطي انطباعا بأن المشهد حقيقي.

هناك شخصية مثيرة في تاريخ التصوف الغربي تدعى هيلدغارد دُبينغان Hildegarde de Bingen متصوفة ألمانية عاشت بين(1179-1244) تمثَّلت في مخيلتها ونفسيتها سلسلة من الرؤى، فاستعملت للتعبير عنها هذا النوع من البلاغة في الوصف، واعتقدت أن الصوت الصادر من أعماق ضميرها الحي والمطمئن بالإيمان أنه صوت الإله. كتبت المتصوفة ما يلي ؛ « في الحقيقة، كل ما كتبته خلال رؤاي الأولى، وكل المعرفة التي اكتسبتها لاحقًا، **أدين بها لأسرار السماء، لقد أدركتها بوعي كامل في حالة يقظة تامة. كانت رؤيتي بمثابة عيون عقلي الداخلية، وآذانه الداخلية التي نقلتها إليّ** [...] **وصفتُ حصريًا ما قدمته لي أسرار السماء**. **حينها سمعت الصوت مرة أخرى، الصوت الذي يرشدني من السماء. وقال: اكتب ما أقوله لك»** .

Hildegrade de Bingen, Le livre des œuvres divines, Paris Albin Michelle, 1989, p 216.

ينبغي التطرق في هذا السياق إلى مسألة جد مهمة حول العرب قبل الإسلام، ألا وهي انبثاق النبوة عن الكهانة، فالعرب أغلبهم لم يؤمنوا بالنبوة إنما بالكهانة، إلى جانب الكهانة وجدت الحكمة والحكماء، وكثير من العرب كانوا حكماء، إلا أن الفرق بين الحكيم والكاهن شاسع، فالأول معرفته تصعد من الأرض إلى السماء، أما الثاني فمعرفته تنزل من السماء إلى الأرض. كان الحكيم يمثل المرجع الثقافي الأساسي للعرب في حياتهم اليومية، كانوا يترددون عليه لأخذ النصح والمشورة، والكاهن لا يختلف عن الحكيم في هذه الأمور، فلقد كان هو أيضا مصدرا أساسيا للقبائل العربية تلتجئ إليه دائما حيث كان له دورا جليا في حل الأزمات الشخصية.[123] حاز الكاهن على مرتبة متميزة في البيئة العربية قبيل الإسلام فانصهر مفهوم الحكيم في الكاهن وتحول الكاهن إلى حكيم والحكيم إلى كاهن، والسبب يعود إلى تفوق معرفة الكاهن مقارنه بالحكيم، تفوق يكمن في استقاء الكاهن معرفته من السماء لا من الارض، ومن هنا نفهم لماذا اتهمت قريش محمد بالكهانة ووصفته بالكاهن ووحي القرآن صادر عن كاهن، وهي ليست صفة سلبية بل ايجابية نظرا للمكانة الاجتماعية والمعرفية التى حظي بها قبيل الاسلام. الجدير بالملاحظة أن الأحناف لعبوا دورا كبيرا في تطور مفهوم الكاهن لكي يتحول إلى النبوة فيما بعد. لقد شرحنا فلسفة الأحناف، وأثبتنا أن محمد كان منهم ومتحمسا لمعتقداتهم، **ولو لا وجود هذا التيار الإصلاحي الثوري لما كان للدين الإسلامي أن ينشأ**. إن الكاهن سيكون بذرة النبي، أي بذرة ظهور مصطلح النبي وانتشاره في الأوساط العربية. **لعب الأحناف دورا في ذلك من خلال الرغبة في استبدال الوسيط بين الكاهن والسماء بملاك لا بشيطان، أرادوا أن يجعلوا من النبي هو الملجأ لإطلاع على الغيبيات لا الكاهن، وبناء على ذلك فإننا لا نستغرب افتتاح سور كثيرة في القرآن لا سيما سور الجيل الأول بسجع الكهان،[124] فاتهم محمد بأنه كاهن، لذلك بدأ الأسلوب شيئا فشيئا يتغير مع سور الجيل الثاني والثالث، لتصبح السور نثرية في القرآن المدني.**

نستنتج من خلال ما سبق أن مفهوم النبي انبثق من مفهوم الكاهن في المجتمع العربي قبيل الإسلام، وبين الكاهن والنبي زمن يفصل بينهما، لأن مفهوم النبي لم يظهر فجأة، إنما مر عليه زمن طويل قبل أن يستقر على حاله، من ذلك فإن العرب كانوا يقولون نبئ وليس نبي، مأخوذ من نبأ يعني الخبر، وكلمة نبي كانت تطلق على الكاهن عندما يصدق في تحدثه عن الغيب. إستبدال محمد لفظ النبئ بالنبي لأن الأول يرمز للكاهن، فكان دائما يقول أنا نبي الله ولست نبئ. **إن وجود الكهانة في المجتمع العربي ودورها الريادي في الحياة اليومية لهو خير دليل على الحظور القوي والمتميز للدين**

[123]مسلمة الحنفي قراءة في تاريخ محرم، سبق ذكره، ص 79-81.
[124]ص 82-84.

في نفوس القبائل العربية، **فمن بين العوامل التى ساهمت في نشأة الدين هو الخوف من المستقبل،** هذا ما يراه كثير من الباحثين والفلاسفة.[324*]

ومحاربة ظاهرة الجن في القرآن تستدعي الوقوف أمام جملة من الإعتراضات المنطقية والعلمية كان قد تعرض إليها المفسر فخر الدين الرازي، نذكر أبرزها :

- أولا ؛ أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحدا وألفا من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ثم يعودون لمثل صنيعهم ؟ فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شئ مرة ومرارا امتنع أن يعود إليه من غير فائدة.
- ثانيا : إن القول كون الجن خرقوا جرم السماء واسترقوا السمع فهذا يتنافض مع شهادة القرآن نفسها في سورة الملك، ذلك وأن الله في القرآن خلق السموات بإحكام لا مجال لاختراقها أو النفاذ فيها ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرجِعِ ٱلبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنۡقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك2) إن كانوا لا ينفذون في جرم السماء فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة ؟
- ثالثا : الملائكة اطلعوا على الاحوال المستقبلة إما لأنهم طالعوها في اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقفوها من وحي الله تعالى إليهم، فلم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها ؟
- رابعا : الشياطين مخلوقون من النار والنار لاتحرق النار بل تقويها فكيف يعقل إن يقال إنما الشياطين زجروا عن استراق السمع بهذه الشهب ؟
- خامسا : هؤلاء الجن لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إل الكفار ؟

كأغلب المفسرين المسلمين اصطدم الرازي هو أيضا بجملة من القضايا المثارة في القرآن، موقف يذكرنا بالطبري فيما يتعلق بفعل "قل" في سورة الفاتحة أو حيرة الزمخشري تجاه توصيف عصا موسى، وهي كما أكدنا تبريرات واهية ضعيفة تسقط في أول امتحان. **جميع المفسرين ومن بينهم الرازي حسبوا أن القرآن يسرد التاريخ فيما يتعلق بقصص الأنبياء، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك معتقدين وأن القرآن كتاب علوم،** اعتقاد جعلهم يبحثون في كل مرة عن تخريجات للمآزق التى يسقطون فيها، **نظرا لوجود عدة جوانب تتنافى مع المنطق والعلم والتاريخ في القرآن.**

* من بينهم الفيلسوف و الإخصائي النفساني الألماني هارمان أبينهاوس Herman Hebingghaus في كتابه Précis de psychologie

إن القرآن ليس هدفه التاريخ، إنما الترهيب وضرب الأمثال وتعلم الدروس وأخذ العبر، أما من الناحية العلمية فهو يحارب بعض الأفكار والعادات التى ترسخت في المجتمع العربي ويحاول دحضها وبيان تهافتها. وغرضه في ذلك جلي، إنه يعمل على اصلاح المجتمع من خلال تغيير جملة من المعارف السابقة، فحجته قد تكون ضعيفة، في بعض الأحيان غير منطقية، ولكن غرضها يتجاوز المنطق والعلم، إنه محاربة المعتقدات القديمة. في سياق ذلك، فإن القرآن يتبنى تصورات الناس الساذجة وليدة القرن السابع الميلادي ويعاملهم بحسب العرف والعادة السارية والمعمول بها ،[125] مما يعني **أن القرآن رهين البيئة التى نشأ فيها والمحيط الذي تكون فيه**، تجريده عن بيئته والتعالي به فوق التاريخ، ساهم في تعطيل العقل العربي الإسلامي وضرب ملكة النقد.

شأن أغلب سور الفترة المكية الوسيطة، أنتجت سورة الحجر في ظروف صعبة، فترة تعاظمت فيها موجة الرفض والإنكار لنبوة محمد ووحيانية القرآن، انعكس ذلك على مفتتح السورة، تتوعد الكافرين وتهددهم ؛

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ (الحجر 3/1)

اشتد العداء بين قريش ومحمد، فأعلن أن الأنبياء السابقين قد عوملوا بما يعامل به الآن، **متخذا من المعاملة العدائية برهانا جليا على رسالته الإلهية**[126]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾﴿ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ (الحجر13/10)

استعمال لفظ "ربما" قد يطرح اشكالا، لأن اللفظ يحيل إلى عدم التيقن من رغبة الكافرين من أن يكونوا مسلمين، هؤلاء الكافرين هم قريش والطبقة الأرستقراطية المكية الذين أعلنوا منذ السنوات الأولى رفضهم المطلق للدعوة، واستماتوا في المعاندة إلى حد الإستهزاء واتهام محمد بالكهانة والشعر والجنون، فكيف يمكن القول أنهم ربما يودوا أن يكونوا مسلمين ؟ ستكون مشكلة لمن يعتقد أن القرآن كلام صادر عن إله، فهل يعقل أن يكون غير متيقن من المسألة ؟ المفسرين المسلمين كالطبري والرازي قالوا أن هذه الآية تتحدث عن الكافرين وتصف أحوالهم يوم الآخرة مستدلين فى ذلك بالأقوال المأثورة كالزجاج حيث نقلوا قوله : الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم وَدَّ لو كان مسلما، وهذا الوجه هو الأصح.

[125]الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 90.

[126]تطور القرآن التاريخي، كانون سل، ص33.

إن قول الزجاج مناف للصواب، لأن في معظم الأحيان قد يكون حال الكافر أفضل من المسلم، الكافر يكون ثريا يتمتع بما لذ وطاب، أما المسلم المؤمن فيكون فقيرا ومحتاجا، يفتقر لأدنى مقومات العيش الكريم، **وهذا الصراع بين الغني والفقير يراه البعض سببا في نشأة الدين في حد ذاته، ذلك وأن الأغنياء يحثون الفقراء على التمسك بالدين في الحياة الدنيا ليواسيهم في فقرهم ويعوض حرمانهم، بل إن الدين وقع توظيفه لمن أجل سيطرة على العبيد والمعدمين بالصبر في الحياة الدنيا وتحمل الشقاء والعذاب والإهانة مقابل مكافأتهم في الآخرة.** قيل إن الآية تتحدث عن أهل النار في الآخرة، معتمدين على حديث لمحمد نقله أبو موسى الأشعري، إلا أن الآية تفند ذلك صراحة لأنها تدعو لعدم الاكتراث بالكفار وتركهم يأكلون ويتمتعون ويلههم الأمل، فهذا الأكل والتمتع والأمل حاصل في الحياة الدنيا وليس في الآخرة، وبناء على ذلك فإن الآية موجهة لقريش والمكيين الذين عاصروا محمد. يتضح إذن أن محاولات المفسرين لا تتعدى في أغلبها ضربا من الخطابة الكلامية والتزويق اللغوي. لو علموا أن القرآن لغته وجدانية عاطفية، لا تقوم عل المنطق أو العلم، لانحلت العقدة. لكن هيهات ! **لطالما كان المقدس غشاوة أعمت أصحاب العقول الجبارة.**

نجد في السورة ذكرا لقصص الأنبياء، خاصة إبراهيم ولوط. نلاحظ أن قصة النبي ابراهيم ركزت على ابراز حالته الإجتماعية والنفسية الصعبة المتأزمة، فتأتيه فجأة بشرى من الله عن طريق الملائكة ؛

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ ٱلْقَانِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ ٱلضَّآلُّونَ﴾ (الحجر56/51)

في قصة لوط نجد الحالة ذاتها، حالة ضعف وانكسار أمام الكافرين من أهل المدينة ؛

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ (الحجر 69/67)

الملفت للإنتباه أن قصة لوط في سورة الحجر وردت في صيغة لم يُحترم فيها التسلسل التاريخي والمنطقي للأحداث، ذلك وأن الملائكة بشرت لوطا بقرب نزول العذاب على قومه قبل أن يتعرض للأذى والمضايقة، **وهذا دليل واضح أن قصص الأنبياء في القرآن نابع من الوجدان لا التاريخ، فالحالة النفسية والعاطفية لمحمد هي من ترسم معالم القصة وصيرورتها.**

إن تقديم مجيئ الملائكة وتبشير لوط، جاء لخدمة غرض محدد، ألا وهو تسليط الضوء على العذاب الذي سيحل بالكافرين من قومه، الآيات الأخيرة وردت منسجمة مع حالته في مكة [127]

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾﴿ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(الحجر92/94)

إذن، **الغرض الحقيقي من وراء قصة لوط في سورة الحجر ليس سردا لقائع وأحداث دارت فعلا في الزمان والمكان شأن جل بقية القصص، بل ترهيبا لمشركي مكة وتخويفا لهم عبر تقديم آيات العذاب على آيات البشارة، وهو ما يعكس حالة النبي النفسية خلال السنوات الأولى في مكة وما يتلاءم مع وضعيته ووضعية المسلمين المتردية، وكأن القرآن يواسي محمد والمسلمين بالقول إن يوم الحساب آت لا محالة، وأن قريش والأرستقراطية المكية سيحل بهما العذاب نفسه الذي حَلَّ بقوم لوط**. هنا نعرض الآيات من سورة الحجر ليتبين القارئ صحة ما قلناه ؛

﴿ فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ وَآتَيْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ ٱلأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ قَالُواْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلآءِ بَنَاتِي إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر61/75)

أول ما يلفت الإنتباه في هذه الآيات هو ترتيبها الغريب والذي يبعث على الحيرة، في البداية تسرد كيف أمر الملائكة لوطا وعائلته بأن يغادروا القرية ليلا لأن العذاب سيحل بها وبأهلها صبحا، ثم مباشرة تقفز الآيات فجأة وبطريقة غريبة إلى الوراء، لتسرد كيف جاء قوم لوط يهددونه ويضايقونه، فدعاهم لوط بأن يكفوا أيديهم عنه مقدما لهم بناته لكي يزجرهم عن إيتان الرجال ويصدهم عن ضيوفه الملائكة. إن هذا الترتيب وجداني ومبني على العاطفة والإنفعالات النفسية. عندما يقرأ المسلمون القرآن تهتز في كثير من الأحيان عواطفهم ومشاعرهم فيتأثرون بالآيات، وهذا بالضبط غرض القرآن، **إنه ليس سردا لوقائع تاريخية ولكنه دعوة للموعظة والإرشاد، إنه دغدغة للعقول والأفهام، ولذلك نقول إن القصص القرآني من رسل وأنبياء وجن وخلق وعذاب وبشارة، كلها تقوم على منطق العاطفة والوجدان.**

[127] الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 158.

الآيات الأخيرة تكشف لنا سياسة محمد في مكة، سياسة الصفح والعفو و المغفرة؛

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(الحجر85)

أحيانا وصل الحال بمحمد إلى درجة شديدة من الضيق، ليفقد الجرأة على إستكمال الدعوة ؛

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر94)

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر 97)

فعل "إصدع" يفيد المضي قدما والالتزام بالأمر، وقد فسر الطبري الآية بالقول : فامض وافرق كما قال أبو ذؤيب :

وكأنهن ربابة وكأنه يسر يفيض على اقداح ويصدع

وما عليك إلا بالتسبيح والعبادة لأنك في مكة ضعيفا مهيض الجناح ؛

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر98/99)

سور ياسين، الفرقان، مريم، فاطر، النمل، والإسراء تندرج ضمن الدفعة الأخيرة من سور الجيل الثاني، أنتجت في السنوات الأخيرة من المرحلة المكية الوسيطة. إن إنكار نبوة محمد ووحيانية القرآن من طرف القرشيين طيلة الفترة المكية، أحدث تغيرات في نفسيته ورؤيته للأشياء. أول تلك مؤشرات نجدها في مقتتح سورة ياسين، حيث أن مسألة الكفر والإيمان أصبحت مرتبطة بما قدره الله سلفا قبل خلق الإنسان ؛

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (ياسين/7) ثم إنه ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (ياسين /10)

كفرهم مقدر عليهم في اللوح المحفوظ بعد أن جعل الله في أعناقهم أغلالا ؛

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيۤ أَعْناقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى ٱلأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ (ياسين/8)

هؤلاء أعناقهم مكبلة بالأغلال إلى الأذقان، والأذقان مجمع اللحى كما نقل الطبري. أما الأعناق المكبلة بالأغلال فهي إحالة عن منع الله إياهم عن الإهتداء كما فسر الرازي. طبيعي لن يهتدوا فأبصارهم أسدلت عليها غشاوة ؛

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ (ياسين/9)

والسؤال : **إذا كان كفار قريش لم يؤمنوا بنبوة محمد ولا بالقرآن وحيا لأن ذلك مقدر عليهم، فما الفائدة من التهديد والوعيد ؟ لو قلنا أن الإنسان مسلوب الإرادة والحرية فيما يتعلق بالكفر والإيمان، فقرار الكفر أو الإيمان يحدده الله لا الإنسان، إذن الجزاء والعقاب لا معنى لهما؟ إنه تساءل مشروع لكل من يدرس القرآن دراسة عقلانية ومنطقية، إلا أن القرآن كما أكدنا مرارا لا يحترم قاعدة العقل والمنطق، لأنه إنعكاس لنفسية ووجدان محمد، إنه إنعكاس لمشاعر وأحاسيس خالجته طيلة الدعوة، فسلب إرادة وحرية الإنسان من أجل تقرير مصيره منبثق عن شعور بنوع من الحسرة والضيم بسبب الصد الذي لقيه من قومه،** ما نجد صداه في السورة ؛

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (ياسين/30)

وكأنه من خلال القرآن يحاول البحث عن مبرارت لعدم إيمان معظم القرشيين به، وهي مبررات غيبية سماوية لا علاقة لها بما هو أرضي، **محاولة للتنفيس عما هو مكبوت بداخله،** وذلك ما سيتضح أكثر في السور القادمة.

كسائر أغلب السور المكية نجد ذلك الفصل بين فئتين من المجتمع، المؤمنون الصالحون والكافرون الطالحون، أما الكافرون فإن صيحة واحدة كفيلة بإسقاط أشد العذابات عليهم؛

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ (ياسين/31)

إنها الصيحة أو الصرخة، تلك القوة الإلهية الغيبية الخرافية الجبارة التى تبيد شعبا بأكمله خلال ثوان، وظاهرة الصيحة تتردد في مواضع كثيرة في القرآن المكي، وهي من بين أساليب الترهيب والتخويف. **الجدير بالذكر فإننا نجد جذور هذه الصيحة في الديانات والمعتقدات التى كانت سائدة في شبه الجزيرة قبل ظهور الإسلام، كازرادشتية والمانوية والصابئة، فمثلا نهاية العالم في الزرادشتية تأتي من خلال صيحة ملاك، والصيحة في الزرادشتية هي قوة ما ورائية سحرية ترمز للتحرر من القوى المضادة.**[128] في الصابئة، وقد بينا فيما سبق أن عرب الجزيرة عامة والقرشيون خاصة كانوا متشبعين بطقوس هذه الديانة، **نجد حضور هذه الخرافة كقوة تواجه الشياطين، توظفها الآلهة لمواجهة أعداء الدين الصابئي، فالأمم والأراضي والمدن تهتز وتتحطم بصيحة أو صرخة واحدة، إنها قضاء الملاك أو الآلهة الذي لا يرد ولا يصد فتنجز المطلوب في لمح البصر.**[129] أما في الإسلام، فقد وكلت المهمة للملاك إسرافيل الخرافي، الذي يصرخ صرخة يقضي بها على البشرية جمعاء؛

---

[128] القرآن والتاريخ، د.رأفت عماري، إصدار معهد الأبحاث الدينية، الطبعة الأولى 2014، ص 66-67.
[129]ص 68-70.

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (ياسين/31)

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (ياسين/49)

وصرخة ثانية يعيدهم بها إلى الحياة؛

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (ياسين/53)

ليحاسبوا على كفرهم ؛

﴿فَٱلْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ياسين/54)

أما المؤمنون فإنهم في شغل فاكهون؛

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ (ياسين/55)

ذلك الشغل هو إفتضاض أبكار العذارى.[130]

لغة الوجدان السائدة في كامل السور القرآنية المكية، أضفت مسحة من الفانتازيا واللامعقول في تصوير عذابات الآخرة، وذلك أمر طبيعي، فاللغة الوجدانية لا تعتمد لا على المنطق ولا على العقل وإنما تعتمد على مخيلة المتكلم، كما أن الحديث عن المستقبل في صيغة الحاضر سبق وأكدنا على أنه فن أدبي تميز به القرآن، لنجد الأرجل والأيدي تتكلم ؛

﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (ياسين65/63)

ما تزال قريش تستخف بما يقوله محمد ولا تقيم له وزنا، تالله ! إنه قول شاعر ؛

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ (ياسين69/70)

وهي التى لا تؤمن بالبعث وتعتبره ضربا من الأساطير والخرافات متحدية إياه بالقول : يا محمد من يحيى هذه العظام وهي رميم ؟

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (ياسين/78)

ليأتي الرد ؛

[130]جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (ياسين/79)

رد يندرج ضمن محاولة الإقناع بواسطة حجج منطقية وعقلية، ميزة نجدها في سور الجيل الثاني والثالث من القرآن المكي. الآيات الأخيرة من السورة تؤكد محاولة الإقناع الهادئ الرصين بعيدا عن التقريع والثلب؛

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلاَّقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (ياسين80/81)

هيهات! فإن قريش لا يوجد في أدبياتها عقيدة البعث والقيامة حيث تعتبرها من أساطير الأولين، لتمضي في التعنت والمعاندة ولتضاعف في آن المتاعب النفسية للنبي محمد، متاعب أفصحت عنها الآية ؛

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (ياسين/76)

ثم يسترسل الكلم القرآني حركته الجدلية التاريخية بعد أن إتخذت قريش الكلم القرآني محل سخرية وإستهزاء، فما يصدر عن محمد ليس سوى إفك إفتراه وأعانه عليه قوم آخرون ؛

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ (الفرقان/4)

بل إنه يكتتب ويسرد أساطيرا تملى عليه بكرة وأصيلا ؛

﴿وَقَالُوۤاْ أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان/5)

تلك هي إذن الظرورف التى أحاطت بالنبي والمسلمين فأدت إلى انتاج الآيات الأولى من سورة الفرقان، حيث جاءت كردة فعل مباشرة ضد احتجاج قريش على البعث ورفضهم الإعتراف وأن ما يقوله هو وحي من عند الله. ثم تتساءل قريش متعجبة كيف لرجل يزعم أنه رسول مرسل ونبي يوحى إليه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ كيف لرجل يدعي النبوة وهو بلا معجزة حسية ؟ ففقدان المعجزة معضلة أرقته طيلة الفترة المكية. لقد كانت قريش على علم بالأدب التوراتي الإنجيلي، كذلك الأدب الفارسي، وعلمت أن النبي أو الرسول، يكون دائما مرفوقا بالخوارقيات ؛

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلأَسْوَاقِ لَوْلاۤ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ (الفرقان6/7)

والحال أننا نستبين من ردود قريش السيرة الحقيقية لمحمد الخالية من حديث المعجزات والشعبذات لا كما كتبها المؤرخون المسلمون، لقد كانت تتجاذبه العوامل والظروف الإجتماعية والبيئية، رجلا مسايرا للتاريخ لا فوقه.

إن تكذيب قريش لمحمد وعدم الإيمان بوحيانية القرآن إضافة إلى إنكارها للساعة (يوم القيامة) جعلها تخسر كل شئ، نعم لقد خسرت قريش مكانتها كحامية لحمى الدين وهي الملقبة بحرم الله، آية وحيدة كانت كفيلة بأن تمحو قداسة قريش وتحطم هيبتها؛

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ (الفرقان/23)

إن الإيمان بالله والإقدام على العمل الصالح من مساعدة للفقير وإطعام للمسكين وإيواء لليتيم يعتبر هباء منثورا في حالة عدم الإقرار بمحمد كرسول والقرآن كوحي وذلك هو الشرط الأساسي لكل من ينوي إعتناق الدين الإسلامي، يبدو أن هذا الشرط أثر تأثيرا حادا على عقلية المسلم في عصرنا الراهن، فهو يعتقد أن غير المسلم وغير المؤمن حتى ولو تحلى بسلوك مستقيم وبأخلاق حميدة* فكل ذلك في نظره يعد باطلا، ما يعكس غرور وعنجهية السواد الأعظم للمسلمين في زماننا.

سبق وقلنا أن مجمل سور القرآن هي مواساة ومؤازرة لمحمد طيلة الدعوة، هو مرآة تعكس شخصية ونفسيته، من خلالها يمكننا تقويض ركام الخزعبلات والشعبذات التى ألصقت بسيرته زورا وبهتانا، فهو ليس كتاب معجزات ولا كتاب علوم أو تاريخ، بل إنه كتاب هداية وعظة بسرده لقصص الأنبياء وتوظيفه للغة الوجدان، والغرض من هذا القصص الذي نجده متناقضا أحيانا في بعض جوانبه هو الإرشاد والوعظ؛

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان/32)

القرآن يختلف عن التوراة بعهديها القديم والجديد، التوراة كتبت على مدى قرون من طرف مجموعة من الكهنة الذين عاصروا كلا من الإمبراطورية الفرعونية والإمبراطورية الآشورية حيث كانتا في أوج عظمتهما، الآشوريون كانوا يشنون بين الفينة والأخرى حملات تأديبية ضد مملكة إسرائيل الشمالية التى عاشت لفترة زمنية طويلة تحت رعب آلتهم الحربية، أما مملكة يهوذا فكانت أسيرة السياسة الفرعونية، وبالتالي لا يوجد إستقلال وإستقرار سياسي وإقتصادي شهده محرروا التوراة، **وذلك ما**

*الجاينية البوذية الكونفوشية الطاوية والشينتوية هي فلسفات لاتؤمن بوجود إله شخصي مثلما هو الحال في الديانات الإبراهيمة الثلاث، ومع ذلك تتأسس على حس أخلاقي رفيع مثل ؛ عدم الكذب، حب الآخر، المحافظة على الطبيعة، عدم الحاق الأذى بالآخرين، وحترام الآباء والأجداد.

يفسر جوهر التوراة على أنها محاولة أدبية لإثبات أصل تاريخي وإثني لمجموعة عرفت ببني إسرائيل، وإثبات أن لديهم نسب عريق مرتبط مباشرة بإله سمي يهوه. **

لا شك أنه يوجد تشابه واضح بين التوراة والقرآن من هذه الناحية، فغرض التوراة بقصصها الأسطوري وحكايتها الفولكلورية هو حبك تاريخ لتلك المجموعة المعزولة والمنبوذة في محيطها، والحال أنه ليس تاريخ إنه ميتاتاريخ،* إذن التوراة هي تثبيت للفؤاد، تثبيت لفؤاد بني إسرائيل عبر سرد قصص وأحداث ميتاتاريخية، جعلت من بني إسرائيل أشخاصا فوق التاريخ، أي أن تاريخهم ليس تاريخ مادي يمكن دراسته دراسة موضوعية وتجريبية قابلة للتشكيك أو النقد، لأن محرري التوراة نسبوا إليهم تاريخا مقدسا، تاريخ ذو طبيعة إستثنائية جعل منهم ظاهرة إعجازية خارقة لا تخص التاريخ البشري، إنهم شعب مختار شعب القداسة.[131] **أما القرآن فإنه ينقل مادة جلها مقتبسة من أساطير اليهود والعهد القديم مع وجود إختلافات بسيطة، الإختلاف الكبير يكمن في الغرض من هذه المادة.**

إن هذه المادة وبالتحديد قصص الأنبياء كانت نتيجة للحالة النفسية والإجتماعية المحمدية في مكة، أثناء تعرضه إلى عراقيل عديدة وصعوبات جبارة أمام دعوته. إن قصص الأنبياء في الأدب التوراتي التلمودي كان معلوما في أوساط الجزيرة العربية، فكيف نفسر إذن طلب قريش الإيتان بمعجزة حسية مثل أنبياء بني إسرائيل ؟ ولكن ما جلب إنتباه محمد ليس المعجزة بقدر ما جلب إنتباهه تلك العراقيل والصعوبات، لقد لا حظ وأن الأنبياء الذين سبقوه عاشوا جملة من المحن شكلت تحديا كبيرا أمام دعواتهم لعبادة الله الواحد، لا حظ أنه يشترك معهم في هذه الخاصية فكان يسرد ذلك القصص ليثبت فؤاده وفؤاد المسلمين، إنها طريقة طريفة وذكية في آن، لأن كل شخص عندما يصطدم بتحديات الحياة، يتذكر أشخاصا آخرين عاشوا نفس التحديات وتجاوزوها بالصبر، حتما فإن ذلك سيرفع من معنوياته حتى لا يصاب باليأس والقنوط، قال خلف الله : **« ومعنى كل هذا أن إختيار أحداث بعينها من تاريخ هؤلاء الرسل أو قصص كان مقصودا، وأن هذا القصد لم يكن إلا التنفيس**

**حسب بحوث عالم الآثار الإسرائيلي فلكنشتاين بدأت الكتابة الفعلية للتوراة في عصر الملك يوشيا خلال القرن السابع قبل الميلاد وهي فترة عصيبة شهدت تفككا لوحدة مملكة إسرائيل لتصبح مملكتين منفصلتين مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب. راجع كتاب التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها.

*ليست جميع الاخبار والاحداث التى نقلها العهد القديم هي ميتاتاريخ، حيث تحدث عن أماكن ومدن وشخصيات لها وجود تاريخي، ولكن ذكرت في زمن غير زمانها، قد يتحدث العهد القديم عن مدينة أو شخصية ينسبها للقرن العاشر أو الحادي عشر قبل الميلاد وهي لم توجد أصلا إلا بعد قرن أو قرنين من الزمن. إن الغرض من قصص العهد القديم هو توظيف مادة تاريخية بعد تفكيكها وإعادة تركيبها بغرض إيجاد أصل تاريخي ضارب في القدم لجماعة سميت ببني إسرائيل أو ما يسمى بالعبرانيين، فضلا عن اختلاق بطولات ونسبها إليهم.

[131]من يهوه إلى الله، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي، المجلد الأول، ص 82.

والإفاضة على النبي عليه السلام والمسلمين وإلا خدمة الدعوة الإسلامية». [132]وتبعا لذلك، **فإن قصص الأنبياء في القرآن غرضه ليس التاريخ إنما غرضه عرض التشابه بين حياة الأنبياء وحياة النبي محمد،** حياة الأنبياء كما قلنا كانت صعبة ومريرة في بعض الأحيان، تعرضوا للتهميش والإستبعاد وكانوا عرضة للمؤامرات والإغتيالات، وبناء عليه فالقرآن في مجمله يسرد أمثلة غرضها المقارنة بين حياة محمد وبقية الأنبياء والتقريب بين جوانبها وتفاصيلها ؛

﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (الفرقان/33)

هنا يظهر الإختلاف الكبير بين التوراة والقرآن، التوراة هدفها كسر قوانين التاريخ وإستبدالها بالميتاتاريخ، جاعلة من جماعة سميت ببني إسرائيل شعبا فوق التاريخ وفوق النسيج السببي، فالتاريخ مع التوراة يعتبر مقدسا. أما القرآن فهو يساير الأحداث الأرضية، فالآيات انتجت حسب ردود أفعال الناس وكلامهم، ونقصد أسباب النزول المسألة التى تحدثنا عنها في الفصل الأول. إضافة إلى ذلك فإن القرآن لم ينشأ جملة واحدة، بل على مراحل وذلك ما يسمى بالتنجيم في العرف الإسلامي، نزل القرآن منجما أي في كل مرة تنزل آية حسب الظرف والواقعة التى وجد فيها النبي والمسلمون. إنتبه الفقهاء المسلمون الأوائل أيضا المتأخرون منهم أن القول وكون القرآن نزل منجما على مدى 23 عاما، **والقول أيضا أن فيه بالناسخ والمنسوخ حسب تغير الوقائع الأرضية، قول يؤكد العلاقة الوثيقة والجدلية بين النص القرآني والواقع الذي جاء من أجله، قول يقوض أزلية النص القرآني ويؤكد أنه محدث حسب الأحداث الحاصلة على الأرض**[133] وهو ما أدى إلى جدل لاهوتي عنيف بين أنصار التجديد المعتزلة وأنصار التقليد الأشاعرة والحنابلة حول طبيعة القرآن هل هو أزلي أم محدث ؟

إذن القرآن يساير الوقائع الأرضية، لقد وقع انتاجه من أجل خدمة متطلبات الواقع، إنه يؤسس لجدلية الفكر، وعليه فإنه يكسر قيود الميتاتاريخ ويعيد بناء قوانين التاريخ، بتعبير آخر، القرآن ليس نصا فوق التاريخ أو أزلي. لئن أكدنا أن معظم القصص الذي يسرده هو ليس من التاريخ في شيء، فإن ذلك لا يعني أن مادته كلها محض ميتاتاريخ، بل إنه يوظف الميتاتاريخ من أجل مصالح أرضية، كمواساة النبي محمد على محنته ومقارنة حياته بحياة الأنبياء السابقين. ذلك ما يميز القرآن عن التوراة، وكأن القرآن شاهد عيان ينقل لنا مراحل من حياة محمد، مراحل غَيَّبَتها عدم قراءة وفهم السور حسب الترتيب التاريخي، غير أنه لا يمكن أن ننفي كون القرآن وظف قصص الأنبياء التى هي أصلا ميتاتاريخ لإثبات أقدمية الإسلام مقارنة باليهودية والنصرانية حينما إعتبر أن جميع أنبياء بني إسرائيل هم في

[132]الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 346.
[133]المأزق في الفكر الديني بين النص والواقع، د. نضال عبد القادر الصالح، دار الطليعة بيروت للطباعة والنشر، ص 20-21

الحقيقة مسلمون، مبدأ أقره القرآن وهو في مواجهة اليهود والنصارى خاصة في المدينة، محاولة لإثبات أصل أكثر عراقة للعرب والمسلمين، مع أن القرآن جعل التاريخ في بعض جوانبه مقدسا، لَمَّا جعل جميع الأنبياء إبتداء من آدم إلى المسيح كصراع يمهد لظهور النبي محمد.

على ضوء الأمثلة التى يوظفها القرآن لتعزيز مكانة النبي محمد وأتباعه، أنتجت آيات من سورة مريم، حيث تخبرنا المصادر الإسلامية أن المسلمين هاجروا نحو الحبشة بإيعاز من النبي، فالأحباش هم نصرانيون يرفضون عقيدة التثليث، ولقد وضحنا أن من بين أسباب ظهور الإسلام هو الإستجابة إلى هذا التيار الذي كان مضطهدا لأنه خالف المذهب الرسمي للكنيسة. لم ينجح أسلوب التهديد بالجحيم والوعيد بالسلاسل والأغلال وملذات الجنة في استمالة قريش ولما لم يكن قادرا على حماية أتباعه الفقراء،* نصحهم بالهجرة إلى الحبشة الدولة التي كانت علاقتها التجارية وثيقة بالجزيرة العربية.[134] كان محمد يرجو من هجرة أتباعه إلى الحبشة كسب وِدِّ الأحباش وخاصة النشاجي قائدهم وملكهم، فقد علم أن هذا الملك هو عادل ولا يظلم أحدا، لذلك حَثَّهم على الذهاب إلى هناك وتلاوة بعض الآيات، عسى أن يلقى مساندة معنوية ترفع من معنوياته ومعنويات المسلمين وهم يعيشون أياما عصيبة؛

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾ ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾﴿قَالَتْ إِنِّيۤ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً ﴾ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾﴿ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلْنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ (مريم23/16)

يسرد هذا المقطع معجزة الولادة التى حصلت مع والدة المسيح مريم، حبلت من دون أن يمسسها بشر، وسببه كان الملاك جبريل الذي تمثل لها في صورة بشر، وهذا يعتبر أمر خارق للطبيعة. ثم تسترسل الآيات لتبرئة المسيح وأمه من إتهامات اليهود ؛

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾﴿يٰأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِٱلصَّلاَةِ وَٱلزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾﴿وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾﴿ذٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ

*جل الذين آمنوا بمحمد كانوا على علم بتعليم النصرانية وفئة منهم آباءهم وأجدادهم اعتنقوا النصرانية.
[134]تطور القرآن التاريخي، كانون سل، ص 28.

مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم36/27)

من خلال هذه العبارات المصاغة بلغة وجدانية تهز المشاعر وترتجف منها القلوب، حاول محمد كسب سند الأحباش ومهاجمة عقيدة اليهود حول ولادة المسيح، ذلك وأنه لا يمكن جذب الأحباش إلى صفه إذا لم يعلن براءته من العقيدة اليهودية والمسيحية في آن، فاليهود يعتقدون أن المسيح نبي كذاب وولد بطريقة غير شرعية، أما المسيحيون يعتقدون كونه تجليا من تجليات الله، أي أن المسيح ذو طبيعة مثنوية بشر وإله في نفس الوقت. سبق وأكدنا أن الجزيرة العربية كانت بمثابة أرض لجوء لأصحاب المعتقدات والديانات المخالفة للمذاهب الرسمية، ولقد فر كثير من النصارى الذي كانوا يعتقدون بعدم ألوهية وصلب المسيح فضلا عن طبيعته البشرية الصرفة من الترهيب الديني الممارس من طرف الإمبراطورية البيزنطية طيلة القرن الثالث والرابع والخامس قبل الميلاد. منذ إنعقاد مجمع نيسا Nicée سنة 325 ميلادي، أعلن المجتمعون أن الإعتقاد بعدم ألوهية المسيح ونكران البنوة بين الله والمسيح يعتبر مهرطقا ويجب نفيه، والمجمع كان موجها لاستئصال العقيدة الأريوسية التى كنا قد تحدثنا عنها، وتم الإقرار بأربعة أناجيل وهي : لوقا، ماتيو، مرقس، وجون، لأنها تتفق مع المذهب الرسمي للإمبراطورية القائم على التثليث، وإثرها تم إستبعاد بقية الأناجيل، أبرزها أناجيل الطفولة. عندما فَرَّ أصحاب المذهب اللاألوهي خوفا على حياتهم ومعتقداتهم حملوا معهم أناجيلهم الخاصة التى تتفق من مذهبهم، ووجدوا في شبه الجزيرة مناخا يتسم بالحرية الدينية، فراجت تلك الأناجيل في في الأوساط العربية ثم أصبحت معلومة لدى القاصي والداني. لم يقبل محمد بالمذهب القائل بالتثليث والقول بألوهية المسيح ورأى فيه ضربا من الشرك لا يخدم التوحيد الخالص الذي سعى إلى تثبيته والإستماتة في الدفاع عنه منذ بداية دعوته، فلا يمكن الإقرار بهذا المذهب وهو الذي عمل جاهدا على تقويض الوسائط التى كان يؤمن بها العرب، وبالتالي القول بالتثليث يعيدنا للمربع الأول في نظره. لقد رأى في الفكر الأريوسي مقبولية وإعتبره ضربا من التوحيد الخالص، لذلك نجد صدى هذا الفكر في القرآن، والقول بعدم ألوهية المسيح وإنكار البنوة، فإن ذلك لايعني عدم وقوع جملة من المعجزات لازمته أثناء ولادته وفي حياته، تلك المعجزات جلها ذكرت في أناجيل الطفولة. واضح أن محمد أرهفت مسامعه لهذه الأناجيل وصاغها صياغة أدبية وبلغة وجدانية منسجمة مع عقيدة الأحباش والمذهب الأريوسي. نقرأ في إنجيل الطفولة ما يلي : إن يسوع تكلم حين كان في المهد وقال لأمه :« حقا أنا يسوع إبن الله، الكلمة التى ولدتها كما بشرك جبرائيل الملاك وأبي أرسلني لخلاص

العالم» .[135] ما نلاحظه هو تغيير مفردة إبن الله بعبد الله، والثانية أفضل من الأولى لأنها تخدم مسعى الثورة الدينية والمعرفية التى جاء بها الإسلام.

يتضح أن هذه القصة المقتبسة من إنجيل الطفولة أنتجت في سياق الرد على المذهب القائل بألوهية المسيح وتبكيت أصحابه ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾﴿مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (مريم34/35)

ومن ثم فإن الله وحده هو الجدير بالعبادة ؛

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم/36)

وإعتبار وجود شركاء بينه وبين عباده هو عين الفتنة

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (مريم/37)

أمام تعنت قريش وإنكارهم أن ما يقوله محمد هو وحي خالص، نجده في كل مرة يحاول مواساة نفسه بالقرآن لكي يصمد ويصبر أمام قومه، فقريش حتما في ضلال مبين لأنهم لم يتبعوا رسولهم

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّالِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم38/39)

شأن معظم السور المكية، نجد في هذه السورة سردا لقصص الأنبياء كإبراهيم موسى إدريس وإسماعيل، وقصة إبراهيم كانت مطولة بعض الشئ مقارنة بالبقية، ما يدفعنا للتوقف أمام حيثياتها، **لأن ما حصل بين إبراهيم وقومه هو نفسه ما حصل مع محمد.** في الحقيقة فإن ذكر شخصية كالنبي إبراهيم في القرآن ليس غرضه سردا للأحداث التاريخية، النظرية التى سبق وأكدناه، وإنما تسليط الضوء على التشابه بين ما تعرض له النبي محمد وأتباعه من طرف قومه وما تعرض له غيره من الأنبياء والرسل، معنى ذلك أن الغرض الحقيقي من ترديد قصص الأنبياء – هناك من يعتبره ضربا من التكرار والحشو – **يتمثل في أساسا في تطور الحالة النفسية المحمدية، أي أن الظروف التى يعيشها سواء كانت تتسم بالخوف أو الفرح، تؤثر في نفسيته فينعكس ذلك التاثير في القرآن، فمعظم قصص الانبياء وما رافقه من تفاصيل هو في الحقيقة إنعكاس للحالة النفسية المحمدية.**

[135] المصادر الأصلية للقرآن، سان كلير تيسدال، ترجمة عادل جاسم منشورات الجمل الطبعة الاولى 2019، ص 143.

وردت قصة إبراهيم في سورة مريم كما يلي؛

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾ ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾ ﴿يٰأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيۤ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ ﴿يٰأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيّاً﴾ ﴿يٰأَبَتِ إِنِّيۤ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يٰإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ ﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيۤ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ (مريم41/48)

إنها تعابير مفعمة بالروح الوجدانية تهز العاطفة وتدغدغ المشاعر، ذات بعد رمزي تعكس الجدلية بين محمد وقريش، فانظر إلى ذلك الأسلوب اللطيف والورع الذي إعتمده إبراهيم لوعظ والده ونصحه بطريقة بعيدة عن التكبر والإستقواء يريد إرشاده وتنبيهه بكل لباقة، وذلك هو بالضبط الأسلوب المحمدي في مكة، الوعظ والإرشاد إذا ما تعرض إلى السخرية أو الأذى اللفظي، وذلك يظهر في رد والد إبراهيم الذي يمثل السلطة القريشية والأرستقراطية المكية. ورغم قسوة والده، فإن إبراهيم كان رده مؤدبا بعيدا على الإنفعال أو التهجم، وهو ما يعكس سياسة الصفح والعفو المحمدية. إلى جانب العلاقة الجدلية بين قريش ومحمد تكشف لنا هذه الآيات تعلق الأخير بقبيلة قريش وحبه الشديد لها، وقد أشرنا سابقا إلى هذه الجزئية كون محمد كان لا يريد سوى الخير لقريش وللقبائل العربية قاطبة عبر ثورة إجتماعية إقتصادية كان لابد لها من أن تمر بثورة معرفية دينية تنتهي بتجميع و توحيد الأعراب ومن ثم ولوجهم مرحلة التمدن، يقول نولدكه :« الأهم من هذا كله هو أنه كان متحمسا للغاية لإلهه ولخلاص نفوس بني قومه، لا بل لخلاص البشرية جمعاء».[136] إن دعاء إبراهيم لأبيه هو في الواقع دعاء محمد لقومه وحسرته عليهم لأنهم لم يتبعوا دربه، فنجد بعض الآيات التى تواسيه وتدعوه لعدم الحسرة على قومه، وفي المواساة دعوة للصمود والصبر

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ (مريم/65)

إن سؤال البعث بعد الممات دائما ما كان يتردد على أفواه القريشيين والمكيين بصفة عامة، سؤال شكل معضلة فكرية وعقائدية في نظرهم واعتبروه خرافة، أما الرد القرآني فكان بسيطا وبديهيا، فالإنسان قبل أن يأتي إلى الوجود كان عدما محضا، فكيف خرج من العدم إلى الوجود ؟ أيعقل أن يكون

[136] تاريخ القرآن، ص 7.

الإنسان أوجد نفسه بنفسه ؟ طبعا محال، لأنه غير قادر على ذلك، وبالتالي فإن خلق الإنسان يمثل معجزة في حد ذاته ؛

﴿ وَيَقُولُ ٱلإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ ٱلإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ (مريم67/66)

إلا أن قريش والقبائل العربية كان معظمهم كما أكدنا مرارا قبيل ظهور الإسلام ماديون حسيون، وذلك يعود لأسباب ذكرناها، أهمها مزاولة التجارة كمهنة تقوم على العلاقات بين البشر وتهتم بالدنيوي لا بالأخروي، إضافة إلى مظاهر الثراء الفاحش لدى أهل مكة، ثم إن القول بالبعث قول أَرَّقَ الأرستقراطية المكية صاحبة السلطة والجاه والمال، حيث أنهم كانوا يخافون على مصالحهم المادية وسيطرتهم السياسية والإقتصادية على مكة، فالقول أن الإنسان سيبعث ليحاسب على أفعاله فيه تهديد صريح لطبقة الأثرياء قد يفتح الباب أمام الطبقة المستضعفة لنيل حقوقهم التى حرموا منها. علما وأن فكرة البعث والقيامة التى تمثل محور اليهودية، المسيحية والإسلام، تبدو ظاهريا ذات بعد غيبي ميتافيزيقي، ولكنها في الحقيقة نشأت لخدمة البعد الإجتماعي، بمعنى أنها ترتبط بحياة الناس كبشر وبعلاقاتهم الواقعية على صعيد الواقع البشري المادي.[137] **ففكرة البعث والقيامة جاءت لترسيخ مبدأ العدالة الإجتماعية وإنصاف المظلوم ومعاقبة الظالم، فالخوف كل الخوف من إفلات الظالم أو المجرم من المحاسبة في الدنيا، لذلك كانت الحاجة النفسية والإجتماعية للإيمان بعالم أخروي ينال فيه الناس جزاءهم حتى ولو لم يتحقق ذلك في الدنيا، ومن هنا جاءت الحاجة للإيمان بالبعث والقيامة**. لقد كان التهديد بعقاب الآخرة سلاحا وظفه محمد كمحاولة لترهيب قريش واثرياء مكة، وسبق وقلنا أن الترهيب بعذابات الآخرة ميزة القرآن المكي، ومن ثم فإن البعث والحساب توجه كان سائدا في شبه الجزيرة قبيل الإسلام خاصة عند التيار الحنيفي يقول زيد بن عمرو بن نفيل :

فإن تكن لنفسي منك واقية   يوم الحساب إذا مايجمع البشر

أما قريش فمستمرة في المعاندة والمكابرة فكان مصيرها؛

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّا﴾ (مريم/68)

[137] النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، سبق ذكره، ص 387

إنزعاج محمد وشعوره بالضيم والغبن من قومه دفعه للإعلان أن الجميع سيرد النار سواء الكافرين أو المؤمنين إلى درجة أن الله نفسه أصبح خاضعا تحت قانون الحتمية، وذلك في تناقض صريح مع فكرة أن الله مطلق الإرادة والحرية ؛

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً﴾ (مريم/71)

في تفسير الطبري لفظ"واردها" يعني المرور على النار، وقيل الورود من دون الدخول، كما قيل واردها يعني الكافر من دون المؤمن.[138] يبدو الإضطراب في القول واضحا، فماذا يعني الورود من دون الدخول؟ وهل الآية فرقت بين المؤمن والكافر وأشارت أن المؤمن يمر عليها فحسب، إنه كلام يفتقر لأدنى أدوات التحليل السليم، وذلك هو المنهج الذي عودنا عليه معظم المفسرين المسلمين إلا النزر اليسير منهم، فأرادو البحث عن تبريرات للآية، لأن القول بأن الجميع بصالحه وطالحه سيرد النار قول لا يستسيغه المنطق، الآية الموالية انقذت الموقف؛

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ (مريم/72)

بعيدا عن الفهلوة، فإن هذه الآيات هي إنعكاس لحالة الرسول النفسية، فعدم الإستجابة للدعوة من طرف قريش وإمعانهم في تكذيبه دفعه لوضع الجميع في سلة واحدة، **ناهيك أن الله نفسه أصبح مسيرا لا مخيرا، إنه سخط وغضب من محمد ضد قومه، ما هو مكبوت في داخله أثر عليه، فأنتجت الآيات على هذا المنوال. ويظهر أن الكبت النفسي تختلف درجته من سورة إلى أخرى، فنجد آيات تعمل على تخفيفه وإمتصاص مستوى حدته ؛**

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ (مريم/74)

محمد يواسي نفسه بتذكر المجتمعات والأقوام السابقة التى لم تؤمن برسولها فأبادهم الله، إلا أن حالة الكبت النفسي تتغلب أحيانا على المواساة فيتحول الله بعد خضوعه للحتمية إلى مضل للعباد ؛

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدّاً حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾ (مريم/75)

[138] جامع البيان في تفسير القرآن.

أما المؤمنين الذين إهتدوا إلى الدعوة واتبعوا رسولهم؛

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَواْ هُدًى وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً﴾ (مريم /76)

قد يعترض علينا بالقول: « لما كان الله هو مصدر الهداية فطبيعي أن يكون مصدرا للضلالة » ؟ المعضلة في طبيعة الله نفسه، إذا قلنا إن الله خير محض لا يرضى لعباده الكفر، فكيف نقبل بإنه مضل للناس؟ حاولت الديانات الإبراهيمية الثلاث حل هذه المعضلة التى تسمى معضلة الشر، غير أنها بقيت تتخبط بين إله واحد جعلته خالق كل شئ ومصدر كل ما يحصل في العالم، وعليه فإنه سيكون لزاما مصدرا للشر. كلام يثير القلق والريبة قد يدفع الكثيرين لترك الدين وفقدان الإيمان بالله، لذلك جاءت الحاجة للتفكير في قوة ماورائية مسؤولة عن الشر ألا وهي الشيطان، ولكن هيهات ! إختلاق فكرة الشيطان لم تحسم المعضلة لأن ذلك سيسقطنا في القول بالمثنوية، أي وجود قوة تنازع الله في الكون، من اجل الخروج من هذا المأزق، يتحول الشيطان في بعض الآيات القرآنية إلى خادم مطيع لله ينفذ إرادته في إضلال الناس؛

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ ﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ (مريم83/84)

إن القرآن يصور الإله في بعض المناسبات على أنه مصدر الخير والشر، هو الذي يهدي ويضل، ذلك ما نقرأه في سورة فاطر ؛

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوۤءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر/8)

إن الإله في القرآن قادر على كل شئ يفعل ما يشاء لأنه ذو إرادة مطلقة، فكيف تسأل كيف يكون الله مضل لعباده وهو ؛

﴿ٱلْحَمْدُ للَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِيۤ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر/1)

لكن السؤال الذي يخالجنا عند قراءة هذه الآية : **هل الله يحمد نفسه مثلما حمد نفسه في سورة الفاتحة ؟ أم أن محمد هو من حمد الله في هذه الآية ؟ أترك المجال للقارئ حتى يفكر مليا في هذا السؤال.**

إضافة إلى غياب المعجزة الحسية، فإن المنطق الذي ساد في معظم سور الجيل الثاني – علما وأنها إبتعدت بشكل واضح عن أسلوب التقريع والتهجم– جعل من قريش تنتقد بشدة ما يتلفظ به محمد، فالله والشيطان أصبحا سيان في القرآن، يقينا فإن محمد في اعتقادها يكذب على الله، ولكن يواصل مواساة نفسه من أجل الصمود ومواصلة الدعوة؛

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ﴾(فاطر/4) ثم إن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (فاطر/7)

أما عذابهم فإنه؛

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر36/37)

وأما مغفرتهم فإنها؛

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ للَّهِ ٱلَّذِيَ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر33/34)

ولعل وصف لباس أهل الجنة وحليتهم يعود للتأثر بأفكار القديس إفرام السرياني الذي عاش في القرن الرابع للميلاد. شخصية معروفة في العالم المسيحي، راهب وشاعر سرياني برع في كتابة القصائد والترنيمات المسيحية، ألف قصيدة "منظومة الفردوس" يصف فيها لباس أهل الجنة :

وحلي الظافرين يعلو حليها   هناك متكات الأبرار المشتهاة مجلوة بهية

طزبى لمن استحق أن يرى حليتهم   وكل واحد التحف ضياء [139]

في نظر قريش والمكيين يستحيل أن يكون هذا الكلام صادرا عن إله، وهو الذي يضل العباد ويصور الجنة تصويرا حسيا ماديا محضا، لا شك أن الشياطين تلقي القرآن على محمد. مناسبة تم فيها انتاج آيات من سورة النمل لدحض تلك الإفتراءات والتخرصات؛

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل/6)

---

[139] أفرام السرياني منظومة الفردوس، ترجمة روفائيل مطر، لبنان، ص 90-100.

كلا فالقرآن لم تلقيه الشياطين لأنه؛

﴿هدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُم بِٱلآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(النمل3/2)

نجد في السورة سردا لقصص الأنبياء يختلف في تفاصيله عما ورد في السور السابقة، حيث حضي سليمان باهتمام خاص؛

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النمل/16)

والمعجزة التى حضي بها سليمان هي تسخير الشياطين والجن لخدمته؛

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْس وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل/17)

إن جذور هذه المعجزة الخرافية يعود للمعتقد الزاردشتي، حيث أن الشياطين بعد أن كانوا مساعدين للآلهة أصبحوا مساعدين للأنبياء، يقول كليمانس الاسكندري لاهوتي يوناني عاش في القرن الثاني للميلاد :« إن المجوس يفتخرون بأنهم يخضعون الشياطين تحت سلطتهم».[140]

كما نجد في الأساطير الفارسية صدى لهذه المعجزة لدى الملك جمشيد Djamshid، نسجت حوله خرافات وخزعبلات كثيرة لأنه كان سلطان العالم وكاهن الإله أهورا مازدا إله الخير المحض حسب المعتقد الزاردشتي، فالشياطين كانت تبني له القصور والحمامات والمدن. لقد إنتشرت تلك الخرافات الفارسية في الشرق وفي شبه الجزيرة وأثرت على تفكير العديد من أصحاب الديانات كالصابئة واليهودية والمسيحية. و على المنوال الفارسي نسجت المخيلة اليهودية خوارقيات نسبوها للنبي سليمان ذكرت في سفر إستير من العهد القديم أهمها تسخير الشياطين والجن والوحوش لخدمته حيث نقرأ : القدوس جعل سليمان حاكما على جميع الشياطين والأرواح.[141] أيضا نقرأ : قد عينني لأملك على الوحوش وطيور السماء وعلى الشياطين والجن.[142] تأثر الصابئة المندائيون بالخوارقيات والخرافات الفارسية، علما وأن التيار الحنيفي الذي إنبثق منه الإسلام تعود أصوله لديانة الصابئة كما وضحنا ذلك سابقا، لدى الصابئة كتاب سمي "كنزا ربا" نسب خرافة تسخير الجن والشياطين لسليمان : ويولد الملك سلمان بن داوود، فيكون ملك يهوذا العظيم، وحاكم أرشليم كانت الجن له طائعة، مشيئته خاشعة،

[140] William Jackson, Zoroastrisme Studies, p 83.+

[141]الإصحاح الرابع من الترجوم الثاني لإستير.

[142]نفسه

حتى طغى فوقعت عليه الواقعة.[143] ثم إن العرب قبل الإسلام كانوا على علم خرافة تسخير الجن لسليمان وهم من بنوا له مدينة تدمر :

إلا سليمان إذ قال الإله له   قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن إني قد أذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد[143]

يليه سرد لواقعة وادي النمل وإقتبست تسمية السورة منها ؛

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (النمل/18)

نجد تفاصيل هذه الواقعة في التراث اليهودي الأسطوري، وهي قصة خرافية ذات بعد رمزي محورها التواضع، والقصة كالتالي :

وفي مرة أخرى ضل طريقه (سليمان) حتى أدى على واد للنمل أثناء تجواله. ثم سمع نملة تأمر بقية النمل بالإسراع في الهرب، لكيلا تنسحق تحت أقدام سليمان وجنوده. وعند ذلك توقف الملك واستدعى النملة التى قالت ذلك لأخواتها وسألها عن سبب قولها، فأخبرته أنها ملكة النمل وأخبرته عن السبب. فلما سألها الملك عن سؤال آخر، رفضت الإجابة إلا بعد أن يحملها الملك ويضعها على راحة يده. فوافق ووضعها في راحة يده ثم سألها : « هل هناك من هو أعظم مني في هذا العالم » ؟ فأجابته النملة بالإيجاب فسألها عما يكون هذا الأعظم من الملك ، فأجابته النملة : « أنا أعظم منك ». عندها ضحك سليمان و سألها متعجبا : « أنت ! وكيف ذلك ؟ ». فردت النملة في ثقة :« لو لم أكن أعظم منك لما ساقك الرب إلى هنا لتحملني فوق يدك » .فالقاها سليمان مذهولا من إجابتها ثم قال لها: « ألا تعلمين من أكون أنا سليمان بن داوود ». فردت النملة في ثقة : « لكنك من تراب وإلى التراب تعود فعلام التكبر ؟ ».[144]

إن رمزية هذه القصة الخرافية التى وردت في الأدب الأسطوري اليهودي غايتها إعطاء دروس في التواضع لأن الإنسان مهما بلغت قوته وجبروته يبقي إنسانا خلق من تراب وإلى التراب يعود، ولقد كان

---

[143] كنزا ربا، الكتاب الثاني، التسبيح الأول.

[143] كتاب شرح القصائد العشر لأبو زكريا التبريزي، شرح قصيدة النابغة الذبياني، ص 315.

[144] أساطير اليهود من يوشع إلى إستر، لويس جنز بارغ، ترجمة حسن حمدي السماحي ص 157.

أن الأدب اليهودي معلوما في أوساط شبه الجزيرة، قصة حديث سليمان مع النمل كانت مشهورة، ومحمد ليس بمعزل عن ذلك الوسط، بل عرف الخطوط العريضة لهذه القصة من خلال المشافهة، يقول خلف الله :« **هذه الكثرة الكاثرة من الرسل والأنبياء عليهم السلام من أمثال آدم ونوح و إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسليمان وداوود ويوسف وموسى وأيوب ويونس والياس وغيرهم لم يكونوا مجهولين في بيئاتهم الأولى وإنما كانوا معروفين، تعرف كلا منهم بيئته وتقص أخباره على بنيها وتنقل هذه الأخبار إلى الأمم المجاورة، ونعتقد أن ليس هناك من يدعي ان الذي قد حدث غير هذا وأن هذه الأمور من المسائل التي إستأثر الله بعلمها وأنها من الغيب الذي لا يعرفه إلا من يطلعه الله عليه لأن هذا القول مما يخالف طبائع الأشياء** » .[145]

رفض خلف الله فكرة أن ما حصل مع الأنبياء والرسل في بيئتهم يعد ضربا من الغيب، بل الاحداث التى عاشوها نقلت بالتواتر إنتشر صداها لتصل إلى البلدان المجاورة. تأثر محمد بهذا القصص ورأى فيها بعدا أخلاقيا يربي الناشئة على التواضع، غير أنه لم يقتبسها كما ذكرت في أساطير اليهود وإنما أسقط تفاصيل عديدة وهنا يكمن الإبداع الأدبي والفني الذي جاء به القرآن.
بعض الاكاديمين العرب والمستشرقين الغرب، كذلك المؤرخين والمنتقدين للأديان، إعتبروا أن القرآن قام بنسخ حرفي لقصص التوراة خاصة فيما يتعلق بالأنبياء والرسل ولم يأتي بجديد. نحن لا ننفي أن القرآن تأثر ليس فحسب باليهودية والنصرانية بل بالمعتقدات الزاردشتية والصابئية وكذلك المانوية، وتلك هي سنة الحياة، لا يوجد تفكير أو معتقد نشأ من فراغ ومن دون ممهدات ساهمت في نضجه وولادته، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا توجد بصمة جديدة إبتكرها القرآن، لقد نسخ القصص الأسطوري التلمودي التوراتي، ولكن غَيَّرَ تفاصيل كثيرة لكي تنسجم مع العقلية العربية والثورة الإجتماعية المعرفية الدينية التى إنطلقت مع محمد.

إختصر القرآن الحوار الذي دار بين سليمان والنملة وصاغه بأسلوب أدبي غرضه هز الوجدان وتحريك المشاعر، فهذا الحوار لا يرمي إلى تعليم المتلقي التاريخ بل تم إدخال معاني أدبية بلاغية غرضها إستئثار العاطفة وتحريك الأحاسيس، فانظر ردة فعل سليمان مما قالته النملة وكيف رد عليها ؛

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيۤ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيۤ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ (القرآن/19)

[145] الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 254

لو قارنا بين النسخة التوراتية والقرآنية لوجدنا الثانية أفضل، ببساطة لأنها موجزة العبارة تحتوي على ألفاظ ومعاني تستهوي المستمع وتجلب إنتباهه. لا فائدة من ذكر التفاصيل لأن معظم القصص القرآني فيما يتعلق بأخبار الأنبياء والرسل لم يوجد لا في الزمان ولا في المكان وبالتالي هو أقرب إلى الخرافة، وربما سيرفض المؤمن وصف قصص القرآن بالخرافة على أنه فيه تهجم وتعدي وإستهزاء، والعديد من أصحاب الفكر الحر والملحدين، يصفون الكتب المقدسة على أنها مشيج من الخرافات والأساطير، وخطأهم الكبير هو أنهم يجهلون معنى الخرافة، لأن معظم الناس لديها إنطباع سلبي حول مصطلح الخرافة.

إن معنى الخرافة هو حكاية كتبت لتقرأ على الملأ، وهذه الحكاية ألفت لكي تقص سير حياة القديسيين (Hagiographie) وهم أشخاص نجدهم في مختلف المعتقدات والديانات، بلغوا درجة عالية من الوقار والورع والزهد، سعوا جاهدين إلى الإبتعاد عن ملذات الحياة وإنغمسوا في الروحانيات، ففي الديانة المسيحية تُقرأ الخرافة عند أداء الصلوات سبع مرات في اليوم، لذلك فإن معنى الخرافة هو ما يجب أن يقرأ أثناء الصلاة.[146] مع مرور الزمن تحديدا القرن السادس العشر ميلادي، تغير هذا المعنى ليصبح حكاية ذات بعد عجائبي وخارق للعادة أحداثها التاريخية تعرضت للتبديل والإضافات تحت وطأة المخيلة الجماعية والإبداع الفني الأدبي الشعري، فالذين يقصون سير حياة القديسيين يوضفون الخرافة ليملأوا تلك الحلقات المفقودة من حياتهم، أي أن جهلهم بمعظم محطات حياة القديسيين دفعهم لتوظيف الخرافة. إذن فالخرافة هي طريقة أدبية غرضها ليس التاريخ ولكنها إشباع للجان الروحاني والأخلاقي. إن هذا المعني للخرافة يكشف أنها ليست بحكاية حقيقية، بل نسيج من المخيلة الإنسانية لخدمة الوازع الروحي والأخلاقي، وذلك ما تعكسه قصة سليمان والنملة والحوار الذي دار بينهما، غرضه إعطاء درس في التواضع والوقار لا سرد التاريخ. لن نبالغ لو قلنا إن قصص القرآن خاصة فيما يتعلق بحياة الرسل والأنبياء هو محض خرافة، إذ سبق وأكدنا أنه لا وجود تاريخي لهؤلاء،* وعندما نقول خرافة فإن ذلك لا يعني إلقاء هذا القصص جانبا والضرب عنه صفحا، ولكنني أدعو الناشئة لقراءته وأخذ الموعظة والعبرة منه على أنه دروس في الأخلاق وليس وحيا سماويا. إن القول بوجود الخرافات في القرآن ليس فيه أدنى حرج، لأن محمد وظف الخرافة لمحاربة الخرافة كما حصل في سورة الجن.

[146] https://fr.wikipedia.org/wiki/L%C3%A9gende.

*هنا اتحدث عن أنبياء بنى إسرائيل، ولكن ظاهرة النبوة قد تكون وجدت حقا فالأنبياء سبق وقلنا أنهم مصلحون.

مباشرة بعد واقعة النمل تسرد السورة أحداث مملكة سبأ التى تحكمها إمرأة تدعى بلقيس، ولقد علم سليمان خبر هذه المملكة عن طريق طائر الهدهد. نجد مرة أخرى تفاصيل هذه القصة الخرافية في الأدب الأسطوري اليهودي (الترجوم الثاني لسفر أستير). [147]إن الاساطير والخرافات اليهودية كانت معلومة في الأوساط العربية، وطبيعي أن يتأثر القرآن بها، ولكن لم ينقلها بحذافيرها، إنما بتصرف، فمثلا كل خبر يشتم منه الإساءة لشخص النبي يتم إسقاطه ، فالقرآن إقتبس الأخبار التى تخدم الوازع الروحي والأخلاقي للخرافة، علما وأن تفاصيل خرافة مملكة سبأ وطائر الهدهد وكيف بعث إليهم برسالة ثم سلب عرش بلقيس متداولة أيضا لدى العرب، وذلك يدل على التواشج العميق بين الأدبين اليهودي والعربي قبيل الإسلام، فأمية إبن أبي الصلت وهو ينتمي إلى التيار الحنيفي ومدعي النبوة قال :

من قبله كانت إبليس عمتي   ملكتهم حتى أتاها الهدهد[148]

إذا كان القرآن قد نقل خرافة مملكة سبأ وسلب عرشها من سفر إستير اليهودي، إذن ما الجديد في هذا النقل ؟ ليس كما يدعي أصحاب الفكر الحر من ملحدين ولا دينيين كون القرآن هو ضرب من القص والتلصيق، إقتصر فحسب على نقل الأساطير والخرافات اليهودية، قول غير متوازن وفيه كثير من الإجحاف. إن الخرافة في القرآن وقع صياغتها صياغة أدبية في غاية من الروعة والحكمة، حيث تم إدخال ألفاظ ومعاني تعكس الحالة النفسية للمتكلم سلوكه و أخلاقه، وهنا تكمن مزية الأدب عندما يصاغ بألفاظ ومعاني تعبر عن الإنفعالات والأحاسيس والعواطف البشرية، يقول إبن الأثير:« وبعد فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البشر، فالألفاظ الجزلة تتخيل من السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج» .[149] عندما عاد الهدهد إلى سليمان محملا بخبر مملكة سبأ وشعبها الذي كان يسجد للشمس، إستنكر سليمان ذلك وتم صياغة رده صياغة تستأثر العواطف وتثير الرهبة والخشوع وتكشف في آن عن أخلاق سليمان كملك ذو سلطة ونفوذ يدافع بقوة عن فكرة عبادة الله وحده؛

﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (النمل 26/25)

---

[147]أساطير اليهود، من يوشع إلى إستير، ص 145-150

[148]انظر ديوان أمية ابن أبي الصلت تحت عنوان "قد كان ذو القرنين قبلي مسلما".

[149]إبن الأثير، المثل السائر، ص 69 .

أما رد بلقيس على كتاب سليمان الذي أرسله عن طريق الهدهد طالبا منها ومن قومها الإذعان والخضوع فقد تمت صياغته بطريقة تكشف عن شخصية بلقيس كملكة تأخذ بالرأي الآخر في تسيير شؤون مملكتها؛

﴿قَالَتْ يٰأَيُّهَا ٱلْمَلأُ إِنِّيۤ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿قَالَتْ يٰأَيُّهَا ٱلْمَلأُ أَفْتُونِي فِيۤ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (النمل32/29)

رد القوم فقد تمت صياغته بطريقة تكشف عن مدى سلطة ونفوذ بلقيس على قومها كملكة مطاعة ومهابة؛

﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل/33)

ذلك هو مغزى قصص الأنبياء القائم على الخرافة في القرآن، توظيف ألفاظ ومعاني تستأثر العواطف وتحرك المشاعر، توحي بالعبرة والعظة.

بعد قصة سليمان وبلقيس يسرد القرآن قصة النبي صالح ولوط. كان قد ذكر القرآن بعض تفاصيل قصة صالح في سورة الحجر، ولكن في سورة النمل يوجد إختلاف في المعاني والألفاظ؛

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿قَالَ يٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوۤاْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ (النمل 53/45)

إن الغاية من سرد قصة صالح ليس التاريخ، بل الترهيب والتخويف وأخذ المواعض والدروس، فضلا عن تسليط الضوء على الحالة النفسية المحمدية. كان قصص الأنبياء بمثابة المطية للتنفيس عن أزمة نفسية تتمثل في ذلك الرفض الذي لقيه من طرف قريش والمخاطر الجدية التى أحاطت بالدعوة الإسلامية طيلة الفترة المكية، والتسعة رهط المذكورين في الآية هم في الحقيقة إشارة مبطنة

لمحاولة التصفية الجسدية في مكة كشخص يهدد نفوذ الأرستقراطية المكية ومصالح قريش الإقتصادية. عندما يتلو المسلم هذه الآيات سواء في بيته أو في المسجد، يقشعر بدنه وتتحرك مشاعره وتستأثر عواطفه، يشعر بالرهبة والخوف من العذاب الذي لقيه قوم صالح ويرجو من خلال إيمانه الطمأنينة والأمن. الجدير بالملاحظة فإن قصة موسى التى وقع سردها قبل قصة سليمان تؤكد ما قلناه، كون أن قصص الأنبياء غرضه التخويف والترهيب إضافة إلى بعث الأمن والرجاء فالآية؛

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يٰمُوسَىٰ لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل /10)

ليست بقول أو فعل حصلا في التاريخ، إنما هو مواساة للنبي محمد، أي أنه يستثمر في أزمات الأنبياء السابقين مذكرا بها ممن إتبعه أثناء بدايات الدعوة من أجل التخفيف عليهم وشذ عضدهم. قصة لوط تختلف هي أيضا عما ذكر في سورة الحجر حيث نجد إختلافا في رد القوم ؛

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوۤاْ أَخْرِجُوۤاْ آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل/56)

إختلاف جاء ليخدم حالة النبي النفسية عندما حاولت قريش مضايقته وطرده من مكة، وهنا نستدل مرة أخرى بقول خلف الله فيما يتعلق بقصة صالح ولوطا في سورة النمل :« وإني لأعتقد أن هاتين القصتين نزلتا في الوقت الذي كان يأتمر فيه المشركون بالنبي عليه السلام وهذا هو الواضح من مناسبة قصة صالح ومن الحديث عن المدينة وما فيها من تسعة رهط وعن التقاسم و التبييت لكل ما حدث في مكة إذ هذه تكاد تكون صورة لما حدث من قريش ويذكره المؤرخون وأصحاب السيرة عند حديثهم عن أسباب الهجرة، ثم هذا الذي هو يتضح من حديث قوم لوط ومحاولتهم إخراجه من القرية. **إن المقصود من هذا القصص فيما نعتقد ليس إلا بث الثقة والطمأنينة في نفس النبي عليه السلام وأن الله حافظه وناصره ومهلك أعدائه** ».[150]

بعد سرد وجيز لقصص الأنبياء تطرح سورة النمل جملة من الأسئلة، أسئلة ذات طابع فلسفي جدلي منطقي، وهي منسجمة تماما مع الاسلوب الأدبي لسور الجيل الثاني، الخطاب الهادئ الذي يعتمد على البراهين المنطقية للرد على مشركي قريش؛

---

[150] الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 263

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱلله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوۤءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل 71/59)

بعدها تتطرق إلى مسألة البعث المعضلة الحقيقية التى أرقت محمد وقريش، فالعقلية المكية مثلما أوردنا مرارا، كانت ترى في البعث خرافة، يستحيل أن تكون منسجمة مع العقل والحس السليم، أما محمد فكان يرى أن البعث مسألة منطقية لو آمن الإنسان بوجود إله واحد قادر على كل شئ ذو إرادة حرة ومطلقة؛

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ﴾ (النمل 68/67)

كان الرد القرآني ينضح حسرة وضيما تجاة قريش، لقد سعى جاهدا لإقناعها بالبعث وأنه رسول يوحى إليه من عند الله، يريد منهم الإيمان به كسبيل للخلاص، ولو آمنوا به ستفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وفي ذلك الرد استمرار في مواساة نفسه بالقرآن ؛

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النمل 70/69)

ثم يأتي الإعلان لأول مرة أن مادة القرآن الرئيسية تتمثل في الحديث عن أحوال بني إسرائيل كأمة لها إرث ديني ولاهوتي ضارب في القدم؛

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيۤ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل/76)

دليل يكشف عن تأثر محمد بطريقة غير مباشرة بالتراث الأسطوري اليهودي وبخرافاتهم، حيث عمل على إقتباس الخرافات الدينية اليهودية، طورها وحسنها من أجل خدمة الدين الجديد. شكلت الفئة اليهودية تحديا كبيرا أمام دعوة محمد، لذلك سنرى مع سور الجيل الثالث (الفترة المكية

المتأخرة) محاولات متكررة لاستدراجهم والتقرب منهم من خلال آيات القرآن، سياسة ستترسخ دعائمها في الأشهر الأولى في يثرب.

لم يشفع سرد قصص الانبياء ومعجزاتهم لمحمد، بل إشتد الإستهزاء به، كما أن تركيزه على موسى وما حدث معه من معجزات خرافية، إضافة إلى إعلانه كون القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون أثار حفيظة قريش، رأت أن العيون المحمدية بدأت تتجه صوب يثرب مستقر القبائل اليهودية وأبناء العمومة. ومن ثم فإن سرد قصص الانبياء زاد الوضع تعقيدا، لا يفتأ يذكر معجزات موسى وعيسى وسليمان وصالح ولوط ولم يأتي ولا بمعجزة واحدة أسوة بأنبياء بني إسرائيل. ألست برسول الله ؟ تساءلت قريش، إنك تقول إن موسى وعيسى وسواهما من الرسل والأنبياء قد أثبتوا رسالاتهم بمعجزات وأنت إذا كنت حقا مثلهم وأعظم منهم أثبت لنا ذلك بمعجزة.[151] **سؤال شكل صدمة كبيرة لمحمد وللمسلمين من بعده، وسيكون الوازع الرئيسي للمؤرخين وكتاب السيرة لحشر حياته بالخزعبلات والشعبذات على مدى قرون.**

إصرار قريش على الإيتان بمعجزة كان من بين العوامل الرئيسية أدى إلى انتاج آيات من سورة الإسراء، كان الرد القرآني فيها حاسما جازما، المانع من إرسال الآيات هو كونها لم تعد تجدي نفعا، لقد كذب بها الأولون وأصبحت فاقدة الصلوحية؛

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ (الإسراء/59)

قطعا ! لم تقتنع قريش بهذا المنطق ورأت فيه تهربا من الطلب، ذلك وأن الله ما انفك يبعث الرسل والانبياء على مدى قرون إذا لم نقل آلاف السنين، مؤيدا رسالاتهم بخوارقيات، كل الاقوام كذبت رسلها باستثناء قوم يونس؛

﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلخِزْيِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس /98)

[151] الدين في شبه الجزيرة، ص 138

على الرغم من تكذيب الرسل والأنبياء الذين رافقتهم معجزات حسية، غير أن الاقوام كفروا برسالاتهم وسخروا منهم، فلماذا لم يتوقف الله عن إرسال المعجزات مع موسى أو مع لوط أو مع سليمان ؟ تساءل في محله جاء عل لسان قريش؛

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلاۤئِكَةِ قَبِيلاً﴾﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء93/91)

يقينا ! لقد بالغت في طلبها الذي ينافي الحس السليم، فمحمد رجل عادي يخضع للنواميس الطبيعية والظوابط الكونية ولا يقدر على خرقها، إنه بشر كجميع البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ (الفرقان/20)

كلف محمد بمهمة ألا وهي تبليغ الرسالة، فجاء الرد؛

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء /93)

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ (الإسراء /94)

ردود نفهم من خلالها أن الرسالة المحمدية لم تكن مؤيدة بمعجزة حسية على غرار انبياء بني إسرائيل، لقد تمنى محمد من صميم قلبه تأييده بالمعجزة، راجيا إلهه بين الفينة والأخرى تنزيلها، لكن ما الفائدة منها إذا علم هذا الإله مسبقا أنهم لن يؤمنوا؟ ذلك هو المنطق المحمدي الذي نقله القرآن، منطق يتضمن ثغرة كبيرة كما سنرى. **لو سلمنا جدلا أن الله توقف عن تنزيل المعجزات لأن قريش والعرب لن يؤمنوا بمحمد، فلماذا إذن أرسل محمد أصلا كرسول إلى العرب ؟ فهم لن يؤمنوا به ولو أيد بمعجزة، فهل سيؤمنوا به وهو بلا معجزة؟*** يرفع هنا محمد التحدي، مؤكدا أن القرآن هو معجزته الخاصة؛

*في سورة الانعام التي تنتمي إلى الفترة المكية المتاخرة نجد أن الهداية بمشيئة الله ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إذن وظيفة الأنبياء والرسل ستصبح شكلية وذلك ضرب من العبث. لكن في سورة النساء وهي متاخرة عن الانعام أنتجت في المدينة نجد أن الله أرسل الأنبياء والرسل لئلا يكون للناس على الله حجة ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ولكن أليس الله هو الحجة البالغة ؟ أي ابلغ من الرسل والأنبياء.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾(الإسراء/88)

قبلت قريش التحدي المحمدي فهو مفتر على الله؛

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (هود/13)

كيف لا يكون قد افتراه؟ فالقرآن يحاول مناقشة ومجادلة الكافرين ولكنه يسقط في تناقضات لا يقبلها عقل ولايستسيغها منطق، وهذا ما دفع الكثيرين للقول بأن آيات كثيرة في القرآن متناقضة وغير سوية، والإجابة على هذه المعضلة في رأينا هي كما أكدنا، منطق القرآن منطق وجداني، يحاول التخفيف من وطأة الأزمة النفسية التى عانى منها محمد، إنه رسول بلا معجزة.

نقرأ في مفتتح السورة ؛

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقْصَا ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلبَصِيرُ﴾ (الإسراء/1)

المؤرخون والمفسرون المسلمون الأوائل عقدوا آمالهم على هذه الآية كبرهان قاطع تثبت أن لمحمد معجزة حسية ألا وهي الإسراء والمعراج، هذا التناقض بين بداية السورة وآخرها يطرح العديد من التساؤلات. بعض المستشرقين ذهبوا إلى القول إن القصة وقع حبكها بعد وفاة النبي محمد من طرف كتاب السيرة تحت وقع التراث الديني اليهودي والزرادشتي، فاختلقوا معجزة حسية وجعلوه كأنبياء ورسل بني إسرائيل، والسبب الرئيسي الذي دفعهم لإعلان ذلك يتمثل في عدم وجود المسجد الأقصى زمن محمد، فالمسجد تم بناءه بعده بعقود من طرف الأمويين، فكيف يقال إن النبي محمد أسري به إلى المسجد الأقصى. آخرون رأو أن الآية لا تتحدث أصلا عن محمد، فلفظ "عبد" قد ينطبق على شخصية أخرى وليس بالضرورة نبي الإسلام، ربما قصد به القرآن موسى، لأن حدث الإسراء في القرآن إرتبط بقصة خروجه وقوم بني إسرائيل من مصر، ولعل ما يؤكد هذه الفرضية الآيات؛

﴿وَآتَيْنَآ مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلآخِرَةِ لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴾

لا شك أن هذه الآيات محورها هو ما حصل مع بني إسرائيل وما تلته من تبعات، إذ نقل أبو داوود في كتابه المصاحف، أنه في مصحف إبن العباس سورة الإسراء كانت تسمى بسورة بني إسرائيل.

إستبعد بعض المستشرقين حصول معجزة الإسراء والمعراج واعتبروها متأخرة عن القرآن، واحتجوا بعدم تناسق الآية الأولى من السورة مع ما تلاها من الآيات، هذا التناسق يذكرنا بمبدأ الترابط بين سور القرآن من خلال فرض تسلسل تاريخي دقيق يساعدنا على فهم الحركة التطورية للإسلام وأحكامه منذ بدء الدعوة إلى أواخرها. إلا أن هذا الترابط منعدم في مجمل سور القرآن وآياته، وذلك يعود بالأساس كون القرآن لم يتم تدوينه من طرف شخص قبع في غرفته وانكب على ترتيب آياته وتبويب سوره، بل مر بمراحل تطورية، بداية من مكة إلى المدينة، أو ما يعبر عنه في التراث الإسلامي نزل منجما عبر مراحل. ولئن نزل القرآن منجما في أماكن مختلفة وأزمنة متباعدة، فإنه من الطبيعي أن نجد آياته غير مترابطة زمنيا ومكانيا، كنا قد أشرنا أن القارئ للقرآن يشعر أحيانا بوجود قفزات غريبة بين الآيات، وتلك إشارة صريحة تكشف عن صحة جمع آيات وسور القرآن عبر مراحل، فنجد آيات قد وضعت في موضع غير الذي يجب أن توضع فيها، طريقة ترتيب الآيات في سورة الإسراء تؤكد هذه النظرية، فبعد الإسهاب في الحديث عن بني إسرائيل نقرأ الآيات التالية؛

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ ﴿وأَنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ ﴿وَيَدْعُ ٱلإِنْسَانُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ ٱلَّيلِ وَجَعَلْنَآ آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء15/9)

الآية 9 و 10 لا يمكن الفصل بينهما، لأنها تبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بنيل أجر كبير في الآخرة، الآية 10 تتوعد الكافرين بعذاب أليم. أما الآية 11 و 12 فلا رابط واضح بينهما، يمكن تقديم الآية 12 على الآية 11 فنقرأ ؛

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيلَ وَٱلنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ ٱلَّيلِ وَجَعَلْنَآ آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ ﴿وَيَدْعُ ٱلإِنْسَانُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ عَجُولاً﴾

نلاحظ أن المعنى يستقيم ولا وجود لخلل أو إرتباك في القراءة أو السياق، والأمر يختلف بالنسبة للآيتين 13 و 14 لأنه يوجد رابط بينهما ألا وهو الكتاب الذي سيلقاه الإنسان منثورا يوم القيامة. أما الآيات 16 و 17 و 18 و 19 ؛

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾

الآيتين 16 و 17 لا يوجد رابط واضح بينهما فلو قدمنا الأولى عن الثانية فإن المعنى يستقيم، أما الآيتين 18 و 19 فيوجد رابط بينهما يمنعنا من تقديم الأولى عن الثانية. ما يمكن استخلاصه من قراءة هذه الآيات هوغياب الترابط المعنوي بينها وليس كلها طبعا، ذلك وأنه وقع انتاجها في مناسبات متباينة، محكومة بظروف بيئية وإجتماعية ونفسية خاصة. إذن، فهل يمكن القول أن الآية الأولى من سورة الإسراء نشأت في ظرفية تختلف عن ظرفية نشأة الآيات الموالية ؟ إن هذا القول هو الأقرب إلى الصواب، لأن الآيات القرآنية تنشأ حسب الظرفية والحالة النفسية المحمدية والتجربة التى عاشها. يمكن القول عاش أن النبي محمد عاش حقا تجربة الإسراء ثم تم ربطها بالمعراج، إلا أنها تعرضت للتعديل لخدمة أغراض سياسية صرفه في عهد الأمويين.

نحن نرجح أن نبي الإسلام عاش تلك التجربة الفريدة من نوعها، الرواية الرسمية تؤكد على أنها معجزة حسية واقعية، أي تجربة عاشها النبي أثناء اليقظة، وهذا ما قد يكون مجافيا للصواب، لأن التجربة ليست سوى رؤيا حصلت أثناء النوم مثلها مثل حادثة الوحي في غار حراء. نقل إبن هشام رواية الحسن قال : قال إبن إسحاق : وحدثت عن الحسن أنه قال : قال رسول الله ﷺ : بينا أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل، فهمزني بقدمه، فجلست فلم أرى شيئا، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست، فلم أرى شيئا، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثالثة، فهمزني بقدمه فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج بي إلى باب المسجد، فإذا دابة ابيض بين البغل والحمار، في فخذيه

جناحان يحفز بهما رجله، يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثم معي لا يفوتني ولا أفوته.[152] ويعتبر الحسن الآية رقم 60 من السورة دليل واضح على أنه ما حدث للنبي من إسراء ومعراج لا يتعدى الرؤيا المنامية؛

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾

أما ابن إسحاق فقد نقل رواية عائشة قال : وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه.[153] ونقل ابن اسحاق رواية معاوية قال : حدثني يعقوب بن عتبة بن مغيرة ابن الأخنس : أن معاوية ابن أبي سفيان، كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال : كانت رؤيا من الله تعالى صادقة.[154] ونقل ابن اسحاق رواية ابن الهانئ عن الإسراء قال : وكان فيما بلغني عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها واسمها هند في مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول : ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا (أيقظنا) رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين.[155]

إن حادثتا الإسراء والمعراج هما رؤيا منامية يشبهان نوعا ما حادثة الوحي في غار حراء، وعندما نقول رؤيا نقصد حلم وليس هلوسة أو هذيان، فالحلم هو جملة من التمثلات الذهنية représentations mentales يراها النائم، أما الهلوسة والهذيان فيحدثان في اليقظة. في غار حراء قلنا إن محمد كان بين اليقظة والمنام حالة من الإنجذاب الروحي، أما في حادثة الإسراء كان نائما وذلك ما أكدته الروايات المنقولة من طرف ابن إسحاق، والحلم سيكون المفتاح لفك لغز ما يسمى بالإسراء والمعراج، ولقد قمنا بفك لغز ظاهرة الوحي عن طريق علوم الإدراك. عندما ندرس الحلم فإننا بصدد دراسة البنية النفسية والذهنية للإنسان، ولا نقصد هنا تأويل الأحلام والبحث عن رمزيتها كما نجد ذلك في جل أدبيات الثقافات والحضارات الإنسانية، فتأويل الأحلام ليس بممارسة علمية لأنه ضرب

[152] سيرة إبن هشام، الجزء الثاني ص 48-49.
[153] ص 50.
[154] نفسه.
[155] ص 52-53.

من التكهن والتخمين، وبالتالي سوف نحاول دراسة الحلم من ناحية علمية محضة انطلاقا من علم الأحلام l'orinologie.

يعيش الحالم أثناء حلمه أحداثا ليست واقعية وموضوعية، بل تكون صادرة عن ذاته، يتيه في عالم الأفكار وتجول ذاته في أمواج التخيلات وأسراب التمثلات، لذلك فإن المعنى الحقيقي للفظ حلم هو الهروب évasion هروب الذات وليس الجسد، ولقد حظي الحلم منذ القديم باهتمام كبير من طرف الروحانيين والزهاد والرهبان، ذلك وأن الحلم في نظرهم هو الطريق الذي من خلاله يمكن التجرد من العالم المادي واختراق الزمان والمكان من أجل الوصول إلى عالم الماورائيات. يعد الحلم ركيزة أساسية في الشامانية، لأنها تعتقد أن الإنسان مكون من جسد وروح، الروح تغادر الجسد أثناء النوم لتجول في الماورائيات.[156] الحلم يمثل طقس مرور في الشامانية، أي أن الشاماني من خلال أحلامه يكتسب جملة من المعارف والخبرات تهيئ روحه في عالم الماورائيات، تمر روحه بمجموعة من الإختبارات، تلتقي مثلا بإله العالم السفلي أو إله البحار، وذلك من أجل تحضير الروح للمكانة الإجتماعية التى سيحظى بها الشاماني. يحتل الحلم في التوراة بعهديها القديم والجديد مكانة خاصة، لأنه السبيل الأمثل لإقامة جسور التواصل بين المقدس والإنسان، نقرأ في سفر العدد الإصحاح 12 " إذا تواجد فيما بينكم نبي، فبالرؤيا سأنكشف له". إذن يعتبر الحلم من المنظور الديني الغيبي الطريق الملكي لتلقي الوحي والإتصال بالآلهة.

بقي الحلم على مر التاريخ ظاهرة معقدة وغير مفهومة، البعض كان يرى فيه علامة سلبية مصدرها شيطاني، والبعض الآخر يرى فيه علامة ايجابية تبشر بالخير والتنبؤ بما سيحدث في المستقبل. واضح أن هذا القول بقي منحصرا داخل دائرة الفهم السحري الخوارقي لظاهرة الحلم، إلا أن علم النفس وخاصة علم النفس السريري الذي تأسس بزعامة سيغموند فريد في النصف الثاني من القرن العشرين، أثبت أن الحلم ظاهرة غير معزولة عن الواقع التجريبي، فالحلم له أسبابه المادية والوضعية التى يمكن تشخيصها بعيدا عن المقاربات السحرية والغيبية. خلصت بحوث واستقراءات فرويد في مجال الحلم على أن هذا الأخير ليس سوى محاولة لإشباع الرغبات المكبوتة، ففي نظره الحلم يمثل الطريق الملكي لاستكشاف ودراسة اللاوعي، الحلم ليس بظاهرة سحرية بلا معنى بل إنه تحقيق لرغبة أو أمنية.[157] هذه الأمنية هي تصديق قريش محمد، كما أن نداءه في تلك الفترة بدأ يركز أكثر على أهل الكتاب، فمع مرور الأيام والشهور بدأت الأنظار المحمدية تتجه شيئا فشيئا نحو اليهود والنصارى،

---

[156] Henri elienberger, A la découverte de l'inconscient, histoire de la psychiatrie dynamique.
[157] Sigmund Freud, Cinq lecons sur la psychanalyse.

اليهود شكلوا استثناء لأنهم كانوا من ذوي النفوذ والثورة في يثرب، ومن ثم فإن سورة الإسراء تمثل نهاية فترة وبداية فترة جديدة ستنطلق مع سور الجيل الثالث وهي الفترة المكية المتأخرة. إننا نقترب من حدث الهجرة، فرار محمد وأنصاره من الإضطهاد في مكة واللجوء إلى يثرب، لأنه علم أن الدعم المعنوي والعسكري سيجده هناك، لعل ذلك ما يفسر لماذا أعلن في أن جوهر القرآن هو سرد لتاريخ بنى إسرائيل وما حصل معهم من مخاريق.

إن القرآن المكي يتضمن ترديدا واضحا لقصة النبي موسى وفرعون والأحداث الدراماتيكية لقوم سمي ببني إسرائيل وما تتخلله من قمع واضطهاد، تنكيل واستعباد. رأى محمد في قصة موسى نموذجا يحتذى به في الصبر على الأذى والكفاح من أجل الدعوة

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف / 128)

لذلك أكدنا على أنه كان متأثرا إلى حد كبير بموسى إذ اعتبره كأخ له من دون سائر الأنبياء، واستنتج فرويد أن تأسيس الإسلام يبدو وكأنه تكرارا مختصرا لتأسيس الديانة اليهودية واقتداء بها، اعتزم محمد منذ السنوات الأولى من الدعوة أي طيلة الفترة المكية، تكييف اليهودية للإسلام، وبناء عليه نفهم السبب وراء اختياره بيت المقدس كقبلة للصلاة قبل الهجرة، إن في ذلك رسالة خفية للنصارى واليهود أن مبادئ الإسلام الرئيسة لا تتعارض مع جوهر اليهودية والنصرانية، بل إنه إمتداد لهما وتأكيد لما جاء في كتبهم، وتسمية الله بالرحمان في بعض سور الجيل الثاني جاء لخدمة هذا الغرض، لأن الرحمان هو إله نصارى ويهود اليمن.[158] لم يتوانى القرآن في تعظيم الحدث التوراتي المتمثل في خروج بني اسرائيل بقيادة موسى بعد فلق البحر وإغراق فرعون وجيشه ثم توريثهم مشارق الأرضها ومغاربها؛

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف / 137)

ذلك هو مكنون محمد، أو دعنا نقول ماهو مكبوت في نفسه، اخفاقه في إقناع قريش ثم محاولة تفاديه بكسب ود أهل الكتاب، فكانت النتيجة أن انبجس ذلك المكبوت في الحلم. في الحلم أسري بمحمد إلى بيت المقدس، وهنا يجب التوقف عند هذه الجزئية.

[158] Essai de synthèse de l'œuvre majeur de Maxime Rodinson « Mahomet », p 6

نقل ابن اسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتي بالمعراج، ولم أر شيئا قط أحسن منه.[159] لم يقل محمد المسجد الأقصى ولكن بيت المقدس، بالعبرية "بات همقداش"، والعرب قبل الإسلام كانوا يعتقدون أن بيت المقدس هو الهيكل الذي بناه سليمان وأنه لا يزال موجودا كبناء وليس كموقع، حيث نفهم من قوله –حسب ما نقله كتاب السيرة – أنه كان يعتقد أن هيكل سليمان موجود في زمانه، وذلك ما نقرأه في السيرة الحلبية : قال ﷺ : ثم انتهيت إلى بيت المقدس فأوثقته (البراق) بالحلقة التى بالباب، أي باب المسجد. نلاحظ هنا وقوع ارتباك وخلط كبير بين بيت المقدس والمسجد الأقصى، وجلي أن التفسير الأخير في الجملة أضافه الحلبي وليس قول محمد، يبدو أن الحلبي لا حظ التناقض بين عبارة بيت المقدس والآية الأولى من سورة الإسراء، حسب الآية أسري بمحمد إلى المسجد الأقصى وليس بيت المقدس، ويوجد فرق كبير بينهما، فلا يمكن اعتبار المسجد على أنه بيت المقدس، ومع ذلك أراد الحلبي ايهام المتلقي أن بيت المقدس هو نفسه المسجد الأقصى، وفي تفسير النسفي نجد أن بيت المقدس هو المسجد الأقصى معترفا أنه لم يكن هناك مسجد. أما كيف تولد الإعتقاد لدى محمد كون بيت المقدس (هيكل سليمان) موجود في زمانه ؟ فذلك عن طريق أبي بكر الذي كان يعتقد أن هيكل سليمان لا يزال موجودا، لأنه عندما وصف محمد له بيت المقدس بعدما أسري به، رد عليه قائلا: صدقت، أشهد أنك رسول الله.

ولكن تاريخيا بيت المقدس (هيكل سليمان) لم يكن موجودا زمن محمد والصحابة، فقد تم تخريبه زمن الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول ميلادي، وعندما دخلت الجيوش الإسلامية القدس زمن عمر ابن الخطاب، وجدوا الموقع الذي كان قائما فيه بيت المقدس مهجورا وتحول إلى مكان ترمى فيه النفايات، غير أن عمر أمر بتنظيفه ثم صلى فيه. إذن ما الذي دفع بأبي بكر التأكيد ضمنيا على وجود بيت المفدس عبر تصديقة لرواية النبي ؟ إن أبا بكر لم يزر بيت المقدس ولو زاره لعلم أنه غير موجود في زمانه وما دفعه لتأكيد رواية النبي هو فقط لإظهار صدقه أمام قريش التى كذبته، يمكن القول أن أبا بكر مارس الكذب لمساندته، ولكنه كذب من أجل المصلحة العامة، وكما يقول المثل الشعبي التونسي " الكذب لقضاء المصلحة جائز".

إذا اعتبرنا حادثتي الإسراء ثم المعراج رؤية منامية فلن تكون هناك مشكلة لو قلنا إن محمد أسري به إما إلى بيت المقدس وإما إلى المسجد الأقصى، فالحادثة هي رؤيا وليست واقعا فقد تكون

[159] السيرة النبوية لابن هشام ج الثاني ص 53-54.

صورة رآها غير واضحة وحسب أنها بيت المقدس، نظرا وأنه أمر أتباعه باتخاذه كقبلة خلال السنوات الأولى من الدعوة، كإشارة منه أن الدين الجديد لا يتعارض مع التراث اليهودي المسيحي، إلا أن المشكل يعترضنا إذا قلنا أن الحادثة واقعة حسية، أي أن محمد أسري به فعلا ثم عرج به إلى السماء. لا يمكن حل هذا اللغز إلا إذا أخذنا بعين الإعتبار بما حصل زمن بني أموية ومكانة الدولة الإسلامية في ظل حكمهم، ونحن هنا نؤيد ما قاله بعض المستشرقين حول الدور السياسي الخطير الذي لعبه بنو أمية في زمانهم.

إن الإرادة السياسية الأموية عملت على جعل حادثة الإسراء والمعراج حقيقة واقعية وذلك لأسباب سياسية محضة. كان أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين في القدس، يخضعون لقوانين الدولة الإسلامية بقيادة الامويين طيلة القرن السابع للميلاد، ومعلوم أن الأدب الديني لليهودية والمسيحية مرتبط ارتباطا وثيقا بتلك الأرض، فهي الأرض الموعودة بالنسبة لليهود، ومسقط رأس المسيح الذي سيعود إلى الحياة ليقيم مملكة عالمية عاصمتها أورشليم (القدس)، ولكن أي رابط يربطكم بهذه الارض أنتم يا معشر المسلمين ؟ لقد واجه الأمويون هذا السؤال المحرج والصعب الذي قد يقوض شرعيتهم و سلطتهم، **فما كان إلا للحنكة الأموية ودهاءهم السياسي العمل على تحويل حادثة الإسراء والمعراج إلى واقع،** فالنبي محمد أسري به جسدا وروحا، فالإسراء كان في اليقظة، إذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم.[160] ليكون رد الامويين على أهل الكتاب كالتالي : **أنتم اليهود وعدكم الله بهذه الأرض، وأنتم المسيحيون فإن نبيكم ولد وعاش ومات في هذه الأرض، أما نحن المسلمون فإن نبينا أسري به إلى المسجد الأقصى** – الذي بناه الأمويون- وصلى في داخله بجميع الأنبياء، **ويظهر هنا التفوق الذي رغب الأميون اضفاءه على محمد، وكأنه زعيم وقائد جميع أنبياء بني إسرائيل، خاصة موسى وعيسى،** وبناء عليه، **فإن التلاعب الذي مارسه الأمويون على حادثة الإسراء والمعراج جاء لتبرير حكمهم وسيادتهم واضفاء شرعية على ملكهم.** علاوة على ذلك، فإنهم رفعوا من شأن المسجد الأقصى وجعلوه المكان الذي يمكن أن يخلف مكة لأداء طقوس الحج أيام الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان، وتحول المسجد الأقصى كقبلة للحجيج كان بسبب الصراع السياسي الخطير بين ابن مروان وعبد الله ابن الزبير الذي اتخذ مكة مقرا لخلافته، فالصراع السياسي بين الامويين والزبيريين كان ينبئ بتفكك الدولة الإسلامية، لقد خشي الخليفة الأموي - كما ذكر اليعقوبي في تاريخه - إذا ذهب الحجيج إلى مكة أن يأخذهم ابن الزبير بالبيعة، فاضطر لمنعهم فضج الناس.[161] لقد رفع محمد طيلة المرحلة

[160] النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تفسير الآية 1 من سورة الإسراء.
[161] مصادر المعراج من منظور علم الأديان، سبق ذكره، ص 45.

المكية من شأن بيت المقدس واتخذه كقبلة لأسباب كنا قد شرحناها، ولكن يوجد فرق كبير بين بيت المقدس هيكل سليمان الخرافي الذي تم بناءه حوالي القرن التاسع قبل الميلاد حسب ما نقلته التوراة، والمسجد الاقصى الذي بناه عبد الملك ابن مروان في القرن السابع للميلاد، كيف يمكن لهذا الخليفة تغيير ما ترسخ في أذهان المسلمين الأوائل والمتأخرين حول القيمة الروحية لبيت المقدس ؟ **لقد تم ذلك من خلال الإيهام أن بيت المقدس والمسجد الاقصى هما مترادفان، وفي هذا السياق يأتي الدور البارز لمؤرخي وفقهاء البلاط، فالمؤرخون المسلمون كانوا يضيفون ويحذفون حسب أهواء السلطة الحاكمة، ومن ثم شرع الفقهاء في تخريج الأحاديث. لا شك أن الخليفة الأموي كان في حاجة ماسة لحديث حتى يضفي الشرعية الدينية على منعه الحجيج من التوجه إلى مكة وتعويضهم بالمسجد الأقصى، ومثل هذا الحديث لا يمكن أن يضعه سوى شخصية تحضى بالاحترام والتقدير من طرف العامة، وابن شهاب الزهري سيكون رجل المهمة. رد الخليفة الأموي على الذين شككوا في شرعية الحج إلى المسجد الاقصى بالقول : إن ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله ﷺ قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي بالمدينة، ومسجد بيت المقدس.[162] لقد كان توجه الأمويين منذ استئثارهم بالسلطة على يد معاوية ابن أبي سفيان هو الإعلاء من شأن أورشليم (القدس)، لأن المدينة كانت عاصمة المتمردين، وذلك ما يفسر اهتمام معاوية بالبقاع اليهودية المسيحية وتراثهم، مما دفهع ببعض المستشرقين والباحثين العرب أن معاوية كان مسيحيا، طبعا وذلك غير صحيح، فتركيز خلفاء بنو أمية على القيمة المعنوية والروحية لبيت المقدس مقارنة بمكة والمدينة يعود لصراعهم مع الزبيريين.**

يمكن في هذا المقام الإشارة إلى نظرية لا تقل أهمية عن نظرية المستشرقين، هذه النظرية تطرح العلاقة الفيلولوجية بين بيت المقدس والمسجد الأقصى، أي أن تسمية المسجد الأقصى لا تعني مسجد كبناء ولكن كموقع، فالمسجد يعنى المكان الذي نسجد فيه أثناء الصلاة وبالتالي ليس من الضروري وجود أعمدة وجدرانا وسقفا، فالأرض جعلت مسجدا للرسول، أي أن المكان الذي يحل فيه تكون الأرض مسجدا له : أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لي الْمَغَانِمُ ولم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى الناس.[163] إن أورشليم هي أرض مقدسة عند اليهود والمسيحيين وهم يحجون إليها، في نظر المسلمين فيها المسجد الأقصى الذي يقع

[162] ص 50.
[163] صحيح البخاري رقم الحديث 328.

في أقصى الغرب مقارنة بالمسجد الحرام. الآية الأولى من سورة الإسراء تصف المسجد الاقصى بأنه المكان الذي بورك من حوله، مفهوم البركة الإلهية تعني القداسة، تقديس المكان وجعله مقدسا، توجد آيات أخرى في القرآن تؤكد هذا المعنى؛

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف / 137)
﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء / 71)

﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء / 81)

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ (سبأ / 18)

يبدو جليا من خلال هذه الآيات أن الأرض المباركة هي أورشليم، كنعان أرض الميعاد التى تفيض لبنا وعسلا وهبها الإله يهوه الأسطوري* لبني إسرائيل في التوراة، كما أنها أرض مباركة لأن فيها هيكل سليمان الذي يحتوي على تابوت العهد الخرافي رمز التجلي للإله يهوه، أما في نظر الرسول والمسلمين، فبيت المقدس هو مكان تقام فيه العبادة، السجود، وبناء عليه يمكن وصفه بالمسجد الأقصى. إن هذه النظرية تتناقض مع ما ورد في السيرة، فمحمد كما تقدم وصف بيت المقدس للأبي بكر والأخير صدقه، هذه الرواية قد تكون وضعت من طرف كتاب السيرة، لأن السيرة خضعت للتطور، حذف تفاصيل وزيادة أخرى وذلك بإشراف من السلطة الحاكمة لخدمة أهوائها وأغراضها السياسية. **مجمل القول، كل الروايات حول وجود بيت المقدس كبناء تم تدوينها بعد وفاة محمد لخدمة السياسة الأموية.**

سبق وقلنا أن حادثة الإسراء رؤيا منامية، إلا أنه يجب التنويه كون المعراج متأخر زمنيا عن الإسراء، فالرسول عاش تجربة الإسراء، لكن هل يمكن الإثبات أنه عاش تجربة المعراج ؟ مرة أخرى، فإن السياسة الأموية تتدخل وتجعل من حادثة المعراج واقعة حقيقية. قد يكون الرسول عاش تجربة الإسراء أما المعراج فإنها قضية أخرى، لأنه لا توجد إشارات واضحة وصريحة حول معراج الرسول في القرآن ولفظ معراج ذكر في بعض سور القرآن ولكن في سياق مغاير، سورة الحجر تتحدث عن معراج المكذبين من قريش ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (الحجر / 14).

---

*جذور هذا هذا الإله وجدت داخل موقع أثري "تل أجرود" يقع في الشمال الشرقي لسيناء، حيث نقش اسم يهوه واسم زوجته عشيرا، مما يكشف أن الديانة اليهودية في مرحلتها الأولى لم تكون ديانة توحيدية مائة بالمائة بل ديانة تفريدية، تعترف ببقية الآلهة ولكنها تبجل إلها خاصا.

قريش كانت تلح على محمد للإيتان بمعجزة، فكان الرد بمثابة تبرير ومواساة، حتى ولو تحققت المعجزة المتمثلة في صعودهم إلى السماء فإنهم لن يصدقوها. وذكر في سورة المعارج ﴿من الله ذي المعارج﴾ وفي سورة السجدة ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾. نلاحظ أن اللفظ جاء في سياق لا صلة له بمعراج النبي. وبناء على ذلك فإن الإسراء هو رحلة أفقية، إلا أن السياسة الأموية جعلته رحلة مزدوجة، أفقية وعمودية. لقد أكدنا منذ بداية بحثنا هذا، كون محمد شخصية مسايرة للنوامس الطبيعية والسنن الكونية، وبالرغم من ذلك فإن القرآن الذي يتلفظ به يطفح بمعجزات أنبياء الذين سبقوه، وفي مواضع عديدة ينفي القرآن أن تكون له معجزة، نجد أغلبها في سور الجيل الثالث التى نشأت بعد حادثة الإسراء والمعراج،* فمحمد نبي بلا معجزة.

وضعت قصة المعراج الأسطورية تحت إشراف السلطة الأموية وتطورت اكثر مع العباسيين، وذلك للاستجابة لأمرين هامين ؛ أولا : الفضاء العقلي والاهوتي والفلسفي الذي إنتشر فيه الإسلام خلال القرن السابع للميلاد كان مفتوحا على احتمال مجيئ رسول جديد، حامل لرسالة جديدة أو منذر بنهاية العالم على نحو ماهو متوقع في كتب الكتابيين أو في أساطير الأولين التى كانت تجد لها مرتعا خصبا في شبه الجزيرة، ولكن ذلك الفضاء العقلي والديني كان يملي عليهم أن يجعلوا شرطا مسبقا لتصديق أي رسول جديد أن يكون حاملا معه البرهان الذي لا برهان غيره في النبوة، المعجزة.[164] ثانيا : إيجاد تبرير لاهوتي من طرف الأمويين يخدم مصلحتهم السياسية في السيطرة على الأراضي المقدسة واقناع الكتابيين بوجود علاقة قوية لنبي الإسلام بهذه الأرض. إستجابة لهذين الأمرين، شَمَّرَ المؤرخون وكتاب السيرة على سواعدهم من أجل حشو حياة محمد بالمعجزات، لقد تواجدوا في بيئة منفتحة على أدب وتراث وأساطير الحضارات والأمم التى سبقتهم، فنهلوا منها ما استطاعوا، وفي المقدمة يظهر الثراث الزادشتي والجاهلي كأهم مصدرين تأثرا بهما كُتَّاب السيرة، يليها الثراث اليهودي والمسيحي.

* ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي ٱلأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (الأنعام / 35).
﴿وَقَالَ ٱلْمَلأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَياةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (المؤمنون / 34)

[164] المعجزة أو سبات العقل في الإسلام، سبق ذكره، ص 15.

الفصل الرابع والعشرون: سور الجيل الثالث

شهدت سور القرآن خلال السنوات الأخيرة في مكة (بين سنة 620و622 ميلادي تقريبا) تطورا ملحوظا، حيث إقتربنا من حدث مفصلي ألا وهو الهجرة إلى يثرب. إن اليأس الذي انتاب محمد من قريش أفصحت عنه بجلاء سور الجيل الثاني، سوف نرى في سور الجيل الثالث كيف بدأ يفكر في الرحيل وتوجيه أنظاره إلى يثرب أين يقيم أخواله. البنية الأدبية لمغلب سور الجيل الثالث نثرية، البراهين الموظفة لمجادلة الكتابيين والمشركين تفتقر في بعض الاحيان للوضوح والحدة ولا تقنع إلا من يؤمن سلفا بالنتيجة النهائية.[165] كما نجد ترديدا لقصص الأنبياء، جوهر القصص في مجمله لا يختلف عما ورد في سور الجيل الثاني، غير أن ذلك لم يمنع وجود بعض التفاصيل الجديدة مع تكرار لتفاصيل ذكرت في السابق، وكما نوهنا حول ظاهرة التكرار في القرآن، وأكدنا أنه ليس تكرارا عفويا بل إنه أسلوب مرتبط اساسا بالحالة النفسية والإجتماعية المحمدية وضعف المسلمين في مكة. إن ذلك الحماس المتوهج وتلك الروح الملتهبة التى إنطلقت مع بداية الدعوة بدأت جذوتها تخفت شيئا فشيئا مع تقدم الزمان واكراهات الواقع، يمكن القول إن الحماس القرآني أصبح شبه غائب باستثناء بعض الومضات المتفرقة هنا وهناك في بعض السور. خلال هذه السنوات، أصبحت عبارات القرآن طويلة لأن الأسلوب إبتعد عن السجع واقترب من النثر، ما يميز سور هذا الجيل هو النثر والإطناب، ولم يبقى من قالبها الشعري سوى الفاصلة.[166]

أنتجت سور الجيل الثالث في انسجام تام مع الحالة النفسية المحمدية ومكانة الدعوة بصفة عامة، هذه السور هي **السجدة، يونس، لقمان، هود، الأنعام، سبأ، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، الكهف، النحل، نوح، ابراهيم، الأنبياء، والمؤمنون**. مفتتح سورة السجدة يمكن تذكرنا بما تعرض إليه محمد من صد وتكذيب واستهزاء على مدى سور الجيل الثاني ؛

﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

[165] تاريخ القرآن، ص 128
[166] نفسه

ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿يُدَبِّرُ ٱلأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة5/1)

من خلالها نستشف رغبة محمد الجامحة في اثبات أن القرآن كلام صادر من عند الله، ونلاحظ لفظ كتاب الذي يشير للقرآن ككتاب* شبيه بالتوراة والإنجيل، انها محاولة لوضع العرب المسلمين في منزلة أهل الكتاب من النصارى واليهود، وذلك يندرج ضمن ولادة القومية العربية ومحاولة توحيد القبائل تحت قيادة وراية واحدة، هذه الآيات اشارة ضمنية لتطور العقلية العربية، انتقالها من الأطر الإجتماعية والعقائدية الضيقة إلى الأطر الأشمل والأرحب. فكرة خلق الله للكون في ستة أيام وإن كانت مستلهمة من العهد القديم، فإن وظيفتها في القرآن تخدم المرور من الخاص إلى العام، فالكون بسمواته وأرضه وما بينهما مخلوق في ستة أيام، وكل ما هو مخلوق حتما له نهاية، فالكون ليس أزليا كما يدعي الماديون الدهريون، الكون له نهاية، وهنا اثبات أن الحساب آت لا محالة، فلا تغتر بطول تعاقب الايام وتحسب أن الكون لا نهاية له، إنه تحذير مبطن لقريش، ذلك وأن اليوم عند الله كألف سنة مما يعد البشر. تتردد هذه الفكرة على امتداد سور الجيل الثالث، الزمان الإلهي غير الزمان البشري، وهذا الفارق الجوهري بين الزمانين ساهم في مواساة النبي والتخفيف من حدة المحنة والأزمة النفسية التى عاشها في مكة؛

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوۤاْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ ﴾ (الأحقاف/35)

نقل القرآن جدال الله مع الكافرين يوم القيامة معتمدا على أسلوب أدبي كنا قد أشرنا إليه آنفا، ألا وهو التحدث عن المستقبل وكأنه من تحصيل الحاصل؛

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (المؤمنون114/112)

في سورة الكهف استفاق الفتية بعد أن ناموا زهاء ثلاثة قرون؛

*ربما مثل هذه الآيات تلمح أن القرآن أصبح كتابا كاملا، وهذا ما دفع بعض المسلمين لإعادة النظر في حدث جمع القرآن بعد وفاة محمد، لكن يستحيل القول إن القرآن تحَوَّلَ إلى كتاب مكتمل، لأن الوحي لا يزال مستمرا ولن يتوقف إلا مع وفاته، فلا يمكن تجميع السور كاملة مع احتمال نزول آيات جديدة، ومثلما قلنا فالوحي هو جدلية تتفاعل مع الواقع، بين محمد وقريش، محمد والكتابيين.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُواْ أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ (الكهف/19)

صدى هذه الفكرة يعود إلى الديانة الفرعونية، حيث وصلتنا بعض شهادات المصريين القداماء حول يوم الحساب، والمقارنة بين الزمن الإلهي والبشري، فالحياة لدى الآلهة هي مجرد ساعة واحدة، وأن الزمن الذي يقضيه الانسان على الأرض إنما طيف خيال بالنسبة للآلهة، أما متى يوم الحساب ؟ فذلك من أسرار الآلهة وحدها، ولأن الزمن الإلهي يختلف عن الزمن الإنساني، فحياة البشر على الأرض بطولها ليست في عرف الآلهة سوى ساعة واحدة، وان معرفة ما يقابل هذه الساعة من ساعات البشر يشكل معادلة صعبة وغير ممكنة بالطبع. [167]

نقرأ في سورة السجدة بعض الآيات تتحدث عن خلق الإنسان؛

﴿ ٱلَّذِيۤ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَارَ وَٱلأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة9/7)

إن فكرة خلق الانسان من طين ضاربة في القدم، حيث تعود أصولها لديانات الشرق القديم، خاصة السومارية، فالسومريون هم أول من وضعوا أسطورة خلق الإنسان من طين، إلا أن السياق العام للقصة يختلف، وطبيعي أن يكون تختلف لأنها تواترت على مر آلاف السنين، لتتكيف مع عقلية وذوق المجتمع الذي اقتبسها، ولكن الفكرة الأساسية خلق الانسان من طين، لم يطرأ عليها تغيير. خلق الله الإنسان من طين ونفخ فيه من روحه؛

﴿ثمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة/9)

الانسان وفق أساطير حضارات مابين النهرين، هو مزيج من الطين الذي هو جزء من العالم الأرضي المتغير، موطن الرذيلة والفساد، والروح جزء من العالم السماوي النوراني، وهو ما ينسجم مع الاسطورة السومرية الأولى، حيث وُكّل للإله انليل (إله الريح) خلق الانسان من طرف الالهة ننماخ، ولم

---

[167] أوزيرس وعقيدة الخلود في مصر القديمة ، د. سيد القمني، الناشر مؤسسة هنداوي ص 180.

يتحقق ذلك إلا بقتل أحد الآلهة وعجن دمه ولحمه بالطين الذي صنع منه سجد الإنسان، وبذلك يتحد الإله والإنسان في عجينة واحدة.[168]

نجد في السورة تكرارا لرفض فكرة البعث التى لم تتقبلها العقلية القرشية والارستقراطية المكية الغارقة في المادية؛

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (السجدة/10)

أما الرد فهو بديهي حسب المنطق القرآني، إذا كان الله* موجودا فإن أمر البعث سيكون ممكنا؛

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة/10)

تستمر ظاهرة مواساة محمد وطمأنته بالقرآن من خلال حسم مصير قريش الكافرة، فمهما فعلوا فإن جهنم هي من تحصيل الحاصل؛

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة/12)

يبدو أن مشاعر الحسرة والأسى والسخط أثرت على نفسيته أيما تأثير إلى درجة أن الله نفسه أصبح تحت طائلة الجبرية؛

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة/13)

قطعا ! إنها كلمة صدرت من عند الله ويستحيل التراجع عنها، ملأ جهنم بالجنة والناس أجمعين، حتمية فُرِضَت أيضا في سورة مريم. تلك الحالة النفسية المحمدية المتردية كان لها دور كبير في تشكل هذا الصنف من الآيات، في المقابل تنشرح نفسيتة لأولئك الذين صدقوه وآمنوا بالقرآن وحيا؛

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة/17)

كان يمكن الإكتفاء بهذا التهديد والوعيد الذي سينال الكفرين والجزاء الذي سيلقاه المؤمنون، غير أن السورة أسهبت في المقارنة بين الكافرين والمؤمنين؛

---

[168] أساطير الاولين، القصص القرآني ومتوازياته التوراتية، فراس السواح، دار التكوين للنشر والترجمة 2016 ، ص 183

*أقصد إله الأديان الابراهيمية ؛ اليهودية، المسيحية، الإسلام، أما الربوبية تؤمن بوجود إله ولكنه غير شخصي ولا وجود للبعث.

﴿ أ فَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة21/18)

عذاب الكافرين سيكون مضاعفا، عذاب الدنيا والآخرة، والعذاب الأدنى عند معظم المفسرين هو مصائب الدنيا أسقامها وآفاتها. لغة الوعد الوعيد تعتبر تنفيسا عن الحالة النفسية المحمدية وتضميدا لجراحه، فالاذى النفسي أخطر من الاذى العضوى، ولا يمكن معالجة الأول إلا بلغة الوعد والوعيد، والصبر على الأذى، وتأجيل العقاب إلى وقت لاحق.

تكشف السورة بطريقة غريبة وغير مفهومة عن لقاء محمد بموسى؛

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (السجدة/23)

حسب القراءة السلفية، الآية تشير إلى صلاة محمد بجميع الأنبياء في المسجد الأقصى، لقد كان موسى في مقدمة الأنبياء الذين التقى بهم وتحدث معهم. يعتبر نولدكه أن تأويلات المسلمين لهذه الآية خاطئة، ففعل لقائه لا يحيل في نظره للنبي موسى بل للكتاب، مستشهدا بالآية 54 من سورة فصلت.[169] غير أننا لا نتفق معه، لأن كلمة لقائه تولد بالضرورة في ذهن القارئ شيئا عاقلا، والآية 54 من السورة تتحدث عن الكافرين الذين هم في مرية من لقاء ربهم، فالكتاب هنا ليس عاقلا، بل يبقى على الرغم من أن مصدره سماوي مقدس جمادا، حتى في صورة إذا أوَّلْنَا لفظ كتاب وقلنا هو مجمل التشريعات والنذر والوعد والوعيد الذي جاء به موسى فهي تبقى حقيقة جامدة ومن غير المنطقي القول أن الآية تحذر محمد من نكران لقاء الكتاب الذي أنزل على موسى، ولو كان هذا المغزى الحقيقي للآية، لكان من الأفضل القول فلا تكن في مرية منه، لو وردت الآية على هذه الكيفية سيزول الإرباك وسيرفع الإبهام. يجب ألا نغفل في سياق سورة السجدة، رفعها من شأن بني اسرائيل كقوم حامل لكلمة الله يهدون بأمره بعدما صبروا على الويلات والمصائب التى حلت بهم؛

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة/24)

[169] تاريخ القرآن، ص 129

وكأن محمد يشبه الذين آمنوا بدعوته وصبروا على الأذى ببنى اسرائيل الذين هم أيضا صبروا ونالوا نصيبهم من التنكيل والإستعباد، ثم جزاهم الله بأن جعل منهم أئمة يهدون بأمره. خلال الفترة المكية المتأخرة، حيث يفصل محمد عن فراره من اضطهاد قريش للإستقرار في يثرب سوى أشهر معدودات، سعى إلى الإعلاء من شأن بنى اسرائيل كأمة كتابية، إله القرآن هو نفسه إله العهد القديم يهواه، حارب من أجلهم واصطفى منهم الأنبياء والرسل. إن هذا الإعلاء ليس اعتباطيا، بل هو مرتبط كما أكدنا سابقا بسياسة كسب ود الكتابيين بعدما فشلت محاولات اقناع المكيين بالدعوة، ونجاحها متوقف على سياسة الصبر على الأذى والانتظار؛

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ (السجدة/30)

أثناء هذه المدة التى توالت فيها سور الجيل الثالث، تظهر الحاجة في سورة يونس لأسلمة أنبياء العهد القديم، فموسى النبي الذي يعتبر الأقرب لمحمد عندما كان في مكة هو في الحقيقة مسلم يدعو للإسلام؛

﴿وَقالَ موسى يا قَومِ إِن كُنتُم آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيهِ تَوَكَّلوا إِن كُنتُم مُسلِمينَ﴾ (يونس/84)

هاهنا يتجلى صبر بني اسرائيل على ما حل بهم من مصائب؛

﴿فَقالوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلنا رَبَّنا لا تَجعَلنا فِتنَةً لِلقَومِ الظّالِمينَ﴾ (يونس/85)

يتردد مرة أخرى الإعلاء من شأنهم؛

﴿وَلَقَد بَوَّأنا بَني إِسرائيلَ مُبَوَّأَ صِدقٍ وَرَزَقناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اختَلَفوا حَتّى جاءَهُمُ العِلمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقضي بَينَهُم يَومَ القِيامَةِ فيما كانوا فيهِ يَختَلِفونَ﴾ (يونس/93)

إن أسلمة جميع الأنبياء والرسل غايته الإظهار كون الإسلام دين عالمي، سبق جميع الديانات بآلاف السنين إنه دين الحق منذ خلق الإنسان، وبقية الديانات باطلة، بل إن كل الرسل والأنبياء التى تعلمهم قريش هم في الأصل جاءوا من أجل الإسلام، فنوح الذي يعتبر من الرسل الأوائل أمر بأن يكون من المسلمين؛

﴿فَإِن تَوَلَّيتُم فَما سَأَلتُكُم مِن أَجرٍ إِن أَجرِيَ إِلّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرتُ أَن أَكونَ مِنَ المُسلِمينَ﴾ (يونس/72)

ومن بعده النبي سليمان الذي أمر قوم بلقيس بأن يأتوه مسلمين؛

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل/31)

والنبي يوسف كان مسلما ؛

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(يوسف101)

ثم إن أصول الإسلام في الواقع تعود للعقيدة والفلسفة الحنيفية الضاربة بجذورها في القدم، فلا غرابة أن ينقلب مسار قصص الانبياء والرسل إلى صراع مستمر من أجل إعلاء كلمة الإسلام، وذلك سيتحقق مع محمد في مكة. إذا كان الإسلام ليس بدين جديد، صارع من أجله الأنبياء والرسل سواء الذين ينتمون أو لا ينتمون لبني إسرائيل، فلماذا إذن كل هذه الجفوة والتعالي من قريش؟

إن سور الجيل الثالث تمدنا بمعطيات تكشف لنا أن محمد في مكة ما انفك يبحث عن سند معنوي وتاريخي يثبت به صحة دعوته، فهو ليس كما ادعى أثرياء قريش، صبي مغامر اتخذ من الوحي مطية للملك، إنما هو رجل تم اصطفاؤه من الله لاستكمال المهمة التى وكلت للذين سبقوه من قبله، وكأنه اتخذ من سرده لقصص الأنبياء وأسلمتهم جميعا برهانا على صدقه وصدق ما يصدر عن شفتاه، ربما العودة إلى الماضي وتذكيرهم بما حصل بعد تمنعه عن ايتان معجزة حسية، سيهز مشاعر القرشيين وستهوي قلوبهم إليه. فانظر كيف انتهت جميع الرسالات السماوية بذكر محمد؛

﴿أُولئِكَ الَّذينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقتَدِه قُل لا أَسأَلُكُم عَلَيهِ أَجرًا إِن هُوَ إِلّا ذِكرى لِلعالَمينَ﴾ (الأنعام/90)

إن محمد يقتدي بهدى الذين سبقوه بداية من نوح مرورا باسحاق ويعقوب وداوود وسليمان وموسى وهارون ثم يونس واسماعيل واليسع ولوطا، إنه يمثل الحلقة الأخيرة لهذه الجدلية التاريخية، كما أنه ليس بطالب ملك أو زعامة لأنه لا ينتظر مقابلا مما يقوم به.

لقد آمن محمد، ايمانا نابعا من صميم قلبه، بأن ما أتى به مستمد من التراث اليهودي المسيحي، فالكتابيون من اليهود والنصارى الذين يقرأون الكتاب هم شهداء على ما يقول؛

﴿إِن كُنتَ في شَكٍّ مِمّا أَنزَلنا إِلَيكَ فَاسأَلِ الَّذينَ يَقرَءونَ الكِتابَ مِن قَبلِكَ لَقَد جاءَكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمتَرينَ﴾ (يونس/94)

امعان قريش في تكذيبه اربكه أيما ارباك إلى درجة أن مشاعر الشك خالجته إلى حد اليأس، وهو ما اشرنا إليه سابقا ؛

﴿فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعضَ ما يوحى إِلَيكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدرُكَ أَن يَقولوا لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ كَنزٌ أَو جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنتَ نَذيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ وَكيلٌ﴾ (هود/12)

هؤلاء الذين تحسر عليهم محمد لن يؤمنوا لأن كلمة العذاب حقت عليهم؛

﴿إِنَّ الَّذينَ حَقَّت عَلَيهِم كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤمِنونَ﴾﴿وَلَو جاءَتهُم كُلُّ آيَةٍ حَتّى يَرَوُا العَذابَ الأَليمَ﴾(يونس97/96)

أمام الجفوة القرشية من الكلم الذي يتحدر من شفتاه، بقي سياسيا مسالما، يجمع بين الوعض والتهديد، سلاحه الوحيد هو آيات التخويف[170]؛

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (لقمان/7)

أما من يتساءل عن هذا العذاب فهو؛

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (الدخان48/45)

وأما من يتساءل عن أحوال الكافرين؛

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ومن شدة العذاب الذي هم فيه ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف77/76)

كلا! فإن آيات التخويف، التهديد والوعد والوعيد، لم تثني قريش عن استهزاءها برسولها والتأكيد على أن ماجاء به هو؛

﴿بَل قالوا أَضغاثُ أَحلامٍ بَلِ افتَراهُ بَل هُوَ شاعِرٌ فَليَأتِنا بِآيَةٍ كَما أُرسِلَ الأَوَّلونَ﴾ (الأنبياء/5)

الآية هنا هي المعجزة الحسية، التي ما انفكت قريش تطلبها، كالتى أيدت الرسل والأنبياء السابقين كشرط لإيمانها، وكأن لسان حالها يقول : إنك يا محمد لا تفتأ تذكر ليلا نهارا ما حصل مع

[170] الدين في شبه الجزيرة، ص

السابقين مقتديا بهداهم وخاتما لرسالاتهم فمالك لا تاتي بمعجزة مثلهم إذا كنت على صدق ؟ ليأتي الرد؛

﴿قُلِ انظُروا ماذا فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ وَما تُغنِي الآياتُ وَالنُّذُرُ عَن قَومٍ لا يُؤمِنونَ﴾ (يونس/101)

فمحمد ليس برجل يجترح المعجزات إنما هو كمثل سائر البشر؛

﴿وَيَقولونَ لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُل إِنَّمَا الغَيبُ لِلَّهِ فَانتَظِروا إِنّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرينَ﴾(يونس/20)

ومن ثم فإن إيمان قريش من كفرها مرتبط بإرادة الله وحده؛

﴿وَإِن كانَ كَبُرَ عَلَيكَ إِعراضُهُم فَإِنِ استَطَعتَ أَن تَبتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرضِ أَو سُلَّمًا فِي السَّماءِ فَتَأتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَو شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدى فَلا تَكونَنَّ مِنَ الجاهِلينَ﴾. (الأنعام35)

فلا تيأس ولا يضيق صدرك منهم لأنه حتى؛

﴿وَلَو أَنَّنا نَزَّلنا إِلَيهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوتى وَحَشَرنا عَلَيهِم كُلَّ شَيءٍ قُبُلًا ما كانوا لِيُؤمِنوا إِلّا أَن يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكثَرَهُم يَجهَلونَ﴾ (الأنعام/111)

ثم إنه ليس ايمان قريش من كفرها فحسب متعلق بإرادة الله بل البشرية جمعاء؛

﴿وَلَو شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرضِ كُلُّهُم جَميعًا أَفَأَنتَ تُكرِهُ النّاسَ حَتّى يَكونوا مُؤمِنينَ﴾ (يونس/99)

كما أن محمد ليس وصيا ووكيلا على قومه؛

﴿كَذَّبَ بِهِ قَومُكَ وَهُوَ الحَقُّ قُل لَستُ عَلَيكُم بِوَكيلٍ﴾ (الأنعام66)

ذلك وأن الهداية والضلال الكفر والإيمان من عند الله وحده؛

﴿وَالَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكمٌ فِي الظُّلُماتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضلِلهُ وَمَن يَشَأ يَجعَلهُ عَلى صِراطٍ مُستَقيمٍ﴾ (الأنعام/39)

ودور الرسل متوقف على البشارة والإنذار؛

﴿وَما نُرسِلُ المُرسَلينَ إِلّا مُبَشِّرينَ وَمُنذِرينَ فَمَن آمَنَ وَأَصلَحَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنون﴾ (الأنعام/48)

﴿وَما نُرسِلُ المُرسَلينَ إِلّا مُبَشِّرينَ وَمُنذِرينَ وَيُجادِلُ الَّذينَ كَفَروا بِالباطِلِ لِيُدحِضوا بِهِ الحَقَّ وَاتَّخَذوا آياتي وَما أُنذِروا هُزُوًا﴾ (الكهف /56)

لم يكن محمد في مكة وصيا على الناس، فليس من مهامه أن يشق على قلوبهم لكي يعلم من آمن ومن كفر لأنه؛

﴿وَما كانَ لِنَفسٍ أَن تُؤمِنَ إِلّا بِإِذنِ اللَّهِ وَيَجعَلُ الرِّجسَ عَلَى الَّذينَ لا يَعقِلونَ﴾ (يونس100)

وكيف يؤمنوا وعلى قلوبهم أكنة؛

﴿إِنّا جَعَلنا عَلى قُلوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفقَهوهُ وَفي آذانِهِم وَقرًا وَإِن تَدعُهُم إِلَى الهُدى فَلَن يَهتَدوا إِذًا أَبَدًا﴾.(الكهف57).

إذن فإن الحكمة الإلهية تقتضي عدم إيمان شريحة من الناس وبقاءها في الكفر والجحود وبالتالي لن يدخل الإيمان في قلوبهم عملا بتلك الحكمة، ألا وهي الإختلاف؛

﴿وَلَو شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالونَ مُختَلِفينَ﴾﴿إِلّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُم وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجمَعينَ﴾ (هود119/118)

فلم يتبقى للنبي سوى تبليغ الرسالة وعدم اكراه قومه، فهو ليس عليهم بوكيل؛

﴿قُل يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَنِ اهتَدى فَإِنَّما يَهتَدي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيها وَما أَنا عَلَيكُم بِوَكيلٍ﴾

وما عليه إلا الصبر لحكم الله والمجادلة بالتى هي أحسن؛

﴿وَاتَّبِع ما يوحى إِلَيكَ وَاصبِر حَتّى يَحكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيرُ الحاكِمينَ﴾ (يونس109/108)

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (النحل 125).

هذه الآيات التى تحث على الصبر والإنتظار والرضوخ لحكم الله والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، تكشف عن سياسة محمد البعيدة الغور المنادية بأنه ليس عليهم بوكيل،[171] اضافة إلى عدم اكراه الناس على الإيمان، فسور الجيل الثالث تثبت من الآن فصاعدا أن محمد فَقَدَ الأمل بعودة ذويه إلى الهداية[172]

﴿إِن تَحرِص عَلى هُداهُم فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهدي مَن يُضِلُّ وَما لَهُم مِن ناصِرينَ﴾ (النحل38)

لذلك نجد آيات السور المكية المتأخرة متناغمة مع الظرفية التاريخية والنفسية لمحمد والمسلمين في مكة، فما عليه سوى؛

﴿اتَّبِع ما أوحِيَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ لا إِلهَ إِلّا هُوَ وَأَعرِض عَنِ المُشرِكينَ﴾ (الأنعام106)

لقد بلغت القطيعة مستوى خطير قبيل الهجرة إلى المدينة، ظرفية صعبة أدت إلى انتاج آيات سور الشورى وسبأ ؛

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(الشورى/15)

الإسلام في الفترة المكية يقوم على ايمان شخصي لا صلة له بالمجتمع أو بالكيان السياسي، فانظر إلى ذلك التسامح واللاعنف الذي بلغ ذروته مع هذه الآيات، فمحمد لا يسأل الكافرين عما فعلوا أو أجرموا، والكافرون لن يسألوه عما فعل أو أجرم، فالقضية كلها بيد الله؛

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ26/25)

وما بالكم تسخرون مني وممن تبعني وهو؛

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾(سبأ/50)

فاعبدو ماشئتم؛

---

[171]الدين في شبه الجزيرة، 149.

[172]القرآن نزوله تدوينه ترجمتهن سبق ذكره، ص 63.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ (الزمر/15)

إن الإسلام في المرحلة المكية كان لائكيا نوعا ما، يقوم على الفصل بين الدين والدولة، فالآيات التى تشكلت تحت وطأة الظرفية النفسية والإجتماعية لمحمد وأتباعه ترفع شعار الدين لله والوطن للجميع، وهو مبدأ الفلسفة اللائكية في عصرنا الراهن، ونجد ارتدادات لهذا التوجه في سور الجيل الثاني؛

﴿قُل كُلٌّ يَعمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُم أَعلَمُ بِمَن هُوَ أَهدى سَبيلًا﴾ (الإسراء84)

اتصفت الشخصية المحمدية خلال الفترة المكية المتأخرة بالعفو والسلم، فهو لا يجبر الناس على اعتناق الإسلام، وإلا فالقتل وضرب الرقاب كما قد حدث من بعد غداة غدا قويا عندما سينتقل إلى المدينة، وإنما ما زال في غضون هذه الفترة، مهيض الجناح محفوفا بأتباع مهما كثروا وتكاثروا فإن العدد منهم ليتضاءل بجانب قريش، قريش العزيزة الجانب، أما محمد فمازال غير عزيز وليس له سلاح إلا الكلم الذي يتوعد به قومه.[173] توعدهم بصاعقة كالتى أصابت قوم عاد وثمود؛

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت/13)

قريش المغرورة المتكبرة مثلها مثل قوم عاد؛

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ (فصلت16/15)

فكان ردها؛

﴿وَيَقولونَ مَتى هذَا الوَعدُ إِن كُنتُم صادِقينَ﴾ (يونس/48)

ثم يسترسل الكلم؛

﴿قل لا أَملِكُ لِنَفسي ضَرًّا وَلا نَفعًا إِلّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُم فَلا يَستَأخِرونَ ساعَةً وَلا يَستَقدِمونَ﴾ (يونس/49)

[173]الدين في شبه الجزيرة، ص 149

رد اعتبرته قريش فضفاضا وتهربا من السؤال لتزداد جفوتها وتعنتها فمحمد؛

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ بل هو ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ لقد ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ كما أنه ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ والنتيجة ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ (المؤمنون 34/25)

إن هذه الآيات تبدو منذ الوهلة الأولى وكأنها تسرد أقوال أقوام الرسل الذين سبقوه، ولكنها في الحقيقة تخفي الجانب النفسي المحمدي أثناء الفترة المكية، **لقد تخفى وراء قصص الانبياء لتصوير الحالة التى هو فيها، وفي نفس الوقت يبحث عن ايجاد قواسم مشتركة بينه وبين الرسل السابقين حتى يرتاح نفسانيا؛**

﴿لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. (الأنعام/10)

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الأنعام/34)

فالأقوال والأفعال المسرودة في قصص الانبياء تخفي كما أكدنا سابقا، الجوانب النفسية المحمدية خاصة على مدى المرحلة المكية، كما تعكس الجانب الإجتماعي من وجود القادة المترفين والحكام الأثرياء من جهة، والفقراء والمعدمين من جهة ثانية، قال خلف الله في هذا المقام : « **ومعنى كل هذا أن اختيار أحداث بعينها من تاريخ هؤلاء الرسل أو قصصهم كان مقصودا، وأن هذا لم يكن إلا للتنفيس والإفاضة على النبي عليه السلام والمسلمين، وإلا خدمة للدعوة الإسلامية»**.[174]

سورة نوح تلخص صيرورة الدعوة الإسلامية في مكة والمعارضة الشديدة ضدها؛

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴾﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴾﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴾﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾﴿وَٱللَّهُ

[174] الفن القصصي في القرآن الكريم، سبق ذكره، ص 346

جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴾﴿ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ (نوح21/5)

في الحقيقة هو قول محمد وليس نوح، محمد تخفى وراءه لينقل ذلك الصراع المرير مع قريش والمكيين، محاولات متكررة من أجل اقناعهم بالدعوة، متوخيا سياسة الحلم والصفح، إلا أنهم عصوه؛

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (نوح/22)

فما كان له من سلاح سوى الابتهالات؛

﴿قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (نوح/24)

ثم تختتم السورة بالدعاء، وهو دعاء محمد على قومه الذين كذبوه؛

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح/28)

لم تفلح كالعادة تلك المحاولات في استدراج قريش، بل إن الجفوة تزداد يوما بعد يوم، فما كان عليه إلا سلوك سياسة العفو والصفح والتذكير بجبورت الله وتخويفهم بالبعث وأن الحساب آت لا محالة، لتذكر قريش محمد أن البعث هو من أساطير الأولين؛

﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون 82-83)

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية 24)

كيف لا يمكن أن يبعثكم جميعا وهو؛

﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية 26)

وكيف لا يقدر على بعثكم وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس؛

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر 57)

في خضم هذا الجدل المحمدي القرشي، اهتزت عواطف المؤمنين بهذا الكلم، بما فيه من حث على الصبر والمكابدة وتثبيت العزائم بوصف نعم الآخرة؛

﴿إنَّ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ يَهديهِم رَبُّهُم بِإيمانِهِم تَجري مِن تَحتِهِمُ الأَنهارُ في جَنّاتِ النَّعيمِ﴾ (يونس 9)

﴿إِلَّا الَّذينَ صَبَروا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُم مَغفِرَةٌ وَأَجرٌ كَبيرٌ﴾ (هود 11)

أما من يتساءل عن هذا الأجر؛

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ﴿يدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِين﴾ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (الدخان 56/51) كذلك ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. (الزخرف 71) أما مساكنهم في الجنة ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾(الزمر 20)

لم يكن لمحمد خلال المرحلة المكية ما يقدمه لأتباعه كمكافأة على التصديق به واعتناق الإسلام سوى الإرجاء إلى يوم الآخرة، وإغرائهم بالمتع الحسية في الجنة مثل الكواعب الأتراب وهن فتيات حسناوات في ريعان الشباب، وفي العربية فتاة كاعب تعنى وصلت سن البلوغ، فيتكعب ثدياها أي يستديران مع ارتفاع.[175] أيضا قاصرات الطرف؛

﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴾﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ (الصافات48/49)

وهن حور حسان كاملات الأوصاف، ولا تسأل عن عذريتهم لأنهم ؛

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴾﴿ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴾﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ (الواقعة 38/35)

وعن الخمور فحدث ولا حرج؛

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴾﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾(الصافات 47/45)

وروائح المسك؛

[175] موقع www.arabdict.com معنى كاعب بالعربي.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ (المطففين27/25)

إن الجنة التي وصفها محمد فيها كل ما تشتهيه أنفس الفقراء المعدمين والمخذولين من جنس وخمور وملذات، إنه اسراف في تصوير اللذة الحسية، ثم تزداد متعتهم حينما يرون الكافرين في جهنم وهم يضحكون منهم؛

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴾﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ (المطففين35/34)

بغية تشجيعهم وبعث الامل فيهم من جديد أمام احباطات الواقع المرير. إذن، **فإن خطاب الترغيب في ملذات الجنة في القرآن المكي اشتغل بالموازاة مع خطاب التهديد والوعيد من أجل جذب المؤمنين والتخفيف عن كربهم وعذاباتهم، غير أن هذه المتع والملذات فقدت وهجها في القرآن المدني لأنها باتت سهلة المنال ودون قيود.**[176]

إن المؤمنين سينالون ثوابهم في الآخرة وليس في الدنيا، والكافرون يتمتعون بما لديهم في الدنيا أما في الآخرة ينتظرهم عذاب شديد؛

﴿الَّذينَ يَستَحِبّونَ الحَياةَ الدُّنيا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدّونَ عَن سَبيلِ اللَّهِ وَيَبغونَها عِوَجًا أُولئِكَ في ضَلالٍ بَعيدٍ﴾ (ابراهيم 3)

مثلما أسرف محمد في تصوير نعيم المؤمنين فإن وجدانه حمله إلى تركيب صور ومشاهد غريبة عجيبة ترتجف منها الأسماع؛

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾﴿ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴾﴿ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ (الواقعة 45/41)

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ (إبراهيم 17/15)

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ (إبراهيم 50/48)

[176]تطور القرآن التاريخي، كانون سل، ص 25

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (يونس 27)

لقد سعى من خلال هذه الآيات الرفع من معنوياته ومعنويات المسلمين.

عن الوعد والوعيد، الترهيب والترغيب، أمعنت قريش في التهكم والإستخفاف بمحمد وبما يتحدر من شفتيه، فهو لا يقص قصة إلا وترسل الصوت مرددا أساطير الأولين[177]

﴿وَإِذا قيلَ لَهُم ماذا أَنزَلَ رَبُّكُم قالوا أَساطيرُ الأَوَّلينَ﴾ (النحل/24)

وكأن كل ما يقصه من القصص قد تساوى في نظرها حتى أعادتها بحذافرها إلى محض أساطير. إنها لا تزال تعتقد أن القرآن من عنده وليس من عند الله، لذلك مانفكت سور الجيل الأول والثاني تفند تلك الشبهة؛

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(الواقعة75/80)

وربما ما جعلها متيقنة كون ما يقوله محمد هو محض أساطير، واستحالة أن يكون الهاما إلهيا، عندما بدأت تناقش ما يتحدر من شفتيه، فمعظم آيات سور الجيل الثالث تعلن أن الهداية والضلال وما يفعله الإنس والجن من خير أو شر هو بمشيئة الله وحده؛

﴿ وَلَو شاءَ اللَّهُ ما أَشرَكوا وَما جَعَلناكَ عَلَيهِم حَفيظًا وَما أَنتَ عَلَيهِم بِوَكيلٍ﴾ (الأنعام/107)

﴿وَكَذلِكَ جَعَلنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يوحي بَعضُهُم إِلى بَعضٍ زُخرُفَ القَولِ غُرورًا وَلَو شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلوهُ فَذَرهُم وَما يَفتَرونَ﴾ (الأنعام/112)

فكان ردها؛

﴿ سَيَقولُ الَّذينَ أَشرَكوا لَو شاءَ اللَّهُ ما أَشرَكنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمنا مِن شَيءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم حَتّى ذاقوا بَأسَنا قُل هَل عِندَكُم مِن عِلمٍ فَتُخرِجوهُ لَنا إِن تَتَّبِعونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِن أَنتُم إِلّا تَخرُصونَ﴾ (الأنعام/148)

[177] الدين في شبه الجزيرة 154-155.

لقد رأت قريش في هذا الرد تناقضا صارخا داخل آيات القرآن. عجيب ! **إذا كان الشرك فعل مرتبط بمشيئة الله وصدر عن إرادته فعلام الإعتراض إذن؟ وما معنى أن يتهم محمد قريش باتباع الظن وهي التى اعتمدت على جوهر القرآن من أجل الرد عليه؟ بل تتهم بالتخرص، سنلاحظ أن الآية الموالية تدعم وتؤكد ما قالته قريش وما أقره القرآن سلفا؛**

﴿ قُل فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فَلَو شاءَ لَهَداكُم أَجمَعينَ ﴾ (الأنعام/149)

ثم تتحدى الآية قريش المشركة بإخراج العلم الذي لديها، **عجبا ! أليس هذا العلم هو نفسه القرآن؟ وكأن آيات من القرآن ترد على أخرى في مواضع مختلفة، وذلك ما كنا قد أشرنا إليه كون التناقض في القرآن هو يعود بالأساس للحالة النفسية المحمدية التى تلعب دورا كبيرا في تشكل الآيات، كما لا ننسى أن لغة القرآن في مجملها لغة وجدانية لا عقلانية،** والجدير بالملاحظة، **فإن محمد خلال الفترة المكية لم يكن همه اقناع الكافرين برسالته بالاعتماد على منهج عقلاني بقدر ما كان يبحث عن تثبيت همم المسلمين والرفع من معنوياتهم.**

كيف يمكن للكافرين أن يفقهوا آيات القرآن؛

﴿ انظُر كَيفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُم يَفقَهونَ ﴾ (الأنعام/65)

والله قد جعل على قلوبهم أكنة وفي وآذانهم وقرا ؛

﴿إِنّا جَعَلنا عَلى قُلوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفقَهوهُ وَفي آذانِهِم وَقرًا وَإِن تَدعُهُم إِلَى الهُدى فَلَن يَهتَدوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف/57)

إذن فإن الكافرين لن يهتدوا أبدا حسب هذه الآية، **اشارة واضحة تكشف كون محمد يئس تماما من ذويه، وإلا فما معنى تهديد هؤلاء بعذابات الآخرة والحرص على أن يؤمنوا والكفر مقدر عليهم سلفا؟** إن هذه الآيات هي بمثابة إعلان قطيعة تامة بين المسلمين وقريش، يقينا فإنه على وقع هذا التناقض الظاهري لآيات القرآن ووضعها تحت محك النظر والجدل من طرف المعارضين، أصبح واضحا وضوحا لا غبار عليه أن قريش قد رفضت أمر محمد رفضا قاطعا وأنها لن تقبل به ولا بالقرآن؛

﴿ وَإِذا تُتلى عَلَيهِم آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذينَ لا يَرجونَ لِقاءَنَا ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هذا أَو بَدِّلهُ ﴾ (يونس/15)

شكل القطيعة كان باديا أكثر في هذه الآيات؛

﴿ وَإذا رَأَيتَ الَّذينَ يَخوضونَ في آياتِنا فَأَعرِض عَنهُم حَتّى يَخوضوا في حَديثٍ غَيرِهِ وَإِمّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ فَلا تَقعُد بَعدَ الذِّكرى مَعَ القَومِ الظّالِمينَ﴾(الأنعام/68)

فمن الآن فصاعدا ما على محمد إلا أن يعرض عنهم، فآيات الله لا يجادل فيه سوى الكافرون؛

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ (غافر/4)

فاثبت أنت ومن تبعك على ما أنتم فيه لأنك على صراط مستقيم؛

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف/43)

مع احباطات الواقع في مكة بدأت الأنظار المحمدية تتجه شيئا فشيئا خارج أسوارها، خاصة وأن سور الجيل الثالث ما انفكت تتحدث عن الكتابيين قوم بني اسرائيل، فإذا لم تقبل قريش ومكة به رسولا وبالقرآن وحيا، لعل أهل الكتاب سيقبلون به؛

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ (الرعد36)

علما وأن الكلم القرآني ليس سوى ترديدا لما قاله الرسل السابقون ؛

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (فصلت/43)

تسترسل الشفاه المحمدية قبيل الهجرة ماضية في الإعلاء من شأن بنى اسرائيل ورسلهم، وقد نوهنا إلى ذلك آنفا، حيث تبين له أن مكة ليست المرتع المناسب لاحتضان الدعوة وغرس اللبنات الأولى للكيان السياسي الذي سيضم شمل الاعراب مستقبلا. لقد فكر مليا في الأمر، وهاهنا يظهر حسه العملي البراغماتي كرجل مساير للواقع لا رجل معجزات وخوارقيات، إذ أصبح متيقنا مطلق اليقين من إعراض الأعمام ورفضهم للدعوة رفضا حاسما، فليس إلا لتسير منه اللوالب الفكرية على نغمة تقول : لئن أبى الأعمام فهناك الأخوال، ولئن أبت مكة فهناك يثرب.[178]

فاسترسل في ذكر محاسن بني إسرائيل، مكثفا من سرد تفاصيل ملاحمهم الأسطورية؛

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ (الدخان33/30)

---

[178]الدين في شبه الجزيرة، ص 155

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (الجاثية 17/16)

كل ذلك كان بمثابة التمهيد لمرحلة جديدة ستلجها الدعوة الإسلامية، طبعا هذه المرحلة سيكون عنوانها يثرب، مرحلة تأتي بعد ثلاثة عشر أو اثنتا عشر سنة من الحرب الكلامية الشعواء في مكة، ومن مقابلة الإعراض بالإعراض والإستهزاء بالإستهزاء والسخرية بالهجر حينا والعفو والصفح حينا آخر. **لعل هذا التغني ببني اسرائيل وأنبيائهم يمثل استجداء لعواطفهم وتقربا منهم،** ولقد أيقنت قريش أنها لم تستطيع تثبيط عزيمة محمد والقلة القليلة من المسلمين، فالرجل لا يزال متمسكا بأمر الدعوة رغم كل العراقيل التى اعترضته، مستمسكا بما أوحي إليه لأنه على صراط مستقيم، أما قريش فهم في ضلال مبين.

في يثرب أين تقبع كبرى قبائل اليهود كالنضير وقريظة وبنو قينقاع وكبرى قبائل الأوس والخزرج من بنو النجار أخوال الرسول. وبين قبائل اليهود والأوس والخزرج قصة طويلة وشائكة تتأسس على تنافس تجاري واجتماعي وديني بينهم، تنافس يمكن تلخيصه في كلمتين: **التناحر على الرياسة**. لقد جمع بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة مقابلة صراع محموم هدفه السيطرة على الجوانب الإقتصادية والإجتماعية للمدينة، ولا شك أن اليهود أصحاب الكتاب الأول التوراة كانوا دائما يفاخرون الأوس والخزرج ويعتبرون أنفسهم الأحق بقيادة المدينة، علاوة على ذلك فإن العلاقة بين الأوس والخزرج لم تكن هي أيضا في أحسن أحوالها فقد كان بينهما عداوة وتطاولت بينهما الحروب فمكثوا على المحاربة والمقاتلة أكثر من مائة سنة، وآخر حرب وقعت بينهم حرب يوم بعاث، وذلك قبل أن يهاجر محمد إلى المدينة بخمس سنوات. لم تكن القبائل اليهودية بمنأى عن هذه الحروب لأن البعض منهم كان قد تحالف مع الأوس كالنضير وقريظة وآخرون مع الخزرج كقينقاع، كانت تلك الحروب شاملة لهم وواقعة عليهم أيضا.[179] لا شك أن هذا الصدام والقتال ولد الضغائن بين الأوس والخزرج واليهود، كانت الحرب عوانا بينهم. إن يثرب مدينة تعتبرها اليهود لها خاصة، ولكن الأوس والخزرج قد نازعتها على هذه المدينة العامرة بالزراعة والماء وأراد كلاهما أن تكون له خاصة، وبذلك تمكنت العداوة والبغضاء، واتخذت مصدرها من هدف واحد هو التفرد بالسلطة.[180] ولما كان اليهود أهل كتاب

[179] الشخصية المحمدية، ص 221.
[180] الدين في شبه الجزيرة، ص 156.

وكانوا إذا وقع بينهم بين الأوس والخزرج شئ من الشر توعدوهم وقالوا لهم : **سيبعث نبي قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم.**[181]

إن هذا الوعيد اليهودي كان من بين أهم العوامل التى وضعت الدعوة على درب النجاح في يثرب والإيمان بمحمد كرسول من عند الله، ذلك وأن الأوس والخزرج انبعث في أنفسهم عواطف التماسك وضرورة تجاوز الصراعات الداخلية، حالة تذكرنا بالصراعات السياسية داخل البيت القرشي ولا سبيل لتجاوزها إلا بالدين. لقد أيقنت قبائل الأوس والخزرج أنهم لن يقدروا على اليهود إلا بتفويض أمرهم إلى شخصية قوية تحفظ وحدتهم وتقوي شوكتهم، فالخصوم هم اليهود أصحاب تراث لاهوتي وأدبي اسطوري ضارب في القدم، وقد شكل هذا التراث معضلة بالنسبة إليهم، فهم لا يملكون ما يفاخرون به اليهود، ما يضمن صمودهم أمام هؤلاء الذين يفاخرون بنبي رسول وكتاب منزل، وليس بالضرورة في نظرهم أن تكون هذه شخصية رسولا مبعوثا من عند الله، يمكن أن تكون ملكا وسلطانا وإن كان به لن يستطيعوا رد المفاخرة بالمفاخرة إلا أنه به ستكون لهم قوة وصلابة.[182] فعلا، فقد اتفق كل من الأوس والخزرج على تتويج عبد الله ابن أبي سلول ملكا عليهم،[183] لكن شاءت الأقدار أن تؤول الأمور إلى محمد بن عبد الله.

كانت العقائد اليهودية والنصرانية منتشرة لدى اليثاربة، أدب هاتين الديانتين كان معلوما لدى قبائل الأوس والخزرج، فالمجتمع اليثربي مثله مثل المجتمع المكي متأثر إلى حد كبير بعقائد الكتابيين، وكانت كلمة الله مستخدمة لديهم، وقد عدوا أنفسهم من ذرية ابراهيم، وذلك ما سيعزز اقدام محمد فيما بعد، على تشكيل صورة خاصة عن النبي إبراهيم، كما كانوا على اطلاع واسع بقصص أنبياء بني اسرائيل والعهد القديم، ما يفسر سر ترديد قصصهم على مدى فترة سور الجيل الثالث.

تأتينا من صدور كتب السيرة، حدث بداية عرض محمد نفسه على القبائل.* واقع الأمر، فقد بدأ في عرض نفسه على القبائل منذ السنوات الأولى من الدعوة، فالحج إلى الكعبة يحدث سنويا، مستغلا تلك المواسم من أجل التعريف بالإسلام.

---

[181] ابن هشام، السيرة النبوية ج2 ص 77.
[182] الدين في شبه الجزيرة، ص 157.
[183] الشخصية المحمدية، 221
*السيرة النبوة لابن هشام، الطبقات الكبرى، أنساب الأشراف، السير والمغازي، ناريخ الطبري، الكامل في التاريخ.

لقد رأينا محاولاته الحثيثة من أجل اقناع القبائل الواقعة خارج أسوار مكة عسى أن يجد السند المعنوي والمادي، متبعا الحجاج في منازلهم[184] إلا أن جميع القبائل رفضت اتباعه، والسبب هو إلى من سيؤول الحكم من بعده ؟ والحكم هو الرياسة والسلطة، ولكن الأوس والخزرج سرعان ماستجابوا له.

القصة بدأت مع أبو الحيسر، أنس بن رافع، ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، ذهبوا إلى مكة يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم الرسول فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ، فقالوا له : و ما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله و لا يشركوا به شيئا، وأنزل علي الكتاب. قال : ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا، أي قوم هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء، فضرب به وجه إياس بن معاذ وقال : دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.[185] لا شك أن إياس بعد عودته إلى يثرب تحدث عن تجربته مع الرسول للأوس والخزرج وسمعوا منه ما سمعوا، قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما.[186]

يقينا ! فبعيد هذه الحادثة علمت قبائل الأوس والخزرج بأمر محمد وقرروا مقابلته في الموسم القادم، واضح أنهم سعوا إلى إستغلال هذه الظرفية التى جاءتهم من السماء وذلك ما يفسر سرعة استجابتهم للدعوة، لتجد في نفوسهم مرتعا خصيبا على عكس المكيين الذين رفضوها من أول يوم لأنها كانت تمثل تهديدا لمصالحهم التجارية. إذن فالمصلحة هي كلمة السر أدت إلى تعثر الدعوة في مكة ونجاحها في يثرب. هنا نعقب على ما قاله المصري خليل عبد الكريم أن العاطفة هي السبب في اندفاع هذه القبائل للإيمان بالدعوة: إن مسارعتهم لمعاضدة محمد ﷺ دون قيد أو شرط – خلا شرط الجنة – يقطع بأنهم كانوا يتمتعون بشخصية عاطفية.[187] يقصد أن الأوس والخزرج تغلب العاطفة على تعاملاتهم وسلوكياتهم ويغيب الجانب العقلي. نحن نقول إن سرعة استجابتهم لمحمد صادرة عن ذكائهم العملي وعقليتهم البراغماتية، لأنهم أدركوا سلفا أن إيمانهم به سيقوى شوكتهم من أجل منافسة اليهود ومحاربتهم، ناهيك أن هذه القبائل كانت تشعر بقدر ملحوظ من الإحباط نتيجة لسيطرة اليهود

[184] نفسه.
[185] السيرة النبوية لابن هشام، ج2 ص 76.
[186] نفسه.
[187] قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ص 270.

على مقدرات يثرب الإقتصادية إذ كانت الزراعة والصناعة والأموال في أيديهم.[188] **لم يكن الدين الدافع الرئيسي الذي يفسر مسارعتهم تصديق محمد والإنصهار في الدعوة دون قيد أو الشرط، فاحتكاكهم باليهود طيلة سنوات جعلهم على علم مسبق بقصص الأنبياء والرسل والحياة الأخرى وما فيها من بعث ونشور وحساب وجزاء ونار، الدافع الرئيسي هو إيمانهم أن هذه الشخصية ستحررهم من السيطرة اليهودية ويخلي لهم السبيل لحكم يثرب، أما اندفاعهم العاطفي فهو مصطبغ بصبغة المصلحة، ليس باندفاع ساذج،** والدليل على ذلك قولهم : إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم ما أجبناك من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك.[189]

شعر الخزرج بحاجة قومهم إلى أمر يجمع شتاتهم بعد تطاول تلك الحروب التى أضعفتهم وأوهنتهم، ولم يقضوا عند قبول ما دعاهم إليه، بل تجاوزوه إلى أن صاروا له دعاة، يدعون قومهم إلى ما دعاهم إليه، وما ذلك إلا لعلمهم بأن قومهم في أشد الحاجة إلى أمر من يجمعهم فيتحدون ويتركون ما هم فيه من قتال وشقاق. [190] ألا يذكرنا ذلك بما أكدناه سابقا، كون الدين هو محاولة لتجاوز الصراعات وتحقيق للوحدة المرجوة، فالدين في العصور القديمة وحتى الوسيطة هو منهج إدارة، يعتمد عليه لتنظيم المجتمع وفرض القانون على عكس عصرنا الراهن. أما الذين آمنوا بمحمد فهم ستة نفر من الخزرج، من بنى النجار : تيم الله وأسعد بن زرارة بن عدس، وعوف بن الحارث. ومن بني زريق : عامر بن زريق. ومن بني سلمة : قطبة بن عامر بن حديدة. ومن بني عبيد : جابر بن عبد الله.[191] انتهت المقابلة بضرب من المبايعة على أن يأتوا الموسم القادم، الموسم الذي ستتم فيه بيعة العقبة الأولى. **هنا نكتشف أن الظروف كانت ملائمة، خدمت أمر الدعوة وصاحبها، فالإسلام لم ينجح بالتدخل الإلهي، بل المصلحة الأرضية ساهمت بشكل كبير في نجاحه،** لذلك قلت إنني لا أبالغ إذا وصفنا الإسلام على أنه دين وضعي. إن هذا الإتفاق الذي انعقد بين محمد وهؤلاء الستة كان بمثابة تباشير صبح النجاح أو أول ومضة من وميض برق النجاح.[192]

---

[188]ص 273.
[189]السيرة النبوية لابن هشام، ج2 ص 77.
[190]لشخصية المحمدية، ص 223.
[191]السيرة النبوية ص 78.
[192]الشخصية المحمدية، 223.

وفي الموسم الموالي حضر اثنا عشر نفرا* وبايعوا محمد في العقبة، والعقبة مرقى صعب من جبل يعرض للطريق، واقعة بين منى ومكة، وبينها وبين مكة نحو ميلين، وفيها يرمى الحجاج الجمرة التى تضاف إليها فيقال جمرة العقبة، وفي تلك البقعة لقي الرسول هؤلاء الأنفار الذين أتوا للحج.[193] بيعة العقبة الأولى ستكون بمثابة التحضير للبيعة الثانية وهي البيعة الرسمية، كما ستمهد الأرضية من أجل قبول الإسلام ورسوله في يثرب. تمخض عن البيعة الأولى معاهدة، حيث طلب محمد من الخزرج مبايعته على أن يمنعوه مما يمنعون عنه نساءهم، وقد توهم ابن اسحاق ومن بعده ابن هشام أن بيعة العقبة الأولى هي بيعة النساء، غير أنها ليست كذلك. ربما لأن ابن اسحاق وابن هشام حسبوهها بيعة نساء فهي لم تفرض فيها الحرب، تنص على عدم الشرك بالله، لا تسرق، لا تزني، ولا تقتل أولادك، عدم الإيتان ببهتان تفتريه، وعدم عصيان الله في معروف.**

نستتنتج من خلال بيعة العقبة الأولى ومن بعدها الثانية رغبة محمد الدفينة في المغادرة من مكة، الهجرة، أو بالأحرى الفرار من مكة، ليس بسبب ما تعرض له من اضطهاد وألم معنوي أو لأنه تعرض لمحاولة القتل من طرف كبار الرؤوس القرشية فحسب، فالهجرة فكرة كانت تدور في خلده منذ مدة، وقد أفصح عن ذلك ؛

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر/10)

لقد مضى على الدعوة في مكة زهاء اثنا عشر عاما ورغم ذلك لم تحقق نجاحا باهرا، حتى أن بعض من أسلموا ارتدوا نادمين، وأنكروا الإسلام حين رأوا قضية محمد تراوح في مكانها، خاصة حين وجدوا أن إسلامهم يعرهم للاضطهاد والإذلال، كما أن محاولته من بني ثقيف في الطائف انتهت بالإخفاق ودفعت قريش في الإسراف في عدائه، ومع أن عشيرته بني هاشم ظلوا على حمايته له وممن تبعه من المسلمين إلا أن هذه الحماية كانت مقتصرة على الأذى الشخصي ولم يكن منتظرا أن ينضموا إليه في صراعه مع قريش.[194] **إن التحالف مع الأوس والخزرج سيقلب الوضعية وسيعطي روحا جديدة للدعوة المتعثرة في مكة، فالأخوال بمؤازرتهم إياه سيتمكنون من وضع حد للسيطرة**

*يبدو واضحا أن هذا العدد اسطوري فهو مقتبس من أسباط بني اسرائيل يعقوب وأبناؤه.

[193] ص 222

**لا حظ التشابه بين ماتنصه المعاهدة ووصايا التوارة العشر.

[194] 23 عاما دراسة في السيرة النبوية، سبق ذكره، ص 114-115.

اليهودية في يثرب، وبمؤازرته لهم سيتمكن من كسر شوكة قريش وفرض نفسه بالقوة، فالمصلحة مشتركة بين الطرفين.

وفي البيعة الثانية أو البيعة الكبرى، بيعة ستكون حجر الأساس لبناء صرح الإسلام ووضع الأسس الأولية لدولة الأعراب المستقبلية، لقي محمد وقد كان برفقته ابن عمه العباس ابن عبد المطلب، ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، تمخض عن هذه البيعة وثيقة ميلاد الدولة في يثرب وبروز تحالف عسكري هجومي وليس دفاعي. كان ابن العباس أول المتكلمين في بدايات هذا اللقاء قائلا :يا معشر الخزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة في قومه، ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الإنحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم وافين له بما دعوتموه إليه وما نعيه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه في عزة في قومه ومنعة في بلده.[195] ما إن أكمل ابن العباس خطبته إلا وتدخل البراء بن معرور قائلا : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر. فاعترض القول والبراء يكلم الرسول ﷺ أبو الهيثم ابن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها –يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم، الهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.[196]

إن مجتمع يثرب يختلف في تركيبته عن مجتمع مكة، فالإقتصاد اليثربي كان يقوم على الزراعة خلافا للإقتصاد المكي الذي يقوم على التجارة، علاوة على ذلك فإن العلاقة بين المدينتين كانت متأزمة إلى درجة نشوء عداوة محتدمة بينهما، ففي نظر المكي حرفة الزراعة تعتبر مطعنا في الرجولة، يعيبها ويحتقرها، مما ولد الظغينة في نفسية اليثربي لتلك النزعة المتعالية من عرب مكة.[197] إن مزاولة الزراعة من طرف اليثاربة جعلت منهم أهل حرب وسلاح، ذلك وأنهم كانوا دوما في حالة حذر من القبائل الضارية حولها، خوفا على المحصول من السلب، وهنا كان الإكثار من إقامة الحصون والآطام والصياصي في كافة نواحيها، وما تبع ذلك بالضرورة من طبع أهل يثرب بالخبرة الحربية والجلد، وهو ما تمرس عليه أهلها لكثرة ما حرى بينهم من حروب داخلية أو حروب مع جيرانهم، فكانوا بالمقارنة مع

---

[195] السيرة النبوية لابن هشام، ج2 ص 79.

[196] نفسه.

[197] حروب دولة الرسول ج1، ص 32.

أهل مكة أفذاذ حرب واهل عدة وسلاح، حتى عرفهم التاريخ بأهل الحرب والدم والحلقة والسلاح.[198] وعليه نفهم لماذا أكد البراء بن معرور أن الأنصار اليثاربة هم أبناء حرب وأهل الحلقة ورثوها كابرا عن كابر. أما كلام ابن التيهان فيجب التوقف عنده، حيث تفوح منه رائحة العداء تجاه اليهود، لكن أثناء ابرام تحالف العقبة لم يكن اليهود أعداء للرسول وهو الذي تحدرت من شفتيه طيلة فترة سور الجيل الثالث - فترة تقدر بسنتين من 620 إلى 622 ميلادي - التعظيم من شأنهم والتغني بأنبيائهم ورسلهم، فالعداء لم يظهر إلا بعد الهجرة بسنة، عندما أيقن أن اليهود لن يقبلوا به كرسول من عند الله، ثم إنهم كانوا ينتظرون رسولا حسب تأويلهم للتوراة يعيد لهم أمجادهم. أستبعد معاداة محمد لليهود قبل الهجرة، فالرجل علق آماله على قبول اليهود له والإيمان بالقرآن، لأن معظم ما فيه منقول من تراثهم وأدبهم الاسطوري، فالقرآن هو تصديق للكتاب العبري، **ولكن الأقرب إلى الصواب أن محمد اضطر لقول ذلك في تلك اللحظة المفصلية، فلولا تحالف العقبة لما قام للدولة الإسلامية قائمة، وبالتالي فإن المصلحة ألزمته الإعلان عن ذلك في تلك اللحظة، معاداة اليهود ظاهريا من أجل ارضاء الأنصار، والدليل على أنه لم يكن لهم العداوة قبل الهجرة، يظهر في تخوف ابن التيهان من عودته إلى ذويه لو أقدم الأنصار على قطع الحبال مع اليهود، كيف يعادي اليهود والمنطق المحمدي يقتضي بادئ الأمر احتضانهم والتعايش معهم ؟**

قلنا إن تحالف العقبة هو تحالف عسكري هجومي وليس دفاعي، فمحمد غرضه تركيع قريش، فقد تمنى لو آمن به المكيون لكان مسقط رأسه عاصمة الدولة لا يثرب، و ما قاله العباس بن عبادة أثناء قيام التحالف ملفت للإنتباه. قال ابن اسحاق : وحدثني عاصم ابن عمر ابن قتادة : أن القوم لما اجتمعوا لسعة رسول الله ﷺ قال العباس ابن عبادة ابن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال (نقص الأموال) وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا : فإن نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة. قالوا : أبسط يدك فبسط يده فبايعوه.[199]

---

[198] نفسه.
[199] نفسه ص 92-93.

فهم الخزرج أن البيعة بيعة حرب، بايعوه لا من أجل حمايته فحسب بل كذلك محاربة كل من خرج ومن سيخرج عن طاعته، وقد تفطن لذلك إبن اسحاق قائلا : **وكانت بيعة حرب**.[200] عندما سمع كلام ابن التيهان تبسم، ابتسامة تدل على ما هو مخبوء في نفسه، وكأن سماعه لمصطلحات قتالية حربية متحدرة من شفاه الخزرج أسعده وأطفأ لهيب قلبه المتوهج حسرة ونقمة. لا شك أن كلام البراء و ابن هيثم عن الحرب سر به وأثلج صدره، ورده "بل الدم الدم الهدم الهدم" **هو صيحة من القلب محتجبة لدى محمد كما يظهر للناس، وإفصاح عن رجاء قد هجع طويلا، فنصرة الأوس والخزرج ستفتح الباب على مستقبل زاهر، ستمكنه أخيرا من نشر الإسلام وأن يحمل على معاندي قريش وأن يظهر ذاته الخفية**.[201]

لما كانت بيعة العقبة بيعة حرب، بدأ محمد في تحضير الجيش الذي سيحارب به قريش، باختيار أسماء النقباء الإثني عشر، فاختيار النقباء هو من مقتضيات تأليف الجيش، وبعبارة أهل زماننا هو التشكيلات العسكرية، فكل نقيب من هؤلاء أصبح الرئيس المسؤول عمن يليه من قومه، كما أن قوم كل واحد منهم أصبحوا سرية على حدة من سرايا الجيش الذي يريد تأليفه محمد. ولا ريب أن مثل هذه التقسيمات في الجيش ضرورية لتسهيل الزحف وانتظام الحركة حتى إذا أراد القائد أن يصدر أمرا أصدره بواسطة الرؤساء.[202] بعد أن تمت عملية اختيار النقباء بوضع تشكيلات الجيش قال محمد للأنصار : ارفضوا إلى رحالكم. لكن الأنصار رأوا عكس ذلك، تشكيل الجيش أكسبهم ثقة كبيرة في نفوسهم، إضافة إلى إيمانهم من صميم قلوبهم بالقضية التى يدافعون عنها فاستعجلوا الحرب وهو ما أفصح عنه العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنملن على اهل منا غدا بأسيافنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.[203]

هنا يتجلى مدى الذكاء المحمدي وسياسته البعيدة الغور التى تقوم على الصبر والصبر الجميل، فالظرفية وإن كانت ملائمة للميل عليهم بالسيف، غير أن الحكمة تقتضي الهجرة إلى يثرب أولا ترتيب البيت السياسي ثانيا، ثم العمل على احتواء اليهود من خلال دمجهم في الإسلام ثالثا، محاربة قريش الآن قد تكون له انعكاسات سلبية تشوه صورة المسلمين أمام اليهود بعد عودتهم إلى يثرب. ومن ثم فإن الجبهة الداخلية ليثرب كانت هشة تقوم مثلها مثل مكة على العصبية القبلية، حيث تأصل في المجتمع اليثربي خصومات عنيفة زادت من صلابة التكتلات القبلية وقوة شعور الفرد بالإنتماء إلى

[200] ص 99.
[201] 23 عاما دراسة في السيرة، ص 116.
[202] الشخصية المحمدية، ص 234
[203] السيرة النبوية، ص 94.

قبيلته.[204] فالواقع الإجتماعي في يثرب أشد خطورة مقارنة بمكة، فمكة وإن كانت تركيبتها تقوم على الصراعات القبلية، إلا أنه توجد سلطة سياسية وهي سلطة الملأ، أما في يثرب فلا وجود لسلطة سياسية واضحة وإنما كانت ممزقة بين اليهود من جهة والأنصار من جهة ثانية.[205] وعليه، فإن الحكمة تقتضي تأجيل الحرب حتى يتمكن من ترتيب الجبهة الداخلية قبل فتح جبهة خارجية، وهو تكتيك سياسي ينظر على المدى البعيد لا القريب.

إن بيعة العقبة تعتبر الدافع الرئيسي في تغير الحالة النفسية المحمدية، فبينما كان يكتفي بالدعوة إلى الله بالصبر على الأذى والصفح عن الجاهلين، إذ أخذت نفسه بعدما تمت له البيعة تشرئب إلى الحرب، **بحيث صح أن يقال إن هذه البيعة أول خطوة إنتقلت به من دار السلم إلى دار الحرب.**[206] رغم السرية التى اكتنفت بيعة العقبة فإن الرؤوس القرشية سرعان ما علمت بها وأدركت أن محمد قد أعلن عليها الحرب، وقد علل كُتَّاب السيرة انكشاف أمر المجتمعين في العقبة بصرخة الشيطان، وحين سمع الصراخ قال محمد أن هذا أزب.[207] وهو لا يقصد الشيطان بذاته وإنما هو توصيف للشخص الذي فضحهم، لأن كاشف أمرهم إما من قريش أو متحالف معهم، وكل من هو مناصر لحكومة قريش يعتبر شيطانا، الشخص الذي صرخ في تلك الليلة كان مارا فسمع جرسهم، ليتسلل إلى المكان الذي هو فيه وينصت إلى حديثهم، وما قاله العباس ابن عبد المطلب يؤكد ذلك، فقد أحس بهذا الجاسوس، فلذا قال للقوم أثناء حديثهم : اخفوا جرسكم فإنا علينا عيونا. [208]

حاولت قريش استدراك الأمر باسترضاء الأنصار، فالبيعة بيعة حرب وقريش لا تأبى سوى الحرب : يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.[209] الحرب عمل بغيض ومقيت في نظر قريش فهم أهل تجارة والتاجر لا يفقه كثيرا في القتال والحروب، الآن شعرت قريش بخطورة الموقف، لأن استقطاب محمد لقبائل الأوس والخزرج يمثل بداية النهاية بالنسبة لمكانتها السياسية والإقتصادية في شبه الجزيرة، فالأشخاص الذين تحالف معهم هم أشخاص محترمون لهم باع في القتال والحرب، فهم أهل الدم والحرب والحلقة، ورثوها كابرا عن كابر.

---

[204] تنظيمات مكة والمدينة عند ظهور الإسلام، ص 44.
[205] حروب دولة الرسول، ص 31-32.
[206] الشخصية المحمدية، ص 234.
[207] السيرة النبوية، ص 94.
[208] السيرة النبوية، ص 94.
[209] السيرة النبوية، 94.

لماذا الآن شعرت قريش بالخطر؟ لأن محمد طيلة المرحلة المكية لم يشكل تهديدا حقيقيا، فلم يكن له أتباع يملكون من السند المعنوي والمادي والعسكري ما يمكنه من محاربتهم، أما الآن فقد تحقق هذا الشرط، ولهذا يجب منع محمد من الذهاب إلى يثرب المعروفة بعدائها الطويل لمكة ومنافستها لها على الصعيدين الإجتماعي والإقتصادي. ذلك هو الوازع الذي حمل الرؤوس القرشية على اغتياله، ليس بدافع ديني أو تحزب لعقيدة، بل المصالح الأرضية، وهو ما أكدناه على مر الفصول السابقة، **قريش لم تؤمن بمحمد والقرآن لأنها كافرة أو جاحدة، إنما كانت متخوفة من فقدان سلطتها السياسية على مكة وضياع مصالحها التجارية**. في الأثناء، اجتمعت الرؤوس القرشية في دار الندوة للتشاور فيما يصنعون بمحمد، فاتفقوا جميعا على اغتياله، إلا أنه استشعر أن حياته أصبحت مهددة بعد بيعة العقبة، واغتياله أصبح قاب قوسين أو أدنى، ليسجل التاريخ حدث الهجرة المحمدية صوب يثرب.

الباب الخامس

المدينة يثرب

كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط

معتب بن قشير الانصاري

الفصل الخامس والعشرون: طبيعة القرآن المدني

إن الإختلاف بين القرآن المكي والمدني حقيقة لا جدال فيها، فكل دارس يعتمد على المنهج التاريخي والعلمي لا التلاوة والإرتجال من أجل نيل الثواب، سيلاحظ وبلا أدنى شك وجود إختلاف جوهري بين السور التى انتجت في مكة والسور التى انتجت في المدينة، كما أن الفقهاء والمفسرون المسلمون قدامى ومعاصرون تفطنوا لهذا الإختلاف، واضعين بعض المعايير العامة للتمييز بينهما، قالوا إن القرآن المكي يتميز بمسائل تدور حول أمور العقيدة والآخرة ومجادلة المشركين وقصص الأنبياء، عباراته تتميز بقصر الفواصل وقوة الألفاظ والإيجاز واستعمال عبارة "يا أيها الناس"، بينما القرآن الدني بكونه يخوض في مسائل أخرى، منها العبادات والمعاملات ومجادلة اليهود والنصارى وباستعماله مقاطع طويلة وانفراده بعبارة "يا أيها الذين آمنوا".[1]

لخصنا هذا الإختلاف بعبارة واحدة، القرآن المكي هو قرآن الدعوة والقرآن المدني هو قرآن الدولة، توصيف استعمله محمد عابد الجابري ونحن نتفق معه في ذلك، غير أنني سأثريه ليصبح المعنى أكثر دقة، القرآن المدني يجمع في الحقيقة بين الدعوة والدولة، فمحمد في يثرب بقي يدعو للإسلام، حيث سجلت آيات القرآن محاولات حثيثة لإقناع الكتابيين وخاصة اليهود بالإسلام، وفي نفس الوقت فإن الآيات المدنية ترسم ملامح جديدة اكتسبها محمد في يثرب، ملامح القائد العسكري والحاكم السياسي، جمع بين صفة النبي والحاكم.[2] إن إنتقال مسرح الأحداث من مكة إلى يثرب يعتبر العامل الأساسي الذي أعطى انطباعا جديدا للغة القرآنية ومضامين السور، فالبيئة اليثربية بتناقضاتها وتقلباتها تختلف عن البيئة المكية، فالدعوة وجدت مرتعا خصيبا في نفوس الأنصار لأنهم كانوا منساقين بالدافع السياسي من أجل إحلال السلام.[3] أما الدافع الديني فقد كان أقل وطأة بسبب تفشي تعاليم كل من اليهودية والنصرانية،* كما أنهم كانوا على علم مسبق بتعاليم الإسلام بواسطة اليهود والقبائل المسيحية المجاورة للمدينة.[4]

---

[1]مدخل إلى القرآن الكريم ج 1، سبق ذكرهن ص 237-238.
[2]فصول من تاريخ الإسلام السياسي، سبق ذكره، ص 25
[3]تاريخ القرآن، ص 149.
*ذكر بعض كتاب السيرة أن قيس ابن الأسلت أحد شعراء الاوس المشهورين كان على دين إبراهيم مع زيد بن عمرو بن نفيل، كان قبل ظهور الإسلام يتأله ويدعى بالحنيف. ومن شعره ؛
يا راكبا إما بلغت فبلغن مغلغلة عنى لؤي بن غالب
أقيموا لنا دينا حنيفا فأنتم لنا قادة قد يقتدى بالذوائب
[4]نفسه.

إن حدث الهجرة الذي يعتبر مفصليا لدى المسلمين ولصيرورة الدعوة كانت له تبعات عميقة على النفسية المحمدية وعلى فلسفته، منهجه في التفكير تغير تماما، وذلك أمر طبيعي، **لأن عظماء وصناع التاريخ لطالما يتأقلمون مع الظروف الجديدة التى تحيط بهم ويسايرونها ويتعاملون معها بحنكة وذكاء**، قال نولدكه : **لم يكن أهل المدينة منذ البداية أن يحولوا سلطة محمد الروحية إلى قيادة سياسية، ولكن هذا التطور حتمتها ظروف إستغلها النبي بذكاء.**[5] إن التغير في تفكيره حصل قبل الهجرة، لقد حصل لحظة بيعة العقبة الكبرى، فبينما كان في مكة يكتفي بالدعوة إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهلين، إذ أخذت نفسه بعدما تمت له البيعة تشرئب إلى الحرب، بحيث صح أن يقال إن هذه البيعة أول خطوة انتقلت به من دار السلم إلى دار الحرب، يدل على ذلك إنتخابه عقب البيعة اثني عشر نقيبا من الأنصار الذين قد بايعوه بيعة حرب.[6] يرد أغلب الفقهاء المسلمين على هذه المسألة كون محمد تعرض للأذى والمضايقة فكان لزاما عليه وعلى المسلمين إعلان الحرب، رد يقوم على مغالطة، فقد ألحق به الأذى عندما كان في مكة ومعه قلة قليلة، ولكن هجرته إلى يثرب أكسبته ثقة مفرطة، فالأنصار ناهيك أنهم صدقوه وآمنوا به كرسول فإنهم سيحمونه من كل أذى، **فما الداعي إذن من إعلان الحرب وقريش لن تقدم على محاربتهم لأنها تعلم سلفا أن أي محاولة للدخول في حرب مع محمد وهو في يثرب يعتبر إنتحارا، وذلك لسببين، أولا؛ إلى جانب أن الحرب عمل بغيض ومقيت في نظرها فإنها لا تفقه كثيرا في الحروب فهم أهل تجارة كما ذكرنا، والتاجر يميل للسلم مفضلا التفاوض. ثانيا؛ قريش والمكيون كافة يعلمون أن اليثاربة والأنصار هم أهل الحلقة ورثوها كابرا عن كابر، وعليه فإن محاربة محمد أصبحت مستحيلة، وذلك ما يفسر اعداد العدة من أجل إغتياله قبل أن الإلتحاق بالأنصار. بناء على ما تقدم فإن إصرار محمد على محاربة قريش والمكيين وازعه ليس إيماني ديني، ولكن سياسي سلطوي.**

إن الجو العام في يثرب لعب دورا هاما في تحديد طبيعة القرآن المدني، من قرآن يهتم بكل ما هو تأملي أخروي، يدعو إلى عدم التشبث بالأمور الدنياوية، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، إلى قرآن يهتم بالأمور الدنيوية وبمشاغلها، وليس لنا اعتراض على ذلك، بل سبق وقلنا أن الإسلام منسجم مع الواقع وتغيراته، فالآيات تنشأ حسب الظروف والوضعيات، ما خلق ضربا من الجدلية بين القرآن والواقع. إذن فالقرآن المدني ذو طبيعة تشريعية سياسية، حقيقة يعكسها تاريخ النص القرآني

[5]تاريخ القرآن ص 150
[6]الشخصية المحمدية، ص 234.

بوضوح تام، عبر مرحلتيه المكية والمدنية، في المرحلة الأولى حيث لم يكن لهذا المجتمع وجود بالمرة، لم يتطرق النص إلى أي تشريعات ذات مضمون تكليفي، بل نحى منحى إلهيا أخلاقيا خالصا، إهتم من خلاله بتقديم مفهوم توحيدي بسيط يتسم بدرجة عالية من المثالية الاخلاقية. بعد الإنتقال إلى المدينة بدأت ملامح المجتمع الإسلامي في التشكل تدريجيا، حينئذ بدأ النص يسفر عن نشاطه التشريعي.[7] بيد أن عدم خضوع السور القرآنية للتسلسل التاريخي جعل الأحكام التشريعية التى صدرت في المدينة غير واضحة ومشرذمة وبالتالي يصعب إستعابها وهضمها، ولو صدرت حسب تسلسل تاريخي واضح لكان فهم تطور الإسلام وتاريخانية أحكامه أكثر عقلانية.

إن القرآن المكي في معظم سوره كان يهيمن عليه النبرة الغنائية الذي يذكر بدعوات أشعيا وأرميا اللذان كان يستحضران حماس روح مفعمة بالرؤى.[8] تطرقنا لهذه المسألة منذ البداية ورأينا كيف كان محمد في مكة يستشعر قرب يوم القيامة، حالة عاشها كثير من الرهبان والمتصوفة والروحانيون على مدى التاريخ، كثيرة هي السور التى تلمح بطريقة غير مباشرة قرب الساعة، فالمسافة الفاصلة بين الزمن الذي بعث فيه والزمن الذي ستأتي فيه الساعة هي في الطول السبابة. استنتج المستشرق الفرنسي بول كازانوف أن محمد في مكة كان على يقين أن الساعة قريبة وأن ما يقوله ليس بزور أو وبهتان فهو صادق مع نفسه، ففي بعض السور نلاحظ أنه كان واثقا من قرب الساعة وأنها قاب قوسين أو أدنى، وذلك يتجلى خاصة في سورتي الهمزة والتكاثر. **أسباب ذلك هو إحباطات الواقع، الصد والرفض المتكرر من قريش جعله يعتقد بقرب الساعة كضرب من التنفيس والترويح عن نفسه، كما أنه قد يكون هذا اليقين من قرب الساعة هو ضرب من الكشف الباطنى الذي يعيشه المتصوفة والروحانيون والعلماء كذلك، حيث استشهد كازانوف بما حدث مع الرياضي والمهندس اليوناني أرخميدس** Archimède **الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد.** اصطدم أرخميدس بمعضلة فيزيائية لم يقدر على حلها ولكنه في لحظة تأمل بينه وبين نفسه وهو يستحم، خطر بباله الحل بطريقة مفاجئة، فخرج مسرعا يصرخ، وجدتها ! وجدتها !.[9]

إن تطور النفسية المحمدية أمر مثبت، حيث كان في مكة على يقين بقرب الساعة، لذلك قلنا إن القرآن المكي موجه لكل ما هو أخروي والكوارث التى ستلحق بيوم القيامة، أما في المدينة فقد تراجع

---

[7]الدين والتدين التشريع والنص والإجتماع، عبد الجواد ياسين، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ص 36.
[8]23 عاما دراسة في السيرة، ص 118.
[9]محمد ونهاية العالم Mahomet et la fin du monde, p 71

اهتمامه بما هو اخروي لأن وظائفه كقائد عسكري ومشرع شغلته عن ذلك.[10] إذن يوجد تطور جلي متعلق بجملة من العوامل الأرضية تمخض عنها تغير في فلسفة محمد وآثارها كامنة في القرآن المدني، فقد انتقلنا من سور تطغى عليها السكينة الإيمانية التى عبرت عن روح ديني خالص في مكة إلى سور يطغى عليها الجيشان الإجتماعي الذي صار يعكس اهتماما دنيويا صريحا، وهو يمضي في اتجاه الدولة. في المدينة حيث التناقضات الإجتماعية بين الأنصار واليهود من جهة والكتابيين والمسلمين من جهة ثانية شغلت مساحة هامة من القرآن المدني، هذه التناقضات تبلورت في شكل سلسلة من المواجهات في عديد من المناسبات، وقد تضمن القرآن المدني سجلا تفصيليا لوقائع المواجهة التى كانت تجري على مستويات ثلاثة؛ نظرية، سياسية، وحربية، بين الجماعة المسلمة وخصومها من قريش وبقية القبائل، واليهود، وبدرجة أقل، النصارى.[11]

القرآن المدني تغيب فيه الحوارات والنقاشات العقيمة بين محمد وقريش وانكفأ النص على معالجة العلاقات التى طغى عليها الطابع الحزبي السياسي، وذكر لبعض النصوص التشريعية في مسائل القتال والغنائم والخمس، الميراث والزواج والطلاق فيما بين المسلمين والمشركين، ومع اليهود دخل في حوار تاريخي لاهوتي انتهى بإجلائهم كليا عن المدينة.[12] إذن نستخلص أن طبيعة القرآن المدني تشريعية جاءت في معظم الأحيان بلغة صارمة، **لأن تغير الواقع الديمغرافي والسياسي في يثرب هو العامل الأساسي في التحول الذي طرأ على شخصيته، من رجل كان فكره مثبتا على يوم الآخرة والدعوة إلى الصفح والعفو وعدم اللجوء إلى العنف، إلى رجل محارب عازما على نشر ديانته بحد السيف، ومؤسس دولة مولعا بتدبير المكائد.**[13] في يثرب سنكون أمام رجل يملك السلطة الروحية، النبوة، والسلطة المادية، الحاكم والقائد العسكري، وما كان له ليكتسب الصفة الثانية لو لم يجد البيئة الملائمة، وهنا لا نتفق مع نولدكه عندما قال إن أهل المدينة منذ البداية، أي منذ الأيام الأولى بعد الهجرة، لم يكن همهم تحويل سلطة محمد الروحية إلى سلطة عسكرية.[14] فالأنصار الذين صدقوه هم في الأصل يبحثون عن شخص يجمع شتاتهم ويوحدهم أمام خصمهم العنيد والتاريخي وهم اليهود، حيث أنهم فكروا في تنصيب ملك عليهم وهو عبد الله ابن سلول، وحباذا لو كان نبيا لأنهم سيفاخرون به أهل الكتاب، فالجانب الديني ثانوي في نظرهم، لأنهم على علم مسبق بتعاليمه، أي أنهم مسلمون قبل إكتشافهم للإسلام، ذلك وأن الإسلام هجين من الأفكار والعادات والتقاليد التى كانت منتشرة في

---

[10] نفسه.
[11] الدين والتدين المرجع السابق، ص 38-39
[12] نفسه.
[13] 23 عاما دراسة في السيرة، ص 117.
[14] تاريخ القرآن، ص 150.

شبه الجزيرة قبيل الإسلام، **فالتشريعات والاحكام القرآنية معظمها إذا لم نقل جلها مقتبس من حضارات ما بين النهرين.**

لقد آمن الأنصار بمحمد من أجل محاربة اليهود، وآمن بهم من أجل محاربة قريش، الأنصار وعوا أنه يستحيل تحييد العنصر اليهودي إلا من خلال شخصية قوية وذكية، لها دراية واسعة بالسياسة والقيادة، شروط رأوها في محمد فيه فسارعوا لنصرته، وبالتالي، **فالمصلحة متبادلة بين الطرفين، أهل المدينة سعوا لتحويل سلطته إلى سلطة عسكرية ولم يرفض ذلك، بل هي فرصة ثمينة استغلها بذكاء. وصف نولدكه تحول سلطته من روحية إلى قيادة سياسية بتطور حتمته الظروف التى استغلها النبي بذكاء، وقد سجلت موهبته في ادارة الدولة هنا نجاحاتها الأولى.**[15]

إن السور المدنية تميط اللثام عن صيرورة الإسلام والقرآن، منذ الأيام الأولى بعيد الهجرة بدأت الدعوة تبتعد عن طبيعتها الوعظية الروحية حريصة على عدم فرض أحكام إلزامية، فالمجتمع المكي كان قائما على العصبية القبلية والطبقية ولم يكن هناك دين رسمي ينظم العلاقات بين الناس فالمناخ المكي كان يتميز بضرب من الحرية الدينية وذلك خدمة للمعاملات التجارية، فالحرية الدينية كانت تجني منها قريش أموالا طائلة. أما في المدينة فالمجتمع كان يميل إلى الوحدة حول قائد واحد وهو النبي والقائد العسكري محمد، عصبية دينية أشد ضراوة من العصبية القبلية، فالمجتمع اليثربي بعد هجرة محمد وأصحابه بدأ يميل نحو الإتحاد وإلغاء التشتت من خلال إلغاء الصراعات والتناقضات الداخلية التى حكمت العلاقات بين الأوس والخزرج طيلة عقود، فالإسلام كان بمثابة نعمة ربانية في نظرهم، لقد نجحوا أخيرا من ترك خلافاتهم جانبا وتصويب أنظارهم نحو رجل واحد وهدف واحد، ألا وهو تاسيس الكيان السياسي الذي سينتهي بلم شمل الأعراب كافة. على غرار ذلك، فإن ارهاصات تأسيس نوع من النظام الثيوقراطي أصبح متاحا في يثرب، والثيوقراطية تعني السلطة الإلهية أين تسود أحكام وقوانين الإله النازلة من السماء، وعليه، **تبوأ محمد مكانة "الرسول الملك" يجمع بين السلطة السماوية والأرضية.** رأى نولدكه أن محمد قبل ذهابه إلى يثرب لم يدر في خلده تأسيس ثيوقراطية تشبه الثيوقراطية الموسوية، يكون فيها الله ومحمد المرجع الأخير في كل النزاعات.[16] بناء عليه، يتضح للقارئ الكريم أن محمد ليس بشخصية متعالية عن التاريخ، بل مساير له، يتعامل مع ممن حوله وفق الظرف والحاجة، ليصبح محمد في يثرب زعيم أمة يحكمها باسم الله، وطبيعي أن يكون لهذا الزعيم مقر إقامة كمنطلق للحكم وإصدار الأوامر والنواهي، هذا المقر هو المسجد. أول الأمور التى أقدم عليها

[15] نفسه.
[16] نفسه.

محمد بعد الهجرة هو بناء المسجد قبل ترتيب البيت الداخلي ليثرب، والظروف التى أحيطت ببناءه ملفتة، كشفت لنا الإرهاصات الأولية للنظام الثيوقراطي.

لقد لجأ للحكم النازل من السماء لحل مشكل المكان الذي سيتم فيه بناء المسجد، من المؤكد أنه شعر بالإحراج أمام مطلب الأنصار للإقامة عندهم، فكل قبيلة تسعى لاحتضان مقر إقامته. عرض رجال من بني سالم وبني ساعدة ومن بني حارث على محمد وهو راكب فوق ناقته الإقامة، ولكنه في كل مرة كان يرد عليهم "خلوها إنها مأمورة".[17] طريقة حصيفة من خلالها ربط محمد السماوي بالأرضي زاعما أن حسم موقع اقامته معلق بإرادة الإله، لانه لو ظهر اختياره وكأنه صادر عن ارادته الخاصة، فإن ذلك سيثير النعرات القبلية، لحسم المشكل وتجنب الإحراج، علَّقَ ارادته بارادة الله ما يمثل جوهر الثيوقراطية.

إن ترتيب السور المدنية وفق تاريخ تطور الدعوة الإسلامية يختلف عن السور المكية، فالمادة التي وصلتنا حول محمد والمسلمين منذ اعلانه للنبوة إلى الهجرة تعتبر شحيحة جدا مقارنة بما وصلنا بعد الهجرة، وعليه فإن عملية الترتيت ستكون أكثر وضوحا وأقرب إلى التسلسل التاريخي والمنطقي بين السور. السور المدنية أقل عددا من السور المكية قرابة تسعة وعشرين سورة اخترنا توزيعها حسب مرحلتين تاريخيتين وهما سور الجيل الرابع وسور الجيل الخامس.

[17] السيرة النبوية ابن هشام ج2، ص 137.

لقد أعلن محمد الحرب ضد قريش قبل الهجرة، ولكنها حرب مؤجلة التنفيذ، فالحنكة السياسية تقتضي ترتيب الأمور الداخلية وذلك من خلال توحيد اليثاربة والبحث عن نقاط الإلتقاء بين مختلف الشرائح المكونة للمجتمع اليثربي. أول ما أقدم عليه هو تبني فلسفة تسامحية تدعو إلى قبول الآخر والتعايش معه، فلسفة عنوانها الإهتمام بالآخر والإنفتاح عليه(altruisme) تتأسس على إحلال الأخوة الدينية محل الأخوة القبلية بين المهاجرين والانصار وبين الأوس والخزرج.[18] إنها سياسة رصينة تكشف الجانب البراغماتي لمحمد منذ أيامه الأولى بعد الهجرة.

كانت مكة تتمتع بنوع من الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي نتيجة لوحدة السكان فيها، واجتماعهم على غاية واحدة هي رعاية الكعبة وتنظيم أمور التجارة الداخلية، ظروف لم تتوفر في يثرب لأن المجتمع كان شديد الإختلاف، سكانها كانوا مختلفي الجنسية ومختلفي الطبائع، فضلا عن عدم وجود حكومة أو سلطة فوقية تردعهم وتقهرهم، وعليه ستكون القوة الذاتية عن طريق الأفراد أو الجماعات هي الضمان الوحيد لحفظ الحقوق، وهذا في الظاهر قد يحقق ضربا من الاستقرار النسبي إلا أنه يحمل في طياته عاملا من عوامل التناحر والنزاع.[19] سبق وذكرنا أن المكي بصفة عامة والقرشي بصفة خاصة يأبى الحروب والنزاعات ويمقتها، لأنه ذو عقلية تجارية، والتاجر يميل إلى التفاوض وينشد السلم والأمن. أما في يثرب فالإقتصاد كان زراعيا بالأساس مما جعل من سكانها يرون في الأرض سبب معاشهم، فهم متشبثون بها ويستحيل عليهم تركها، وكل محاولة لإجلائهم منها ستؤدي إلى حروب وسفك للدماء، وبالتالي كان الجو السائد في يثرب جوا حربيا، لتنقسم بذلك إلى معسكرات، كل معسكر يرغب في الاستيلاء على أرض الآخر وتوسيع أملاكه، وهو ما يفسر انتشار الحصون والقلاع والآطام (الأماكن المرتفعة)، وتبعا لذلك فقد ساد في المدينة جو من عدم الأمن جعل الحياة فيها أمرا عسيرا.

إن هذه الظروف كانت سببا مباشرا من أجل تأسيس النظام الثيوقراطي لدولة الاعراب المستقبلية، لأن ربط القوانين والأحكام بالسماء يفرض على المتلقي الاستماع والاذعان من دون تردد أو نقاش، مع العلم أن السياسة الثيوقراطة لم تحرز نجاحا كاسحا في السنوات الأولى بعد الهجرة، فشريحة هامة من اليثاربة لم تذعن لأوامره.

[18]فصول من التاريخ الاسلام السياسي، سبق ذكره، ص 26.
[19]مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، سبق ذكره، ص 341.

اتبع محمد سياسة حصيفة خلال السنة الأولى تقوم على الحرية الدينية، الواقع اليثربي فرض ذلك فرضا، إذ يستحيل طي التناقضات الاجتماعية الصارخة إلا بالاعتماد على سياسة توافقية بين جميع الأجناس والمعتقدات، اليهود يشكلون الشريحة الأكبر في يثرب، كان لديهم مكانة خاصة في عقل وقلب محمد طيلة السنة الأولى، لانه علم سلفا بضرورة دمج هذه الطائفة في الإسلام، فاليهود هم أصحاب تراث ديني وأدبي ضارب في القدم، فضلا عن ذلك فإن معظم الكلم القرآني متأت من أدبهم الأسطوري وتراثهم الخرافي. إزاء هذا الحدث تم انتاج قسم هام من سورة البقرة كأول السور المدنية والأطول في القرآن، نجد في طياتها محاولات جبارة لابراز نقاط التقاطع وتقريب وجهات النظر بين أصحاب الديانات المختلفة إلى درجة أن القرآن في هذه الفترة جاء مصدقا لما في التوراة والإنجيل، كما نَصَّ على اعتبار أنبياء اليهود والنصارى أنبياء للمسلمين.[20] جاء ذلك في بنود معاهدة سياسية اجتماعية، مثلت شكلا من أشكال الدستور، ركزت في مجملها على علاقة اليهود بالمسلمين، حثتهم بطريقة غير مباشرة على الإنصهار في الدين الجديد. نقرأ في مقدمتها ما يلي ؛

إن من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة، وأنهم يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.[21]

سورة البقرة هي من أول السور المدنية، ولكنها تحتوي على آيات نشأت متأخرة زمنيا عنها، وذلك هو مشكل النص القرآني الذي أشرنا إليه منذ البداية، يتمثل في غياب التسلسل التاريخي ليس بين السور فحسب بل أيضا بين الآيات، عدم خضوع السور إلى وحدات نصية منسجمة، وإنما تتشكل في الغالب من نوع من التجاور بين الآيات التى قد تختلف قليلا أو كثيرا في تواريخها، أو من حيث ظروف الخطاب الذي لفظت فيه لأول مرة، أو من حيث مضامينها أو صياغتها التعبيرية.[22] قد نجد آيات في بعض السور سواء المكية أو المدنية تتبع تسلسلا تاريخيا واضحا، إلا أنها ظاهرة ظرفية لا تشمل جميع الآيات، فسرعان ما يغيب هذا التسلسل وتتشوش الآيات، حيث أن البعض منها دمج في سور لا تنتمي إليها في الواقع.

لن نتقيد في هذا الفصل بتسلسل تاريخي دقيق كما فعلنا مع السور المكية، ولكن سنضطر للخروج عن هذه القاعدة وهو ما لم نتخيره عن إرادة، بل بنية القرآن الأدبية فرضت علينا ذلك،

[20]فصول من تاريخ الاسلام السياسي، ص 26.

[21]الدين في شبه الجزيرة، ص 186.

[22]القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر ص ص 146-147.

والجدير بالملاحظة فإن عدم تسلسل الآيات تاريخيا يكشف وبلا مواربة ميل القرآن إلى اتباع ما تلهمه الظروف الراهنة، أكثر من اتباع نظام ثابت،[23] ما يكشف أيضا كون القرآن منصهر في منطق التاريخ.

منذ الأشهر الأولى في يثرب استرسلت الشفاه المحمدية رافعة شعار التسامح الديني عملا بفحوى المعاهدة التى وضعها كمرجع أساسي لتنظيم المجتمع مثل*؛

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾﴿وأولَـئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة4/1)

لم يتوانى عن المبالغة في الإعلاء من شأن اليهود إلى حد تنزيلهم منزلة القداسة؛

---

[23] تاريخ القرآن، ص 153.

*نجد في فاتحة سورة البقرة ما يعرف في التراث الإسلامي بالحروف المقطعة، وهي صراحة لغز محير، طبعا لا نجد لدى المفسرين المسلمين سواء الأولين أو المتأخرين إجابة مقنعة ومنطقية عنها، حيث كتبوا فيها العجب العجاب إلى حد أن القارئ يصيبه الدوار ولا يخرج بأي إجابة، يجب عليك أن تعيش حياة ثانية حتى تقرأ الكم الهائل الذي كتبوه حولها، وكله ضرب من الطلاسم والبهلوانيات لا طائل منها ولا تنطلي إلا على عقلية الطفل. لكن هناك رواية نقلها ابن هشام عن ابن إسحاق ملفتة للنظر ؛

قال ابن إسحاق : وكان ممن نزل فيه القرآن بخاصة من الاحبار والكفار يهود، الذين كانوا يسألونه ويتعنتونه ليلبسوا الحق بالباطل، فيما ذكر لي عن عبد الله بن العباس وجابر بن عبد الله بن رئاب، أن أبا ياسر بن أخطب مَرَّ برسول الله وهو يتلو فاتحة البقرة ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ فأتى أخاه حييّ بن أخطب في رجال من يهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عز وجل عليه: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ ﴾فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم.قال فمشى حييّ بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ ﴾؟ فقالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بَلَى» فقالوا: أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: «نَعَمْ» قالوا: لقد بعث الله جل ثناؤه قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبيّ منهم ما مدة ملكه وما أَجَل أمته غيرك فقال حييّ بن أخطب: وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، قال: فقال لهم: أتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ قال: ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: «نَعَمْ» قال: ماذا؟ قال: «المص» قال: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون. فهذه مائة وإحدى وستون سنة هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نَعَمْ» قال: ماذا؟ قال: «الر» قال: هذه أثقل وأطول الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة فقال: هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: «نَعَمْ المر»، قال: فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة. ثم قال: لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلاً أُعطيتَ أم كثيراً ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد: إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، ومائتان وإحدى وثلاثون، ومائتان وإحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره. (ابن هشام السيرة النبوية ج 2 ص 187-188)

رأى نولدكه في البداية أن هذه الحروف هي اختصار لأسماء مالكي السور خلال فترة جمع القرآن وبالتالي لم تصدر عن محمد نفسه فهي إضافة لاحقة، لكنه تراجع فيما بعد وأخذ برأي مستشرقين آخرين كونها تعود لمحمد نفسه. ربما صدرت عنه لإضفاء ضرب من الغموض على ما يقوله وكأنه صادر عن إله لا يعلم تفسيرها إلا هو. هذا الطرح فيه جانب من الوجاهة، فمحمد في المدينة دخل في صراع جدلي مع اليهود من أجل اقناعهم بأنه رسول من عند الله وأن ما يقوله من قرآن لا دخل له فيه، فابتكر فكرة الحروف المقطعة التي هو نفسه لا يعلم ما هي، إنما علمها عند الله. أراد بذلك الدخول في مبارزة أدبية مع اليهود الذي يمتلكون أدبا وتراثا اسطوريا وخرافيا، فمعظم القصص القرآني وليس كله، متحدر من الأساطير والخرافات اليهودية لكن بتصرف. حاول أن يثبت أن القرآن أكثر غموضا وخرافية من أدبهم وتراثهم، وكأننا في منافسة بين طرفين عنوانها؛ من له دين فيه طلاسم واساطير وخرافات وخزعبلات أكثر من دين المخالف. عندما اعترض عليه اليهود، شعر محمد بالإحراج فتدخل فجأة إلهه لينقذ الموقف ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (آل عمران/ 7) إذن وجد محمد الحل، فالقرآن فيه بعض الآيات المتشابهات لا يعلم تاويلها إلا الله، والسؤال ؛ إذا لا يعلم تأويلها إلا الله لماذا أنزلها أصلا؟ ألا يساهم ذلك في ظهور اللغط والتفرقة بين الناس؟ ما على المؤمن سوى التسليم بها وعدم التساءل.

﴿يا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة/47)

التذكير بالمصائب التى حلت بهم، وكيف تدخل الإله بالمعجزات في كل مرة لإنقاذهم من بطش العدو؛

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَـٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة51/49)

التذكير بذنوبهم وكيف تجاوز الله عنهم عسى أن يهتدوا بشعبذاته؛

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة57/54)

واضح أن هذه الآيات وردت بصياغة أدبية تهز العواطف وتستجدي المشاعر، تندرج ضمن محاولة محمد الرامية إلى تمتين أواصر الود مع يهود يثرب، ولعل الآية التالية جاءت كإعلان للغفران التام على ما اقترفوه من خطايا وبداية صفحة جديدة مع الإسلام؛

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة/58)

نداء يعكس ذروة التسامح الديني الذي أعلن عنه الرسول مباشرة بعد الهجرة؛

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/67)

ولعلنا سنكون هنا أمام تناقض ؛ كيف للدولة الدينية أن تقوم على مبدأ الحرية الدينية؟ نعود لنؤكد أن بنية المجتمع اليثربي هي التى فرضت على محمد توخي نوع من المرونة الدينية، فمحمد في يثرب ليس رسولا فحسب بل سياسي وقائد عسكري عليه أن يتحلى بوازع كبير من البراغماتية

السياسية، فإعلان الحرية الدينية هدفه تحقيق انسجام بين اليهود من جهة والأوس والخزرج من جهة ثانية والمهاجرون من جهة ثالثة، إن الواقع يتميز بنوع من الهشاشة وبالتالي يجب الحذر في التعامل معه، فلو فرض محمد دينه منذ البداية لأدى ذلك إلى انفجار اجتماعي غير محمود العواقب وهو الذي كان حريصا على توحيد الجبهة الداخلية قبل فتح جبهة خارجية المتمثلة في محاربة قريش. إن هذا التسامح الديني هو ضرب من التكتيك السياسي يعكس فهم محمد السليم وبُعد نظره في التنظيم، ما كفل لهذه الجماعة الاستقرار والترابط. ولقد تحقق كل من الاستقرار والترابط عندما حرص على احلال رابطة العصبية الدينية وإلغاء العصبية القبلية، فأطلق على الأوس والخزرج اسم الانصار، كمقدمة لازالة الفوارق وتوحيدهم في بوتقة الدين الجديد، ثم عمل على التأليف بين الأنصار والقادمين من مكة المهاجرين نظرا والاختلافات الأخلاقية والمعرفية بينهما ملتجئا للمؤاخاة، وذلك ما نجد صداه في سورتي الحجرات وآل عمران؛

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات/10)

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران/103)

مؤاخاة درء بها محمد كل أشكال التناحر والعصبية بين الأنصار والمهاجرين الرقاق الحال الذين لا يملكون ما يملكه الأنصار المستقرون في يثرب من ثراء مادي، فما على الأنصاري سوى واجب التكفل بأخيه المهاجر. [24]وهو ما أفصحت عنه آيات من سورة الأنفال؛

﴿وَالَّذينَ آمَنوا مِن بَعدُ وَهاجَروا وَجاهَدوا مَعَكُم فَأُولئِكَ مِنكُم وَأُولُو الأَرحامِ بَعضُهُم أَولى بِبَعضٍ في كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾ (الأنفال/75)

لقد نجح محمد نجاحا باهرا في إزالة الفوارق بين مختلف الفئات المكونة للمجتمع اليثربي، وهي الخطوة الأولى من أجل تأسيس الكيان السياسي الذي يسمى الدولة، ولكي يضمن أكثر دمج الفئة اليهودية في الإسلام لم يكتفي بالإعلاء من شأنهم في القرآن إلى درجة أنه فضلهم على العالمين، بل اتخذ في الأشهر الأولى بعد الهجرة بيت المقدس كقبلة للصلاة، وصام صومهم، واستبدل التحية القرشية

[24]الدين في شبه الجزيرة، ص 178

"حياك الله " إلى التحية القرشية " السلام عليكم ".[25] إن هذا التقرب من اليهود بتبني فلسفة الانفتاح على تعاليم ديانتهم وعقد تحالف سياسي معهم ترجمته "الصحيفة". **تقرب يعكس مدى القوة التي تحضى بها هذه الطائفة الدينية في الحفاظ على التوازنات الاجتماعية داخل الدولة الفتية. يجب الإعتراف أن هذا التقرب والمبالغة في التسامح لا يعكس ايمانا صريحا بهذه القيم بقدر ما يعكس ضربا من التوجس المحمدي من هذه الفئة التي قد تتحول إلى عائق خطير أمام مشروعه الديني والسياسي، لذلك قلنا أن جل آيات سورة البقرة تبحث عن إقامة نوع من التناغم بين تعاليم الإسلام وتعاليم اليهودية، وأن جوهر الإسلام لا يتنافي معها، فالرسالة القرآنية تتفق جوهريا مع الرسالة التي تلقاها النبي موسى فوق جبل سيناء، وحتى يوثق أكثر صلته معهم، حدد صلاة الجماعة يوم الجمعة بعد الزوال لكي يتسنى للمسلمين الالتحاق بالاستعدادت التي يؤديها اليهود لليوم الموالي يوم السبت.** إن هذه السياسة التسامحية مثلت الحافز الرئيسي لتدوين الصحيفة، كانت بمثابة حجر الأساس من أجل تثبيت المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين من جهة، وضمان التسامح الديني بين المسلمين والنصارى واليهود من جهة ثانية.

بذلك نجح محمد خلال أقل من سنة من تحييد الجبهة الداخلية لتصبح الظرفية ملائمة لفتح جبهة خارجية ألا وهي المرور بسرعة إلى الحرب المؤجلة ضد قريش وأزلامها. إن الحرب التى شنها بدعم من الأنصار والمهاجرين، كانت سلسلة من الغزوات والسرايا، إنها تنفيذ للبيعة التي كان قد عقدها قبل الهجرة، وإيفاء بالوعد الذي تلقاه من الأنصار بمحاربة الأخضر واليابس، ولكن يجب التنويه أن الحرب المحمدية كانت شرا لا بد منه، أي بتعبير آخر حتى ولو لم تتم البيعة كان من الضروري البحث عن سياسة ناجعة تكفل للمهاجرين قوت يومهم، ذلك وأنهم اعتادوا على حياة التجارة وليسوا محنكين في الزراعة، كما أن معظمهم كانوا بلا مأوى، وقوتهم لا يكفي لسد الرمق، انحصر عملهم إما في قطع الأخشاب أو في انتزاع الماء في جوف الأرض، أو ري الزرع ليظل طوال نهاره وبطنه خواء حاملا على ظهره الماء، فعلي ابن أبي طالب كان يعمل نهاره جزاء أجر لا يتجاوز بلحات، وأبو بكر يبيع أقمشة، وأما عثمان فقد كان يتاجر بالفاكهة، وأما عمر فيقضي وقته يساوم في السوق. [26] إن الحياة التي عاشها محمد مع أصحابه قبيل الدخول في مرحلة الغزوات يمكن تلخيصها في عبارة واحدة "شظف العيش".

لقد علمت قريش أن تحالف محمد مع اليثاربة والنجاح في كسب ودهم وتعاونهم سيشكل خطرا كبيرا على الحياة الاقتصادية في مكة، ذلك وأن يثرب تمثل المزود الرئيسي لمكة لما تحتاجه من

[25]نفسه.
[26] ص 179- 180.

حبوب، فمحمد لم يهاجر صوب يثرب ليبقى مكتوف الأيدي، بل من أجل إعداد العدة للحرب، وربما هنا يثور سؤال: لماذا لم يكتفي محمد بعد الهجرة بإيمان الأنصار والمهاجرين وما حققه من انسجام وتوازن داخل المجتمع اليثربي ويعيش حياته بعيدا عن وجع الرأس وكفى الله المؤمنين شر القتال ؟ لا شك أنه لا يستطيع نسيان مكة مسقط رأسه وذلك لسببين. أولا ؛ سعيه في تحويل مكة مركزا للدعوة. ثانيا؛ رغبته الملحة في جعل قريش أسياد العرب والعجم قاطبة، وبالتالي ذهابه إلى يثرب هو تمهيد للعودة إليها، وذلك ما سيتحقق بالفعل بعد سنوات طويلة من القتال.

كانت الإستراتيجية الحربية التي اعتمدها محمد في بداية الغزوات هي محاصرة قريش اقتصاديا من خلال خنق الشريان الذي تتنفس منه، هذا الشريان يتمثل أساسا في الميناء المتواجد على ساحل البحر الأحمر، يتم من خلاله تصدير القمح إلى مكة المستورد من مصر، تحركات المسلمين الأولى نجحت في منع تصدير شحنات القمح الموجهة إلى مكة، ولم يبقى للمكيين سوى طريق الإيلاف الشامي، أول الغزوات كانت موجهة لتضييق الخناق على القوافل القادمة من مكة أو الآتية منها. [27]وهو ما سجلته غزوة ودان أول غزوة في تاريخ الدولة الإسلامية، حيث تمكن محمد وأتباعه من عقد تحالف مع قبيلة بنى ضمرة.[28] لم يمضي الشهر إلا وأرسلت سرية بقيادة عبيد ابن الحارث لكي يتفقد طريق الإيلاف عساه يعثر على قافلة مكية ويعترضها. سار حتى بلغ ماء الحجاز فلقي جمعا عظيما من قريش ولم يدر بينهما قتال، إلا أن سعد ابن وقاص لم يقدر على كبت حماسته في محاربة قريش ليرمي بسهم على ذلك الجمع، ونقل كتاب السيرة أن هذا السهم هو أول سهم رمي به في الإسلام.[29] وربما لهذا السهم رمزية خاصة تتمثل في توجيه رسالة لقريش وأزلامها وهو أن محمد في يثرب وتحت مظلة أخواله أصبح قوة لا يستهان بها، فلم يعد ذلك الرجل الضعيف المقهور والصابر على الأذى المعنوي من دون أن يرد، وكأن سعد ابن وقاص أراد أن يقول لهذا العير القرشي أن محمد غدت له من السيطرة ما يستطيع بها أن ينذر قريشا بالحرب،[30] حيث نلاحظ كون الغزوات الأولى مثل بواط والعشيرة لم تكن غزوات بل بعثات استكشافية ومحاولة للتحرش بقريش وقوافلها بهدف إيصال تلك الرسالة.

لم تكن أولى البعثات التي قام بها المسلمون بقيادة محمد سوى من أجل تضييق الخناق اقتصاديا على قريش ومحاولة ترهيبها من خلال الفتك بالقوافل المتجهة صوب الشام، سياسة حصيف ترمي إلى استنزافها ماليا، وإذا ما تحقق ذلك فإن قريش ستهوي على ركبتيها جاثية أمام السلطان

[27]حروب دولة الرسول ج 1 ص 39.
[28]السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 233-234.
[29]ص 234.
[30]الدين في شبه الجزيرة، ص 181.

المحمدي.[31] ومن ثم فإن عقد التحالفات مع القبائل المحاذية لطريق الشام سيزيد من ضرب المرافق الحيوية لقريش وذلك ما كانت تخشاه مستشعرة سياسة خطر الأحلاف خارج يثرب، شعور تحول إلى واقع ملموس مع سرية عبد الله بن جحج الشهيرة والتي كانت فاتحة لغزوة بدر الكبرى. إن هذه السرية مثلت منعرجا حاسما في تاريخ الدولة الإسلامية بعد بيعة العقبة الكبرى، لأنها ضربت بقداسة الأشهر الحرم عرض الحائط. نعلم أن قريش كانت قد فرضت أشهرا حرما يحرم القتال فيها أو إراقة الدماء، إلا أن هذه السرية خالفت القاعدة عندما أقدم عبد الله التميمي بقتل عمرو بن الحضرمي بسهمه، علما وأن العير المرافق للقافلة لم يتحرش بالمسلمين ولم يهددوهم، غير أنه من الواضح أن سرية عبد بن جحش في تلك اللحظة دفعها الوازع المادي الدنيوي للقيام بذلك نظرا والحرمان الذي عاشه المسلمون في مكة وخلال الأشهر الأولى في يثرب، فما كان لهم سوى الهجوم على القافلة وسلب أموالها، وقد تمكنوا من اسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان.[32]

ما إن سمعت قريش بالحدث إلا وتعالت الأصوات مستهجنة قائلة " لقد استحل محمد وأصحابه الأشهر الحرم ". ولقد ألقى محمد باللائمة على عبد الله بن جحش والبقية مذكرا إياهم بعدم القتال في الأشهر الحرم، فكثرت البلبلة عنده وما كان السبيل للخروج من هذا المأزق ولجم الأفواه إلا بالإعتماد على سياسة ثيوقراطية تجمع بين السماء والأرض، والأمر النازل من السماء قلنا مرارا وأنه لا رادع له، يذعن له الجميع وبلا استثناء لتنفجر شفتيه؛

﴿يسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة/217)

هكذا بَرَّرَ محمد القتال خلال الأشهر الحرم، طبعا فهو لم ينقل إلا ما قاله الله عن طريق جبريل فالأمر صادر من السماء لا ناقة له فيه ولا جمل. إن الصد عن المسجد الحرام واخراج أهله منه لهو أكبر شناعة وجرما، فالفتنة أكبر من القتل، وقد فسرها الطبري بالشرك، فقريش احتجت على قتل الحضرمي، لكن الصد عن المسجد الحرام أشد خطورة. بهذه الآية التبريرية بحث محمد عن الخروج من المأزق، وما يدعم هذا التبرير هو بقية الآية التي أعلنت أنهم لا يزالون –يعني قريش– يقاتلونكم حتى

[31] ص 183.
[32] السيرة النبوية لابن هشام ج 2، ص 245.

يردونكم عن دينكم، مع أن قريش لم تكن البادئة بالإعتداء. وقد بَرَّرَ محمد البدء باعتدائه على قريش بهدف الذود عن أماكن العبادة؛

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج/40) سورة الحج مع أنها مكية ولكن تحتوي على آيات أنتجت في المدينة.

إن هذه الآية هي إعلان رسمي للحرب، ففيها تشريع للقتال، الآن آن الأوان لإظهار ما قد ضاقت بكتمه طويلا الصدور، والآن أي شيء تستطيع قريش له عملا أمام شوكة لمحمد في يثرب اشتدت وما اشتدت إلا وعلى أثرها شرع القتال.[33] لقد أصبحت قريش في حيرة من أمرها أمام تعاظم شوكة محمد وهو ما نستشفه من قول صفوان بن أمية : إن محمدا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوا محمدا ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسكن ؟ وإن قمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء.[34] ومن هنا نفهم سبب تبديل محمد للقبلة، فبعد حادثة الأشهر الحرم مباشرة، ينقل كتاب السيرة اقدام محمد على تغيير القبلة صوب مكة، وطبيعي أن يقرر ذلك فالآية تعلن أن الصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتل، وهذا لا معنى له، لأن محمد وأصحابه خلال الأشهر الأولى بعد الهجرة اتخذوا بيت المقدس كقبلة أثناء صلاتهم، وبيت المقدس هو قبلة اليهود في فلسطين، مناورة ذكية أراد من خلالها موادعة اليهود كما أشرنا إلى ذلك والتقرب منهم. إن تغيير القبلة يمثل جزء من التكتيك الحربي هدفه توجيه الأنظار صوب مكة، ولم يأتي طبعا لإيجاد سبب لمحاربة قريش، فالسبب في نظره واضح منذ البداية هو توحيد قبائل شبه الجزيرة تحت راية وقيادة واحدة، فانفلجت شفتيه؛

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللّٰهُ﴾ (البقرة/144)

تعالت أصوات قريش مرة ثانية استهجانا واستنكارا قائلة " لم يكتفي محمد بالتعدي على الأشهر الحرم بل استخف بالقبلة، إن محمد يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ".[35] فيأتي الرد؛

---

[33] الدين في شبه الجزيرة العربية، ص 185.
[34]حروب دولة الرسول ج الأول ص 41.
[35]الدين في شبه الجزيرة العربية، ص 185.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة/143)

وهنا يجب التوقف هنيهة والتفكير في مغزى الآية لأنها تطرح مفارقة، لسائل أن يسأل: أليس الله علام الغيوب؟ إذن فما الداعي لهذا الاختبار، وكأن الله يريد أن يعلم من يتبع محمد ومن لن يتبعه في المستقبل، مع أن الله بحسب القرآن علام الغيوب. فالمعنى الحقيقي للآية هو أن الله كان لا يعلم ثم علم. إن الآي القرآني يعكس الإرادة والمنطق المحمدي، وطبيعي إذن أن يتدحرج إله القرآن بين العلم واللاعلم*، فالآيات تتشكل حسب الحالة النفسية والعوامل البيئية المحيطة بمحمد والمسلمين، وعليه فإن الإله نفسه سيكون حقيقة نسبية.

إن تغيير القبلة أثار أيضا حفيظة اليهود بشدة، لأن هذا الحدث يمثل إيذانا بانصراف محمد عن عادات وتقاليد اليهود الدينية، فلم يعد يكترث بموادعة اليهود خاصة بعد غزوة بدر الكبرى، فالقومية العربية بدأت تتشكل شيئا فشيئا مع تكون الجيش الإسلامي واغتنام الأموال والأسرى بعد كل غزوة. وهنا بدأ محمد ينهي أصحابه من اتباع أعراف اليهود وذلك تجلى في سورة البقرة ؛

﴿ و لَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(البقرة 145)

أيضا؛

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة /177)

---

*نلاحظ كيف أسقط محمد انطباعه الذهني والعقلي والوجداني على الإله، فصار بشريا بامتياز إلى درجة أنه تحول إلى إله محمد الخاص، لأنه اتخذه كمطية في يثرب يعلل بها رغباته، ويحقق بها أهدافه السياسية والعسكرية، طبعا ذلك لا يقتصر على الإسلام فحسب بل جميع الديانات، حيث أسقطت اطباعاتها البشرية على فكرة الإله.

إثر تغيير القبلة وبداية الاتبعاد عن عادات وتقاليد اليهود الدينية وتصلب شوكة المسلمين، جاء خبر قافلة أبي سفيان التي قوامها 25 بعير فيها بضائع يربو ثمنها 50000 دينار بدنانير ذلك الزمان، ساهم فيها البيت الأموي الثري المعادي لبيت النبي الهاشمي.[36]

طار الخبر إلى محمد وأصحابه، إذ نقلته عيون الخزاعيين في مكة ممن كانوا على اتفاق معه، أتى من هذه العيون الخبر بموعد رجوع القافلة وأنه لا يحمي ما فيها من عير أو مال إلا قلة من الرجال عددهم ثلاثون يرأسهم أبو سفيان، إنها فرصة نزلت من السماء ستسمح لمحمد من تدعيم موقفه وموقف المسلمين داخل يثرب بالتعرض لهذه القافلة ثم سلبها والعودة بثروة طائلة، وقد بدأ يستعد لهذه الغزوة قائلا : "هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليهم لعل الله ينفلكوموها ".[37] غير أن كثيرا من المسلمين أهالهم الأمر يتساءلون " أنقاتل السادة من قريش ".* فما كان له إلا أن يشحذ نفوسهم ويستنهض هممهم ضاربا لهم قصة طالوت وجالوت ؛

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة247/252)

[36]حروب دولة الرسول ج 1 ص 41.

[37]السيرة النبوية، ابن هشام، ج 2 ص 250

*بعض الأنصار ترددوا لأنهم بايعوا محمد على محاربة اليهود في المدينة وذلك يمثل أولوية قصوى في نظرهم، أما قريش فامر ثانوي بالنسبة إليهم، وذلك عكس ماكان يراه محمد، الأولوية محاربة قريش ثم التفرغ لليهود.

القصة وردت في العهد القديم ويجب التوقف عندها. طالوت وهو الملك المعروف في التوراة بشاؤول الذي نصب ملكا على بنى إسرائيل خلال فترة عصيبة وذلك بسبب تعرضهم لهجمات الفلسطينيين، وهم شعوب البحر يعيشون على الساحل. كان الفلسطينيون ذوي بأس شديد في الحروب، ويستحيل على بنى إسرائيل التصدي لهم من دون انصهار كل القبائل داخل نظام اجتماعي وسياسي يكون تحت حكم ملك واحد، فاختار لهم النبي صاموئيل شاؤل، اختيار ليس صادرا منه بل من عند الرب. نلاحظ هاهنا التقارب بين حدث اصطفاء الله لمحمد من بين كل الأعراب ليكون رسولا يوحد شملهم وكلمتهم ضد الكافرين، وحدث اصطفاء الله شاؤل عبر صاموئيل من أجل توحيد القبائل الإسرائيلية. بهذا المثل المضروب في الآيات يستدعي محمد واقع مكة، القبائل الفلسطينية تمثل حكومة الملأ بثروتها الطائلة وسلطانها القوي، التي رفضت الإيمان برسولها، وذلك يتجلى في السؤال الاستنكاري " قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه؟ " وكأن أثرياء قريش تتساءل على لسان القبائل الإسرائيلية التي رفضت تنصيب شاؤل ملكا عليهم وهم أحق بالملك منه لأنه لم يؤت سعة من المال.

إن الآيات السابقة الذكر تشير إلى رياح التغيير التي حملتها الدعوة المحمدية في مكة وشبه الجزيرة، فلم يعد بالضرورة أن يكون زعيم القبيلة متحدر من طبقة أرستقراطية، قبل الدعوة كان المعيار المعتمد للمسك بأعنة السلطة هو المال، هذا المعيار تغير ولم يعد المؤهل المطلوب.[38] لم يعد حصول الفرد على بعض المال مقياسا حتى يذهب به الطموح إلى الملك والسلطة، بل الأمر كله راجع إلى الله يؤتى ملكه من يشاء. على الرغم من وجود تقارب بين القصتين ولكن هناك فرق واضح، ففي التوراة القبائل الاسرائلية هي التي طالبت النبي صاموئيل باختيار ملك يوحدهم، ولكن الآيات في سورة البقرة تعلن أن هذا الاختيار جاء بقرار إلهي، إنها محاولة لتعشيق الماضي، التاريخ الإسرائيلي القديم، بالحاضر، واقع الحال المكي من الدعوة الإسلامية.[39] يوجد فرق ثان وهو أن القبائل الإسرائلية كانت منصهرة ضمن مملكة واحدة شكلت جيشا هائلا من المقاتلين، وهذا يختلف مع واقع المسلمين والكافرين، الكافرون من قريش هم الأكثرية، والمؤمنون بمحمد وأصحابه هم الأقلية، وهو ما يفسر تردد وتثاقل بعض المسلمين للخروج واعتراض قافلية أبي سفيان، فكيف يمكن للمسلمين وهم أقلية حيث لا تزال دولتهم في طور النشأة من هزيمة قريش وحكومة الملأ بعزتها وعنفوانها، اتنفلج شفتيه ؛

[38]حروب دولة الرسول ج 1 ص 48.
[39]ص 49.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

عبارات عاتب بها المسلمين من مهاجرين وأنصار الذين تمنوا مجيئ نبي حتى يباهوا به اليهود فيوحد كلمتهم ويقوي شوكتهم، ثم مالكم لا تقاتلون في سبيل الله وقد أخرجتم من دياركم وتركتم أبناءكم ؟ القتال في العد القديم فرض من أجل هزيمة القبائل الفلسطينية، آيات تستدعي القديم لحاضر يثرب تأجيجا لنوازع نفسية بين المهاجرين، واستحضارا للوعتهم ضد المكيين بسبب إرغامهم على ترك أبناءهم بعد قرار الهجرة، **فالآيات جردت القصة التوراتية من حكمتها وأصبغت عليها حكمة إسلامية خالصة منسجمة مع الظرورف الاجتماعية والسياسية،*** غرضها ليس التاريخ وإنما تحفيز الهمم والتحريض على القتال، وإزالة الخوف من قلوبهم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله؛

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.(البقرة249)

لقد وظف محمد الميتاتاريخ اليهودي لإلهاب حماس أتباعه؛

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ (البقرة214)

بعدما حفزت هذه الآيات نفوس المسلمين على الخروج مع محمد للتعرض لقافلة أبي سفيان المتوجهة إلى الشام، أدركوا أنها سبقتهم بعدة أيام، فما كان لهم سوى العودة ليثرب والتربص بالقافلة والإنقضاض عليها أثناء رجوعها إلى مكة. ولما كانت الحسابات إنسانية صرفه لا أثر للخوارقيات فيها،** أرسل محمد رجلان وهما بسبس بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني يتحساسان له الأخبار عن موعد رجوع القافلة من الشام. وكما طُيرَ خبر القافلة لمحمد فإن لأبي سفيان كان قد طُيرَ الخبر وقد أتاه بأن محمدا وهو برجاله لهذه القافلة متربص، فخاف وهو ليس معه سوى ثلاثون رجلا لحراسة هذا

*ما يدعم قولنا أن معظم قصص القرآن مستلهم من التراث والاساطير والملاحم اليهودية لكن بتصرف.

** وهنا نتساءل لماذا لم يأتيه جبريل بخبر القافلة كما جاءه لينقذ موقفه إزاء خرق القاعدة والقتال في الأشهر الحرم، وكما سيأتيه بخبر ان يهود بنى النضير أرادت قتله وهو في غفلة من أمره، قد يكون من باب الدعابة أن ما يسمى بجبريل أخذ أجازة في تلك اللحظة ولم يقدر على مساعدة محمد.

العير، فأسرع بارسال ضمضم الغفاري مستنفرا قريش يناديها : يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث. [40]فتجهزت قريش للخروج وقالت : " أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي كلا والله ليعلمن غير ذلك ".[41]

نقل كُتَّاب السيرة خبر*** تمكن أبي سفيان من نجاة بالقافلة بعدما سلك طريقا اخرى، فأرسل بسرعة إلى قريش يناديها : "إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا." إلا أن أبا الحكم المكنى بابي جهل ف التراث الإسلامي أبا جهل كان له رأي آخر : " والله لا نرجع حتى نرد بدرا،**فنقيم عليه ثلاثا، فنحرر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا."[42]

يبدو واضحا أن قريش لم تكن تبحث عن الصدام مع المسلمين، ولكنها ردة فعل ضرورية من أجل استعادة هيبتها بعد تعرض مسالك تجارتها للتضييق واسترداد كرامتها بعد حادثة قافلة الحضرمي، ذلك وأن ظهور قريش بمنظر الضعيف قد يعدد مصالحها الاقتصادية فتسقط في أعين كامل عرب شبه الجزيرة وتفقد ثقة الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية من تأمين وصول السلع والمواد المطلوبة في مواقيتها، إذن فغرض أبا الحكم هو استعراض هيبة حكومة الملأ أمام القبائل باحتفال كبير، اختار له أحد أسواق العرب الكبرى، موقع وادي بدر، احتفال له دلالات وهو اظهار أن قريش لا تخشى محمد وأصحابه وأنها لا تزال قادرة على تأمين طريق الإيلاف.[43]

كانت هذه الحادثة إيذانا بتدشين مرحلة حاسمة وخطيرة في تاريخ نشوء الكيان السياسي الإسلامي وتطور الخطاب الديني، مرحلة عنوانها بدر الكبرى، خطورتها تكمن في قبول الندية والصدام مع قريش التي عزمت المحافظة على هيبتها بالقيامة في بدر. في هذا السياق ندرك أهمية الآيات من سورة البقرة التي ترفع العزائم وتشجع على المواجهة، وبالرغم من ذلك خشي محمد ألا يجد استجابة من الأنصار بالمضي قدما في الحرب، ليستشيرهم قائلا :« أشيروا علي أيها الناس ». فهمت الأنصار ما يدور في خلده، فقال سعد بن معاذ: « والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل. قال :« لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع

---

[40]السيرة النبوية، ابن هشام، ج 2 ص 252
[41]نفسه.
***ابن هشام، الطبري، البيهقي، الحلبي، السهيلي.
**بدر سوق يقع بين مكة والمدينة يتجمع فيه العرب كل عام.
[42]السيرة النبوية المرجع السابق، ص 261-262.
[43]حروب دولة الرسول ج 1 ص 53.

والطاعة، فامض يارسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك»[44]

رد أثلج صدر صاحب الدعوة لتسرسل شفتيه؛

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ (الأنفال 7/6)

فهمت الأنصار الآن وبشكل قاطع، أن العقبة هي بيعة حربية في جوهرها دفاعية في ظاهرها، فالحرب مؤجلة التنفيذ كما أشرنا سابقا، أجَّلَ محمد قبيل الهجرة الإمالة بالسيف حتى تتحقق الظروف المناسبة للقيام بذلك وإعلان الحرب، والآن بعدما تحققت تلك الظروف، تحول الكيان السياسي الإسلامي الذي مقره يثرب إلى دولة حربية هجومية، إنها نقطة تحول مادية كبيرة، عبرت عنها الآيات التالية ؛

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة216)

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج39)

بعد أن ظل محمد في مكة طيلة ثلاثة عشر عاما يدعو دون إجابة العدد الكافي من المستضعفين إلى دعوته، وتأجيل الوعد بالنعمة والرفاه الآجل في جنة الخلد، كمعالجة خرافية وأسطورية لمحنتهم في مجتمع تجاري مادي بحت، أصبح الحل الآن حقيقة مادية ملموسة،[45] انتقلنا مما هو لا مادي خرافي، إلى ماهو مادي واقعي وحقيقي.

أمام هذا التسارع في الأحداث انتجت آيات من سورة الانفال، وآياتها كانت متزامنة مع آيات سورة البقرة، موضوعها الرئيسي غزوة بدر. قبيل الصدام الكبير، أرسل محمد رجالاته أبرزهم علي ابن أبي طالب والزبير بن عوام وسعد ابن وقاص ليتقصو له مزيدا من الأخبار عن قريش المتواجدة في بدر. أخبروه عمن حضر من قريش وهم، عتبة وشيبة بن ربيعة، و البختري ابن هشام، ونوفل بن خويلد، والنضر بن الحارث و زمعة بن الأسود، وأمية ابن خلف، وسهيل بن عمرو و عمرو ابن عبدود، فقال

[44]بن الكثير البداية والنهاية، ج 3، ص 261
[45]حروب دولة الرسول ج 1 ص 60.

محمد :« هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .[46] وحتى يضمن اخلاص المسلمين له وطاعته تسترسل شفتيه مناديا ؛

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الانفال27/24)

ثم شحذ نفوسهم بلهب الثبات وروح الإقدام وعدم الخوف تحت تأثير الوجدان الإلهي ؛

﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ (الانفال/65)

كان لهذه الآيات وقع شديد على المسلمين حسب قول عبد الله بن عباس، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألف، فنزلت الآية؛

﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال/66)

لسائل أن يسأل ؛ ألم يعلم الله أن في المسلمين ضعفا وأن مائة لا يمكنها هزيمة مائتين، وألف ألفين، نطرح السؤال مرة ثانية : أليس الله بعلام الغيوب؟ فكيف يمكن أن يكون علمه متأخرا بقوله الآن علم أن فيكم ضعفا ؟ إن هذا الإستنتاج سيصدر عن شخص لا يتعاطى مع الآيات حسب الظروف التي نشأت فيها، معتقدا أن كل السور القرآنية كانت في اللوح المحفوظ ثم نزلت من دون الأخذ بعين الإعتبار بمتغيرات الواقع الأرضي. لقد سبق وأكدنا منذ بداية بحثنا أن النص القرآني هو ضرب من الصيرورة التاريخية يتفاعل مع متطلبات الواقع ويتكيف حسب الظرف الموجود ويتأثر بمؤثراته، وذلك مما أظفى على القرآن ميزة استثنائية لا نجدها في التوراة أو الإنجيل، فالإسلام دعوة تلتزم بالمنطق التاريخي للأحداث. إن هذا التفاعل أفرز جدلية في كامل السور القرآنية تقوم على مبدأ النسخ، وما النسخ سوى تفاعلا مع متطلبات وظروف الواقع. حيث تتناسب الآية الأولى مع خبر أول بعدد أفراد

[46] ابن سيد الناس عيون الأثر، ج1 ص 99.

قريش، وهو ما كان يعادل عشرة إلى واحد بالنسبة إلى عدد المسلمين، بينما تتناسب الآية الثانية مع الخبر التالي الذي جاء يحمل نسبة أخرى اثنين إلى واحد. [47]

إن آيات سورة الأنفال مثلت بداية لنسخ سياسة الصفح الجميل في مكة وتشريعا لسياسة التحريض على القتال، فلا داعي اليوم للخوف من الكافرين بل؛

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الانفال/60)

فإذا لقيتوهم لا تولوهم الأدبار؛

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الانفال15/16)

وفاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ؛

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (الأنفال12/14)

ولطمأنة المقاتلين من المسلمين جاء الوعد بالملائكة ؛

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال9/10)

مع اقتراب لحظة الصدام بين الفريقين ظلت قريش تتحسب العواقب وتسعى جاهدة لتحاشي الحرب وحقن الدماء فما كان من بد لها سوى طلب المعجزة؛

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ المعجزة طلب لطالما أرق محمد طيلة الفترة المكية فكان رده*؛

---

[47]حروب دولة الرسول ج 1 ص 64.

*كالعادة يتهرب محمد من هذا الطلب ويرد عليه بطريقة ارتجالية وغير منطقية، في مكة كان يقول لن يؤمنوا حتى ولو جاءتهم الملائكة قبلا، الآن يقول أن الله لا يمكن ان يعذبهم وهو فيهم، وكأن المعجزة الحسية منحصرة في العذاب والدمار، كان بالإمكان

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الانفال/33)

لئن كانت قريش تسعى لرأب الصدع ومنع الكارثة التي قد تحل على أبناء الأعمام والأخوال وتشحن النفوس نقمة وعداوة، لكن هيهات، الظروف الجديدة ألغت فلسفة الحرية الدينية، فقريش لم تعد حامية لحمى الدين إنما فتنة يجب محاربتها ؛

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الأنفال40/39)

وهكذا انتهت معركة بدر بفوز المسلمين وتلقت قريش هزيمة نكراء بخسارة صناديدها. إن العوامل التي ساهمت في انتصارهم تتمثل بالأساس في روحهم المعنوية، حيث اعتقدوا اعتقادا راسخا في نبوة محمد وأن ما يتلفظ به من كلم هو من عند الله، كما أنهم آمنوا به لأنهم علموا سلفا أن الدعوة الإسلامية ستجعل منهم أسياد شبه الجزيرة والعرب قاطبة، كذلك الوازع العاطفي لعب دورا بارزا في انتصارهم، فالوعد بالجنة وبما فيها من خيرات ولذائذ حسية كان قد ألهب عزائمهم وبث في نفوسهم روح الفدائية، يضاف إلى كل هذا العامل التكتيكي، التخطيط الجيد والإعداد الدقيق مع خبرة أركان حربه من رجال الدم والحرب والحلقة.[48] أما قريش فلم تكن مستعدة لهذا الصدام مفتقدة للروح المعنوية اللازمة وخائفة من إراقة دماء الأقارب، فقريش كما سبق ونوهنا ليست معتادة على الحروب خلافا لليثاربة، إذن فقد حارب المسلمون بإحساس أبي متفانين في نصرة محمد غير مبالين بأحد من الأقارب حتى ولو كان الأب والأخ، ونجد صدى ذلك في سورة المجادلة؛

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة/22)

لهذا الإله أن يرسل آية بعيدة عن العذاب والدمار كدليل على نبوة رسوله فتنتهي الحرب على الفور، لكن حتى لو فعل ذلك لن يؤمنوا لأنه كتب عليهم الكفر، إذا كتب عليهم الكفر فلماذا أرسل رسوله أصلا ؟ والحرب ستصبح عبثية ولا معنى لها. ثم ما معنى أنه لا يمكن أن يعذبهم ومحمد فيهم، محمد لم يعد فيهم فهو في يثرب الآن، ولو فرضنا كان فيهم، الم يعذب هذا الإله الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ونجى الصادقين ؟ وقد صرح بذلك، طبعا لو سلمنا أن ما يتحدر من شفتي محمد هو كلام الله، بأنه كان قد أهلك الكافرين وأنقذ المؤمنين. كلها ردود متناقضة وغير منطقية تسقط بالعقل عند أول امتحان وتثبت بلا مماحكة أن القرآن هو كلام محمد الوجداني، فالقرآن وكل الكتب بين قوسين (المقدسة)، هي كلام البشر عن الله وليس كلام الله عن البشر، لذلك نجد فيها صفات بشرية محضة محمولة على إله صورته مخيلتهم ورغباتهم وانطباعاتهم وأمانيهم.

[48]حروب دولة الرسول ج 1 ص78 .

حسبت قريش أنها ستفرض هيبتها بمجيئها إلى بدر فخسرتها، أرادت أن تثبت بأنها قادرة على حماية تجارتها عبر طريق الإيلاف واستحقاقها للقب أهل الله وحامية بيت الله، إلا أن النكسة كانت عظيمة، فخسارتها لا تعني فقدان هيبتها أمام العرب فحسب إنما أيضا بعثت برسالة سيئة للإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية مفادها أنها لم تعد قادرة على حماية السلع التي تأتيها عبر شبه الجزيرة، وأنه توجد سلطة جديدة بدأت تتمظهر ألا وهي السلطان المحمدي.

بعد عشر سنوات عجاف عاشها محمد في مكة، الآن وبعد موقعة بدر حاق بقريش انتقام الله،* فالمسلمون حقيقة لم يقاتلوا الكافرين بل الله من قاتلهم؛

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الانفال / 17)

أما حال الكافرين الذين قتلوا؛

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الانفال/52)

فهم كالذين سبقوهم من الأمم الكافرة؛

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الانفال 54)

بعد وقعة بدر وانتصار المسلمين طرحت مسألة الغنائم وأسرى الحرب، فأما الغنائم؛

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

*هنا أريد أن أتطرق لمسألة يرددها المسلمون ويعتمدون عليها في اثبات أن لمحمد معجزة حسية وأن القرآن هو كلام الله المعجز وان النبوة صادقة، نجدها أيضا عند المفسرين المسلمين، إنها تفسير الآية 45 من سور القمر ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ حيث صاغ محمد هذه الآية عندما كان في مكة مهيض الجناح ومنكسر الإرادة سلاحه آيات التخويف بنار جهنم والترغيب بجنة فيها مالذ وطاب. لقد انهزمت قريش في بدر وانتصر محمد، ذلك هو مغزى الآية الذي ظهر بعد سنوات، وكأن الآية تنبأت بما سيحدث، فترى المسلم يهلل ويصيح الله أكبر ! إنها معجزة قرآنية. فنقول لو كان المسلم يبحث في تراثه وسيرة نبيه بالعقل وليس بالعاطفة، لما تجرأ على التفوه بهذه السخافات، إذا كانت الآية تتحدث عن بدر التي انتصر فيها محمد وانهزمت فيها قريش، فإنه في موقعة أحد تعرض وأتباعه لهزيمة نكراء، انتصرت قريش وولى المسلمون الدبر، فما كان له أن ليتجاوز هزيمة أحد إلا بالقرآن والقيام بأعمال ترهيبية ضد القبائل العربية المجاورة واللجوء إلى المكائد والدسائس. أما في غزوة الأحزاب، فقد كان محاصرا من كل الجهات وكادت قريش أن تقضي على الإسلام وعلى محمد لولا لجوءه إلى عنصر المؤامرة والكذب. سوف ناتى على تحليل هاتين الغزوتين في الصفحات القادمة.

وأما الأسرى؛

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الانفال/67)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال/70)

إن حدث انتصار المسلمين في بدر أدى إلى سلسلة من الأحداث المتسارعة ستفضي في آخر المطاف إلى طرد القبائل اليهودية من يثرب، فبعد هزيمة قريش فزعت جل القبائل العربية بمن فيهم اليهود الذين رفضوا الإيمان بمحمد رسولا وبالقرآن كتابا من عند الله متمسكين بتراثهم التوراتي الأسطوري والتلمودي الخرافي. ما نقله البيهقي كفيل بإخبارنا بحالة الهلع والخوف التي أصبحت عليها جميع القبائل : و أذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين، فلم يبق في المدينة منافق ولا يهودي إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر .[49] إن معركة بدر على صغرها كانت مقدمة لتأسيس الدولة الإسلامية وتوحيد شبه الجزيرة ثم ظهور إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف.[50]

تعاظمت شوكة المسلمين بعد بدر، فالأموال والغنائم أغدقت عليهم واقتصادهم أصبح أكثر متانة وبدأ جيشهم في التوسع مما قد يشكل جبهة داخلية مناوءة للقبائل اليهودية، مما يعني أنهم لن يحتاجوا لمعونتهم في المستقبل، و ما تحدر من شفتي كعب ابن الأشرف شاعر اليهود وكبيرهم من عبارات تعكس بجلاء حالة الهلع واللوعة التي انتشرت نفوس أعداء المسلمين كالنار في الهشيم إذ نادى: أترون محمد قتل هؤولا ؟ هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ! والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها !. [51]

بينما كانت القبائل اليهودية والنصرانية مرتعدة من انتصار المسلمين وقريش تبكي على قتلاها من كبارها وأشرافها، كان محمد يتلقى الهدايا من بعض القبائل المتاخمة ليثرب أملا في كسب رضاه والتحالف معه، لقد استوعبوا الآن بروز قوة سياسية في طور التشكل ستقلب أوضاع شبه الجزيرة رأسا على عقب، تصرف سياسي حصيف يكشف أن محمدا وأصحابه لم يعد الآن من الممكن الإستهانة بهم. وكان قد ساهم تحالف هذه القبائل مع المسلمين في توسيع نطاق الدولة الوليدة وهو ما أضعف

[49]دلائل النبوة، ج 3، ص 117.
[50]مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، سبق دكره، ص 456.
[51]ابن هشام السيرة النبوية ج ص

قريش التي سارعت في ارسال المال لمحمد لتفتدي أسراها. كل ذلك ولد الحقد والضغينة في نفوس أعداء المسلمين، فمنذ عامين رأوا محمدا رجلا ضعيفا ومنكسر الحال فارا من مكة باحثا عن الاستقرار والسلام في يثرب، وهاهو الآن أصبح صاحب الكلمة اكتسب ثقة في نفسه والقوة العسكرية في آن، لتشمل سيطرته كامل أرجاء يثرب، **فأمست سياسته سياسة مطلقة تتسم بالشدة والقضاء الحاسم البتار، ثم إن قتل صناديد قريش وضعه موضع الاحترام الوليد بالرهبة والخوف.**[52] لم تقبل القبائل اليهودية بالحالة السياسية الجديدة داخل يثرب وأبدوا حالة من التمرد، ليس تمردا عسكريا طبعا ولكن تمردا فكريا يعد أشد خطورة من الأول، مما دفعه لاتخاذ تدابير صارمة لردعهم، مثل تأديب المخالفين، وإلقاء الرعب في قلوبهم، ثم قتل أي شخص يتجرأ بمعارضة الدولة الطالعة. [53]

خلال هذه الفترة انتجت معظم آيات السور القرآنية أبرزها؛ **آل عمران، النساء، المائدة، الصف، محمد، الحديد، الحشر، الأحزاب، النور، المنافقون**. والجدير بالملاحظة فإن جملة من الآيات من سورة البقرة انتجت بعد بدر، فهي أطول سورة، ولا عجب أن انتاجها استغرق تقريبا معظم الفترة المدنية، حتى بعد فتح مكة. بقية السور التي ذكرناها لم تنشأ دفعة واحدة ولكن استغرقت بضع سنوات مثل البقرة، قد نجد بين الآية والآية سنة كاملة، فالآي القرآني كما سبق وأكدنا مرار يظهر حسب الظرف ومتطلباته. مضمون هذه الآيات سيعالج العديد من القضايا أهمها التشريعية التي ساهمت في تنظيم إدارة الدولة، فنحن إزاء تمظهر كيان سياسي وحكومة جديدة، فالتشريعات ضرورية من أجل تسيير دواليب هذا الكيان وتنظيم مجتمعه، خفت الأسلوب السجعي في سور الجيل الرابع لتكون من النثر أقرب، ليختفي نهائيا في سور الجيل الخامس.

إن انتصار المسلمين في بدر أدى إلى انتاج بعض الآيات تتغنى بنشوة الإنتصار وتكشف الذل الذي أصاب قريش والقبائل المناوئة ؛

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾(آل عمران27/26)

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ (آل عمران83)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ (النساء63)

[52] الدين في شبه الجزيرة، ص 201-202.
[53] حروب دولة الرسول ج 1 ، ص 114.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ (آل عمران19)

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران 85)

قطعا ! فإن الآية الأخيرة تلغي الحرية الدينية وتؤسس لدولة دينية سلطانها هو محمد بن عبد الله، إنها آية خطيرة تشير إلى أن كل الديانات باطلة سوى الإسلام، فبتلك الآية سكب محمد الزيت على النار مع الكتابيين. إن سياسة التسامح الديني التي طبقها محمد طيلة السنة الأولى في المدينة انتهى دورها، فبعد بدر فاض السلاح والغنائم ولم تعد الحاجة لليهود ملحة والمال قد أغدق على المسلمين ومن فداء الأسرى المكيين،[54] وتحولت يثرب إلى كيان سياسي مكتمل الأركان. عندها أيقنت الرؤوس اليهودية بعد سماع هذه الآيات أن الدور سيأتي عليها بعد قريش، وهي ترى تمظهرا لسياسة محمدية جديدة تقوم على تشريع للقتال وسلب ونهب للقوافل، وتحوله من رسول إلى زعيم سياسي، بعد أن كان في مكة يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة. منذ وصوله إلى المدينة سعى قبل اعلان الحرب سعيا حثيثا لجذب اليهود إليه واقناعهم بدينه الجديد لذلك كان قد أعلى من شأن التوراة والإنجيل؛

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ من كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ (المائدة 44)

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ (آل لعمران3)

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ (آل عمران 48)

إن محاولات موادعة هذه الطائفة قلنا بأنها بدأت في الحقيقة قبل قدومه إلى يثرب، نجد صداها في مواضع كثيرة من القرآن، مثل تأكيده بأن الله اصطفاهم وفضلهم على العالمين، متخذا بيت المقدس كقبلة، وأمر المسلمين بصيام يوم الغفران، اليوم الذي خرج فيه موسى من مصر حسب تراثهم، إلى جانب اتخاذه الكثير من حدود دينهم وتشاريعهم لدينه باعتبار أنهم أصحاب الكتاب الأول، فلم ينافرهم في دينهم قط.[55] ولما مدحهم وأثنى على أدبهم وأساطيرهم وخرافاتهم، فلا يمكن له إذن الادعاء بأن التوراة محرفة، فالآيات التي ذكرناها من سورتي المائدة وآل عمران كذلك في سورة البقرة؛

---

[54]ص 125.

[55]الدين في شبه الجزيرة، ص 205.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾(البقرة 44)

تؤكد من دون أدنى شك أن ليس التوراة فحسب غير محرفة أيضا الإنجيل؛

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة 4)

بل ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة43)

يبدو واضحا أن القرآن صَدَّقَ بما جاء في التوراة والإنجيل، أي أنها لم تحرف خلال هذه الفترة الزمنية، فترة السعي في ترغيب اليهود والنصارى في الإسلام. ما انفك محمد يردد أن الديانات الثلاث مصدرها واحد؛

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة136)

فالإسلام في نظره يساوي الإيمان بجميع الرسل والأنبياء بمن في ذلك أنبياء بنى إسرائيل؛

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة285)

إن اظهار محمد إيمانه الأعمى بالتراث اليهودي والنصراني، مرده أنه كان يتوقع استجابة سريعة منهم وبقبولهم الإنصهار في بوتقة الإسلام، أراد اقناعهم كون الإسلام لا يتناقض لا مع اليهودية ولا مع النصرانية، وإله الإسلام هو إله اليهود والنصارى؛

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾(البقرة136)

إن انتقاد محمد لأهل الكتاب لم يبدأ في المدينة، فمنذ الفترة المكية الوسيطة نجد محاولات جدلية بينه وبينهم في القرآن، ولكن هذا الجدل لم يصل إلى قطيعة تامة تضرب أسس كلا الديانتين وذلك ما كنا قد أشرنا إليه، لقد كان جداله معهم لا يتجاوز الخطوط الحمراء، ولا يرقى إلى حد التشكيك والتسفيه، ونجد صدى ذلك في سورة العنكبوت وهي مكية متأخرة؛

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت46)

بل أثنى على اليهود عندما كان في مكة بأمة يهدون بالحق؛

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾(الأعراف159)

بالرغم كل تلك الجهود المحمدية الجبارة في القرآن، فئة قليلة من اليهود والنصارى اعتنقت الإسلام، إما خوفا منه خاصة بعد غزوة بدر، وإما لأنهم رأوا في سلوكه حماسا لشرائعهم وحدودهم. إن السواد الأعظم من اليهود رفضوا الإنصياع لمحمد وتعاليمه فذهبت جهوده أدراج الرياح وبدأ اليأس يدب في نفسيته، ولكن هنا يثور سؤال: لماذا أظهرت هذه الطائفة تعنتا ورفضت الإيمان بمحمد لتستوي بذلك مع قريش والمكيين؟

المسلمون يقودهم التحيز العاطفي حينما يناقشون هذه المرحلة التاريخية الحساسة من دينهم، فيدعون أن اليهود كانوا يكنون الحسد والبغضاء للإسلام، وكارهون لرسولهم، أليست هذه الإجابة المبنية على العواطف تتطابق مع ما يقوله المسلمون السلفيون اليوم؟ إن غير المسلمين يترصدون بالإسلام ويبحثون عن تشويهه، أو إذا قدم شخص قراءة وفهم مغايرا لخطابهم الديني ولشريعتهم، فتراهم يتهمونه بأنه متآمر على الإسلام، وكم هم مهووسون بنظرية المؤامرة خاصة إذا ما تعلق ذلك بالإسلام. لقد سبق وقلنا أن محمد كان طموحه بأن يجعل المكيين عامة والقرشيين خاصة أسياد العرب والعجم قاطبة، فالدين الجديد سيفتح أبواب الخير عليهم، ولاننسى ما قاله ذلك الشيخ الحصيف عتبة بن ربيعة في مكة خلال الأيام الأولى من الدعوة معاتبا قريش قائلا :« يا معشر قريش أعطوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به ». وبالتالي فإنه عمل على إرساء نهضة وقومية عربية، نهضة يجب أن تقوم على أكتاف الأعرب، والقومية يجب أن تكون أسساها عادات وتقاليد العرب الوثنية القديمة، أي أن أصالة الإسلام يجب أن تكون عربية صرفه لايهودية أو نصرانية.

حقا! فإن الكلم القرآني معظمه متأت من التوراة والأساطير اليهودية والهرطقات والمسيحية، ولكن سبق ووضحنا أن تلك الأساطير وقع إعادة انتاجها من طرف محمد ودمجها في دينه من أجل اصلاح المجتمع العربي واحداث طفرة اجتماعية واقتصادية. لم يقبل اليهود بذلك، لأن اتباع محمد سيعني بالضرورة التخلي عن هويتهم وقوميتهم، فقد كانوا محافظين ومؤيدين لطقوسهم وتوراتهم والأعراف المبنية على تفسيرها.

كان تغيير القبلة علامة سلبية بالنسبة إليهم، حيث بدأوا يشكون في محمد، فكيف له أن يدعي أن الإسلام لا يتعارض مع جوهر اليهودية ثم فجأة يغير القبلة؟ يكاد يكون أهم عرف في الديانة اليهودية

خالفه محمد، وزادت جفوته مع اليهود عندما بدأ يتحرر شيئا فشيئا من الطقوس اليهودية من بينها الصوم وقد عَبَّرَ عن ذلك قائلا ؛

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (البقرة185)

جاعلا من هذا الشهر معدن الإسلام ومادته،[56] وعَدَّهُ الفترة الزمنية التى بدأ فيها القرآن بالنزول حسب زعمه، واختار يوم الجمعة كيوم رسمي للمسلمين، تقليد غايته منافسة تقليد يوم السبت عند اليهود. إنها محاولة صريحة تبين أن محمد منذ إعلانه النبوة أراد أن يصبغ على دينه صبغة حنيفية عربية خالصة، فرمضان كان شهر التحنث عند الحنفاء قبل الإسلام، والجمعة كان يسمى بيوم العروبة.[57]

نعود الآن إلى حادثة اغتيال كعب ابن الأشرف الشاعر اليهودي بعد بدر، فقد كانت علامة سلبية ثانية ارتعدت منها هذه الطائفة، وما زاد الطينة بلة هو طرد القبيلة اليهودية بنى قينقاع بعيد أشهر قليلة من انتصار بدر.* خرج عليهم محمد وهو منتشيا بانتصاره على قريش مناديا:

يا معشر اليهود! احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من نقمة، واسلموا! فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل![58] فجاء الرد القينقاعي بنبرة تحدي:

---

[56]الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، خليل عبد الكريم، ص18.
[57]ص 21.
*قال ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة ؛ أن بنى قينقاع كان أول يهود نقضوا ما بينهم و ما بين بين رسول الله وحاربوا فيما بين بدر وأحد. لم ينقل ابن إسحاق التفاصيل كيف حاربت قينقاع ؟ لقد عودنا المفسرون وكتاب السيرة على نقل كل كبيرة وصغيرة عن محمد، لكن هذه الحادثة يشوبها الغموض. لا حظ ابن هشام أن ما نقله ابن إسحاق هو مجرد ادعاء لا يرتكز على أدلة قوية تدعمه فذكر مزيدا من التفاصيل عن نفس المحدث عاصم بن قتادة قال : وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن محرمة عن أبي عون قال : كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب (بضائع) فباعته في سوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستخرص أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمونن فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع.
واضح أن القصة سخيفة وغير منطقية من اختراع كتاب السيرة لكي يبرروا طرد بنى قينقاع من يثرب، ولنفترض انها حصلت حقا، أيعقل أن يحاصر محمد قبيلة بأكملها راغبا في ابادتها بسبب شجار تافه؟ ثم عبارة وقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع أيقصد بها أن قينقاع حملت السلاح وخرجت بقضها وقضيضها وسط يثرب لمحاربة المسلمين؟ لقد وقع خلاف قد يرقى إلى السباب والشتم والشد والجذب بين بضع أفراد من قينقاع والمسلمين، لكن ذلك لا يرقى إلى عمل الحرب، ثم كيف يجلى قبيلة برمتها محملا إياهم ذنوب القلة القليلة منهم ؟ وهو الذي ذكر في القرآن الذي هو بين قوسين كلام الله، ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أو ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ (الأعراف / 173) إن القصة تبريرية، فالعقل الإسلامي هو عقل تبريري لا نقدي، دائما يبحث عن المبررات الواهية، "أراد تكحيل العروس فعماها" او مثلما يقول المثل التونسي "أراد أن يطبها فعماها" بمعنى أراد أن يداوى الجرح فزاد من عمقه" لقد أجلى محمد قينقاع لأنها تحدت سلطانه ورفضت الإيمان به كرسول من عند الله، فكان لا بد له من أن يتخلص منهم كما سيتخلص من النضير وقريظة كما سيأتي.
[58]دلائل النبوة، البيهقي، ج 3، ص 173.

يا محمد ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ![59]

رد صعق منه، وأدرك أن اليهود سيصبحون حجرة عثرة أمام مشروعه السياسي مع مرور الزمن، فأصدر أمره بقتلهم واتخذ قراره بالتخلص منهم نهائيا، ولقد برّرَ ذلك بالقرآن ؛

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ (الأنفال58/59)

أراد محمد ابادتهم لو لا تدخل عبد الله ابن سلول سيد الخزرج وحليف قينقاع فتم اجلاءهم من المدينة ومن شبه الجزيرة، لينتج الآيات 55/50 من سورة المائدة كرد على ابن سلول وكل من يفكر في التقرب من الكتابيين أو التحالف معهم ؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾.

مع اجلاء قينقاع تعاظم السلطان المحمدي في المدينة وشعر أنه أصبح قويا إلى درجة أنه لم يعد يحتمل من يخالفه في سياسته أو آراءه، وذلك امر طبيعي، لأن اقصاء قينقاع مكنه من الإستلاء على أموالهم وأسلحتهم. الآن لم يعد لمحمد حاجة لمصانعة اليهود والنصارى، فبعد بدر لم يمر يوما واحدا إلا وسطوته على القبائل المجاورة ما انفكت تتعاظم، حيث شن سلسلة من الغزوات الغاطفة*مستغلا نشوة انتصاره من أجل تركيع الأعراب المتاخمة للمدينة، وكما يقول المثل التونسي "قم بضرب الحديد وهو ساخن من قبل أن يبرد" وذلك ما طبقه محمد بدهاء، حيث نجح في القاء الرعب في نفوسهم،

[59] الطبري، التاريخ، ج2، ص 479

*غزوة بني سليم، غزوة السويق، غزوة ذي أمر، غزوة الفرع من بحران.

وتركهم يعيشون في فزع مستمر، قلقين على مصيرهم من هذه القوة السياسية العسكرية الناشئة، تختلج قلوبهم خلجات الهلع لمجرد سماعهم بسيرته، ويجن جنونهم بمجرد علمه بسيره للقائهم.

استمر بعد بدر في استراتيجية الحصار الاقتصادي ضد مكة التي فرضها منذ أيامه الأولى في المدينة، مشداد عليهم الخناق بحرا، حيث اضطرت قريش إلى العدول عن متاخمة الشاطئ في قوافلها التجارية، وبرا إنما لا يترك قافلة إلا ولها يخرج ويلاحقها برجاله وعليها يقطع طريق تجارتها، يسلبها وينهبها.[60] إذن، لما قويت شوكته ولم يقبل معظم الكتابيين طاعته، أعلن حربا عقائدية ضدهم، مسفها شرائعهم ومهدما تعاليمهم، لتسترسل شفتيه متهمة إياهم بتحريف كتبهم؛

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(البقرة75)

آية تكشف حالة محمد النفسية التي رغبت بحماس في التقرب من اليهود اليهود وموادعتهم، والفعل طَمَعَ، يَطمَعُ، أي الرغبة الشديدة في الحصول على الشئ، الإستحواذ عليه واشتهاؤه.

نعم، لقد رغب محمد بشدة أن يقبل به اليهود ولكن؛

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة13)

كيف يؤمنوا وقد؛

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة79)

لم يكتفي محمد باتهامهم بتحريف كتبهم كذلك سعى للبرهنة بأنهم كفرة، ملاعين، سفلة، ومنافقين، منذ الأزمنة الغابرة؛

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة15/12)

[60] الدين في شبه الجزيرة، ص 217-218.

عَظَّمَ محمد من شأن التوراة قبل ظهور القطيعة بأن فيها هدى ونور، فاليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا بإخراجهم من النور إلى الظلمات، فهم يضيئون طريق الظلالة، أما الآن فَ ؛

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة18/16)

وبالرغم من أنهم عاشوا معجزات كثيرة ؛

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(البقرة56/55)

مع ذلك لم يؤمنوا، فعفا الله عنهم في مناسبات عديدة؛

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

عسى أن يعودوا إلى الطريق السوي إلا أنهم؛

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة59)

وكما عَزَّى محمد نفسه بالقرآن خلال الفترة المكية كمحاولة للتنفيس عن كربته أمام الصد الذي لقيه من قريش والأرستقراطية المكية، فإن الوضعية تكررت في المدينة ولكن مع معظم أهل الكتاب الذين رفضوه، فحاول أن يثبت بالعودة إلى تاريخهم وبالتحديد "سفر الخروج" أنهم شرذمة من المغضوب عليهم؛

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة61/59)

فلا أشد من هذا القذف؛ أذلاء، متمسكنون * وهم من المغضوب عليهم، عصاة وبغاة، بلا رحمة؛

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة 74)

بل إن السخط المحمدي عليهم وصل إلى مستوى تشويههم ومسخهم؛

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة 66/64)

ويعلن محمد نفس الموقف في سورة المائدة 60؛

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾

وفي آية أخرى شبههم بالأحمرة التي تحمل أسفارا ؛

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الجمعة 5)

فضلا عن تفسخهم الأخلاقي؛

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(المائدة63/62)

وفي سورة النساء وَجّهَ محمد للكتابيين تحذيرا قائلا؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء/47)

يبدو أن هذا التهديد جاء قبل مجيء الدور على يهود النضير وقريضة كما سيأتي، وطبيعي أن يهددهم لأنهم لم يقبلوا بالإسلام الدين التوحيدي الخالص، أما اليهودية فيشوبها الشرك. قطعا ! لقد كسر محمد كل الخطوط الحمراء بالتلميح بأن اليهود في الحقيقة مشركون وليسو موحدين؛

*المسكنة هي الفاقة والحاجة أما باءوا بغضب من الله أي استحقوا عذاب الله. تفسير الطبري.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ (النساء/48)

لأنهم؛

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (البقرة93)

فهم يؤمنون بالجبت والطاغوت؛

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ (النساء51)

الجبت والطاغوت هما صنمان كان المشركون يعبدهما من دون الله حسب بعض المفسرين.* **إن قسم كبير من الآيات المكون لسور الجيل الرابع عكست سخط محمد على الكتابيين، فهاجم معتقداتهم بلا هوادة حيث نجد أحيانا الشتم والتقريع والتسفيه، عندما نقرءها ونحللها تحليلا موضوعيا نقديا بعيدا عن التقديس، سنلاحظ أنها تعبر عن الحالة النفسية المحمدية المنزعجة من عدم إيمان الكتابيين بأنه رسول وان ما يتلفظ به هو من عند الله، وذلك يذكرنا بالفترة المكية عندما كان مكسور الحال مهيض الجناح، فلجأ لخطاب التهديد والوعيد،** وهو يدعم ما قلناه منذ الصفحات الأولى أن القرآن هو وثيقة تاريخية تعكس شعور ولا شعور محمد.

ثم طردهم من الجنة؛

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾﴿ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (البقرة112/110)

ثم جردهم من نسبهم الأسطوري "شخصية إبراهيم "الذي يتفاخرون به؛

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة130)

وفي موضع آخر الآية 95؛

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

---

*الطبري، الزمخشري، الرازي، أما القرطبي وابن الكثير فقد نقلا أن الجبت هو الساحر والطاغوت هو الكاهن او الشيطان.

وبما أن اليهود رفضوا الإسلام فلا يمكن لهم الادعاء كونهم من سلالة إبراهيم، فإبراهيم هو في الحقيقة مسلم. إنها معادلة قاسية يفرضها محمد على الكتابيين، الآية موجهة أيضا للنصارى، فرفض الإسلام يعني الخروج عن ملة إبراهيم، ولا يخرج عن ملة إبراهيم إلا السفيه، والسفيه في اللغة العربية هو غاية الجهل ونقص العقل، والسفه هو الحمق أيضا، نقول رجل أحمق أي وضع الشئ في غير موضعه مع العلم بقبحه، وكنا قد أشرنا أن محمد قد أقدم على أسلمة جميع رسل وأنبياء بني إسرائيل؛

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة 133/131)

ولما قذفهم بأبشع النعوت "السفه " والسفه فعل الشئ مع العلم أنه قبيح، فلا غرو إذن أن يدعى أنهم أخفوا اسمه في كتبهم وكتموا أن الإسلام دين الحق، وذلك بسبب حقدهم وبغضهم له وللمسلمين؛

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ (البقرة109)

بأن خصَّ الله العرب بنبي ليس من سلالة بنى إسرائيل :

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة146)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ (البقرة 159)

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة42)

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(البقرة 79)

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة85)

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(آل عمران 78)

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (المائدة15)

بل وصل به الهوس إلى حد الادعاء أن المسيح بشَّرَ به؛

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف6)

وأحمد من الحمد ونقول حَمَدَ الله، ولفظ محمد أيضا مشتق من الحمد والمحمود، هناك تقارب شديد بينهما، محمد هو الشكل الثاني لأحمد، والحروف الأصلية المكونة لهما هي (ح / م / د). انطلاقا من الآيات السابقة نلاحظ أن محمد عاش نوعا من الإضطراب النفسي، فرفض الكتابيين له بما جعله يشعر أنهم استنقصوا من قيمته كرسول للعرب، فلم يحتمل ذلك، فمرَّ بمرحلة غليان نفسي انعكست في القرآن. لا نستبعد تأثره بأفكار الديانة المانوية التي أسسها الفارسي ماني بن فاتك، حيث ادعى بأنه الفارقليط Paracelet "المعزي "* الذي ذكره المسيح.

والحق يقال، فإن الطائفة اليهودية كانت تشكل تحديا أكثر خطورة من قريش والمكيين لأن لديهم قوميتهم الدينية الخالصة، وتراثهم الأدبي الأسطوري الضارب بجذوره في القدم، والأهم من ذلك أدركوا مثلما أدركت الرؤوس القرشية، أن ما يقوله محمد يستحيل أن يكون من عند الله، ففيه تناقضات صارخة لا تصدر عن يهوه، إلههم القومي. أول تلك التناقضات تغيير القبلة، الغاء صوم عاشوراء، وزعمه أن جل الأنبياء بما في ذلك إبراهيم كانوا مسلمين، وأن إبراهيم وابنه إسماعيل هم من بنوا الكعبة أول بيت وضع للناس؛

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(البقرة127/126)

*كلمة «παράκλητος» (باراكليتوس) كلمة يونانية. معناها الحرفي ما يلي: الشخص المدعو للمساعدة، المدافع، المعزي، الشفيع. تُعرف هذه الكلمة بشكل خاص من العهد الجديد اليوناني، حيث وردت في إنجيل يوحنا. مثال (يوحنا ١٤: ١٦): يتحدث يسوع عن إرسال παράκλητος آخر. وهناك كلمة كلمة «(periklutós) «περικουτός هي أيضًا يونانية. معناها: مشهور جدًا، ذائع الصيت، مجيد، مُثنى عليه كثيرًا. تظهر هذه الكلمة في اليونانية الكلاسيكية (على سبيل المثال في الشعر القديم)، ويشير البعض أحيانًا إلى أن معناها ("مُثنى عليه") يُشبه معنى اسم أحمد العربي ("أكثر مدحًا / الأكثر مدحًا").

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران 96)

وأن أنبياء بني إسرائيل كانوا يحجون إليه، وقد حللت هذه المسألة في الفصل الرابع، وهي خرافات لاصحة لها تاريخيا، واليهودية ليست إسلاما في نظرهم ولئن كانت شبيهة في كثير من الجوانب بالإسلام، إلا أنها ديانة قائمة الذات لها أحكامها وشرائعها وهويتها الخاصة بها.

إلى جانب ذلك، لاحظوا تلك التناقضات في الخطاب القرآني الذي انتقل من تشريع صريح للحرية الدينية قبل معركة بدر، ثم فجأة ألغيت تلك الحرية بالتوازي مع تغير طرأ على شخصيته وسلوكه، فكيف يدعي أنه رسول من عند الله وهو يأتي أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه؟ ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا؟ لتنفرج شفتيه؛

﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾(البقرة106)

وذلك ما لم تستوعبه كبار الرؤوس اليهودية، فالدين الجديد يتميز عن اليهودية والنصرانية بأنه يتفاعل مع متغيرات الواقع، ومحمد على عكس أنبيائهم رجل براغماتي يتبع مصلحته أينما وجدت، وما النسح كما بَيَنَّا سابقا إلا ضربا من الديالكتيك.

تهجم محمد على النصارى كان أقل حدة من اليهود، موقفهم كان أقل تصلبا تجاهه وذلك ما عبرت عنه شفتيه؛

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران113/114)

لقد كانت الطائفة اليهودية أغلبية في يثرب ويشكلون جبهة قوية، وكانوا أصحاب مال وجاه، استعان بهم من أجل تمويل غزواته على عكس النصارى. ومثلما رفع من شأن اليهود، ومجَّدَ أساطيرهم وخرافاتهم، فإن الشئ نفسه فعله مع النصارى، إذ أنه وظف ما تأثر به من هرطقات الطوائف النصرانية وأساطير يهودية مسيحية، أيضا روايات الصابئة المندائيين التي كانت متداولة في شبه الجزيرة قائلا في حديثة عن مريم أم المسيح؛

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا

حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران 37/33)

القصة تكشف أن محمد كان ينقل ما كان متداولا في شبه الجزيرة حول انبياء بني إسرائيل، اعتقد أن زوجة عمران (عمرام) هي والدة مريم، وعمران في الحقيقة هو والد موسى وهارون المذكور في سفر الخرورج، ولاصلة بين عمران التوارة وعمران القرآن، ولا نريد أن نقول إن محمد في سرده للقصة وقع في خطأ تاريخي، لو قلناه سنعتبر التوراة تاريخية، فهي برمتها ضرب من الميتاتاريخ الممجوج بالاساطير والخرافات، دعنا نقول إنه تأثر بما كان يرويه الصابئة عن سيرة مريم، فالصابئيون ظنوا أن مريم أم المسيح هي أخت موسى وهارون،* فهم من عائلة واحدة والدهم عمران، وكنا قد تعرضنا لهذه المسألة، تأثر التيار الحنفي بالصابئة قبل ظهور الإسلام، أما الكيفية التي حبلت بها زوجة عمران بمريم ووضعتها أصلها من كتاب القديس يعقوب الأصغر، وهو من أتباع المسيح الأوائل.[61]

بَوَّأَ محمد كلا من المسيح وأمه مكانة مقدسة، مثلما فعل مع النبي موسى، فكلاهما شخصيتين رمزيتين يمثلان العمود الفقري لليهودية والنصرانية، علما وأنه عظَّمَ أمرهما منذ أن كان في مكة، تسترسل الشفاه المحمدية خلال هذه الفترة ؛

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾﴿ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ (آل عمران51/44)

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾(البقرة87)

---

*اعتقد محمد أن مريم أم المسيح هي أخت هارون ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾(مريم/28) وفي العهد القديم هناك مريم أخت موسى وهاورن وفي العهد الجديد مريم أم المسيح، غير أن محمد تأثر أكثر بما تناقله الصابئة.

[61]التاريخ والقرآن، د. رأفت عماري، سبق ذكره، ص

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة287)

نلاحظ أنه دائما ما يقرن المسيح باسم أمه كإشارة لطهارتها وقداستها، وفي ذلك نقد مبطن موجه ضد شريحة من اليهود كانوا يرفضون بتولية يسوع أي ولادته من عذراء، ومثلما أقدم على أسلمة جميع الرسل والانبياء، فإنه قام بأسلمة الحواريين، أتباع يسوع الذين دافعوا عنه ونشروا تعاليمه بعد وفاته :

﴿إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة111)

وفي ذلك إشارة مبطنة أن يسوع الحقيقي كان يدعو للإسلام، ولكن حرفت رسالته فيما بعد، وعلى كل فإن موقف محمد من النصارى كان أقل حدة بكثير من اليهود ؛

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة82)

إننا نشعر خلال قراءتنا لما تحدر من شفتيه طيلة هذه الفترة، فترة عنوانها الأبرز اقصاء اليهود من رحمة الله وتسليط اشد العذابات عليهم، توظيفه للملحمة اليسوعية الأسطورية فقط من اجل التهجم على اليهود وتبكيتهم، وإذا حللنا الآيات تحليلا تاريخيا سوف نلاحظ أن أفكار المسيحية الأولى أثرت عليه.

إننا لانجد أثرا لكلمة المسيحة في القرآن، لأن المسيحية هي الصيغة المعدلة للنصرانية، وكنت قد تعرضت لهذه المسألة في الفصل الثالث من الباب الرابع. النصرانية ضمت التلاميذة الأوائل ليسوع، والتيارت اللاهوتية الفلسفية التي انبثقت منها تؤمن بعدم ألوهية المسيح وعدم صلبه، تيار ممثل في الأبيونيينEbionite*وهم اليسوعييون الأوائل، وكانوا يقولون بأن المسيح هو ابن يوسف النجار ومريم، وعليه فإنهم رفضوا فكرة الولادة البتولية لكي يضفوا عليه صفة انسانوية صرفه.** إلا أن محمد آمن بالولادة البتولية للمسيح، فالمسيح ليس نتاج ممارسة جنسية بين أمه وأبيه، إنما الملاك جبريل هو الذي وهبه لمريم عن طريق النفخ في فرجها، ونجد صدى ذلك في سورة التحريم؛

*حركة دينية راديكالية انشقت عن اليهودية ورفضت الشريعة الموسوية، والعهد القديم، وفكرة التثليث، وتقول إن المسيح رجل عادي ولد بطريقة عادية. تحدثنا عنها في الصفحة 141.
**هناك طائفة ثانية من الأبيونيين يؤيدون الحمل العذري للمسيح.

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم12)

وفي سورة مريم قال لها الملاك جبريل بعد أن تمثل لها بشرا سويا؛

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾(مريم20)

. إن إصراره على بتولية المسيح (ولادته من عذراء) هو محاولة تهدف إلى نزع النسب اليهودي عنه، فالغالبية من اليهود كانوا يقولون إنه ابن يوسف النجار، ويوسف النجار نسبه يعود إلى الملك داوود في التراث الإنجيلي، إلا أن التأكيد على الولادة البتولية يدحض هذه الفكرة اليهودية ويؤسس إلى عدم يهودية المسيح، وذلك يأتي في اطار محاولة أسلمته. وعلى الرغم من ولادته من عذراء، فإن محمد أكد أنه رسول بشري خلقه الله من تراب كبقية البشر :

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة75)

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾. (آل عمران62/60)

إن القول بأنه بشر خلق من تراب وفي نفس الوقت كان نتاج ولادة عذرية يطرح مشكلا فلسفيا، وكأن يسوع أصبح له طبيعتين لاهوتية وناسوتية، أو اللاهوت اضمحل في الناسوت، ولكن نفى محمد ألوهية المسيح نفيا قاطعا لأنه أراد تنزيه الإله، وكان قد هاجم بلا هوادة إمكانية كونه ابن الله أو ثالث ثلاثة، ورمى كل من يعتقد في ذلك بالكفر الصريح؛

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة17)

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران 60)

لقد فهم محمد فكرة "ابن الله" بطريقة سطحية، الله حَبَّلَ مريم أحبلها أي صيَّرَهَا حُبْلَى، فهم ساذج فابن الله تعنى أن المسيح هو تجلي لكلمة الله وروحه، وذلك ما أكده محمد في نفس الآية التي رفض فيها التثليث،* المسيح هو كلمة الله، وما الكلمة إلا إرادة الله وعلمه الأزليين تجسدا فيه، وروحه، أي فيه قبس نوراني إلهي. ثم إن رفض صلبه مع تأكيد أن الله رفعه، يصبغ على المسيح صبغة الألوهة؛

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ (النساء157)

وللخروج من هذا المأزق الديني، ما علينا سوى الرجوع للمذاهب والفلسفات اللاهوتية المسيحية التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية قبيل الإسلام التي اعتبرتها الكنيسة الرسمية في روما منذ النصف الأول من القرن الرابع ميلادي انحرافا عن الإيمان السوي وهرطقات يجب القضاء عليها، ففر أتباعها إلى شبه الجزيرة ووجدوا ملاذا هناك. هؤلاء كانت لهم مواقف راديكالية ضد الكنيسة الرسمية الأرثودكسية، مثل الدوسيتية Docetisme وهو تيار لاهوتي غنوصي*صوفي مسيحي، يعتقد أن الهيئة البشرية للمسيح مجرد تمظهر ووهم، بمعنى أنه كان له جسد ظاهري وليس جسدا حقيقيا. كلمة دوسيت أصلها يوناني "Dokein " أي يظهر أو يبدو، وما رآه الرومان واليهود على الصليب هو مجرد طيف شبح، وشُبِّهَ لهم على أنه المسيح. الدوستيون هم غنوصيون فلسفتهم مثنوية، ثنائية المادة والروح، الخير والشر، الجسد هو مادة، وهي شر مطلق وموطن الفساد والرذيلة، أما الروح فهي خير مطلق وقبس نوراني من عند الله، فلا يليق القول إن روح الله حلت في جسد المسيح ثم صلب، وبالتالي أنكروا أن يكون المسيح هو الله أو ابن الله. مفهوم الشبحية انبثق عنه الشبحية المعتدلة، تقول إن المسيح ظهر بجسد روحاني يشبه أجساد البشر، ثانيا الشبحية التوفيقية قال بها غنوصيان وهما كورينثوس وباسيليدس،** تميز بين يسوع الناصري المولود من امرأة مثل كل البشر، ويسوع النوراني الذي هبط على يسوع في هيئة حمامة بعد خروجه من ماء العماد في الأردن، فحل فيه ردحا من الزمن

---

*تحدثنا عن فكرة التثليث في الصفحات 139-141 كمبادرة من الفيلسوف أوريجن خلال القرن الأول ميلادي للتوفيق بين الدين والفلسفة وسارت على تلك الخطى الافلاطونية المحدثة حيث رأى أفلوطين الفيلسوف الاسكندراني توسط كائن غير مادي بين الإله والعالم كطريقة لحل مشكل الخلق، الله كجوهر غير متغير والعالم كعرض متغير، ثم إن فكرة التثليث تعنى أن المسيح ابن الله مجازا لا حقيقة.

*الغنوصية Gnos تعني العرفان الروحي، هي حركة فلسفية لاهوتية باطنية سرية أفرادها مسيحيون، غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، بالوجد لا بالإستدلال. نشأت خلال القرن الأول للميلاد وتتعارض عقيدتها مع المسيحية الرسمية التي نعرفها اليوم، لا تؤمن بإله العهد القديم ولا بالتعاليم اليهودية، وقاموا بتفسير غير تقليدي لرسالة المسيح وخدمتة. الأناجيل المنحولة التي تاثر بها محمد هي ذات طبيعة غنوصية.

**وفي سياق آخر يقول باسيليدس أن الذي صلب هو شخص آخر يشبه المسيح يدعى سمعان الكيروني وحَسِبَ اليهود والرومان أنه المسيح الحقيقي، وهذا الرأي يؤمن به المسلمون اليوم.

ثم فارقه قبل الصليب.[62] سورة البقرة الآية 278 أعلن فيها محمد أن الله أيَّدَ المسيح بروح القدس، ثم قبل الصلب رفعه إليه؛

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾(آل عمران/55)

وهنا نقول إنه رفعه روحا فقط لأن ؛

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر/42)

ذلك هو مغزى الآية، حيث تأثر محمد بالأفكار الغنوصية المسيحية، ولا أريد أن أقول هرطقات، لأن المهرطق أصبح مهرطقا في نظر الذين يفكرون تفكيرا مغايرا عنه، لقد كان محمد مهرطقا في نظر قريش، وقريش مهرطقة في نظره، ولو قبلنا بهذا المبدأ سنصبح كلنا مهرطقون، تهمة عفا عنها الزمن، لأننا اليوم في عصر حرية التفكير والنقد الحر، وزمن العقلية العلمية، والعقلية الدينية الأسطورية الخرافية أصبحت من الماضي.

بحث محمد من خلال دحض موقف اليهود في مسألة ولادة المسيح وصلبه مخالفتهم نكالا فيهم، وواضح أن اقتناعه بالأفكار الغنوصية حول طبيعة المسيح والتعبير عنها بكيفية ارتجالية قائمة على الوجدان لا العقل، جاء كردة فعل ضد أعداءه من اليهود الذين كانوا يبتهجون بمقتل يسوع، [63] أي أن هذا الرد عقائدي في ظاهره سياسي في باطنه. لم يكن جل النصارى العرب يقولون بعدم ألوهية المسيح وانكار صلبه، بل وجدت طائفة في تسمى باليعاقبة تبنوا المسيحية الرسمية للإمبراطورية البنزنطية، التي تؤمن بالطبيعة المثنوية للمسيح، إله وبشر، وذلك خلق جفوة مع هؤلاء، ثم إن الجفوة زادت بعدما ألغيت الحرية الدينية، وهو الذي أعلن في الماضي تمجيد العهد الجديد :

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة 47)

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (آل عمران55)

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة43)

---

[62] الوجه الآخر للمسيح، فراس السواح، منشورات دارعلاء الدين، الطبعة الأولى 2004، ص164-165.
[63] المصادر الأصلية للقرآن، سبق ذكره، ص 156.

لقد اعترف محمد ضمنيا بقداسة التوراة والإنجيل وعدم تحريفهما، وربما سَيُعترض علينا بالقول : إن الآيات تتحدث عن زمن الماضي وليس بعد ظهور الإسلام، أي قبل مجيئ محمد، وقبل تحريفهما . نقول : إن سياق الآيات واضح وصريح، فهي نتاج لجدل طويل ومرير بين محمد والكتابيين قبل وبعد الانتصار في بدر، وهي مدنية، والآيات القرآنية سبق وكررنا أنها تنشأ حسب الظرف والبيئة. لم تستوعب الطائفة النصرانية المقصد المحمدي من تلك الآيات وأن الأحوال تغيرت والظروف تطورت، هناك كيان سياسي بصدد التشكل في يثرب فلن يكون متماسكا ما لم تنصهر الكثرة في الوحدة. الخلاصة، فإن كلا من قريش واليهود والنصارى تجاوزتهم الأحداث، ولم يفهموا المغزى الحقيقي لما يتلفظ به محمد.

لا عجبا في أن يضيق محمد ضرعا من اليهود، يئس منهم كما يئس من قريش، إنهم يشكلون خطرا كما قلنا أمام هذا الكيان السياسي الصاعد، فللكتابيين حسابات ولمحمد حسابات، وعلينا ألا ننقاد للعواطف في قراءتنا لهذه المسألة. **عدم قبول اليهود بمحمد كان خطأ تكتيكيا فادحا، التمسك بقومتهم الدينية، إضافة إلى افتقادهم للحس البراغماتي، فانتهى بهم الأمر إلى نتيجة مأساوية، ومحمد منذ بداية دعوته كان حصيفا ونافذ البصيرة، لا ينظر للحاضر فقط إنما إلى المستقبل، فلا يمكن له إذن تركهم في يثرب لأنهم سيصبحون مع مرور الوقت كحشرة السوس التي تنخر عظام هذا الكيان، فأعلن على الفور: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه.** فوثب محيصة بن مسعود وقتل تاجرا يهوديا، فشَّنَعَ عليه أخوه حويصة، فقال له محيصة: والله لقد أمرني (محمد) بقتله. فرد عليه حويصة: والله لو أمرك محمد بقتلي فقتلتني؟ فقال نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها ! قال : والله إن دينا بلغ بك هذا العجب، فأسلم حويصة.[64] **لقد كان محمد براغماتيا إلى حد النخاع، فماذا لو تعرضت المدينة إلى حصار خارجي، وحدثتهم نفوسهم بالخيانة، لذلك فإن محمد اضطر لإزلة هذا العنصر ليكسب دولته قدرة أكبر على تحمل المخاطر سواء الخارجية أو الداخلية.**[65] إنني هنا لا أدافع عن طرف ضد طرف، ولكنني قدمت قراءة واقعية موضوعية لهذه القضية، بعيدة عن التشنجات الإيمانية الساذجة، لأن محمد كما قلنا منذ بدايات الكتاب رجل لا يجترح المعجزات، تؤثر فيه الظروف لا يؤثر فيها. وربما سيستدرك علينا بالقول: ألم تناصب قريش العداء الشديد له، ومع ذلك عفا عنها بعدما فتح مكة وانتهى الأمر إليه باخضاع جميع القبائل العربية وتوحيدها؟ **لا يمكن المقارنة بين قريش واليهود، فمهما بلغت حدة العداء مع قريش والمكيين فهو منهم وهم منه، ثم إنه كان يحبها**

---

[64] ابن هشام السيرة النبوية، ج 3، ص 19.

[65] مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، سبق ذكره، ص 458.

وسعى لجعلها سيدة العرب قاطبة، أما اليهود فقد اكتشف أنهم لن يقبلوا به، ولا يمكن الوثوق فيهم، فقوميتهم وأدبهم سَيَحُولُونَ وتحقيق ذلك.

لا عجب أن تظهر ظاهرة جديدة في المدينة لا تقل خطورة عن الكتابيين ألا وهي النفاق، فطبيعي أن يتكاثر المنافقون خوفا على حياتهم وأموالهم وديارهم، بعد طرد قينقاع وخفوت أصوات المعارضة، وهو ما أفصحت عنه شفتيه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ (آل عمران120/117)

معظم آيات سورة محمد أنتجت خلال هذه الفترة الزمنية؛

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ (محمد3/1)

وللتحذير من المنافقين؛

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ (محمد17/15)

أما أحوالهم؛

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴾﴿ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴾﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد30/24)

ولكي يتمكن محمد من التمييز بين الموالين والمعادين له، أعلن أن الله سيختبرهم بالبلاء، أي القتال؛

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ (محمد31)

على وقع هذه الآيات مضى محمد بعد بدر في تطبيق استراتيجيته الرامية إلى ترهيب القبائل واعتراض القوافل ومواصلة تضييق الخناق على تجارة قريش، فأرسل سرية زيد بن حارثة إلى منطقة تسمى القردة (ماء بنجد) بعد أن جاءه خبر سلوك قافلة محملة بالمال. تجنبت قريش محمد لكيلا تصطدم برجاله فسلكوا طريق العراق، غير الطريق الشام المألوف، لتسلم تجارتها وتحافظ على أموالها من قطع الطريق، ولكن نجح زيد في التحرش بها ونهبها، لتنفرج شفتيه؛

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾﴿ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ (محمد9/5)

ولما غنم أموالها أعلن تحديه المستفز لقريش؛

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴾ (محمد13)

الآن شفي غليله من قريش، فبات واضحا أنه لم يعد راغبا في السلم؛

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ (محمد35/33)

أية سُبَّة قد أصاب بها محمد قريش، إن سبب غزوة بدر هو نهب قافلة أبي سفيان، أما غزوة أحد سببها قافلة العراق. لقد تزايد حنق قريش على المسلمين، وقرروا الثأر. هذه المرة لم تكن قريش مترددة كما في بدر ما أدى إلى هزيمتها، بل كانت عازمة على أخذ ثأرها واسترجاع هيبتها المسلوبة، غير أن محمد لم يكن متحمسا لهذه المعركة، فقريش جهزت جيشا كبيرا، وحاول تحذير المسلمين من اندفاعهم وحماستهم والإستخفاف بالعدو، إلا أنهم أصروا على الخروج، فالنصر حالفهم في بدر، لسان حالهم يقول إن الله لن يخذل المؤمنين ! **فكما أرسل الله ملائكته في بدر فإنه حتما سيرسلها في أحد. مأزق لا يقدر على التهرب منه، مثلما كان يتهرب من قريش عندما طالبته بالمعجزة، فلو أمرهم**

بالرجوع، ستنهار العزائم وسيدب الشك في صفوف المسلمين من دعاويه، بأن القوة العليا تساعده في لحظات الخطر، فما كان له سوى الإندفاع معهم. *

خرج محمد بجيشه الذي قدر بألف ومائتي رجل، وعندما التقيا، رأى قوة جيشها وطرق مسامعه دفوفها وتوهجت عينه بوجه نيرانها.[66] فزع عبد الله ابن سلول المنافق أمام ذلك المنظر المهيب فقرر الرجوع، مدركا أنه أمام انتحار مؤكد، فجيش قريش يقدر بثلاثة آلاف، وجيش المسلمين بألف ومائتين، عوامل موضوعية كانت كفيلة لمن يقرأها أن يتنبأ بهزيمة ماحقة للمسلمين. لم يكن باستطاعة محمد والمسلمين العودة، إلا أنه حاول اقناع قريش بذلك؛

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾(الأنفال38)

لقد أدرك محمد مثل ابن سلول أن هزيمة الجيش القرشي هذه المرة صعبة إن لم تكن مستحيلة، ولكن لا يمكنه التراجع، فخسارة الحرب أفضل من اظهار الخوف أمام الرؤوس القرشية، مما سيترتب عنه نتائج كارثية على مكانته كنبي وقائد عسكري أولا ومستقبل الدولة الإسلامية ثانيا.

تحذيره الموجه لقريش بالعودة من حيث أتت وتذكيرها بسنة الاولين كان رغبة في السلم، وكأنه نصح مرفوق بمضي سنة الأولين، أي مضى الأشياخ ومضت معهم سنتهم ونهجهم، فلا معنى للإعتراك على ثأر لقوم ذهبوا، تذكيرا كان كفيلا بإلهابها وتأجيج نيران لوعتها بأخذ ثأر قتلاها، عازمة على نسف تلك القوة اليثربية الصاعدة وإن لم تفعل فإنها فَسَيُقْضَى عليها وعلى تجارتها، وتأمين طريق الإيلاف مرة أخرى.[67] ومن ثم كيف تعود وجيشها أكبر عددا وأحكم تنظيما مقارنة بالجيش المحمدي. أمام هذا الوضع الصعب تم انتاج القسم الأكبر من سورة آل عمران، لتنبلج الشفاه المحمدية؛

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾﴿ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ

*ولعل بعض المسلمين تساءل حينها : كيف لا نقاتلهم والله أمرك بأن لا تدعو إلى السلم وأنتم الأعلون ؟ ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ (محمد/35) نلاحظ أن الكلم القرآني وضع أحيانا محمد في مواقف محرجة أمام المسلمين، ولكن كما سيأتي، ذكاءه وحسه العمليين جعله يخرج منها سالما.

[66]الدين في شله الجزيرة، ص 222.

[67]حروب دولة الرسول، ج1، ص 138.

يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (آل عمران122/128)

كلم حاول من خلاله بث روح الاستبسال في نفوس المسلمين بتذكيرهم بالانتصار في بدر، وحثهم على الصبر والإعتصام بالإيمان، كلم موجه أكثر للفريق الذي كان بقيادة ابن سلول الذي قرر الرجوع إلى المدينة، إلا أن الوعد بالملائكة لم يثنيه عن تغيير رأيه، وذلك لم يكن ضعف إيمان منه بقدر ما خشي مهاجمة المدينة من طرف قريش بعد انهزام المسلمين، وهو احتمال وارد أمام العدد الهائل للجيش القرشي.[68] حصل ما كان في الحسبان وتلقى الجيش المحمدي هزيمة نكراء،* فالمسلمين اعتقدوا أن الله سيرسل الملائكة لمعاضدتهم، وكاد محمد أن يلاقي حتفه في هذه الغزوة، ولكنه لم يخرج سليما فقد جرح في أماكن كثيرة من جسده، وبقي يتألم من جراحه قرابة شهر ونصف بعد أحد، وحسبت قريش أن الجراح سيقضى عليه، فانطلقت اثر ذلك صيحة الميدان تجلجل: إن محمدا قد قتل ! وقد كانت تلك الصيحة سببا في تراخي الأيدي القرشية وانسحابها راجعة إلى ديارها، ولو علمت أنه لم يمت وجراحه لم تكن خطيرة بما يكفي لتقضي عليه، لواصلت القتال لأنها لن تقبل إلا بالثأر وإنقاذ تجارتها. تلك الصرخة إذن وصَفها المؤرخون المسلمون المولعون بروايات الشعبذات والخزعبلات على أنها صرخة شيطان،[69] وهي ليست سوى صرخة انقاذ. [70]

أي وقع كان على نفوس المسلمين جراء هذه الهزيمة، فكيف نخسر أمام قريش وهم الكافرون ونحن المؤمنون وقد أيدنا الله بالملائكة في بدر، لقد أثقل الحزن كاهلهم وجرحت نفوسهم جراحا عميقة، إنه موقف خطير كاد أن يزعزع إيمان المسلمين في نبيهم الصادق، لتسترسل شفتيه :

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾﴿ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ

[68]نفسه.
*لم يستعن محمد باليهود في أحد لأنه خشي الخيانة، ربما لو قام بذلك لتجنب المسلمون الهزيمة.
[69]الروض الانف، السهيلي، ج 3 ، ص 262.
[70]الدين في شبه الجزيرة، ص 225.

وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ (آل عمران155/151)

كلم حاول من خلاله معالجة الأسباب الموضوعية لهزيمتهم، مرده بالأساس لخلافاتهم الداخلية وعصيانهم والتفكير في السلامة الشخصية، أما لماذا لم يرسل الله الملائكة ؟ لأنه أراد أن يختبرهم ليعلم المؤمنين من المنافقين ؛

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ (آل عمران167/165)

وهنا يثور سؤال : هل الله يحتاج لهزيمة المسلمين لكي يعلم المؤمنين من المنافقين؟ **سبق وقلنا أن النص القرآني هو خطاب عاطفي في مجمله لا عقلاني، لأن محمد أراد بلسمة جراح المسلمين ورفع معنوياهم، فالكلام كله وجداني وليس عقلاني.** ثم إنه كيف تتضجرون وما النصر والهزيمة إلا من عند الله؛

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ (النساء78)

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ (الحديد23/22)

ولكن بالرغم من هذا الكلم، بقيت نفوسهم تتجرع مرارة الهزيمة، فهي إذن على عاتقكم، لو استبسلتم لتبدل الأمر:[71]

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (آل عمران165)*

[71] ص 227.

*أخيرا تنحل عقدة القدرية والجبرية ومعضلة التناقضات الصارخة في القرآن، فالمسألة هي وجدانية ونفسانية صرفه، أدت بمحمد للإعلان أن الإنسان مخير أو مسير حسب الظرفية التي عاشها والمسلمون، وذلك من أجل انقاذ موقفه أمامهم والخروج من المآزق بأقل الأضرار لخدمة مصلحة الدعوة. تفرق المسلمون طيلة قرون إلى شيع ومذاهب، كفروا بعضهم بعضا وسفكوا دماء الناس انطلاقا من آيات القرآن، لأنهم اعتقدوا أنه جوهر ثابت لا علاقة له بالأرض، أو بالأحرى اعتقدوا أن القرآن كلام الله عن البشر وليس كلام البشر عن الله، وحسبوا أن محمد هو متأثر لا مؤثر، وهو ما أشرنا إليه منذ بداية الكتاب، كون الخطاب القرآني هو مرآة تعكس نفسية وشعور صاحبه.

حرص محمد بُعَيْدَ هزيمة أحد على مواساة المسلمين محاولا أن يشفي نفوسهم بالقرآن؛

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ (آل عمران142/138)

بتلك الآيات التي نشهد بأنها في غاية البراعة، تمكن محمد من تخفيف وطأة الصدمة على نفوس المسلمين، مذكيا الروح المعنوية فيهم، مذكرا أن الحرب سجال والأيام دُولْ، وأنهم لكي ينتصروا لا بد أن تكون لديهم القدرة على تحمل الهزيمة، لأن القدرة على تحملها أقوى أنواع الإنتصار.[72] أما عن قتلى المسلمين في أحد فلا تحزنوا عليهم لأنهم؛

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران 170/169)

ثم كفاكم جدلا، ألا يكفينكم أن الله قد منَّ عليكم فبعث فيكم رسولا؛

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران 164)

وفي رده على اليهود الذين أظهروا تشفيهم في المسلمين؛

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران146/144)

أي أن جل الأنبياء الذين سبقوه عانوا النكسات والويلات وأنه ليس استثناء. **وهكذا عالج محمد نفسانيا المسلمين بالقرآن، ونجح في استنهاض هممهم واسترجاع شجاعتهم وثقتهم**

[72] مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص 470.

بأنفسهم، وأنهم لا يزالون قادرين على الضرب والغلب ومواجهة العدو، وأن هزيمة أحد هي حالة عرضية لم تؤثر بأي حال من الأحوال على جوهر نفوس المسلمين، وأن قوتهم الضارية لا تزال قادرة على خوض غمار الحرب واستئناف القتال من جديد في عزم وثقة بالنصر.[73] إن هزيمة أحد كانت عاملا رئيسيا ساهم في رسم ملامح سياسة محمدية جديدة تقوم على تصفية المعارضين من المنافقين الذين بدأوا يتكاثرون، تَقِبُّ رؤوسهم في استخفاف مباشر بالمسلمين، وترهيب القبائل المجاورة التي بدأت تتحرش بهم، وبعث رسالة للمكيين الذين حسبوا أنهم في أمان وذلك ما أفصحت عنه شفتيه؛

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾(آل عمران 197/196)*

لم تستمتع قريش بنشوة انتصارها إلا ليلة واحدة، لأنه مباشرة بعد الهزيمة تتالت السرايا والبعثات* وسُلَّ سيف الإغتيالات.** **وكان واضحا أن تلك السياسة الإرهابية ولئن كانت عنيفة ودموية إلا أنها دقيقة النظر بعيدة المرامي من أجل استرجاع هيبة الدولة ومحو أثر الهزيمة.** أثبتت تلك الحملات الترهيبية أن سيف الإسلام لا يزال قادرا على قطع رؤوس المنافقين رغم الهزيمة، فأنتجت الآيات؛

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف6/9)

إنه تحد لقريش والعربان مجتمعة، وثقة تامة بأن الإسلام سيكون الدين الوحيد بعد الغاء جميع الديانات، وإعلان صريح أن الدولة اليثربية لا تزال قوية رغم نكسة أحد. لكن محمد أراد نصرا

---

[73] ص 471.

*الآيات 76/70 من سورة النساء نشأت بعد هزيمة أحد وهي تكشف ضعف المسلمين وتضعضع الدولة، فجاءت بمثابة مجموعة من النصائح رفعا للمعنويات من خلال التحريض على القتال وعدم الخوف من الكافرين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةًۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

*سرية أبي سلمة إلى بني أسد، سرية عبد الله ابن أنيس إلى بنى اللحيان، سرية عمرو بني أمية لقتل أبي سفيان، حدث يوم بئر معونة لقتل عامر بن طفيل.

**اغتيال الحرث بن سويد ين الصامت، أبو عفك، عصماء بنت مروان، فاطمة بنت ربيعة.

حاسما يلجم به أفواه المنافقين والأعداء ويمحي إلى الأبد النكسة، وبه يعيد استقرار دولته وانكماش العربان، وذلك لن يتم إلا بعد طرد بنى النضير من يثرب، ليسجل التاريخ موقعة النضير.

تأتينا من صدور كتب السيرة أن محمد أراد تسليم دية قتيلين إلى قبيلة بني عامر التي كان بينه وبينها معاهدة حسن جوار.*** إن الحدث الذي عرف بيوم بئر معونة من أجل اغتيال عامر ابن طفيل،**** كان السبب المباشر الذي استغله محمد بدهاء لكي يستئصل بنو النضير.

طلب محمد رفقة أصحابه من بعض النضيريين مساعدته في تسليم الدية فكان جوابهم؛ نعم يا أبا القاسم ! نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه.[74] هنا يسترسل كُتَّاب السيرة بطريقة مبهمة، أن محمد ما إن سمع ذلك الجواب قال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعا إلى المدينة، حتى إذا استبطأوه قاموا في طلبه، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوا عنه فقال عنه : رأيته داخلا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله انتظرناك ومضيت، فقال : يهود همت بقتلي وأخبرنيه الله عز وجل.[75] لا شك أن هذه الرواية شديدة الوهن والضعف، لأن القارئ ذو الحس العقلاني الحصيف سيطرح جملة من الاعتراضات؛ لماذا عاد محمد إلى مدينة ؟ ما اسم الرجل الذي لقيه أصحابه عندما كانوا يبحثون عنه؟ ثم إن النضير كيف تفكر في قتل محمد، وهم كانوا شهودا على مدى البطش والسلطان الذي بلغه، أصبح قويا كفاية بما لا يقدروا عليه؟ كيف تفكر في قتله وهم الذين أصابهم الرعب من اجلاء قينقاع واغتيال كعب ابن الأشرف؟ كيف تفكر في قتله ورأوا السيف المحمدي كيف أسكت المعارضة بقطع رؤوس المنافقين والمعارضين داخل المدينة؟ ثم إنه عجيب أن يستعين باليهود من النضير لتسليم الدية ولم يستعن بهم في أحد خوفا من الخيانة؟ ألم يكن يعلم أنهم خونة ويتربصون به لكي يتخلصوا منه؟ ثم إن موافقة النضير على طلب محمد من دون تلكؤ ولا مماطلة تعطي انطباعا جليا أن هؤلاء أصبحوا منهزمين نفسانيا؟ فلتفترض أنهم أرادوا بالفعل قتله، ألم

***الآيات 86/84 والآية 93/94 من سورة النساء نشأت أثناء عقد محمد تحالفات مع بعض القبائل المجاورة ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. المصدر تاريخ القرآن نولدكه ص 181-182.

****أرسل محمد بعد أحد سرية عمرو بن أمية لإغتيال سيد مكة معاوية ابن أبي سفيان، ولكنه فشل في ذلك. مباشرة أرسله مع سبعين من المسلمين لقتل سيد العامريين عامر ابن طفيل، وقتل يومها قرابة سبعين مسلما على يد ابن طفيل بتحالف مع قبائل بني سليم التي غزاها محمد بعد يوم بئر معونة واستولى على أموالها وأسلحتها. تمكن عمرو بن أمية من النجاة يومها ولكنه في طريق العودة التقى بشخصين من بنى عامر فقتلهما. أصر محمد على تقديم دية لبني عامر رغم أنها شاركت في قتل المسلمين. هذه القصة يكتنفها الغموض وغير منطقية، فالمؤرخون المسلمون لا يتركون حدثا إلاّ ومَحَّصُوه، واضح أنهم شعورا بالإحراج عندما أيقنوا أن الأمر ببساطة هو مكيدة دبرها محمد بهدف التخلص من النضير.

[74] تاريخ الطبري، ج2، ص 551.

[75] ص 551-552.

تعلم النضير عواقب ذلك ؟ ألم تعلم أن محمد أصبح يمتلك جيشا محترما قادرا على ابادتهم على بكرة أبيهم؟ أما محمد فقد اتخذ الهه مطية من أجل قضاء مصلحة تكشف لنا مرة أخرى مدى دهائه السياسي والمامه العجيب بدقائق الأمور، ليأمرهم بكل حزم : اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها ! وقد هممتم بما هممتم من الغدر، وقد أجلتكم عشرا، فمن رئي بعد ذلك، ضربت عنقه. صعق النضير، ولكن ردت له الصاع صاعين بكلمات جاءت على لسان سيدهم حيي ابن أخطب: لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. [76]

مثلما فعل مع قينقاع، صاح فيهم صيحة الحرب، وبرجاله أطبق عليهم الحصار وأمر بتحريق النخيل والأشجار وافساد المزروعات لكي يقذف في قلوبهم الرعب، فنادوه: يا محمد كيف تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال تقطيع النخل. ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون.[77] قطعا ! فإن محمد قال في السنة الأولى في يثرب؛

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴾﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ (البقرة12/11)

أما الآن فقد تغيرت القلوب ونقضت العهود، وقد أشار المؤرخ السهيلي أن كلام النضير وقع في نفوس المسلمين،[78] مرة أخرى حتى يحسم الأمر كما فعل من قبل مع قضية الأشهر الحرم، اتخذ إلهه مطية لِلَجْمِ الأفواه وتبكيت المنتقدين، وأن ما يفعله هو بإذن الله وليس بإذن منه، لتسترسل شفتيه؛

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (الحشر5/1)

[76] ابن سعد الطبقات، ج 1 ص 41.

[77] البيهقي دلائل النبوة، ج3، ص 182. نلاحظ أن ما أقدم عليه محمد من تقطيع للنخل وافساد للمزروعات كان فعلا مشينا، شكل صدمة للقبائل بالرغم من وقوعه في بيئة بدوية صحراوية، ومنافيا لأخلاق ذلك الزمان، ولكن الغاية تبرر الوسيلة.

[78] تاريخ الطبري، ج2، ص 252.

كانت قريظة وغطفان قبيلتان حلفتان للنضير ولكنهما رفضا تقديم المساعدة خوفا من محمد، لينادي صوت النضير : يا محمد كفَّ عن دمائنا ولك أموالنا ! وذلك ما كان يريده محمد، بعدما يئس منهم وعلم أنهم لم ولن يؤمنوا به، ومثل قينفاع، كان مصيرها الإجلاء وحقن الدماء وترك ما لديها من سلاح ومغانم لسيد يثرب ليتحدر من شفتيه؛

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ (الحشر 7)

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾﴿ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾﴿ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الحشر17/10)

يقينا ! فإن طرد النضير أعاد لمحمد والمسلمين عزة الموقف، وبالنضير شفيت تماما جراح نكسة أحد، فالأموال والأسلحة التي غنموها سوف تمكنه من اعداد العدة لملاقاة قريش وفتح مكة. **لقد كان هدف محمد الأخير هو احداث تغيير جوهري في التركيبة الاجتماعية والإقتصادية والعقائدية العربية، وذلك لن يحدث إلا من خلال ضرب التعدد القبلي والتناحر الطبقي، ولكن طبيعة العربان فرضت عليه اللجوء إلى السيف واستعمال الإرهاب، فالعربان كانت أذهانهم متكلسة ذو مراس صعب مما اقتضى استعمال العنف. إنني لست بصدد التبرير لهذه السياسة العنيفة، ولكن في القرن السابع للميلاد كانت متداولة،** لأنه **لم توجد حقوق إنسان أو حرية تعبير ومعتقد أو حرية النقد، ونحن رأينا أن كل من انتقد محمد بالكلام ضربت عنقه. كان محمد يعلم أنه سيمر بعراقيل عظيمة أمام تحقيق مشرعه الإصلاحي، وبالتالي يصبح اللجوء للقوة مبررا في نظره،** وكما يقال الضرورات تبيح المحضورات، فالطفل الذي يعاني من مرض مزمن عليه أن يتناول الدواء، هذا الدواء طعمه مر ولن يقبله، لذلك فإن الأب أو الام سيرغمانه بالقوة على تناوله وذلك في أجل تحقيق مصلحة عظيمة هي التعافي. **إن المقاربة التاريخية التي تتعاطى مع حياة محمد على أنه رجل لم يجترح**

المعجزات وليس برجل شعبذات ألصقت به زورا وبهتانا، بل مسايرا للتاريخ ويتفاعل مع الظروف ويتبع مصلحته أينما كانت، ستمكن القارئ من استيعاب الحقائق الصادمة المنافية للحرية الشخصية وحرية التفكير والمعتقد المتواجدة في مراحل تطور الدين الإسلامي وتشريعاته، لأنه عندما يقرأ الدين، عليه أن يضع جانبا غشاء القداسة أو أنه نازل من السماء وبالتالي غير مرتبط بالعلل الأرضية، عليه أن يستوعب أن الإسلام وكل الأديان التي ظهرت على وجه البسيطة، هي مرآة تعكس عادات وتقاليد وقيم ومعتقدات وفلسفات مجتمعات عاشت خلال مدة زمنية معينة. المصيبة الكبرى بالنسبة لمن يتعاطى مع الدين على أنه مقدس، هؤلاء الناس سيعشون أزمة نفسية مزلزلة، والدواء الوحيد لكي يخرجوا منها سالمين هو التخلص من التقديس وقبول النقد، ويتقبل أخيرا فكرة أن أحكام الإسلام في مجملها صالحة فقط لزمانها.*

عن السياسة الإرهابية التي طبقها محمد، ولئن كانت ضرورية من أجل تثبيت هيبة الدولة، غير أنها ولدت الأحقاد والضغائن بينه وبين العربان، وستشعل مسلسلا دراماتيكيا من الثأر بين اليثاربة والمكيين، مسلسل سيستمر حتى بعد وفاته وعصر الخلفاء. سياسة التصفية الجسدية ساهمت بشكل كبير في تشريع جملة من الأعراف الاجتماعية والأخلاقية تعتبر في زمانها ثورية، فالسيف المحمدي الذي قطع الرؤوس واغتال النفوس أفرز مشكلة كبيرة في الدولة اليثربية، أيضا هزيمة أحد أدت إلى ارتفاع في عدد الأرامل والأيتام. حسب المصادر الإسلامية فإن ارملة سميت بأم كحة جاءت تشتكي لمحمد بعد أن حرمت من الميراث، والمرأة كانت لا ترث في ذلك الزمان فأبطل محمد ذلك العرف وحرص على ربطه بالسماء لكي يكون أمرا لا مرد له ويرضخ له الجميع؛

*نجد في القرآن مبادئ عامة يمكن أن تكون صالحة لكل زمان ومكان مثل بر الوالدين، لكن حتى كونفوشيوس الفيلسوف الصيني الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد أكد على ضرورة بر الوالدين وأن تحب لنفسك ما تحبه لغيرك وأن توقر المتقدم في السن، كلها أحكام توصل إليها بالبديهة والتجربة، كونفوشيوس لم يكن نبيا من عند الله وبالرغم من ذلك سبق الإسلام في المسائل الأخلاقية قبل أن يظهر بألف عام، وبالتالي نحن لسنا في حاجة للإسلام خاصة واللأديان عامة لكي نتعلم الأخلاق الحميدة أو لنرتقي بسلوكنا ونحافظ على تماسك المجتمع. فلسفة وأحكام كونفوشيوس مثال فريد من نوعه يكشف أن الإنسان يمكن أن يكون ذو خلق عظيم وهو بلا دين غير مؤمن بالغيبيات. هنا أريد أن أعقب على بعض سخافات المسلمين عندما يناقشون الملحدين أو اللادينيين، يقولون لهم إذا كان الله غير موجود فلماذا لا تنكح أمك ؟ حجة متهافتة قائمة على مغالطة كبيرة فضلا عن أنها تعري فساد تفكير المسلم، ففي نظره الدين يمنعنى من مضاجعة أمي أو أختى، الدين هو حاجز يمنع ارتكاب الشناعات والفضاعات اللاأخلاقية، وهو فهم ركيك وسخيف للدين، وربما يمثل السبب الرئيسي في تخلف المسلمين فكريا، لأن القيم والمثل الأعلى في الأخلاق نجدها في مجتمعات لا دينية ولا تؤمن بالغيب. لا أرتكب فضاعة ليس لأن إلها جالسا على كرسيه فوق سبع سماوات نهى عن القيام بذلك، بل إن الفعل وعدم الفعل نابع من ضمير الإنسان، لأنه تعلم منذ أن كان طفلا أنه يجب بر الوالدين ومساعدة الفقير، ليس الدين من يمنعنى عن مضاجعتى أختى أو أمي، ولكن اشعر بطريقة حدسية وغريبة أحيانا أن هذا الفعل منافي للاخلاق وشنيع ومقرف بالرغم من أننى ملحد أو لا ديني أو لا أدري، لا أقترف ذلك الفعل لانه شنيع في حد ذاته، ليس لأن تشريعا نزل بين قوسين من السماء منعنى عنه، هذه المسألة تندرج ضمن فلسفة الاخلاق هي هل نسبية أم مطلقة ؟ مسألة طويلة ومعقدة لا يسعنا عرضها كاملة في هذا المقام.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (النساء11/12)

وعن فحشاء الرجال والنساء وزواج المتعة وملك اليمين:

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾﴿ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (النساء19/26)

وعن حقوق اليتامى:

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ (النساء3/2)

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ (النساء6)

إنها تشريعات حقا ثورية داخل مجتمع قبلي معقد، وظيفتها تنظيم العلاقات الاجتماعية والأخلاقية داخل الدولة الفتية، ونلاحظ هنا تشريع زواج المتعة نظرا وأن السرايا والغزوات في اطراد مستمر والسبايا من النساء سيتضاعفن ليصبحن حريما وأملاك يمين فيما بعد. وذلك ما حصل، لأنه مباشرة بعد طرد النضير خرج محمد والمسلمين ليغزوا بنى محارب وبني ثعلبة من غطفان للإنتقام ليوم بئر معونة، غزوة عرفت بذات الرقاع.[79] لكن الأخبار وصلتهم وتجهزوا لصد جيشه، فعادوا إلى المدينة متحسرين، فشل هذه الغزوة دفع محمد لتشريع أحكام صلاة الخوف؛

﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ (النساء103/100)

بالرغم من نجاح محمد والمسلمين من تحسين وضعهم السياسي والإقتصادي بعد طرد النضير، بيد أنه كان لا يمر يوم أو يومين إلا وخرجوا غازين، صراع محموم من أجل تأديب العربان ذات الروح المتمردة الثائرة ضد الحكم المطلق. غزوة دومة الجدول تعتبر نقطة تحول على مستويين؛ أولا وصل محمد وجيشه إلى حدود الشام طالبا قبيلة بني سليم، ولما علمت به مقبلا أخذها الهلع فولت فرار بأرواحها تاركة له ما كان لديها من مال وماشية. بتلك الغزوة، وصلت أخبار الجيش المحمدي إلى

[79] السيرة ابن هشام، ج 3، ص 155-156.

الإمبراطورية البيزنطية وبدأوا يسمعون بما يحصل من تحول جذري في باطن شبه الجزيرة.[80] ثانيا؛ بدأت الدولة تتسع شيئا فشيئا مع كثرة الأموال والمغانم والحريم التي اغدقت على المسلمين بعد كل غزوة، فكان لا بد له أن يهتم بشكل خاص بتعديل الممارسات والتشريعات الوثنية المرفوضة والمُنَفِّرة في أسرع وقت ممكن من دون أن ينتظر حدوث مناسبات خاصة تدفعه إلى ذلك. [81]

عن القصاص والوصية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ (البقرة177/182)

وعن كيفية آداء الدية:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ (النساء91/92)

وعن قتل الأولاد ومال اليتيم:

﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام151/152)

وعن الخمر والميسر:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة219)

[80] حروب دولة الرسول، ج 2 ، ص 243.
[81] تاريخ القرآن، ص 184.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة90)

وعن عقاب السرقة:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(المائدة38)

نلاحظ أن الخطاب القرآني موجه إلى مجتمع بعينه، مجتمع القرن السابع في شبه الجزيرة وكيف عمل على تنظيمه وضبطه، وبناء عليه، فإن الإسلام في هذه المرحلة أصبح دين عربيا خالصا مقتصرا على العرب فحسب، فالقرآن في آيات عديدة يؤكد أنه بلسان عربي مبين، والكعبة أصبحت القبلة بدل بيت المقدس.

انطلاقا من السنة الخامسة للهجرة اتسع حريم محمد لأكثر من زوجة، *تعدد الزيجات كان عرفا في ذلك الزمان، ولكنه كان يرى فيه استراتيجية بعيدة الغور، **فالرجل ينظر كما أكدنا مرار إلى ما وراء حدود شبه الجزيرة العربية، متمسكا بذلك الوعد منذ أن كان في مكة " اتبعوني أجعلكم أنسابا والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر ". كان يعلم حتى وإن سيغدو سلطان العرب عن طريق النبوة في المستقبل، فإن ذلك لن يتحقق إلا بفضل صناديد مهدوا له الطريق، آمنوا به، عَزَّرُوه ووقروه، وليس بمفرده، ففكر في تعزيز سلطته عن طريق مصاهرة مختلف القبائل. سياسة المصاهرة التي انتهجها في المدينة دفعته إلى الغاء التبني، حيث أن العرف الأخلاقي والإجتماعي العربي في ذلك الزمان كان يحرم الزواج من أزواج الأدعياء.** ألغى محمد ذلك العرف بعد زواجه من زينب بنت جحش زوجة ابنه بالتبني زيد بن حارثة، أما كيف حدثت القصة، فإن محمد يوما افتقد زيدا فجاءه منزله ليطلبه، فهرعت زينت لاستقباله، عندما رآها فتنه جمالها ولم يتمالك نفسه فقال: سبحان الله مصرف القلوب ! أخبرت زينب زيدا بما حدث فهب على فوره لمحمد متسائلا: أ أُفارقها ؟[82] لتنفرج شفتيه؛

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب38/36)

*سودة بنت زمعة، عائشة بنت أبي بكر، حفصة بنت عمر، أم سلمة بنت أبي أمية ابن المغيرة.
[82]الدين في شبه الجزيرة، ص 242.

يقينا ! فإن زينب لم تكن ترغب في الزواج من زيد ولا زيد كان يرغب فيها، فالزواج كان قد تم على مضض، فلا يمكن لأحد رفض أحكام محمد خلال هذه الفترة لأنه كان قد أعلن؛

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ (النساء36)

إنها لحادثة مثيرة مثلت مناسبة لإنتاج جزء من سورة الأحزاب، نشأت الآيات بأسلوب يعاتب فيه محمد وهو في حيرة من أمره، وهو في الحقيقة صوت ضميره نابع من أعماق وجدانه. لقد أصابه الإرتباك من الحادثة، لا شك أن ضميره أنبه في البداية، فكيف سيتلقى العرب من قريش وسائر العرب النبأ وقد جرت التقاليد القرشية على مبدأ التبني ويجعل للمُتَبَنَى كافة حقوق الإبن والحرمة والنسب؟ هنا فكر وراجع نفسه، فهو بصدد كما قلنا احداث ثورة اجتماعية على الأعراف الأخلاقية القديمة، ليفارقها، وبعد أيام تزوجها. فدوى الصوت في أرجاء الجزيرة مستنكرة " سيد المدينة تزوج امرأة دعيه" ليرد عليهم إنه أمر الله؛

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾﴿ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾. (الأحزاب6/1)

وعن هذا الحدث اندفعت عائشة تقول: ما أرى إلا ربك يسارع في هواك.[83] نظرة حصيفة لم يتوقف عندها جل المؤرخين المسلمين ومدى الإحراج الذي تسبب فيه هكذا اعتراض، لأن طبيعة الوحي تغيرت أو دعنا نقول تطورت، في مكة كان عفويا أكثر، أما في المدينة أصبح يخدم الجزئيات الأدنى من حياة محمد، فيتدخل مثلا لفض النزاعات العائلية. لقد لاحظ عمر ابن الخطاب مثل عائشة هذا

[83] لدين في شبه الجزيرة، ص 243.

التطور الذي طرأ على الوحي، حيث أبدى رأيه في ثلاث مناسبات حول القبلة والحجاب والطلاق، فأخذ برأيه.[84] أمام هذا المأزق أرهف الوجدان المحمدي لنغمة جديدة مؤكدا؛

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾(الأحزاب 40) لعله أراد بهذه النغمة، قطع الطريق على كل من تسول له نفسه إدعاء النبوة بعده، وإذا كان خاتم النبيين والمرسلين، فلا عجب أن يقرر الإله التدخل في حياته الخاصة. *

قطعا ! **فإن لتلك السياسة الصارمة العنيفة التي تبناها بعد هزيمة أحد من سرايا واغتيالات في جنح الظلام، ولدت الأحقاد والضغائن ضده وضد المسلمين، ليسجل التاريخ غزوة الأحزاب المعروفة بالخندق. إن طرد النضير كان الشعرة التي قصمت ظهر البعير، فماذا تنتظر إذن من قبائل اغتيل أشراف قادتها، ورملت أزواجها، وخرجوا أذلاء من ديارها؟ ماذا تنتظر من قريش، التي أنهكت اقتصاديا بضرب طريق ايلافها؟ ماذا تنتظر من قبائل انتهكت أعرافها الاجتماعية والأخلاقية، انتهاك الأشهر الحرم وخرق للتحريمات كإلغاء التبني؟ هل سنتوقع منهم الإيمان بمحمد وقبول دعوته؟ هل سنتوقع منهم ابرام صلح مع المسلمين والدخول في الإسلام؟ هل سنتوقع منهم أن يقولوا الإسلام دين الحق ومحمد صادق؟ النتيجة المنطقية والطبيعية هي الأخذ بالثأر، خاصة مع قبائل تحركها العصبية، إنها غريزة بشرية تواجدت مع الإنسان منذ نشأته على ظهر البسيطة.** أما عن تعاطي كتاب السيرة لهذه الغزوة، فتجدهم دائما يختلقون التبريرات ويطرحون المسألة وكأن محمد والمسلمين كانوا ضحايا مؤامرة تم حبكها من يهود النضير وخيبر وقريش. لقد سلك محمد منذ السنة الأولى في يثرب طريق التحرش بالقبائل العربية بالرغم من عدم استفزازه، وكان لا بد من فعل ذلك، **لأن اتباع موقف دفاعي لن يكون في صالحه، فالأعراب ذوي الأنفة سيرون في الدفاع عملا جبانا، إذن يجب الإستمرار في استعراض القوة لأنه لا سبيل لردعهم سوى الترهيب والإرهاب. ثم إنه لو خيَّر الدفاع عن الهجوم فإن ذلك سيلقي الشك على دعاويه السابقة، أي أن القوة العليا تساعده في اللحظات الحرجة، إذن استعمال القوة والعنف هو برهان على نبوته والطبيعة الإلهية لرسالته، وعليه يجب أن يتصرف من دون تردد أو ريبة.**[85] كان لمحمد مصالحه ولقريش وبقية القبائل

---

[84]ورد في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: وافقت الله في ثلاث أو وافقني الله في ثلاث، قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً {البقرة: 125} وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن وقلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله ورسوله خير منكن، حتى أتيت إحدى نسائه فقالت: يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله تعالى: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ {التحريم: 5}

*ماني بن فاتك مؤسس الديانة المانوية إدعى هو أيضا بأنه خاتم النبيين والمرسلين، لا أستبعد تأثر محمد بهذه الفكرة.

[85]تطور القرآن التاريخي، سبق ذكره، ص 88.

مصالحهم الخاصة، ولست بصدد الدفاع عن طرف ضد طرف، لأن فلسفة وأخلاق وضمير عصر ما بعد الحداثة والعلم، لن يستوعب بطريقة كاملة سلوكيات مجتمع عاشوا في بيئة تختلف عن بيئته، إلا أنني أسعى إلى تقديم قراءة واقعية تقوم على العقل لا على الإيمان والتقديس، وهو ما لن يتقبله المسلم العامي الذي يجهل تراثه، والمسلم المطلع على تراثه ليرد بالقول: إن الرسول أُخرج من بلده مكة، مضطرا للجوء إلى المدينة، بعدما أذلوه ونكلوا به، فطبيعي أن يرد الفعل. أقول: **مثلما تعرضت قريش للحصار الاقتصادي والقبائل اليهودية للطرد من ديارها، فطبيعي ان يردوا الفعل أيضا.** الخلاصة إذن، **لا يوجد طرف يملك الأحقية على الطرف الآخر، رد فعل الطرفان كان مبنيا على دوافع ومصالح مادية صرفه لا على الإيمانيات ولا دخل للماورائيات.**

تعتبر هذه الغزوة بحق مفصلية في تاريخ الدولة والدعوة الإسلامية، ولو نجحت، لما قام للإسلام قائمة، فقينقاع والنضير وعرب غطفان وهذيل وخيبر والقبائل المتاخمة للشام وقريش، شكلوا أول جمع عظيم لما يربو العشرة آلاف، جيش بهذا الحجم لم يشهده العرب في تاريخهم، معركة لم تكن من أجل الإنتقام كما في أحد، بل من أجل التصفية النهائية.[86] يوجز لنا ابن هشام خبر تحزيب الأحزاب: كانت غزوة الخندق في شوال السنة خمس، كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود، منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي ابن الأخطب، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عامر الوائلي، في نفر من النضير ومفر من بني وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ: وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول ﷺ. قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بن فزارة، والحارث بن عوف في بنى مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع.[87]

وعن ردة فعل محمد والمسلمين عندما وصلهم بالخبر يقول الطبري: فلما سمع رسول الله ﷺ ضرب الخندق حول المدينة، وكان الذي أشار عليه بالخندق سلمان الفارسي، قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا. [88]

في رواية أخرى عن ابن هشام ذكر أن اليهود عندما قدموا على قريش مكة ودعوهم إلى حرب محمد، قالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه ونحن

[86]حروب دولة الرسول ج 2، ص 244.
[87]ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ج 3 ص258-259.
[88]تاريخ الطبري، ج2، ص 566.

ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين انتجت فيهم الآيات 51-55 من سورة النساء؛

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾

إن تفضيل اليهود الوثنية على الإسلام، جاء كردة فعل عنيفة ضد محمد، وهو الذي عبَّر بدوره عن امتعاضه وكرهه الشديدين لهم، حالة أفصح عنها في القرآن، ثم إن الوثنية تعتبر أفضل من الإسلام في نظر اليهود، فالأولى تقول بالتعددية وبالتالي الحرية الدينية، أما الإسلام فقد فُرِضَ بِحَدِّ السيف.

أمام الحشود العظيمة التي قدرت بعشرة آلاف، ماذا يمكن لليثاربة فعله؟ وهم الذين بعد التعبئة القصوى لم يجمعوا سوى ثلاثة آلاف محارب، فلا يمكن إلا اتباع سياسة دفاعية حازمة صارمة، لأن هذه الحشود حسمت أمرها بأنها لن تعود إلا بعد القضاء على محمد ودولته، فقريش رأت أنه طالما بقي محمد حيا فلن تأمن على قوافلها وتجارتها فالقضية هي حياة أو موت. أما الخندق فما كان بمقدور المسلمين حفره في فترة وجيزة من الزمن لولا قريظة التي أمدت جيش المسلمين بآلات كثيرة للحفر. على يثرب أقبلت بجموعها الأحزاب، ولكن وجدت بينها وبينه شقة حائلة تحول بينها وبينه، فكانت الخيبة وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت لتكيدها العرب.[89] يقينا ! فالعرب لم يعرفوا الخندق وهي استراتيجية حربية طَوَّرَهَا الفرس. هَمَّت الاحزاب بضرب حصار مطبق على المدينة، حصارا دام أسابيع بهدف كسر روحهم المعنوية، حصار وصفه قول معتب بن قشير الأنصاري: **كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط**. ما أفصح عنه قشير الأنصاري يعكس حالة الجزع واليأس الى اشتدت على نفوس المسلمين، أما محمد فقد انفرجت شفتيه :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ

[89]ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ص، ج 3 ص 261.

إن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾﴿ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولًا﴾ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ (الأحزاب17/11)

موقعة الخندق كانت مناسبة ليعلم محمد المنافقين من المؤمنين:

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾﴿ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يسيرا﴾ (الأحزاب19/18)

وربما ما يصور لنا أكثر الحالة المتردية للمسلمين، هو حديث الشعبذات الذي رواه كتاب السيرة نقرأ:

حدث عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة، ورسول الله ﷺ قريب منى، فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي فضرب ضربة، فلمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به ضربة ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى. فقلت بأبي أنت وأمي يارسول الله، ما هذا الذي رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: نعم. قال: أما الأولى فإن الله فقد فتح بها عَلَيَّ اليمن، أما الثانية فإن الله فتح بها عليَّ الشام والمغرب، أما الثالثة، فإن الله فتح بها عَلَيَّ المشرق. [90]

بغض النظر عن صحة أو ضعف هذه الرواية فإنها تكشف بطريقة رمزية، كيف عظم البلاء والخوف على المسلمين، وإن وقعت حقا فهي جاءت في سياق رفع المعنويات، والتأكيد أن الوعد الذي قطعه على نفسه وعلى المسلمين ما زال قائما، بشرط أن يصبروا على الشدائد والمحن* لأنهم شعروا بحيرة واضطراب نفسيين أمام سيرة رجل خالية من المعجزات، ثم كيف حوصر ولم تسعفه الملائكة كما في بدر ؟ أين الملاك جبرائيل وهو الذي يأتيه صباحا مساء؟ أين الخوارقيات إذن ومحمد في أمس الحاجة إليها ها هنا؟

[90] ص 262.
*الرواية نجدها بأسلوب آخر عند البيهقي وابن الكثير وابن الأثير، وقد تفننوا في أسطرتها. ونسبوا إليه جملة من الشعبذات كالتي رافقت يسوع من أجل إطعام المسلمين.

لقد أحاط الخندق بالمدينة تماما، اللهم إلا جبلا بالخلف وكان مانعا طبيعيا قويا، موقع قبيلة قريظة كان يتواجد على حافة المدينة وبمواجهة الأحزاب. همَّ حيي ابن الأخطب سيد النضير، بعدما استمر الحصار لأسابيع وشعرت الأحزاب أن الأمر طال مما قد يوهن من عزائمهم وأن فرصة الإنتقام من محمد تكاد من أيدهم تضيع، إلى اغراء سيد قريظة أسد بن كعب لكي يفتح له الأبواب، ولو استجاب سينتهي أمر محمد على الفور. طرق حيي الباب مناديا لكعب الذي رفض أن يفتح له ودار بينهما حوار التالي :

حيي : يا كعب افتح لي.

كعب : ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم، إني عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه لم أر منه إلا وفاء.

حيي : ويحك، افتح لي أكلمك.

كعب : ما أنا بفاعل.

حيي : والله إن أغلقت دوني إلا جشيشتك أن آكل معك منها.

أراد حيي أن يستفز كعب وينعته بما هو أنكى من البخل، ليستمر الحوار :

حيي : ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتم بمجمع الأسيال من رومة، بغطفان على قادتها وشادتها، قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمد ومن معه.

كعب : جئتني والله بذل الدهر، بجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق وليس فه شيء، ويحك دعنى ومحمدا وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.

فجأة ينتهي الحوار بطريقة ارتجالية غامضة وهي شطحة كلامية من كتاب السيرة، أن كعب أعطى حيي عهدا وميثاق من الله لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدا، أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهد، وبرئ مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول ﷺ.[91]

علَّقَ سيد القمنى على نهاية الحوار بالقول: هكذا تقرر كتب السيرة أن قريظة قد نقضت العهد، لكنها لا توضح علامات ذلك النقض المحورية، والتي كان يمكن أن تكون قاتلة ونهائية لو فتحت أبواب

[91]تاريخ الطبري، ج 2، ص 571. انظر أيضا ابن هشام في كتاب السهيلي، ج 3 ، ص 261.

حصونها، لكنها لم تفعل، ويبدو أن المقصود بالنقض هنا هو تفكير قريظة، وإعلامها بذلك خلال أيام، تم فيها علاج الموقف المتأزم من جانب النبي قبل أن تسقط قريظة في خيانة واضحة. [92]الرواية هي ذريعة من أجل طرد قينقاع والنضير، وكما استنتج القمنى، فإن كتاب السيرة هم من استخلصوا من نهاية الحوار أن قريظة نقضت العهد بالتفكير في الأمر، ونحن نقول أليس بعض الظن اثم؟ أسوة بالآية 12 من الحجرات، فما استخلصه كتاب السير هو ضرب من التظني، والظن هو بين الشك واليقين، ثم إنه فلنفترض أن أسد بن كعب فكر في الامر، قد يكون فعل ذلك بهدف مماطلة سيد النضير الذي أحرجه واستفزه، ففكر في مماطلته فقط ليتجنب الإحراج. لم ينقض سيد قريظة العهد، وهو الذي لم يمد يد المساعدة لحيي عندما حاصر محمد قبيلته، وحرق النخيل وأفسد المزروعات، وكان قد رد عليه بالقول وبكل ثبات: لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي.[93] **ما استنتجه المستشرق كانون سل هو صراحة الأقرب إلى الواقع، فقريظة بقيت على الحياد، أي لم تساعد المحاصرين ولم تؤيد المسلمين، فقرر محمد التخلص منهم ليس لأنهم نقضوا العهد بل لتفضيلهم البقاء على الحياد.[94]**

علم محمد بالحوار الذي دار بين سيد النضير وقريظة فبعث بسعد بن عبادة ليتفاوض معه قبل أن يتنهي به الأمر بنقض العهد وفتح الأبواب أمام الأحزاب، فاشطرتت عليه* قريظة عودة النضير إلى ديارهم، وطبيعي أن تطلب ذلك فالقبائل العربية محكومة بدافع العصبية القبلية، ولكنه رفض. **هنا فكر محمد، وبدهائه الفذ استخلص أن الأحزاب لم يكونوا منذ البداية على قلب رجل واحد، فقريش ترغب في القضاء على دولته، واليهود يرغبون في استعادة ديارهم، وغطفان ترغب في أخذ ثأر أم قرفة، تلك المرأة العجوز التي أمر محمد باغتيالها بكل برودة دم، لا لشئ لأنها هجته، وما دفعها للإلتحاق بالأحزاب أيضا هو الطمع، فهم ليسوا أبدا أصحاب سيادة وثروات مثل المكيين، الحصول على المغانم كان دافعها الرئيسي. إنها نقطة ضعف خطيرة لعب عليها محمد فأرسل قائدين ليفاوضا غطفان في الخفاء وجرت المساومة بينهم، يعطيهم ثلث ثمار المدينة مقابل انسحاب الأحزاب. ما إن انتهت المفاوضات، قدم من غطفان رجل داهية وهو نعيم بن مسعود ليحادث محمد، والمصادر الإسلامية تقول إنه أخفى اسلامه عن قومه، طلب منه محمد بأن يفرق**

---

[92]حروب دولة الرسول، ج 2 ، ص 256.
[93]تاريخ الطبري ج 2 ، ص 553.
[94]تطور القرآن التاريخي، كانون سل، ص 78-77.
*إن تبرير سرايا وغزوات المسلمين، على أنها ردة فعل متوقعة لأنه أخرج من مكة ومعه المسلمين مكرهين وأرادوا العودة إلى ديارهم. نفس الحجة يمكن استعمالها مع القبائل اليهودية التي بحثت هي أيضا عن العودة إلى ديارها واضطرت لمحاربة محمد. القراءة المتحيزة تقوم على وازع إيماني دائما ما تحاول اختلاق التبريرات، ونحن نحاول تقديم قراءة مادية موضوعية.

بين الأحزاب ويخذل بينهم ما استطاع، لتكون الخدعة.[95]بث الشك والريبة بين قريش من جهة واليهود وغطفان من جهة ثانية، انسحبت الأحزاب وخذل بينهم. تلك هي إذن الطريقة التي مكنت محمد من الخروج من أخطر مأزق تعرضت له دولته، فلا معجزات أفلحت ولا خوارقيات تحققت، بل بإرادته القاهرة، وقدرته الفذة، ومكيدته العجيبة، ولو كان رجل معجزات لما كانت الحرب خدعة في عُرفه.** هنا تتدخل الآيات لتظهر أن المدد السماوي لعب دوره، لتسترسل شفتيه؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ (الأحزاب11/8)

لقد كان أمر الخندق والأحزاب في فصل الشتاء، حيث الرياح العاتية التي اقتلعت الخيام واطفأت النار، فحاول إظهار أن ماحصل كان بفضل الملائكة التي أرسلها الله لمساعدة المسلمين ضد الكافرين.* لا شك أن الجهل بالأسباب العلمية لدى العرب، وهيمنة العقل الخرافي على معظمهم،** فضلا عن ذكاءه، عوامل استغلها محمد لإقناع أتباعه بحديث الأحاجي. بعد فك الحصار ورجوع الأحزاب، زعم محمد أن الملاك جبريل أتاه وأن الله أمره بالتوجه إلى بني قريظة، وذلك ما أورده ابن الكثير : عن عائشة أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار ، فقال يامحمد أوضعتم أسلحتكم؟ فقال : وضعنا أسلحتنا، فقال : إنا لم نضع أسلحتنا بعد، أنهد إلى بني قريظة. [96]

---

[95]ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ج 3 ص 265.

**المسلمون يرون في غزوة الأحزاب دليلا على صدق النبوة وأن لمحمد معجزة حسية، لقد حوصر مع المسلمين داخل يثرب ومروا بمحنة عظيمة كادت أن تقضي على دابر الدولة الإسلامية الفتية، إلا أن محمد بقي مؤمنا من صميم قلبه أن الله سينصره فقد وعده بكنوز كسرى وقيصر، والرواية الى نقلها كتاب السيرة كيف ضرب محمد المعول ثلاث مرات وسأله سلمان الفارسي عن اللمعات الناجمة عن الإحتكاك بين المعول والحجر، قد تكون قصة رمزية تكشف عن هدف محمد الرئيسي، كما أنها يمكن أن تكون مختلقة، اختلقها كتاب السيرة ضمن مشروع التخفيف من الأزمة النفسية التي اصابتهم ألا وهي "كيف يكون محمد رسولا بلا معجزات". لا وجود لتدخل إلهي في هذه الغزوة ولا يمكن الإعتماد عليها لإثبات المعجزة أو صدق النبوة، فالأمر وما فيه أن محمد اعتمد على ذكائه وحسه البراغماتي للخروج من المحنة، ولقد نجح من خلال استعمال المكيدة والخدعة والكذب، ذلك كل ما في الأمر، ولو بقي في تلك اللحظة شخصا ساذجا ينتظر المدد الإلهي لقضي عليه وربما لن نسمع اليوم بدين سمى الإسلام.

*لا يمكن أن نلوم على محمد والمسلمين الذين لم تكن لهم دراية بالرياح والعواصف كظاهرة طبيعية أسبابها مادية، ولكن انسان العصر القديم والوسيط كان دائما يفسر ما يدور من حوله عن طريق الخوارقيات والكائنات الماورائية.

**ليس كل العرب كانوا بلهاء سذج، فقريش والارستقراطية المكية لم تسلم بما جاء به محمد، سخرت منه واستخفت به، وقد رأينا كيف كانت تناقشه وترد عليه بطريقة ذكية، فكان يلجأ أحيانا لحجج غير منطقية وارتجالية، فضلا عن التناقضات الصارخة المتواجدة في خطاب يدعى أنه ليس من عنده بل من عند الإله. المسلم المثقف أو غير المثقف يعتقد أن قريش والمكيين الذين لم يؤمنوا بدعوة محمد هم شرذمة من الكفرة الفاقدين للعقل والمنطق، وبالتالي جاء الإسلام كخطاب عقلاني يناقش من لا عقل له. حتى الذين قبلوا دعوته في مكة لم يتجاوزا العشرات، قبلوها ليس ايمانا منهم بقدر وضعيتهم المادية والإجتماعية الصعبة، فأغلبهم كانوا من المحرومين المعدمين، رأوافي الإسلام متنفسا وسبيلا للخروج من الفقر والفاقة باعادة توزيع الثروة.

[96]ابن الكثير البداية والنهاية، ص 119.

وبرواية الطبري:

فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ معتجزا بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، عليه قطيف من ديباج فقال : أوقد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال: نعم، قال: جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يامحمد بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة،، فأمر رسول الله مناديا فأذن في الناس : من كان سامعا ومطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.[97]

أما لهذا الزعم المحمدي فمن وراءه تكتيك سياسي في غاية من الحنكة والدهاء، فقريظة سواء نقضت أو لم تنقض العهد فإن مصيرها سيكون الإبادة. سبق وقلنا أن هزيمة أحد هزت هيبة الدولة، ولم تستعدها إلا بعد طرد النضير، تقريبا نفس الموقف مع قريظة. نعم، لم ينهزم المسلمون ولم يتم القضاء على الدولة، غير أن انفكاك الحصار عن المدينة لم يكن كافيا في نظر سيدها، فقد قرر التحرك بسرعة بهدف ردع العربان، فماذا لو فكروا مرة أخرى في حصار المدينة؟ إذن كان يجب عليه احراز نصر مزلزل، يحطم به نهائيا شوكة القبائل العربية، فلو فكرت في التطاول مرة أخرى على سلطانه، حتما فإن مصيرها سيكون مماثلا لمصير بني قريظة التي تحرك عليها بجيشه مناديا من وراء حصونها:

يا إخوان القردة والخنازير هل أخزاكم الله وأنزل بكم النقمة !

نداء أجابت عليه قريظة:

يا أبا القاسم ما كنت جهولا ! [98]

استنجدت قريظة بأبي لبابة حليف الأوس بعد أن أنهكها الحصار، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه وقالوا له:

يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد، قال: نعم. ثم أشار بيده: إنه الذبح.

عرضت على أبا لبابة أن يتركها محمد وتترك له مقابل ذلك أموالها وما تملك، فرفض. رضخت قريظة لحكمه، واستوعبت أنها لا تقدر على القتال، فاستنزلهم بدار من بنى النجار وهم حلفاء الخزرج،*

---

[97] تاريخ الطبري، ج 3، ص 581.

[98] ص 582.

*لخزرج هم أعداء اليهود يكرهونهم كرها شديدا، فليس اعتباطا إذن اختيار دار بني النجار.

وخندق بها خنادق ثم أنزلهم فيها وهم مكتفين بحبال. وبمكر لا حدود له، التفت محمد لسعد بن عبادة** من الأوس وهو حلفاء بني قريظة واقترح بأن يحكم فيهم،*** فحكم قائلا:

يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء !

حكم طرب له سيد المدينة هاتفا:

لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. ****

بمكره، ألقى مسؤولية قتلهم على أكتاف بن عبادة وإلهه. وفي الخنادق ضربت أعناقهم، وفي مقدمتهم كعب بن أسد وحيي ابن الأخطب، مشهد استبشر به محمد واهتزت انفعالاته وخفق قلبه فرحة، وهو ينظر للخزرج يهوون بسيوفهم على رقابهم، فسيد النضير الذي اشتهر بسيد الحاضر والبادي يراه جاثيا على ركبتيه مكبلا كالخروف، وقد ضربت عنقه ودماءه تسيل أمام رجليه، ثم طمرت أجسادهم في الخنادق، وتبلل السوق بدماء قرابة تسع مائة رجل.* تنتهي المذبحة على وقع مشهد فظيع ومؤلم، فبعد ذبح الرجال جاء دور الذراري، أمر محمد بقتل كل من أنبت منهم.** وتبعا لهذا الحكم الذي حتمته سياسة محمد الموغلة في الصرامة والحدة، التي لم ترضى سوى باستئصال بنى قريظة، هوى السيف المحمدي على من نَبَتَ من قريظة صبية وأطفالا.*** ثم وزعت الأموال والمغانم، فالخمس لله وللرسول والبقية قسم بين أتباعه. وبعدها جاء دور النساء، ومن دونهن فضَّلَ محمد الجميلة الحسناء ريحانة زوجة حيي، عرض عليه الزواج ولكنها تمنعت، وعرضت في المقابل عليه:

**اختاره لأنه كان يعيش أيامه الأخيرة، عانى من نزيف داخلي بسبب سهم أصابه في حادثة الخندق، وليس بالصدفة يختار رجلا يحتضر ليحكم على اليهود، طبيعي أن يحكم عليهم بالقتل.

***ونحن لا ندري لماذا أمره جبريل للذهاب إلى بني قريظة؟ فالأمر هو أمر سعد بن عبادة الذي فوضه للحكم عليهم. القصة غريبة وغير منطقية، وظفت هنا لكي يظهر نفسه بريئا من دمهم. إنه تنصل من المسؤولية، مسؤولية النهاية المؤلمة والفظيعة لبني قريظة. ثم إنه ليس بن عبادة الذي حكم عليهم ولكن الله، إذ قال له بعد الحكم: لقد حكمت عليهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

****كان بالإمكان إجلاءهم، لكنه خشي ذلك، قد يشكلون تحالفا ويحزبون الأحزاب مرة أخرى، بالتالي سعى للقضاء على جذور المشكل.

* كان بالإمكان تصفية الرؤوس القرظية من القادة وحقن دماء الأطفال والنساء، لأنه لا دخل لهم في نقض العهد، عملا بالآية لا تزر وازرة وزر أخرى. تصفية العنصر اليهودي كان ضروريا في نظره لأنهم يشكلون جبهة داخلية قد تؤثر على تماسك الدولة. إذن العداوة بين محمد اليهود بلغت مستوى خطيرا لتتحول إلى قطيعة، فالقبائل اليهودية قبلوا به كملك وقائد عسكري، لا كرسول من عند الله.

** بن عبادة أمر بقتل الرجال وسبي الذراري والنساء. أراد قتلهم لكي يقضي على إمكانية بحثهم عن أخذ الثأر، فأبادهم على بكرة أبيهم.

***لا شك أن المشهد كان صادما. إن هذه الحادثة لوحدها كفيلة بأن تدفع المسلم بالوراثة لمراجعة أفكاره ومعتقداته، إما أن يكفر بإله الإسلام وبقرآنه وان الإله الحقيقي إن وجد فعلا فإنه بريئ من هذه الفضاعات، وبالتالي يستوعب أخيرا أن الأديان هي من صنع الإنسان، أو يقبل الرواية ليتحول إلى انسان متطرف ظلامي وعنيف، يعيش حالة من الفصام في الشخصية، أو يرفض تاريخية هذه الحادثة كما يفعل اغلبهم، ويقول؛ كيف للرسول الذي بعث رحمة للعالمين أن يقدم على هذا الفعل؟ وهنا يدخل في متاهة وأزمة نفسية كبيرة، فيسقط في ترقيع التراث، محاولا أن يطوعه لكي ينسجم مع أخلاق العصر، أو يرفض التراث جملة وتفصيلا ولا يأخذ سوى بالقرآن، فيصبح كما يقال قرآنيا، وكأن الخطاب القرآني منفصل عن سيرة محمد، سبق وقلنا أنه نابع من ضمير ووجدان محمد، وأنقذه من مواقف حرجة في كثير من الأحيان، وذلك هو جوهر الفلسفة والحكم الثيوقراطي.

تتركني في ملكك هو أَخَفُّ عَلَيَّ وعليك.[99] وقد استعصت عن الإسلام وأبت إلا اليهودية.*** وهنا بدأت ظاهرة أملاك اليمين**** تحتاج إلى تشريعات لكي تكون منظمة، فمسلسل الغزوات والقتل وسفك الدماء لن ينتهي حتى بعد وفاة محمد،***** وعليه فإن كل غزوة ستخلف السبايا، كما أن ظاهرة أملاك اليمين أدت إلى تعقيد العلاقات الجنسية لتتحرر أكثر، فالمسلمون أصبح لديهم بعد تصفية بنى قريظة مطلق الحرية في تعاملهم مع النساء، فضلا عن زواج المتعة الذي شرَّع له محمد مبادئه، أما الطلاق؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾

وهناك ظاهرة أخرى عجيبة أخذت تتمظهر، إذ بدأ يتألق نجمه، وصار بحق ملكا، فلا عجب إذن أن المؤمنات بدأن يتهافتن عليه ويهبن أنفسهن له :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴾﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ (الأحزاب51/49)

---

[99] تاريخ الطبري، ج 2، ص 592.

***بالرغم من فضاعة المشهد الذي عاشته، حيث ضرب عنق زوجها وهي تنظر، غير أنها بقيت على دينها ولم تقبل بالإسلام، تمسك اليهود بدينهم وبقوميتهم هو الشئ الذي قظَّ مضجع محمد وأزعجه كثيرا فشعر بالنقص، ما دفعه للإستئصالهم لأنه لا يمكن الوثوق فيهم، تواجد عنصر غير مندمج في الإسلام قد يهدد الدولة من الداخل.

****أذكر حوارا دار بيني وبين صديق سنة 2018 حول مسألة هل أن القرآن صالح لكل زمان ومكان ؟ كان يعتقد أنه كذلك، فقلت له : إذا كان القرآن صالحا لكل زمان ومكان إذن فلنطبق فكرة أملاك اليمين، فلنفتح أسواقا نبتاع فيها النسوة لكي يكونوا جواري لنا. استغرب الصديق مما قلته وظهرت على وجهه علامات الحيرة، فهمت حينها أنه لم يفهم معنى ملك يمين في القرآن، وعندما شرحت له معناها الحقيقي باقيا متشككا مترددا، ربما قرر في تلك اللحظة أن يسأل شخصا آخر حتى يتأكد، وقد سأل شقيقه الذي كان إماما. بعد سنوات التقيت به، ذات يوم ونحن جالسون في المقهى ومعنا شخص ثالث دخل معه في حوار وأنا أستمع، قال له ؛ القرآن صالح لكل زمان ومكان. فرد عليه صديقي بالنفي، لأن فكرة أملاك اليمين لم تعد صالحة لهذا الزمن. استغربت صراحة من رده، فبعد أن رفض ماقلته سنة 2018 تغير فهمه للإسلام والقرآن، وذلك يعتبر ثورة هائلة مر بها صديقي، لأنه اكتشف أخيرا أن النص القرآني بتشريعاته وقوانينه ومبادئه انبثق في بيئة خاصة يستحيل توظيفها في ببيئة مغايرة تفصل بينهما مئات السنين. هناك صديق آخر أذكر أننى تحاورت معه حول مسألة أملاك اليمين سنة 2022، عندما قلت له معنى المصطلح أصيب بصدمة كبيرة وقال لي ؛ لا هذا مستحيل لا بد أن يكون للكلمة معنى آخر غير الذي قلته. ذلك حال معظم المسلمين الشباب اليوم، يعتقدون أنهم يعرفون تاريخ دينهم ونبيهم حق المعرفة، لكن هيهات ! لو عرفوا تاريخ دينهم حق المعرفة لبكوا كثيرا ولضحكوا قليلا.

*****شهد التاريخ الإسلامي محطات كثيرة من القتل والتعذيب وسفك للدماء، مثله مثل التاريخ المسيحي واليهودي.

ولهذا الكلم الذي نطق به قصة، فريحانة بحسنها وجمالها افْتَتَنَتْ من كان معه أثناء المذبحة، وأصحابه هوت قلوبهم ورغبوا فيها، فقطع عليهم الطريق بآيات من القرآن، لأنه يريدها خالصة له من دون المؤمنين، فهو لم يختر من نساء بني قريظة سوى ريحانة،* والأخريات من نساء القبيلة وزعوا بين المسلمين وأخريات بعث بهن إلى نجد فَبَاعُهُنَّ إماء وابتاع بِثَمَنِهِنَّ خيلا وسلاحا. ظهرت الحاجة أيضا بعد قريظة لحماية أزواجه ووضعهم في مرتبة عالية، فهم ليسوا كبقية النساء، ليهب لهم حصانة ربانية؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب52)

وعن لباس النساء والبنات؛

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(الأحزاب59)

لا شك أن عنصر النساء قد فاض بعد مذبحة قريظة كما فاض معها عنصر السلاح، والأمر أصبح يستلزم تشريعات عائلية رادعة. هكذا مَكَّنَ حدث الخندق وتحزيب الأحزاب، السلطان المحمدي من التخلص النهائي وإلى الأبد من العنصر اليهودي في دولته، لتصبح خالصة له، وليغدو سيفه مسلطا على كل من تسول له نفسه نقده أو تحديه ليسترسل لسانه؛

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا ﴾﴿ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضًا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب27/26)

كلا ! إن محمد لم يكسر شوكة اليهود نهائيا، فلا بد من عمل إرهابي خاطف موجه ضد خيبر، القبيلة اليهودية التي ساهمت في تحزيب الأحزاب، ليرسل عبد الله ابن رواحة لإغتيال سيدهم أسير بن رزام، ونجح في المهمة. خطة سياسية محكمة، ولئن كانت غير أخلاقية، فإنها زلزلت الأرض من تحت أقدام العربان، وفورا أرسل سرية عبيدة ابن الجراح للضرب على بني ثعلبة، وتمكن من سلب مغانمها. لقد تعاظمت بعد قريظة شهية محمد للغزو والسبي، فلا يمر يوم إلا ويرسل سرية، فالسرايا أصبحت لا

*صدقت عائشة عندما قالت لمحمد: لا أرى ربك إلا يسارع في هواك.

تهدأ ولا تكل، فأرسل علي بني حارثة لينزل على بنى سليم، ثم يردفها بسرية العيص، لتعترض قافلة قرشية قادمة من الشام بها فضة عظيمة، ثم يتبعها بسرية ثالثة إلى بنى ثعلبة، ثم يخرجها بسرية رابعة من وراء وادي القرى انتقاما من بنى جذام الذين قطعوا الطريق على صديق محمد دحية الكلبي، فذبح زيد زعيمهم الهنيد وولده ويأخذ نعمهم وماشيتهم ونساءهم، ما يربو على خمسة آلاف شاة، وألف بعير، غير مائة من السبايا وعدد عظيم من الغلمان.[100] ثم يخرج زيد بسرية خامسة تجاه الشمال ليرسل برسالة إلى قيصر الروم لتأكيد قوة الدولة الصاعدة، تليها سرية سادسة بقيادة عبد الرحمان بن عوف إلى دومة الجندل، وللسريتين دلالة واضحة ألا وهي كنوز كسرى وقيصر كما وعد محمد من قبل. [101]الآن أصبح بوضوح أن سياسة الإيغار والسبي والسلب والقتل متحررة أكثر فأكثر، فالأموال والمغانم والنساء فاضت، إلى درجة أن المسلمين أصبحوا يبحثون عن المزيد، وتلك غريزة في الإنسان، فعندما يربح قسطا من المال سيسعى للمزيد وهكذا، وما غنمه محمد من قريظة، وفر له السلاح الكافي ليصبح الإنتصار سهلا وسريعا، ليسجل التاريخ غزوة المصطلق.

ومن دون أي استفزاز، نزل عليهم برجاله مناديا : يا منصور أمت. انقضَّ عليهم فجأة، وهوى سيفه على رجالها سابيا نساءها وأبناءها ناهبا أموالها وماشيتها. ثم جمعت السبايا وأوقفن بين يديه، وبينهم جميعا، كانت جويرية بنت الحارث زوجة مسافع بن صفوان المصطلقي هي من وقعت في قلبه، ولجمالها وحسنها خفق قلب عائشة بالغيرة والكراهية، وهو ما أوضحته في قولها: كانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه. قرر محمد على الفور أن يتزوجها، فأعلن الخبر أن السيد المُطْلَقْ سيتزوج ابنة سيد المصطلق.[102] أثناء التحضير للعرس، وقع نزاع بين الأمصار المهاجرين قرب ماء المريسيع وشهر كلاهما السلاح في وجه الآخر بسبب اقتسام المغانم والنساء وكانوا قد أفرطوا حينها في شرب الخمر. غضب عبد ابن سلول الذي كاد أن يكون ملكا على الأوس والخزوج لولا مجيئ محمد إلى المدينة مشيرا: لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأولون سَمِّنْ كلبك يأكلك ! والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيَخْرُجَنَّ الأعَزَّ منها الأَذَّلْ. وصل الخبر إلى مسامع محمد وعَكَّرَ صفو عرسه. حادثة خطيرة كادت أن تؤدي بانفصام عرى وحدة المسلمين، فاضطر لتحريم الخمر :

---

[100]ابن سعد، الطبقات ج1 ، ص 61-62.
[101]نفسه.
[102]الدين في شبه الجزيرة، ص، 256.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(المائدة90/91)

ثم هو من الفجر الأول من المقام بالمدينة، من المسلمين من كان يقضي ليله في احتساء الخمر حتى إذا ذهب إلى الجامع صبحا ذهب نشوانا وقال في صلاته ما لم يعلم؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ وفي النساء ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء43)

وعن ابن سلول الذي هجا المسلمين، سمع محمد بالخبر واقترح عليه عمر ضرب عنقه، فقال له: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمدا يقتل أصحابه؟ والتفت إلى عبد الله بن سلول الإبن الذي طلب منه السماح بأن يأتيه برأس أبيه قائلا : لا ! بل نترفق به ونحسن صحبته مابقي معنا.[103]

في طريق العودة إلى المدينة، افتقد الركب عائشة وصفوان ابن المعطل الذي كان شابا وسيما في العشرينات من العمر، وعندما عاد، قال إنه تأخر عن الركب لأنه راح يساعد عائشة لجمع حبات عقد منفرط. غضب محمد غضبا ممزوجا بالغيرة، ليرتفع أصوات المنافقين في المدينة: صفوان زنى بعائشة. حادثة كانت بإمكانها أن تؤدي إلى بلبلة كبيرة، قد تنتهي بتصدع الدولة من الداخل، مما سيحدث تفرقة بينه وبين أبي بكر، وستتعرض الدعوة إلى خطر حرب أهلية، فما كان له من بد إلا ليحسم الأمر ويلجم الأفواه، فالله من فوق سبع سماوات تدخل ليبرئ عائشة؛

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ

[103]ابن هشام، السيرة ج 3، ص 238. لم يأمر محمد بقتله في تلك اللحظة لأن ابن سلول كان ذو حظ عظيم لدى الأوس والخزرج، فلو أذن بقتله ستهتز حتما مكانته في نظر الأنصار، الإعتراض على قتله في تلك اللحظة كان بهدف اظهار نفسه وكأنه رجلا نزيها متسامحا، يتجاوز عن أصحابه حتى ولو قالوا فيه السوء، فالرجلان كانا لا يحتملان بعضهما البعض، فالأنصار كانت ستنصب ابن سلول ملك عليهم لولا مجيئي محمد. وما فكر فيه بدهاء حدث، فقد ظهر ابن سلول مهانا وخجولا داخل قومه، عاتبوه وعنفوه، فقال محمد لعمر : كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، فأجابه عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

عَظِيمٌ﴾﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور17/11)

لقد تأخر الوحي شهرا قبل أن تُبَرَّأَ عائشة، وهنا يثور سؤال : إذا كان الله علام الغيوب لماذا انتظر شهرا حتى يحسم القضية ؟*لا شك أن محمد شك في زوجته،** لربما ارتكبت فعلا مشينا مع صفوان، ناهيك أن حسان بن ثابت وعلي ابن أبي طاب نصحاه بطلاقها، ولكن محمد لم يكن متهورا، بل رصينا كفاية وذكيا، فلو طلقها ستثبت التهمة عليها وستصبح سيرته وسيرتها على كل لسان، فاتخذ قراره بروية وقرر تبرئتها من التهمة عن طريق القرآن. حدث كدَّره أيّما تكدير فانفرجت شفتيه بأحكام عائلية جديدة كان سببا لتقليد في الإسلام، وهو ضرب الحجاب ؛

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (النور31/30)

كما أفرزت هذه الحادثة، حادثة الإفك، مؤثرات دفعت محمد لتشريع أحكام ردعية ضد الزنا :

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ

*لقد ساور الشك بعض الناس حول نبوة محمد، بسبب تأخر الوحي. فَقَدَ يوما راحلته، فراح أصحابه يبحثون عنها، فقال له رجل : ألا يخبره الله بمكان راحلته ؟ الحقيقة هي أن كثيرون بدأوا يشككون في نبوته، وأنه يتخذ الكلم القرآني كمطية لتحقيق مشروعه السياسي، وأنا على يقين أن الصحابة كأبو بكر وعمر وعثمان، أدركوا هم أيضا أنه لا وجود لوحي إلهي، بل هو وحي ضمير ووجدان محمد، ولكن آمنوا بنبوته لأن الإسلام أغدق عليهم خيرات كثيرة، أموال، نساء، مغانم وهلم جرا، فالإسلام برمته تتأسس على المصالح المادية الأرضية، حيث سبق وقلنا أن الإسلام دين وضعي، بل الديانات برمتها وضعية، أنشأها الإنسان لقضاء حاجة نفسية، اجتماعية، اقتصادية إلخ.

**هنا نتساءل أين المدعو الملاك جبرائيل ؟ لماذا لم يأتيه بالخبر اليقين من عند الله ؟ أم أنه في أخذ أجازة ؟ أم أنه لا ياتى إلى محمد إلا إذا تعلق الامر باليهود ؟ يبدو أن محمد انتظر حدوث العادة الشهرية لزوجته، لو جاءتها فإنها بريئة.

فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿﴾وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

(النور10/2)

إن سور الجيل الرابع صورت ملحمة تطورية للإسلام وللشخصية المحمدية، نلاحظ أن قراءة السور حسب تسلسلها الزمني يرفع الغموض عن النص أولا، ويرفع التناقض بين آياته ثانيا. رأينا كيف تحررت سور الجيل الرابع من الطابع السجعي، ليستكمل مع سور الجيل الخامس ولتبلغ الملحة التطورية لكل من الإسلام ومحمد ذروتها. انتجت خلال هذه الفترة **سور الفتح، التحريم، الممتحنة، الحجرات، النصر، فالتوبة**. أصبحت النبرة حادة وصارمة، بعيدة عن المساومات والتكلف، تنبئ أن شخصية محمد أصبحت واثقة تماما من نجاح الدعوة ومن اخضاع جل القبائل العربية تحت راية الإسلام.

ما من شك أن محمد باستئصاله لشأفة اليهود وضربه بيد من حديد على أيدي المنافقين علاوة على ترهيبه للقبائل المجاورة التي أسلمت بحَدِّ السيف، لاح بريقه في الأفق ووصل خبره إلى كسرى وقيصر، ولكن سلطانه سيكون بلا قيمة إذا لم يسيطر على مكة، فمنذ بداية دعوته كانت مكة شغله الشاغل، فهي بلده وموطنه، يريدها أن تكون عاصمة دولته المستقبلية. أما كيف سيفعل ذلك؟ فإنه جعل من الكعبة مقام النبي إبراهيم الأول، وأنها في الحقيقة مركز توحيدي ولكنها دنست بالشعائر والطقوس الوثنية وذلك وأفصحت عنه شفتيه في سور الحج، بعض آياتها انتج في المدينة، كشفت أن الكعبة مصلى النبي إبراهيم كان يحج إليها ؛

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ (الحج34/26)

كان بإمكان محمد دخول مكة عنوة، فقريش لم يكن بمقدورها الصمود أمام جيشه بعد ما غنمه من قريظة والمصطلق، غير أنه لم يرغب في ذلك، فمكة مدينة مقدسة حريص عليها، يجب أن

تتم السيطرة عليها بطريقة ديبلوماسية لا عسكرية، ثم ماذا سيقول اليهود؟ محمد دنَّسَ مكة والكعبة ويدعي أنها أكثر قداسة من بيت المقدس في فلسطين.

بمجيئ شهر ذي القعدة أمر بالتجهز للحج،* باعثا برسالة طمأنة لقريش، أنه يريد الدخول إلى مكة حاجا لا غازيا، أراد من خلالها أن تعلم أن إلهه وإلههم واحد، وأن الأشهر التي تعتبرها حراما هي أيضا كانت لديه محرمة. رسالة وضعت الرؤوس القرشية أمام مأزق حقيقي وذلك لسببين، الأول خوفها من أن تكون مكيدة دبرها محمد وأصحابه، التضرع بالحج والعمرة لتعمل السيوف داخل بطن الكعبة. ثانيا إذا امتنعت عن زيارته لبيت الله الحرام فإنها ستظهر وكأنها صدته عن آداء مناسك الحج، وكيف تمنع قريش رجالا جاءوا معتمرين بغرض الطواف وأداء فريضة تؤديها العرب كافة ؟ [1]

بلغ قريش خبر مسير محمد وأصحابه إلى مكة، ولكنها تجهزت بالدروع والسيوف ولم تقتنع بأنه جاء ساعيا معتمرا لا يريد حربا زائرا للبيت الحرام معظما له، فحشدت استعدادا لمقابلته. كلا ! فإن قريش لا تستطيع أن تنسى الأيام الخوالي، تحوله عن بيت إلهها البيت الحرام، وإن عاد، فإن تحويل القبلة بقي راسخا في ذهنها، كما لم تنسى أبدا الحصار الإقتصادي الذي فرض عليها طيلة سنوات، ثم يزعم الآن أنه يريد الصلح معها.

سلك الطريق صوب مكة، وعندما وصل إلى الحديبية، مكان يبعد عنها قرابة ستة أميال، أناخ راحلته وهو يتدبر في الأمر. حينها، وصله خبر استعداد قريش للحرب عندما سمعت بمسيره، وقد جاءه الخبر على لسان بشر بن سفيان الكعبي قائلا: يارسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم. فقال: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب. **أرسلت قريش إلى محمد رسولا وهو بديل بن ورقة الخزاعي، ليرده إليهم أنه جاء معظما لحرمة بيتهم، رمز تجارتهم وسطوتهم وسلطانهم، لكن قريش تعلم أن هوى خزاعة مع محمد، لتجيب على بديل: وإن كان جاء لا يردي قتالا، فالولله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدث العرب بذلك عنا.[2] إن مذبحة قريظة لا تزال حديثة العهد، فماذا لو دخل عليهم محمد فيكون مصيرها كمصير قريظة؟ فقامت تدفع برسلها إليه رسولا عقب رسول، إلا أنها اتهمتهم جميعهم بالمحاباة، فقررت ارسال رسول

---

*تفكيره في آداء مناسك الحج هو ضرب من التكتيك السياسي، وكأنه يبعث بإشارات إيجابية لقريش كون الإسلام سوف يحافظ على مكانة مكة كبقعة مقدسة لدى الأعراب، وأن المسلمين يعظمون البيت الحرام التي هي فريضة عند العرب.

[1]الدين في شبه الجزيرة، ص 262.

**ابتعدت قريش عن سياسة السلم تحت وطأة التضييق التي مارسها المسلمون، فقريش كما أوضحنا سابقا تعتمد على التجارة ولا ترغب في الحرب وتميل دائما للسلم، لكن محمد قلب هذه القاعدة.

[2]ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ج 4 ، ص 26.

من سادة ثقيف، عروة بن مسعود الثقفي، وإلى محمد سار وهنا تسترسل كتب السيرة في سرد مجريات تلك المقابلة التاريخية التي بحق أصيب أثناءها عروة بالدهشة، فمحمد لا يبصق بصاقا إلا ابتدره أصحابه، ولا يتنخم نخامة إلا تسابقوا عليها يتلقونها بأكفهم يدلكون بها وجوههم، ولا يسقط من شعره إلا أخذوه، وإذا يتوضأ كادوا يقتتلون على وضوءه، ولا يحدون النظر إليه تعظيما وإجلالا، فينهض عروة مبهوتا ويعود إلى قريش يقول : **يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا قط في قومه مثل محمد وأصحابه.**[3] بقيت قريش غير مطمئنة، فما هي سوى مكيدة مغلفة بستار الحج والعمرة لمن أجل الإنقضاض على مكة وتصفية الرؤوس القرشية مثل القبائل اليهودية. فكر محمد في عمر ابن الخطاب كرسول، لكنه رفض ذلك خوفا على حياته، ليفكر أخرى، إنما قريش وأشرافها من فرع بنى أمية، وعثمان ينتمي لهذا الفرع، فيتنهي بإرساله، لقد طال بقاءه في مكة ووصلت لمحمد إشاعة مفادها أن عثمان قتل على أيدي قريش.

بسرعة ومن دون أي مقدمات، دعا محمد أصحابه إلى مبايعته تحت الشجرة، مبايعة عرفت ببيعة الرضوان في التاريخ الإسلامي، بثت فيهم الإيمان ودعمت بينهم أواصر العصبية من أجل الإنتقام لمقتل عثمان،* كانت البيعة تسليما له لما سيحدث لاحقا، ولكي يلهب حماستهم فإنهم لا يبايعون محمد ولكن الله؛

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (الفتح10)

والذين سلموا له أمرهم وبايعوه فلن يدخلوا النار أبدا؛

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾(الفتح18/21)

[3] نفسه.

*حينما استجاب العربان واليهود الذين اغتيل أشرافهم ورملت نساءهم وطردوا من ديارهم لنداء العصبية القبلية والأخذ بالثأر، يتحولون بسرعة إلى أعداء للإسلام ولمحمد، يجهلون أن البئية الاجتماعية والنفسية في شبه الجزيرة العربية خلال القرنين السادس والسابع الميلادي، تسير ضمن نواميس العصبية، عندما يفكر المسلمون ومحمد للإنتقام لذويهم فذلك أمر مقبول وطبيعي، وهو ما أكدته في الفصل السابق، منطق حلال علينا حرام عليكم. عقل المسلم غير قادر على النقد فقط يبرر، ومرعوب من فكرة أن تراثه وتاريخه ودينه صالح لذلك الزمان وليس لزماننا، وبالتالي غير مقدس.

بهذا الكلم أماط محمد اللثام للمسلمين عن خطته المستقبلية المتمثلة في غزو قبيلة خيبر اليهودية، فكان ذلك الإعلان بمثابة رفع كبير للمعنويات، ولقد أثبتت هذه البيعة اخلاص المسلمين لمحمد واستعدادهم لخوض غمار الموت من أجله.

عاد عثمان فانشرح محمد برؤيته،* ليخبره أنه نجح أخيرا في اقناع قريش بالصلح وسماحهم بالحج. أرسلت قريش سهيل بن عمرو رجلا مفاوضات محنك، ما إن رآه التفت إلى رجاله قائلا : لقد سهل الله لكم أمركم. [4]جرت المفاوضات بين محمد وسهيل، نوقشت خلالها شروط حج المسلمين ودخولهم مكة، كانت بنود**سهيل مجحفة بعض الشئ، ولم يعترض محمد عن أي بند من بنود المعاهدة. اغتاظ المسلمون لما رأوا سيد يثرب لم يبدي رفضا أو تعنتا ووافق عليها بكل مرونة، إذ لم يستوعبوا ماكان يدور في خلده، فلولا بيعة الرضوان لما قبلوا بالمعاهدة أصلا، لقد أصيبوا بخيبة أمل وهم الذين حسبوا أنهم سيعتمرون ويحجون البيت هذه السنة، ويطفئون أخيرا نار شوقهم لديارهم وعشيرتهم. هاجت النفوس وماجت الرؤوس، والتفت عمر لمحمد ثائرا: ألم تعدنا لنأتي البيت لنطوف به؟ قال : بلى. ازداد توتره والتفت لأبي بكر قائلا: يا أبا بكر، أليس برسول الله ؟ قال : بلى. قال عمر : أولسنا بمسلمين. قال أبو بكر : بلى. قال عمر : أليسوا بمشركين. قال أبا بكر : بلى. عمر: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟

لقد كان عمر في تلك اللحظة التاريخية رجلا قصير النظر مقارنة بمحمد، فصلح (معاهدة) الحديبية ولئن كان غير متوازنا، يعطي مزايا لقريش أكثر مما يعطيه للمسلمين، غير أنه كان فعلا حصيفا من أفعال فن الحكم وإدارة شؤون الدولة. قَبِلَ محمد ببنود المعاهدة لأنه قرر سلفا الإيغار على خيبر، وكان واثقا من نجاحه، نجاحا سيضاعف حتما من هيبته وسلطته، حتى يضمن في العام القادم الإعتمار والحج دون مخاطرة وعناء. ومن ثم، فإن محاربة قريش داخل مكة الآن، قد تنجر عنه مخاطر، لأن كثير من المهاجرين ممن لهم أقرباء في مكة أو ممن هم عرضة لتأثير قريش

*وهنا نتساءل لماذا لم يخبره جبريل أن عثمان لم يقتل؟ جاءه عندما أراد طرد النضير وإبادة قريظة، يبدو أن هذا الملاك لديه حساسية مفرطة ضد اليهود.

[4]البيهقي، دلائل النبوة، ج 4، ص 105.

**أولا: وضع الحرب عن الناس ويكف بعضهم بعضا لمدة عشر سنين. ثانيا: من أتى محمد عن قريش بغير إذن ردَّهُ عليهم. ثالثا: من جاء قريش ممن مع محمد لم يردُّه عليه. رابعا: من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم أدخل فيه. خامسا: أن يرجع محمد هذا العام من غير عمرة على أن يأتي في العام التالي فيدخل مع أصحابه مكة بعد أن تخرج منها قريش ويقيم فيها ثلاثة أيام، وليس معهم من السلاح إلا السيوف بالقرب.

ونفوذها، قد لا يقاتلون بكل جوارحهم،[5] وذلك بخلاف حالهم في الهجوم على قريظة، وبالتالي توجد احتمالية كبيرة للفشل.

إذا درسنا دوافع محمد لإبرام هذا الصلح مع قريش، سنكتشف أنه بحق داهية زمانه وسياسي بعيد النظر، فيثرب تقع في مكان جغرافي منكشف على اتجاهين، على الشمال أين توجد خيبر، وعلى الجنوب أين توجد مكة، فماذا لو أبرمت قريش تحالفا مع خيبر التي تحولت بعد تصفية القبائل اليهودية الثلاث مركزا اقتصاديا وعسكريا لا يستهان به وقوة صاعدة، خاصة بعد دخولها في تحالفات مع بعض القبائل العربية المتاخمة لها، ستصبح يثرب إذن داخل هذه المعادلة لقمة سائغة، وصلح الحديبية هدفه تحييد مكة وقريش.* نجح محمد في ذلك، وبهذا الصلح أصبح بإمكان المسلمين الحج والعمرة والمكوث في مكة ثلاثة أيام في أمن وسلام. أما أهم هدف، فهو إعتراف قريش الضمني بمحمد كسيد وملك يثرب،** اعتراف بولادة دولة جديدة ذات سيادة، في طريقها إلى مقارعة أعتى الأمم والجيوش، وهي قاب قوسين أو أدني من توحيد الأعراب تحت راية واحدة ودين واحد. أمام تلك النفوس الثائرة التي لم تستوعب بنود الصلح، إلى حد أنهم شككوا في نبوة محمد، تسترسل شفتيه مؤكدة لهم أنه ما حدث هو فتح من عند الله؛

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ (الحشر1/3)

ولكي يطمئنهم وينزع النزغ من نفوسهم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ (الفتح1/6)

---

[5] ثلاثة وعشرون عاما دراسة في السيرة النبوية المحمدية، سبق ذكره، ص 144.

*كان بإمكان محمد دخول مكة عنوة، فقريش لم تكن قوية بما يكفي للصمود، إلا أنه فضل الطريقة السلمية والديبلوماسية لأنه كما وضحنا سابقا، حبه الصادق لمكة ولقبيلة قريش، فهي بلده ومسقط رأسه، فضلا على أنها مكان مقدس، أكثر قداسة من بيت المقدس لدى اليهود، فالكعبة في نظره لم يضع أسسها العرب بل النبي إبراهيم وابنه إسماعيل، وبينه وبين قريش لحمة الدم والقرابة.

**صلح الحديبية كان بمثابة هزيمة دبلوماسية لقريش، كان ما يشبه الإستسلام قبل الإنقضاض النهائي عليها وعلى مكة، على إثره، أسلمت العديد من الرؤوس القرشية مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص عثمان بن طلحة، إذ أيقنوا أن الدين الجديد هو تيار جارف سيأتي على الأخضر واليابس ويستحيل مقاومته، لذلك اعتبر محمد صلح الحديبية فتحا.

أما الأعراب الذين ظنوا أن مسير محمد وأصحابه لزيارة مكة مغامرة غير محسوبة العواقب، وأن قريش ستنتهز الفرصة للقضاء عليهم؛

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾﴿ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴾﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(الفتح15/10)

والذين ظنوا ظن السوء من هذا الصلح ومن رسولهم فالرؤوس القرشية؛

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ (الحشر26/24)

ولكي يقطع شكهم باليقين وصف صلح الحديبية وما انجر عنه من تبعات على أنه رؤيا رآها في منامه:

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ (الفتح27)

نتساءل انطلاقا من هذه الآية كيف الله يقول عن نفسه انشاء الله لو سلمنا أن القرآن كلامه؟ أليس الإله قادر على كل شيء ويعلم غيب السماوات الأرض وما تؤمن نفس أو تكفر إلا بإذنه؟ ومع ذلك يقول انشاء الله، وإذا كانت رؤيا من عند الله كيف يقول انشاء الله؟ هل الإله غير واثق أم محمد؟ **محال أن يكون الله غير واثق، إذن فهو محمد، لأن القرآن هو وحي وجدانه وضميره عن الله، وليس وحي الله عن الإنسان.** أما كلام محمد عن الله فكان؛

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ (الحشر27)

يقينا ! فإن اعتراف قريش بدولته فتح له الطريق نحو الشمال، شمال الجزيرة العربية، أين تقبع قبيلة خيبر آخر معاقل اليهود، وكنوز كسرى وقيصر، لتظهر الحاجة مباشرة بعد هذا الصلح لصنع خاتم الدولة الجديدة يحمل اسم سيدها محمد بن عبد الله، وبدأ بإرسال رسائل إلى ملوك الروم والفرس يعلمهم بقيام دولة دينية (ثيوقراطية) وبأنه رسول الله الذي أصبح ملك الحجاز، وأنهم يجب أن يأتوه مسلمين. إلى ملوك العجم. إذن، بدأ يبعث الرسل ليعلمهم بقيام الدولة الإسلامية ويدعوهم إلى طاعته برسائل تحمل خاتم النبوة. أبدى المقوقس الإهتمام بما يدور داخل شبه الجزيرة فبعث بالهدايا وعلى رأسها جاريتين، فاحتفظ محمد بجارية تدعى ماريا، وكانت شابة مصرية سمراء حلوة جذابة، جمالها ليس كمثل جمال نساء العرب.[6] قضى محمد عامة ليله ونهاره معها في بيت بعيد عن دائرة حريمه، ليهمل نساءه الأخريات لبرهة من الزمن. لكن تفطنت زوجته حفصة بالأمر وطار الخبر إلى جميع حريمه، فحرضت عائشة كل نسائه عليه، حادثة أدت إلى انتاج آيات سورة التحريم. نظرا لحساسية الموقف، تدخل الإله في الحياة الزوجية المحمدية ليحسم خلافا كاد أن تحدث اضطرابا شديدا بسبب غلطة قائدهم :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾﴿ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ (التحريم5/1)

ولكي يؤدب نساءه، ضرب لهم مثل المرأة الصالحة والمرأة الطالحة؛

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ (التحريم12/9)

[6] الدين في شبه الجزيرة، ص 273

حادثة عكرت مزاجه لبضع أيام لأنه بعد أسبوعين أو أكثر بقليل من إنتصار الحديبية الدبلوماسي، هَمَّ بالقضاء على خيبر، التي تعتبر آخر معاقل اليهود. لقد كانت خيبر بلدة يهودية تقع في اقصى الشمال من شبه الجزيرة، وكانت أغنى قرى الحجاز، تحتوي على واحات عرفت بالنماء والخصب، واشتهرت بزراعتها المترامية الأطراف وبوفرة حصونها وأموالها. خرج محمد بجيشه لتحقيق ذلك الوعد الإلهي.* وعليه، نفهم لماذا اعتبر محمد أن صلح الحديبية هو بمثابة الفتح الذي سيمهد لفتح أعظم، ألا وهو كنوز كسرى وقيصر. أما الدواعي الحقيقية للقضاء على خيبر فهو المال، فالخيابرة كانوا أغنى الطوائف اليهودية وأكثرهم سلاحا، ومحمد نظرته بعيدة إلى ماوراء حدود الحجاز، الخروج إلى الدنيا الرحبة، ولن يتحقق ذلك إلا بجيش عرمرم يحتاج إلى تمويل دائم، هذا التمويل ستتكفل به خيبر بعد استسلامها للسيف المحمدي، حاصرها ودك حصونها وقطع عنها الماء، فطلبوا منه حقن دمائهم مقابل أموالهم وديارهم. لم يعترض على ابقاءهم مقابل أن يعطوه نصف مرابيح ما يزرعونه. نتساءل لماذا لم يكن مصير خيبر الإبادة والتهجير مثل قينقاع والنضير وقريظة ؟ إن أرض خيبر كانت أرضا زراعية شاسعة ويستحيل على المسلمين أن يتعهدوا بها، فهم لا يحذقون خلال هذه الفترة سوى النهب والسلب وقطع الرؤوس والسبي، قرر إذن تركهم لأنهم أدرى بأرضهم، ومثلما يقال أهل مكة أدرى بشعابها.* **أضف إلى ذلك، فإن خيبر تعتبر بعيدة جغرافيا عن المدينة ولم تشكل تهديدا مباشراضد يثرب. تبرير المسلمين لغزو خيبر على أنها حزبت الأحزاب، وعملت على محاربة محمد قصير نظر، لأن الخيابرة لم يستفزوه أبدا، فالأسباب هي سياسية اقتصادية ولا صلة لها بالدين والإيمان، ناهيك أنهم عندما طلبوا منه أن يبقوا على دينهم تركهم ولم يجبرهم على الإسلام بالقوة كما فعل مع القبائل العربية، أما البقية فسيغريهم بالمال كما فعل مع قريش.**

بالرغم من بقاءهم فإن كبار القادة كنانة ابن أبي الحقيق وأخيه الربيع تم قتلهم بطريقة شنيعة، لأن محمد كان يعلم بأمر كنز، أواني ذهبية وأموال، أخفاه كنانة، فأمر الزبير ابن العوام بتعذيب كنانة حتى يستأصل ما عنده، ثم دفع محمد بن مسلمة فضرب عنق أخيه الربيع. والسؤال: لماذا لم يخبره جبريل بمكان الكنز؟ شعر ابن سعد بالإحراج وزعم أن الله أخبره بمكانه، ولكن في السياق نفسه يقول إن يهوديا باع قومه هو من أخبره بتواجده، فأراد أن يظهر ذلك الخبر على أنه إلهي.[7] ومع أن القبيلة استسلمت لمحمد فإن ذلك لم يمنعه كما نقل ابن الكثير من قتل ثلاثة وتسعين منهم، وهي مقتلة غير

---

*﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾ ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾.

*بقاءهم في ديارهم كان مشروطا بإرادة محمد لأنه قال لهم: على إذا شئنا نخرجكم منها. أي أنهم أصبحوا أشبه بالعبيد والخدم.

[7]ابن سعد الطبقات، ج 1 ، ص 81.

مبررة لكنه قام بترقيعها بالقول: ولهذا، قلت، لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذي كان فيه أموال جزيلة، تبين أنهم لا عهد لهم. فقتل أبي الحقيق بسبب نقض العهود والمواثيق فقتل رسول الله ابن أبي الحقيق وأحدهما زوج صفية بنت حيي ابن الأخطب. وسبى الرسول الله نساءهم وذراريهم وأموالهم بالنكث الذي نكثوه.[8] **بترقيعه هذا المستفز للعقل، كرامة وأخلاق الإنسان، وكأنه يريد أن يقول لنا عندما تقرأ سيرة محمد وتاريخ الإسلام، عليكم أن تلغوا عقولكم وتستبدلوها بأحجار. لا أشك أن ابن الكثير صدم من فضاعة الأمر وعاش أزمة نفسية حادة وأصابه الإكتئاب إلى حد الإنهيار، وذلك مآل كل مسلم يقرأ تراثه، ولكنه ماذا عساه أن يصنع سوى التبرير والترقيع، الإستخفاف بالمنطق والعقل أرحم مليون مرة بالنسبة للمسلمين من قبول فكرة أن الإسلام بقرآنه وتاريخه وتراثه غير مقدس، هو نتاج بشري وكل ماهو بشري ناقص.** *

وعن صفية التي اصطفاها لنفسه بعد أن دغدغت مشاعره، اقترح عليها الزواج وقد قتل أباها وأخاها وزوجها، ولا يمكنها الرفض، فمحمد في نظرها ملك وليس نبيا، وتلك رؤيا رأتها كما نقل البيهقي :

أقام رسول الله ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليالي يبني بصفية، ورأى بعين صفية خضرة، فقال ياصفية ما هذه الخضرة ؟ كان رأسي في حجر بن أبي الحقيق وأنا نائمة، فرأيت القمر زال من مكانه فوقع في حجري، فأخبرته بذلك، فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب !؟ فأعجب رسول الله ﷺ برؤياها. [9]

ذلك ما يفسر عدم قبول قريش واليهود لمحمد، فالنبي الحقيقي لا يسعى إلى تأسيس دولة، عكس الملك، وعرفته صفية من خلال تراثها ومأثورها التوراتي، الملك داوود وسليمان وغيرهما، فهؤلاء ملوك مارسوا المكر والمكيدة والدسيسة والإغتيال وكانت لهم أملاك يمين، وما يفعله محمد هو مطابق لما فعله داوود وسليمان، سليمان وحد قبائل البدو في دولة تأسيسية في أرض كنعان، أما الأنبياء فكانوا دراويش،[10] لا يبحثون عن جاه أو سلطة أو مال، وهو ما ولد داخلها مشاعر الضغينة تجاهه، ولا شك أن اسلامها كان شكليا، وقد نبهه شخص يدعى أبو أيوب ليلة دخل بها قائلا : لما دخلت هذه المرأة، وذكرت أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها وعامة عشيرتها، فخفت لعمر

---

[8]البداية والنهاية، ج 4 ، ص 200

*موقف ذكرني بما قاله الداعية الفلسطيني عدنان إبراهيم، عندما سئل عن غزوات وحملات محمد ضد القبائل فبرر ذلك ورقع بالقول: إن القانون الذي كان ساريا خلال القرن السابع للميلاد هو" **أتغذى بك قبل أن تتعشى بي** " أي أنه يقوم على الحرب الإستباقية، مهاجمة العدو قبل أن يفكر في مهاجمتي، وكأنه يقول اقتل المجرم قبل أن يقوم بالجريمة. منطق ركيك يقوم على مغالطة كبيرة وإستخفاف بالعقول.

[9]دلائل النبوة، ج 4 ، ص 230.

[10]حروب دولة الرسول، ج 2 ، 310.

الله أن تغتالك.[11] ومن نتائج انتصار خيبر تفشي السبي تفشيا مفزعا، فلم يتوانى المسلمون من إيتان الحبالى من نساء اليهود، أمر كرهه محمد ليهتف فيهم: **لا يحل لإمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع أخيه.**[12] وفي رواية أخرى عن سعيد ابن المسيب قال: لما نزل رسول اللهﷺ المعرس، أمر مناديه فنادى : **لا تطرقوا النساء، فتعجل رجلان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلا.**[13] **هكذا أمسى محمد بعد خيبر ثريا ثراء عجيبا، واكتسبت دولته منعة وقوة، طبيعي أن يكثر السبي وظاهرة استعباد النساء.***

يقينا ! فإن ترنح خيبر أفزع قريش وجميع القبائل العربية، فهي ستوفر للدولة الإسلامية تمويلا لن ينضب، ويقينا !فإن الخضوع الكامل لشبه الجزيرة العربية تحت رايته أصبح شبه مؤكد. وما ضاعف فزعها هو تهاوي القرى اليهودية الواحدة تلو الأخرى، لتستسلم كل من فدك وتيماء ووادي القرى، فنزعت ملكية أراضيهم وأصبحت خالصة لمحمد. هذه القرى لم تفكر أبدا في التحرش به أو مهاجمته، هنا تلج الدعوة مرحلة حاسمة عنوانها "أَسْلِمْ تَسْلَمْ"، أي يكفي أن تعلن لا إله إلا الله محمد رسول الله فتسلم من السيف المحمدي، فالشهادة هي اعتراف بميثاق الدولة، وبموجبها يصبح مواطنا يستحق رعاية الدولة وحمايتها، أما الجماعات الغير إسلامية فلا تستحق البقاء، إما الدخول في الإسلام أو السيف، نداء ردده محمد خلال هذه الفترة " لا يجتمع في جزيرة العرب دينان" وذلك ما يفسر عزمه على قطع دابر اليهود وديانتهم، والآن لم يعد لسلطان الدولة حجة أو مبررا حتى يغزو قبيلة وينهب أموالها ويسبي نساءها.

تواصلت سياسة السرايا المسلحة بقوة بعد سقوط خيبر، فأرسل أبو بكر على بني فزارة ليقتل الناس على مائهم ويغنم المال والذراري والنساء، حيث سبى الصحابي سلمة بن الأكوع فتاة حلوة.**تلتها سرية عمر ابن الخطاب إلى هوزان بتربة، فهربوا لما وصلهم خبر مجيئه، تلتها سرية بشير بن سعد إلى بني مرة فاستاق نعمهم، فأدركوه فضربت كعبه، فأقام عند يهودي حتى ارتفع من الجراح ثم

---

[11] دلائل النبوة، ص 232.

[12] ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ج 4 ، ص41.

[13] ابن قتيبة عيون الأخبار، دار الكتب العلمية بيروت، ج 1 ، ص 218.

*كثير من المنتقدين لتاريخ الدعوة الإسلامية ومسيرة النبي محمد سواء في الغرب أو المشرق، يركزون على هذا الجانب، ويقولون لماذا الإسلام لم يحرم ملك اليمين أو الإستعباد؟ إن الإسلام ظهر في القرن السابع للميلاد وظاهرة ملك اليمين والإستعباد منتشرة في في جميع أصقاع المعمورة، أي أنها نوع من العرف، فامبراطوريات ومماليك العصر القديم والوسيط مارست السبي والإستعباد، لقد كانت ظاهرة مألوفة في ذلك الزمن. نسقط في الخطأ عندما نحاول أن نحكم على أعراف عصر معين بأعراف عصر آخر، أي أنه يستحيل محاكمة أخلاق وأعراف القرن السابع بأخلاقيات وأعراف القرن الواحد والعشرين، وهذا ما لم يقبله معظم المسلمين اليوم، حيث يعتقدون أن التشريعات الإسلامية سرمدية، فالخطاب القرآني في معظمه حتى لا نقول كله، موجه لمجتمع قبلي بدوي لديه أعراف وقريحة تتعارض مع أعراف وقريحة مجتمعات أخرى.

**أعجب محمد بجمال الفتاة وأصر على سلمة أن يسلمها له فكانت خالصة له من دون المؤمنين.

رجع إلى المدينة، فأرسل عليهم سرية أسامة بن عبد الله واسامة بن زيد فقتلوا أفرادها وهنالك وجدوا رجلا مقداما يدعى فرداس فأدركه أسامه شاهرا سيفه فيصرخ الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله. ولكن أسامة نزل عليه بالسيف رغم أنه أعلن إسلامه. تلتها سرية غالب بن منفعة إلى بنى ثعلبة، فسرقوا نعمها وقتلوا من صادفهم. سياسة ارتعدت منها فرائص منها قريش وهي ترى الجيش المحمدي كل يوم تقوى شوكته بنهبه للأموال والمغانم وسبيه للنساء والذراري، وارتعدت أكثر عندما جاءها العباس يزف لها بشرى سقوط خيبر وشمال الحجاز كله أصبح تحت ملكه فسألته: قد بلغنا أن القاطع (تقصد محمد حيث كانت تنعته بقاطع الطريق) قد سار إلى خيبر ؟ فرد عليها قائلا: لقد فتح محمد خيبر، وترك عروسا على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه.[14]

في خضم هذه الأحداث المتسارعة، انصرم عام على صلح الحديبية. خرج محمد وأصحابه معتمرين عمرة القضاء، على أن يغادرونها بعد ثلاثة أيام، من جانبها التزمت قريش بشروط المعاهدة، لتثبت لكل العرب أنها لا زالت ذلك البلد المفتوح لمن أراد من أن يعتمر أو يحج، ولكن هذا الإنفتاح لم يكن هدفه مزيدا من الرواج التجاري، إنما تنازلا واضحا ونقصا من سيادتها لسيادة أخرى منافسة، فالمعتمرون لم يكونوا فرادى إنما جيش كبير وصل إلى الألفين. **أثناء قيام محمد بالعمرة اندهشت قريش مما رأته، كيف لرجل سفه معتقداتها، وجردها من صفة حامية بيت الله، وقطع طريق قوافلها، يحافظ على الشعائر الدينية الوثنية المتعارف عليها لدى جميع القبائل العربية**؟ وكيف أمكن لمن جاء بالدين الجديد والتشريعات الجديدة أن يعيد إحياء هذا المكون الأساسي من مكونات التقديم القديم بحلة قديمة؟ لقد رأته مواظبا على كل حركة يؤديها، يطوف السبع دورات، ينحر الهدى عند المروة، ورأته يحلق رأسه وهو ما أصاب الصحابة بالصدمة،* ليثبت لهم أن ما أقدم عليه تمثل شعائر الله؛

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة158)

بمحافظته على الشعائر الوثنية المكية، أراد أن يبعث برسالة إلى كبار الملأ القرشي، كون الدين الجديد لن يتعارض مع مصالحهم الاقتصادية والعقائدية، محاولة سعى من خلالها صياغة قومية عربية خالصة مقابل القومية اليهودية التي قضى عليها بعد سقوط خيبر، وقد أشرنا سابقا تغنيه بالكعبة والقاءها في رحم تاريخ ضارب في القدم، بناها إبراهيم وابنه إسماعيل، وهو أكثر

[14]الدين في شبه الجزيرة، ص 282.
*قال عمر : ماكنت لأقبِّلَ الحجر الأسود لو لم أرى رسول الله يقبِّلُهُ.

قداسة من بيت المقدس اليهودي. إنه لتحول لافت جلب انتباه قريش مدركة في آن أن ابنها وفلذ كبدها الذي تمرد عليها وحاربها، لم ينسى يوما المشاعر العربية القرشية المكية، مناسكهم وأعرافهم.[15] ثم إن هذه العمرة أظهرت لقريش عتاد المسلمين وأمجادهم التي اكتسبوها بالغزوات ومغامراتهم على حدود الروم، وقد أراد محمد إظهار قوته إذ قال لرجاله: اكشفوا عن المناكب واسعوا في الطواف. قول عقب عليه البيهقي: ليرى المشركين قوتهم وجلدهم.[16] الآن استوعبت قريش أن المحافظة على مكانتها رهين بالتسليم لمحمد الذي أصبح كما قال عورة بن مسعود ملكا لا تدانيه ملوك الأرض، الآن وبما شاهدته في عمرة القضاء والحالة التي أصبح عليها المسلمون، فهموا أخيرا مغزى تلك الموعظة* التي قالها حكيمهم المخضرم عتبة بن ربيعة عندما كان في مكة.

لقد كان أثر القضاء عظيما، فقد أتت هذه العمرة بما أراد به من أثر، عقد في الوجدان القرشي بأن مكة إنما تجابه قوة لن تستطيع أن تصمد أمامها طويلا، فلقد مال من أهلها خلال تلك الأيام الثلاثة كثيرون ممن بشوكتهم اشتدت الشوكة الحربية للإسلام، خالد بن الوليد، عثمان بن طلحة، والداهية عمرو بن العاص، مناسبة لم يتركها العباس تفوته، إذ عقد للنبي على ميمونه بنت الحارث.[17] بانتهاء اليوم الثالث يهبط سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزة ليقولوا لمحمد: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا. فيرد: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه؟ فيجيبونه: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا.[18] فيغادر مكة تاركا وراءه صدى جملة أرسلها وهو مضطجع بردائه في ساحة المسجد الحرام: رحم الله امرئ أراهم اليوم في نفسه قوة ! [19] ليستقر في الأذهان، أن إعتماره كان مداه الحقيقي اظهار القوة وترهيب قريش.

عند رجوعه إلى المدينة، تعاظمت قوته على مختلف الأصعدة مقارنة من أي وقت مضى، وذلك ما دفعه إلى التنصل من معاهدة الصلح، والتركيز أكثر على الشام، فالهدف النهائي يبقى كنوز كسرى وقيصر. من شروط الحديبية، أنه من أتى محمد من قريش دون إذن يرده عليهم، ولما جاءته امرأة مهاجرة تدعى أم كلثوم وأصرت على عدم العودة معبرة عن خوفها، بأنه إذا عادت سيعذبونها ويفتونها عن دينها، وذلك ما حَزَّ في نفسيته وأثر على ضميره الوجداني فخفق مسترسلا؛

[15]حروب دولة الرسول، ج 2 ، ص 299.
[16]البيهقي، دلائل النبوة، ص ج 4 ، ص 315.
*يا معشر قريش أعطوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.
[17]الدين في شبه الجزيرة، ص 284.
[18]ابن هشام، السيرة في كتاب السهيلي، ج 4 ، ص 70.
[19]البداية والنهاية، ج 4 ، ص 241.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (الممتحنة/10)

ثم إن هؤلاء الذين عقدت معهم صلحا هم أعداء الله وأخرجوك وأخرجوا المسلمين من ديارهم (مكة) :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ (الممتحنة5/1)

هذه الآيات جاءت في سياق التشجيع على التنصل من التزامات المعاهدة. في الأثناء، أرسل محمد سرية إلى هوزان بقيادة شجاع بن وهب ليصيب أنعامهم ويسبي بعض نسائهم، وقد تمكنوا من الهروب عندما نزل عليهم ابن الخطاب. هرع وفدهم إلى محمد ليعلنوا اسلامهم، فرد إليهم كل أملاكهم وسباياهم، في بلاغ إلى كل العرب واضح المعالم محدد المعاني.[20] تلتها سرية كعب بن عمير إلى بنى قضاعة بذات أطلاح، قبيلة على تخوم الإمبراطورية البيزنطية. ناداهم كعب بدعوة الإسلام فلم يستجيبوا، لتعمل السيوف داخل السرية ولم يهرب منها إلا جريح واحد، فحزن حزنا شديدا لمقتل أفرادها، فأعلن مباشرة أن الأوان أخيرا قد آن لمهاجمة الروم، قوم أولي بأس شديد، كما جاء في الآية 16 من سورة الفتح.

[20]حروب دولة الرسول، ج 2 ، ص 325.

إلى مؤتة، أرسل جيشا يقدر بثلاثة آلاف بقيادة زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبي طالب وعبد الله ابن رواحة، غزوة مثلت فاتحة للإصطدام بالبيزنطيين. وصل خبر إلى هرقل فنزل بنفسه للقضاء على الذين تجرأوا على حدود امبراطوريته، وهنا وصف ابن هريرة ما رآه وقد شهد مؤتة: شهدت مؤته، فلما دنا المشركون منا، رأينا ما لا قبل لأحد به.[21] للسبب ذاته ولى المسلمون فرارا، وقد لقي القادة الثلاثة حتفهم، أما خالد ابن الوليد فقد نجى بأعجوبة، ليستقبلهم العامة على أبواب المدينة: يا فرار، فررتم إلى سبيل الله. فأردف محمد: ليسوا الفرار ولكن الكرار إن شاء الله. وتلك رسالة إلى قريش ولجميع القبائل العربية، ما عليها سوى الرضوخ تحت شارته وإمرته، لكي يتمكن الأعراب أخيرا من الخروج إلى الأرض الرحبة الخصبة. وإعمالا للوعد الذي أعلنه في مكة " والذي نفسي بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر " يرسل مباشرة سرية إلى ذات السلاسل على رأسها عمرو بن العاص وهي قبائل عربية مسيحية متحالفة مع الروم، ليكتشف أن عددهم كثير، مما دفعه للعودة دون أي مغانم أو فتوح. [22]**لا يمكن أن نعتبر غزوة مؤتة هزيمة، لأن جيش المسلمين لم يبلغ بعد المستوى المطلوب لمقارعة جيش هرقل، فالغزوة كانت تهيئة نفسية وتطويرا لإمكانياتهم الحربية، فالأعراب ما كانوا يتصورون مواجهة الروم وطَيُّ مُلْكِ أعظم امبراطوريتين في ذلك الزمان ولو في أحلامهم لولا مجيء الإسلام، وتلك هي المعجزة الحقيقة الوحيدة التي حققها محمد بن عبد الله.**

قطعا ! فإن السيطرة على الشام وأراضيها الخصبة لن يتحقق إلا بتوحيد شامل لشبه الجزيرة، وهو ما سيبقى صعبا وأم القرى (مكة) لا تزال خارجة عن سيطرته، فما كان له سوى أن يستغل الثأر بين قبائل كنانة وخزاعة* لإحكام قبضته عليها، ودمجها في الدولة الإسلامية. وصل خبر نقض الصلح لقريش، فأصابها الذهول والرعدة، فترسل سيد مكة أبا سفيان إلى النبي يستجديه ويبلغه أن الهدنة لا تزال قائمة مهما حصل، شارحا له أسباب وظروف ما حدث. ثم إنه لا يمكن معاقبة الأبناء على ما اقترفه الآباء من آثام وذلك بنص القرآن نفسه. ولكن ما إن دخل أبو سفيان المدينة إلا ووجد جفوة، متوسلا سيد المدينة ومعتذرا، وأنه من اللامعقول نقض الصلح بتعلة هفوة هفاها كنانة، والذعر أصابه من

---

[21]البداية والنهاية، ج 4 ص 241.
[22]ص 272.
*نصت بنود معاهدة الحديبية على أنه من أراد الدخول في عقد محمد دخل ومن أراد الدخول في عقد قريش دخل. تحالفت قبيلة خزاعة مع محمد ليس من وازع ايماني ولكنها كانت تكن البغضاء لقريش بعدما أن سلبت منها مفاتيح الكعبة من طرف قصي ابن كلاب، أما قبيلةكنانة فتحالفت مع قريش. كان بين القبيلتين ثأر تعود جذوره إلى ما قبل الدعوة، حيث اعتدت خزاعة على تاجر كناني قتلته وسلبته. ولم تعتدي على شخص واحد فحسب إنما على رؤوس أخرى كنانية. بقيت نيران ذلك الثأر الكناني متأججة حتى بعد مجيء الإسلام، نظرا والمجتمع القبلي المحكوم بالعصبية. بعد مضي عام من صلح الحديبية، أصابت كنانة فردا من خزاعة، وكان ذلك سببا لنقض محمد الصلح مع قريش. بينما هنالك رواية أخرى تكشف أن خزاعة وليست كنانة هي من بدأت بالإعتداء. إذ سمع رجل من خزاعة رجلا من كنانة يهجو محمد، فوثب عليه فجشَّهُ، فثار الشر بينهما. ولحقن الدماء، اعتذر الرجل الذي هجاه فيما بعد ويدعى أنس بن زنيم، لكن خزاعة حرضت ضد كنانة، فسكبت الزيت على النار، فاستجاب محمد لهم بالرغم من أن الإعتذار قد بلغه، غير أن الحنكة السياسية اقتضت نصرة خزاعة.

صمت محمد. ثم يلتف إلى أبي بكر ملتمسا التوسط، فرفض، ثم خاطب عمر وعلي وابنته فاطمة، لتذهب محاولاته سدى. لا ثمة شك فنحن أمام مشهد تاريخي يكشف بجلاء انكسار الهيبة القرشية وتقهقر سياستها أما الهيبة المحمدية وقوتها، لقد عبَّرَ أبا سفيان عن قريش الصَّاغرة، كيف أتت وهي جاثية على ركبتيها تتوسل سيد المدينة عسى أن يجيرها من سلطته. أمام هذه الجفوة وانعدام التفاهم هَبَّ على إثرها إلى الجامع ينادي يائسا: إن قريش لا دخل لها بثأر ثاره أفراد من كنانة وإن قريشا بعهدها إنما مستمسكة. ثم إلى مكة قفل عائدا وفي ركابه تسعى الهزيمة ويسعى الفشل.[23]

يقينا ! فإن محمد سيتخذ من الحدث حجة لفتح مكة وهي التي خرج سيدها ليقدم إليه اعتذارا على ثأر قديم لا ناقة لقريش فيه ولاجمل، فتصرف كنانة كان فرديا. ثم نهض ورفع يديه إلى السماء داعيا: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ! لقد كان الغاءه لصلح الحديبية ونقضه ردة فعل حصيفة، فالمكيون أرهق اقتصادهم جراء الحصار طيلة سنوات، ورؤوس قريشية كثيرة التحقت بالدعوة، وسلطته بلغت تقريبا كل بقعة من شبه الجزيرة، الآن أصبح بالمستطاع الإستيلاء على مكة التي كانت هدفا عمل على تحقيقه في صبر وأناة، واجتثاث آخر ما تبقى من المعارضة، جهَّزَ جيشه الذي بلغ قرابة عشرة آلاف مقاتل، وقد تردد البعض في الإنضمام إلى هذه الحملة لينادي فيهم؛

﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَـٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾﴿ قَـٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾﴿ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة13/15)

ثم يشيد بالذين شاركوا في الهجوم على مكة والنصر عليها، فكانت مكانتهم أعظم من الذين حاربوا من أجل الإسلام بعد أن أظهر هذا الحدث قوته؛

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَـٰتَلَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَـٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ (الحديد7/10)

[23] الدين في شبه الجزيرة، ص 288.

بجيشه وصل مكة وحاصرها، حصار يذكرنا بيوم الأحزاب وحصارهم للمدينة مع فارق كبير، فالقبائل يوم الخندق لم تكن على قلب رجل واحد، أما الجيش المحمدي فقد كان منظما ومنضبطا انضباطا شديدا، يكبر فيكبرون، يركع فيركعون، يرفع فيرفعون، فيصاب سيد مكة بالبهتة ويقول: ما رأيت كاليوم طاعة، قوم جمعهم من ههنا وههنا، ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون، بأطوع منهم له. [24] استعرض سيد المدينة كتائب جيشه المسلحة، جيشا منظما تخفق في نشوة ألوية ورايات، وأما الجنود فلم يرى أبو سفيان منهم إلا الحدق من الحديد، ليدرك أن قريش لا قِبَلَ لها بهذا الجيش، وما عليها سوى الطاعة والإستسلام، فالتفت إلى العباس قائلا:

يا عباس، ما لأحد بهؤلاء قِبَلَ ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما !

ولكن العباس ما زال يذكر أن مكة لقاح لا تدين لملك، فتنفلق شفتيه:

كلا ! إنها النبوة !.

قطعا ! فالأمر الصادر من شفتي ملك ليس كالأمر الصادر من شفتي نبي، الأول له مرد أما الثاني فليس له مرد لأنه أمر الله.[25] هنا، التفت سيد المدينة لأبي سفيان قائلا :

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ يقينا ! يعلم أبو سفيان ذلك وسائر قريش، بشهادة القرآن نفسه.

فكانت إجابته:

بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، ما أكرمك، ما أوصلك، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عنى شيئا بعد.

هنا وضع سيد المدينة أبا سفيان في مأزق قائلا:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

تأخذ الرجل الأنفة، أنفة البدوي الذي لا يقبل بسيد أو قائد يحكمه، لا يزال يجهل أنه هناك أمر أعظم من القبيلة، فأجابه:

بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، ما أكرمك، ما أوصلك، أما هذه فإن النفس منها حتى الآن شيئا.

---

[24] ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ج 4 ، ص 99.
[25] ا لدين في شبه الجزيرة، ص 290.

لقد كانت إجابة غير موفقة، فالأمور تغيرت ولم يعي أن هناك عصرا جديدا، ألا وهو قيام الدولة الإسلامية وأفول العصر القرشي وانتشار الدين الإسلامي في شبه الجزيرة، فيسرع العباس بقوله:

ويحك، أسلم وأشهد لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

وعلى الفور يقولها ويسلم. حتما ! فإن أبا سفيان وضع في مأزق لا مهرب منه، فإسلامه كان اضطراريا لا اختياريا، ويكون بذلك قد تصرف تصرف القائد السياسي الرصين، لأن العصيان في تلك اللحظة قد يجلب القتل لقومه، فكان نطقه بالشهادتين إلا من أجل حقن الدماء، وما قاله أبو سفيان بعد نطقه بالشهادة يبين لنا أنه بقي متمسكا بدينه:

وكيف أفعل بالعزة؟

يرد عليه ابن الخطاب:

نخرا عليها.

فيقول أبو سفيان: ويحك ياعمر، إنك رجل فاحش دعنى مع ابن عمي فإياه أكلم.

مرة أخرى يتدخل العباس قائلا:

يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا.

فرأى أن يجعل لأبي سفيان شيئا بعدما لم يبقى له شيئا، مناديا:

من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه الباب فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.[26]

فكان حظر التجول في أم القرى، دخل وطاف بالكعبة سبعا، ثم أمر بتحطيم جميع الأصنام، وبعدها فتح باب الكعبة ليصلي فيها ركعتين، ثم خرج يخطب في الناس قائلا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

إن فتح مكة كان أكبر معركة في تاريخ تطور الدين الإسلامي من غير حرب ولا إراقة دماء، وذلك يُحْسَبُ لمحمد، فقد كان موقفه في هذه المعركة حقا مُشَرِّفا، ونورا انبجس ولو لبرهة داخل مرحلة سياسة حالكة وعنيفة، اتسمت بالترهيب والإغتيالات، على أنه كما أوضحنا، طبيعة الأعراب القاسية والصعبة، أذهانهم المتكلسة الصلبة، عدم قبولهم بقائد من قبيلة مغايرة

[26]ابن الكثير، البداية والنهاية، ج 4 ، ص 305.

يسوسهم، دفعته لإستعمال القوة طيلة الفترة المدنية. واقفا أمام الكعبة يخطب في قريش، أحدث ثورة أخلاقية واجتماعية عظيمة بقراءته للآيات؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَ لَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات13/11)

إن كل الناس متساوون بالطبيعة، وأنه من منظور إلهي لا يمكن مقارنة نبالة الأصل وزهو العرق أو الطبقة إلا بمخافة وتقوى الله، بتلك الآيات أراد إزالة كبرياء قريش وتفاخرها بالآباء، ونخوتها بالأنساب، وكسر الأنفة، وإلغاء العصبية القبلية. ثم قال لهم:

يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب. ثم أردف:

يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟

فيأتيه الرد:

خير أخ كريم، وابن أخ كريم.

رد ما كان جوابه إلا:

اذهبوا فأنتم الطلقاء.*

---

*باستثناء أفراد سماهم بالإسم أمر بقتلهم ولو وجدوهم معلقين بأستار الكعبة وهم: جاريتان كانتا تتغنيان بهجاءه، قتلت واحدة واستؤمنت أخرى فعفا عنها. وسارة مولاة عبد بيت عبد المطلب وهي جارية كانت تؤذيه في مكة، أستؤمن لها أيضا وعفا عنها. الحويرث بن نقيد وهبار بن الأسود وهما اللذان نخسا بعير زينب ابنته فسقطت وألقت جنينها. وعبد الله بن خطل الذي أرسله يجمع الصدقات مع عبده فقتله وعاد إلى مكة مشركا. ومقيس بن صبابة الذي هاجر إلى يثرب مسلما ثم قتل أنصاريا ثأرا لأخيه وعاد إلى مكة مشركا. وعكرمة بن أبي جهل، عفا عنه بعدما جاءت به امرأته فاستأمنته له. والشاعر عبد الله بن الزبعري السهمي، هرب إلى نجران ثم عاد إلى محمد متحببا بقصائد المديح، فعفا عنه. وأمر بقتل وحشي الحبشي لقتله حمزة بن عبد المطلب، لكنه جاءه مسلما معتذرا فقبل منه. كذلك قبل اعتذار حويطب بن عبد العزى وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان. وأخيرا عبد الله بن أبي سرح كاتب الوحي، وقد كانت جريمته خطيرة ولم يرغب في العفو عنه لولا تدخل عثمان بن عفان أخوه من الرضاعة. يوما كان النبي يقرأ الآية 14 من سورة المؤمنون، قال بن أبي سرح: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال: أكتبها. وفي موقف آخر أملى عليه سميعا عليما فكتب عليما حكيما، فاستفهمه أسميع عليم أم عليم حكيم، فقال له: أيُّ ذلك كتبت فهو كذلك. موقف جعل بن أبي سرح يعتقد أنه يوحى إليه مثلما يوحي لمحمد، أو بالأحرى اكتشف أن القرآن هو وحي وجدان محمد مدفوع بوازع رباني، ففر إلى مكة وارتد عن الإسلام.

وقرأ عليهم الآية 92 من سورة يوسف:

﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

بينما محمد واقف أمام الكعبة يلقي تلك الكلمات على قريش، تَذَكَّرَ عثمان بن طلحة ذلك الحوار الذي دار بينهما قبل الهجرة وهو ضعيف مهيض الجناح، قال له يوما:

يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح (مفتاح الكعبة) بيدي يوما أضعه حيث شئت.

فأجابه:

لقد هلكت قريش يومئذ وذلت.

فرد عليه:

بل عمرت وعزت يومئذ. [27]

قول يدعم ما قلناه سابقا، كون محمد كان حريصا على قومه ويحب قريش حبا صادقا نابعا من صميم قلبه، وعليه، فإن جميع الحملات والسرايا العسكرية كان هدفها الرئيسي موجها نحو مكة وقريش، مُسَخِّرا كل طاقاته العسكرية والذهنية من أجل جعلها سيد العرب والعجم قاطبة، وتحقيق نهضة اجتماعية واقتصادية تأتي على الأخضر واليابس. بالرغم من ذلك الخطاب المتوازن الذي يتسم بالصفح والعفو، محاولا إزالة الثأر العربي وعدم إراقة الدماء وضرب العصبية القبلية، إلا أن خزاعة انتهزت الفرصة لتعدو على هذيل فتقتل رجلا منها بسبب ثأر قديم، وهنا يغضب غضبا شديدا ونادى فيهم: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لإمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ولا يعضد فيها شجرا، لا تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولو تحلل لي إلا هذه الساعة، غضبا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم أن رسول الله قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسول الله ولم يحلها لكم، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد كثر القتل.[28] موقف أصاب الأنصار بالدهشة وقريش بالذهول، فبعد ثماني سنوات من الحرب والقتل والترهيب، يكف النبي أيدي الأنصار عن مكة ويكف أيدي الناس عن بعضهم البعض، وكأنه أراد أن يطوى تلك المرحلة الحالكة الدموية من تاريخ الدولة الإسلامية.

---

[27] ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2 ، ص 231.
[28] ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ج 4، ص 94-95.

وهكذا تم فتح مكة بطريقة سلمية، لم يشهد تقسيم غنيمة ولا سبي أو قتل، ما يوثق قوة هذا الرجل، وما لهذه الشخصية الفذة من حنكة سياسية خارقة وقدرة عجيبة في تصريف الأمور، قدرة دفعت قريش للإستسلام والجثو على ركبتيها، معلنة رضوخها التام لسطانه. إن الإنتصار المحمدي أصاب قريش بالحسرة والذهول، حسرة وهي ترى تحقيقه لحلم عبد المطلب ومن قبله قصي ابن كلاب، جاعلا الأمر كله في أيدي الفرع الهاشمي، ومن ثم جفل وذبل فؤادها وهي تراه يطوف على الأصنام يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. **إذ ليس المعنى وراء ذلك إلا لتفهم أن الحكم الجديد قد سلخ شفاعة الشفعاء ووساطة الوسطاء، مستبدلا شفاعات الأصنام بشفاعته، فيكون هو الشفيع والوسيط الوحيد بينها وبين الله. ذهولا، وهي تراه يمارس طقوسها الدينية بتمامها، حتى تجديد الأنصاب، واحترام الحجر الأسود وتقديسه، لتفهم من ذلك أن الجوهر من دينها هو جوهر الدين الجديد ولم يمس بخدش، والله الممثل المحور من الدين القديم مازال هو هو، ولم تختلف شعيرة عن شعيرة ولا عبادة عن عبادة، فليس هناك اختلاف بين الدينين إلا في المظهر، ولكن مادة الدين الجديد يتمركز حول الإعتراف بمحمد كرسول من عند الله، وهو المكلف الوحيد بالشفاعة.** [29]

خبر فتح مكة صاح مدويا في كامل أرجاء الجزيرة، مما دفع الكثير من القبائل إلى اعتناق الإسلام، ألا إن مكة لقاح لا تدين لملك، لكن ملكها دان لمحمد، رأوا في ذلك عناية إلهية خاصة له وللمسلمين، مما دفعهم للإستسلام والمسارعة في مبايعته. كما أن الكثير من الشباب والفتية في مكة حديثي النشأة، شاهدوا هيبة محمد السياسية، وسمعوا بانتصارته الحربية، وكيف عظم أمره في نفوس معظم القبائل مع فتحه لمكة، شخص حقق كل هذه الإنجازات لا بد أن يكون رسول الله، فرأوا أن الإنضمام إلى هذه القوة الطالعة مفيدة لا سيما وأنهم وثقوا بأن الإسلام لن يكون مقصورا على بلاد العرب وحدها، بل هو متجاوز إلى خارجها، ووثقوا أنه سيكون لهم شأنا عظيما في المستقبل القريب. أمام نشوة الانتصار تساءلت الأنصار متوجسة عما سيئول إليه الأمر بعد فتح مكة، ليتهامسوا فيما بينهم: النبي تحرك رحمة لبلده وقرر أن يمكث بين أهله، ها قد بلغ إلى الهدف بسواعد الأخوال، وله دان ملك مكة، الآن سينضم إلى الأعمام تاركا المدينة إلى مكة. لكن يأتيها الجواب : معاذ الله ! إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم. فأقبلوا عليه

[29] لدين في شبه الجزيرة، 293.

يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا، إلا للظن بالله ورسوله.[30] ثم صعد إلى الصفا، لتقف مكة في طابور طويل، رجالها ونساءها يمرون أمامه ليبايعوه سيدا ورسولا عليهم.

قبل عودته إلى المركز الرسمي للدولة (يثرب)، أرسلت سرية بقيادة خالد ابن الوليد إلى نخلة لتحطيم صنم العزى، ذلك الصنم الذي كانت تجتمع عليه قريش وكنانة ومضر، ويفك التحالف القبلي السابق بينها ويصهرها في منظومة الدولة. وأرسل سعد بن زيد إلى صنم سواع بالمُشَّلِلْ فهدمه، وعمرو بن العاض إلى مناة صنم هذيل. فالتوحيد الشامل لن يتم إلا بإسقاط الواسطات وتدمير شفاعاتها كلها، وهي في الواقع ترمز للتشتت القبلي وتعددها، والتوحيد يجب أن يمر كما أوضحنا بسلخ تلك الشفاعات وصهرها في شفاعة واحدة ألا وهي شفاعة محمد بن عبد الله، الشفيع الوحيد للدولة الإسلامية الموحدة. مباشرة بعد تحطيم الأصنام المحيطة بمكة، أرسل خالد بن الوليد إلى بنى خذيمة بن كنانة لنطق الشهادة والإعتراف بميثاق الدولة، فنادى فيهم: ضعوا السلاح إن الناس قد أسلموا. سرعان ما استوعبت جذيمة صيحة خالد وألقت السلاح وذلك يفصح عن مدى رعبها من هذه القوة الطالعة، ولكن صرخ أحدهم وكان اسمه جحدم: يا بنى جذيمة إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدا. فقال له قومه: يا جحدم إن الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم أسلحتهم.[31] لقد أدرك جحدم أن لخالد ثأرا قديما من بنى جذيمة تعود جذوره إلى ما قبل الإسلام، حيث خرج يوما الفاكه بن مغيرة وعوف بن عبد المناف بن حارث بن زهرة، وعفان بن بني العاص بن أمية بن عبد شمس تجارا إلى اليمن، لما عادوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة كان قد هلك باليمن إلى ورثته، في الطريق قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، لقيهم رجل يدعى خالد بن هشام، فأبوا عليه فقاتلهم، وقتل عوف بن عوف والفاكه عم خالد بن الوليد.[32] ما إن استسلمت جذيمة، عرضهم على السيف الواحد تلو الآخر، مطيحا بكل رأس فيهم من الرؤوس. جريمة شنيعة، كسر بها ابن الوليد قاعدة أن الإسلام وقاء، أي أن السيف المحمدي لا يطيح إلا برقاب غير المؤمنين بأنه رسول الله، وإن رجاله لا يسبون إلا نساء غير المؤمنين بأنه رسول الله، ولا يسلبون أموال إلا أقوام غير المؤمنين بأنه رسول الله.[33] غضب كثير من الصحابة عما اقترفه وبلغ الشجار أشده بينه وبين عبد الرحمان بن عوف، وأخذو يتلاومون في أمر قتلى بنى

[30]البداية والنهاية، ج 4 ، 317.
[31]نفسه، ص 311.
[32]ابن هشام السيرة في كتاب السهيلي، ج 4 ، ص 111.
[33]الدين في شبه الجزيرة، ص 297.

جذيمة لأمان الإسلام، حتى بلغ الأمر إلى النبي، فانتفض رافعا يديه مستنكرا صنع خالد مرددا ثلاث مرات أمام الكعبة: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد.[34]

أصاب خبر فتح مكة قبائل هوزان وثقيف والطائف بالهلع، لقد رأوا أن الحجاز أصبح تقريبا تحت حكم رجل واحد. أدركت هوزان التي كانت قريبة من مكة إلى جنوبها الشرقي، أن دورها إنما آت وجيش المسلمين سيقتحمون عليها منازلها، أما الطائف فقد كانت تجمعها روابط اقتصادية متينة بمكة، وأن دورها آت لا محالة. لم تستوعب هذه القبائل أن تغييرا سياسيا قد طرأ على النظام القديم، وأن المجتمع المتشرذم في طريقة إلى الزوال. هَبَّت هوزان تنادي سيدها مالك بن عوف، فأمر الرجال والنساء والأطفال بالنزول بوادي أوطاس بسهول حنين، وخروج النساء والأطفال كان خطة محكمة من سيدهم، حتى يجد كل رجل منهم في نفسه الغيرة ويدفعهم للإستماتة القتالية، طالبا منهم بذلك روحا فدائية ونصرا لا يشك فيه، وكان يعلم أن هذا الجيش الهائل يعاني من نقطة ضعف كبيرة ممثلة بأولئك الذين دخلوا الإسلام كرها والمسمون بالطلقاء.[34] خرج محمد بجيشه الذي قدر باثني عشر ألفا بعد أسبوعين من مقامه في مكة يريد هوزان، كان جيشا على أتم الإستعداد للحرب وكلهم تلمع دروعهم وفي مقدمتهم الفرسان ووراءهم الإبل تحمل الذخيرة، ويتقدم كل قبيلة لواءها، ركب عظيم اهتزت من تحته أرض البوادي مناديا: لن نغلب اليوم من قلة. كلمات معبرة عن واقع موضوعي واضح فصيح، فمهما كانت قوة هوزان وثقيف فلن تقاس عددا بجند المسلمين، إلا أن القوم أعد كمينا محكما لجند المسلمين وهم متمترسين وراء السهول موزعين في مواقع متميزة، إلا وانهالوا عليهم بإمرة مالك بن عوف بوابل من النبال، ليختل توازن الجيش وانهزم الناس أجمعون لا يلوى أحد على أحد، فطلع الخبر أن هوزان هزمت محمد.

أثناء تلك اللحظات الصعبة والمريرة جرت اللوالب الفكرية من محمد سريعة تتساءل: أيمكن أن يضيع عبثا في هذه اللحظات مجهود عمر دام قرابة العشرين عاما؟ أيمكن بعد كل المعاناة والتجارب والهزائم والإنتصارات، وكل تلك الدماء، أن ينهار المشروع وهو قاب قوسين أو أدنى من بلوغ الهدف المرسوم ؟ كلا ! يجب أن أصمد وأنا القائد عظيم، قائد النهضة العربية التي ستزلزل العالم بأسره. ليهتف في رجاله: أيها الناس ! هلموا إلي أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. ترنح جيش المسلمين ترنحا خطيرا، وذلك ما نفهمه من قول عمر عندما سأله أحد الفارين: ما شأن الناس؟ فأجابه في لوعة

[34]تاريخ الطبري، ج 3 ، ص 67.

وحسرة: أمر الله.[35] وقد عَبَّرَ أبو سفيان عن مكنونه وهو الذي اعتنق الإسلام مكرها: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. أما كلدة بن حنبل كان يعتقد أن ما حققه محمد هو بمفعول السحر ليهتف: ألا بطل السحر اليوم ! أمام هذا الإنهيار نظر محمد إلى السماء قائلا: اللهم إنك إن تشاء لا تعبد في الأرض بعد اليوم.[36] فجأة، لمح حامل راية هوزان، وبشجاعة وذكاء عجيبين أشار بإصبعه مشيرا إليه، فيتبعه على ابن أبي طالب ويهوي عليه بالسيف، فتسقط الراية وترتبك هوزان. ثم التفت يبحث عن الهاربين وقال للعباس وهو يمسك براحلته: ياعباس ناد " يامعشر الأنصار " "يا أصحاب الشجرة". كان النداء نداء رحم وخئولة تذكيرا بعهد البيعة حتى الموت، نداء لمس العواطف وهَزَّ الجوارح، كأنه عطفهم حين سمعوا صوته عطفة البقر على أولادها، وقد استجابوا بسرعة لنداء العباس. بها استجمع الجيش وبدأ الفارون في العودة والتكاثر، وعاد السيف الإسلامي يشتد ليعمل عمله في هوزان يطيحون بخصومهم، واسترجع المسلمون الثقة في نفوسهم وفي رسولهم، ليعلو صوته: الآن حَمِيَ الوطيس. وحقا حمي الوطيس لأن هوزان وثقيف ما إن رأوا تجمع الجيش أدركوا أنه لا جدوى من المقاومة، ففروا تاركين وراءهم نساءهم وأموالهم، فهتف فيهم محمد: من قتل قتيلا فله سلبه. كثر القتل في هوزان حتى قتلوا الذرية، **لكن محمد أنكر ونهى عن قتل الأطفال في هذه الغزوة**. كانت مغانم حنين وفيرة، فقد وقع في يد المسلمين يومها ما يربو عن ستة آلاف من النساء والأطفال، أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاه، وأربعة آلاف أوقية من الفضة.[37] أمر محمد بأن يتم حبسها في الجعرانة ذلك الماء بين الطائف ومكة، وأما السبايا فقد كانوا جلهم متزوجات فَتَحَرَجَّ المسلمون من ايتَانِهِنَّ فكانت الآية؛

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(النساء24)

تمكن البعض من اللجوء إلى الطائف وعلى رأسهم سيدهم مالك بن عوف، وهنا أمر محمد بالمسير فورا إلى هذه المدينة ليسجل التاريخ حصار الطائف.

الطائف مدينة محصنة شامخة الأسوار بلغت شوطا عظيما من التمدن، أعدل مناطق الجزيرة مناخا وأكثرها خصوبة وزرعا، وهي المدينة التي زارها عندما كان يبحث عمن يسانده في مكة لكنهم

[35]البداية والنهاية، ج 4 ، ص 325-326.
[36]نفسه.
[37]ابن سعد، الطبقات، ح 1 ص 110.

ردوه، وحينها بدأ يوجه أنظاره نحو الأخوال في يثرب. لقد كانت مدينة ثرية مثل مكة، استفادت من تجاورة القوافل المارة عبر طريق الإيلاف، والمدينتين كانتا متحالفين ويقتسمان النفوذ بينهما.

ضرب عليهم الحصار والمنجنيق قرابة أربعين يوما حسب رواية البيهقي، لكن الطائف ليست كالنضير أو خيبر، إنها مدينة منيعة يستحيل اقتحامها، وثقيف نجحت في صد هجمات جيش المسلمين. فكر محمد في الإستراتيجية التي طبقها مع النضير، تحريق النخيل وافساد المزروعات لتدميرهم معنويا، فَعَزَّ عليها أن ترى كرومها تتلف وهي العزيزة عليها لتنادي محمدا أن يدعها ويوادعها للرحم: لا تفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم. فرد عليهم أنه معتق من العبودية كل من يلتجئ إليه ويجيء.[38] طال الحصار وعَلِمَ أن ثقيف لديها ما يكفي من المؤونة لتتمنع عنه، ولن تجثو أبدا على ركبتيها، ثم إن جيش المسلمين كانت حالته لا تسمح بإطالة أمد الحصار وذلك لسببين. الأول؛ كثير منهم كانوا يستعجلون العودة إلى الجعرانة لإقتسام الفيء الذي غنموه من هوزان من أموال وسبايا. ثانيا؛ وجود شريحة واسعة كانت منافقة ولم تكن مُتَحَمِّسَة للحصار، فعندما رُفِعَ لم يتردد عيينة بن حصن الفزاري من التعبير عن فرحته قائلا: أجل والله مجدة كراما ! ليتضح أنه لم يرغب في مقاتلة ثقيف وإنما أراد أن يفتح محمد الطائف فيصيب جارية يطأها. وعليه حَتَّمَت السياسة الدقيقة رفع الحصار والعودة إلى الجعرانة.*

هرع الهوازانيون إلى محمد بالجعرانة واستوعبوا أن الإسلام أصبح حركة وطنية قومية يجب على جميع القبائل الإندماج فيها، وكل مقاومة محكومة بالفشل. التمسوا منه أن يعيد إليهم نساءهم وأموالهم، ففضلهم بين النساء والأموال، فاختاروا النساء، فقال لهم: إذا صليت الظهر، قوموا وقولوا: نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبناءنا ونساءنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم. فعل الهوازانيون ما أمرهم به وعادوا برجالهم ونساءهم وأطفالهم، ولو لم تركب هوزان رأسها لما خسرت أموالها وفقدت شرف بعض نساءها. [39]لم يُخْفِي محمد اعجابه بمالك بن عوف هذا القائد العسكري الفذ الذي استطاع أن يجمع الجموع من هوزان وكاد أن يهزمه في حنين، ويقينا أن استبسال هذا القائد وحنكته ستقدم خدمة كبيرة للإسلام، فهو إلى أَمَسِّ الحاجة إلى مثل هؤلاء الرجال،

---

[38]البداية والنهاية، د 4 ، ص 246-247.

*نرى أن مجرى أحداث هذه القصة لا خوارقيات فيها، غير أن ابن الكثير زعم أن جبريل أتاه وطلب منه تأجيل فتح الطائف إلى العام المقبل لئلا يقتلوا عن آخرهم. خطاب الشعبذات عند المؤرخين المسلمين هدفه التخفيف من حدة غيظهم وحسرتهم.

[39]حروب دولة الرسول ، ج 2 ، ص 362.

لأن قادم الحملات ستكون موجهة إلى تخوم الشام، ليطلب من وفد هوزان أن يبلغوه أنه لو أتاه طائعا سيرد عليه ماله وأهله، إضافة إلى مائة من الإبل.[40]

عندما فكر في اغراء مالك بن عوف، تفطن محمد أن جيشه أصبح يعاني بعد فتح مكة من نقطة ضعف خطيرة، ألا وهي الطلقاء. فهؤلاء لم يدخلوا في الإسلام عن قناعة، وقد يكون ما حدث يوم حنين ترتيبا مقصودا من الطلقاء، قرروا الهروب لإيقاع الإرتباك في صفوف جيش المسلمين، وهو ما يستدعى تحركا سريعا من أجل رتق نقطة الضعف هذه. إن أفضل طريقة لجعل هذه الرؤوس العاصية ذات النفوس الجافية تميل للإسلام هي منح الهدايا، سياسة تكشف عن مدى ذكاء هذا القائد الفذ وما لديه من حس براغماتي سليم، فنحن خلال استقراءنا للمحطات الكبرى في حياة ومسيرة محمد، إلا ونتبهر في كل مناسبة بقوة شخصيته، وقدرة عجيبة على تسيير الأمور، وحل سريع للمعضلات، وتكيف مذهل مع الظروف المحيطة به. قام إذن يوزع الهدايا من مغانم هوزان بهدف تأليف القلوب، وتلك رسالة موجهة إلى الطلقاء أن الإسلام لن ينتقص منهم شيء، بل سيزيدهم ثراء على ثراء، وأن الوعد الذي ألتزم به "كنوز كسرى وقيصر " آت لا محالة. أعطي لأبي سفيان أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، فلم يقتنع السيد القرشي وطلب لابنه معاوية فأعطاه مثلهما، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، وأيضا الحارث بن كلدة أعطاه مائة من الإبل، كذلك الحارث ين هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدي، وسهيل بن عمرو، وحيطب بن عبد العزى والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، وأعطى للعباس بن مرداس أربعين من الإبل فلم يرضى فأعطاه مثلهما فرضي.[41]

إننا هنا أمام سيد أصبح في غاية من السماحة والكرم، يوزع الهدايا ويؤلف بين قلوب الأعراب، جاعلا من أعداء الأمس أصدقاء الحاضر، أما ما تبقى من رؤوس لم تنحنى بعد فإنها حتما ستنحنى وستستسلم لسلطانه وهي تراه سيدا أمسى يمنح في سخاء المنح وغدا يعطي الهدايا. لقد اندهش الأنصار مما رأوه، وهم الذين نصروا محمد وساندوه في الصراء والضراء، ولولا الأنصار "أهل الحرب والدم" لما قام للدولة الإسلامية قائمة، فبسواعد الأنصار تأسست الدولة، وهم الذين خرجوا معه في كل غزواته وصمدوا أمام قريش في أحد، وكاد أن يموت حينها لولا تدخل أنصاري ليفديه بروحه، وهم الذين آمنوا به إيمانا حقيقا، ليس كقريش التي خرجت معه من أجل قضاء المصلحة، ولم تؤمن به إلا خوفا، ثم أليسوا هم الذين استقبوله وساندوه عندما جاءهم إلى يثرب مهيض الجناح، كيف لا يعدل ولا

[40] الدين في شبه الجزيرة، ص 303.
[41] حروب دولة الرسول سبق ذكره، ص 363.

ينالون مثلما نالوه ؟ فتعلو الأصوات ويكثر اللغط : نحن أصحاب كل موطن وكل شدة ثم آثر قوما علينا وقسم فيهم قسما لم يقسمه لنا، وما نراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانيهم. ويقول آخر : يغفر الله لرسول الله يعطي قريش ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. ويزيد ثالث: أما من قاتله فيعطيه وأما من لا يقاتله فلا يعطيه. وهنا بدأ الإحتجاج وقيل للنبي ما لا يصح: يا محمد اعدل ! ليرد : ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فيردف: لم أرك عدلت. ويقول آخر: هذه القسمة لا عدل فيها. فيغضب محمد غضبا شديدا ويحمر وجهه ليهتف بالناس: فمن يعدل إذا لم يعدل رسول الله ؟ هنا انتجت الآيات:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة60/58)

جاءت لتنفي الإتهام الموجه ضده بأنه غير عادل. ناداهم ووقف فيهم خطيبا قائلا: يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم جدة وجدتمها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعدتء فألف الله بين قلوبكم؟

قالو: بلى الله ورسوله أمن وفضل!

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، وطريدا فأويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوم ليسلموا، ووكلتكم إلى اسلامكم؟ ألا ترضون يامعشر الأنصرأن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وآباء أبناء الأنصار.

كلم عَمِلَ عَمَلَ البلسم في القلب، كلم كان حقا دليلا على أنه خبير بنوازع النفس البشرية وانفعالاتها، عبارات انهزَّ بها الوجدان الأنصاري، لَإنها محطة أخرى في مسيرته، تكشف عن قوة شخصيته، وقدرته الخارقة في جذب النفوس إليه وتأليف القلوب من حوله ومهارة اعداد سامعيه، لا لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم فحسب، وإنما التأثر به إلى أبعد حدود الطاعة. فقد بيَّنَ للأنصار ما أتى به إليهم من نعمة وثراء بعد فقر، وأن قلوبهم ائتلفت بالغزوات والحرب فيما بينها، وأثنى على تصديقهم إياه، ومواساتهم له، وعاتبهم على تطلعهم لهذا الفئ الذي فرقه في نفر حديثي العهد بالطاعة

لسلطانه تطيبا لنفوسهم وترغيبا لهم في الثبات على دين الدولة الجديدة، فلا غرو أن تهتز وجدان الأنصار هزا فبكو حتى اخضلت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمة وحظا.[42] انصرف بعدها للعمرة في الجعرانة ثم استخلف عتاب بن أسيد على مكة قبل عودته إلى المدينة مع الأنصار.

في السنة التاسعة، ذاعت شهرة محمد في شبه الجزيرة وخارجها وخضعت له القبائل الواحدة تلو الأخرى، فبعد فتح مكة مركز المقاومة وعش المخاصمة، وبعد سلب أموال هوزان وضياع شرف بعض نساءها وقهر السادات وتركيع الزعماء، فَهِمَ العربان أنه لا طاقة لهم بهذا الزعيم، وأنه من الأفضل الرضوخ لسلطانه، وأن أيَّ لون من ألوان المعارضة أصبح غير مجد وضربا من الانتحار، من مصلحتهم الرضوخ لسلطانه، فالبنية القديمة للمجتمع القبلي وَلَّت واستبدلت بالأُمَّة، الآن تضخم الجيش الإسلامي وأصبح يضم الأشاوس من القبائل الحجازية بعدما أسلمت ثقيف وتألف سيدها مالك بن عوف بالعطايا، وبعد أن كان سببا للخلافات والحروب غدا زعيما وسيد الجزيرة بلا منازع.

استقرت العين المحمدية مرة ثانية على البيزنطيين، وقد سجلت غزوة مؤتة أول احتكاك بين العرب والروم في التاريخ، ولا شك أن الزمن الفاصل بين مؤتة وفتح مكة حصل فيه تحولين خطيرين، الأول توافد الوفود من بلاقع الجزيرة لتعلن لسيد العرب خضوعها، أما الثاني إعلان بيان البراءة. إن الوفادة لا تكون إلا للملوك ومن شابههم من الأكابر والأعاظم والأفاخر، ونقول وفدت عليه وفودا ووفادة، وأوفدت فلانا على الملك وتوافدنا عليه، فالوفد هو جماعة مختارة تتقدم في لقاء ذوي الشأن.[43] أول الوفود جاء بشموخ الأنف العربية كان وفد تميم، تلك القبيلة العربية الكبرى جاءت وعلى رأسها عطارد بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والحتحات بن يزيد، أسماء جميعها ذات شرف ومنعة وسيادة في قومهم، دخلوا يثرب ووقفوا أمام المسجد الإداري للدولة فلم يجدوه، من وراء حجرته نادوه بصلف: أخرج إلينا يا محمد !. عجبا، ألم يعلم وفد تميم أن الزمن تغير وأن محمدا قد أمسى لا ينادى مثلما ينادي المسلمين بعضهم بعضا أسوة بالآية؛

﴿ لا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(ال نور62)

تنبيها للوفود وتقريعا للأجلاف استرسلت الشفاه المحمدية؛

---

[42]ابن هشام السيرة السيرة النبوية، ص 4، 138.
[43]بصائر عام الوفود، سبق ذكره، ص 30.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحجرات1/5)

كَلِمٌ يصور لنا المكانة الإستثنائية التي اكتسبها محمد داخل المجتمع العربي، ولكن غرور تميم وأنفتها دفعها لتأجيل اعلان الطاعة لسيد العرب وهي تعتقد أنها لا تزال عزيزة متعالية منادية:

يامحمد جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

حادثة بَيَّنَتْ أن كثيرا من القبائل بقيت متمسكة بغرورها الأجلف وحسها الغليظ، ولم تستوعب عقولهم المتكلسة وأذهانهم المتصلبة التحولات الكبرى والنهضة العربية العظيمة، فرد عليهم بهدوء الواثق المطمئن:

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، الذي جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عضاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم؟

غير أن سيد تميم عطارد لم يفهم الرسالة ولا يزال ثوب التكبر يلازمه، فأشار إلى حسان بن ثابت ليرد عليه ردا مناسبا يكسر تلك الأنفة، مسترسلا في خطابه:

الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهم أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيئا قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خيرته رسولا، أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا، فأنزل عليه كتابا وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله والمهاجرون من قومه، وذوي رحمه أكرم الناس أحسابا وأحسن وجوها وخير الناس فعلا. ثم يُصَعِّدُ حسان من خطابه قائلا:

نحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.[44]

---

[44] البداية والنهاية، ج 5 ، ص 39.

فهمت تميم الرسالة وتهاوت عزتها، فحاول محمد التهدئة من روعها وتخفيف من حدة التهديد قائلا: أقبلوا البشرى يا بني تميم. فاستجابوا وأسلموا، وأحسن محمد جوائزهم.

تتالت الوفود تباعا * وبقي عدد كبير منها متمسكا بالعجرفة والكبر والخيلاء، وهو ما يكشف أنهم لم يؤمنوا بالدعوة المحمدية إيمانا صادقا صافيا، فقبيلة بني أسد كانت تمنى عليه اسلامها، ليصكهم بآيات؛

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات/14)

هؤلاء الوفود لم يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ورسوله فليسوا إذن مؤمنين حقا؛

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (الحجرات16/15)

ثم ما بكم تمنون علي أسلامكم والله هو الذي هداكم للإيمان؛

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (الحجرات/18)

إن حدث الوفود، ولئن صوَّر محمد سيد جزيرة العرب بلا منازع وذلك بتوحيده لقبائل شبه الجزيرة، فإن هذه الأقوام بقيت تحمل جنين الثورة أو الردة، طبيعي أن يرتد معظمها بعد وفاته، وذلك يكشف عن حقيقتين. **أولا أن محمد أراد منهم الإسلام وليس الإيمان، أي الانضواء تحت راية الدولة ونطق الشهادتين.** ثانيا أن ما عرف في التاريخ الإسلامي بحروب الردة لم تكن ذات طبيعية عقائدية، ولكن ذات طبيعية سياسية، لأن القبائل التي حاربها الخليفة الأول أبو بكر لم تكن مؤمنة أصلا بالرسالة المحمدية، بل كان ايمانها شكليا.

أخيرا تحول مشروع الدولة إلى واقع ملموس وأوعبت القبائل طاعتها للنبي، حقيقة عبرت عنها سورة النصر؛

---

*وفد أزد عمان، بني أسد، أسلم، أشجع، الأشعريين، بارق، البكائي، بنى بكر، بني تغلب، بنى ثعلبة، ثقيف، جذام، جهينة، بنى الحارث بن كعب، الحجاج ابن علاط، جيشان، حمير، وفد بنى حنيفة، خثعم، خولان، الداريين، دوس، ذناب بن حارث، زبيد، هذيم، بني سليم، بيمى سلامان، بنى شيبان، صداء، ضمام بن ثعلبة، طئ، بنى عامر، بنى عبد بن عدي، بنى عدرى، عقيل بن كعب، عمر بن معدي، عنس، بنى غامد، بنى غسان، بنى قرارة، قيس بن عاصم، كندة، بنى محارب، بنى محارب، نجران.

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥكَانَ تَوَّابَۢا﴾ (النصر3/1)

ولَمَّا غدا الإسلام دولة، كان بالتالي لزاما فرض الضرائب، على المسلمين زكاة العشر، وعلى غير المسلمين الخراج.

استقرت الأوضاع داخل شبه الجزيرة وتم القضاء على جميع أنواع المعارضة فتوافدت الوفود وأعلنت الطاعة، أدرك حينها محمد أن الظروف أصبحت سانحة للتوجه نحو الشام على تخوم الإمبراطورية البيزنطية، وهو الذي كان على علم أن سلسلة من الحروب الطويلة بين الساسانيين (الفرس) والبنزنطيين (الروم) قد أنهكت واستنزفت الآلة الحربية العظيمة لكلا الطرفين، إضافة إلى ظهور معالم الإنحلال السياسي داخل الحكومتين ولم يخفى ذلك عنه، فإذا انتصر الفرس في بداية الحرب فإن الزمن قد تغير ويقينا ستترجح الكفة للروم، ثم إنه كان على دراية تامة بالأحوال السياسية لما وراء شبه الجزيرة، ليمتد بصره إلى الشام تمهيدا للاقتحام الأراضي الخصبة واستكمال نشر الدعوة خارج حدود الحجاز. وما ألهب حماسته، هو سماعه لخبر مفاده أن ملك الروم هرقل جهز جيشه، ويستعد لشن هجوم على الأطرف الشمالية للجزيرة بالتحالف مع الإمارات العربية المسيحية، وعرفت هذه الغزوة باسم تبوك. تبوك آخر غزوة قادها قبل وفاته، غير أنها صادفت زمان عسرة من الناس كما روى صاحب السيرة النبوية ابن هشام : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب في البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ماكان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له، لتتأهب للناس أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.[45]

لم يكن جل المسلمين متحمسين للخروج نحو تبوك وذلك لأسباب عديدة، أهمها أن الكثير من القبائل لم يقبلوا على الدعوة بقلوب خالصة، ودخلوا تحت ضلالها خوفا ورهبا، ثم إن محمد ينادى بمقاتلة الروم وهم الذين هزموا الفرس ذلك الجيش العظيم في عقر داره، ولا شك أن ذكرى مؤتة لا تزال حاضرة والهزيمة بقيت عالقة في الأذهان، أي حافز إذن يحفز المسلمين على الخروج والقتال؟ إنه بيان البراءة وهو التحول الخطير الثاني بعد الوفود؛

[45] السيرة النبوية لابن هشام، ج 4 ، 156.

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾﴿ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ (التوبة12/1)

لقد أعلن محمد بيان البراءة ليتنصل من العهود السابقة المبرمة بينه وبين غير المسلمين، وليقطع الطريق على المكيين الذي يفضلون التعامل معهم والتنعم بمساكنهم عوضا عن قتالهم، فالحج والعمرة لا تعنى الإيمان بالله واليوم الآخر؛

﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴾﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة21/19)

ولكي يسترجعوا الثقة في أنفسهم، بث فيهم الحماس للخروج وخلع عنهم التقاعس والتردد عن القتال من خلال تذكيرهم بيوم حنين؛

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوْمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة27/24)

ولكن الكثيرون أظهروا عدم الرغبة في الخروج، فظاهرة النفاق لم يتم القضاء عليها رغم تقليم أظافر المعارضة؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (التوبة38/39)

إن المسافة بين يثرب وتبوك طويلة وشاقة، وهو ما يفسر تثاقلهم وتقاعسهم، فما كان لهم سوى أن يستأذنوا محمد لقضاء شؤونهم كحيلة للتهرب من القتال؛

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾﴿ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة42/45)

وآخرون لا يزالون يشكون في جدوى هذه الغزوة وانتصار العرب على جيش القيصر؛

﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ (التوبة46/48)

وبعض المنافقين كان يخاف ملاقاة الروم لكيلا يفتتن بنسائهن؛

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(التوبة49)

ثم يوجه محمد الضربة القاصمة عندما يلغى مبدأ عدم صد أي شخص عن البيت إذا جاءه حاجا أو معتمرا، فالمشركون نجس ولا يجب أن يقربوا المسجد الحرام؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (التوبة28)

نقض هذا المبدأ سيؤثر على استمرار التجارة وسيولتها وفيه خراب ديار قريش. كانت ردة فعل قريش سلبية إزاء هذا الإعلان، فكيف يمكن لها الآن تحصيل قوت يومها وهي التي دأبت على التجارة منذ عقود، فهم لا يعرفون مهنة أخرى سواها، ليأتي الرد؛

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة29)

إذا خفتم خراب تجارتكم ودمار أسواقكم فإن الله عوضكم بمهنة أرقى منها وأنجع، إنها قتال أهل الكتاب من يهود ونصارى حتى يعطوا الجزية. وهنا يثور سؤال: أليس أهل الكتاب ولئن اختلفت ديانتهم عن الإسلام في بعض الجزئيات فإنهم رغم ذلك مؤمنين بالله؟

لقد تطورت السياسة المحمدية، وذلك ما تكشف عنه آيات سورة التوبة، فأهل الكتاب هم مؤمنون بالله ولكن كان ذلك قبل فتح مكة وتوافد الوفود، ومن ثم لا يمكن أن يكونوا مؤمنين وهم الذين؛

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (التوبة31/32)

أما الآن، فالجزيرة أصبحت كلها موحدة تحت راية الإسلام، ولم يبقى كتابي إلا وأجلي عنها عملا بقوله" لا يجتمع في جزيرة العرب دينان" لتتوجه الأنظار إلى ماوراء حدود الحجاز، إلى كنوز كسرى وقيصر. **إن آية السيف تشير إلى انقلاب عظيم سيغير الخريطة الجيوسياسية للشرق الأوسط، فالجهاد أصبح بديلا عن تجارة، والجهاد سيعوض قريش خسارتها، وقد أُعْلِنَ عن استبدال التجارة بالجهاد في سورة الصف؛**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الصف10/11)

نفهم إذن قريش سر التضييق على تجارتها طيلة سنوات، حيث سعى محمد جاهدا لإحداث نهضة تطال جميع المرافق الحياتية للمجتمع العربي، التحول من التجارة إلى القتال مثل جوهر هذه النهضة، وكان هذا الإعلان فرضه الواقع التاريخي الجديد، لأن جميع القبائل انضوت تحت سلطان الدولة ولم يعد بالإمكان تقديم غنائم جديدة داخل جزيرة العرب، ذلك وأن الحفاظ على وحدة الدولة الإسلامية رهين بالبحث الدائم عن الغنائم، والعالم أصبح مفتوحا ليصبحوا سادة العالم بعد أن كانوا سادة تجارة العالم.[46]

خرج النبي بنفسه غازيا، تاركا الذين تخلفوا عنه، بعد أن وبخهم وهددهم ووجه لهم انتقادت لاذعة عن طريق القرآن، خرج على رأس جيش عرمرم قدر بثلاثين ألف، سماه بجيش العسرة، لشدة ما لاقى في تكوينه ولصعوبة الظروف المناخية التي أحاطت بالغزوة، شدة حرارة الطقس والجدب الذي ضرب الجزيرة. سار محمد مارا في طريقه بتلك البقعة التي سميت بالحجر، وجدها مقفرة وموحشة خالية الأرجاء من الحياة قاصدا المدينة القائمة على حدود الإمبراطورية البيزنطية، تبوك. خلال الخروج تنشأ الآيات ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ (التوبة84/81)

أما الذين خرجوا معه؛

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (التوبة90/88)

ثم يعفى المسلمين من واجب الإستغفار للمشركين ولو كانوا ذا قربى؛

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ

[46] حروب دولة الرسول، ج 2 ، ص 382.

تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة115/113)

في تبوك، لم يجد محمد أحدا من الروم، وتبين أن هرقل قد جمع جموعه في حمص، ومن العسير التسلل الآن داخل الشام، فأقام صلحا مع أهالي بعض القرى الواقعة على الحدود وفرض عليهم دفع الجزية، **معاهدة كانت بمثابة تحالف سياسي لا علاقة له بالدين، إنما تكتيك دقيق من سيد العرب، لكيلا يكون أهل الحدود حائلا بينه وبين الروم في المستقبل القريب، وطريقا إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية.** وفي طريق العودة إلى المدينة تفطن أن مسجدا افتتحه لإيواء المحتاجين ويبعد عن عاصمة الدولة قرابة ساعة من النهار يأوى رهطا من المنافقين، ليأمر بتحريقه وهدمه، وهو ما عبرت عنه الآيات؛

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴾﴿ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾﴿ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة110/107)

ولا يجد المنافقون سوى التوجه لسيد الدولة ويقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم كانوا هازلين فكان الرد؛

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ (التوبة66/64)

ليدركوا أن جهاز الدولة قد دخل بيوتهم وتنصت على أحاديثهم حتى قال أحد المنافقين وهو نبتل بن الحارث : إنما محمد أذن، من حدثه شيئا صدقه،[47] فكان الرد؛

﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (التوبة61)

[47] ابن هشام، الروض الأنف، ج 4 ، ص 190.

وعن المنافقين ؛

﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴾﴿ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ (التوبة56/52)

لا شك أن القارئ سيتبين الفرق اللغوي الشاسع بين آيات سورة التوبة أو الصف أو الحشر، كيف أصبحت صارمة وقوية، بعيدة عن أسلوب السجع والتكلف، توحي وأن محمد أصبح واثقا من أمر الدعوة، على عكس السنوات الأولى في مكة، كانت الآيات تنبئ بالخوف والحيرة. ثم اشتد الخطاب القرآني أكثر ليلغي التسامح ويضرب بيد من حديد على كل مخالف لأوامره ؛

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ (التوبة74/73)

تحريق المسجد كان رسالة موجهة لجميع الاعراب بأن كل شخص يتجرأ أو يتطاول عليه، مثلما حدث في بدر أو أحد، سيلاقي المصير نفسه، إذن لا سبيل من هنا فصاعدا للمساومة، يهرع هؤلاء ليحلفوا ويعتذروا؛

﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾﴿ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾(التوبة96/95)

وقد أخبر محمد أصحابه بأن فيهم اثني عشر منافق منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.[48] النفاق هو صفة ملازمة في الأعراب؛

[48]البيهقي دلائل النبوة، ج 5، ص 261.

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾(التوبة98/97)

في المقابل توجد فئة من الأعراب صادقة؛

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة99)

أما المسلمين الذين تخلفوا عن الخروج؛

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (التوبة106/102)

ومن بين هؤلاء الذين تخلفوا عن غزوة تبوك حسب التراث الإسلامي، هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، أخبرهم محمد أن الله قَبِلَ توبتهم؛

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة118)

وبالرغم من مهاجمة هذه الآيات المتخلفين عن الغزوة وفضح المنافقين، غير أننا نجد في آخر السورة استثناء ينسحب على بعض المسلمين، تحثهم على البقاء كمبدأ أمان، والله يرضى لو فرقة من كل طائفة شاركت في الحملة؛

﴿ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾(التوبة122)

في السنة العاشرة، خرج سيد العرب إلى الحج الأكبر، وقد بلغ عدد الحجيج يومها قرابة المائة ألف، مستمسكا بالطقوس الدينية العربية القديمة من شعائر التعبد في العصر القرشي، رأوه يُقَدِّس ما قد قدَّسَ الآباء ويجِّلُ ما قد أجَّلَ السلف، يُقَبِّل الحجر الأسود ويطوف سعيا، ثم خرج إلى ربوة الصافا بادئا السعي بين الصفا والمروة. [49] بعد أن أكمل طقوس الحج قام في الناس يخطب، خطبة عرفت في التاريخ الإسلامي بحجة الوداع، وسميت بالوداع لأنها الأخيرة ولم يحج بعدها، اوجاعه قبل الحج بدأت تزيد.[50] عندما نحلل كلماته خلال هذه الخطبة نستشف أنه شعر بدنو أجله :

أيها الناس، اسمعوا قولي، فإنى لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكمن كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤديها على من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلِمُون ولاتُظْلَمُون قضى الله أنه لاربا، وإن ربا العباس ابن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع (...) أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيها الناس إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ. وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ. أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهم ألا يطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضريوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن كسوتهن ورزقهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهم شيئا، وإنكم إنما أخذتهم بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلو أيها الناس قولي، فإني قد

[49] الدين في شبه الجزيرة، ص 347.

[50] وفي حديث أخرجه أبو داوود والطبراني، رواه أبو هريرة، أن امرأة يهودية يوم فتح خيبر قدمت للنبي شاة مصلية وضعت فيها السم، فعندما هَمَّ بالأكل سرعان ما تفطن أن فيها أمرا ما، فمات البراء بن معرور الأنصاري، إلا أن قليلا من السم تسرب في فمه، فقال لعائشة وهو على فراش الموت: ما زلت أجد بالأكلة التي أكلت بخيبر، فهذا أوان قطعت أبهري. الكاتبة التونسية هالة الوردي اعتبرت هذه الرواية محبوكة بهدف استبعاد الشكوك عن المقربين منه، واضح أنهم كانوا طامعين في السلطة، ومحاولة اغتياله من طرفهم غير مستبعدة.

بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تظلوا أبدا أمرا بينا، كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين اخوة، فلا يحل لإنرئ من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس، فلا تظلمن أنفسكم، أللهم إني قد بلغت. [51]

بهذه الجمل اختتم كلماته وأرسى للإسلام قواعد ووضع دستورا ممثلا في القرآن والسنة، وعما مصدر عقيدة كل مسلم ومصدر كل تشريع، وهنا خشعت الجموع وهي ترى سيدها قد دانت له العرب والعجم واكتملت له السيادة، فتمت بذلك النعمة وبلغ الهدف فهنأت منه النفس ورضيت معلنا: ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ.

لقد شعر محمد بدنو أجله، لذلك مباشرة بعد حجة الوداع، ألحَّ على أسامة بن زيد وهو شاب في السابعة عشر من عمره، والده كان قد لقي حتفه في غزوة مؤتة، على الخروج صوب بلاد الشام، بل ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بمن فيهم أبو بكر وعمر الخروج معه، محذرا إياهم من عدم طاعة أوامره. ورغم اشتداد الوجع طلب من أبي مويهبة اصطحابه إلى مقابر أصحابه الذين افتدوه بأرواحهم ولولاهم ما كان للدولة أن ترى النور، فوقف وسط المقابر قائلا: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى. ويلتفت إلى أبي مويهبة يقول له: إنى قد أوتيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. فرد عليه: بأبي أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة. فأردف: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة. [52]

ثم يعود وقد ازداد وهنه ومع ذلك تحامل على نفسه ولا حظ أن بعثة أسامة تتلكأ في تنفيذ أوامره، فخرج من بيت عائشة عاصبا رأسه قائلا: إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ماعنده، فاختار ما عند الله. فأشهج أبو بكر بالبكاء وقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا. ثم ينادي: أيها الناس أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق بالإمارة، كان أبوه خليفا بها. لقد تذمر الصحابة من وضع زيد على رأس البعثة وطعنوا فيه وهو ابن حدث. لكن ليس هذا السبب الوحيد الذي جعلهم يتثاقلون في الخروج، فالصحابة وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر عرفوا أن محمد إنما منه الموت بخطى حثيثة، وذلك يفهم من أقواله السابقة التي عرضناها، ولا ننكر أن الخوف والقلق انتابهم بسبب حالته وهذا ما نفهمه من قول أسامة قبل الخروج: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى، فقال : أخرج وسر على بركة الله،

[51]ابن هشام السيرة النبوية، ج 4 ، ص 247-248.
[52]ابن هشام في الروض الأنف للسهيلي، ج 4 ، ص 246-247.

فقال : يارسول الله إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال، خرجت وفي قلبي قرحة، فقال : سر على النصر والعافية، فقال : يارسول الله إني أكره أن أسائل عنك الركبان، فقال : نفذ ما أمرتك به، ثم أغمي على رسول الله ﷺ. وقام أسامة فتجهز للخروج، فلما رسول الله ﷺ سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: انفذوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه. هنا يثور سؤال: لماذا أصر على خروج أسامة رغم شدة أوجاعه؟ بل وصل إليه الأمر إلى لعن كل من تخلف عنه. لا شك أنه في تلك اللحظات الفارقة فكر فيمن سيخلفه، أما المؤرخين المحسوبين على أهل السنة، البعض منهم يقول إن محمد لم يستخلف أحدا، وآخرون يقولون استخلف أبا بكر تلميحا دون تصريحا. عجيب ألا يستخلف أحدا والإسلام كما وضحنا خلال هذه الدراسة يمثل دين دولة، فلا يمكن الحديث عنه من دون تواجد دولة، وذلك جوهر الإسلام الذي تأسس منذ أيامه الأولى على نظام ثيوقراطي (سيادة الإله). ثم إن قوله "أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها" إشارة لا غبار عليها للساعات التي ستعقب وفاته. يقينا ! فإن الجميع سيختلف في أمر الخلافة وستكون الفتنة[53]، **وليس على ذلك أدل من أنهم تركوه جثة على فراشه وراحو يتنازعون فيمن سيخلفه، ليتنبهوا أنهم تركوه يرقد على سريره جثمانا ينتظر التجهيز والتشييع. عجيب أيضا إذا قلنا إنه لم يستخلف، إنه لأمر منافي للمنطق والحس السليم لو ذهبنا إلى هذا الرأي، وهو الذي ذاق الأمرين طيلة عقدين من الزمن من أجل توحيد العرب والقضاء على العصبية القبلية داخل مناخ مشحون بالتخاصم، كيف يترك أمته من دون قائد، أيعقل أن يغفل عن مسألة مصيرية؟ أيعقل أن يكون سببا لبوادر حرب أهلية ؟ كلا ! إنه لو قرأنا اللحظات الأخيرة من أيامه قراءة موضوعية، وحرصه الشديد على المسلمين، لا يمكن بل يستحيل أنه لم يفكر في مسألة الخلافة.***

كره أسامة الخروج عندما رأى محمد في تلك الحالة، أما الصحابة كما قلنا لم يغفل عنهم مسألة الخلافة، ولعلهم تفطنوا لما خطط له، دفعهم للخروج ليعين من سيخلفه، قد يستدرك علينا بالقول: لماذا لم يعين على مرأى الجميع وفي العلن؟ لقد خشي حدوث تململ في صفوف الصحابة، ويصل بهم الأمر إلى عدم الإمتثال وستكون إذن المنازعة والفتنة. قطعا ! أراد أن تخلو العاصمة منهم لكي تنتقل السلطة بطريقة سلسة وآمنة، ونحن لا نؤوب للرأي أن عليا هو الخليفة، قد يكون شخصا آخر وليس بالضرورة علي، وربما لو عادوا ووجدوا أن أمر الخلافة قد حُسِمَ سيقبلون به ولن تكون فتنة، غير أن أبا بكر وعمر تفطنا للحيلة وتثاقلوا في الخروج.

---

[53]وفي رواية أن محمد تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة بعد غزوة تبوك.

*يستدل الشيعة بحديث غدير خم المشهور كدليل على أن محمد اختار علي ابن أبي طالب للخلافة، ولكن حديث رزية يوم الخميس أكثر مصداقية لأنه ورد في المصادر السنية والشيعية.

عندما عرفهم أنهم لن يخرجوا وكانوا حاضرين معه في بيت عائشة، تزايدت خلالها في جسمه الحمى واشتد عليه دبيب الوهن حينها قال: هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا. وفي رواية أخرى: ائتوني بدواة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا. فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع* وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتابا لن تضلوا بعده، فلما كثر اللغو والإختلاف عند النبي، قال لهم النبي قوموا. فكان ابن العباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. **لتطوي راحة الزمن رجلا يعتبر بلا جدال من عظماء التاريخ، قام بأهم ثورات العصر الوسيط ومصلح من الطراز الأول، محمد ابن عبد الله الهاشمي القرشي، ضحى يوم الإثنين 13 ربيع الأول في الثامن من حزيران سنة 632 ميلادية (12 هجري).****

*وفي رواية أخرى قال عمر: إن النبي يهجر. وهو اتهام خطير كما جاء على لسان بعض أصحاب السنن، فلطفوا الكلمة لما فيها من فظاعة.

**هناك وثيقة سريانية بعنوان "عقيدة جاكوبي" كشفت أن محمد توفي سنة 634 أو 635 م عاش بما يكفي ليقود بنفسه حملة إلى أرض فلسطين.

تجاوز المؤلف في ثنايا هذا الكتاب الخطوط الحمراء، تجرأ على المحظور، منتقدا بلا هوادة الرواية التقليدية السلفية لظهور الإسلام، واضعا تحت محك النظر الموروث الديني الذي لطالما قدَّم نفسه على أنه حقائق ثابتة متعالية عن منطق التاريخ. تعامل المؤلف مع ما يراه المؤمن ضربا من الثوابت انطلاقا من منظور تاريخاني، فالدين بمفاهيمه وأحكامه وتشريعاته هو انعكاس مباشر للبيئة التي نشأ وتطور فيها. قام المؤلف بتشخيص العقد النفسية التي يعاني منها المسلم عموما، فهو يعتقد أن الخطاب القرآني منعزل عن عجلة التاريخ، كاشفا أن السور القرآنية انتجت تحت وطأة الجدلية التاريخية، وبالتالي تسقط فكرة أن القرآن في اللوح المحفوظ. هناك أزمة نفسية أعمق عانى منها كُتَّاب السيرة والمؤرخون المسلمون ونقلوها إلى عامة المسلمين اليوم، تتمثل في اختلاق المعجزات للنبي محمد، والحال أن سيرته الحقيقة خالية من الخوارقيات والشعبذات، مبينا أنهم فعلوا ذلك عندما أصبح الإسلام امبراطورية واندمج فيه ممن ليسوا عربا لا يتقنون اللغة العربية، إذ لا يمكن أن نقول لهؤلاء أن معجزة نبي الإسلام هي القرآن، وعليه ظهرت الحاجة لاختلاق المعجزات، حيث برع فيها كتَّاب السيرة وضاعفوا من معاناة المسلم المتمثلة في تغييب كلي للعقل، فأصبح مكبلا لا يتجرأ على طرح السؤال والنقد. ناقش المؤلف ظاهرة الوحي محاولا تقديم قراءة مادية وعلمية من دون خوارقيات، أيضا استقرأ العوامل الاقتصادية والسياسية واللاهوتية التى أدت إلى ظهور الإسلام، هناك ظرفية تاريخية ساهمت في تشكل الدعوة الإسلامية، كما أن الإسلام ليس ظاهرة فريدة من نوعه، مستقلا عن التيارات الفكرية والمذهبية فضلا عن الاساطير والخرافات والهرطقات التي لقيت مرتعا خصبا في شبه الجزيرة العربية. كما نجد في الكتاب محاولة جريئة لإعادة ترتيب للسور ترتيبا تاريخيا، بداية من مكة إلى يثرب، وأن الترتيب الحالي، أي من الفاتحة إلى الناس هو ترتيب اجتهادي. لقد ساهم الترتيب المتعارف عليه في إضفاء الغموض على القرآن والإسلام بصفة عامة، إعادة ترتيب السور حسب تاريخية الدعوة الإسلامية سيرفع ذلك الغموض وسيصبح الإسلام مفهوما أكثر. خلاصة القول فإن هذا الكتاب يقدم مقاربة علمية وتاريخية للدين بعيدة عن المسلمات الإيمانية والثوابت التي ترعرع عليها المؤمن المسلم، ما قد يصيبه بصدمة كبيرة. بناء عليه، فإن الكتاب موجه لاصحاب الفكر الحر الذين يقرأون ليس من أجل اجترار القديم وإعادة رسكلته ومن ثم الغاء العقل، بل من أجل تقديم مقاربة حديثة للظاهرة الدينية منسجمة مع روح العصر وتحترم عقول الناس.

مهدي زريق أستاذ وكاتب تونسي باحث في تاريخ العلوم والأديان



صدر للمؤلف ؛

-التداعيات الفلسفية للفيزياء الحديثة (2020)

-الحرب الروسية الاكرانية (2023)

-فلسفة أرنست ماخ (2025)

-ترجم كتاب "طاو الفيزياء" لفريجوف كابرا الفيزيائي الأمريكي (2026)

-من دين الإيمان إلى دين التاريخ (2026)